الدكتور إحسان النص



الطبعة الثانية

دار الفكر

الدكتور إحسان النص



دار الفكر

الطبعة الثانية
١٩٧٣

المقدّمة

إن من ينظر في تاريخ أمتنا العربية منذ فجر حياتها في العصر الجاهلي ، يوم كانت تعيش في جزيرتها قبائل لا تنتظمها وحدة سياسية ولا تؤلّف بينها عقيدة دينية ، ثم يساير ركب التاريخ ويطلّ على هذه الأمة بعد ان طرحت اربابها التي كانت تعبدها من دون الله وفاءت الى عقيدة التوحيد ، وبعد ان خضعت شتى قبائلها لراية الدولة الاسلامية العربية ؛ ويمضي بعدُ مُصعداً معها وقد توالت عليها الأحداث وتوزّعتها الاهواء السياسية والشيع الدينية في عصر بني أمية ، ثم يقف بعد هذا كله موقف المؤرّخ المحقق الذي ينقّب عما يتوارى وراء احداث التاريخ من الدوافع الخفيّة ، ليدهش حين يقف على ما كان للعصبية القبلية من آثار قوية بعيدة المدى في حياة الأمة العربية إبان تلك الحقبة من تاريخها . وهذه الآثار لم تكن وقفاً على الحياة السياسية وحدها ، وانما جاوزتها الى الحياة الاجتماعية والفكرية والأدبية .

فقد احتكم هذا العامل في شتى مناحي الحياة آنذاك ، فكان له يد في إثارة كثير من الفتن وفي اضطراب الاحوال السياسية ، كما كان له أثره في اختلال بناء المجتمع العربي وتقطيع الوشائج التي كانت تربط بين أبناء البلد الواحد وإثارة الخصومات والوقائع الدامية بينهم . وكانت هذه الخصومات القبليّة تخلّف في نفوس القوم حزازات دائمة يتوارثها الابناء عن الآباء وتحتكم في مشاعرهم ومسلكهم وتفكيرهم ، ومن جرّائها وجدت شرعة الثأر التي كانت تقضّ مضاجع القوم وتنغّص عليهم حياتهم ، وهي آفة اجتماعية مازلنا نعاني حتى اليوم من بلائها وعواقبها المشؤومة في كثير من أرجاء الوطن العربي .

وكان من الطبيعي بعد ذلك أن تترك هذه النزعة القبلية آثارها في الحياة الأدبية وفي الشعر العربي خاصة . فالأدب انما هو صورة الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية للأمة وانعكاس لها . وقد عرف الشعراء آنذاك بغلوّهم في عصبيَّتهم لعشائرهم واستجابتهم للنزعة القبلية ، فلا غرو ان تتجاوب في شعرهم اصداء هذه النزعة قوية مدوية وان يسم الطابع القبلي بميسمه جُلّ فنون الشعر التي عالجوها .

وقد كان للعصبية في عصر بني أمية خاصة شأن لم يكن لها مثله في أي عصر آخر ، وتركت من الآثار في شتى مناحي الحياة مالا نجد له نظيراً في سائر العصور ، فقد لعبت دوراً بارزاً على مسرح الاحداث السياسية واتَّصلت من جرائها الفتن القبلية في شتى البلاد التي أظلَها الحكم الأموي ، ولاسيما في الشام والعراق وخراسان ، وتصدّع بسببها كيان الدولة الاموية ووهنت قواها ، حتى اذا بلغ منها الضعف كل مبلغ آخر الأمر ومزقتها الفتن القبلية شرّ ممزّق ، وجد خصومها العباسيون الفرصة سانحة للثورة بها ، ولم يلقوا كبير عناء في تقويض صرح الدولة الأموية المتداعية الأركان وإقامة دعائم دولتهم العباسية على أنقاضها .

وقد انعكس أثر هذه الاحداث في أدب العصر الاموي ، شعراً ونثراً ، وكان للشعراء الأمويين مشاركة قوية جادة في الفتن القبلية التي تمخض عنها ذلك العصر ، كما كان شعرهم صدى أميناً لمشاعرهم وسجلاً للأحداث التي شهدها عصرهم .

والباحثون الذين تصدّوا لدراسة الشعر العربي في عصر بني أمية أشار جلّهم الى أثر العصبية في الشعر الاموي ، ولا سيما في فن النقائض الذي بلغ غايته من النضج في ذلك العصر ، ولكنهم لم يقفوا عند العصبية وقفة مستأنية ، ولم يفردوا لهذا العامل الخطير دراسة مستقلة تستجلي مظاهره في شتى مناحي الحياة وتتقصى آثاره في الحياة الأدبية خاصة . وإزاء هذا كله رأيت ان أوجه همي الى دراسة ظاهرة العصبية في عصر بني أمية ،

وأتقصى مظاهرها والآثار الناجمة عنها عصرئذ ، ثم أقف وقفة مستأنية عند أثر هذه الظاهرة في الشعر الأموي وأدرس أغراض الشعر التي استجابت للنزعة القبلية فوسمتها بميسمها ، وأتتبع ما يتجلى فيها من خصائص فنية. ومن شأن هذه الدراسة ان تفسر جانباً من الظواهر الأدبية التي تجلت في اتجاهات الشعر وافكاره عصرئذ ، كما تلقي ضوءاً على العوامل الخفية التي تستتر وراء الأحداث والظواهر .

وانا لا أذهب مع ذلك الى حد الادعاء أن العصبية كانت هي المؤثر الوحيد الذي يفسّر شتى الأحداث والفتن التي شهدها عصر بني أمية والظواهر الأدبية التي تجلت في الشعر الاموي ، وانما كانت مؤثراً قوياً ترك ميسمه الواضح في حياة الامة العربية عصرئذ وفي أدبها الى جانب مؤثرات أخرى لايمكن تجاهلها وفي طليعتها العقيدة الدينية والأحزاب السياسية ، وقد خضعت حياة العرب عصرئذ لهذه المؤثرات كلها وتأثر أدبهم بها جميعاً ، على تفاوت هذه المؤثرات في حظ كل منها من شدة التأثير وسعة المجال وفي مدى استجابة الشعراء لكل منها وتأثر شعرهم به .

والى هذه الدوافع التي ذكرت ، كان ثمة دافع آخر حفزني على اختيار هذا الموضوع هو الدافع القومي، فإن دراسة هذه الظاهرة تاريخياً واجتماعياً من شأنها أن تبصرنا بعواقب هذه الآفة وآثارها الخطيرة في حياة الأمة وفي تصديع وحدتها وتوهين قواها ، وقد حال استفحال العصبيات في عصر بني أمية دون نمو الشعور القومي الشامل الذي يسمو على الشعور العصبي الجزئي ويؤلف بين أبناء الأمة الواحدة .

* * *

وقد رأيت ، قبل التصدي لدراسة العصبية القبلية في عصر بني أمية وأثرها في الشعر ، ان أمهد لهذه الدراسة بوقفة قصيرة أقفها عند الانساب العربية وهي اللبنة الأولى في العصبيات ــ فأتحدث بإيجاز عن أصولها واقسامها وأعرض آراء الباحثين القدماء والمحدثين فيها

ثم اتحدث عن الجذمين الكبيرين اللذين انقسم اليهما العرب وهما العدنانيون والقحطانيون ، وعن القبائل التي يشتمل عليها كل منهما . وحين لاحظت ما بين كتب الانساب العربية من وجوه الخلاف والتباين وافتقارها الى جداول مفصلة لانساب القبائل العربية وجهت همي الى سدّ هذه الثلمة ، فرجعت الى شتى كتب الانساب واستخلصت منها جداول تفصل أنساب القبائل العربية والبطون المشهورة التي تتفرع عنها . ولست أودّ التحدث عما لاقيته من العناء في سبيل وضع هذه الجداول ، فذلك أمر يعرفه كل من رجع الى كتب الانساب العربية وعاين ما فيها من اضطراب ونقص ووجوه الخلاف في أنساب طائفة كبيرة من القبائل العربية .

ثم وقفت بعد ذلك عند المجتمع القبلي ، ودرست احواله والأسس التي يقوم عليها والقبيلةَ وطبقاتها ، وعُنيت عناية خاصة بدراسة ظاهرة العصبية القبلية في صورتها العامة ، فحلّلت بواعثها الاجتماعية والنفسية وتحدّثت عن الواجبات الناجمة عنها والنتائج التي تؤدي اليها ، وعن مظاهر العصبية وآثارها المختلفة ولا سيما شرعة الثأر وما يتصل بها من عادات وأعراف .

ولم اشأ أن أخوض في دراسة العصبية ومظاهرها في عصر بني أمية وأثرها في الشعر الأموي الا بعد ان أعرض ، في إيجاز ، لأحوال المجتمع الجاهلي وأثر العصبية القبلية فيه وفي الشعر الجاهلي ، ثم أبيّن موقف الاسلام من هذه العصبية وما طرأ على دلالتها من تحوّل في ظل الراية الاسلامية ، وأشير الى بوادر احتدام العصبيات ثانيةً منذ أواخر العصر الاسلامي .

أما البحث نفسه فقد جعلته بابين وقفت أولهما على دراسة العصبية القبلية في عصر بني أمية دراسة تاريخية تتناول مواطن التجمع القبلي في ذلك العصر ودواعي اشتداد العصبية القبلية فيه ، وحدود العصبية القبلية عصرئذ ومظاهرها المختلفة ، كالتماسك القبلي ، وعقد الاحلاف القبلية ، وعودة الروح الجاهلية ، وتأصل الاحقاد القبلية وعنيت عناية خاصة بتتبع ضروب الصراع التي دارت بين العناصر القبلية ، سواء أكان صراعاً حربياً أم لسانياً أم تاريخياً .

ووقفت الباب الثاني على بيان أثر العصبية في شعراء العصر الاموي وفي أشعارهم ، فأوضحت موقف الشعراء من العصبيات ، وما كان لهم من يد في المنافحة عن قبائلهم ، وإثارتهم الفتن بأشعارهم ، وتحدثت عن صلةالشاعر بعشيرته وما كان يقوم بينهما من تعاون وتناصر ، وعنيت بإبراز موقف الشعراء من العصبيات الكبرى ، أي صلة الرحم التي كانت تربط الشاعر بالجذم الذي ينتمي اليه ولا تقف عند حدود العشيرة والرهط ، كما عنيت ببيان موقف الشعراء الذين احترفوا المديح من العصبيات وكذلك موقف شعراء الفرق الدينية والأحزاب السياسية منها .

ثم عقدت فصلاً مستقلا لكل من فنون الشعر المتصلة بالعصبيات وبدأت أولا بدراسة المناقضات القبلية لاشتمالها على جل فنون الشعر القبلي من هجاء ومديح وفخر ورثاء، ودرست المناقضات التي دارت في نطاق العصبيات الكبرى أولا ، وهي المناقضات بين نزار واليمن ، وبين ربيعة ومضر ، ثم المناقضات في نطاق العصبيات الصغرى ، أي التي دارت بين شعراء ينتمون الى قبيلة واحدة ، وأبرز أمثلتها نقائض جرير والفرزدق . وانتقلت بعد ذلك الى دراسة فنون الشعر القبلي وأبرز خصائصها الفنية ، وهي الهجاء والفخر والرثاء والمديح ، ولم أدرس هذه الاغراض الا في إطارها القبلي . ثم عرضت لسائر اغراض الشعر القبلي كالدفاع عن حقوق القبيلة ووصف الوقائع القبلية ، وبذلك استوفيت القول في العصبية ، سواء من الناحية التاريخية او الناحية الأدبية .

وأرجو بعدُ أن يضيف بحثي هذا طائفة من الحقائق الأدبية والتاريخية الى تراثنا الثقافي ينتفع بها الباحثون في دراسة أدب أمتنا العربية وتاريخها .

احسان النص



الباب الأول

جذور العصبيّة القبليّة ومقوّماتها



الفصل الأوّل

الأنساب العربيّة

١

عناية الأمة العربية بانسابها

لانكاد نعرف امة من الأمم عنيت بأنسابها عناية الأمة العربية بها ، ولا نعرف امةً عاش ماضيها في حاضرها ، وكان له الأثر الفعّال في توجيه حياتها الاجتماعية والسياسية والادبية ، كالأمة العربية . آية ذلك كثرة ما تحصيه كتب المراجـع من المؤلفـات التي تناولت أنسـاب العرب وترجمت لمشاهير علماء النسب (١) .

بل ان عناية العرب بالانسـاب لم تكن وقفاً على انساب الناس وقبائلهم ، وانما جاوزت ذلك الى جنس الحيوان ، فشملت انساب الخيل وسلالاتها ، وصنفت في هذا الموضوع الكثير من الكتب (٢) .

وحين ندرس ظاهرة العصبية القبلية ونتقصى مظاهرها ، سنرى ان العناية بالأنسـاب هي في ذاتها من ابرز مظاهر هذه العصبية ، ولو لم يلمس

---

١ ــ انظر مثلا كتاب الفهرست لابن النديم ص ١٣١ وما بعدها ، ومعجم الادباء لياقوت الحموي في تراجم النسابين .

٢ ــ من ذلك كتاب انساب الخيل لابن الكلبي وهو مطبوع (بدار الكتب المصرية). وانظر ايضا الفهرست ص ٤١ و ٨٢ .

النسّابون شدّةَ تعلّق قبائل العرب بأنسابها واعتزازها بأسلافها ومفاخرتها بأجدادها لما وجهوا همَّهم الى علم النسب ولما عنوا به هذه العناية المسرفة .

وبفضل هؤلاء النسابين وجد ما عرف بعلم النسب ، وهو يتناول الحديث عن انساب العرب منذ انحدروا من صلب ابي الخلائق آدم ، ويفصّل قبائلهم وعشائرهم ، ويوضح أواصر القربى التي تربط بين القبائل التي تمتّ الى أصل واحد وتؤول الى أب مشترك ، ويتحدث عما وقع بين مختلف القبائل من مصاهرات أو انفصال عشيرة عن أصلها والتحاقها بقبيلة أخرى . كما يحدثنا هذا العلم عن أسماء القبائل والأحلاف القبلية ومآخذها وتفسيرها ، ويضع لكل قبيلة جدولاً للأنساب لا يزال يرتقي بها صعُداً حتى يصلها بجدّها الاعلى ، بحيث كان في وسع أي عربي صريح يعيش في الحِقبة الاولى من عصور الخلفاء أن يعرف اسماء معظم اجداده الغابرين .

وعلى الرغم من ان أجلّ كتب الانساب شأناً ، والذي استمد منه جميع الباحثين في الانساب ما زال مخطوطاً لم يطبع بعدُ ، وهو كتاب جمهرة الأنساب لهشام بن محمد بن السائب الكلبي ، بوسعنا أن نقف على صورة مفصلة للانساب العربية اعتماداً على كتب الانساب الأخرى التي انتهت الينا، وعلى كتب التاريخ واللغة التي تعرّضت لهذه الانساب .

وعلى رغم الخلاف الكثير الذي نجده في كتب الانساب حول أصول طائفة من القبائل وأنسابها،وهو خلاف أوجدته عوامل شتى سنعرض لها بالتفصيل فيما بعد ، ثمة ركائز مشتركة تقوم عليها نظرية الأنساب العربية ، وخطوط بارزة تحدد معالمها ، وسنلم إلمامة عاجلة بنظرية الانساب هذه لنعرض بعدئذ للنقد الذي وجه اليها ، سواء من القدامى أو المحدثين . ونحن لن نتحدث هنا الا عن الانســـاب العربيـــة وسنُغفل ما تعرض له نسّابو العرب من انساب الأمم الأخرى .



٢

نظـرية العرب في الأنساب والدعائم التي قامت عليها

١ ــ أول الأمور التي تكاد تتفق فيها أقوال النّسابين العرب هو ان العرب كلهم ينحدرون مـن نسل سام بن نوح(١) ، ثم تختلف أقوالهم بعـد ذلك ، وأكثرهم يجعل العرب البائدة فريقين : فريقاً ينتمي الى إرم بن سام ، وفريقاً الى لاوذ بن سام . أما العرب الباقية فهم جميعاً من سلالة أرفخشذ بن سام (٢) .

٢ ــ ومن الدعائم التي تقوم عليها نظرية العـرب في الأنساب انقسام العرب الى ثلاثة أقسام : عاربة ، ومتعرّبة ، ومستعربة (٣) .

فالعرب العاربة هم الطبقة الأولى من العرب التي بادت وانقرضت، ومنها قبائل عاد وثَمود وطَسْم وجَديس وعِمليق وجُرهم . والعرب المتعرّبة هم أبناء قحطان الذين نطقوا بلسان العرب العاربة وسكنوا ديارهم (٤) . والعرب المستعربة هم أبناء إسماعيل بن إبراهيم الذين عرفوا بالعدنانيين ، فقد أصهر إسماعيل الى قبيلة جرهم التي كانت تنزل مكة وتعلّم لغتها العربية ونسي لغـة أبيه ، فسمي أبناؤه لذلك مستعربة(٥) .

٣ ــ ومن هذا يتبين أن جميع القبائل العربية التي لم تمتد اليها يد الفناء ترجع الى جذمين كبيرين : جذم قحطان أو عرب الجنوب ، وجذم عـدنان أو عرب الشمال .

---

١ ــ سيرة ابن هشام ٤/١ . المعارف لابن قتيبة ص ١٣ . القصد والأمم لابن عبد البر ١٠ تـاريخ ابن خـلدون ٩/١ .

٢ ــ تاريخ الطبري ١٣٩/١ وما بعدها . تاريخ ابن خـلدون ٢٨/١ .

٣ ــ نهـاية الارب للنويري ٢٩٢/٢ . وبين مؤرخي العرب خلاف في تقسيمهم العرب الى طبقات ، وهي عند ابن خلدون أربع طبقات (١ / ٢٥) وقد اطلق القدماء على العرب العاربة اسم العرب البائدة أيضاً لانقراضها (تاريخ ابن خلدون ٢٨/١) .

٤ ــ نهـاية الارب للنوير ي ٢٩٢/٢ .

٥ ــ طبقات الشعراء لابن سلام ٩ . تاريخ ابن خلدون ٥٥/١ .

وكل من هــذين الاصلين ينقسم الى قبائل وعشائر وبطون وأفخاذ . والاختلاف بين علمــاء النسب شديد في تعيين القبائل المتفرعة مــن هذين الجذمين ، وسنعود فيما بعد الى نقط الخلاف هذه .

٤ ـ والذي يعنينا في هذه الأنساب اننا نلاحظ فيها ظاهرتين : أولاهما ان جداول الأنساب التي وضعها النسابون العرب هي جداول متصلة مستوفاة لا انقطاع فيها ولا نقص ، فهي تمضي من نقطة البدء : عدنان أو قحطان ، ثم لا تزال تنمو في الاتجاهين الأفقي والعمودي ، ملمّة بكل قبيلة وبالفروع التي تنبثق عنها ، وبالسلالات المنحدرة من كل فرع . بل انك اذا شئت أن تضع بين يديك مخططاً كاملاً للأنساب العربية منذ عهــد أبينا آدم أسعفتك كتب الأنساب والتاريخ العربية بما يحقق طِلْبتك، ولم تضنّ عليك بأسماء أسلافك الذين انحدرت من أصلابهم منذ برأ الله الخليقة وبثّ الحياة في الصلصال والحَمأ المسنون (١) .

والظاهرة الثانية ان الأنساب العربية تقوم على رابطة الأبوة ، أي ان لكل قبيلة أباً تنحدر منه ثم يتوالى أبناؤه وأحفاده الذكور بعده وبهم يقوم عمود النسب في هذه القبيلة . وقد تكون هذه القبيلة نواة لقبائل أخرى تتفرع عنها وتتوالد بدورها منقسمة الى عشائر وبطون وكل ذلك يتمّ من طريق الأبناء الذكور المنحدرين من الجد الأول مؤسس القبيلة .

وهكذا استقر تعريف القبيلة عند علماء اللغة والنسب على أنها الجماعة المنتمية الى أب واحد (٢) ، ولا يشذّ عن هــذا الاصل الا طائفة من القبائل لا ترجع الى أب واحــد لأنّ تكوّنها يخضع لعوامل أخرى ، كقبائل تَنُوخ وغَسّان والعِبــاد .

---

١ ـ انظر مثلا تاريخ الطبري ٦٠/١ ومابعدها ، والكامل لابن الاثير ٣٠/١ وما بعدها . ونهــاية الارب للنويري ٢٨٦/٢ .

٢ ـ القاموس المحيط مادة « قبل » . جمهرة ابن حزم ص ٤٣١ . نهاية الارب في أنساب العــرب للقلقشندي ص ٢٠ .

٥ ـ والى ذلك نجد النسّابين يحدّثوننا عن مصاهرات حدثت بين مختلف قبائل العرب منذ أقدم العصور وكان من شأنها أن عقدت وشائج القربى بين كثير من القبائل والبطون من جهة الأمّ ، وكان من شأنها أيضاً أن توازت نقاط البدء في تاريخ طائفة من القبائل العربية . فأمّ خارجة مثلاً التي ضرب المثل بسرعة زواجها نجدها قد خلف عليها عدد ضخم من الرجال ينسب إليهم عدد من قبائل العرب وبطونها متباعدة في أنسابها ومواطنها (١) . ونحو ذلك يلاحظ في خبر بنات مرّ بن أد فقد ولدن عدداً كبيراً من قبائل العرب وبطونها (٢) .

فالنسّابون العرب لم يقنعهم أن يضعوا بين أيدينا جداول كاملة لأنساب العرب المنحدرة من أصلاب الآباء، فأضافوا إليها أخباراً توضّح صلات القرابة التي تربط بين طائفة من القبائل تنتمي الى أم واحدة .

٦ ـ ووفقاً لنظرية نسّابي العرب في انتماء القبيلة الى اب واحد ، من الطبيعي أن يكون اسم القبيلة مأخوذاً من اسم الأب الذي تنتمي اليه ، فتميم وكلب والأوس والخزرج وقيس ونحوها من أسماء القبائل إنما هي أسماء الآباء الذين تحدّرت منهم هذه القبائل . وهذا هو الغالب في أسماء القبائل العربية (٣) . وفي بعض الأحوال الأخرى كانت القبيلة تسمى باسم الأم كبَجيلة (٤) ، أو بلقبها كخِندف (٥) . وربّما نسبت القبيلة الى الحاضنة ، كقبيلة باهلة مثلاً ، فيذكرون أن باهلة امرأة كانت حضنت أبناء معن بن أعصُر فنسبوا إليها (٦) ، ومثلها عَكْل(٧) . وفي أحوال نادرة كان اسم القبيلة

---

١ ـ جمهرة ابن حزم ص ٣٦٧ .
٢ ـ جمهرة ابن حزم ص ١٩٦ .
٣ ـ جمهرة ابن حزم ص ٤٣١ .
٤ ـ نهاية الارب للقلقشندي ص ٢٠ . الاشتقاق لابن دريد ٥١٥/٢ .
٥ ـ الاشتقاق ص ٤٢/١ .
٦ ـ الاشتقاق ٢٧١/٢ .
٧ ـ الانباه على قبائل الرواة لابن عبد البر ص ٦١ . جمهرة ابن حزم ص ١٨٧ .

يؤخـذ من مناسبات خاصة كالذي ذكروه في تسمية قبائل تنوخ وغسان مثـلاً (١) .

ونسّابو العرب مولعون بالتعليل ، فهم لا يكتفون بإيراد أسماء القبائل والأشخاص ، وانما يحاولون تعليلها أيضاً وبيان اشتقاقها ، من ذلك قولهم ان ليلى بنت حلوان إنما لقبت بخندف لأن زوجها رآها تخندف – أي تسرع – فأطلق عليها هذا اللقب(٢) . ولقّب عمرو بن عامر مزيقياء ، لأنه كان يمزّق عنه كل يوم حلّة فلا يلبسها أحد بعده (٣) .

أما ما بعد عدنان وقحطان من الأسماء فهم يخرجونها من نطاق لغـة العرب ، ولا يحاولون البحث عن اشتقاقها لأنها عندهم أسماء سريانية (٤) .

٧ – ونسّابو العرب يحدثوننا عن ظاهرة لم تكن نادرة الحدوث في حياة قبائل العرب ، تلك هي ظاهرة التحاق قبيلة بأخرى واندماجها فيها لأسباب ودواعٍ شتّى . وهي حينئذ تقطع صلتها بنسبها الأول وتلحق بنسب القبيلة التي اندمجت بها وتغدو بمثابة بطن من بطونها . وفي كتب النسب أمثلة كثيرة لهذه الظاهرة التي كان من شأنها اختلاط أنساب طائفة من القبائل واضطراب موقف النسّابين منها (٥) .

٨ – ومما يتصل بالأنساب حديث المؤرّخين العرب عن هجرة طائفة من القبائل العربية من موطنها الأول الى مواطن أخرى . من ذلك هجرة قبائل

---

١ – سميت قبائل تنوخ بهذا الاسم لانها تحالفت على التنوخ أي الاقامة ، وقبيلة غسان سميت بذلك لشربها من ماء بهذا الاسم (انظر لسان العرب مادة «تنخ» وجمهرة ابن حزم ص ٤٢١).

٢ – الاشتقاق ١/٤٢

٣ – الاشتقاق ٢/٤٣٥ .

٤ – الاشتقاق ١/٤٣ .

٥ – انظر مثلا : الاشتقاق لابن دريد ٢/٣٢٠ وجمهرة ابن حزم ص ٢٧٨ ، ٢٨٣ ، ٢٩٦ .

الأزد من مواطنها في اليمن الى شرقيّ بلاد العرب وشمالها (١) . والهجرة من الجنوب الى الشمال هي الغالبة، وفي بعض الأحوال النادرة كانت بعض القبائل الشمالية تنزح الى جنوبيّ بلاد العرب أو مناطقها الوسطى ، كقبيلة عك التي زعموا أنها في الأصل عدنانية ثم نزلت بلاد اليمن مجاورة للأشعرين ومن هنا نسبها بعضهم الى قحطان (٢) . وقد عقد البكري في معجمه فصلاً مطوّلاً لافتراق أولاد معدّ ونزوحهم من منازلهم الأولى في تهامة (٣) . وهذه الهجرات تفسر في نظر المؤرخين العرب تجاور القبائل العدنانية والقحطانية في شمالي بلاد العرب .

* * *

٣

نقد نظرية العرب في الأنساب

موقف القدماء من الأنساب العربية

نظر كثير من المؤرخين والباحثين القدماء بعين الشك الى بعض ما رواه النسابون العرب الأوائل من أنساب القبائل العربية ، ولا سيما ما جاوز منها عدنان وقحطان . وأيّدوا شكوكهم بأحاديث عن الرسول عليه السلام وأقوال لطائفة من أئمة المسلمين . من ذلك ما نقلوه عن ابن عباس ان الرسول كان يقول اذا بلغ نسبه الى عدنان أو أدد : « من ها هنا كذب النسابون (٤) » .

١ ــ سيرة ابن هشام ١٣/١ . الكامل لابن الأثير ٢٦٧/١ . تاريخ ابن خلدون ١٠١/٢ .
٢ ــ سيرة ابن هشام ٧/١ .
٣ ــ معجم ما استعجم للبكري ١٧/١ وما بعدها .
٤ ــ تاريخ ابن خلدون ٣/١ . والحديث أخرجه ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس . وانظر أيضاً أنساب الاشراف ١٢/١ .

وقالوا ان الامام مالكاً سئل عن الرجل يرفع نسبه الى آدم فكره ذلك وقال : من أين يعلم ذلك؟ فقيل له : فإلى اسماعيل، فأنكر ذلك أيضاً وقال : من يخبره به ؟ ويقول ابن خلدون إنّ كثيراً من علماء السلف ذهبوا هذا المذهب (١) .

وممن شكّ في هذه الأنساب أيضاً الراوية المحقق محمد بن سلاّم وعنده ان « ما فوق عدنان أسماء لم تؤخذ الا عن الكتب ، والله أعلم بها ، لم يذكرها عربيّ قط (٢) » . حتى أولئك الذين ألّفوا في الأنساب كان منهم من شكّ في أنساب العرب القديمة ، فيذهب ابن حزم الى انه « ليس على ظهر الأرض أحد يصل نسبه بصلة قاطعة ونقل ثابت الى إسماعيل أو الى إسحاق، عليهما السلام ... فكيف الى نوح ، فكيف الى آدم ؟ » وهو يقرر ان عدنان من ولد إسماعيل بلا شك ، إلا ان تسمية الآباء بينه وبين إسماعيل قد جُهل جملة ، وان قوماً قد تكلموا في ذلك بما لا يصح (٣) .

وقد تعرض كثير من النسابين العرب الأوائل الذين قامت على أيديهم مباحث الأنساب العربية للطعن والتجريح من جانب القدماء ، ومن هؤلاء محمد بن اسحاق صاحب السيرة ، فقد اتّهم بوضع الأشعار والأخبار والخطأ في الأنساب(٤). ومنهم ابن الكلبي أشهر علماء النسب فقد كان متّهماً بافتعال الأخبار والأنساب ، وأبو الفرج يتّهمه بالوضع والافتعال في أكثر من موضع في كتاب الأغاني . وتتردد في كتابه هذا عبارة « أكاذيب ابن الكلبي »(٥). وممن اتهم بالكذب والوضع الراوية النسّابة الشرقي بن القطامي ، وقد ساق ابن النديم بعض ما يدل على كذبه (٦) .

---

١ ــ ابن خلدون ٣/١ .
٢ ــ انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ١١ .
٣ ــ انظر جمهرة الانساب لابن حزم ص ٦ وما بعدها .
٤ ــ فهرست ابن النديم ص ١٣٦ .
٥ ــ انظر مثلا الاغاني ٤٠/٩ و ٣٤/١٢ .
٦ ــ فهرست ابن النديم ص ١٣٢ .

على أن مطاعن القدماء في الانساب العربية لا تهـدم البناء الذي شاده النسابون العرب وانما تقفنا على بعض الجوانب الواهية فيه دون أن تمس دعائمه التي تقوم عليه، وأكثرها منصب على ماجاوز عدنان وقحطان من أنساب العرب . والباحثون المحدثون هم الذين وجهوا ضرباتهم العنيفة الى دعائم هذا البناء حتى أوشك أن يتقوّض وينهار .

موقف الباحثين المحدثين من الأنساب العربية

أول من أثار الشك في جداول الأنساب العربية التي خلّفها الكلبي وابنه وغيرهما من نسّابي العرب المستشرق نولدكه ، وهو الذي وجّه إصبع الاتهام الى نسّابي اليمن خاصة في وضع هذه الأنساب وتلفيقها وإبرازها في صورة الحقائق التاريخية الثابتة منذ القدم ، وهو لذلك يوجه دعوة صريحة الى عـدم الأخذ بأقوال هؤلاء النسابين فيقول : « قد حان للعلماء أن يلقوا وراء ظهورهم تلك الآراء الصبيانية التي تحاول أن تقنعنا ان كتب الأنساب العربية التي لفّقها محمد الكلبي وابنه هشام وغيرهما ليبيّنوا صلة القرابة بين الأسر العربية المعاصرة لهم والقبائل القديمة ، خالية من كل تلفيق وتزوير . أمن المعقول يا ترى أن ننسب جميع قبائل بني قيس النازلة في أواسط بلاد العرب الى شخص واحـد هو قيس المتوفى ، كما يزعمون ، قبل ظهور المسيح بمدة قليـلة ؟ ! والذي عندي ان لا أحـد من الشعوب والقبائل العظيمة يعرف حقيقة الشخص الذي ينسب اليه (١) .

وقد لخص جولد تسيهر في الجزء الأول من كتابه «دراسات اسلامية» آراء نولدكه ووافقه عليها وأظهر مدى تأثر النسابين العرب بأنساب التوراة (٢) .

---

١ ـ الأمومة عند العرب ، ولكن ، ترجمة بندلي جوزي ص ٤ .

٢ ـ Ignaz Goldziher : Muhammedanische Studien V. 1/1 - 146

وقد لخص الدكتور جواد علي أكثر آراء جولد تسيهر في الجزء الاول من كتابه : تاريخ العرب قبـل الاسلام ص ٢٢٠ وما بعدها .

وممن جارى نولدكه في شكه في مباحث الأنساب العربية روبرتسن سميث ، وقد جعل المنازعات السياسية في عصر بني امية من آبرز الدوافع لوضع الأنساب العربية ، وكذلك تجاور القبائل في الأمصار الجديدة والنزاع القبلي الحادّ بين قبائل عدنان وقحطان في ذلك العصر(١) . الا انه لا ينكر أنّ النسابين الأوائل قد أخذوا من طريق الروايات الشفوية والوثائق طائفةً كبيرة من الاخبار الثابتة تتصل بالانساب القديمة وتفرعات القبائل ، الا ان هذه المواد لم تكن كافية للقيام بمهمتهم اذ كان يغلب عليها طابع التجزئة وهي ناقصة غير مستوفاة . ولكي يصنعوا سلسلة كاملة من هذه المواد كان لا مفرّ لهم من الرجوع الى الظن والتخمين وافتراض رابطة نسبية تجمع أنواع القرابات بين العرب كافة ، وكانوا مضطرين الى تنسيق هذه الأنساب وفق الاتجاهات السياسية في عصرهم ، وكي تكون سلاسل نسبهم الى الجد المشترك متساوية في الطول اضطروا الى إقحام اسماء اجداد مختلقة وهمية (٢) .

ومن المتشدّدين في حملتهم على الأنساب العربية المستشرق مر جليوث ، قد حدد موقفه السلبي من هذه الأنساب بصراحة في مقدمة كتابه « محمد وظهور الإسلام (٣) » .

وممّن جنح الى رأي نولدكه أيضاً المستشرق دللافيدا في حديثه عن أصل نزار في دائرة المعارف الاسلامية ، وهو يشك أن يكون لقبيلة نزار وجود حقيقي تاريخي وانما هو اختراع خيالي اختلق لأهواء سياسية (٤) . وأعلن شكه الصريح في هذه الانساب مرة أخرى في فصل عقده للحديث عن بلاد العرب قبل الاسلام (٥) .

---

١ ـ Robertson Smith : Kinship and marriage in early Arabia P. 6

٢ ـ Smith P. 9

٣ ـ Margoliouth : Mohammed and the Rise of Islam

٤ ـ مادة نزار في : Encyclopédie de l'Islam T. 3 p. 1004

٥ ـ L. Della Vida : Pre-Islamic Arabia, in the Arab Heritage P. 50

والى نحو هذا ذهب أيضاً نيكلسون في مقدمة كتابه عن تاريخ الأدب العربي فعنده أن الباحثين الإسلاميين لم يجدوا بين أيديهم أخباراً متصلة موثوقة عن أنساب العرب وأنهم في ترتيب جداول النسب قد تأثروا بالقرآن الكريم والتوراة . وهو يرى أن القول بانحدار كل قبيلة من جد واحد تنتسب اليه يناقض الحقائق التي قررتها الأبحاث الحديثة (١) .

وذهب المستشرق بلاشير الى أن الضرورات الإدارية والأحداث السياسية وهيبة السلطان منذ خلافة عمر بن الخطاب وفي عصر بني أمية قد اقتضت تنظيم العلائق بين القبائل العربية ، فوجدت حينئذ مهارة النسابين مجالاً واسعاً للابتكار واستطاعوا أن يصلوا بواسطة الجدود بين قبائل ليس بينها من الروابط سوى المجاورة كسليم وذبيان ، أو المنازعات الداخلية كعبس وذبيان(٢) . فبلاشير لا يقف عند حد إنكار أصول النسب الكبرى بل هو يجاوز ذلك فينكر صلات القربى القائمة بين البطون المنتمية الى قبيلة واحدة.

ووجه بعض المستشرقين عنايتهم الى موضوع انقسام العرب الى قحطانيين وعدنانيين ، وقامت طائفة من العلماء بدراسة جماجم كل من القبائل العربية الجنوبية والشمالية ، فلم يتوصلوا الى وجود فرق في التركيب الجسماني بين القحطانيين والعدنانيين(٣) . الا أن منهم من وافق العرب في هذا التقسيم وهو العالم دوزي ، بل انه قال بوجود فروق أساسية وخلافات جوهرية بينهما (٤) .

ووقفت طائفة أخرى موقف الشك من أخبار الهجرات العربية وما يتصل بها من انقسام العرب الى قحطانيين وعدنانيين. فذهب موسل Musil

---

١ ـ Nicholson : A Literary History of the Arabes p. XX

٢ ـ بلاشير : تاريخ الادب العربي ، ترجمة ابراهيم الكيلاني ١/٢٢ .

٣ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ، جواد علي ١/٢٢٢ .

٤ ـ المصدر السابق .

الى أن العرب الجنوبيين كانوا يسيطرون منذ أقدم العصور على الطرق التجارية في جزيرة العرب ، وكان لهم حاميات تحمي هذه الطرق من غارات الأعراب، فلما ضعف أمر الدويلات اليمنية استقلت هذه الحاميات واستقرت في مواطنها ، وكان كثير من أفرادها قد تزاوجوا مع القبائل التي نزلوا في جوارها ، ولما كان لليمن منزلة كبيرة عند العرب انتسب هؤلاء الى اليمن وعدوا أنفسهم مهاجرين يتصل نسبهم بنسب اليمانية . ومن هنا نشأت في رأيه أسطورة الأنساب التي سجلها النسابون على انها حقائق ثابتة (١) .

وكذلك أنكر هاليفي ما يقال من هجرة قبائل عربية من الجنوب الى الشمال ، وأنكر بالتالي ما يقال من نسبة هذه القبائل الشمالية الى اليمن . وقد علل هذا الباحث شكه بأن أسماء الأعلام في المناطق الشمالية في القرن السابع ليس فيها بقايا الأسماء الشائعة في جنوب بلاد العرب (٢) .

الا أن عدداً من الباحثين يخالف ما ذهب اليه موسل وهاليفي ، في مسألة هجرة القبائل الجنوبية الى الشمال . وكان أول القائلين بهذه الهجرات المستشرق كايتاني وقد عللها بالجفاف الذي طرأ على بلاد العرب وحوّل أكثر بقاعها الخصبة الى صحار قاحلة (٣) . ويرى بلاشير ان هذه الهجرة الناجمة عن جفاف الجوفين اليماني والحضرمي هي حقيقة لا مجال للشك فيها . وهو ينقض رأي هاليفي من وجوه كثيرة منها أن بعض الأعلام السورية تحمل طابعاً يمانياً، وأن هناك قبائل لها أسماء واحدة وقد نزلت في مواطن مختلفة ككندة التي نزل قسم منها في بلاد نجد والقسم الآخر في حضرموت، الخ(٤)...

وأشدّ ماتعرضت له نظرية الأنساب العربية من ألوان النقد هو ما تناول

---

١ - جواد علي ١٦٤/١ .
٢ - بلاشير : تاريخ الادب العربي ، ترجمة ابراهيم الكيلاني ص ٢٩ .
٣ - جواد علي ١٥٨/١ .
٤ - بلاشير : ص ٢٩ .

الأساس الذي تقوم عليه سلاسل النسب ، وهو رابطة الأبوّة ، أي انتماء كُل قبيلة الى أب مشترك ، وانقسام القبيلة ونموها من طريق الأبناء الذكور . فقد ظهرت في النصف الثاني من القرن الماضي مباحث غربية ألقت الضوء على بعض جوانب الحياة الاجتماعية لدى الامم البدائية ، ولا سيما الزواج عند هذه الأمم . وحين طبقت نتائج هذه الابحاث على حياة القبائل العربية في أطوارها الاولى ظهر التناقض سافراً بينها وبين مباحث العرب في الأنساب . اذ أنّ مباحث الغربيين أفضت بهم الى القول بنظرية الأمومة التي تفسر صلات النسب والقرابة بين أفراد القبيلة على نحو يخالف مخالفة تامة اتجاه النسابين العرب ، وهذا ما أثار أقوى الشكوك في صحة الأنساب العربية القديمة حتى لقد أصبحت في نظر طائفة منهم لا تعدو أن تكون أسطورة مختلقة وافتعالاً محضاً ، ولذلك رأينا أن نقف وقفة قصيرة عند مسألة الأمومة هذه والنتائج التي تمخضت عنها .

الأمومة ونتائجها

أول من تناول هذا الموضوع ولفت اليه أنظار الباحثين الغربيين العالم الجرماني باخوفن Bachofen الذي أثبت أن الزواج عند الأمم القديمة كان فوضوياً ، وان زواج المشاركة – أي اشتراك أكثر من رجل في امرأة واحدة – Hétérisme كان شائعاً لدى جميع الأمم القديمة . ولما كان من المتعذر في هذا الضرب من الزواج معرفة الأب ، كان النسب محصوراً في الأم . وانتهى هذا الباحث الى أن الأمومة كانت شائعة في جميع الأمم القديمة ، وكان للأم لهذا السبب منزلة رفيعة في الهيئة الاجتماعية (١) .

وقد تابع باخوفن في القول بالأمومة نفر من الباحثين الغربيين منهم مكلينان Mac Lennan الذي أرجع الأمومة الى ما سمّاه بالزواج الخارجي Exogamie . فقد لاحظ أن كثيراً من رجال القبائل يختطفون زوجاتهم من غير

---

١ – ولكن : الأمومة عند العرب ص ١١ من المقدمة .

قبيلتهم ، فاستنتج أن ذلك ناجم عن تأصّل عادة قديمة وهي تزوج رجال القبيلة من غير قبيلتهم ، وخيّل اليه أن هذه العادة وجدت بسبب وأد البنات الذي كان شائعاً عند بعض القبائل ، مما أدّى الى تناقص عدد النساء ومجامعة الجماعة امرأة واحدة ، وبهذا يفسّر مكلينان تعدّد الأزواج وظهور الأمومة ، وقد خلص الى أن جميع القبائل التي عرفت الزواج الخارجي شاع فيها تعدّد الأزواج والأمومة ، وهي لا تقرّ الا بالقرابة من طريق الأم (١) .

إلا أن مورغن الامريكي قد أثبت ألاّ تناقض بين الزواج الداخلي Endogamie والزواج الخارجي ، وأنهما كانا يجتمعان في القبيلة الواحدة ، وأن الزواج الداخلي لاينافي الأمومة. وهو يرى أن الزواج الجماعي Mariage de groupes كان شائعاً لدى جميع القبائل القديمة ، وهذه القبائل كانت تنقسم الى بطون وعشائر تجمعها قرابة الأم وحدها . على أنه لم يكن مباحاً لرجال البطن الواحد أن يتزوّجوا في بطنهم ومن هنا كان الزواج الخارجي ضرورياً في البطن لا في القبيلة المشتركة (٢) .

على أن هؤلاء الباحثين لم يعرضوا للأنساب العربية الا من خلال بحثهم في الأمومة ونظم الاجتماع عند الأمم القديمة عامة . ثم يأتي عالمان آخران فيوجهان عنايتهما الى دراسة المجتمع العربي القديم خاصة أولهما روبرتسن سميث الذي ألف في هذا الموضوع كتابه المسمى : « رابطة القربى والزواج في بلاد العرب القديمة (٣) » . وعلى هذا المصدر اعتمد جل الباحثين الغربيين في انكار صحة الأنساب العربية القديمة ، وثانيهما العالم « ولكن » في كتابه : « الأمومة عند العرب(٤) » .

---

١ ـ الامومة عند العرب ص ١١ . جورجي زيدان : مجلة الهلال ، العدد الثامن من السنة الرابعة عشرة ١٩٠٦ .

٢ ـ المصدران السابقان ، نقلا عن كتاب المجتمع القديم Ancient Society لمورغن.

٣ ـ Robertson Smith : Kinship & marriage in early Arabia

٤ ـ الامومة عند العرب تأليف ولكن Wilken ، ترجمة بندلي صليبا الجوزي .

وقد استند سميث في نقض مباحث العرب في الأنساب الى أمرين : أولهما الأمومة التي كانت شائعة عند العرب وسائر الامم في أطوارها القديمة الأولى . والثاني الطوطمية التي فسر بها الرابطة بين أفراد الجماعة الواحدة كما فسر بها أسماء كثير من القبائل العربية .

وفي رأيه ان الرابطة الأبوية التي جعلها النسابون العرب مبدأ تسلسل الانساب العربية وتفرعها لم تعرف الا قبيل ظهور الاسلام ، وقد خيل الى النسابين العرب أنها كانت كذلك منذ أقدم العصور ، في حين ان القرابة بين بطون القبيلة لم يكن مصدرها في الاعصر القديمة الانتماء الى أب مشترك[1] .

وبعد أن يبين سميث الدوافع المختلفة التي حملت النسابين العرب على وضع الانساب في الصورة التي وجدناها عليها ، وأبرزها النزاع بين العدنانية والقحطانية في عصر بني أمية ، يوجه همه الى نقض نظرية العرب في الانساب فيرى ان ما ذهب اليه النسابون العرب من أن الأسرة هي نواة الجماعة القبلية انما هو أمر متأخر . أما في العصور القديمة فكانت رابطة الجماعة اقوى من رابطة الأسرة . وصلات القرابة لم يكن مصدرها البعد أوالقرب من أب مشترك وانما هي أمر كانت تشترك فيه الجماعة بأسرها ، وكان العرب يعتقدون برابطة الدم لا برابطة الأبوة ، وصلات القرابة عندهم وعند سائر الامم القديمة كان يحددها قانون النزاع الدموي Blood Feud ، فالجماعة التي تربط بين افرادها وشائج القربى هي تلك التي لا يقوم بين ظهرانيها نزاع دموي[2] . وبهذا كله يمهد سميث لاثبات شيوع الطوطمية عند العرب القدماء لأن من مظاهرها اعتقاد افراد القبيلة أنهم اخوة من ام واحد تربط بعضهم ببعض وشائج ذات طابع ديني . وقبيلة الطوطم وحدة اجتماعية ذات وجود مستقل .

---

١ ــ Smith P. 12

٢ ــ Smith P. 25

ومن طريق اثبات الطوطمية ينتقل الى اثبات حالة الأمومة عند العرب ، لأن مرجع النسب في قبيلة الطوطم الى الأم ، لا الى الأب . ومما يؤيد هذا اننا نجد عددا من قبائل العرب يرجع نسبها الى أصل أنثوي كخندف . وتشخيص الوحدة القبلية في صورة الأم من الصور الثابتة في اللغات السامية ، فلفظ «ام» في العبرية يدل على الأم وعلى الجنس وأصل النسب أيضا . وفي اللغة العربية يلاحظ اشتقاق لفظ «الأمة» من الأم . فالانتساب الى أم مشتركة هو نموذج الوحدة الاجتماعية التي تربط بينها أواصر الرحم ، وفي الازمان المتأخرة حلت القرابة من طريق الذكور محل القرابة من طريق الأم[1] .

ويرى سميث أن ما ذهب اليه نسابو العرب من أن اسماء القبائل هي أسماء الاشخاص الذين تنتمي اليهم هذه القبائل ليس صحيحا في اكثر الاحوال فالاسماء الدالة على حيوان هي اسماء طواطم لا اسماء اشخاص. كأسد والنمر وكلب ونحوها وثمة أسماء تدل على أماكن كحضرموت ، أو على آلهة كقيس وشمس ومناة ونحوها ، أو على جماعة كخزاعة .

ثم يعقد المؤلف فصلا طويلا لاثبات وجود الطوطمية عند قبائل العرب القديمة . فقبيلة الطوطم Totem هي القبيلة التي يسود فيها الاعتقاد بأن حياة القبيلة مستمدة بطريقة غامضة من حيوان أو نبات أو شيء طبيعي آخر. والحيوان الطوطم مقدس ، وهو يعطي اسمه للقبيلة كلها . والصلة قوية بين الطوطمية والزواج الخارجي لأن التزاوج محرّم بين أفراد الجماعة المنتمية الى طوطم واحد ، فيضطر رجال القبيلة لذلك الى اختطاف زوجاتهم من قبيلة أخرى . ومما يؤيد ظهور الطوطمية عند العرب وجود قبائل عربية لها اسماء حيوانات كأنمار وضباب وكلب وأسد ونحوها .

ثم جاء بعد سميث الاستاذ «ولكن» وفرغ لبحث ظاهرة الأمومة عند العرب القدماء ، مستهدياً بأبحاث روبرتسن سميث في هذا الصدد .

١ــ Smith P. 95 - 217

وقد عرّف «ولكن» الأمومة Matriarcat بأنها الاشتراك في القرابة من طريق الأم ، والولد في هذه الحالة ينسب الى أمه . وهي تغاير حالة الأبوة Patriarcat التي ينسب فيها الولد الى أبيه . وحالة الامومة هي دون شك أقدم عهداً في تاريخ الاسرة من حالة الابوة . وقد عرفنها جميع شعوب الارض قديما ثم تطورت حياة الاسرة فاندثرت ظاهرة الامومة عندأكثر أمم العالم[1] .

وهو يبني بحثه على ما ذكره سميث من شيوع الطوطمية عند العرب وما ينجم عنهامن شيوع حالة الامومة فيجماعة الطوطم . ثم يسلك منحى آخر فياثبات الامومة عند العرب وذلك من طريق بحثه أشكال الزواج عند العرب القدماء مستنداً الى أقوال قدماء المؤرخين اليونان واللاتين أمثال سترابون وأميانوس والى بعض الاخبار التي التقطها من المؤلفات العربية . وغايته من ذلك كله ان يبرهن على شيوع زواج المشاركة والزواج المؤقت عند العرب قبل الاسلام ومن الطبيعي أنه في مثل هذه الحالة يكون النسب الى الأم لا الى الأب . ومما استدل به على شيوع الزواج المؤقت في الجاهلية أن زواج المتعة كان معروفاً في صدر الاسلام ولم يحرم الا منذ عهد الخليفة عمر[2] .

* * *

وحين عرض الباحثون العرب المحدثون للانساب العربية لم يكن موقفهم منها واحداً ، فقد تابع بعضهم الباحثين الغربيين واعلن شكه في هذا التراث الذي خلفه لنا النسابون العرب[3] . ووقف بعضهم موقفا وسطاً فلم يأخذ أقوال علماء الغرب على أنها حقائق علمية مسلم بها وانما تناولها بالنقد فرفض

---

١ ـ الامومة عند العرب ص ٣ .

٢ ـ الامومة عند العرب ص ١٠ . وجل الفقهاء على أن زواج المتعة قد حرم منذ عهد النبي عليه السلام .

٣ ـ جواد علي : العرب قبل الاسلام ١/٢٢١ .

جانباً منها وأقر منها ما ارتضاه[1] . وجنح آخرون الى أن الانساب العربية حقائق تاريخية ثابتة لا يجوز الطعن فيها . ومن أشد المتحمسين لهذا الرأي المؤرخ جورجي زيدان الذي عرض لآراء باحثي الغرب وناقشها ورد عليها في جملة مقالات نشرها في مجلة الهلال[2] . وهو ينكر أن يكون العرب مرّوا بطور الأمومة أو عرفوا ظاهرة الطوطمية ، ويقرر أن العرب وغيرهم من الشعوب السامية لم يعرفوا الا نظاماً اجتماعياً واحداً هو نظام الابوة ، وكل ما وصلنا من أخبار وما عثرنا عليه من وثائق يؤكد سيادة الاب ، ولا مجال عنده للشك في صحة الانساب العربية فهي ثابتة بثبوت أنساب التوراة ، وجميع الأمم السامية تتشابه في الانتساب الى آباء التوراة[3] .

* * *

موقفنا من الانساب العربية

وبعد ، ما عسانا نصنع بهذا التراث الضخم الذي تزخر به كتب الانساب العربية ؟ أنلقي به ونتخذه ظهرياً تحقيقاً لرغبة نولدكه ومن شايعه ، فلا نرى في هذه الانساب ما يصح أن نعتبره حقائق تاريخية ثابتة ، وانما هي أساطير وأخبار مفتعلة مزورة ، أم نضرب عن هذه الشكوك صفحاً ونطوي جوانحنا على اليقين المطلق بما أنبأنا به الكلبي وابنه وابن اسحاق وغيرهم من النسابين صنيع جورجي زيدان، فننزل هذه الانساب منزلة الحقائق التاريخية الثابتة التي لا تقع عليها ظلال الشك ؟ .

---

١ ــ عبد الوهاب حمودة : نظرية الانساب في الميزان : مجلة كلية الآداب ، المجلد ١٤ مايو ١٩٥٢ .

٢ ــ جورجي زيدان : مجلة الهلال : الاجزاء السابع والثامن والتاسع من السنة الرابعة عشرة ، ١٩٠٦ .

٣ ــ مجلة الهلال ، الجزء السابع ١٩٠٦ .

الحق أن الاطمئنان المطلق الى هذه الانساب كما رواها لنا الآقدمون يشف عن سذاجة بالغة ، والتسليم بصحتها اجمالا تورط في الخطأ لا يرضاه المنهج العلمي . وقدرأينا القدماء انفسهم يقفون موقف الشك من بعض هذه المرويات فلا يطمئنون مثلا الى ما جاوز عدنان وقحطان من الانساب .

ومن المحقق من ناحية أخرى أن أبحاث علماء الغرب في الانساب العربية تستند اجمالا الى منهج علمي وأبحاثهم التي تناولت المجتمعات البدائية قد أنارت دون شك جوانب كثيرة من أحوال المجتمع العربي القديم ، وأفضت الى نتائج لم يعد من اليسير تجاهلها .

وليس معنى هذا أننا نضع دراسات هؤلاء الباحثين فوق مستوى النقد وننظر اليها على أنها حقائق علمية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، فكثير من الآراء التي أتوا بها يحتمل النقد ، وقد تورّط بعضهم في اصدار أحكام لا يسعنا التسليم بصحتها ، وذلك اما لاستنادهم الى مقدمات فاسدة بنوا عليها نتائج باطلة . واما لكونهم غرباء عن طبيعة اللسان العربي وأساليب التعبير الدقيقة فيه .

على أن ذلك كله لا يغض من قيمة كثير من النتائج التي أدت اليها ابحاثهم فنحن نعتقد معهم ان الأمة العربية قد مرّت في أطوارها الاولى ، شأنها في ذلك شأن سائر امم العالم ، بمرحلة لم تكن الحياة الاجتماعية فيها قد استقرت على نظام واضح ، وانما كانت أدنى الى الفوضى ، وبديه الا توجد في تلك المرحلة نظم واضحة ثابتة للزواج . وقد انتهى الباحثون الاجتماعيون الى ان الزواج بدلالته التي تقتضي ارتباط رجل بامرأة معينة أو أكثر انما يمثل مرحلة متأخرة من مراحل التطور الاجتماعي[١] . فالخلايا التي كانت قوام المجتمع العربي قبيل الاسلام ، اي الأسرة والحي والقبيلة الابوية ، انما تمثل مرحلة اجتماعية ادنى الى الاستقرار والتنظيم ، وهذه المرحلة متأخرة عن الاطوار الاجتماعية الأولى . وقد رأينا جداول الانساب العربية تفترض قيام نظام

---

١ _ La grande Encyclopédie T. XVI p. 1139

اجتماعي ثابت منذ أقدم العصور ، كما تفترض معرفة العرب نظام الابوّة منذ مبدأ الخلق ، على ان نظام الابوة نظام راق لم تبلغه الأمم الا بعد أن مرت بطور الفوضى الاجتماعية الذي سموه طور الامـومـة .

ونحن لا نبعد كذلك ان تكون القبـائل العربية القديمـة عرفت عقيـدة الطوطمية التي انتشرت بين أكثر الأمم الوثنية . واسماء القبائل الدالة على الحيوان قرينة قوية في جانب هذا الرأي ، والطوطمية تنافي الابوة كماتقدم وهي من أقوى البراهين على شيوع حالة الأمومة . ولعل من بقايا حالةالأمومة القديمة وجود قبائل عربية تنتمي الى أصل أنثـوي ، وقد أشار النسـابون العرب الى هذه الظاهرة فذكروا أن القبيلـة قد تسمى باسم الأم كخنـدف وبجيلـة[1] .

على أن جداول الانساب التي وضعها النسابون العرب بين أيدينا تفترض قيام نظام الابوة منذ أقدم العصور ، ولا سيما أن أنساب التوراة التي وقفوا عليها تؤيد هذا المبدأ . ومن هنا يخالجنا الشك في صحة بعض ما جـاء في هذه الجـداول ، ولا سيما ما يتصل بالأصول القديمة والجذور التي تفرعت منها أنساب العرب ، ولكننـا لا نوغل في الشـك ولا ندّعي أن جـداول الانساب في جملتها مختلقة موضوعة وان النسابين القدماء انما اخترعوا هذه الانساب ولفقوها تلفيقا ، فمما لا شك فيه أن هؤلاء النسابين قد استقوا مادة جداولهم من نسابي القبائل ، ومن المألوف أن تكون في كل قبيلة طائفـة من رجالها تعنى بحفظ أنسابها وتحديد صلات القرابة بين عشائرها وأفخاذها ، وهي ظاهرة ما تزال معروفة حتى اليوم ، ثم جمعوا هـذه المواد وصنفوهـا ونسقوها على الوجه الذي انتهى الينا . وحين وجد النسابون أن الانسـاب التي وجدوها تقوم على رابطة الابوة خيل اليهم أنها كانت كذلك منـذ أقـدم العصور ، فبنوا جداولهم على هذه الرابطة وتوسعوا في استقصاء نسب كل قبيلة حتى وصلوها بجدها الذي انحدرت من صلبـه ، فالشكّ في صحـة

---

1 ـ نهـاية الارب للقلقشندي ص ٢١ .

الانساب لا يمس في نظرنا الا الجذور القديمة واصول الانساب الاولى التي اراد رجال النسب الرجوع اليها حرصاً على توافر عنصر التسلسل والترابط وتعيين نقاط البدء في جداولهم النسبية . وربما كان للنسابين العرب يد في سد بعض الثلم في جداول النسب وفي تعيين أصول بعض القبائل المختلف في نسبها كما كان لهم يد في افتعال انساب طائفة من القبائل لدواع شتى سنأتي على ذكرها فيما بعد .

ويرجح أن وضع عمر ديوان العطاء كان أول ما نبه العرب الى ضرورة العناية بأنسابهم وتصنيفها وتدوينها ، ولا سيما أن بناء الدولة العربية كان في ذلك الحين قبلياً ، ونظمها الادارية كانت مستوحاة من هذا النظام القبلي. وقد ذكر ان الوليد بن هشام بن المغيرة هو الذى اشار على عمر بتدوين الدواوين وتجنيد الجند وفقاً لما رآه لدى ملوك الشام ، فأخذ عمر بقوله ودعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وامرهم أن يكتبوا الناس على منازلهم[1] . على أن وضع جداول الانساب في صورتها الكاملة المنسقة لم يتم الا أوائل عصر بني أمية .

وقد استقى النسابون مادة هذه الجداول من مصادر كثيرة ، فأنساب الأمم القديمة منذ عهد آدم وأبناء سام وبعض قبائل العرب البائدة أخذت من التوراة في الغالب ، ومن أفواه أهل الكتاب ، وكثيراً ما كان النسابون يشيرون الى استمدادهم من هذين المصدرين[2] .

وقد روى أهل الكتاب أمثال وهب بن منبه وكعب الاحبار كثيراً من أخبار

---

١ – فتوح البلدان للبلاذري ٥٤٩/٣ . تاريخ الطبري ٢٠٠/٣ . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١٣/٣ . وقد اختلف في تاريخ فرض العطاء هل هو عام ١٥ أو ٢٠ هـ .

٢ – انظر مثلا : جمهرة ابن حزم ص ٧ ، والمعارف لابن قتيبة ص ٦ والاشتقاق لابن دريد ص ٥ وتاريخ ابن خلدون ٧/١ .

القدماء وانسابهم، وقد اشار ابن النديم الى أن ابن اسحاق كان يحمل عن اليهود والنصارى، ويسميهم في كتبه أهل العلم الاول (١) .

ومن اوائل من دونوا انساب العرب عبيد بن شرية الجرهمي ، وقد ذكروا أن معاوية بن أبي سفيان استدعاه وأخذ يسأله عن أخبار الماضين وانساب اليمن وأمر بتدوين ذلك كله٢ .

عن هذه المصادر كلها أخذ النسابون والمؤرخون العرب انساب العرب العاربة، وابناء سام ومن جاوز عدنان وقحطان من الآباء حتى آدم . والشك انما يتناول في المرتبة الاولى هذه الانساب المغرقة في القدم ، وقد رأينا المحققين من العلماء لا يكادون يصححون شيئاً من هذه المرويات .

اما ما دون عدنان وقحطان من انساب القبائل العربية فجله مستقى من نسابي القبائل العربية وقدماء أهل النسب وعنهم أخذ أبو عمرو بن العلاء ومحمد بن السائب الكلبي وابنه هشام وابن اسحاق وابو اليقظان والواقدي والهيثم بن عدي وأبو الحسن المدائني وابو عبيدة ومحمد بن حبيب وغيرهم ممن صنفوا الكتب المشهورة في أنساب العرب . وفي فهرست ابن النديم ومصادر أخرى ذكر لطائفة من هؤلاء النسابين الأوائل أمثال دغفل وصحار العبدي والنخار بن أوس (٣) . ومن المحقق أن عناية قبائل العرب بأنسابها حملتها على حفظها ورعايتها واعتبارها تراثاً جديراً بالحفظ والعناية يتوارثه الأنباء عن الآباء ، وهذه العناية سهلت على علماء النسب ومدونيه مهمة جمع انساب القبائل العربية وتدوينها .

وفي الشعر الجاهلي والشعر المقول في صدر الاسلام اشارات تنبئنا بأن العرب في العصر الجاهلي وصدر الاسلام – أي قبل شيوع التدوين في

---

١ – فهرست ابن النديم ص ١٣٦ .
٢ – الفهرست ص ٣٢ .
٣ – الفهرست ص ١٣١ وما بعدها .

الانساب ــ كانوا يعرفون شيئاً عن انساب القبائل العربية وصلات الرحم التي تربط بعضها ببعض [1] . وكذلك نقلوا عن الرسول عليه السلام احاديث كثيرة تتصل بالانساب [2] .

والذي يعنينا في بحثنا هذا ان القبائل العربية وجدت بين ايديها، منذ صدر العصر الأموي ، جداول للانساب تكاد تكون كاملة مع بعض نواحي الاختلاف في نسب طائفة من القبائل. وهذه الأنساب قد وضعت حدوداً مميزة لجذمين كبيرين هما عدنان وقحطان، ووضحت من جانب آخر صلات الرحم التي تربط طائفة من القبائل بأصل مشترك ، وحددت من ثم موقف كل قبيلة من سائر القبائل الاخرى . وسواء أكانت هذه الانساب في جملتها صحيحة أم لا ، فقد نظر اليها في العصر الاموي على انها حقائق تاريخية ثابتة ، وحاولت كل قبيلة أن تقف من القبائل الاخرى الموقف الذي تمليه عليها هذه الانساب ، وان تجعل عواطفها وعصبيتها منسجمة مع صلات القرابة التي حددتها جداول الانساب هذه ، وبحثنا هذا مبني على أساس الصورة التي كانت في اذهان العرب عن انسابهم ، سواء طابقت هذه الصورة الواقع التاريخي تمام المطابقة ، أم كان بينهما بعض الاختلاف .

٤

لمحة في الانساب العدنانية والقحطانية والقبائل المختلف في نسبها

آ ــ عدنان وقحطان

جرى النسابون والمؤرخون العرب على تقسيم العرب الباقية الى أصلين

---

١ ــ انظر مثلا : تعداد زهير بن أبي سلمى بطون قيس المشهورة (الديوان ص ٢١٣) . وديوان حسان بن ثابت ص ٢٢٧ ، ٣٤١ . وديوان بشر بن أبي خازم الاسدي القصيدة الخامسة عشرة .

٢ ــ انظر مثلا الانباه لابن عبد البر ص ٥٩ ، ١٠٠ وسيرة ابن هشام ٧٦/١ .

كبيرين : عدنان وقحطان . وقد أخذ هؤلاء عن التوراة انساب ابناء نوح فقالوا ان العرب كلهم من نسل سام بن نوح . ثم قالوا ان عابر بن شالخ بن ارفخشد كان له ولدان : يقطن ، وهو قحطان في رأي جل النسابين ، وفالغ ، ومن ولد فالغ كان عدنان جد القبائل العدنانية ، اذ هو من نسل اسماعيل بن ابراهيم الذي ينتهي نسبه الى فالغ بن عابر (١) . فالعرب بقسميهم ينتسبون الى عابر بن شالخ بن ارفخشد بن سام .

ولا خلاف بين أهل النسب في ان عدنان من نسل اسماعيل بن ابراهيم ، ولكنهم يختلفون في عدد من كان بين عدنان واسماعيل من الآباء كما يختلفون في أسمائهم (٢) .

أما قحطان فالخلاف في نسبه كثير ، ولهذا الخلاف صلة بالعصبية القبلية في عصر بني امية كما سنبين بعد ، وفي رأي جل النسابين ان قحطان هو يقطان المذكور في التوراة (٣). وجعل بعضهم قحطان ويقطان اخوين ، وأبى آخرون الا أن يجعلوا اسماعيل أباً لعدنان وقحطان معاً وأوردوا سلسلة نسبية تؤيد مزعمهم . ويحتج هؤلاء بقول الرسول لجماعة من أسلم والأنصار (وكلاهما من اليمن) : ارموا بني اسماعيل ، فإن أباكم كان رامياً (٤) .

وقد أطلق على ابناء قحطان اسم العرب المتعرّبة لأنهم سكنوا ديار العرب

---

١ ــ تاريخ الطبري ١٤١/١ . تاريخ ابن خلدون ٩/١ . نهاية الارب للنويري ٢٨٩/٢ مع بعض الاختلاف . وجاء في التوراة (سفر التكوين ، الاصحاح العاشر) : بنو سام هم : عيلام وآشور وارفكشاد ولود وآرام . وارفكشاد ولد شالح وشالح ولد عابر . ولعابر ابنان : فالج ويقطان . وقد حرف النسابون العرب هذه الاسماء فجعلوا عيلام : عويلم ، وآشور : اشوذ ، وأرفكشاد : أوفخشذ ، ولود : لاوذ ، وآرام : ارم . وشالح عندهم : شالخ ... الخ .

٢ ــ القصد والامم لابن عبد البر ص ٢٢ . نهاية الارب للنويري ٣٢٤/٢ .

٣ ــ سيرة ابن هشام ٤/١ . تاريخ ابن خلدون ٣٠/٢ .

٤ ــ سيرة ابن هشام ٧/١ . الانباه ص ٥٦ .

ألعاربة ونطقوا بلسانهم . أما أبناء اسماعيل العدنانية فعُرفوا بالعرب المستعربة لأنهم ليسوا عرباً خلصاً ، وقد أخذوا اللغة العربية عن قبيلة جُرهم ، اذ ان اسماعيل أصهر اليهم وشبّ بين ظهرانيهم فنسي لغة ابيه وتعلم لغتهم [1]. ويرى بعض الباحثين ان وضع العرب العدنانيين في منزلة تلي بني قحطان من حيث أصالة العروبة انما هو من عمل النسابين القحطانيين [2] .

ولنا ان نتساءل : هل كان الجاهليون على معرفة بهذا التقسيم الثنائي ، يميزون بين قبائل قحطانية واخرى عدنانية على النحو الذي نجده في كتب الانساب ؟ من المرجح عندنا أن التمييز الواضح الدقيق بين هذين الجذمين لم يعرفه الجاهليون ، وليس في الشعر الجاهلي الموثوق بصحته ما يدل عليه . كما ان الباحثين لم يجدوا في الكتابات والنقوش الجاهلية ما يدل على ذلك ، الا ان مبدأ انقسام العرب الى قبائل معدّية او عدنانية واخرى يمنية او قحطانية كان امراً معروفاً على نحو ما ، منذ العصر الجاهلي ، فنحن نجد في النزاع الذي قام بين أهل مكة واهل يثرب منذ الاسلام وفي المفاخرات التي جرت بين شعرائهما ما ينبيء بمعرفة العرب منذ تلك الحقبة أن ثمة اصلين تنتمي اليهما القبائل العربية وشعراء الانصار كانوا كثيراً مايشيرون الى اصلهم اليماني المباين لاصول القبائل المعدّية [3] . وقد وضع حسان في احد ابياته « قحطان » بازاء « معدّ » فقال :

فلو سُئلت عنه مَعدّ باسرها ... وقحطان او باقي بقية جُرهما [4]

---

١ ــ طبقات الشعراء لابن سلام ١٠ . تاريخ ابن خلدون ١/٥٥ . كتاب العرب لابن قتيبة ٣٥٥ . نهاية الارب للنويري ٢/٣٩٢ .

٢ ــ فجر الاسلام لاحمد امين ٦ . جواد علي ١/٢٨٥ .

٣ ــ من ذلك قول حسان :

لنا في كل يوم من معد ... سباب أو قتال أو هجاء ... الديوان (٦)

٤ ــ ديوان حسان ٢٩٨ من قصيدة في رثاء مطعم بن عدي بن نوفل المتوفى عام ٢ للهجرة .

وثمة أحاديث تروى عن الرسول عليه السلام وعن طائفة من الصحابة جاء فيها ذكر عدنان وقحطان على انهما غاية مايطمأن اليه من الانساب المعروفة(١). وهي — ان صحت — تدل على ان هذين الاسمين وانتساب العرب اليهما كانت من الامور المعروفة للناس منذ ذلك الحين . أما التمييز الدقيق الواضح بين هذين الجذمين على النحو الذي نجده في كتب الانساب ، فالمرجح انه لم يعرف الا في صدر الاسلام وأوائل العصر الاموي .

وقد رأينا اكثر الباحثين يرجحون ان اسم قحطان مأخوذ من التوراة وانه تحريف ليقطان المذكور فيه (٢) ، اما عدنان فلم يرد ذكره لا في العهد القديم ولا فيما كتبه مؤرخو اليونان والرومان القدماء ، ولم يرد ذكره الا في بيتين من الشعر الجاهلي (٣) .

ب — الأنساب العدنانية

يذكر جمهور النسابين أن عدنان كان له ولدان : معدّ ، وعكّ . وان معدّاً أنجب عدداً من الابناء منهم : نزار ، وقَنَص ، والى نزار ينتمي معظم القبائل العدنانية ، ويذكرون انه كان له أربعة من الولد : مضر ، وربيعة ، واياد ، وانمار (٤) .

---

١ — انظر الانباه لابن عبد البر ٤٧ — ٥٠ .

٢ — العرب قبل الاسلام لجواد علي ١/٢٧٠ .

٣ — أحدهما للبيد وهو قوله :

فان لم تجد من دون عدنان والداً ... ودون معدٍ فلتزعك العواذلُ

وثانيهما للعباس بن مرداس :

وعك بن عدنان الذين تلعبوا ... بمذحج حتى طردوا كل مطرد

وقد اعلن ابن سلام انه لا يطمئن الى صحة بيت ابن مرداس هذا (طبقات الشعراء ١٠ وما بعدها) .

٤ — جمهرة ابن حزم ٨ . نهاية الارب للنويري ٢/٣٢٥ . وبين النسابين خلاف كبير في ابناء عدنان ومعد ونزار .

معدّ : في حين نجد الشعر الجاهلي يكاد يكون خلواً من ذكر عدنان ، نرى على نقيض ذلك اسم معدّ كثير الورود في هذا الشعر ، ولكن نصوص الشعر الجاهلي التي ورد فيها لفظ معدّ لم تُشر الى انه ابن عدنان . ومن امثلة ورود هذا اللفظ في شعر الجاهليين قول المثقب العبدي :

انا بيتي من معدّ في الذرى ولي الهامة والفَرع الاشدّ(١)

وقول عبد المسيح بن عمرو الغسّاني :

تقسّمنا القبائل من معدّ علانية كأيســار الجَزور (٢)

ومن نصوص الشعر الجاهلي نستدل على انهم كانوا يريدون بلفظ معدّ مجموعة من القبائل تجمع بينها رابطة مشتركة تميزها من غيرها . ولكن ما هي هــذه الرابطة ؟ ان جــداول الانســاب العربيــة تقرر انها النسب العدناني المشترك بينها ، ولكن كثيراً من الباحثين يشكون في هذا الامر (٣) . وثمة قصيدة طويلة للأخنس بن شهاب التغلبي ، وهو من أقدم شعراء الجاهلية ، يعدّد فيها قبائل معدّ ومواطنها . ونحن نجده يذكر في قصيدته هذه طائفة من القبائل عدّها النسابون معدية ، ولكنه يضيف اليها طائفة اخرى هي عندهم قحطانية وليست معدّية كغسان وكلب وبهراء ولخم (٤) .

ونحن نجد لمعدّ ذكراً عند طائفة من المؤرخين البيزنطيين(٥) . ولكن اسم

---

١ ـ المفضليات ٢٩٣ . وديوان زهير ١٠٦ .

٢ ـ المعمرون للسجستاني ٢٧ . وانظر امثلة اخرى في ديوان الاعشى ٢٠٨ والاغاني ٥٨/١١ .

٣ ـ انظر Smith p. 10 وجواد علي ٢٩٩/١ و Encyc. de l'Islam T. 3 p. 59

٤ ـ انظر هذه القصيدة في المفضليات ٢٠٣ .

٥ ـ Encyc. de l'Islam, T. 3, p. 1004

معدّ لم يرد عندهم بهذه الدلالة التي نجدها في كتب الانساب العربية ، وأنما ذكر على انه اسم قبيلة او مجموعة من القبائل كانت تخضع لدولة حمير وكان لها صلات بدولة الروم ابان حكم جوستنيان الذي سعى في تنصيب زعيم اسمه «قيس» عليها، حسبما يذكر المؤرخ بروكوبيوس (المتوفى عام ٥٦٥ م) (١).

وعلى أي حال لا يكاد يطل العصر الاسلامي حتى نجد لفظ معد يكتسب دلالته المعروفة في كتب الانساب، ففي شعر حسان تمييز بين الانصار اليمانين وبين معدّ وهم أهل مكة القرشيون (٢) . ونجد الشعراء في هذه الحقبة كثيرا ما يتحدثون عن حيي معدّ – أي ربيعة ومضر – ويميزون بينهما وبين القبائل اليمنية ، كقول زياد بن خصفة وكان في أيام علي :

قبائل من حيي معـدّ ومثلها يمانية لاتنثني حين تُندَبُ(٢)

عك : يختلف النسابون في قبيلة عكّ فيجعلها بعضهم عدنانية ، وعك عندهم هو ابن عدنان مباشرة ، او هو عك بن الديث بن عدنان (٤) . ويعللون نزول عكّ ديار اليمن واختلاط نسبها بانساب اليمانية بأن عكاً تزوج في الأشعرين وأقام فيهم فصارت الدار واللغة واحدة (٥) .

ويأبى فريق من نسابي اليمن الا نسبة عك الى الأرومة القحطانية فهو عندهم عك بن عدنان – او عدثان – بن عبد الله بن الازد (٦) . ويدعي هؤلاء ان غسان جاورت عكاً في تهامة ثم تنازعوا واقتتلوا فأجلت غسان عكاً عن

---

١ – جواد علي ٣٢٨/١ .
٢ – ديوان حسان ٦ و ٢٨٧ .
٣ – شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ٣٦٣/١ .
٤ – معجم ما استعجم للبكري ٥٣/١ . انساب الاشراف ١٣/١ .
٥ – سيرة ابن هشام ٨/١ .
٦ – تاج العروس ١٦٣/٧ .

مواطنها . وكان هذا سبب انتفاء عك من اليمن وانتسابها الى معدّ (١) ، ويذهب ابن الكلبي الى ان عدنان الذي ينتمي اليه عك هو غير عدنان ابي معدّ، ومن هنا وقع الاضطراب في نسب عك(٢) . ونحن لا نشك ان العصبية قد لعبت دورها في هذا الخلاف الذي دار حول نسب عك بين نسابي مضر ونسابي اليمن .

نزار : نزار هو الجد المشترك لمعظم القبائل العدنانية حسبما تذكرجداول النسب العربية ، والالفاظ الثلاثة : عدنان ، معدّ ، نزار ، تكاد تكونمترادفة في دلالتها على القبائل المنحدرة من صلب اسماعيل .

وقد لاحظ نفر من الباحثين ان اسم نزار لم يظهر في الشعر العربي الا متأخرا ، في حين ان اسم معد قد ظهر فيه منذ وقت مبكر (٣) . وتتبعالاستاذ دللافيدا المواطن التي ورد فيها اسم نزار في الشعر الجاهلي فلم يجده ورد الا في بيت واحد من الشعر يطمأن الى صحته ، وهو قول بشر بن ابي خازم :

مضى سلاّفنا حتى نزلنـا بأرض قد تحامتها نزارُ

وعنده ان اسم نزار لم يظهر في الشعر السياسي الا بعد معركة مرجراهط(٤)

الا اننا نجد اسم نزار يرد في احدى الكتابات الجاهلية ، وهونص امرىء القيس المعروف بنقش النمارة ، ويرجع تاريخه الى عام ثمانية وعشرين وثلاثمائة بعد الميلاد (٥) ويستدل من هذا النص ان نزاراً كانت في ذلك الحين قبيلة لها رؤساء وملوك ، وكان لها وقائع مع ملوك الحيرة .

---

١ ـ منتخبات في اخبار اليمن لنشوان الحميري ٧٤ .
٢ ـ معجم البكري ١/٥٤ .
٣ ـ Encyc. de l'Islam 3\1004. Smith. p. 5
٤ ـ Encyc. de l'Islam 3\1004

٥ ـ يرجع الى هذا النص في كتاب تاريخ اللغات السامية لولفنسون ص ١٩٠ والعبارة التي تعنينا منه هي : « هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي حاز التاج وملك الاسدين ونزار وملوكهم ... » .

قَنَص واخوته : يذكر علماء النسب ان قنص بن معدّ أنجب أبناء هلكوا كلهم الا اشلاء دخلت في قبائل العرب ، ومنهم من ينسب آل نصر ملـوك الحيرة الى قنص بن معدّ (١) . وفي الخبر المطول الذي ساقه ابن الكلبي وتحدث فيه عن اختلاف ابناء معد وتفرقهم في البلاد ذكر لولد قنص بن معدّ وسبب هلاك اكثرهم وتبددهم أشلاء (٢) . والخبر في جملته ادنى الى انيكون أسطورة منمقة نسجها خيال الاخباريين . ويضيف أهل النسب الى قنص ونزار اخوة آخرين كلهم من ابناء معد بن عدنان كقناصة وجنادة وسنام وأود وعُبيد الرّماح والضحاك الخ (٣) . . .و لكن نفراً من القدماء ينكر ان يكون لمعدّ ولد غير نزار وهم يجمعون على ان نزاراً هو صريح ولد معد بن عدنان وما عدا ذلك فمختلف فيه (٤) .

ابناء نزار : اتفق جمهور النسابين على ان نزاراً أنجب اربعة من الولد هم : مضر ، وربيعة ، واياد ، وانمار . وقد حاك خيال الاخباريين طائفة من الاساطير حول ابناء نزار هؤلاء (٥) .

ونحن نجد في كتب الانساب وغيرها أخباراً كثيرة من هذا القبيل منها ما يتصل بربيعة واخيه مضر وما زعموه من تنازعهما الرئاسة بعد موت ابيهما نزار ، ومنها ما يتصل بأبناء مضر : قمعة ومدركة وطابخة ومن انحـدر منهم ، واكثرها يدور حول تفسير الاسماء المذكورة في جداول الانساب ، وهي كلها دون شك مما نسجه خيال الاخباريين ، ومن تلفيقات النسابين .

---

١ ـ سيرة ابن هشام . جمهرة ابن حزم ص ٨ .

٢ ـ معجم البكري ٥٢/١ .

٣ ـ الانباه لابن عبد البر ص ٥٥ .

٤ ـ انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ٣٣٧/٣ . وانساب الاشراف ٢٩/١ .

٥ ـ من ذلك ما ذكروه من ان نزاراً لما حضرته الوفاة اوصى بقبته الحمراء او ناقته الحمراء لمضر فقيل له : مضر الحمراء ، وبفرسه الادهم لربيعة فسمي لذلك : ربيعة الفرس ، وبجاريته الشمطاء لاياد فقيل : اياد الشمطاء ، وبحماره لانمار فقالوا : أنمار الحمار . وتمضي الاسطورة فتفصل نبأ اختلاف ابناء نزار في اقتسام تركة أبيهم وشخوصهم الى الافعى بن الحصين بنجران ليقضي بينهم . (انساب الاشراف ٢٩/١ وما بعدها . الاشتقاق لابن دريد ص ٢٨ ـ ٣٠) .

ولا نجد بين النسابين خلافاً في نسبة كل من مضر وربيعة واياد الى نزار، وانما وقع الخلاف بينهم في نسب أنمار فذهب بعضهم الى ان انماراً درج ولم يعقب (١) ، وعلى رأي هؤلاء يكون انمار بن نزار هذا غير أنمار بن اراش بن عمرو بن الغوث . وذهب آخرون الى أن أنمار بن نزار كان غاضب اخوته فانتفى منهم وأتى اليمن فحالف الأزد وانتسب الى اراش بن عمرو بن الغوث، أخي الازد (٢) وبذلك دخل في عداد القبائل الكهلانية .

قبائل مضر : تأخذ شجرة الانساب العدنانية في النمو والتفرع بعد ذلك ويكون لابني نزار : مضر وربيعة الحظ الأوفى من وفرة عدد الانباء وكثرة القبائل والبطون المنحدرة منهما .

ويذكر أهل النسب أن مضر أنجب ولدين هما اليأس ، وقيس عيلان ، وان اليأس تزوج ليلى بنت حلوان القضاعية وهي خِندف ، ومنها كان اولاده الثلاثة : طابخة، ومدركة، وقمعة (٣). وقد اصبح اسم خندف فيما بعد علماً على قبائل مضر كلها ، باستثناء قيس عيلان ، وكثيراً ما يقترن اسم خندف باسم قيس في اشعار الاسلاميين للدلالة على جِماع القبائل المضرية (٤) .

ومن قبائل قيس عيلان المشهورة : فَهم ، وعَدوان ، وسُلَيم ، وهوازن، وغطفان ، وباهلة ، وغَنِيّ . والى هوازن تنتمي قبائل : ثَقيف وعامر بن صعصعة ، وجشم . ولقبيلة بني عامر بطون كثيرة منها : بنو نُمير ، وبنو هِلال ، وكلاب ، وكعب . ومن بطون كعب المشهورة : الحَريش وجَعدة وعُقيل وقُشير والعَجلان . والى غطفان تنتمي قبائل : عبس وذبيان وأشجع وانمار .

---

١ ـ انساب الاشراف ٢٣/١ .

٢ ـ انساب الاشراف ٢٣/١ . شرح المفضليات للانباري ص ١١٣ .

٣ ـ جمهرة ابن حزم ص ٩ . انساب الاشراف ص ٣١ .

٤ ـ من ذلك قول الفرزدق :

اذا اجتمع الحيان قيس وخندف ... فثم معد هامها وعديدها (الديوان ١٨٩)

وقد وقع خلاف بين النسابين بشأن قبيلة ثقيف ، زعم قوم أنهامن اياد، وذهب آخرون الى ان ثقيفا كان عبدا لصالح النبي ثم هرب منه واستوطن الحرم . وادعى غيرهم ان ابارغال هو أبو ثقيف ، وأيدوا قولهم بأحاديث نسبوها الى الرسول عليه السلام . بل ان منهم من نفى قبيلة ثقيف من العرب وجعلهم من بني حام بن نوح . وجمهور النسابين على انهم من جذم قيس عيلان(١) والخلاف في نسب ثقيف قديم ينبئنا به ما نجده في شعر حسان بن ثابت من التعريض بنسب هذه القبيلة كقوله مثلا :

اذا الثقفي فاخركم فقولوا هلمّ فعدّ شأن ابي رغال (٢)

ونرجح ان سياسة بعض الولاة الثقفيين كزياد والحجاج وما اتصف به حكمهم من البطش والشدة ، كل ذلك كان له أثر في افتعال كثير من الاخبار المتصلة بنسب ثقيف .

ومن مدركة بن الياس بن مضر تنحدر قبائل : هُذيل ، وأسد ، وكِنانة ومن اشهر بطون كنانة : قريش ، وقد اختلف في الأب الذي تنتمي اليه قريش أهو النضر بن كنانة ، أم فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، وجمهورهم على ان فهرا جُماع قريش (٣) .

والى طابخة بن الياس بن مضر تنتسب قبائل : مُزينة ، وضَبة ، والرَباب ، وتميم . ومن بطون تميم المشهورة : عمرو بن تميم ، وسعد بن زيد مناة بن تميم ، ويربوع ومالك ابنا حنظلة والبراجم .

أما قَمَعة بن الياس بن مضر فقد اختلف النسابون في أمره ، قال بعضهم انه لا عقب له وذهب آخرون الى انه تزوج وانجب ثم غاضب إخوته فأتى اليمن وحالف الازد وانتسب فيهم (٤) . وهم يجمعون على ان قبيلة خزاعة

---

١ ـ الانباه ص ٨٩ . الاغاني ١٤/٢٢٠ . انساب الاشراف ١/٢٥ . الكامل للمبرد ١/٢٧٦.

٢ ـ ديوان حسان ص ٣٤١ . وانظر ديوانه أيضا ص ٣٤٥ .

٣ ـ الانباه ص ٦٦ . انساب الاشراف ١/٣٩ . جمهرة ابن حزم ص ١١ . وجماع القبيلة مجتمع أصلها .

٤ ـ انساب الاشراف ص ٣٤ .

تنتمي الى عمرو بن لُحَيّ، الا انهم يختلفون بعد ذلك فيذهب جماعة منهم الى أن عمرو بن لحي ينتهي نسبه الى قمعة بن خندف ، وعلى هذا الرأي جمهور نسابي مضر (١) . ويؤيد اصحاب هذا الرأي قولهم بما روي عن الرسول عليه السلام من احاديث تنسب كلها عمرو بن لحي الى قمعة بن خندف ، وفي بعضها نص صريح على ان خزاعة خندفية النجار (٢) . وقد روى البخاري جانباً من هذه الاحاديث في صحيحه (٣) . ويذهب نسابو اليمن الى ان نسب عمرو بن لحي ينتهي الى الأزد ، وانما قيل لهم خزاعة لانهم تخزعوا من بني مازن بن الازد وافترقوا عنهم بعد جلائهم عن ديارهم (٤) . ويستدل هؤلاء على صحة دعواهم بطائفة من الاشعار المروية عن شعراء خزاعيين او يمانيين وفيها اشارة صريحة الى ان خزاعة أزدية النجار (٥) . ونحن نرى ان الخلاف في نسب خزاعة هو ايضا ظاهرة من ظواهر العصبية القبلية في العصر الاموي كما سنبين بعدُ .

قبائل ربيعة : تذكر كتب الانساب أن قبائل ربيعة كلها ترجع الى احد فرعين : أسد ، وضُبَيعة . والعدد والبيت في أسد بن ربيعة ، ومن قبائلها المشهورة : عنَزة وعبد القيس ووائل بن قاسط والنمر بن قاسط .

ومن وائل بن قاسط تنحدر أضخم القبائل الربعية وهي : بكر ، وتغلب ، وعَنَز . ومن بطون بكر المشهورة : يَشكُر ، وقيس بن ثعلبة ، وعِجل ، وحنيفة ، وذهل وشيبان (٦) .

---

١ ــ سيرة ابن هشام ٧٦/١ .

٢ ــ جمهرة ابن حزم ص ٢٢٢ .

٣ ــ صحيح البخاري ١٨٤/٤ .

٤ ــ سيرة ابن هشام ٩١/١ . الانباه ص ٩٢ الى ٩٥ .

٥ ــ سيرة ابن هشام ٩٢/١ .

٦ ــ جمهرة ابن حزم ص ٢٧٥ الى ٣٠٨ .

جـ ـ الأنساب القحطانية

يرجع النسابون انساب قبائل اليمن كافة الى قحطان ، وجل القبائل ترجع في نسبها الى سبأ بن يَشجُب بن يَعرُب بن قحطان. ومن سبأ تتشعب أصول القبائل القحطانية ، وقد جمع النسابون طائفة من ابناء سبأ ومن انحدر منهم تحت اسم « السبئيين » (١) وهم قلة لا شأن لهم ، والعدد انما هو في حمير ، وكهلان ، ابني سبأ ، فمنهما تفرقت جميع القبائل القحطانية المشهورة .

قبائل حِمير : انجب حمير فيما تذكره كتب الانساب ، عددا كبيرا من الابناء ، ولكن جمهور القبائل الحميرية يرجع الى اثنين منهم هما ، مالك والهمَيسع .

وتظهر في جداول أنساب القبائل والبطون المنحدرة من الهميسع أسماء تحمل طابعاً يمانياً واضحاً ، كالاملوك ، وشرعب ، وذو رُعين ، وذو يزن ، وذو أصبح ، وذو الكَلاع ، ومَيتم ، وأحاظة ، وحَضور ، وعلماء النسب يجعلون الملوك التبابعة والاوزاع من نسل سبأ الاصغر بن كعب بن زيد الجمهور .

أما مالك بن حمير فإليه تنتمي قبيلة قضاعة المشهورة ، ومن قبائلها المشهورة : بَلِيّ ، و بهراء ، ومَهرة بن حَيدان ، ونَهد ، وجُهينة وسَعد هُذيم ، وسَليح التي ينتسب اليها الضجاعمة ملوك الشام قبل غسان ، وجَرم بن ربان ، وتَنوخ (٢) ، وكلب بن و برة ، والنمر بن وبَرة ، وأسد بن وبَرة ، الخ (٣) ...

---

١ ـ العقد الفريد ٣/٣٦٩ جمهرة ابن حزم ص ٣١٠ . نسب عدنان وقحطان للمبرد ١٨ .

٢ ـ تنوخ ثلاثة بطون ، من اسد بن وبرة وقضاعة وشتى قبائل العرب، اجتمعوا بالبحرين وتحالفوا على التنوخ فيها ـ اي الاقامة ـ فسموا تنوخ . (جمهرة ابن حزم ص ٤٢٣ . تاريخ الطبري ١ / ٤٣٦) .

٣ ـ جمهرة ابن حزم ص ٤١١ الي ٤٣١ .

وقد ثار بين النسابين العدنانيين والقحطانيين منذ مطلع العصر الاموي نزاع عنيف حول اصل قبيلة قضاعة ، وشارك في هذا النزاع الخلفاء والولاة والشعراء ورؤساء القبائل ، ولعبت التيارات العصبية والسياسية دوراً بارزاً فيه . ويظهر ان ضخامة قبيلة قضاعة واتصالها بأحداث العصر الاموي كانا محور هذا النزاع والدافع اليه ، وكان ضم قضاعة الى احد الجانبين المتنازعين يؤدي الى ترجيح كفته في الميزان القبلي والسياسي . وقد انتهى النزاع حول نسب قضاعة بغلبة الاتجاه اليماني ، وسنعود الى تفصيل بواعث هذا الخلاف وما ثار بسببه من خصومات في حديثنا عن مظاهر العصبيات في عصر بني أمية .

ويذكر بعض رجال النسب انه وجد في كتاب بطليموس وفي كتب العجم القديمة ذكر القضاعيين ونبذة من أخبارهم وحروبهم (١) .

قبائل كهلان : يرجع النسابون قبائل كهلان كلها الى أرومتين : مالك وعريب ، ابنا زيد بن كهلان . فمن اشهر القبائل التي ينتهي نسبها الى مالك ابن زيد بن كهلان : همدان ، والأزد ، وبجيلة وخثعم .

ومن القبائل المنسوبة الى عريب بن زيد بن كهلان ، طيء ، والاشعرون ، ومذحج ، وعاملة ، ولخم ، وجذام ، وكندة وخولان (٢) .

الأزد : من اضخم قبائل كهلان وهي تتشعب الى قبائل كثيرة منها : غسان والعتيك ، وبارق والاوس والخزرج – وقد عرفت هاتان القبيلتان منذ الاسلام بالانصار حتى صار هذا الاسم بمثابة نسب لهم – ودوس ، ونصر بن زهران ، وغامد .

---

١ – جمهرة ابن حزم ص ٧ .

٢ – جمهرة ابن حزم ٣١٠ – ٤٠٥ .

ويذكر الاخباريون ان الأزد كان موطنها اليمن ، ثم نزحت عن ديارها مهاجرة قبيل خراب سد مأرب او بعده، وتفرقت قبائلها في مواطن شتى (١).

وبين النسابين خلاف في تعيين بطون الازد التي يجمعها اسم « غسان ». وهم يجمعون على ان اسم غسان مأخوذ من ماء مرت به بطون الازد بعد خروجهم من اليمن ، فمن شرب منه نسب اليه (٢) . ثم يختلفون بعد فيطلق بعضهم اسم غسان على جميع البطون المنحدرة من نسل مازن بن الازد (٣) ، ويقصره آخرون على طائفة من بطون مازن بن الازد ولكنهم يجعلون من غسان خزاعة والاوس والخزرج (٤) ، ويستدلون على قولهم ببعض ماقاله شعراء الانصار كحسان بن ثابت وكعب بن مالك (٥) . ويحدد ابن حزم دلالة غسان تحديداً أضيق فهي عنده لا تشمل قبائل الاوس والخزرج وخزاعة ، والبطون التي يجمعها اسم غسان هي عنده : بنو الحارث وجفنة ومالك وكعب ، بني عمرو مزيقياء ، يضاف اليهم ولد عمرو بن مازن بن الازد وبنو حارثة بن عمرو مزيقياء (٦) .

---

١ – تاريخ سني ملوك الارض للاصفهاني ص ٩٤ . تاريخ الطبري ٤٣٧/١ .

٢ – جمهرة ابن حزم ص ٣١٢ . الاشتقاق ٤٣٥/٢ .

٣ – نسب عدنان وقحطان للمبرد ص ٢١ .

٤ – الانباه ١١١ . نهاية الارب للنويري ٣١١/٢ . نهاية الارب للقلقشندي ص ٣٨٨ .

٥ – يقول حسان :

اما سألت فانا معشر نجب   الازد نسبتنا والماء غسان   (الديوان ص ٤١٣)

ويقول كعب بن مالك :

وغسان أصلي وهم معقلي   فنعم الارومة والمعقل   (الانباه ص ١٠٦)

٦ – جمهرة ابن حزم ص ٣١٢ ، ٣٤٧ ، ٣٥٣ . وبنو حارثة بن عمرو هم خزاعة في احد الاقوال .

بجيلة وخثعم : لا يختلف النسابون في أن بجيلة وخثعم هما ابنا انمار ، ولكنهم اختلفوا في نسب أبيهما انمار ، وهل هو انمار بن نزار ، او انمار بن اراش بن عمرو بن الغوث على ما ذكرنا قبل . وقد استدل القائلون بأن بجيلة وخثعم من عدنان بأرجاز تنسب الى جرير بن عبد الله البجلي وغيره ، وفيها اشارة الى ان أنماراً هو ابن نزار(١). ولكن المتتبع لاخبار اسلام بجيلة يلاحظ انها عوملت على انها من قبائل اليمن . وقد وكل الرسول عليه السلام الى جرير بن عبد الله بعد اسلامه أمر هدم ذي الخلصة ، بيت خثعم وبجيلة ، وكان يعرف باسم الكعبة اليمانية (٢) .

وبجيلة فيما ذكر النسابون، هي زوج أنمار، وقد نسب ولده منها اليها(٣) وقيل انها كانت امرأة حبشية حضنت بني انمار، باستثناء خثعم ، فنسبوا اليهـا (٤) .

وقد وقع بين بطون بجيلة قبل الاسلام نزاع وحروب ادت الى افتراقها في مختلف قبائل العرب . فلما جاء الاسلام واراد عمر توجيه جرير بن عبد الله

---

١ ــ ذكروا أن جرير بن عبد الله نافر الفرافصة الكلبي او خالد بن أرطاة الكلبي الى الاقرع بن حابس التميمي في الجاهلية فخاطب جرير الاقرع وعيينة بن حصن الفزاري بقوله :

ابني نزار انصرا اخاكما ان ابي وجدته اباكما

(سيرة ابن هشام ٧٤/١ ، الانباه ص ١٠٠ ، الاغاني ٥٤/١٩ ، نقائض جرير والفرزدق ١٣٩/١). ونسب بعضهم هذه الارجاز الى شاعر آخر من بجيلة اسمه عمرو بن الخثارم (انساب الاشراف ٢٢٣/١) وفي فرحة الاديب لابي الحسن الاعرابي : ص ٨٦ (مخطوط بدار الكتب) تفصيل لخبر هذه المنافرة ، وفيها أرجاز كثيرة مقولة على لسان عمرو بن الخثارم تؤيد نسبة بجيلة في معد .

٢ ــ سير أعلام النبلاء للذهبي ٣٨٠/٢ ، ٣٨٢ ، الاصنام لابن الكلبي ص ٣٤ .

٣ ــ أنساب الاشراف ٢٣/١ ، جمهرة ابن حزم ص ٣٦٥ .

٤ ــ الاغاني ٥٢/١٩ (ساسي) .

لقتال الاعاجم بالعراق سنة ١٤ هـ سأله ان يجمع له قبائل بجيلة ففعل وكتب الى احياء العرب التي نزلت فيها بطون بجيلة كتاباً بذلك ، وقد حفظت لنا بعض المصادر صورة هذا الكتاب (١) .

مذحج : يضم اسم مذحج جميع القبائل والبطون المتفرعة من مالك بن ادد بن كهلان : عَنس ، ومُراد ، وسَعد العشيرة ، والحارث بن كعب ، والنَخَع ، وصُداء وجنْب (٢) واسم مذحج الذي أطلق على مالك بن أدد وولده مأخوذ ، في قول بعض النسابين ، من اسم أكمة حمراء باليمن اجتمعوا اليها فقالوا : تعالوا نجعل مذحجا أماً لنا فتمذحجوا (٣) ، او هي أكمة حمراء ولدت عليها امهم فسموا بها (٤) . ويظهر ان اطلاق اسماء الاماكن على القبائل النازلة فيها كان أمراً شائعاً في اللغات السامية (٥) .

طيء : نسبها بعضهم الى مذحج ، ولكن جمهور النسابين على ان طيئاً أخو مالك بن أدد وليس ابنه (٦) . ويظهر ان هذه القبيلة كان لها شأن عظيم في العصر الجاهلي حتى ان بعض مؤرخي السريان والرومان أطلقوا اسمها على العرب كافة (٧) . وقد بقيت من هذه القبيلة بطون كثيرة يجمعها اليوم اسم « شمر » ولها السيادة على بوادي الجزيرة في بلاد الشام والعراق (٨) .

---

١ ــ شرح المفضليات للانباري ص ١١٤ وما بعدها .
٢ ــ جمهرة ابن حزم ص ٣٨١ ــ ٣٩٢ .
٣ الانباه ص ١١٢ .
٤ ــ الاشتقاق ٢/٢٩٧ .
٥ ــ Smith p. 18
٦ ــ الانباه ص ١١٦ . جمهرة ابن حزم ص ٣٧٤ . وفي شعر الطرماح الطائي اشارة الى ان طيئا من مذحج :

نحن الرؤوس على منهاج أولنا من مذحج من يسوي الرأس بالذنب
(ديوان الطرماح ١٢٨)

٧ ــ جواد علي ٤/٢٦٩ .
٨ ــ عشائر الشام ١/٧٢ .

عاملة : يدّعي نسّاب مضر ان عاملة ترجع في نسبها الى قبيلة ربيعة العدنانية وانها من ولد وائل بن قاسط ، ويؤيّدون دعواهم بشواهد من الشعر (١) . وردّها جماعة منهم الى عامر بن خزيمة بن مدركة (٢) ، ولكنها عند الجمهور قحطانية كهلانية . فعاملة وجذام ولخم وكندة قبائل ترجع كلها الى عديّ بن الحارث بن مرّة بن أدد .. بن كهلان (٣) . وقد نسبت هذه القبيلة الى عاملة ، وهي امرأة من قضاعة تزوّجها ــ فيما يزعمون ــ الحارث ابن عدي بن الحارث فنسب ولدها منه اليها (٤) .

لخم وجذام : هاتان القبيلتان هما أيضاً من القبائل التي تجاذبها نسّابو مضر واليمن فقد زعم الأولون أنهما من ولد عمرو بن أسد بن خزيمة بن مدركة (٥) . وزعم نفر من نسّابي مضر ان جذاماً هو ابن أسدة بن خزيمة اخي اسد ، وان ولد جذام غاضبوا أعمامهم فلحقوا بأرض الشام وانتموا الى اليمن (٦) .

والى لخم ينتمي آل نصر بن ربيعة الذين أقاموا دولة المناذرة بالحيرة ، على ان من النسّابين من عزاهم الى العدنانيين وجعلهم من أشلاء قنص ابن معد (٧) .

كندة : جمهور النسّاب على ان كندة قحطانية من كهلان . واختلفوا في

---

١ ــ نسب الى الاعشى قوله :

أعامل حتى متى تذهبين	الى غير والدك الاكرم
ووالدكم قاسط فارجعوا	الى النسب الاتلد الاقدم

(المعارف لابن قتيبة ص ٤٦)

٢ ــ الانباه ص ١٠٣ .

٣ ــ جمهرة ابن حزم ص ٣٩٤ .

٤ ــ الاغاني ٣٠٧/٩ . جمهرة ابن حزم ص ٣٩٤ . الاشتقاق ٣٧٣/٢ .

٥ ــ انساب الاشراف ٣٧/١ .

٦ ــ الانباه ص ١٠٤ . انساب الاشراف ٣٦/١ .

٧ ــ انساب الاشراف ٢٣/١ . سيرة ابن هشام ١٢/١ . تاريخ ابن خلدون ٤٧/٢ .

تعداد اسماء الذين تضمهم سلسلة نسبها في كهلان ، والاكثرون على ان كندة هو ثَور بن عُفير بن عَدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن كهلان (١) . وقد عرفت هذه القبيلة بكندة الملوك لانها اخضعت لسلطانها بعض القبائل العدنانية في العصر الجاهلي (٢) . ومن اشهر بطون هذه القبيلة السَكون والسكاسك ، وكان لهما مشاركة واضحة في أحداث العصر الاموي . ويلاحظ بصورة عامة ان الخلاف إنما وقع على الاغلب في نسب القبائل اليمنية التي نزحت عن ديارها الى مواطن أخرى في شمال بلاد العرب وفي بلاد الشام .

وللوقوف على تفصيل الانساب العدنانية والقحطانية وضعنا جداول لهذه الانساب استقيناها من شتى المصادر واثبتناها آخر هذا الكتاب (٤) .



---

١ ــ الانباه ص ١١٤ . جمهرة ابن حزم ص ٣٩٩ .

٢ ــ تاريخ ابن خلدون ٨/٢ .

٣ ــ تاريخ ابن خلدون ٣٨/٢ .

٤ ــ لم أعن في هذه الجداول بتتبع جميع بطون القبيلة وفروعها وانما اقتصرت على المشهورة منها ، وكذلك لم أعن باستيفاء تسلسل الآباء في كل قبيلة . وفي القبائل المتنازع في نسبتها أخذت برأي جمهور النسابين ، وكان جل اعتمادي في وضع هذه الجداول على جمهرة ابن حزم .

الفصل الثاني

المجتمع القبلي والعصبية القبلية



النظام القبلي

١

النظـام القبلي

نقصد بالنظـام القبلي ذلك النمط من الحيـاة الذي نجد فيه الأمـة الواحدة موزعة الى جماعات بشرية مستقلة ، يجمع بين افراد كل منها صلة النسب المشترك ، سواء كان هذا النسب حقيقياً أو وهمياً . وهذا النظام عرفته جلّ الامم في اطوارها البدائية الأولى ، وكانت القبيلة في العصور القديمة تمثل المرحلة الاولى من مراحل التنظيم الاجتماعي والسياسي . ثم اخذ هذا النظام يتقلص ظله كلما خطت الامم خطوات في طريق التحضر والمدنية حتى كاد يتوارى ، ولم يزل هذا النظام معروفاً في بعض الدول الى اليوم ، ولا سيما في المناطق التي يغلب على طبيعتها الطابع الصحراوي البدوي ، لأن النظام القبلي هو نمط الحياة الملائم لهذه المناطق .

وقد عرف العرب هذا النظام منذ اقدم عصورهم ، وجداول الانساب التي عرضنا لها في الفصل السابق مبنية كلها على اساس أن النظام القبلي كان يسود قديماً بلاد العرب كلها ، باديتها وحاضرتها ، اذ كان المجتمع العربي القديم مجتمعاً قبلياً صرفاً .

ومن المحقق ان النظام القبلي كان نظاماً ملائماً لطبيعة بلاد العرب التي يغلب عليها طابع الجفاف ، وتنتشر فيها الصحارى والبوادي . وقد احتفظ العرب طويلا بهذا النظام ، وحتى بعد ان وحّد الاسلام قبائل العرب وضمّ شتاتهم في دولة عربية واحدة ظل العرب محتفظين بكثير من خصائص النظام القبلي ، وظل الطابع القبلي هو الغالب على المجتمع العربي طوال العصر الاسلامي الاموي . وما زال هذا النظام معروفاً اليوم في كثير من ارجاء الوطن العربي ، ولا تزال بعض القبائل البدوية الحاضرة التي تعيش في بوادي الشام

والعراق والحجاز وصعيد مصر وغيرها تحمل أسماء عربية قديمة كشمّر وعنزة و جهينة وبلي وثمالة (١) .

والفارق الذي نلاحظه في حالة القبائل العربية قبل الاسلام وبعده ، ان القبيلة كانت تمثل قبل الاسلام وحدة سياسية واجتماعية مستقلة ، ولم يكن في بلاد العرب آنذاك نظام سياسي شامل يخضع لسلطانه شتى القبائل العربية، فلما جاء الاسلام وقامت الدولة العربية اضطرت هذه القبائل أن تتخلى عن استقلالها السياسي لتعيش في ظل نظام الدولة الواحدة، ولكنها ظلت محافظة على كيانها الاجتماعي المستقل حقبة طويلة من الزمن ، ولا سيما ان كثيراً من النظم الادارية في مطلع العصر الاسلامي كان مستوحى من النظم والاعراف القبلية . ولم تستطع الحياة المدنية المشتركة في الأمصار والحواضر الاسلامية ان تقضي على الروح القبلية الا بعد انقضاء احقاب طويلة . على انه منذ انتقال العرب الى المدن والحواضر اخذت عرى الرابطة القبلية تضعف يوماً بعد يوم لتحل محلها الرابطة المدنية ، وأخذت القبائل التي تعيش فيها تنسى مع الزمن اصولها الاولى وانسابها القديمة . اما القبائل التي آثرت سكنى البادية ولم يجرفها تيار الحياة الحضرية فقد ظلت محافظة على كيانها الاجتماعي وطابعها القبلي ، ومردّ ذلك الى طبيعة الحياة البدوية التي فرضت عليها الانعزال والاستقلال ، كما فرضت عليها لوناً من المعيشة لم يكد يختلف منذ أقدم العصور حتى اليوم (٢) .

وعلى الرغم من ان النظام القبلي كان يسود بلاد العرب كافة قبل الاسلام، لم يكن نمط المعيشة واحداً لدى هذه القبائل جميعها ، فثمة قبائل كانت تعيش في القرى والمدن حياة مستقرة ادنى الى التحضر بالقياس الى القبائل

١ ــ قصة الادب في الحجاز ص ٩٥ . عشائر الشام ١٢/٢ ، ٢٦٦ .

٢ ــ للوقوف على نماذج من حياة البدو اليوم يمكن الرجوع الى مصادر كثيرة منها : عشائر الشام لوصفي زكريا ، وجزيرة العرب في القرن العشرين لحافظ وهبه ، وكتاب نجد لموسل .

المتبدية : كقريش في مكة ، والأوس والخزرج في يثرب ، وثقيف في الطائف ، والغساسنة في بلاد الشام ، وآل نصر في الحيرة، وبني حنيفة بحجر واليمامة، الخ ... وثمة قبائل اخرى تمثل الكثرة الغالبة من قبائل العرب كانت تعيش على البداوة تنزل حيث تجد الماء والكلأ والمرعى الخصب ، فاذا ضنت السماء بالغيث وأمحلت الاوض، ارتحلت ظاعنة الى مواطن اخرى ترعى فيها سائمتها. وكانت القبائل المتحضرة تزاول الاعمال التي تلائم بيئتها ، فعانى بعضها الزراعة ، شأن القبائل النازلة بيثرب والطائف واليمامة واليمن ، وزاول بعضها التجارة : قريش في مكة ، وامتطت قبائل الأزد المقيمة بعمان وأسياف البحر متن اليم لصيد الاسماك واللآليء ، وقبائل اخرى في اليمن اقبلت على ضروب من الصناعة اتقنتها كصناعة السيوف والدروع ودبغ الجلود وحياكة الثياب ونحو ذلك .

ولم يكن للقبائل النازلة في البادية ان تعرف ما عرفته القبائل المتحضرة من ضروب المعيشة ، فقد فرضت عليها بيئتها القاسية ان تقنع في معيشتها بما تدرّه عليها ماشيتها من ألبان،وان تنتفع بما عليها من جلد ووبر وصوف، وربما اغتذت بلحومها اذا كانت على حظ من اليسر والرخاء . فان لم تجد اللحم قنعت بالتمر تجود به شجيرات تتناثر هنا وهناك على رمال الجزيرة . وقد طبعت هذه البيئة البدوية ساكنيها بطابع يميزهم من أهل الحضر ، وجعلتهم غير أهل لأن يألفوا معيشة أهل الحضر ويزاولوا ما يزاولون من اعمال حتى حين يعيشون في بيئتهم الحضرية . وهذا يفسر لنا سبب تخلي جلّ العرب الذين هاجروا الى الحواضر والأمصار الاسلامية واستقرّوا فيها عن ممارسة الحرف وشؤون الزراعة وتركها في يد الموالي .

على اننا لا ينبغي ان نغالي في تصوّر الفرق في أسلوب المعيشة بين القبائل الحضرية والبدوية ، فلم تكن القبائل النازلة في المدن والقرى تعيش حياة حضرية بالمعنى الدقيق لهذا اللفظ ، وانما كانت حياتها اقرب الى الطابع البدوي سواء من حيث خشونة الملبس وبساطة المأكل او من حيث العادات

والاعراف السائدة في مجتمعها . وكذلك لم تكن حياة القبائل المتبدّية ارتحالاً متصلا وضرباً في الارض على غير هدى ، شأن قبائل الغجر مثلا ، وانما كان لكل قبيلة منازلها ومراعيها المحدّدة التي ترتادها في مختلف فصول العـام ، ومياهها الخاصة بها والتي تنسب اليها ، وكل قبيلة كانت تتحامى النزول في مرابع القبائل الاخرى ، اتقاء لنشوب نزاع حربي . فالبداوة اذن هي نمط من الحياة شبه منظم يلائم مقتضيات البيئة .

وقو تركت الحياة القبلية سمات مشتركة في نفسية كل من الجماعتين ، فالعصبية القبلية مثلا كانت ظاهرة بارزة في حياة كل منهما ، وربما اضطرت بعض القبائل المتحضرة كقريش ، ان تضع من النظم ما يكفل استتباب الأمن والسلام في ربوعها ، صيانة لمصالحها ، ولكن الروح القبلية السائدة تكـاد تكون واحدة في القبائل الحضرية والبدوية .



٣

البنـــاء القبـــلي

القبيلة في النظام الأبوي تمثلها في الأصل جماعة ينتسب جميع أفرادها الى جد مشترك ويعتقدون ان رابطة الدم الواحد تجمع بينهم (١) . على أن لفظ القبيلة بهذا المفهوم الدقيق المحدد يقتضي ان تعيش القبيلة في عزلة تامة عن الجماعات البشرية المجاورة لها ، وهو أمر لم يكن ثمة سبيل الى تحققـه في البيئة العربية التي كثر فيها اتصال القبائل بعضها ببعض ، سواء من طريق الغزو والحرب او بنزول القبيلة في جوار قبيلة اخرى وتحالفها معها ، او بغير ذلك من الطرق ، ومن ثم لم تعد القبيلة مقصورة على صرحاء النسب فحسب ، وانما تضم اليهم ايضاً الموالي والأرقاء والمستلحقين .

والأسرة هي نواة القبيلة في النظام الابوي ، وليست القبيلة الا مجموعة من الأسر ، تجمع بينها أواصر الرحم وتلتقي انسابها عند الأب المشترك الذي تنتمي اليه القبيلة . وربما استقلت أسرة او مجموعة من الاسر مكونة قبيلة جديدة .

فالقبيلة تتكون اذن من مجموعة من الخلايا هي الأسر وكل خلايا القبيلة تعمل في اتجاه واحد هو مصلحة القبيلة المشتركة . والفرد في القبيلة لا يخضع للاسرة وانما لهذه المنظمة التي تسمو عليها وهي القبيلة . والرجل الذي يخرج على نظم القبيلة لا تأخذ أسرته بناصره وانما تتخلى عنه ليلقى عقابه ، وقد تنبذه القبيلة من بين ظهرانيها فيغدو طريداً لا يجد من يؤويه ويحميه ، على

---

١ – سنجري فيما يأتي على اطلاق لفظ قبيلة على اي ضروب الجماعات القبلية ، بغض النظر عن قلتها او كثرتها ، وعن المصطلحات التي تميز بين انواع هذه الجماعات .

حين ان القبيلة كلها تشد أزر هذا الرجل لو انه اعتدى على رجل من قبيلة اخرى . اذن لا بدّ من وجود رابطة قوية تصل بين ابناء القبيلة الواحدة برباط وثيق يسمو على روابط الأسرة ، وتلك هي ، في عقيدة القبائل العربية ، رابطة الدم الواحد الذي يجري في عروق جميع افراد القبيلة لاعتقادهم انهم ينحدرون من صلب أب واحد تنتمي اليه أسر القبيلة كافة .

وقد وقف الباحث روبرتسن سميث طويلا عند رابطة الدم هذه ، وعنده ان الجماعة القائمة على وحدة الدم هي اكثر الصور قدماً في المجتمع السامي ، وان إطلاق اسم « الحي » على الجماعة التي هي من دم واحد يعلل بالمبدأ السامي القائل بأن حياة الجسد ثاوية في الدم [1] .

ونحن لا نود ان نبحث هنا مختلف النظريات في تكوّن الجماعات القبلية الاولى عند العرب ، فقد تعرضنا لهذا الامر في الفصل الاول ، والذي يعنينا هنا هو دراسة النظام القبلي كما وجدناه قبيل الاسلام ، وفي الصورة التي استقر عليها بعدئذ . وقد اتفقت كلمة الباحثين على ان النظام الابوي كان هو السائد في هذه الحقبة ، وفي ظلّ هذا النظام تكون رابطة القرابة والانتماء الى الآب المشترك هي الرابطة التي تجمع بين ابناء القبيلة الصرحاء. على ان وحدة القبيلة لا يمكن إرجاعها الى صلات القربى وحدها ، فالقبيلة فيها الصرحاء وفيها من لا يمتّون اليها بصلة القرابة كالموالي والمستلحقين من القبائل الاخرى ، فثمة رابطة أخرى اذن تجمع بين ابناء القبيلة كلهم ، الصرحاء منهم وغير الصرحاء ، تلك هي المصلحة المشتركة في الحفاظ على كيان هذه الجماعة وصون بقائها وتوفير اسباب العيش لها ، وهذا يفسر لنا وقوف القبيلة كلها ، صرحائها ومواليها ، موقفاً موحّداً إزاء القبائل الاخرى ، كما يفسر لنا ظاهرة اخرى في المجتمع القبلي ، فقد تنفصل جماعة عن القبيلة الأمّ مكونة قبيلة

---

١ _ Smith p. 46

مستقلة ، وحينئذ قد يقع نزاع دموي بينها وبين الجذم الذي انفصلت عنه ولا تحول روابط القرابة دون وقوع هذا النزاع ، كما كانت تحول يوم كانت الجماعتان تؤلفان قبيلة واحدة ، وما ذاك الا لاختلاف مصلحة الجماعتين ؛ والعصبية القبلية التي هي مدار بحثنا انما تستمدّ وجودها من هذين الأمرين: الاعتقاد بوحدة الدم ، والمصلحة القبلية المشتركة .

وعلى ان النظام القبلي يحتفظ بسمات مميزة تظلّ واضحة فيه عبر الزمان ، سنرى ان تطوراً واضحاً طرأ على كيان القبيلة العربية منذ العصر الاسلامي . اما في العصر الجاهلي فكانت القبيلة وحدة سياسية مستقلة قائمة بذاتها ، كما كانت تمثل وحدة اجتماعية لها نظمها وأعرافها وتقاليدها ، فكل قبيلة كانت أشبه بدولة مصغّرة . بل ان في وسعنا اعتبار القبيلة وحدة دينية في بعض الاحوال ، لأن حرص القبائل على الاستقلال بنفسها جعل طائفة منها تنفرد من سائر القبائل بصنمها الذي تقدّسه وتقدّم له القرابين . فلم يكن للعرب آلهة مشتركة او أوثان تجمع على تقديسها قبائل العرب كافة ، بخلاف ما نجده عند كثير من الامم الوثنية القديمة .

الا انه لا ينبغي لنا ان نسرف في تصوير استقلال كل قبيلة عن أخواتها على هذا النحو الصارم المطلق . وقد يكون من الحق أن هذه الخلايا القبلية التي عاشت على أديم الجزيرة العربية قبل الاسلام لم تكن خلايا متآلفة متعاونة كخلايا الجسد الواحد ، ولكن من الحق ايضاً ان القبيلة كانت في احوال كثيرة تضطر الى ان تقيم بينها وبين قبائل اخرى ضروباً من المحالفات السياسية ، أو أن تستظل بفيء قبيلة قوية أو تخضع لسلطان احدى الامارات القائمة في انحاء بلاد العرب . وكذلك من الناحية الاجتماعية لم تكن القبيلة تعيش في عزلة تامة عن سائر القبائل الأخرى ، فالمصاهرات بين القبائل كانت أمراً مألوفاً ، وكان ثمة اسواق تختلف اليها شتى القبائل في مواسم معينة لتبادل السلع والتبايع والتفاخر ، فنحن في حاجة الى إدخال شيء من التعديل على صورة القبيلة العربية المستقرة في مخيّلتنا .

اما ضمن نطاق القبيلة فان هذه الوحدة السياسية والاجتماعية تتجلى بوضوح في خضوع جميع الافراد لسيد القبيلة ولنظمها وأعرافها الاجتماعية، لأن كل شخص إنما يستمد قوته وشعوره بالاطمئنان من قبيلته التي تحميه . وانتساب المرء الى قبيلة ما هو بمثابة البطاقة الشخصية التي تمنحه حقوق المواطن في هذه القبيلة .

تصنيف القبائل العربية

عني علماء النسب بوضع نظام هرمي للتجمع القبلي ، ولكنهم لم يتفقوا في مراتب هذا التصنيف ، فالأصول الكبرى في أنساب العرب كعدنان وقحطان يسميها بعضهم شعوباً (١) ويدعوها آخرون أجذاماً (٢) . وكذلك يختلفون في عدد هذه المراتب، فهي عند الزبير بن بكار ست (٣)، وعند ابن الكلبي وأبي عبيدة ونشوان الحميري سبع (٤) ، وجعلها آخرون عشر مراتب (٥) . ويكاد يتفق أصحاب التقسيم السباعي في تسلسل المراتب ، فهي عندهم : الشَعب ، فالقبيلة ، فالعمارة ، فالبطن ، فالفخذ ، فالعشيرة ، فالفصيلة (٦) . وحين يقصد علماء النسب الى التمثيل لهذه المراتب يختلفون أيضاً ، فقريش مثلا هي تارة عمارة وتارة أخرى فخذ (٧) .

---

١ — العقد الفريد ٣٣٥/٣ . الانباه لابن عبد البر ص ٤٥ . منتخبات في اخبار اليمن لنشوان الحميري ص ٥٥ .

٢ — جمهرة ابن حزم ص ٦ . نهاية الارب للنويري ٢٨٣/٢ .

٣ — العمدة لابن رشيق ١٨٢/٢ .

٤ — العقد ٣٣٥/٣ . العمدة ١٨٢/٢ . منتخبات ص ٥٥ .

٥ — نهاية الارب للنويري ٢٨٣/٢ .

٦ — في المنتخبات : الجيل ، بدلا من العشيرة .

٧ — العمده ١٨٢/٢ . نهاية الارب للنويري ٢٨٦/٢ .

وهذا التصنيف القبلي هو من عمل علماء النسب دون شك . وهو مبني على تسلسل الأنساب العربية في صورة تجمع هرمي ذروته عدنان او قحطان. واختلاف علماء النسب في مراتب هذا التصنيف دليل كذلك على انـه أمر مستحدث لم يعرفه القدماء . وربما كانت المصطلحات اللغوية تدل منذالقدم على فروق نسبية في ضخامة عدد القبائل ، فدلالة لفظ « الشعب » اوسع من دلالة « القبيلة » (١) . ولعل هذا هو المقصود من قوله تعالى : « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » (٢) . وكذلك نجد لفظ « بطن » أضيق دلالة من لفظ القبيلة . على انه من المحقق ان تصنيف القبائل على النحو الذي يذكره علماء النسب لم يكن معروفاً للقبائل العربية ، ونحن نجد الشعراء الجاهليين والاسلاميين كثيراً ما يستعملون الالفاظ الدالة على الجماعات القبلية دون ان يقصدوا بها تلك الدلالات المحددة التي يذكرها علماء النسب (٣) .

ونستخلص من الرجوع الى اشعار العرب أن لفظي « قبيلة » و « حي » كانا يدلان على مطلق القوم ، قلوا أو كثروا ، وانهما اكثر الالفاظ دوراناً على ألسن الشعراء .

وثمة اسماء تدل على قبائل تنفرد بصفات مميزة : كالأرحاء، والجماجم، والجمرات وغيرها . فالأرحاء جمع رحى ، ويراد بها القبائل التي احرزت دوراً ومياهاً لم يكن للعرب مثلها ، ولم تبرح اوطانهـا ودارت في دورهـا

---

١ ـ في القاموس المحيط : الشعب هو القبيلة العظيمة .

٢ ـ سورة الحجرات ، آية ١٣ .

٣ ـ نجد الفرزدق مثلا يذكر قومه بني تميم فيجعلهم عمارة :

انى وان كانت تميم عمارتي وكنت الى القدموس منها القماقم (النقائض ٢/٦١٢)

في حين انه في موضع آخر يذكر بني سعد ـ وهم فرع من بني تميم فيجعلهم قبائل :

لعلمت أن قبائلا وقبائلا من آل سعد لم تدن لامير (النقائض ٢/٩٠٧)

كالأرحاء على أقطابها ، الا أن ينتجع بعضها في البرحاء وعام الجدب (١) .
وينطبق هذا الوصف على قبائل ست هي : تميم وأسد في مضر . وكلب وطيء في اليمن . واثنتان في ربيعة (٢). وهذه التسمية تقابل ما يسمونه اليوم « بالعشائر نصف المتحضرة » . ومن هنا استقر تعريفها اللغوي على أنها القبائل المستقلة بنفسها ، المستغنية عن غيرها (٣) .

وأطلق لفظ الجمجمة على القبيلة التي تفرعت منها قبائل وبطون استقلت بأسمائها ، فالرجل اذا كان من أحد هذه البطون انتمى اليه دون الرجوع الى الأصل الذي تفرع منه (٤). والقبائل التي ينطبق عليها هذا الوصف ثمانية هي: غطفان ، وهوازن ، وكنانة ، وتميم ، وبكر بن وائل ، وعبد القيس ، ومذحج، وقضاعه(٥) . فبطون بكر مثلا استقلت بأسمائها فيقال لذلك : شيباني وذهلي وحنفي ، في حين أن بطون تغلب ترجع عند النسبة الى الأصل فلا يقال الا تغلبي . وفي هذا التعريف الذي ذكره اهل النسب نظر ، اذ اننا كثيراً مانجدهم ينسبون الى هذه الجماجم مباشرة فيقال : مذحجي وقضاعي وتميمي وكناني والأولى ان تعرف الجماجم على انها القبائل التي تفرّع منها كثير من البطون المشهورة .

والجمرات هي في تعريفهم : القبائل التي تجمعت في أنفسها فلم تدخل

---

١ ــ العقد الفريد ٣٣٥/٣ نقلا عن كتاب التاج لابي عبيدة .

٢ ــ المصدر السابق، ولم يذكر المؤلف قبيلتي ربيعة ويرجح ان تكونا عبد القيس ، وحنيفة لاستقرار الاولى في البحرين والثانية في اليمامة .

٣ ــ تاج العروس ١٤٦/١٠ .

٤ ــ العقد الفريد ٣٣٦/٣ .

٥ ــ المصدر السابق . وفي المحبر لابن حبيب ص ٢٣٤ ان جماجم العرب هي : طيء . وكلب . وحنظلة بن مالك . وعامر بن صعصعة .

معها غيرها ولم تدخل في أحلاف قبلية ، مأخوذة من التجمير وهو التجميع او من الجمر لقوتها . وجمرات العرب أربع : بنو نمير في قيس عيلان ، وبنو عبس في قيس عيلان أيضاً ، وبنو ضبة في خندف ، وبنو الحارث بن كعب في مذحج (١) ، وأضاف إليها بعضهم بني يربوع في تميم (٢) . وقد ذكروا أن قبيلتي بني ضبة وبني الحارث قد اضطرتا بعد الى محالفة قبائل أخرى فانطفأت جمرتهما اما بنو عبس ، وبنو نمير ، فقد ظلتا في زعمهم جمرتين متقدتين لأنهما لم تحالفا أحداً من العرب (٣) . على أن ما بين أيدينا من أخبار وأشعار يقفنا على انه ليس في قبائل العرب جمرة بالمعنى الذي ذكروا، فجميع قبائل العرب شاركت منذ العصر الجاهلي في أحلاف دائمة او مؤقتة . وقد جاء في خبر يوم شعب جبلة مثلا ان بني نمير كان معهم يومئذ حلفاؤهم قبيلة بارق (٤) . وكان بنو عبس في ذلك اليوم عينه متحالفين مع بني عامر على قبيلتي تميم وذبيان (٥) . ولعل إطلاق لفظ الجمرات على هذه القبائل إنما يصور شدة التماسك في بنائها القبلي وضراوتها في قتال أعدائها .

طبقات القبيلة

لم تستطع القبيلة العربية المحافظة طويلا على صفاء أصلها وتجانسها المبني على « وحدة الدم » في اعتقادهم ، فسرعان ما اضطرتها شروط حياتها ان تضم الى حظيرتها افراداً أو جماعات ينتسبون الى قبائل عربية أخرى ، وقد يكون هؤلاء في بعض الأحوال النادرة من الأمم غير العربية التي كانت تجاور بلاد العرب كالفرس والروم والأحباش ، فلم يعد من الممكن النظر الى القبيلة برمتها على أنها تؤلف « وحدة دموية متجانسة » ، وكان لابد من

---

١ ــ العقد الفريد ٣٦٧/٣ .

٢ ــ المضاف والمنسوب للثعالبي ص ١٢٦ . العمدة لابن رشيق ١٨٨/٢ . المحبر لابن حبيب ص ٢٣٤ .

٣ ــ العقد الفريد ٣٦٧/٣ . العمدة ١٨٨/٢ .

٤ ــ نقائض جرير والفرزدق ٦٥٩/٢ .

٥ ــ النقائض ٦٥٤/٢ .

التمييز بين ابناء القبيلة الصرحاء في نسبهم ، وهم الذين يرتبطون فيما بينهم بوشائج القربى والانتماء الى الأب المشترك ، وبين سائر الأشخاص المنضوين تحت لواء القبيلة ، وهم غير الصرحاء .

ومن الطبيعي ان تكون طبقة الصرحاء هي الطبقة الممتازة التي لها الصدارة في القبيلة وأن تحظى بامتيازات لايظفر بها سواها . وهي تنظر الى سائر طبقات القبيلة نظرة تنطوي على التعالي والإحساس بالتفوق. على ان هؤلاء الصرحاء أنفسهم ليسوا في مرتبة واحدة ، فالتمايز الفردي والجماعي دعامة شامخة من دعامات المجتمع القبلي ، والحياة القبلية كلها تدور في هذا الفلك. وهكذا نجد في نطاق طبقة الصرحاء ذاتها تفاوتاً بين أسر هذه الطبقة مردّه الى حظ كل منها من عراقة النسب ونبل المحتد واصالة الشرف . ولكل أسرة تراثها المعنوي الذي تبني عليه مكانتها في القبيلة والذي شادته على مر السنين مآثر الاسلاف ومناقبهم، والأسرة التي تكون في يدها ناصية الرئاسة والسيادة في القبيلة ينبغي أن يكون لها من شرفها ونبل محتدها ما يؤهلها لهذا المنصب الخطير والا نازعها فيه غيرها من الأسر . وثمة امران بارزان في كيان كل قبيلة هما العدد والبيت ، ويراد بالبيت الأسرة التي تتبوأ مركز السيادة في القبيلة لشرفها . وربما اجتمع الأمران لأسرة واحدة في القبيلة ، وحينئذ تصبح لها السيادة المطلقة فيها ، شأن بني همّام بن مرة في قبيلة بني شيبان(١) مثلاً، وبني مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة في بني تميم (٢) ، وبني ربيعة بن عامر بن صعصعة في قبيلة بني عامر (٣) . على أن مركز الثقل القبلي عرضة للتغير من حين الى آخر .

وتلي طبقة الصرحاء في القبيلة طبقة الموالي . ولفظ مولى من الألفاظ التي

---

١ ــ جمهرة ابن حزم ص ٣٠٦ .
٢ ــ جمهرة ان حزم ص ٢١١ .
٣ ــ جمهرة ابن حزم ص ٢٦١ .

يتسع إطارها اللغوي اتساعاً يلفت النظر ، وفيه من الشمول ومن المعاني المتضادة ما يجشم الباحث الكثير من العناء حين يلتمس له دلالة دقيقة مميزة . وتذكر معجمات اللغة بين معانيه ، المالك ، والعبد ، والمعتق ، والصاحب ، وابن العم ، والقريب ، والجار ، والحليف ، والنزيل ، والشريك ، والرب[1]. ونحن نلاحظ ان هذه المعاني كلها يجمع بينهـا الدلالة على القرب المادي والمعنـوي .

ولكن هل عرف العرب القدماء كل هذه الدلالات التي تذكرها كتب اللغة للفظ المولى ؟. اننا نجد انفسنا عاجزين عن رصد التطور الذي ألم بحياة هذا اللفظ على مر العصور ، لاننا لا نملك معاجم تاريخية تسعفنا في تحقيق هذا الأمر . والذي يتضح من الرجوع الى الوثائق الشعرية ان كلمة مولى كان لها عند القدماء دلالات ثلاث : أولاها القريب عامة وابن العم خاصة ، وهو مولى النسب او الولادة او القرابة . وثانيتها الجار ، وهو مولى الدار . والثالثة الحليف ، وهو مولى اليمين[2]. وقد جمع الحصين بن الحمام بين مولى الولادة ــ ابن العم ــ ومولى اليمين ــ الحليف ــ في قوله :

موالي موالينا ، الولادة فيهم ومولى اليمين حابساً متقسما[3]

---

١ ــ تاج العروس ٣٩٨/١٠ .

٢ ــ العمدة لابن رشيق ١٨٩/٢ . وقد ورد لفظ مولى بمعنى ابن العم في كثير من الشعر القديم من ذلك قول اللهبي : (تاج العروس ٣٩٩/١٠) .

مهلا بني عمنا ، مهلا موالينا امشوا رويدا كما كنتم تكونونا

ومن ورودها بمعنى الحليف قول الحصين بن الحمام : (الاغاني ٢/١٤) .

أيوكل مولانا ، ومولى ابن عمنا مقيم ومنصور كما نصرت جسر

٣ ــ المفضليات ص ٦٥ .

وجمع النابغة الجعدي بين هذين المعنيين أيضاً في قوله :

موالي حِلفٍ لا موالي قرابةٍ ولكن قطيناً يسألون الأعاديا(١)

وهؤلاء الموالي ليسوا كلهم سواء في حقوقهم ومنزلتهم . فابن العم هو من ابناء القبيلة الصرحاء ، اي الطبقة الممتازة في القبيلة . أما الجار والحليف فليسا في منزلة ابن القبيلة الصريح . والمولى الذي يعنينا هنا هو الحليف ، وهو الذي ينزل في جوار قبيلة ما او في جوار رجل منها ذي مكانة ، ويحالف هذه القبيلة على ان يغزو بمغزاها ويكون يداً معها على اعدائها ، ويخضع لاعرافها ونظمها ، لقاء قيام القبيلة بحمايته والدفاع عنه . وتحمل صلة الولاء هذه منذ القديم صورة عقد تحدد شروطه الأعراف السائدة ويفرض على الفريقين المتعاقدين واجبات متبادلة . ومن شروطه مثلا ان يعقل الرجل عن حليفه اذا ارتكب جناية وان يطالب بدمه اذا قتل (٢) . واقتران كلمة اليمين بهذا الضرب من الولاء يوحي بأن هذا الحلف كان يقترن بيمين توثق هذه الصلة وتبعث الاطمئنان في نفس الفريقين المتحالفين . وبموجب هذا العقد يغدو المولى الحليف عضواً في القبيلة المتحالف معها ، ولكنه لا يكون ابداً بمنزلة ابن القبيلة الصريح ، لان الفريقين هنا ليسا متكافئين في القوة ، والجماعة التي تأتي طالبة النزول في جوار قبيلة ما ومحالفتها تكون مضطرة لسلوك هذه الخطة ، وهي تعلم ان مكانتها في جوار قوم غرباء لن تكون مماثلة لمكانتها في بني أبيها . ومن المألوف ان نسمع موالي القبيلة يشكون من سوء معاملة حلفائهم لهم ومن اهتضامهم حقوقهم (٣) . ومن الامور التي استقر عليها العرف القبلي ان دية الحليف نصف دية الصريح(٤)، وهذا التمييز يشعر

---

١ – تاج العروس ٣٩٩/١٠ .
٢ – انظر خبر الحصين بن الحمام وحلفائه في الاغاني ١٤/١ وما بعدها .
٣ – انظر مثلا خبر زهير بن ابي سلمى وشكواه من اهتضام اخواله حقوقه (الاغاني ٢٩١/١٠) .
٤ – الاغاني ١٨/٣ .

بانحطاط منزلة الحليف عن الصريح . كما انه ليس من حق الحليف أن يجير وانما ذاك من حق الصرحاء وحدهم (١) .

ومنذ الاسلام نلاحظ كثرة استعمال كلمة مولى للدلالة على ضربين من الولاء انتشرا انتشاراً عظيماً بقيام الدولة الاسلامية وما استتبعه قيامها من حركة الفتوح واخضاع كثير من الامم الاعجمية لسلطان العرب وهما ولاء العتاقة ، وولاء الموالاة (٢) . فمولى العتاقة هو رقيق أعتقه سيده فصار مولى له . ومولى الموالاة هو رجل ينتمي الى آخر بالمحالفة فينسب اليه او الى قبيلته فينسب اليها ، وهذا الضرب من الولاء انما هو صورة جديدة من صور ولاء الحلف المعروف في الجاهلية . والفارق ان الحلف هنا يقوم بين قبيلة عربية وبين جماعة من غير العرب ارادت ان تستظل بحماية هذه القبيلة ، او بين رجل عربي ذي مكانة وآخر من العجم ، ومن هذا القبيل محالفة الأساورة والسيابجة قبيلة بني تميم بالبصرة (٣) .

وأغلب الظن ان ولاء العتاقة كان معروفاً منذ العصر الجاهلي (٤) ولكنه لم يكن كثير الشيوع عصرئذ لقلة دواعي العتق فيه . فلم يكن لهؤلاء الموالي كبير أثر في المجتمع القبلي والاحداث القبلية في ذلك العصر . فلما جاء الاسلام وقامت الفتوح كثر عدد هؤلاء الموالي كثرة هائلة ، واصبح لهم شأن عظيم في المجتمع الاسلامي ، وكانت لهم مشاركة بعيدة الاثر في الاحداث والفتن القبلية في عصر بني امية . وكان موالي كل قبيلة يتعصبون لها ويقاتلون الى جانبها ، الا ان مكانتهم كانت دون مكانة ابناء القبيلة من العرب ، ولم تستطع التعاليم

---

١ ــ سيرة ابن هشام ٣٨١/١ .

٢ ــ الموالي في العصر الاموي لمحمد الطيب النجار ص ١٤ .

٣ ــ فتوح البلدان للبلاذري ٤٥٩/٢ .

٤ ــ يؤكد ذلك ان هذا الضرب من الولاء كان معروفا في زمن الرسول عليه السلام ومن ابرز أمثلته ولاء زيد بن حارثة للرسول ، وكان اصابه سباء في الجاهلية وعرض للبيع فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة فوهبته لرسول الله فأعتقه . (اسد الغابة لابن الاثير ٢٢٤/٢) .

الاسلامية ان تمحو من نفوس كثير من العرب روح التعصب للجنس والتمايز العنصري . وقد اصبح هؤلاء الموالي جميعاً من غير العرب في العصر الاسلامي وما بعده لان العرب لم يعودوا خاضعين للاسترقاق منذ الاسلام ، ولم يكن يقبل منهم الا الاسلام او السيف (١) .

والطبقة الدنيا في القبيلة هي طبقة العبيد المسترقين . ونظام الرق من الأنظمة التي عرفتها جلّ الامم في العصور القديمة ، وكانت مصادره في العصر الجاهلي الحروب والوقائع التي كانت تقوم بين القبائل العربية . فمن وقع اسيراً ولم يفتده قومه إما ان يقتل واما ان يسترقّ (٢). وكذلك ما تسبيه القبيلة من نساء القبيلة الاخرى وولدانها يصبح رقيقاً لها . ومن مصادر الرقيق ايضاً الاختطاف والشراء . وكان الرقيق في العصر الجاهلي خليطاً من العرب ومن الامم المجاورة لهم ، وكان السود منهم اشد تعرضاً للاحتقار والازدراء ، وقد اطلقوا على من اشتهر بالشعر منهم لقب : «الأغربة» (٣) . ويظهر انه كان للرقيق اسواق يباع فيها كسوق عكاظ وسوق حباشة(٤) . والعبد ملك لمولاه هو واسرته وما يملك من مال ومتاع ، وله ان يبيعه او يهبه او يقتله . وقد جرى العرف القبلي على ان ابن الأمة يكون عبداً لابيه الا اذا أنجب او ادى من الاعمال ما يرضي عنه اباه فيلحقه بنسبه (٥) . وكان العرب يطلقون على ابن الأمة لفظ « الهجين » (٦) ، وهو لفظ يشعر معناه اللغوي الدال على اللؤم والخسة بمدى احتقار العرب أبناء الإماء .

---

١ ـ فجر الاسلام لاحمد امين ص ٨٨ .

٢ ـ في بعض أخبار الجاهليين ما يشير الى عادة بيع الاسرى . انظر مثلا ديوان الهذليين ٧٠/٣ والنقائض ١٣٩/١ .

٣ ـ عرف بهذا اللقب ثلاثة من شعراء الجاهلية هم : عنترة بن شداد، والسليك بن السلكة، وخفاف بن ندبة . (الاغاني ٢٤٠/٨) .

٤ ـ اسد الغابة ٢٢٤/٢ . النقائض ١٣٩/١ .

٥ ـ الاغاني ٢٣٧/٨ .

٦ ـ المصدر السابق ٢٣٩/٢ . لسان العرب مادة « هجن » .

وحين جاء الاسلام أقرّ مبدأ الاسترقاق الذي عرفه المجتمع القبلي في العصر الجاهلي ، وسبى الرسول في بعض غزواته نساء المشركين وذراريهم وقسمهم في المسلمين (١) . ولكن التشريعات الاسلامية قد منعت فيما بعد سباء العرب واسترقاقهم وجعلت الرق مقصوراً على الاعاجم ، والعربي ليس امامه الا الاسلام او السيف . وعلى رغم إقرار الاسلام مبدأ الاسترقاق نجد الآيات القرآنية والتعاليم الاسلامية تحث المسلمين على عتق الرقاب وتجعل ذلك من وسائل التكفير عن كثير من الأوزار ، وتوصي بحسن معاملة الرقيق (٢) .

وقد كثر الرقيق كثرة هائلة إثر حركة الفتح الاسلامي . فكل بلد يفتح عنوة يصبح اهله رقيقاً للفاتحين ، وللرجل ان يملك ما شاء من عبيد وإماء . وقد أقبل الناس على اقتناء الرقيق إقبالا شديداً حتى لم يعد ما يؤسر بطريق الحروب كافياً لسد حاجة الناس ، فصار الرقيق يجلب بالشراء من مختلف البلدان ، واصبح لطبقة الرقيق هذه شأن عظيم في حياة المجتمع العربي الاسلامي (٣) .

---

١ ــ انظر خبر غزوة بني المصطلق وغزوة حنين في سيرة ابن هشام ٢٩٤/٢ . ٤٥٩/٢ والاحكام السلطانية للماوردي ص ١٢٩ .

٢ ــ انظر سورة النساء الآية ٩٢ ، والمائدة الآية ٨٩ ، والمجادلة الآية ٣ .

٣ ــ انظر في موضوع الرق وأحكام الرقيق : فجر الاسلام لاحمد امين ص ٨٤ . وضحى الاسلام ٨١/١ .

٣

السيادة في المجتمع القبلي

عاش العرب في ظل النظام القبلي أعصراً طوالا ، وكانت القبيلة في ظل هذا النظام وحدة سياسية مستقلة تقوم مقام الدولة في النظام السياسي القائم على وحدة الامة كلها . فكان لا بد اذن من ان يكون لهذا المجتمع القبلي نظمه واعرافه التي تصون حياته وتشيع في من يعيشون في ظلـه الشعور بالأمن والاستقرار .

والمجتمع القبلي لم يكن مجتمعاً فوضوياً يتحدى كل ضرب من ضروب التنظيم السياسي والاجتماعي كما قد يتراءى للوهلة الاولى ، فعلى رغم النزعة الفردية المستقرة في نفس العربي كان يعلم ان خضوعه لنظم القبيلة واعرافها وتقاليدها واولي السيادة فيها أمر ضروري لبقائه وبقاء جماعته . ومن هنا ظهر التناقض في نفس العربي بين فرديته الغالية التي تدفعه الى السعي وراء منفعته الذاتية بكل السبل ، وبين نزعته القبلية التي تجعله يخضع خضوعاً مطلقاً لنظم قبيلته وتقاليدها وأولي الامر فيها ، وكثيراً ما تدفعه الى التضحية بحياته في سبيل الجماعة التي ينتمي اليها .

والقبيلة تكل عادة أمر الاشراف على شؤونها وسياسة امورها الى مجلس قبلي يترأسه سيد القبيلة . ومجلس العشيرة اليوم يضم شيوخ البطون والفرق التي يظلها لواء العشيرة (١) . ومن المرجح ان يكون المجلس القبلي في العصور القديمة مماثلا او مقارباً في صورته لمجلس العشيرة اليوم لما نعرفه من جمود الاوضاع القبلية وبطء تطورها . ومجلس القبيلة لا يجتمع للنظر في امور القبيلة اليومية فهي توكل عادة الى سيد القبيلة (الشيخ اليوم) ، وانما يجتمع في الملمات والامور الخطيرة كوقوع جدب في مراعي القبيلة او

---

١ ـ عشائر الشـام لوصفي زكريا ٢٠٥/١ .

لاعلان حرب أو فض نزاع داخلي خطير ، وفي سائر الأمور التي تقتضي المشاورة وتبادل الرأي بين ذوي السيادة في القبيلة والرجال المعروفين برجاحة الاحلام وسداد الرأي فيها[1] . ووجود مثل هذه المجالس في المجتمع القبلي يشف عن طابعه الديموقراطي .

ولكل قبيلة سيد يتولى تصريف امورها والنظر في شؤونها . وسيادة القبيلة من ضروب الامتياز التي تحتكرها الأسر المعرقة في الشرف والنبل في القبيلة . وليس هذا المنصب من الامور التي يطمع اي رجل من رجال القبيلة في الوصول اليها ، فنحن نجد في هذه الدولة المصغرة ألواناً من التناقض تحمل على العجب ، نجد الروح « الديموقراطية » سائدة في القبيلة ، فالافراد كلهم متساوون في حقوقهم ، ولأي رجل ان يخاطب سيد القبيلة خطاب الند للند وان يحاسبه على اعماله ، ومع ذلك فمنصب السيادة وقف على الطبقة الأرستقراطية الممتازة في القبيلة ، وهو حق لها لا ينازعها فيه منازع ، والعربي الديموقراطي النزعة يقر دون تذمر هذا التمايز القائم على الدم وعلى حظ كل اسرة من عراقة النسب ونبل المحتد .

وليس لدينا ما يعطينا صورة واضحة مفصلة عن طريقة اختيار سيد القبيلة ، وفي نظام العشائر اليوم ينتقل منصب « المشيخة » من الآباء الى ابنائهم بالوراثة ، ويستطيع شيخ العشيرة ان يختار من يخلفه من بين اخوته او ابنائه او احفاده. وربما كان الشيخ طفلا حدثاً فيوضع تحت وصاية احد أقربائه حتى يبلغ سن الرشد [2]. ولا شك ان انتقال السيادة بطريق الوراثة كان من المبادىء المعترف بها في المجتمع القبلي القديم [3] ، ومصداق ذلك قول بشامة بن الغدير :

---

١ ـ من اشارة الشعراء الى مجلس القبيلة قول الحطيئة في مدح آل شماس :

وان قال مولاهم على جل حادث ... من الدهر ردوا فضل احلامكم ردوا

٢ ـ عشائر الشام ١/٢٠٥ .

٣ ـ مقدمة ابن خلدون ص ١٣٢ .

وجدتُ أبي فيهم وجدّي كليهما يُطاع ويُؤتى أمره وهو محتبي
فلم أتعمّل للسيادة فيهم ولكن أتتني طائعاً غيرَ مُتعَبِ (١)

ولكن اختيار السيد لم يكن قائماً على الوراثة وحدها ، فلا بد من ان تتوافر صفات معينة في الرجل ليكون اهلا للسيادة . ولهذا فخر عامر بن الطفيل بأنه لم ينل السيادة من طريق الوراثة وانما لما يتحلّى به من كريم الخلال :

إني وإن كنت ابن سيّد عامر وفارسها المندوب في كل موكبِ
فما سوّدتني عامر عن وراثةٍ أبى الله ان أسمو بأمٍ ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمنكب (٢)

ومن بين ابناء الاسرة التي فيها « البيت » يختار أكفؤهم لتولي امور القبيلة ، وهذا مافسح مجالا لتنافس اشراف الاسرة التي لها الرياسة على مراتب الشرف والسيادة في القبيلة . وقد روت لنا المصادر الادبية أخبار طائفة من هذه المنازعات من أشهرها المنافسة التي قامت على رياسة بني عامر بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة ، وكلاهما من بني جعفر بن كلاب أصحاب البيت والرياسة في قبيلة بني عامر بن صعصعة ، وبسبب هذه المنافسة وقعت بينهما المنافرة المشهورة في كتب الادب (٣) . ونستدل من بعض الاخبار على ان السيد قد يختار من يخلفه من أبنائه ، فحصن بن حذيفة اختار لما حضرته الوفاة ابنه عيينة خلفاً له وحث سائر بنيه على طاعته (٤) . وقد يترك السيد أمر اختيار من يخلفه الى اسرته ، صنيع قيس بن عاصم حين حضرته الوفاة (٥) . واذا لم يكن بين رجال الاسرة ذات السيادة من هو كفء لتولي

---

١ ـ الحيوان للجاحظ ٩٥/٢ . وانظر ايضا ابياتا لمعاوية بن مالك في المفضليات ص ٣٥٥ .
٢ ـ ديوان عامر بن الطفيل ص ٩٢ . الحيوان للجاحظ ٩٥/٢ .
٣ ـ خبر هذه المنافرة في الاغاني ٥/١٥ (ساسي) .
٤ ـ امالي المرتضى ٥٣٠/١ .
٥ ـ الاغاني ٨٢/١٤ .

منصب الرئاسة فقد يخرج الامر من أيدي هذه الاسرة وتتولاها اسرة اخرى من الأسر النبيلة في القبيلة .

وثمة أسر بارزة اكتسبت شهرة بعيدة بين قبائل العرب لشرفها ونبل محتدها ، وكان مما يزيد في رفعة منزلتها توالي اربعة رؤساء فيها . ومن هذه الاسر آل حذيفة بن بدر في بني ذبيان وآل حاجب بن زُرارة في بني تميم ، وآل ذي الجدّين في بني شيبان ، وآل الديّان في بني الحارث بن كعب ، وآل الاشعث بن قيس في كِندة (١) .

والصفات التي ينبغي توافرها في السيد كثيرة توحي بخطورة هذا المنصب وصعوبة مرتقاه ، وعن هذه الصعوبة حدثنا حبيب الهذلي فقال :

وإن سيادة الأقوام فاعلم لها صَعداءُ مَطلبها طويل (٢)

وكان القدماء مُولعين باستقراء صفات السيادة فلا يزالون يسألون المسوّد في قومه عن الصفات التي ارتقت به الى هذه المنزلة . وقد ذكر الجاحظ ان مضر كانت تسوّد ذا رأيها وربيعة من أطعم الطعام ، وأما اليمن فعلى النسب (٣) ، وهذه أحكام عامة لا يصح الاخذ بها . والصفات التي ينبغي توافرها في السيد تكاد تكون مشتركة بين قبائل العرب كافة ، وهي تتصل بالتبعات الملقاة على عاتق السيد ، والتي يعرّض الاخلال بها حياة القبيلة لأخطار جسيمة . وفي طليعة هذه الصفات سداد الرأي ورجاحة العقل ، فالقبيلة تهتدي بهدي سيدها ، فان لم يكن على حظ وافر من بعد النظر وسداد الرأي عرّض قومه للمكاره والمخاطر .

---

١ — الاغاني ١٠٥/١٧ (ساسي) . العمدة لابن رشيق ١٨٣/٢ .

٢ — ديوان الهذليين ٧٧/٢ . الحيوان ٩٥/٢ . والصعداء : المشقة .

٣ — بلوغ الارب للالوسي ١٨٧/٢ ، نقلا عن الجاحظ في « شرائع المروة » .

والى جانب هذه الخصلة كان الحلم من أبرز الصفات التي تؤهل صاحبها لنيل السؤدد . ففي مجتمع مضطرب جم القلاقل كالمجتمع القبلي تكون للحلم المنزلة الاولى بين الخصال المؤهلة للسيادة . والعرب بطبيعتهم ، سريعو الانفعال ، تثيرهم الكلمة العارضة وتفور مراجل غضبهم اذا صافحت أسماعهم عبارة جارحة ، وسرعان ما يحتكمون الى السيوف ، فتراق الدماء وتتصل الوقائع . فكان الحلم لهذه الاسباب خصلة نادرة في المجتمع القبلي ، لا تتاح الا لمن أوتي حظاً عظيماً من القدرة على ضبط النفس وقلة الاستجابة لدواعي الاستفزاز والاثارة. وكان اتصاف سيدالقوم بالحلم خليقاً ان يجنبهم كثيراً من الشر، وأن يشيع في نفوسهم الشعور بالاطمئنان والأمن . وقد جنب الاحنف ابن قيس قومه كثيراً من الحروب بفضل حلمه الذي اصبح مضرب الامثال .

وللحلم جانب آخر يتصل بعلاقة السيد بجماعته . فهذه الخصلة تصور لباقته ومهارته « الدبلوماسية » في اصطناع منافسيه من أشراف القبيلة وصبره على تحديهم اياه ونيلهم منه ، واحتماله سفهاء قومه واغضاءه عن تطاولهم عليه .

والى جانب هاتين الخصلتين نجد خصلة ثالثة توازيهما منزلة هي وفرة المال ، وما ينبغي ان يتصل بها من الجود والسخاء وبذل الندى لأبناء القبيلة. والمجتمع القبلي قلما ينظر الى الرجل بعين التقدير والاجلال اذا كان فقيراً ذا خصاصة . وكان مما أوصى به قيس بن عاصم بنيه الحرص على استصلاح المال لانه منبهة للكريم (١) ، ولكن الغنى في ذاته ليس فضيلة ، وانما يكون فضيلة حين يبسط صاحبه كفه لابناء قبيلته، فيسد خلتهم، ويجبر كسرهم، ويطعم جائعهم ، ولذا وجدنا الشاعر يشترط اجتماع الثراء والجود معاً :

إذا المرء أثرى ثم قال لقومه ... أنا السيّد المفضى اليه المعمم
ولم يعطهم خيراً أبوا ان يسودهم ... وهان عليهم رغمه وهو ظالم (٢)

---

١ ــ الاغاني ٨٢/١٤ وانظر في هذا الصدد
Lammens : Le Berceau de l'Islam p. 211

٢ ــ الحيوان للجاحظ ٨٣/٣ .

وخصلة اخرى من خصال السيادة لاتقل عما ذكرنا شأناً هي الشجاعةوما يتصل بها من رباطة الجأش والصبر على المكاره والتجلّد للخطوب . فان الحياة المضطربة الحافلة بالمخاطر في المجتمع القبلي كانت تقتضي ان يكون على رأس القبيلة سيدشجاع مقدام لايتهيب لقاء الاعداء ولا يجبن عن شن الغارات والغزو ولا تتخلى عنه رباطة جأشه اذا أحدقت به الاخطار وتكنّفته المكاره . ومصير القبيلة كلها يتوقف على ما يتحلى به سيدها من مقدرة على مجابهة الاحداث الطارئة ، وما أكثرها في المجتمع القبلي .

وفضلا عما ذكرنا من خصال ينبغي ان يكون السيد ذا موهبة بيانية تتيح له التأثير في جماعته ، فيسلس له قيادهم ويلبّون دعوته مسرعين حين يستنفرهم ، والسيد البكيء اللسان المفحم لا يستطيع امتلاك ناصية قومه ولا الظفر باعجابهم . ولم تزل الخطابة عند العرب من الصفات الملازمة للرياسة والزعامة . وقد لاحظ بعض الباحثين ان الالفاظ الدالة على السيادة والحكم عند العرب اذا بحث عن اشتقاقها بمقارنة اللغات السامية الاخرى وجد ان معناها الاصلي هو القائل او المتكلم (١) ، وكثيراً ما تحلّ كلمةخطيب محل كلمة سيد في المفهوم القبلي (٢) .

وثمة خصال أخرى اذا وجدت في السيد رفعت شأنه ووطدت مكانته في قومه ، منها نصرة المولى ، وحماية الجار ، ونجدة الملهوف ، وان يكون ذا وقار ومهابة ، وان يُعرف بالحزم وسرعة البت في الامور وسعة الحيلة والتواضع ، والغيرة على مصلحة القبيلة وايثارها على منفعته الذاتية ، وعلى الجملة ، كان منصب السيادة يقتضي ان يجمع السيد نبل المحتد وعراقة النسب الى المواهب السياسية والكفاية الحربية والبراعة البيانية ، وهي شروط لا تتوافر الا لقلة من الناس .

على ان هذه الخصال لا يشترط اجتماعها كلها في سيد القبيلة ، وكثيراً ما تبرز احدى هذه الخصال او بعضها في الرجل فتكون سبب سيادته . فقد ذكروا ان الاحنف إنما ساد قومه بحلمه، وساد مالك بن مسمع بمحبةالعشيرة

---

١ ـ تاريخ الآداب العربية ، نلينو ص ٨١ .

٢ ـ Lammens : Le Berceau de l'Islam p. 222

له، وساد قتيبة بدهائه، وساد المهلّب بن أبي صفرة بجميع هذه الخلال (١) .

والى جانب هذه الصفات الخلقية ربما انضمّت صفات اخرى تتصل بالسمت والهيئة والسن . فالاكتهال من شروط السيادة في الغالب ، والقبيلة لا تطمئن الى وضع مقاليد أمورها في يد شاب حدث السن لم تعجمه الايام ولم تحنكه التجارب . وقد جاء في وصية قيس بن عاصم لبنيه قوله : «يابني»، اذا مت فسوّدوا كباركم ، ولا تسودوا صغاركم فيسفه الناس كباركم (٢) . ومما يرفع من شأن السيد ويزيد في توقير قومه له ان يكون حسن السمت مهيب الطلعة .

وقد جمع حسان طائفة من صفات السيادة في قوله :

وإنا لقوم ما نسوّد غادراً ... ولا ناكلا عند الحَمالة زُمّلا

ولا مانعاً للمال فيما ينوبه ... ولا عاجزاً في الحرب جبساً مُغفّلا

نسوّد منّا كل أشيبَ بارعٍ ... أغر تراه بالجلال مكلّلا (٣)

ولنا أن نتساءل بعد ما ذكرناه من شروط السيادة : هل كانت السلطة التي يتمتع بها السيد في قومه تكافيء هذه الشروط القاسية التي ينبغي توافرها في المرشحين لهذا المنصب ؟

الحق ان من أعسر الامور تحديد السلطات التي كانت القبيلة تخولها سيدها . وهي تختلف دون شك باختلاف القبائل والاعراف السائدة فيها ، وباختلاف شخصية السيد وما يتحلّى به من كفايات . وقد ذهب بروكلمان الى ان زعماء القبائل ليس لهم حقوق فعلية ألبتة ، وان كل ما يمتازون به هو ان ميل الناس للاستماع اليهم في المجالس العامة أشد من ميلهم للاستماع الى غيرهم ، وليس ثمة تكافؤ بين حقوقهم وبين واجباتهم الكبيرة التي تفرض عليهم التضحية بأرواحهم في سبيل قبيلتهم في حالة الحرب وبذل اموالهم في حالة السلم ، ومهمة سيد القبيلة لا تعدو المحافظة على وحدتها (٤) . الا ان فيما قاله بروكلمان مغالاة غير منصفة ، فثمة حقوق مادية لسيد القبيلة أقرتها الاعراف

---

١ ـ الكامل للمبرد ١/١٢١ . المحاسن والاضداد للجاحظ ص ١٠٦ .

٢ ـ الاغاني ١٤/٨٢ .

٣ ـ ديوان حسان ص ٣٥٠ . الحمالة : احتمال الديات . الزمل : الضعيف، الجبان . الجبس : اللئيم الذي لا يجيب الى خير .

٤ ـ بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ١/١٧ .

القبلية ، وهي تبيح له ان ينال ربع ما يصيبه قومه في الغارات ، الى حقوق أخرى جمعها الشاعر عبد الله بن عَنَمة الضبّي في قوله يرثي بسطام بن قيس سيد بني شيبان :

لك المرباعُ منها والصفايا وحُكمك والنشيطةُ والفضول(١)

والى هذه الحقوق المادية كان لسيد القبيلة سلطانه وحقوقه الادبية في قومه ، فهو رمز لوحدة القبيلة وتماسكها وقوتها ، وهي ملزمة بتوقيره وطاعة أوامره، والا تعرض كيانها لخطر الانقسام والتصدع وطمع فيها اعداؤها . ويتفاوت حظ سادة القبائل من هذا السلطان تبعاً لقوة شخصيتهم وكفايتهم وقد اصاب بعضهم من قوة السلطان وبعد النفوذ ما هو أدنى الى الاساطير ، فزعموا ان كليب بن ربيعة كان يحمي مواقع السحاب فلا يُرعى حماه ، ولا تورد إبل احد مع ابله ، ويجير على الدهر فلا تخفر ذمته ، ويجير الوحش فلا يُهاج وكان لايحتبي احد في مجلسه ، ولم يكن قومه ينزلون او يرتحلون إلا باذنه ، الى آخر ما تذكره الاخبار في بيان منزلته وعظيم سلطانه في قومه(٢) ونحو هذا يذكر في اخبار زهير بن جناب سيد بني كلب في زمانه (٣). وكانت قبيلة هوازن تعظّم سيدها زهير بن جذيمة تعظيماً شديداً ولا ترى فيه الا ربّاً(٤) وقد ذكروا في بيان منزلة الاحنف في قومه انه كان اذا غضب غضب له مائة الف سيف لا يسألونه فيم غضب (٥) .

---

١ ـ الاصمعيات ص ٢٨ . المرباع : ربع الغنيمة . الصفايا جمع صفي : ما يصطفيه الرئيس لنفسه من الغنيمة قبل اقتسامها . النشيطة : ما اصابه القوم قبل الغارة . الفضول : ما فضل من الغنيمة مما لا يمكن قسمته . وفي العصر الحاضر ينال شيخ العشيرة ثلث الغنيمة (عشائر الشام ٢١٦/١) .

٢ ـ الاغاني ٣٤/٥ .

٣ ـ الاغاني ٦٣/٢١ .

٤ ـ الاغاني ٨٢/١١ . والرب : السيد العظيم .

٥ ـ وفيات الاعيان لابن خلكان ٣٢٣/١ .

ولايفوتنا ان نلاحظ مافي هذه الاخبار وأمثالها من جنوح الى المبالغة والتزيد، على ان سلطان سادة القبائل ومنزلتهم الرفيعة في قومهم من الحقائق التي لا يمكن تجاهلها . وقد تحدث الشعراء كثيراً عن هذه المنزلة وعن طاعة القوم سيدهم (١) .

والسيد المحنك يتجنب اقامة سلطانه على القهر والظلم خشية تمرد قبيلته عليه . فليس من شيمة العربي احتمال الظلم وارتضاء البغي ، وفي مصرع كليب عبرة ماثلة لمن تسوّل له نفسه سلوك هذه الخطة ، وقدأصبحت قصة كليب أمثولة للباغين يرددها الشعراء ، كقول طرفة :

والظلم فـرّق بين حيّي وائل   بكر تساقيهـا المنايا تغلب(٢)

وازاء هذه الحقوق التي كانت القبيلة تمنحها سيدها كانت تفرض عليه واجبات وتبعات ثقالا ، وكان اخلاله بها خليقاً ان يعرضه للذم والثلب . ولم يكن منصب السيادة مجزياً من الناحية المادية على رغم ما يصيبه الرئيس من ريع الغنائم . وكانت القبيلة ترى من حقها مشاركة سيدها في ماله (٣) ، وعلى السيد احتمال ديات قومه ، ومن هنا جاء تعبير « السيد المعمّم » ويريدون به ان كل جناية يرتكبها رجل من عشيرته معصوبة برأسه(٤) .

---

١ ـ كقول القطامي مثلا :

ونطيع آمرنا ونجعل أمرنا   لذوي جلادتنا وحزم قوانا

(ديوان القطامي ص ١٨)

٢ ـ حماسة البحتري ص ١٦٧ .

٣ ـ يقول احدهم : « أما نحن فلا نسود الا من بذل لنا ماله واوطأنا عرضه ، وامتهن في حاجتنا نفسه » الكامل للمبرد ١/٧٥ . عيون الاخبار ١/٢٢٦ .

٤ ـ عيون الاخبار ١/٢٢٦ .

وفي معظم الاحوال كان سيد القوم هو الذي يتولى رئاستهم عند القتال. وكلمة «رئيس» تسبغ على صاحبها صفة القيادة الحربية . وقد يتخلّى سيد القوم عن مهمة القيادة الحربية لتقدم سنه، او لأي سبب آخر، وحينئذ يوضع زمام القيادة في يد رئيس يقود القبيلة في مغازيها وحروبها .

كذلك نجد في القبيلة طائفة من الرجال المحنكين تحتكم اليهم عند وقوع خلاف بين بطونها او بين اشرافها ، وعند المنافرات والمفاخرات، وهم ُحكام القبيلة . وقد اشتهر منهم في العصر الجاهلي : هَرِم بن قَطبة وأكثم بن صيفي وَضمرة بن ضمرة والأقرع بن حابس وعامر بن الظَرب[1]. وكان العرب في الجاهلية ربما احتكموا الى الكهان والعرافين حين تلتبس عليهم الامور ويصعب الحكم فيها ، وقد استدل بعض الباحثين من أخبار هؤلاء المحكّمين ذوي الصفة الدينية ، ومن طراز حياة القبائل العربية ، على إمكان وجود سلطة عليا دينية تسمو على التنظيم القبلي [2] .

١ – البيان والتبيين ٢٩٠/١ . الاشتقاق ٢٤٩/١ . ٢٦٨/٢ ، ٢٨٣/٢ وتجد في النقائض ١٤٩/١ اسماء حكام بني تميم في الجاهلية .

٢ – بلاشير ص ٣٦ .

٤

الصلات الحربية والسلمية في المجتمع القبلي

العقيدة التي يتبناها كل عضو في المجتمع القبلي هي ان القبيلة وحدة مستقلة بذاتها لا يعنيها الا الذود عن سلامتها والحرص على كيانها وتوفير اسباب المعيشة والبقاء لمن ينتمون اليها. وكل جماعة تنظر الى سائر الجماعات القبلية المحيطة بها نظرتها الى منافس يزاحمها على موارد الحياة واسباب الرزق . فلا غرو ان تنطوي نظرتها اليها على العداوة والكراهية والحسد والطمع وما الى ذلك من المشاعر التي تكنها الجماعات التي تتنازع البقاء بعضها لبعض . ومن هنا رأينا العرب يعيشون في عصرهم الجاهلي في وحدات متنافرة ، وجماعات متعادية ، يتربص بعضها شراً ببعض ، ويهتبل كل سانحة للاغارة عليه وسلبه نعمه وشاءه وماله ، وكل منها لسان حاله قول الشاعر :

ونرعى ما رعينا بين عبس ... وطيئها وبين الحي بكر
وكلهم عدو غير مبق ... حديث قرحه يسعى بوتر(١)

ومن هنا ايضا كانت صلة القبائل بعضها ببعض تقوم أول ما تقوم على العداوة والغزو والنزاع المتصل . ولم يكن ثمة مجال لتفتح الوعي القومي في ظل هذا النظام القبلي ، لان نظرة العربي لم تكن تجاوز حدود قبيلته ، فهي عالمه ومناط تفكيره ، وآماله ، وكان لا بد ، لتوحيد القبائل العربية ، من ظهور عقيدة تسمو على العصبية القبلية ، وتحطم حواجز الكراهية والعداء التي كانت تباعد بين قبائل العرب ، وهذا الامر حققته الدعوة المحمدية التي جاءت تحمل الى العرب عقيدة دينية تؤلف بين قلوبهم وتسمو على العصبيات القبلية الضيقة .

---

١ ـ المفضليات ص ٣٢٨ .

بيد ان طبيعة الحياة في البيئة العربية ، واضطرار القبيلة الى النزول في جوار قبيلة اخرى في بعض الاحيان ، وتعذر تحقيق الاكتفاء الذاتي في القبيلة ، وعدم امكان استغناء الجماعات القبلية بعضها عن بعض ، كل ذلك حمل قبائل العرب على ان تتخلى احياناً عن روح الشر التي يكنها بعضها لبعض وعن نزعاتها العدوانية ، وان تفسح المجال لاقامة صلات سلمية فيما بينها تظهر في صورة احلاف وموادعات قبلية ، ولقيام أسواق ومواسم يشهدها من شاء من قبائل العرب دون ان تتعرض لخطر العدوان عليها ، وان تقرّ طائفة من الاعراف القبلية من شأنها نشر سلام دائم او مؤقت في ربوع الجزيرة العربية ، وتأذن للعربي ان يتنقل في ارجاء بلاد العرب مستظلا بحماية هذه التشريعات التي أوجدتها ضرورات الحياة المشتركة والتي تقوم كلها على مبدأ المعاملة بالمثل ، قانون الصحراء الامثل .

الغزو وتوابعه

لم يكن الغزو عند العرب اذن ضرباً من اللهو ، وبديلا من حياة الفراغ والبطالة ، وانما كان ضرورة حيوية ألجأتهم اليها قسوة طبيعتهم وقلة الخيرات واسباب الرزق في بيئتهم ، وهو صورة من صور تنازع البقاء في مجتمع فقير مجزأ تتنافر وحداته ، ويسعى كل منها في سبيل تحقيق منفعته الذاتية . فاذا شعرت القبيلة بتناقص مواردها او آنست نضوب مياهها ووقوع الجدب في مراعيها حشدت قواها وانتهزت غرة بعض القبائل المجاورة لها ، لتغير عليها وتستاق ما تجده من نعم وشاء وتسبي النساء والولدان ، وتعود الى حيّها فخوراً بالظفر الذي حققته والسلب الذي حصلت عليه . ولم يكن اقدام احدى القبائل على غزو قبيلة اخرى يلقى في المجتمع القبلي اي استنكار او استهجان ، إلا حين تخرق القبيلة القوانين المتعارف عليها ، بل على النقيض من ذلك نجد القبيلة القادرة على الغزو تكون موضع تقدير جميع القبائل واعجابها . وكل قبيلة كانت تعتدّ الغزو من مفاخرها التي تعتزّ بها ، وشاعر القوم يحرص عند الفخر ، على تعداد ما قامت به قبيلته من غزوات ، وينوّه بمقدرتها على شن الغارات على جيرانها ، ولسان حال القبائل العربية كلها قول القطامي :

وكنّ إذا أغرن على قبيلٍ ... فأعوزهنّ نهب حيث كانا
أغرن من الضِباب على حِلالٍ ... وضبة، إنه من حان حانا
واحياناً على بكرٍ أخينا ... اذا مالم نجد إلاأخانا (١)

فالغزو محك لقوة القبيلة ، واختبار لشجاعة فرسانها . والقبيلة العاجزة عن الغزو لا تحظى في المجتمع القبلي الا بنظرة الازدراء والاستخفاف . وان من أوجع الذم ان نسمع الشاعر يصف القبيلة بالعجز عن الغزو وعن ايقاع الشر بالقبائل الاخرى ، كقول قُريط بن أنيف في قومه :

لو كنتُ من مازنٍ لم تستبح ابلي ... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
قوم اذا الشرّ أبدى ناجذَيه لهم ... طاروا اليه زُرافات ووحدانا
لكنّ قومي وان كانوا ذوي عددٍ ... ليسوا من الشرّ في شيءوان هانا(٢)

ولكن هل كان الغزو في ذاته فضيلة يفاخر بها في المجتمع القبلي ؟.. ان الغزو لم يكن يوماً من الايام فضيلة في ذاته وانما كان ضرورة من ضرورات الحياة والبيئة ، واعجاب العرب بالقبيلة القادرة على الغزو مردّه الى ما يدلّ عليه الغزو من قوة القبيلة وشجاعة فرسانها وهو الى ذلك دليل على جدارتها بالبقاء في مجتمع يتزاحم افراده على لقمة العيش ، ويتنازعون ما يجدون فيه من أسباب البقاء اليسيرة . ولذلك كانوا يتجنّبون إهراق الدماء عبثاً في هذه الغارات ، ولا يقتلون الا حينما لا يجدون مناصاً من القتل ، وكان همّ الغُزاة موجهاً الى السلب والسبي وأسر من يطمع في فدائهم . فالمسوّغ القويّ لاقرار المجتمع القبلي الغزو هو كونه ضرورة لا محيص عنها ، ولاستناده الى مبدأ المقابلة بالمثل :

وكنت اذا قوم غَزوني غزوتهم ... فهل أنا في ذا يالهمدانَ ظالم (٣)

---

١ ــ حماسة ابي تمام ٣٢٩/١ . ديوان القطامي ص ٥٨ .

٢ ــ حماسة ابي تمام ٨/١ .

٣ ــ البيت لعمرو بن براقة الهمداني . وكان حريم المرادي أغار على ابله واستاقها فأغار عمرو على المرادي واستاق كل شيء له وقال قصيدته التي منها بيته المذكور . (الاغاني ١١٣/٢٢، أمالي القالي ١٢١/٢) .

والقبيلة العاجزة عن الغزو تحتقر لا لعزوفها عن الشر والقتل وكرهها سفك الدماء والسلب ، ولكن لانها لاتقيم الدليل على جدارتها بالحياة والبقاء .

وعلى رغم طابع الفوضى الذي يسود كثيراً من احوال المجتمع القبلي ، ومنها الغزو ، نجد الاعراف القبلية قد لطّفت من حدة هذه الفوضى وأسبغت عليها شيئاً من التنظيم . ففي الغزو مثلا أقرّت هذه الاعراف عدم جواز الغزو بين القبائل المتحالفة التي ارتبط بعضها ببعض بعقود الجوار او المهادنة او المؤاخاة ، واذا اتفق ان خرجت احدى القبائل على هذه الاعراف قوبل عملها بالاستنكار والاستهجان في المجتمع القبلي . وثمة أعراف اخرى تتصل بأسلوب القتال وتوزيع الاسلاب ومعاملة الاسرى ، ونحو ذلك .

فاذا انجلت الغارة عن هزيمة احد الفريقين استاقت القبيلة الظافرة ماتجده عند القبيلة المغزوة من نَعم وخيل وماشية وسبَت نساءها وذراريها، وأسرت من وقع في يدها من فرسان العدو . ويقضي العرف القبلي بافتداء القبيلة أسراها ، فان لم تفعل لهوان الرجل عليها ، او لعجزها عن أداء فديته او لاي سبب آخر أصبح الاسير عبداً لآسره . ومن الامثلة المشهورة في هذا الصدد امتناع لقيط بن زرارة من افتداء أخيه معبد ، وكان بنو عامر أسروه في يوم رحرحان فغالوا في طلب فدائه ، فأبى لقيط ان يؤدي اليهم اكثر من مائة من الابل ، وأبي معبد ان ياكل او يشرب فكانوا يشحون فاه ويصبّون فيه الطعام والشراب لئلا يهلك فيذهب فداؤه ، فلم يزل كذلك حتى مات (١) .

وفي بعض الاحوال كان الاسرى يتعرّضون للقتل، وذلك حين يكون للقبيلة الظافرة ثأر عند قبيلة الاسرى ، صنيعَ بني أشجع ببني عامر يوم الرَقم ، فقد ذكرت الاخبار أنهم ذبحوا منهم سبعين أسيراً لوقعة كانت بنو عامر اوقعتها بهم من قبل (٢) ، وصنيع بني تيم بعبد يغوث الحارثي يوم الكلاب الثاني (٣)، فان كان الاسير من اشراف قومه ربما منّ عليه آسره فأطلقه بغير فداء .

١ ـ الكامل للمبرد ٢٨٧/١ .
٢ ـ تاريخ ابن الاثير ٣٩٣/١ .
٣ ـ النقائض ١٤٩/١ . الاغاني ٦٩/١٥ (ساسي) .

ولكن في أغلب الاحوال يطلق سراح الشريف طمعاً في المثوبة والجزاء . ويحرص الآسر علي جز ناصية أسيره قبل إطلاقه لتكون بمثابة وثيقة في يده يبرزها عند الفخر او عند طلب الجزاء (١) ، وقد لخص احد الشعراء المصير الذي يلقاه الفرسان في الغارات بقوله :

فهمُ ثلاثــةُ أفرقاء ، فسابح ... في الرمح يعثر في النجيع الاحمرِ
ومكبل يُفدى بوافر مـــالــه ... إن كان صاحب هَجمة او أيصرِ
او بـــين ممنـــونٍ عليه وقومه ... إن كان شاكرَها وإن لم يشكر (٢)

وقد اصبح جز النواصي رمزاً للنصر في الغارات ، ودليلا ماثلا على قوة القبيلة . وكان افتداء الاسرى يتم غالبا إبان الاشهر الحرم (٣) ، وفي الاسواق التي تلتقي فيها قبائل العرب آمنة مطمئنة ، كسوق عكاظ ودُومة الجنــدل ومَجَنّة وذي المجاز ، وكان من المعتاد ان يكون الفداء معادلا للدية ، أي مائة من الابل ، وقد يغالي بعضهم في طلب الفداء اذا كان الاسير موفور الثراء او ذا جاه في قومــه .

---

١ ـ انظر امثلة لجز النواصي في كتاب اسماء المغتالين ص ١٢٩ . وفي الاغاني : ٥/١٠ ، ١٥٨/١١ ، ١٣/١٤ وفي النقائض ٧٨١/٢ .

٢ ـ المفضليات ص ٣٢٧ والابيات لعوف بن عطية التيمي احد شعراء الجاهلية . الهجمة : القطيع من الابل . والايصر : كساء يحتش به يريد انه صاحب ابل او شاه .

٣ ـ انظر النقائض ٦٦/١ .

الصلات السلمية

قدمنا ان ضرورات الحياة المشتركة في المجتمع القبلي واستحالة اكتفاء القبيلة بذاتها واستغنائها عن اخواتها ، كل ذلك ادى الى قيام صلات سلمية بين قبائل العرب ، لولاها لكانت الحياة غير محتملة في ذلك المجتمع .

فكذلك نجد أن صلة القبائل بعضها ببعض لم تكن دائماً صلات العداوة والقطيعة ، فصلات **المصاهرة** بين مختلف القبائل ولا سيما بين القبائل المتجاورة في مواطنها ، كانت امراً مألوفاً في المجتمع القبلي ، والاخباريون يحدثوننا عن مصاهرات حدثت منذ فجر الحياة القبلية ، وكان من شأنها ان ارتبطت قبائل كثيرة برابطة القرابة والرحم . وقد ضرب المثل بأم خارجة التي خلف عليها عدد كبير من الرجال تنتمي اليهم طائفة من القبائل العربية (١) . ونجد أمثلة اخرى في كتب الانساب لهذا الضرب من المصاهرات التي حدثت في وقت مبكر (٢) . ثم نجد هذه الظاهرة تكثر ويتسع نطاقها في العصر الجاهلي القريب من الاسلام وقد أدت هذه المصاهرات الى اشتباك الارحام وتوثيق صلات القربى بين أسر تنتمي الى قبائل شتى ، كما ادت الى ظهور عصبية قبلية من طريق الامهات والاخوال . وقد اصبحت هذه المصاهرات منذ العصر الاسلامي وسيلة من وسائل دعم النفوذ السياسي واصبح لها شأن خطير في الاحداث والعصبيات القبلية التي ذرّ قرنها في عصر بني أمية .

ومن المبادىء المعترف بها في المجتمع القبلي **القرى** فالمسافر في الصحراء اذا جنّ عليه الليل او دهمته رياح عنيفة التجأ الى اقرب خباء يلقاه في طريقه التماساً للمأوى والطعام . ولولا إقرار هذا العرف المستند الى مبدأ المقابلة

---

١ ــ جمهرة ابن حزم ص ٢٦٧ .

٢ ــ انظر مثلا في جمهرة ابن حزم ص ١٩٥ خبر بنات مر بن أد ، ومن تزوجن من الرجال .

بالمثل لكان الانتقال عبر الصحراء أمراً مستحيلاً. وإخلال الرجل بهذا الواجب كان يعرضه لاقبح الذم والهجاء . وكان أشراف القبائل واجوادهم يوقدون النار ليلا ليراها الضيفان فيقصدوهم ، وقد اصبح قرى الضيف من اعظم المآثر والمفاخر القبلية . ومن العجيب ان هذا البدوي الذي كان ينتهز كل سانحة للغزو والسلب معرضاً حياته للقتل في سبيل ذلك ، كان اذا نزل به ضيف انقلب رجلا مسالما مضيافاً ودوداً يرعى حق ضيفه ، ولا يفكر في الاعتداء عليه ولا في مد يد الاذى اليه .

ومن هذه المبادىء ايضا **الاجارة** ، فاذا فر الرجل من قومه لجناية ارتكبها، واضطر الى النزول في قبيلة يخشى على نفسه غدرها به ، او ليحتمي بها من اذى قبيلة اخرى ، حسبه ان يستجير برجل من أشراف القبيلة التي لجأ اليها ليغدو آمناً على حياته وعياله وماله . وبفضل هذا القانون الوقائي استطاع الرسول الكريم ان يصدع برسالة ربه وهو مقيم بين ظهراني قومه المشركين ، لانه كان يستظل بحماية عمه ابي طالب، ولم يجرؤ احد من المشركين على مد يد الاذى اليه ما كان ابو طالب على قيد الحياة (١) .

ويظهر انه كانت للاجارة مظاهر و « تقاليد » متعارف عليها ، فكان يكفي ليدخل رجل في جوار رجل آخر ان يصل رشاءه برشائه (٢) ، او يتحرم بطعامه (٣) ، او يستجير بقبر ابيه او احد اجداده (٤) ، او يستظل بظل خبائه (٥) ، وربما كان أكل شق ثمرة من ثمار الرجل كافياً لنيل حق الجوار

---

١ ــ كتاب العثمانية للجاحظ ص ٢٣ .

٢ ــ أغار حشم النعمان بن المنذر على ابل لعياض بن ديهث فاستجار بالحارث بن ظالم المري واخبره انه وصل رشاءه برشائه ، فقبل جواره واسترجع له ابله (بلوغ الارب للالوسي ١٣٣/١) .

٣ ــ من هذا القبيل تحرم عبيد الله بن زياد بطعام مسعود بن عمرو والتزام مسعود باجارته لذلك . (البيان والتبيين ٦٨/٢) .

٤ ــ من ذلك استجارة احد بني كلاب بقبر ابي عمير بن سلمى الحنفي (الكامل للمبرد ٢١٠/١).

٥ ــ انظر الاغاني ١٣٢/١١ .

عنده حتى لو كان المستجار به غائباً عن الحي (١) . وتتسم الاجارة بسمة عقد شفهي يذاع نبؤه على القوم ويلتزم المجير بمقتضاه بحماية جاره والثأر به اذا قتل . كما ان إلغاء هذا العقد يجري وفق « مراسم » متعارف عليها ، ويقترن باعلان المجير تبرأه من جاره على ملأ من القوم . ونرى صورة لتقاليد الاجارة العلنية والتبرؤ منها في خبر إجارة الوليد بن المغيرة عثمان بن مظعون ، في مستهل الدعوة الاسلامية ، ثم تبرئه من جواره . وكذلك في خبر دخول أبي بكر في جوار ابن الدغنة سيد الأحابيش ثم ردّ جواره عليه (٢) . وحق الاجارة وقف على الصرحاء من ابناء القبيلة فحسب اما الحليف فليس من حقه ان يجير (٣) .

وقد اصبحت حماية الجار والوفاء بعهده في طليعة ما تفاخر به القبائل العربية ، وما تعتده من مآثرها ، وقلّ ان يخلو فخر قبليّ من الاشارة الى هذه المأثرة . وقد بلغ من تحمس بعض العرب لرعاية الجوار مبلغاً عجيباً . فقد أجار احدهم جَراداً سقط قرب بيته ومنع الناس من اصطياده (٤) ، وأجار رجل من بَجيلة حدأة مرّت به ، وبسببها وقعت حرب دامية بين بطون بجيلة (٥) . وحدثت بسبب الاعتداء على حرمة الجوار وقائع كثيرة بين قبائل العرب ، ومنها الحروب التي وقعت بين الأوس والخزرج على أثر مقتل جار لمالك بن العجلان الخزرجي ، وقد ذكروا ان الوقائع ظلت متصلة بين هذين الحيّين عشرين سنة بسبب هذه الحادثة (٦) . وربما أدّى مقتل الجار الى انقسام القبيلة على نفسها ووقوع الحرب بين بطونها . ومنها الحروب التي نشبت بين الحُصين بن الحمام ورهطه بني سهم بن مُرة وبين اخوانهم

---

١ ـ انظر الاغاني ٣/٣ خبر تحرم قيس بن الخطيم بجوار خداش بن زهير .
٢ ـ سيرة ابن هشام ٣٧٠/١ ، ٣٧٢ والاغاني ٣٧٤/١٥ .
٣ ـ انظر سيرة ابن هشام ٣٨١/١ .
٤ ـ كتاب العرب لابن قتيبة ص ٣٦٦ .
٥ ـ معجم البكري ٦٠/١ .
٦ ـ الاغاني ١٨/٣ .

بني صِرمةَ بن مرة (١) . وربما حمل الوفاء الرجل على أن يدفع بأخيه للقتل بواء بجاره (٢) .

على ان رعاية الجوار لم تكن سنة ملتزمة في جميع الاحوال ، وليس من النادر ان نسمع الجار يشكو ظلم جيرانه واهتضامهم حقوقه : « إذ لا يكاد أخو ِجوار يُحمَدُ (٣) » . وقد تغلب الطبيعة العدوانية والطمع في نفس الرجل على شعوره بالولاء لجاره فيغدر به ويقتله ، ولكن هذا الغدر الذميم يعد من أقبح النقائص في المجتمع القبلي .

الاحلاف القبلية

ان ظروف الحياة في المجتمع القبلي قد ألجأت القبيلة في كثير من الاحيان الى عقد أواصر التحالف مع بعض القبائل المجاورة لها او مع جماعات من قبائل اخرى جاءتها تلتمس محالفتها والنزول في جوارها .

وحين تنزل جماعة ما في جوار احدى القبائل وتحالفها لا تكون منزلتها مساوية لمنزلة حليفتها ، لان التماس الحلف ناجم عن ضعفها وشعورها بالحاجة الى حليف تعتز به . وقد تؤثر الجماعة الدخول في نسب حليفتها ، وحينئذ تتخلى عن نسبها وتقطع كل صلة تربطها بقبيلتها الأم ، وفي حالة الاندماج هذه

---

١ ـ الاغاني ٢/١٤ .

٢ ـ نزل بعمير بن سلمى الحنفي جار من بني كلاب ثم عدا أخو عمير على أخي الكلابي فقتله فلما قدم عمير أسلم اخاه الى جاره فقتله بأخيه ، وفخر عمير بصنيعه فقال :

قتلنا أخانا للوفاء بجارنا   وكان ابونا قد تجير مقابره   (الكامل للمبرد ٢١٠/١)

٣ ـ ديوان الحطيئة ص ٦٦ . وانظر خبر البرج بن مسهر في حماسة ابي تمام ٣٢٦/١ . وانظر ايضا الاغاني ٢١/١٣ .

تصبح افراد هذه الجماعة بمثابة أبناء القبيلة الصرحاء ، وهذه الظاهرة كثيرة الشيوع في المجتمع القبلي ، وفي كتب الانساب وغيرها امثلة كثيرة لها (١) .

وقد فسرت طائفة من الباحثين اسماء بعض القبائل بأنها كانت في الاصل اسماء احلاف قبلية ضمت عدداً من القبائل اتحدت مصالحها فتحالفت واندمج بعضها ببعض(٢) . وقد ذكرت كتب الانساب اسماء بعض القبائل التي كانت في الاصل مجموعة من البطون المتحالفة ثم اندمج بعضها ببعض مكونة قبيلة مستقلة ، ومن هذه القبائل تنوخ ، وفرَسان ، والعِباد (٣) .

وقد تجد القبيلة الصغيرة نفسها في جوار قبيلة قوية كثيرة العدد ، فتسعى الى محالفتها حرصاً على سلامتها ولتحتمي بها من أعدائها . وفي هذا الضرب من التحالف ، لا نجد كذلك تكافؤاً في الحقوق والمنافع المادية بين الفريقين المتحالفين ، لان كل تحالف مبعثه الشعور بالذلة والضعف يقتضي نزول القبيلة الضعيفة عن جانب من حقوقها للقبيلة القوية . ولكل شيء ثمنه في المجتمع القبلي ، وربما اضطرت القبيلة الى اداء الاتاوة الى سيد القبيلة التي تبسط عليها حمايتها (٤) . ولم يزل هذا الحق معترفاً به اليوم للعشائر القوية ، فشيخ العشيرة القوية يتقاضى « الخوة » من القبائل الضعيفة لقاء تعهده بحمايتها والدفاع عنها (٥) .

---

١ ــ من هذا القبيل دخول اليرابيع وهم بطن من النمر بن قاسط في نسب حلفائهم بني القين من تغلب (الاغاني ٣٤٢/٩) وانظر امثلة اخرى في جمهرة ابن حزم ص ٢٧٥ ــ ٢٧٨ ــ ٢٨٣ ــ ٢٩٦ ــ ٤١٨ . وفي الاشتقاق لابن دريد ٣٢٠/٢ .

٢ ــ جواد علي ٣٥٢/١ .

٣ ــ العباد : قبائل شتى من بطون العرب اجتمعت بالحيرة على النصرانية وفرسان : بطون تحالفت على ان تنسب الى هذا الاسم وتراضت به . (الاشتقاق ١١/١) .

٤ ــ انظر ما يدل على ذلك في الاغاني ٨٢/١١ و ٢٣/٥ .

٥ ــ عشائر الشــام ٣٣٤/١ .

ولكن هناك ضرباً آخر من الاحلاف القبلية يكون الفريقان فيهمتساويين في الحقوق والواجبات ، ولهذه الاحلاف غاية مزدوجة : اتحاد القبائلالمتحالفة وعملها معاً في حالة الحرب ، دفاعية كانت او عدوانية ، وايجاد منطقة أمن تشمل مناطق القبائل المتحالفة ، وتسمح لافراد هذه القبائل بان يتجولوا ويتنقلوا فيها آمنين على انفسهم واموالهم .

وبعض هذه الاحلاف كانت توجده ضرورات القتال الطارئة ، ومتىانتهت الحرب انفرط عقد القبائل المتحالفة وانفض حلفها . وهذه الاحلاف المؤقتة كانت كثيرة في المجتمع القبلي الجاهلي ، وجل أيام الجاهلية يظهر فيه هذا الضرب من المحالفات العارضة ، ففي يوم الكلاب الثاني تحالفت قبائل مَذحج وَهمدان وكندة للاغارة على بني تميمبعد ان أوقع بهم كسرىفييوم الصفقة(١)، وفي يوم شِعب جبلة تحالفت بنو تميم وبنو ذبيان وأسد وطوائف من كندة على بني عامر (٢) . وبسبب هذه المحالفات الطارئة كان المجتمع القبلي في العصر الجاهلي في حركة مستمرة وكانت الاوضاع القبلية عرضة لتغير متصل .

وثمة أحلاف أخرى يمكن تسميتها بالاحلاف الدائمة،قياساً الى الاحلاف المؤقتة التي تحدثنا عنها ، ولو ان كل الاحلاف القبلية كانت عرضة لان تنفصم ُعراها في اي حين ، فكل ما في المجتمع القبلي يتصف بسمة التحرك والتغير المستمر . وكان الدافع الى ظهور هذه الاحلاف شبه الدائمة السعي وراء توازن القوى في المجتمع القبلي . وفي الغالب تكون القبائل المتحالفة متجاورة في مواطنها ، شأن بني أسد وغطفان ، ولكن ليس من الضروري ان تكون بينها روابط قربى او اشتراك في النسب ، لان الدافع الوحيد الى قيام هذهالاحلاف انما هو اتحاد مصالح القبائل المتحالفة ، ولذلك نجد قبيلة غطفان تحالفقبيلة اسد وترفض محالفة بني عامر ، مع ان قرابتها بهم أمسّ اذ كلاهما من قيس عيلان (٣) .

---

١ ــ الاغاني ١٥/٦٩ (ساسي) . النقائض ١/١٤٩ .
٢ ــ تاريخ ابن الاثير ١/٣٥٥ . العقد الفريد ٥/١٤١ .
٣ ــ ديوان النابغة الذبياني ص ٩٨ .

وليس كل الاحلاف غايتها التناصر في القتال ، فثمة احلاف غايتها دفع الظلم ، او نشر الامن في ربوع القبيلة . ومن هذا القبيل حلف الفضول بين بطون قريش بمكة (١) . فقد كان الدافع اليه حرص قريش على نشر الامن في ديارها وابعاد خطر الحرب عن مكة ، لتظل لها حرمتها بوصفها محجاً لقبائل العرب ومُتجَراً لها .

وحين تشترك القبائل المتحالفة في حرب ما تحتفظ كل قبيلة غالباً بقيادتها مستقلة ، وهذا ما يعرف بـ « التساند » وهو من مظاهر العصبية القبلية . فالقبيلة تأنف ان يتولى قيادتها رئيس من غيرها . إلا ان بعض زعماء القبائل استطاعوا بقوة شخصيتهم وكفايتهم الحربية والادارية وبذل مَحتدهم الوصول الى مرتبة تقر لهم معها بالرئاسة جميع القبائل المتحالفة . وممن بلغ هذه المنزلة حصن بن خذيفة الفزاري رئيس الحليفين اسد وغطفان (٢) .

وكثيراً ما نجد القبيلة تنقسم على نفسها بسبب وقوع التنافس والنزاع بين بطونها ، فيجتمع عدد من هذه البطون مؤلفا ما يمكن ان ندعوه « حلفا داخليا » وحينئذ تضطر سائر بطون القبيلة الى توحيد قواها في حلف مماثل ، وهذا الضرب من الاحلاف يؤدي الى إضعاف القبيلة وتصديع وحدتها ، وقد يضطر كل فريق ان يحالف بعض القبائل الاخرى ليستعين بها على قتال الفريق الآخر . فحين وقع النزاع بين بطون قبيلة ثقيف وقامت الحرب بين « الاحلاف » وبني مالك اضطر بنو مالك الى محالفة دوس وخثعم ، وذهبت الاحلاف تلتمس محالفة الأوس والخزرج (٣) . وكذلك حين تنازع بطنا نَهد وجَرم ، وكلاهما من قضاعة ، حالفت نهد بني الحارث بن كعب ، وحالفت جرم بني زُبيد (٤) ، ومن هذه الاحلاف الداخلية تحالف بني سعد والرِباب على بني حنظلة وبني

---

١ ـ سيرة ابن هشام ١٣٣/١ . وذكر ابن حبيب في المحبر ان قبائل حلف الفضول هي بنو هاشم وبنو المطلب وبنو زهرة وبنو تيم (ص ١٦٧) .

٢ ـ البيان والتبيين ٩/٣ .

٣ ـ تاريخ ابن الاثير ٤٢٠/١ .

٤ ـ شرح حماسة ابي تمام ١٥٩/١ .

عمرو بن تميم [1] . ومنها انقسام قريش بسبب التنازع على الرفادة والسقاية الى كتلتي « الاحلاف » و « المطيبين » [2] .

وقد اقترن عقد الاحلاف بشعائر من شأنها ان تضفي على الحلف مسحة من القداسة تجعل كل انتهاك له وزراً عظيماً وخيم العواقب . وليس لدينا ما يقدم لنا صورة مفصلة عن هذه الشعائر ، ونحن نستخلصها من الاخبار المتفرقة التي انتهت الينا . ويظهر انها لم تكن واحدة في جميع الاحوال ، والظاهرة المشتركة بينها هي توكيد الحلف بالقسم [3] . وفي المحالفات التي تعقد بين قبائل متحدة في الديانة قد يتم عقد الحلف في معبد القوم ـ الكعبة مثلا ـ او لدى صنم يقدسه المتحالفون وبذلك يكتسب الحلف حرمة دينية . ففي حلف المطيبين مثلا اجتمع بنو عبد مناف واحلافهم في البيت ومسحوا الكعبة بأيديهم ، وكذلك تعاقد خصومهم الاحلاف بنو عبد الدار ومن معهم عند الكعبة توثيقاً لحلفهم [4] ، وثمة احلاف اخرى تم عقدها في اسواق العرب [5] .

ولتوثيق ارتباط الجماعات المحتلفة بعضها ببعض كان يلجأ في الغالب الى غمس ايدي المتحالفين في سائل كالدم او الماء او الرُب ، او في مادة اخرى كالملح او الرماد [6] . وقد ذكر سميث ان التحالف بالدم من اقدم صورالحلف

---

١ ـ نقائض جرير والفرزدق ١٥٥/١ .

٢ ـ انساب الاشراف ٥٥/١ . تاريخ ابن الاثير ٢٦٧/١ . المحبر لابن حبيب ص ١٦٦ .

٣ ـ الحيوان للجاحظ ٤٧٠/٤ . اللسان مادة « حلف » .

٤ ـ تاريخ ابن الاثير ٢٦٧/١ .

٥ ـ يتضح ذلك من قول الحارث بن حلزة في معلقته :

واذكروا حلف ذي المجاز وما قدم فيه العهود والكفلاء

(شرح المعلقات العشر للتبريزي ص ٣٢) .

٦ ـ أنساب الاشراف ٥٦/١ .

التي عرفتها الامم القديمة ، ونجد ذلك في حلف اسرائيل مع الامم الاخرى في التوراة ، ويراد منه ان الفرق المتحالفة قد أصبحت كتلة واحدة بمزج دماء بعضها ببعض او تذوق كل منها دم الاخرى مع مسح الاحجار المقدسة به (١). وقد اشار هيرودوت في حديثه عن العرب القدماء الى شيوع التعاقد بالدم عندهم (٢) .

ومن أحلاف الدم المشهورة عند العرب حلف لعقة الدم في قريش . فحين وقع الاختلاف بين بطون قريش بصدد السقاية والرفادة، جاء بنو عبد الدار بجفنة مملوءة دماً ثم تعاقدوا هم وحلفاؤهم على الموت وأدخلوا ايديهم في تلك الجفنة فسموا لعقة الدم (٣) ، ويقال ان بعضهم لعق من ذلك الدم. وقد عابوا على المطيبين غمس أيديهم في الطيب ، لأن الطيب لربات الحجال (٤) . ومنها حلف الأجارب ، وهم خمس قبائل من بني سعد : ربيعة ومالك والحارث والحرام وعبد العزى بنو كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، نحروا جملا جرباً فأكلوا لحمه ثم غمسوا أيديهم في دمه وتحالفوا (٥) .

وفي احلاف اخرى نجد المتحالفين يستعيضون عن الدم بالماء او الشراب او الطيب ، ففي حلف المطيبين أخرجت بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا فغمسوا ايديهم فيها (٦) . وتحالف ولد عبد مناة بن أد على بني عمهم تميم بن مر

---

١ _ Smith p. 58

٢ _ جواد علي ٣٦٠/١ .

٣ _ بعض المصادر تجعل سبب عقد هذا الحلف اختلاف بطون قريش عند بناء الكعبة . (سيرة ابن هشام ١٩٦/١) ونحن نرجح ان لعقة الدم هم « الاحلاف » عينهم ، كما يستدل من اخبار المصادر الاخرى ، وان الخلاف بين بطون قريش سببه التنازع على الرفادة والسقاية (انظر انساب الاشراف ١/ ٥٥ ، وتاريخ ابن الاثير ٢٦٧/١) .

٤ _ انساب الاشراف ٥٦/١ .

٥ _ النقائض ٩٦١/٢ .

٦ _ تاريخ ابن الاثير ٢٦٧/١ وانظر ايضا خبر عطر منشم في شرح ديوان زهير ص ١٥ .

فغمسوا ايديهم في رب فسموا الرباب (١) . وفي حلف الفضول عمدت بطون قريش الى ماء من زمزم فغسلوا به أركان البيت ثم شربوه (٢).

وكانت قبائل العرب اذا أرادوا عقد حلف أوقدوا ناراً وتحالفوا عندها(٣)، وربما طرحوا في النار الطيب او الملح او غير ذلك . وثمة حلف استمد اسمه من هذه النار وهو حلف « المَحاش » ، فقد ذكروا ان بني ُخصيلة بن مرة وبني ُنشبة بن غيظ بن مرة تحالفوا على بني يربوع بن غيظ بن مرة ، رهط النابغة الذبياني ، فأوقدوا ناراً وتحالفوا عندها حتى محشتهم ، اي أحرقتهم ، فسموا المحاش (٤) ، ومن ثم اطلق اللغويون لفظ المحاش على القوم من قبائل شتى يجتمعون فيتحالفون عند النار (٥) . وربما أطلقوا على نار الحلف لفظ الهُولة لانهم يهولون بها على المتحالفين لئلا ينقضوا حلفهم (٦) .

ويظهر انه كانت لهم عبارات مألوفة يرددونها عند التحالف كقولهم : **الدم، الدم ، الهَدَم الهَدم ، لا يزيده طلوع الشمس إلا شداً ، وطول الليالي الا مداً ما بل بحرٌ صوفه . الخ** (٧) . . .

وثمة احلاف استمدت اسمها من مناسبات خاصة، منها البراجم: وهم عمرو

---

١ ــ جمهرة ابن حزم ص ١٨٧ .

٢ ــ الاغـاني ٦٥/١٦ (ساسي) .

٣ ــ الحيوان للجاحظ ٤٧٠/٤ . نهاية الارب للقلقشندي ص ٤٦٢ .

٤ ــ شرح ديوان النابغة للبطليوسي ص ٦٩ . الحيوان ٤٧٠/٤ . وقد تحدى النابغة سيد المحاش يزيد بن سنان فقال :

جمع محاشك يا يزيد فانني جمعت يربوعا لكم وتميما

٥ ــ تاج العروس ٣٤٨/٤ .

٦ ــ الحيوان ٤٧٠/٤ . تاج العروس ٥٩٠/٣ مادة هول .

٧ ــ الحيوان ٤٧٠/٤ . والهدم : اهدار دم القتيل .

والظليم وغالب وكلفة وقيس بنو حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم . وسموا بذلك لان عددهم كان قليلا فقال لهم أحد أشرافهم : ايها القبائل التي قلّ عددها، تعالوا فلنجتمع، فلنكن كبراجم اليد ففعلوا فسموا البراجم(١). ومنها الأحابيش ، وهم حلفاء قريش من بني كنانة وغيرهم ، تحالفوا عند جبل يقال له حبشي فسموا الاحابيش (٢) .

وثمة حلف جاهلي كان له طابع ديني يميزه من الأحلاف القبلية الاخرى هو حلف « الحُمْس » وهو يضم قبائل كنانة وقريش وخزاعة وطوائف من بني عامر بن صعصعة (٣) . وليس في أخبار هؤلاء الحمس ما يقدم لنا صورة واضحة عن طبيعة حلفهم والغاية منه . فقد ذكروا أنهم سُمّوا حمساً لتشدّدهم في احوالهم ديناً ودنيا (٤). ونقل ابن هشام عن ابن اسحاق ان قريشاً ابتدعوا رأي الحمس اعتزازاً منهم بمنزلتهم في قبائل العرب لكونهم أهل الحرم وولاة بيته ، فينبغي ان يكون لهم من الحق والميزة ما ليس لغيرهم . وقد أرادت قريش ان تجعل للحرَم منزلة تفوق منزلة مناسك الحج ولهذا قصرت تعظيمها عليه وتركت الوقوف على عرفة والافاضة منها ، ثم أدخلت في امرها من ولدتهم قريش من القبائل الاخرى (٥) . وقد ألزم الحمس أنفسهم ضروباً

---

١ ــ جمهرة ابن حزم ص ٢١١ . الاشتقاق ٢١٨/١ . والبرجمة : المفصل الظاهر ، والباطن من الاصابع .

٢ ــ الاشتقاق ١٩٣/١ . تاج العروس ٢٩٣/٤ وهناك خلاف في سبب تسميتهم بالاحابيش وفي القبائل التي يشملها هذا الاسم . انظر ايضا سيرة ابن هشام ٣١٢/٢ . العمدة لابن رشيق ١٨٥/٢ .

٣ ــ شرح حماسة ابي تمام للتبريزي ٧/١ . شرح المفضليات للانباري ص ٢٥٩ . وقد اضاف ابن حبيب قبائل اخرى : ثقيف وعدوان ويربوع بن حنظلة وطوائف من قبائل اليمن (المحبر ص ١٧٨) .

٤ ــ المصدران السابقان .

٥ ــ سيرة ابن هشام ١٩٩/١ .

من التشدّد كثيرة منها أنهم كانوا اذا احرموا لايسلؤون السمن، ولايأقطون الأقِط و لايدخلون بيتاً من شَعر(١) ، ولا يستظلّون أيام منى (٧) ، ولا يحلّ لنسائهم غزل الوبر ولا يأكلون لحماً ولا يمسّون دهناً ولا يلبسون الا جديدا ، الى ضروب أخرى من التشدد (٢) .

وقد ذكروا أن قريشاً اشترطت على الحجاج والعمّار ألا يطوفوا بالبيت إلا في ثياب الحمس وإلا طافوا عراة ، وأن يطرحوا ما معهم من الزاد اذا دخلوا الحرم ، وكلفوهم الافاضة من المزدلفة (٤) .

ولما جاء الاسلام لم يقرّ للحمس بهذه الامور التي فارقوا بها سائر قبائل العرب فأمرهم أن يُفيضوا من حيث افاض الناس (٥) اي من عرفات ، ونهى الناس عن التعرّي في الطواف ، وأباح لهم ان يطعموا من زاد الحلّ (٦) ، فوضع بذلك أمر الحمس (٧) .

ويقابل الحمس من قبائل العرب الأخرى ، الحلّة ، والطلس ، وهم يخالفون الحمس في شعائرهم أيام الحج (٨) .

---

١ ــ سيرة ابن هشام ٢٠٢/١ . شرح الحماسة ٧/١ . سلأ السمن : طبخه وعالجه . الاقط : شيء يتخذ من المخيض الغنمي .

٢ ــ العمدة لابن رشيق ١٨٨/٢ .

٣ ــ المحبر لابن حبيب ص ١٧٨ .

٤ ــ مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه ص ١٨ . سيرة ابن هشام ٢/١ .

٥ ــ سورة البقرة آية ١٩٩ .

٦ ــ سورة الاعراف آية ٣١ .

٧ ــ سيرة ابن هشام ٢٠٣/١ .

٨ ــ تجد تفصيل شعائر كل من الحمس والحلة والطلس في كتاب المحبر لابن حبيب ص ١٧٨ وما بعدها .

الاشهر الحرم والأسواق والمواسم

ألجأت ضرورات الحياة المشتركة قبائل العرب في العصر الجاهلي الى إقرار ضرب من الموادعة يأذن لها ان تصيب حظاً من الامن والدعة ويتيح لها ان تنصرف الى أداء مناسك الحج وإقامة الشعائر الوثنية المتصلة به ، والى ابتياع ما تفتقر إليه من مأكل وملبس وغيرهما ، والى افتداء الاسرى وأداء ديات القتلى ، فكان من ذلك هذه الاشهر الحرم التي لا يحل فيها قتال ولا عدوان ، وكان منها هذه الاسواق التجارية التي كانت تقام كل عام في أماكن محددة وأوقات معلومة .

وقد أرجعت بعض المصادر اسباغ صفة القداسة على الاشهر الحرم وتحريم القتال فيها الى دين اسماعيل الذي كان عليه العرب قديما(١) . وعدة هذه الاشهر أربعة هي : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب . وقد ذكروا أن العرب كانت تسمي رجباً « الأصم » لانهم كانوا لا يسمعون فيه قعقعة سلاح ولا صوت مستغيث ، ويسمونه منصل الاسنة لان العرب كانوا ينصلون فيه أسنتهم ويكفون عن القتال (٢) . ويرجح بعضهم ان حرمة هذه الاشهر لها صلة بالديانة الوثنية (٣) ، يدل على ذلك اتفاق زمنها مع مواقيت الحج . وقد جاء في بعض المصادر ان ثمة أناساً من طيء وقضاعة وغيرهما كانت لا تقيم لهذه الاشهر حرمة (٤) ، ولا يبعد ان يكون مرد ذلك الى انتشار النصرانية في هذه القبائل . وعلى أي حال كان تحريم القتال في هذه الاشهر من ضرورات الحياة المشتركة في المجتمع القبلي .

فاذا كان الشهر الحرام وضع الناس سلاحهم وقصدوا مكة لاداء شعائر الحج والطواف بالكعبة ، واختلفوا الى اسواق الحجاز التي تقام إبان هذه

---

١ ــ طبقات ابن سلام ص ٦١ .
٢ ــ الاغاني ١٢٨/١١ . طبقات ابن سلام ص ٦١ .
٣ ــ تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ٢٢٣/٤ .
٤ ــ المضاف والمنسوب للثعالبي ص ٨٩ .

الاشهر ليمتاروا ويتبايعوا ، فتلتقي جموعهم في هذه المواسم والاسواق على أمن وسلام ، لا تروعهم صيحة حرب ولا صريخ غزاة .

وفي الاشهر الحرم ايضا تتصل القبائل بعضها ببعض سواء في المواسم والاسواق أو في خارج نطاقها ، لافتداء أسراها ودفع ديات القتلى ، والتماساً للمصاهرة ، ولاستثابة من منّ عليهم بالاطلاق من الاسر ، ولنحو ذلك من دواعي اتصال القبائل بعضها ببعض . جاء في بعض الاخبار ان عروة بن مرة ، أخا أبي خراش الهذلي ، اسره قوم ، فلما دخلت الاشهر الحرم مضى ابو خراش اليهم ودفع اليهم فكاك أخيه فاستنقذه من الاسر (١) ، وان قيس ابن المنتفق العامري أسر في بعض المواقع فأتاه آسره في الشهر الحرام يستثيبه فأعطاه ابلا كثيرة (٢) ، وان عتيبة بن الحارث بن شهاب أسر فاحتال في فكّ قيده وهرب في الشهر الحرام فأفلت من القوم بغير فداء (٣) .

وقد ظلت لهذه الاشهر حرمتها بعد ظهور الدعوة الاسلامية (٤) ، وحين عدا عبد الله بن جحش واصحابه على عير لقريش في الشهر الحرام وقتلوا ابن الحضرمي غضب الرسول عليه السلام وأبى أن يأخذ مما غنموا شيئاً(٥). وكان انتهاك حرمة الشهر الحرام مما اخذته قريش على المسلمين حتى نزلت الآية: «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير ، الخ(٦)..» فسُري عن المسلمين وقبض الرسول حصته من الغنيمة (٧) .

---

١ ـ الاغاني ٤٢/٢١ .
٢ ـ النقائض ٦٧١/٢ .
٣ ـ النقائض ٦٧١/٢ .
٤ ـ سورة التوبة ، آية ٣٦ .
٥ ـ سيرة ابن هشام ٦٠٣/١ .
٦ ـ سورة البقرة ، آية ٢١٧ .
٧ ـ سيرة ابن هشام ٦٠٤/١ .

والى ذلك أضفيت حرمة وقداسة على بقعة معينة من بلاد العرب كانت القبائل تجتمع فيها لقضاء مناسك الحج هي مكة وما أطاف بها(١) وكل من ضمه هذا الحرم كان آمنا ان يقتل أو يؤخذ ماله أو يعدى عليه ، سواء كان ذلك في الاشهر الحرم أم في غيرها . وكانت قريش اذا ارادت قتل أسراها اخرجتهم الى مكان يعرف بالتنعيم ، خارج حدود الحرم ، فقتلتهم هناك (٢). وكانت منزلة الحرم في نفوس العرب تفوق منزلة الاشهر الحرم (٣) . وقد امنت قبيلة قريش على نفسها ومالها وتجارتها وكان لها من المنزلة في نفوس العرب ما ليس لغيرها بسبب نزولها الحرم وقيامها على أمور الكعبة . ولما جاء الاسلام اقر لمكة حرمتها ، الا ان الرسول ادخل المدينة ايضا في نطاق التحريم فأصبحت لا يحمل بها سلاح ولا يقطع شجر (٤) .

وكان من قبائل العرب من لم يعرف للاشهر الحرم ولا للحرم هذه الحرمة التي تحدثنا عنها كطيء وبعض قضاعة وخثعم (٥) ، وقد عرف هؤلاء بالمحلّين. وكانت قريش تضطر ، في سبيل رعاية مصالحها التجارية ، الى اصطناع طائفة من رؤساء القبائل المحلة هذه بالمال ، وان تجعل لهم نصيباً من الربح كي لا يتعرضوا لقوافلها التجارية بسوء ، وهذا ما عرف بالايلاف (٦) . وكانت قريش تضطر كذلك الى رد عادية ذؤبان العرب وصعاليكها وخلعائها الذين كانوا يخرجون على الاعراف السائدة في المجتمع القبلي ولا يرعون حرمة الحرم ولا الاشهر الحرم ، وقد عرف هؤلاء ايضاً بالمحلّين ، وكان من العرب من تطوع لقتالهم ودفع أذاهم عن الناس (٧) .

---

١ ــ انظر حدود الحرم في الاحكام السلطانية للماوردي ص ١٥٧ ، وكتاب البلدان لابن الفقيه ص ١ .

٢ ــ سيرة ابن هشام ١٧٢/٢ .

٣ ــ اسواق العرب لسعيد الافغاني ص ٦٨ .

٤ ــ الاحكام السلطانية ص ١٥٧ .

٥ ــ المضاف والمنسوب للثعالبي ص ٨٩ . اسواق العرب ص ٦٦ .

٦ ــ المضاف والمنسوب ص ٨٩ .

٧ ــ الازمنة والامكنة للمرزوقي ١٦٦/٢ .

على ان القبائل المحرمة نفسها لم تستطع الحيلولة دون وقوع الشر فيما بينها خلال الاشهر الحرم ، ولا سيما عند اجتماعها واحتكاك بعضها ببعض في الاسواق ، وفي سوق عكاظ خاصة ، فكان من ذلك هذه الحروب التي قامت بين كنانة وقريش من جانب وقيس عيلان من جانب آخر ، والتي عرفت بحروب الفجار لوقوعها في الاشهر الحرم ، وقد شهد الرسول ، وهو بعد غلام ، بعض هذه الحروب (١) .

وكان العرب ربما ضاقوا بان يتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا يغزون فيها ولا يغير بعضهم على بعض ، ولا سيما في السنين المجدبة ، فكانوا يكتفون بتحريم شهري ذي القعدة وذي الحجة ، ويحلون القتال في المحرم ، ويحرمون مكانه صفراً ، وهذا ما عُرف بالنسيء (٢) . وقد ذكروا ان اول من نسأ الشهور على العرب القلمس الكناني ، ثم أصبح هذا الامر في يد قبيلة بني كنانة بعده لا يتولاه سواها (٣) ، ولا ندري لمَ أفردت قبيلة كنانة بهذه الميزة ، وربما كان ذلك نتيجة اتفاق القبائل الوثنية ، او الحمس منها ، على ان تتوزع فيما بينها مهمة الاشراف على شعائر الحج وغيرها من الامور المتصلة بعقيدتهم ، فيكون لبعضها الافاضة ولإخرى السقاية وهلمّ جرّا . وكان شعراء كنانة لا يزالون يفاخرون القبائل الاخرى بهذه الميزة التي انفردت بها عشيرتهم (٤).

وحين جاء الاسلام كان النسيء من الامور التي حرمها على الناس : « ان النسيء زيادة في الكفر، يُضَلّ به الذين كفروا ، يحلّونه عاماً ، ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ما حرم الله . . . » (٥) .

---

١ ـ الاغاني ٧٣/١٩ وما بعدها .
٢ ـ سيرة ابن هشام ٤٣/١ . طبقات ابن سلام ص ٦١ .
٣ ـ سيرة ابن هشام ٤٤/١ .
٤ ـ كقول جذل الطعان الكناني :
السنا الناسئين على معد   شهور الحل نجعلها حراما   (سيرة ابن هشام ٤٤/١) .
٥ ـ سورة التوبة ، آية ٣٧ .

وفي ظل هذه الحرمة التي كانت للاشهر الحرم في نفوس العرب كانت تقوم في مواضع من بلاد العرب أسواق يختلف إليها الناس للامتيار وشراء ما يفتقرون اليه من مأكل وملبس وغيرهما . ومن الاسواق ما كان يقوم في غير الاشهر الحرم فيحتاج الناس عند غشيانها الى احد يحميهم من عدوان القبائل التي يجوزون بديارها (١) . وقد عدّ المرزوقي طائفة من الاسواق وذكر انها كانت تقام في أوقات متتابعة تأذن للعرب أن يختلفوا اليها اذا شاءوا (٢) . وهذه الاسواق كان يختلف بعضها عن بعض سواء في صورة المبايعة فيها او في أنواع العروض والسلع التي تباع فيها . والاسواق التي كانت تقع في منطقة تتبع احدى الدول او احدى القبائل كانت تفرض عليها المكوس وتعشر (٣) . ومن أشهر هذه الاسواق : دومة الجندل ، وصحار ، ودبا ، والمشقّر ، وحجر ، وذو المجاز ، ومجنة ، وعكاظ (٤) .

وكانت سوق عكاظ اشهر هذه الاسواق واعظمها شأناً في بلاد العرب ، وموعد قيامها مستهل ذي القعدة (٥) ، او من منتصفه حتى مستهل ذي الحجة(٦) ، وموضعها بين نخلة والطائف ، وارضها صحراء مستوية لا علم بها ولا جبل (٧) . وارتباط هذه السوق بمواسم الحج يشعر بأن لها طابعاً

---

١ ــ الازمنة والامكنة ٢/١٦١ .

٢ ــ المصدر السابق .

٣ ــ يقول جابر بن حني التغلبي :

وفي كل اسواق العراق اتاوة   وفي كل ماباع امرؤ مكس درهم   (المفضليات ص ٢٠٨).

٤ ــ الازمنة والامكنة ٢/١٦١ .

٥ ــ معجم البكري ٣/٩٥٩ . الاغاني ١٩/٧٤ .

٦ ــ الازمنة والامكنة ٢/١٦٥ . وجاء في معجم ياقوت ٣/٧٠٤ ان موعد قيامها شهر شوال وهذا خطأ لان شهر شوال ليس من الاشهر الحرم .

٧ ــ معجم البكري ٣/٩٥٩ .

دينياً الى جانب صفتها التجارية . وكانت القبائل التي تفد إليها تؤدي فيها بعض الشعائر الوثنية ، وقد ذكر بعض من وصف موضع هذه السوق من المؤرخين انه كان فيها عبيلات بيض تطيف بها العرب في جاهليتهم وينحرون عندها (١) . ووجد فيها بعضهم انصاباً وآثاراً من دماء البدن كالارحال العظام (٢) . ويظهر ان كل سوق كانت لطائفة من القبائل ، فسوق دومة الجندل لقبيلة كلب ، وسوق المشقر لتميم وعبد القيس ، وسوق عكاظ كانت تنزلها قبائل قريش وهوازن وغطفان وخزاعة والاحابيش وعضل وطوائف من افنـاء العرب (٣) .

وموضع عكاظ لا يدخل في نطاق الحرم ، ومرد تحريم القتال فيها الى انها تقام في الاشهر الحرم ، ولهذا لم يكد يحتاج روادها الى خفارة . وكان لهذه السوق مكانة تجارية خاصة اذ ان ملوك الحيرة واليمن كانوا يبعثون اليهـا سلعهم لتباع فيها . ولم تكن فيها مكوس كبعض الاسواق الاخرى ولكـن الملوك كانوا يجعلون لاشراف العرب نصيباً من أرباح تجارتهم فيها (٤) .

ومما جعل لهذه السوق منزلة ليست لغيرها من الاسواق انها لم تكن سوقاً تجارية فحسب وانما اصبحت لها اغراض اخرى لا علاقة لها بالتجارة. فقد ادى اجتماع هذا العدد الضخم من قبائل العرب فيها في مواسم الحج الى انتهاز العرب فرصة التقائها في مكان واحد على أمن وسلام لفض ما يكون بينها من ضروب النزاع ، ولأداء ديات القتلى وافتداء الاسرى وأداء الاتاوات وإقرار الموادعات ونحو ذلك من الاغراض (٥) . وكانت الحكومة في المنازعات

---

١ ـ موقع عكاظ . رسالة للاساتذة عزام وحمد الجاسر وبليهد ، ص ٣٤ .

٢ ـ معجم البكري ٩٥٩/٣ .

٣ ـ الازمنة والامكنة ١٦١/٢ وما بعدها .

٤ ـ الازمنة والامكنة ١٦٥/٢ .

٥ ـ أداء الاتاوة في عكـاظ : (الاغاني ٢٣/٥ ، ٨٢/١١) افتـداء الاسرى في عكاظ : (الاغاني ١٦/١٢) . اقرار الهدنة والموادعات فيها : (الاغاني ٢٤٠/١٥) . بيع الاسرى بعكاظ : (أسد الغابة ٢٢٤/٢ . النقائض ١٣٩/١) . تبرؤ القبائل من خلعائها بعكاظ : (الاغاني ١٤٥/١٤) .

وغيرها بعكاظ وقفاً على حكام من بني تميم ، وكان آخرهم حين جاء الاسلام الأقرع بن حابس (١) . وتولي بني تميم أمر الحكومة بعكاظ يؤيد ما ذهبنا اليه من توزع القبائل أمور الاشراف على مواسم الحج وما يتصل بها . وفي سوق عكاظ ايضا كانت القبائل تشهّر بمن يرتكبون خيانة او يخرجون على الاعراف القبلية فكانت ترفع لهؤلاء راية غدر ليعرفهم الناس فينبذوهم ، أما من قام بمأثرة حميدة جديرة بالثناء فكانوا يرفعون له راية وفاء (٢) .

وكذلك كان التقاء قبائل العرب على صعيد واحد مدعاة لوقوع التفاخر بينها في الاحساب والانساب والمآثر ، ولسان كل قبيلة شعراؤها وخطباؤها . وكذلك كانت مناسبة لتباري الشعراء في قريضهم ، وإظهار براعتهم في النظم ، وكان ثمة حكام يلجأ اليهم الشعراء ليحكموا بينهم . وقد ذكروا ان النابغة الذبياني كانت تضرب له قبة من أدم بعكاظ فيأتيه الشعراء فيعرضون عليه اشعارهم ويفاضل بينهم(٣) . ومن هنا أخذت هذه السوق طابعها الادبي الذي كاد يغلب عليها .

على ان اجتماع قبائل العرب في سوق عكاظ كان يتيح المجال لادراك بعض الموتورين ثأرهم ، اذ يتربصون بغريمهم حتى اذا انقضت السوق تبعوه وقتلوه ، ولهذا كان فرسان القبائل الذين تطلبهم بعض القبائل بوتر ، اذا أموا سوق عكاظ تقنعوا لئلا يعرفوا فيتربص بهم غرماؤهم (٤) . وحين اجترأ طريف العنبري على تحدي غرمائه فسفر عن وجهه حين قدم عكاظ ، لحق به خصومه حتى أدركوه وقتلوه (٥) .

---

١ ـ الازمنة والامكنة ١٦٧/٢ .
٢ ـ المصدر السابق ١٧٠/٢ .
٣ ـ الاغاني ٦/١١ .
٤ ـ البيان والتبيين ١٠٠/٣ .
٥ ـ العقد الفريد ٢٠٨/٥ .

وحين جاء الاسلام ومصرت الامصار أضمحل شأن أكثر اسواق العرب القديمة وظهرت اسواق جديدة في الامصار والمدن الاسلامية أشهرها سوق المربد بالبصرة .



٥

العصبيـة القبليـة

تعريفها . دواعي ظهورها . مقوماتها ومظاهرها

العصبية في تعريف أهل اللغة هي « أن يدعو الرجل الى نصرة عَصَبَته والتألّب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا او مظلومين » ، وهي مشتقة من التعصب أي التجمع (١) . ولما كان أقارب الرجل يعصبون به ، أي يلازمونه ويطيفون به ، سَمّوا عَصَبَة . وقد اطلق هذا اللفظ على أقارب الرجل من جهة أبيه ، وهم قومه الذين يتعصبون له (٢) . وقيل للرجل الذي يغضب لعصَبته ويحامي عنهم ويُعينهم ولو على الظلم : عصبيّ (٣) .

والعصبية في المجتمع القبلي لا تكون لقرابة الرجل وذوي رحمه الأدنَين فحسب ، وانما تكون للقبيلة بأسرها ، على تفاوت في شدة هذه العصبية تحدده درجات القرابة في إطار القبيلة الواحدة. فالعصبية لذوي الرحم الماسة أقوى منها للبُعداء . ومن هنا نجد أن التبعات التي فرضتها العصبية كالثأر والعقل تتناسب كذلك مع درجات القرابة ، دون أن يُخلّ هذا التفاوت بوحدة القبيلة . فالعصبية القبلية تضم جميع أفراد القبيلة في اطار واحد وتفرض عليهم تبعات ووجائب مشتركة . فكل رجل في القبيلة يشعر انه مسؤول عن جماعته كلها ، كما ان القبيلة كلها تشعر انها مسؤولة عن كل من ينتمي اليها .

---

١ ــ لسان العرب ، مادة : عصب .

٢ ــ القاموس المحيط ، مادة : عصب .

٣ ــ لسان العرب .

والعصبية للقبيلة من اخطر الظواهر الاجتماعية التي عرفتها المجتمعات البشرية القديمة فهي قوام المجتمع القبلي وعماد نظامه السياسي والاجتماعي، ولها أثرها البين في جميع مرافق حياته . والعصبية في المجتمع القبلي تذكرنا بالاتجاهات القومية الغالية في النظام السياسي الحديث (١) . فكما ان القومية المتطرفة تتعصب لجنسها وتؤمن بتفوقها على سائر القوميات ، فكذلك العصبية القبلية تقوم على هذه العقيدة « الشوفينية » Chauvinisme فكل قبيلة تتعصب لنسبها وتؤمن بتفوقها وفضلها على سائر القبائل .

والعصبية القبلية تنافي الشعور القومي ، لان من شأنها تجزئة الامة الواحدة الى جماعات متعادية متنابذة لا تؤلف بينها عقيدة قومية جامعة . وكل جماعة منها تعيش لنفسها ولا تعنيها الا منفعتها الخاصة . وحين تتحالف جماعتان او اكثر لا يكون الدافع الى هذا الحلف الشعور القومي المشترك وانما الشعور بالحاجة الى تأليف جبهة قبلية موحدة تقف في وجه القبائل الاخرى .

والعصبية تنافي كذلك الشعور الانساني لانها لا تسعى الى اقامة صلات سلمية تضم جميع وحدات المجتمع القبلي ، أي لا تدين بما نسميه اليوم « بالتعايش السلمي » وانما تدين بعقيدة أن كل من لم يكن منا فهو عدونا ، وان البقاء في المجتمع القبلي لمن له الغلبة ، وليس هو حقاً مشاعاً لجميع القبائل .

والاصل في العصبية أن تبنى على وحدة الدم ، وعلى لحمة النسب ، ويعلّل ابن خلدون قيام العصبية على النسب فيقول : « وذلك ان صلة الرحم طبيعي في البشر ، إلا في الاقل ، ومن صلتها النعرة على ذوي القربى وأهل الارحام أن ينالهم ضيم ، او تصيبهم هلكة ، فان القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه او العداء عليه ، ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك ، نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا (٢) . . . » .

١ـ تاريخ العرب : حتي وزميلاه ١/٥٣ .
٢ ـ مقدمة ابن خلدون ص ١٢٨ .

الا ان القبيلة لم تستطع المحافظة طويلا على وحدة الدم هذه ، لانضمام اشخاص آخرين اليها عن طريق الحلف والولاء والاستلحاق والاسترقاق ونحو ذلك . فلم تعد القبيلة تمثل وحدة دموية متجانسة ، وعلى الرغم من ذلك نلاحظ ان العصبية القبلية ظلت قائمة في القبيلة ، شأنها يوم كانت القبيلة محافظة على تجانسها ووحدتها الدموية . وهذا يدفعنا الى القول بان الرابطة الدموية لم تعد صالحة وحدها لتفسير العصبية القبلية . وهنا ايضا نجد ابن خلدون يحاول تفسير هذه الظاهرة فيرى أن « نعرة كل احد على اهله وولائه وحلفه للالفة التي تلحق النفس من اهتضام جارها او قريبها او نسيبها ، بوجه من وجوه النسب ، وذلك لاجل (أن) اللحمة الحاصلة من ولاء النسب مثل لحمة النسب، أو قريباً منها(1) . » والمعول في نظرنا ، لا على وجود صلة نسب حقيقية تربط ابناء القبيلة الواحدة بعضهم ببعض ، وانما على ما يعتقده افراد القبيلة من انتمائهم الى اصل واحد ، سواء كانوا على صواب او على ضلال فيما يعتقدون ، وسواء كان نسبهم في حقيقة الامر واحدا أم لم يكن ، ومن هذه العقيدة ينبثق الشعور بالتلاحم والترابط بين ابناء القبيلة الواحدة وبضرورة التضامن والتكافل بينهم ، وهو ما ندعوه بالعصبية القبلية . ولهذا نرى ان الجماعات التي تنضم الى القبيلة وتلتحق بنسبها ثم تنسى مع الايام نسبها الاول تتعصب للقبيلة التي التحقت بها تعصب ابناء القبيلة الصرحاء ، وما ذلك الا لاعتقادها بانتمائها الى هذه القبيلة . وهذا ما حملنا على القول آنفا بأن جداول الانساب العربية سواء أكانت صحيحة في جملتها ام لم تكن ، كان لها اثرها في الاتجاه الذي سلكته العصبيات في العصر الاموي، وفي الموقف الذي اتخذته كل قبيلة إزاء القبائل الاخرى ، لان القبائل العربية اعتقدت بصحة هذه الانساب، ومن ايمانها هذا انبثق شعورها العصبي وعلى اساسه قامت العصبيات القبلية في ذلك العصر .

اما عصبية موالي القبيلة وحلفائها فمردها الى ان صلة الولاء والحلف

---

1 ـ مقدمة ابن خلدون ص ١٢٨ .

تربط المتحالفين بعضهم ببعض برباط معنوي يكاد يوازي في قوته رابطة النسب ، وان لم يبلغ مبلغها من شدة الالزام .

والعصبية ، بعد ذلك ، وليدة ضرورة من ضرورات الحياة في المجتمع القبلي ، اذ لا بقاء للقبيلة الا بعصبيتها ، فبها ترعى القبيلة سلامتها وتصون بقاءها وتذود عن كيانها ومن طريقها تلتمس لنفسها اسباب العيش في مجتمع قبلي تسوده شرعة تنازع البقاء .

والعصبية تملي على ابناء القبيلة واجبات مشتركة وتكلفهم تبعات لا يسعهم التنصل منها وهي بمثابة عهد غير مكتوب يفرض على ابناء القبيلة التآزر والتناصر والسعي في سبيل منفعة القبيلة في جميع الاحوال ، كما يفرض عليهم تبني شعار واحد ينادي بان الفرد في سبيل القبيلة والقبيلة في سبيل الفرد ، ويدعو المرء الى نصرة اخيه ظالماً كان او مظلوماً .

ووفقاً لهذه المبادىء تكون القبيلة كلها ملزمة بنصرة أي رجل ينتمي اليها، فلا يكاد يأتيها صريح احد من ابنائها حتى تهب الى نجدته ، لا يعنيها ان تعرف أكان المستصرخ هو البادىء بالاعتداء أو معتدى عليه :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا(١)

وأي تهاون في نصرة المستغيث من ابناء الحي يؤدي الى تفكك عرى القبيلة ويطمع أعداءها المتربصين بها . فاذا قتل احد ابناء القبيلة كان اولياء المقتول والقبيلة كلها ملزمين ان يطلبوا بدمه والثأر له . وكذلك اذا ارتكب أي رجل في القبيلة جناية كانت القبيلة كلها ملزمة بالتكفير عن جنايته واحتمال عواقبها وتبعاتها . وقد اتخذ هذا المبدأ المسلم به في المجتمع القبلي طابع الحكمة السائرة : « في الجريرة تشترك العشيرة (٢) » . ولذلك كانت القبيلة

---

١ ــ حماسة ابي تمام ١٦/١ .

٢ ــ المعمرون للسجستاني ص ١٣ . مجمع الامثال للميداني ٢٠/٢ .

اذا قتل احد رجالها اخذت به قبيلة القاتل كلها ، وأباحت لنفسها قتل اي رجل يقع في أيديها من تلك القبيلة بواء بقتيلهم .

والقبيلة تؤلف كلها وحدة متضامنة سواء في حالة الغزو والقتال او في احوال السلم كارتحالها عن ديارها لسبب من الاسباب او اتخاذها قراراً ما بشأن احد الأمور الطارئة ، وكل خروج على هذه الوحدة يؤدي الى تصدع بناء القبيلة . وتتمثل وحدة القبيلة من جانب آخر في عدم قيام منازعات وحروب داخلية فيها ، وصيانة هذه الوحدة من أخطر التبعات الملقاة على كاهل سيد القبيلة واشرافها وذوي الراي فيها . فهم يحاولون اطفاء نار الفتن الداخلية قبل استفحالها ، باذلين في سبيل ذلك كل مافي طاقتهم من جهد ، والقبيلة التي تعجز عن اقرار الامن في ربوعها تكون عرضة للفناء والانقراض .

وكذلك تفرض العصبية على كل رجل في القبيلة الخضوع لنظمها وأعرافها، والتقيد بالعهود التي التزمت بها تجاه القبائل الاخرى وطاعة رؤسائها وأولي الامر فيها ، وحين يتمرد أحد رجال القبيلة على هذه النظم فيغير مثلا على قبيلة محالفة لقبيلته او يعدو على ابناء قبيلته أنفسهم او يقوم بعمل يمس شرف القبيلة ويشين سمعتها تجد القبيلة نفسها مضطرة للتبرؤ منه ، وهذا ما يدعى بالخلع ، وهو بمثابة إسقاط الجنسية عن المواطن في المفهوم الحديث. فالخليع يفسخ ، بخروجه على قبيلته ، العهود المفروضة عليها تجاهه فلا تعود ملزمة بحمايته والدفاع عنه . وهي تطرده من حماها فيضطر ان يلتمس لنفسه ملاذاً في قبيلة أخرى ، وتحرص القبيلة على ان تعلن خلعها الرجل للملأ في الاسواق والمواسم ليعرفوه فلا تؤخذ قبيلته بجريرته اذا أحدث جناية ما ، وهي لقاء ذلك لا تنتصر له اذا اعتدى عليه (١) . وقد تطلب القبيلة الى اختها او حليفتها خلع احد رجالها اذا لم يراع الاعراف القبلية وما بين القبيلتين من عهود او قرابة ، لئلا يقع القتال بينهما بسببه ، فقد خلعت بنو

---

١ ـ جاء في الاغاني ١٣/١٤٥ : خلعت خزاعة قيس بن الحدادية بسوق عكاظ واشهدت علي نفسها بخلعها اياه فلا تحتمل جريرة له ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه .

نهشل حرّيّ بن ضَمرة ولم تنصره حين أخذه بنو مجاشع وضربوه لأنه لم يرع ما بين القبيلتين من حقوق القرابة والعهد (١) .

وربما اضطرت القبيلة الى خلع بعض رجالها لدواع أخرى غير خروجهم على النظم القبلية ، فقد خلع عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد قومُهما أيام الجاهلية خشية ان تؤدي العداوة القائمة بين هذين الرجلين الى نشوب القتال بين بطون قريش اذا ما قتل احدهما الآخر(٢) .

وهؤلاء الحلفاء المطرّدون يتخلون في الغالب عن عصبيتهم ويتحلّلون من شخصيتهم القبلية (٣) ، فلا يرون ضَيراً في ان يُغيروا على قبائلهم ويسلبوا ابناء حيّهم ويفتكوا بهم ، صنيع قيس بن الحدادية مثلا بقومه (٤)، كما لا يرون ضيراً في ان يضعوا انفسهم في خدمة الجماعات الاخرى لتستعين بهم في غزواتها وحروبها (٥) ، وتبرؤ قبائلهم منهم يجعلهم يتحلّلون من كل التزام اجتماعي ويخرجون على الاعراف السائدة في المجتمع القبلي ، كحرمة الجوار ورعاية الحلف ونحو ذلك (٦) .

ومع ذلك فان بعض الصعاليك لم يستطيعوا ان يتخلّوا تماما عن عصبيتهم لقومهم ، فنرى السُليك بن السُلكه يأبى ان يتعرض لقومه مضر فلا يُغير الا على قبائل اليمن وربيعة(٧) كما نجد لبعض الخُلعاء شعراً يفخرون فيه بقبائلهم ،

---

١ ـ النقائض ٩٤١/٢ .
٢ ـ الاغاني ٥٥/٩ .
٣ ـ الشعراء الصعاليك يوسف خليف ص ٢٧٤ .
٤ ـ الاغاني ١٤٥/١٣ وانظر ايضا خبر الاخنس بن كعب والحصين بن عمرو في مجمع الامثال للميداني ٤٦٤/١ .
٥ ـ استعان امرؤ القيس في قتاله بني اسد بشذاذ العرب وخلعائها : الاغاني ٩٢/٩ .
٦ ـ جاء في مجمع الامثال (٤٦٤/١) ان احد الصعاليك عدا على رجل من لخم فقتله بعد ان تحرم بطعامه فلما انكر عليه صاحبه هذا الغدر أجابه بانهما انما خرجا لهذا الامر وشبهه .
٧ ـ الاغاني ١٣٤/١٨ (ساسي) .

ويعلل بعض الباحثين هذه الظاهرة فيرى ان هذا الشعر انما قيل في فترة ما قبل الصعلكة (١) ، ونحن نردها الى ان النزعة القبلية عميقة الجذور في نفوس العرب فان خلع الرجل لا يؤدي دائماً الى إلغاء عصبيته ، بل تظل كامنة فيه على الرغم من تخلي قومه عنه . ومن امثلة ظهور العصبية في الخلعاء موقف يزيد بن مُسهِر الحارثي يوم فَيف الريح ، وكان يزيد قد جنى في قومه جناية فلحق ببني عامر وحالفهم ، فلما رأى صنيع عامر بن الطفيل بقومه بني الحارث بن كعب في ذلك اليوم ثارت عصبيته فطعن عامرا برمحه ثم لحق بقومه (٢) .

على ان اخلاص الرجل لقبيلته بدافع العصبية كثيراً ما يتعرض لامتحان قاس نتيجة اصطدام العصبية بعوامل أخرى . وفي الغالب تكون نتيجة هذا الصراع في صالح العصبية ، والعربي في العصر الجاهلي لم يكن يتردد في تلبية ندائها مهما كانت الاحوال ، ومَرّد ذلك الى وضوح التبعات التي تفرضها عليه العصبية من جانب والى طغيان الشعور العصبي على أي عاطفة أخرى تعترض سبيله من جانب آخر ، فهو كالسيل الجارف العاتي يكتسح كل ما يعترض مجراه والعربي في ذلك العصر يبدو رواقياً Stoicien في خضوعه الاعمى لواجب العصبية وتبعاتها . وهو لا يحجم عن اداء ما تفرضه عليه ولو كان من شأنه فصم اسمى الروابط الانسانية التي تؤلف بين قلوب البشر . أما في العصر الاسلامي فقد برز عامل جديد يناقض العصبية ويدعو الى الغائها هو عامل الدين الذي قام بينه وبين العصبية صراع عنيف في ذلك العصر ، وبظهوره تعقدت التبعات التي تفرضها العصبية القبلية على نحو ما سنبينه فيما بعد .

وقد اقتضت العصبية ان يكون ولاء الرجل لقومه وعشيرته الأبوية أشد من ولائه لعشيرة أمه وقومها ، وذلك حين تكون الأم من غير قبيلة زوجها ، وهذه الظاهرة طبيعية في المجتمع القبلي القائم على النظام الأبوي ، لأن مفهوم

---

١ — الشعراء الصعاليك ص ٢٤٦ .
٢ — النقائض ١/٤٦٩ .

القبيلة في ظل هذا النظام يدل على الجماعة التي تنتسب الى أب مشترك وتتسلسل منه بطريق الابناء الذكور ، فعصبية الرجل الطبيعية ، انما تتجه نحو اقاربه من جهة أبيه، وهذا هو المعنى اللغوي الذي وجدناه للفظ العصبية، ولكن عاطفة الابن نحو أمه هي كذلك من العواطف الطبيعية المستقرة في النفس البشرية . وحين تكون الأم من غير قبيلة زوجها من الطبيعي أن يشعر الابن بشعور الود والمحبة نحو عشيرة أمه وان يتعصب لها أيضاً ، فان لم يكن بين القبيلتين عداوة او نزاع اجتمعت هاتان العصبيتان معاً في نفس الرجل ولم يكن ثمة تعارض بينهما ، ومن هنا كثيراً ما نجد الرجل يحمى لاخواله ويتعصب لهم ويشترك معهم في قتال أعدائهم . وقد كانت للعصبية من طريق الأم والخؤوله آثار قوية في أحداث العصر الاموي ، وبسببها كان خلفاء بني أمية ينحاز بعضهم الى المضرية وبعضهم الى اليمانية . وبسبب هذه العصبية ايضا نجد الشعراء لايقصرون فخرهم على آبائهم وعشيرتهم الأبوية بل كانوا يفخرون أيضاً بأخوالهم وعشيرة أمهم (١) . وكان من تمام الفخر ان يكون المرء منعماً مخولا . وكما يتعصب الرجل لاخواله يتعصب القوم لابن اختهم التي يكون زوجها من غير قبيلتهم وينتصرون له (٢) .

على انه لاتكاد هاتان العصبيتان تتعارضان وتصطدم احداهما بالأخرى، حتى تكون الغلبة للعصبية الاولى، عصبية الرجل لقوم أبيه، وتنقلب عصبيته لعشيرة أمه بغضاً وكراهية وعداء سافراً ، فحين تنازع مثلا بنو جعفر والربيع بن زياد العبسي في مجلس النعمان بن المنذر لم يتردد لبيد بن ربيعة في الانحيــاز الى

---

١ ــ من ذلك قول حيان بن قرط اليربوعي وهو من شعراء الجاهلية :

أبني سليط ، لا أبا لأبيكم ... أبي وأي بني صبير أكرم

خالي ابو أنس وخال سراتهم ... دوس فأيهما أدق والأم

(نوادر أبي زيد ص ٢٤)

وكان الفرزدق كثير الفخر بأخواله من بني ضبة (انظر مثلا ديوانه ص ٧١٧) وانظر في هذا الصدد ايضــا : Lammens : Môawia 1er p. 300.

٢ ــ انظر أمثلة على ذلك في تاريخ الطبري ١٠٨/٤ و ٢٨١/٥ .

رهط أبيه بني جعفر وهجاء خاله الربيع بن زياد ، وتحريض المنذر عليه (١).
ولم يتردد الهجرس بن كليب في قتل خاله جساس ثأراً بأبيه ، على الرغم من انه نشأ في حجره وتزوج ابنته وكان جساس له بمثابة الأب فيما يذكرون (٢) . وحين كان على الأسود بن يَعفُر أن يختار بين الولاء لاعمامه والولاء لأخواله لم يتردد كذلك في الوقوف الى جانب قوم أبيه ، بل انه اطلق لسانه بشتم من يرى حق الاخوال فوق حق الاعمام ، ثم برهن عملياً على ولائه لقوم أبيه بأن حشد جموع بني نهشل ثم أغار بهم على قبيل اخواله طلباً بثأر ابن عم له (٣) . وربما حملت شدة العصبية الرجل على قتل ابن اخته اذا كان من قبيلة اعدائه (٤) . وقد تبلغ العصبية مبلغاً يدفع الرجل الى التنكر لاقدس العواطف البشرية وهي عاطفة الرجل نحو أمه ، فينقلب حبه لها بغضاً وكراهية . وقد روى المبرّد أن رجلا من الأزد كان يطوف بالبيت ويدعو لأبيه فقيل له : ألا تدعو لأمك ؟ فقال انها تميمية (٥) .

وكذلك حين تصطدم العصبية بالعاطفة الزوجية ، نجد ان الغلبة تكون للعصبية في معظم الاحيان ، وكثيراً ما كان النزاع ينشب بين الزوجين ، حين يكونان من قبيلتين مختلفتين متعاديتين ، فيفاخر كل منهما الآخر بقومه . وقد يؤدي الأمر الى تطليق الرجل زوجته صنيع حسان بن ثابت بامرأته عَمرة الأوسية حين فخرت عليه بقومها (٦) . ولم يكن زواج المرأة في غير قبيلتها وولاؤها لزوجها ليلغيا عصبيتها لقومها ، وحين تحس ان ثَمة شراً يحدق بقومها وان في وسعها دفعه عنهم لا تحجم عن انفاذ ما تمليه عليها عصبيتها . فحين

---

١ ـ الاغاني ٣٦٣/١٥ وكانت أم لبيد من بني عبس وربيبة للربيع بن زياد .
٢ ـ الاغاني ٦١/٥ .
٣ ـ الاغاني ٢٢/١٣ .
٤ ـ وقعت الحرب بين قبيلتي دوس وبني الحارث بن عبد الله ، وكانت امرأة من دوس زوجا لرجل من بني الحارث فلما أغارت دوس على بني الحارث جاء أخو المرأة الدوسية فانتزع ابن أخته من حجرها وقتله (الاغاني ٣٢١/١٣) .
٥ ـ الكامل للمبرد ١٩٨/١ .
٦ ـ الاغاني ١٤/٣ .

اعتزم أحيحة بن الجلاح ، سيد الاوس ، الايقاع ببني النجار من الخزرج احتالت امرأته سلمى النجارية في حمله على الاستغراق في النوم ثم تدلت من الحصن ومضت الى قومها فانذرتهم (١) .

وربما وقع الصدام بين العصبية والصداقة وذلك حين يقع الشر بين قبيلتي رجلين بينهما روابط مودة وصداقة . وهنا ايضا نجد ان العصبية تفصم عرى هذه المودة وسرعان ما تنقلب صداقة الرجلين الى ضدها ، فاذا كل منهما للآخر عدوّ مبين . وقد يسفك احدهما دم صديقه بالامس تلبية لنداء العصبية الذي يصم الآذان عن سماع أي نداء آخر ، وربما ذكر بعد قتله ما كان بينهما من وشائج المودة فلا يملك نفسه حينئذ من ذرف العبرات على خليل الامس . وهكذا نجد قيس بن زهير العبسي يقف عند جثة حمل ابن بدر الفزاري ، عدوه اليوم وصديقه بالامس، وقد قتله قومه يوم الهَباءة، فلا يملك الا البكاء عليه ، ويجري لسانه برثائه وذكر مناقبه (٢) .

وكان بدعاً من الامر ان نجد اثنين من مشهوري شعراء العصر الاموي هما الكُميت الاسدي والطِرماح الطائي ، تقوم بينهما صلة صداقة وطيدة على رغم حواجز العصبية والمذهب الديني التي كانت قائمة بينهما : كان الكميت شيعياً عصبياً عدنانياً ، وكان الطرماح خارجياً عصبيا قحطانيا ، وكان بينهما مع ذلك من المودة والخلطة والصفاء ما لم يكن بين اثنين ، وكانت هذه الصداقة بينهما موضع عجب الناس جميعاً (٣) . وفي ظني ان هذه الصداقة لم تكن لتقوم بينهما لو كان بين قبيلتيهما عداوة مباشرة ، بل ان الامر على نقيض ذلك اذ كان بين قبيلتي أسد وطيء محالفة وطيدة الاركان في العصر الجاهلي. وسنعود الى تحليل هذه الظاهرة في كلامنا على العصبية في العصر الاموي .

---

١ ـ الاغاني ١٥/٥١ .

٢ ـ النقائض ١/٨٣ . امالي المرتضى ١/٢١٤ .

٣ ـ الاغاني ١٥/١٠٩ (ساسي) .

وحين نمضي في هذا الاستقراء ، راصدين نتائج اصطدام العصبية بسائر المشاعر والعواطف الاخرى ، يدهشنا ان نرى العصبية تكاد تخرج ظافرة في كل معترك تخوض غماره ، وان نجد لها السيطرة المطلقة على نفس العربي ، فهو لا يقدم على أمر الا مستجيباً لوحيها ، ومنقادا لأوامرها ، وهي تسمو على أي نزعة وأي عاطفة تخالج نفسه تسمو على رابطة الصداقة والرابطة الزوجية كما تسمو على العداوات الفردية بين أبناء الحي الواحد ، فاذا دهمهم عدو تناسوا اضغانهم واستقبلوه يداً واحدة وعصبة متآلفة .

والباحثون يكادون يجمعون على ان البدوي يتسم بفردية عنيفة تجعله يؤثر منفعته على أي أمر آخر (١) . ولكننا نجد هذه الفردية تذوب في أغلب الاحيان امام النزعة القبلية ، ومن هنا يظهر التناقض العجيب في خلق البدوي، فهو على فرديّته المسرفة لا يتردد في التضحية بحياته في سبيل جماعته . والتماسك من أبرز السمات التي يتصف بها مجتمع القبيلة ، فكل رجل في القبيلة يرى نفسه ملزماً بدفع الاذى عن عشيرته بكل وسيلة ، وبجلب المنافع والخير اليها من شتى السبل . ومن الامثلة الناطقة بسمو العصبية على المصلحة الفردية وتضحية الرجل في سبيل جماعته ، موقف لقيط الايادي من قومه حين همّ كسرى بغزوهم ، وكان لقيط كاتباً في ديوان كسرى ، فأمره ان يكتب الى قومه يدعوهم الى الاجتماع في موضع معين ليتاح لكسرى الاغارة عليهم واستئصالهم ، فما كان من لقيط الا أن ارسل الى قومه قصيدته المشهورة يحذرهم فيها من الخطر الذي يتهددهم ، فلما بلغتهم حذروا ونجوا بأنفسهم ، وقد جرّت عليه فعلته هذه غضب كسرى فقتله بسببها (٢) . وفي المصادر الادبية والتاريخية امثلة كثيرة لوفاء الرجل لقومه، وايثاره مصلحتهم على منفعته الفردية واجتهاده في دفع الاذى عنهم (٣) .

---

١ – بلاشير : تاريخ الادب العربي ص ٣٣ . تاريخ العرب لحتي ٣٥/١ .

٢ – معجم البكري ٧٢/١ . الاغاني ٢٣/٢٠ (ساسي) .

٣ – انظر مثلا خبر قيس بن مسعود الشيباني يوم ذي قار في تاريخ الطبري ٦٠٠/١ وتاريخ ابن الاثير ٢٨٥/١ . وخبر ناشب بن بشامة العنبري وتحذيره قومه حين أراد بنو قيس بن ثعلبة غزوهم يوم الوقيط في النقائض ٣٠٥/١ وامالي القالي ٦/١ .

والخصم العنيد الذي استطاع تحدي العصبية القبلية في سلطانها على النفوس هو الدين ، فمنذ ان وجد الاسلام سبيله الى قلوب العرب وعمرت به صدورهم وتشربته نفوسهم ، ظهر الصراع العنيف بين هذه العقيدةالوليدة وبين النزعة القبلية المناقضة لها ، لان الاسلام دعا الى الغاء العصبيات والى إحلال التآلف بين قبائل العرب محل العداوة والتنازع . والحديث عن هذا الصراع وآثاره وعن ظهور بواكير الشعور القومي المناقض للعصبيات ليس هنا موضعه ، وحسبنا ان نشير هنا الى ان العقيدة الوثنية في العصر الجاهلي لم يكن لها اثر يُذكر في الحد من طغيان العصبية القبلية في ذلك العصر .

مظاهر العصبية وآثارها

تتجلى العصبية أقوى ما تتجلى في هذا التماسك الوثيق بين ابناء القبيلة الواحدة وتعاونهم في سبيل منفعتها ودرء الاذى عنها ، وإيثارهم مصلحة القبيلة ، على مصالحهم الفردية . ويظلم بعض الباحثين البدوي حين يزعمون انه لم يستطع السمو الى مرتبة الحيوان الاجتماعي ، واننا لا نجد عنده صفات الولاء والاخلاص والتضحية في سبيل المصلحة المشتركة (١) . فمن الحق ان فردية العربي لم تطغ على ولائه لجماعته ، على ما قدمنا ، وكان رائده ابداً السعي فيما فيه خير جماعته ومنفعتها (٢) .

آية هذا التماسك ما نجده من تعلق الرجل بجماعته وسيره في ركابهم ولو خالفوا رأيه ، وكلهم في ذلك ينطق بلسان دُريد بن الصمة ويردد معه قوله :

وهل أنا الا من غَزِيّة إن غوت غوَيت وان ترشُد غزية أرشُد (٣)

---

١ ـ Lammens : Le Berceau de l'Islam p. 187 .

٢ ـ راجع بهذا الصدد فصلا للاستاذ بشر فارس عنوانه : التفرد والتماسك عند العرب في كتابه مباحث عربية ص ٧٥ وما بعدها .

٣ ـ حماسة أبي تمام ٢/٣٠٦ .

ويصور لنا المتلمس تعلقه الشديد بقومه في قوله :

أمنتفلا من نصر بهثة خلتني ... ألا إنني منهم وان كنت أينما

ألا إنني منهم وعرضي عرضهم ... كذي الأنف يحمي أنفه ان يصلما(١)

وعلى المرء في سبيل الحفاظ على وحدة القبيلة وتماسكها ان يغضي عن إساءة قومه اليه ويطوي كشحاً عن الضغائن التي تقوم بينه وبين بني عمه ، وأن يردد مع المقنع الكندي قوله :

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا(٢)

والمرء الذي لا يتقي سخط قبيلته عليه ولا يرعى حقوق عشيرته يكون عرضة للذم والثلب :

وان امرءاً لا يتقي سخط قومه ... ولا يحفظ القربى لغير موفق (٣)

ومن مظاهر التماسك القبلي ايضاً ما لمسناه من طاعة افراد القبيلة سيدهم وخضوعهم لنظم القبيلة واعرافها وخلعهم من يخرج عليها ، والتزام القبيلة كلها بنصرة كل فرد فيها والثأر له اذا قتل وحرص كل عضو في الجماعة القبلية على جر المنفعة اليها ما استطاع الى ذلك سبيلا .

ومن مظاهر العصبية ايضاً ما نجده من حرص القبيلة على نسبها واعتزازها به وكرهها التخلي عن الاسم الذي تعرف به ولو كان بغيضا ، وحين وفد بنو الزنية على رسول الله وأراد ان يغير اسمهم فيجعله بنو الرشدة كرهوا ذلك وأظهروا تمسكهم باسم قبيلتهم على قبح دلالته (٤) .

---

١ ــ الاصمعيات ص ٢٨٦ وانظر امثلة أخرى في نوادر أبي زيد ص ١٦٠ .
٢ ــ حماسة أبي تمام ١٧١/٢ .
٣ ــ حماسة البحتري ص ٣٨٧ . والشعر لابي ذؤيب الهذلي .
٤ ــ شرح المفضليات للانباري ص ١٠٢ ، مؤتلف القبائل ومختلفها لابن حبيب ص ١٧ .

ومن مظاهرها ايضا اعتزاز القبيلة باستقلالها وكراهيتها الخضوع لقبيلة أخرى أو لسيد من غير قبيلتها ، او لسلطان دولة تنزل في جوارها . وقد نشبت وقائع وحروب كثيرة بسبب محاولة بعض الدول او القبائل القوية فرض سيطرتها علىا لقبائل المستضعفة . وبسبب هذه الروح القبلية وأنفة القبيلة من الخضوع لغيرها لقيت الدولة الاسلامية عناء شديداً في بسط سلطانها على القبائل العربية ، وكثير من الفتن والثورات في العصر الاسلامي الاموي مرده الى هذه الروح القبليه .

وكما كانت القبيلة تأنف من الخضوع لقبيلة اخرى كانت تأنف كذلك ان يقودها في القتال رئيس من قبيلة اخرى . فكانت القبائل المتحالفة تؤثر لذلك ان تمضي الى القتال متساندة ، أي ان كل قبيلة تقاتل على حيالها يرأسها احد رجالها، ولم تكن القبائل المتحالفة تخضع لرئيس واحد الا في أحوال نادرة .

ومن مظاهر العصبية ايضاً هذه المفاخرات الكثيرة والمنافرات التي كانت تقوم بين القبائل العربية على لسان اشرافها وخطبائها وشعرائها . فكل قبيلة ترى لنفسها من المكانة والمنزلة ورفعة الحسب وعراقة النسب ومن المآثر والمحامد ما ليس لغيرها . و كانت القبائل تغتنم فرصة اجتماعها في الاسواق والمواسم للتفاخر والتنافر ، فيتبارى الشعراء والخطباء في التنويه بمآثر قبائلهم والاشادة بمناقبها . وكثيراً ما كانت هذه المفاخرات اللسانية تتحول الى اشتباك حربي ووقائع دامية بين القبائل المتفاخرة (١) .

وقد تركت العصبية آثاراً بعيدة المدى في المجتمع القبلي خاصة ، وفي حياة الامة العربية عامة . فقد استشرت الروح القبلية في نفوس العرب فلم يستطيعوا التحرر من سلطانها الا بعد انقضاء أمد طويل على انتقالهم من طور البداوة الى تطور التحضر ، وأوجدت فيهم نزعة دائمة الى التمرد على السلطة ومعارضة أي نظام قائم كلما تراخت قبضة اليد الحاكمة . وقد لاحظ بعض

---

١ ـ انظر مثلا خبر حروب الفجار واسبابها في الاغاني ٧٤/١٩ .

الباحثين ميل العرب في عصور الخلفاء الى التجزؤ المستمر والتمزق السياسي ، وعلل ذلك بانهم ما كانوا يستطيعون السمو بأنفسهم فوق فكرة القبيلة والعشيرة ولا أن يتصوروا شكلا آخر للنظام الاجتماعي غير النظام القبلي . فما كانوا يذعنون للسلطة الا حين تفرضها عليهم قوة قاهرة لا قبل لهم بمناهضتها(١) ، وهذا يفسر لنا وفرة الفتن القبلية التي ذرت قرنها إبان العصر الاموي وكانت ــ كما سنرى ــ أحد الاسباب القوية في انهيار دولة بني أمية .

ومن مظاهر العصبية القبلية ايضا وآثارها البارزة ، هذه الوقائع الدامية والغارات المتصلة بين قبائل العرب في العصر الجاهلي والعصور التي تلته . وهي ما تزال تقوم الى اليوم ، ولكن على نطاق اضيق ، بين القبائل البدوية النازلة في بوادي بلاد العرب فحيثما تكون العصبية تكون العداوة والنزاع والوقائع الدامية . فلا غرو ان نجد أخبار أيام العرب والوقائع القبلية تحتل جانباً كبيراً من تاريخ العرب .

واخطر ظاهرة احتماعية نشأت بسبب العصبية القبلية وما زلنا نعاني من عقابيلها الى اليوم هي الثأر . فاذا قتل رجل رجلا من غير قبيلته طالب اولياء المقتول عشيرة القاتل بالقَوَد أي ان يدفعوا اليهم القاتل ليقتلوه بصاحبهم . ولكن القبائل الاخرى كانت تأبى في الغالب دفع من يرتكب جناية القتل من رجالها الى غرمائهم من القبائل الاخرى لان هذا الصنيع يحط من شأن القبيلة ويفصح عن ضعفها وهوانها ويطمع فيها القبائل الاخرى. والمألوف ان تعرض القبيلة على آل المقتول الدية ، فان رضوا بها حسم الخلاف وحقنت الدماء ، وإن أصروا على القود وكان الدم أحب اليهم من اللبن (٢) ، كان هذا بمثابة إعلان حالة عداوة دائمة بين القبيلتين لا ينهيها الا انتصاف الموتورين من قوم القاتل وأخذهم بثأر قتيلهم ، لان قانون التماسك القبلي يفرض على قوم القتيل كلهم الطلب بدمه كما يفرض على عشيرة القاتل بأسرها حمايته والدفاع عنه.

١ ــ Lammens : Le Berceau de l'Islam p. 197 .

٢ ــ المراد بالدم عندهم القتل ، وباللبن الدية لانها تقوم عادة بالابل .

وبسبب الثأر حدثت جل الوقائع القبلية المعروفة بأيام العرب، وأصبحت كل قبيلة لا تخلو أن تكون إما واترة او موتورة .

يُغـار علينا واترين فيشتفى بنا إن أصبنا او نُغير على وِتر (١)

وفي سبيل الطلب بدم القتلى قد تقوم حروب طويلة الامد بين القبيلتين فتتصل بينهما الغارات ، وتتجدد الدماء في كل وقعة وتتجدد معها الثارات حتى يسعى عقلاء الحيين في الصلح فتؤدى ديات من لم يكن لهم بواء (٢) من القتلى وتحقن الدماء .

وبسبب هذه الدماء والثارات تأصلت الاحقاد وتأرثت الضغائن بين كثير من القبائل العربية يتوارثها الابناء عن الآباء جيلا بعد جيل :

جنى العـداوة آباء لنا سلفت فلن تبيـد وللآباء أبناء (٣)

وقد يكون من الحق ان شريعة الثأر هذه قد خضبت رمـال الجزيرة العربية بدماء لاتكاد تجف ، ولكـن من الحق ايضا ان هذه الشريعة كانت قانوناً وقائياً لا بد منه في المجتمع القبلي قبل الاسلام ، ففي ظله كان العربي يشعر بالأمن في بيئة لا يسودها نظام ولا يسيطر عليها قانون يأخذ بناصر من يعتدى عليه . وبسبب هذه الشريعة كانت القبائل تتحاشى إراقة الدماء عند الغزو ما امكنها ذلك ، وقد رأى بعض الباحثين ان نفور البدوي من اراقة الدماء في جميع عهوده مرده الى شريعة الثأر (٤) .

---

١ ـ الاغاني ١٠/٥ والبيت لدريد بن الصمة .

٢ ـ باء دمه بدمه : عدله ، وباء بفلان قتل به (القاموس المحيط مادة بوأ) .

٣ ـ حماسة البحتري ص ١٧ . والبيت لطريف بن ديسق التميمي .

٤ ـ انظر الفصل الذي عقده لامنس لدراسة شريعة الثأر وطابعها الديني عند العرب في كتابه : l'Arabie Occidentale avant l'Hégire p. 131 .

وخوف الثأر ، وكي تضيع دماء المقتول فلا تطالب به جماعة واحدة من القبيلة . كانت افخاذ القبيلة ربما اجتمعت كلها على قتل رجل واحد ، صنيع بني عبس بنَضلة بن الاشتر (١) وصنيعَ قريش حين أجمعت على قتل الرسول عليه السلام (٢) .

وتقع تبعة الاخذ بالثأر عادة على أقرب الناس الى القتيل ، فاذا عجز ذووه عن القيام بهذا الامر وحدهم كان على القبيلة كلها ان تطلب بدمه ، ونكوصها عن هذا الامر يعرضها لمذمة آل القتيل وازدراء قوم القاتل. والاصل ان يؤخذ بالثأر من القاتل نفسه ، ولكن قد يتعذر الوصول الى القاتل فيكتفى بقتل أي رجل من قبيلته يوازي القتيل في منزلته (٣) . ففي قوانين الثأر هذه يتجلى مبدأ التكافل والتضامن القبلي في أوضح صوره ، فكل رجل في القبيلة يسد مكان أخيه ويؤدي عنه ضريبة الدم ، والقبيلة بجماعها مسؤولة عن الطلب بدم قتيلها ، كما ان قبيلة القاتل كلها تؤخذ بجريرته . وربما وجد قوم القتيل ان دم القاتل لا يبوء بدم صاحبهم فلا يرضون حينئذ الا بقتل من يوازيه شرفاً من قوم القاتل ، وقد لا يرضيهم إلا قتل سيد القوم .

وقد تجد القبيلة ان المقتول لا يبوء به، لشرفه ، دم رجل واحد من جماعة القاتل ، فلا يرضيها إلا قتل عدد من الرجال لقاءه ، وهذا ما عرف عندهم بالتكايل بالدم وهو مما أسقطه الاسلام فلم يَجز ان يقتل بالرجل الا رجل واحد شريفاً كان او وضيعاً (٤) . وهكذا حين قتل بنو أسد حجرا أبا امرىء

---

١ ـ انظر خبره في المفضليات ص ٣٦٦ .

٢ ـ انساب الاشراف ١/٢٥٩ . سيرة ابن هشام ١/٤٨٢ .

٣ ـ في التقاليد القبلية السائدة اليوم يؤخذ الثأر من القاتل او من اقاربه حتى الدرجة الخامسة صعودا أي باعتبار الجد الرابع الجامع بينهم . وكذلك الشأن في الدية (عشائر الشام ١/٢٠٩) . ومن المرجح ان هذا العرف موروث عن القدماء ، ومن هنا وجدنا بعض علماء النسب يعرف العشيرة بأنها قوم الرجل الذين يتعلقون الى أربعة آباء . (نهاية الارب للنويري ٢/٢٨٣) .

٤ ـ شرح حماسة ابي تمام ١/٢٠٩ .

القيس وعرضوا عليه أن يقيدوه من أي رجل شاء منهم أجابهم ان مقتل ألف من بني اسد لا يرضيه ولا يبوء بدم أبيه (١). ولم تشتف نفس عصمة بن حدرة اليربوعي الا بقتل سبعين رجلا من بني عبس برجل قتلوه من قومه (٢).

وفكرة الثأر ، تشحذ عزيمة الرجل وتبث فيه الشجاعة والجلد وتروضه على الصبر وطول الترقب . وحين يعقد الرجل نيته على الثأر ربما رأيناه يأخذ نفسه بألوان من الحرمان والتقشف شديدة القسوة ، فهو يحرم على نفسه كل أنواع الملذات التي تتوق اليها نفسه كالنساء والخمر وأكل اللحم ، وقد يمتنع عن الاغتسال بالماء حتى يأخذ بثأره (٣) . فاذا ادرك وتره حلت له الخمر وسائر الملذات :

حلّت لي الخمرُ وكنتُ امرءاً   عن شُربها في شُغُل شاغلِ (٤)

ولكي يضع الرجل ثأره نصب عينيه ويرغم نفسه على أداء هذه المهمة العسيرة نجده يحرص على ان يعلن للناس جميعاً ما نذره على نفسه ، وقد يخاطر بسمعته في سبيل ذلك فيدعو قومه الى التبرؤ منه والى احتقاره واعتباره غير جدير بالاسم الذي يحمله ان لم يفِ بنذره ويدرك ثؤرته :

فلا يدعُني قومي لزيدِ بن مالك   لئن لم أعجّل ضربةً او أُعجَلِ (٥)

وهذه النذور كان لها في نفس الجاهلي حرمة عظيمة ، وهو يرى إن إخلاله بها إثم كبير (٦). وهذه الحرمة التي كانت للثأر وشعائره عند الجاهليين حملت

---

١ ـ الاغاني ٨٤/١٩ (ساسي) .
٢ ـ النقائض ٣٣٦/١ .
٣ ـ يقول الربيع بن زياد بصدد مقتل مالك بن زهير العبسي :

أفبعد مقتل مالك بن زهير   ترجو النساء عواقب الاطهار

(أمالي المرتضى ٢٠٧/١)

وانظر ديوان الحطيئة ص ٢٢٣ . والنقائض ٨٣/١ . ٣٣٦/١ .
٤ ـ حماسة البحتري ص ٤٣ . والبيت لامرىء القيس . وانظر امثلة أخرى في نفس الموضع .
٥ ـ حماسة البحتري ص ١٠ .
٦ ـ ديوان امرىء القيس ص ١١٩ .

الباحث لامنس على اسباغ الصفة الدينية على شريعة الثأر(١). وهذه الصفة الدينية هي التي تفسر عنده مظاهر القسوة التي كانت ترافق الاخذ بالثأر وألوان الحرمان التي كان الموتور يفرضها على نفسه والتي تجعله في حالة «إحرام» لا يحله منها الا انفاذه مهمته المقدسة . وقد أكد «ولهوزن» التلازم بين الثأر وحالة الاحرام ورأى فيها التعبير الاسمى عن التأله الذي يرجو البدوي ان يتقرب بوساطته من الآلهة(٢). ولكي يعلم الناس جميعاً ان قوم المقتول قد اخذوا بثأرهم وانهم لذلك جديرون بالاعجاب والتقدير ، يحرص في كثير من الاحوال على ان يتم الاخذ بالثأر جهاراً على ملأ من الناس . وربما اقتضى الامر ان يلازم الرجل غريمه امداً طويلا ، حتى تسنح له فرصة قتله علانية ، صنيعَ صعصعة بن حرب الذي أبى ان يقتل بَحير بن ورقاء الصريمي إلا جهاراً في مجلس المهلب . وقد صرح في معرض الفخر بفعلته ، ان الفرصة قد أمكنته غير مرة لقتله خالياً ولكنه كره ان يقتله سراً(٣) . وسلك هذه الخطة أيضاً قاتل عقبة بن سَلم الهُنائي الذي ضرب المثل بجراته (٤) .

ولا شيء أدعى للفخر في المجتمع القبلي من ادراك القوم ثأرهم ، فان صنيعهم هذا يملأ صدورهم زهواً واعتزازاً وينطق لسان شعرائهم بالفخر والمباهاة .

والرجل الذي يعجز عن ادراك ثؤرته يكون عرضة للمذمة والازدراءوكذلك القبيلة العاجزة عن اصابة وترها . وربما عير رجالها بأنهم نساء يخلق بهم الانصراف الى الغزل والتخلق بالطيب والتزين بالحلي (٥).

---

١ ـ انظر الفصل الذي عقده لامنس لدراسة الثأر في :
L'ammens. Le caractère religieux du « Tar » dans : l'Arabie Occidentale avant l'Hégire p. 181.

٢ ـ المصدر السابق ص ١٨٣ .

٣ ـ تاريخ الطبري ١٤٣/٥ .

٤ ـ اسماء المغتالين لابن حبيب ص ١٩٦ . مجمع الامثال للميداني ١٩٢/١ .

٥ ـ انظر أمثلة لذلك في الاغاني ٥٠/٢١ . والطبري ٤٠٦/٤ وحماسة البحتري ص ٣٠ وحماسة أبي تمام ١١٤/٤ .

وقد شاعت في المجتمع القبلي اسطورة لا غاية لها الا الحض على طلب الثأر تلك هي اسطورة الهامة (١) ، فقد زعموا ان القتيل اذا لم يؤخذ بثأره خرجت من رأسه هامة لا تزال تصيح : اسقوني ، اسقوني . فاذا أخذ بثأره ارتوى ظمؤها فكفت عن الصياح (٢) .

وعلى ان الاسلام جاء يدعو الى وضع الضغائن الموروثة عن العصر الجاهلي والى اهدار دماء الجاهلية ظلت الاحقاد القبلية قائمة بعده ولم تستطع التعاليم الاسلامية ان تمحو من نفوس الكثيرين الاحن الموروثة عن الآباء والاجداد.

وعلى رغم تشبث المجتمع القبلي بشريعة الثأر الجأت الضرورة العرب الى قبول حل وسط والتخلي عن طلب الثأر في بعض الاحوال . وهذا الحل الوسط هو الرضى بالدية . وكان يلجأ في الغالب الى قبول الدية في سبيل وضع حد لحروب قبلية طال امدها او حقناً لدماء حيين من قبيلة واحدة . كما ان آل المقتول كانوا يقنعون بالدية حين يشعرون انهم عاجزون عن ادراك وترهم من قوم القاتل . وعلى أي حال كان قبول الدية لوناً من التسامح والتساهل يلقى من جانب المغالين في عصبيتهم أشد الانكار والسخط ويرون في إيثار اللبن على الدم عاراً لا يمحى :

فلا تأخذوا عقلا من القوم إنني أرى العار يبقى والمعاقل تذهب(٣)

ولكن العقلاء المعتدلين كانوا لا يرون غضاضة في قبول الدية ، ولا سيما حين يكون القاتل والمقتول من قبيلة واحدة . ونحن نعلم موقف زهير بن أبي سلمى من حرب داحس والغبراء وثناءه على الذين أطفأوا نارها باحتمالهم

١ — الهامة من طيور الليل ويقال لها الصدى ايضا .

٢ — تاج العروس ١١٢/٩ وامالي القالي ١٢٩/١ .

٣ — حماسة ابي تمام ٢١٥/١ . وانظر امثلة أخرى في حماسة أبي تمام ٢١٦/١ و ٢١٧ وحماسة البحتري ص ٣٠ وما بعدها . وانظر ايضا بهذا الصدد خبر امرىء القيس وبني اسد في الاغاني ٨٢/٩ . وخبر شرحاف وعمارة بن زياد في النقائض ١٩٣/١ .

الديات فيها (١) . وقد اصبح احتمال الديات من المفاخر القبلية التي تغنى بها الشعراء (٢) .

ولكي تدفع القبيلة عن نفسها وصمة العار بقبولها الدية ، كانوا ربما لجؤوا الى حيلة معروفة في المجتمع القبلي هي ما يعرف بسهم الاعتذار او التعقية . وذلك ان يقتل الرجل رجلا من قبيلته فيجتمع رؤساء القوم ويعرضون على اولياء المقتول الدية ، فان كانوا ذوي قوة ومنعة أبوا الا القود والا قالوا : بيننا وبين خالقنا علامة للامر والنهي ، أن نأخذ سهماً نرمي به نحو السماء ، فان رجع الينا مضرجاً بالدم فقد نهينا عن أخذ الدية ، وان عاد كما صعد فقد أمرنا بأخذها . وبطبيعة الحال فان السهم لا يعود الا نظيفاً ، وحينئذ يرضون بالدية ويمسحون لحاهم علامة على الصلح (٣) .

وقد جرى العرف القبلي على ان دية الصريح مائة ناقة ، وعلى ان دية الحليف والهجين نصف دية الصريح (٤) . والاصل في الدية ان تكون بالابل ثم قوّمت بعد ذلك بالدنانير والدراهم والبقر والغنم (٥) . على ان الدية لم تكن واحدة في جميع الاحوال ، فقد تقل عن القدر المتعارف عليه أحياناً ، كما قد تزيد حين يكون الرجل سيداً او شريفاً ذا مكانة في قومه ، او اذا مثل به بعد قتله(٦) . ولهذا لم يرض أزد البصرة ان يأخذوا بمسعود بن عمرو إلا عشر ديات (٧) ، وكذلك كانت دية الملوك (٨). ويظهر انه كان لبعض القبائل

---

١ ــ شرح ديوان زهير ص ١٤ .

٢ ــ انظر مثلا ديوان الفرزدق ٨٥٧/٢ وديوان الحطيئة ص ٢٦٠ .

٣ ــ خزانة الادب للبغدادي ١٢٧/٢ . ديوان الهذليين ٣١/٢ .

٤ ــ الاغاني ١٨/٣ امالي القالي ٧٢/١ .

٥ ــ لسان العرب ٤٨٧/١٣ .

٦ ــ جاء في الاغاني : ٤٠/٣ أن الدية عند الاوس والخزرج كانت عشرا من الابل للصريح وخمسا للحليف .

٧ ــ انساب الاشراف ٩٨/٤ ، ١١٢ .

٨ ــ الاغاني ١١١/١١ .

القوية ميزة على غيرها في الديات اذ كان قتيلها يودى ديتين بدلا من دية واحدة (١) ولما قام الاسلام جعل الدية واحدة في جميع الاحوال وسواء كان الرجل شريفاً أم وضيعاً .

ولم تكن الدية تؤدى تعويضاً عن القتل فحسب ، فثمة أحوال أخرى كانت تؤدى فيها الدية كالجرح والشج وبتر الاصبع وفقاً للمبدأ : لكل شيء ثمنه في المجتمع القبلي . والحق مهما ضؤل شأنه لا يتخلى عنه اصحابه فكل مالا يعوض بالدم او بالمقابلة بالمثل لا مفر من تعويضه بالمال .

وربما عجز الرجل عن اداء الدية وحده ، وحينئذ يعاونه قومه في الحمالة ويعقلون عنه وفقاً لمبدأ التكافل والتضامن القبلي .

* * *

تلك هي ابرز سمات العصبية القبلية وتبعاتها ومظاهرها وآثارها في الحياة العامة . اما موقف الشعراء من هذه العصبية وأثرهم في اثارة الحزازات القبلية وفي ايقاع الشر بين القبائل ومحاماتهم عن عشائرهم بها ، وأثر العصبية في الشعر وما يتصل بذلك ، فموضع الحديث عنه الفصول القادمة .

---

١ ـ من هؤلاء بنو الاسود بن رزن الديلي ، سيرة ابن هشام ٣٨٩/٢) وبنو الحارث بن عبد الله من الازد (ا لاغاني ٢١١/١٣) .

الفصل الثالث

المجتمع الجاهلي
واحتدام العصبيات فيه



١

مواطن القبائل العربية في العصر الجاهلي

لكي نتحدث عن العصبية القبلية وعلاقة القبائل بعضها ببعض في العصر الجاهلي ، وعن الايام والوقائع الجاهلية ، من الضروري أن نلم المامة سريعة بمواطن القبائل العربية في ذلك العصر .

ونحن لا نريد ان نتحدث هنا عن مهد الامة العربية ، وهل هو بلاد ما بين النهرين ، او جنوب الجزيرة العربية أو غير ذلك ، فان بحث هـذه الامور التاريخية لا يدخل في نطاق بحثنا . والذي يعنينا هنا هو ما كانت عليه حال بلاد العرب ومنازل القبائل العربية ابان الحقبة التي سبقت ظهور الاسلام والتي استقرت فيها الاوضاع القبلية وبرزت فيها ظاهرة العصبية وما يتصل بها من ايام ووقائع . ولا بد لنا من الاشارة الى بعض الهجرات التي حدثت في بلاد العرب ، والتي تفسر لنا تجاور بعض القبائل العدنانية والقحطانية في منازلها واستقرار طائفة من القبائل اليمانية الاصل شمالي بلاد العرب .

وحين نتتبع منازل القبائل العربية في تلك الحقبة نجد الكثرة الغالبة منها تنزل شبه الجزيرة العربية (١) ، وطائفة قليلة منها كانت تنزل الشام والعراق ومنطقة ما بين النهرين دجلة والفرات ، وهي المعروفة بجزيرة أقور(٢) .

---

١ ـ لاتتفق المصادر العربية القديمة في تعيينها حدود جزيرة العرب . واكثرهم يرى انها لا تشمل بلاد الشام وما بين النهرين (انظر معجم البلدان لياقوت ٧٦/٢ ومعجم البكري ٥/١ ومختصر كتاب البلدان لابن الفقيه ص ١٢٨) . ولكن بعض قدماء الجغرافيين اليونان والرومان ادخل في حدود جزيرة العرب اكثر بلاد ما بين النهرين (انظر Desvergers : Arabia p. 2).

٢ ـ معجم البلدان لياقوت ٧٢/٢ .

والقدماء حين يتحدثون عن بلاد العرب فانهم يقصدون شبه الجزيرة العربية وقد تجاوزوا فسموها جزيرة لاحاطة الماء بها من أكثر اطرافها (١) ، فالبحار تحيط بها من الشرق والغرب والجنوب ويفصلها عن بلاد الشام والعراق نهرا دجلة والفرات وبادية السماوة .

وجغرافيو العرب يتفقون على تقسيم جزيرة العرب الى أقسامهاالخمسة: تهامة ، والحجاز ، ونجد ، والعروض ، واليمن ، ولكنهم يختلفون اختلافاً شديداً في تحديد هذه المناطق الخمس . ونحن لا نريد ان نعرض هنا لوجوه الخلاف بينهم (٢) ، وحسبنا أن نذكر هنا الحدود التقريبية لهذه المناطق لنستعين بهذا التحديد في بيان منازل القبائل العربية . ففي الغرب منجزيرة العرب تمتد سلسلة جبال السراة من الشمال الى الجنوب،والمنطقة المنخفضة غربي هذه الجبال تعرف بتهامة ومن مدنها مكة وجدة ، والى الشرق من جبال السراة بلاد نجد وهي هضبة تمتد حتى اطراف العراق والسماوة . وجبال السراة وما أطاف بها تعرف بالحجازومن مدنه يثرب وخيبر وتبوك والطائف. اما العروض فهيالى الجنوب والىالشرق من نجدوتشمل بلاداليمامةوالبحرين وما والاها ، وكانت البحرين تشمل في القديم كل المنطقة الساحلية الممتدة بمحاذاة خليج فارس حتى عمان ، وقصبتها هجر .

واليمن كانت تشمل في تعريف القدماء جميع المنطقة الجنوبية من بلاد العرب ، فهي تشمل عدن وحضرموت والشِحر ومَهرة وعُمان . ومن حواضرها صنعاء ومأرب وعدن ونجران وظَفار وشَبوة وشَبام ومخا (٣) .

---

١ ــ معجم البكري ٦/١ ، صفة جزيرة العرب للهمداني ص ٤٧ .

٢ ــ يرجع لتحديد مناطق الجزيرة العربية بالتفصيل واختلاف القدماء فيه الى معجم البكري ٧/١ وما بعدها ومعجم ياقوت ٧٦/٢ وصفة جزيرة العرب ص ٤٨ وما بعدها ، ونهاية الارب للقلقشندي ص ١٦ وما بعدها والعمدة لابن رشيق ٢٤٥/٢ .

٣ ــ المصادر السابقة . وانظر ايضا تاريخ العرب لحتى ١٥/١ وتاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ٨٦/١ الى ١٤٧ .

والمؤرخون العرب يحدثوننا عن هجرات حدثت منذ أقدم العصور في بلاد العرب استقرت على أثرها القبائل العربية في المواطن التي وجدناها فيها قبيل الاسلام . وأبرز هذه الهجرات اثنتان احداهما عدنانية والاخرى قحطانية .

ويحدد المؤرخون زمن الهجرة العدنانية بالحقبة التي أعقبت غزو بختنصر ملك آشور بلاد العرب وإخرابه إياها (١) . وهم يجعلون بختنصر معاصراً لعدنان وابنه معد ، بل يذكرون ان عدنان نفسه كان على رأس جموع العرب التي تصدت لبختنصر وقاتلته . وقد أجلت هذه الغزوة عن هزيمة العرب وإبادة اكثرهم ، الا من اعتصم برؤوس الجبال والمواضع الحصينة . والذين ظلوا على قيد الحياة نزلوا كلهم بلاد تهامة ، وقد ظل أمرهم مؤتلفاً حتى وقعت بينهم حروب أفضت الى نزوح جل قبائلهم عن بلاد تهامة الى مواطن أخرى(٢). ولكننا لا ندري من أمر هذه الهجرة شيئاً ولا نستطيع الاطمئنان الى خبرها لاننا لانملك وثائق تاريخية تتصل بها ، ولذلك نكتفي بذكر مواطن القبائل العدنانية التي كانت تنزلها عند مجيء الاسلام ، وربما أشرنا احياناً الى ماسبق استقرارها في مواطنها من اخبار حين يكون لذلك صلة بالايام الجاهلية .

فقد نزلت تهامة والحجاز من القبائل العدنانية ، كنانة ودارها في تهامة(٣)، وقريش وكانت منازلها مكة وما والاها(٤) ، ومزينة في جبال رَضوى وقَدس وآرة وما صاقبها من أرض الحجاز(٥) ، ونزلت فَهم وعَدوان سراة الحجاز تجاورهم قبيلة هذيل(٦)، وكان بنو عامر أول الامر يشتون في نجد ويصيفون

---

١ ــ بختنصر او نبوخذ نصر الثاني (٦٠٥ الى ٥٦٢ ق. م) .
٢ ــ انظر خبر هذه الهجرة في معجم البكري ١٩/١ والاغاني ٧٨/١٣ .
٣ ــ معجم البكري ٨٨/١ .
٤ ــ سيرة ابن هشام ١٢٤/١ .
٥ ــ معجم البكري ٨٨/١ .
٦ ــ المصدر السابق .

بالطائف ، فلما قوي أمر ثقيف أجلتهم عن الطائف(١) واستقرت ثقيف فيها بعد إجلاء بني عدوان وبني عامر عنها (٢) . ونزلت هوازن ما بين غور تهامة الى ما والى بيشة وناحية السراة وحنين وأوطاس (٣) . ونزل الحجاز من القبائل القيسية ايضاً بنو هلال وجل بني سليم (٤) .

ونزل نجد من القبائل العدنانية بنو كعب بن ربيعة وديارهم بالفلج وباديتها(٥) . وغطفان(٦) واسد وكانت منازل بني اسد مجاورة منازل طيء(٧)، ونزلت ضبة وعكل وتميم بلاد نجد ثم مضوا حتى خالطوا أطراف هجرونزلوا ما بين اليمامة وهجر . ومضى بنو سعد بن تميم فنزلوا رمل يبرين وخالطوا عبد القيس في بلاد قطر ، ووقعت طائفة منهم الى عمان (٨) . وقد جاء في بعض الاخبار ان بني تميم كانوا وثبوا على البيت قبل الاسلام فاجتمعت عليهاالعرب وأجلتها عن تهامة(٩). ونزل بنو عامربن صعصعةغربي نجدمما يلي الحجاز(١٠).

ونزل اليمامة من قبائل عدنان بنو باهلةبن أعصر وبنونمير(١١) وبنو تميم(١٢)،

---

١ ــ البكري ١/٧٧ .

٢ ــ المصدر السابق .

٣ ــ البكري ١/٨٧ .

٤ ــ معجم ياقوت ٢/٢٠٥ والبكري ١/٩٠ .

٥ ــ معجم البكري ١/٩٠ .

٦ ــ شرح ديوان زهير ص ٣٢٦ .

٧ ــ ديوان عبيد بن الابرص ص ٨ .

٨ ــ معجم البكري ١/٩٠ .

٩ ــ الاغاني ١٩/١٠ (ساسي) .

١٠ ــ البكري ١/٩٠ .

١١ ــ البكري ١/٩٠ .

١٢ ــ البكري ١/٨٨ .

وكانت حاضرة اليمامة « الحجر » وما حولها لبني حنيفة(١)، وبعدخرب بكر وتغلب انتشرت بكر وعنزة وضبيعة باليمامة فيما بينها وبين البحرين حتى اطراف سواد العراق وناحية الأبلة الى هيت وما والاها (٢) .

ويذكرون انه لما افترقت قبائل ربيعة نزلت عبد القيس البحرين ونفت إياداً عنها وتوزعتها بطونها . وصار فريق من عبد القيس الى عمان وشاركوا الازد في بلادهم (٣) . اما قبيلتا تغلب والنمر بن قاسط فقد نزلتا شمالي بلاد العرب فكانت ديارهم حول الفرات من أرض الجزيرة (جزيرة اقور)(٤).

ولقبيلة إياد خبر مطول في كتب التاريخ والادب يفصل أمر جلائهم عن تهامة ، موطنهم الاول ، فقد كثر عددهم وتلاحقت نابتتهم، ثم بغوا على اخوانهم من مضر وربيعة ، مما أدى الى نشوب حرب بين الفريقين أسفرت عن هزيمتهم ونزوحهم عن تهامة . وانتهى بهم التطواف اخيراً الى سنداد وعين أباغ من ارض العراق ، ثم استطالوا على الفرات حتى خالطوا ارض الجزيرة . ثم وقعت حروب بينهم وبين الفرس اضطروا على أثرها إلى الجلاء عن ارض العراق، وقد هلك أكثرهم في هذه الحروب وتشتت جمعهم ونزلت طوائف منهم أطراف الشام ودانوا لغسان ، ولحق فريق منهم ببلاد الروم (٥) .

والهجرة الثانية التي تحدثنا عنها المصادر العربية القديمة هي هجرة القبائل اليمنية الى شمالي بلاد العرب. وقد تعرض الباحثون الغربيون لأمر هذه الهجرة

---

١ — البكري ٨٥/١ . مختصر كتاب البلدان ص ٢٨ .
٢ — البكري ٨٦/١ .
٣ — البيان والتبيين ١٢١/١ . البكري ٨٢/١ .
٤ — البكري ٨٦/١ .
٥ — الاغاني ٢٣/٢٠ (ساسي) . معجم البكري ٦٧/١٠ . أنساب الاشراف ٢٥/١ .

واضطرب موقفهم منها بين مؤيد ومنكر . وقد ردها بعضهم الى ظاهرة الجفاف التي حلت ببعض مناطق بلاد العرب ولاسيما الجنوبية منها(١). والذين قالوا بهذه الهجرات اختلفوا كذلك في تحديد زمنها ، وقد ربطها بعضهم بانهيار دولة سبأ وتفرق قبائلها في القرن الثاني للميلاد(٢). وكذلك اختلفت الروايات العربية التي تحدثت عن هذه الهجرات في تحديد زمنها، وهل تمت قبيل خراب سد مأرب او بعده . ومهما يكن من أمر فقد وجدنا قبيل الاسلام قبائل كثيرة يدرجها النسابون في عداد بني قحطان تنزل شمالي بلاد العرب وبلاد الشام والعراق . وقد اسس بعضها امارات لهم على حدود بلاد فارس والروم وفي نجد معقل القبائل المضرية .

وتذكر المصادر العربية ان قبائل الازد كان موطنها الاول بلاد اليمن ثم جلت عن ديارها قبيل خراب سد مأرب او بعده فنزل فريق منهم البحرين وتحالفوا مع قبائل اخرى من العرب على التنوخ – اي الاقامة – بتلك البلاد فأطلق عليهم اسم «تنوخ». ولما وقع الاختلاف بين ملوك الطوائف سارت تنوخ الى العراق وغلبت عليها ، وكان منهم جذيمة الابرش الدَوسي الذي ملك العراق حقبة من الزمن (٣) .

ونزل فريق آخر منهم بلاد الشام وهم آل جفنة بن عمرو بن عامر الذين انتزعوا ملك الشام من أيدي الضجاعمة وأقاموا فيها دولتهم التي عرفت بدولة الغساسنة (٤) .

---

١ – جواد علي ١٥٧/١ وتاريخ الادب لبلاشير ص ٢٦ .

٢ – بلاشير ص ٣١ .

٣ – تاريخ سني ملوك الارض للاصفهاني ص ٩٤ . تاريخ الطبري ٤٣٧/١ .

٤ – سيرة ابن هشام ١٣/١ C. de Perceval : Essai sur l'histoire des Arabes 2\1 89 ويحدد دوبر سفال تاريخ اقامة دولة الغساسنة بالشام بحوالي عام ٢٩٢م. ويجعل جورجي زيدان مبدأ حكم الغساسنة عام ٢٢٠ م ، أما نولدكه فيرى أن هذه الدولة لم تؤسس الا منذ القرن الخامس الميلادي (انظر : امراء غسان لنولدكه ، تعريب جوزي وزريق ص ٧ وما بعدها) .

ونزل بنو ثعلبة بن عمرو مزيقياء يثرب وهم قبائل الأوس والخزرج ؛ وأقام بنو حارثة بن عمرو بمر الظهران بمكة ، وهم خزاعة .

ونزل فريق آخر ، وهم بنو عمران بن عمرو وبعض بني نصر بن الأزد عمـان واستوطنوها وهم الذين عرفوا بعد بأزد عمان ؛

وآثرت جماعة أخرى من الأزد الاقامة بالسراة وهم الذين عرفوا بأزد السراة أو أزد شنوءة (١).

ولم يكن الازد وحدهم هم الذين هاجروا الى شمالي بلاد العرب بل ثمة قبائل اخرى يذكر الاخباريون أنها يمانية النجار وأنها قد جلت عن منازلهـا الاولى في اليمن واستقرت في الشمال وفي بلاد الشام والعراق ، ومنها طيء ولخم وجذام وعاملة . ويذكرون ان قبيلة طيء ارتحلت عن اليمن على أثر الازد ونزلت أول الامر سميراء وفيداً في جوار بني أسد ثم غلبتهم على جبلي اجأ وسلمى واستقرت بهما (٢) .

ونزلت قبيلة لخم بلاد الشام والعراق قبل الاسلام بزمن طويل ، والى لخم ينتمي آل نصر بن ربيعة الذين آل اليهم الامر بعد جذيمة الابرش ومنهم كان امراء المناذرة بالحيرة (٣) . ونزلت بطون من اخم فلسطين جنوبي بـلاد الشام (٤) .ونزلت جذام ، أخت لخم ، من حدود أيلة ــ العقبة ــ الى ينبع محاذية الساحل . وكانت لهم رياسة في معان وما حولها من أرض الشام(٥).

---

١ ــ سيرة ابن هشام ١٣/١ . تاريخ ابن خلدون ٣٢/٢ . فتوح البلدان ١٥/١ .

٢ ــ تاريخ ابن خلدون ٣٣/٢ .

٣ ــ تاريخ ابن خلدون ٣٦/٢ .

٤ ــ جواد علي ٢٨٠/٤ . صفة جزيرة العرب ص ١٢٩ .

٥ ــ تاريخ ابن خلدون ٣٧/٢ .

ونزلت عاملة اخت جذام ولخم برية الشام ، وكانت منازلها عند ظهور الاسلام، جنوبي البحر الميت في الجبل المنسوب اليهم (١) . واما كِندة فكانت منازلها بلاد اليمن ، وقد جلت طوائف منها الى الشمال ، وكان لكندة ملك بنجد وبادية الشام ودُومة الجندل (٢) .

ومن القبائل اليمانية التي نزلت الحجاز خثعم وبجيلة ، فاستقرت خثعم ما بين وادي بيشة وتُربة وما والاها من بلاد الحجاز (٣) ، وعلى مقربة منها نزلت أختها بَجيلة . وعلى اثر حروب وقعت بين بطون بجيلة تشتت امرها وتفرقت في قبائل العرب ، حتى جاء الاسلام وسأل جرير بن عبد الله عمر بن الخطاب ان يجمع له قومه ليوجههم الى الفتوح ففعل (٤).

ويذكر الاخباريون أن قبيلة قضاعة افترقت بطونها بعد جلائها عن تهامة فنزلت مواضع شتى . ويذكرون انه كان لقضاعة ملك ما بين الشام والحجاز الى العراق في أيلة وجبال الكرك الى مشارف الشام ، واستعملهم الروم على بادية العرب هنالك ، وكان اول الملك فيهم في تنوخ (٥) ، ثم غلبهم على أمرهم

---

١ ـ تاريخ ابن خلدون ٣٨/٢ . جواد علي ٢٧٨/٤ صفة جزيرة العرب ص ١٢٩ .

٢ ـ تاريخ ابن خلدون ٣٨/٢ . ديوان عبيد بن الابرص ص ٨ .

٣ ـ معجم البكري ٩٠/١ .

٤ ـ تاريخ ابن خلدون ٣٢/٢ معجم البكري ٥٨/١ .

٥ ـ تنوخ على ثلاثة بطون : بطن اسمه فهم ، وهم فهم بن تيم الله بن اسد من قضاعة ، وقد نزل قسم منهم الجزيرة ، وبطن اسمه نزار وهم من بطون قضاعة كلها . وبطن ثالث يقال له الاحلاف من شتى قبائل العرب (جمهرة ابن حزم ص ٤٢٣) . وقد صار قسم من تنوخ الى البحرين ثم الى العراق وقسم آخر الى بلاد الشام ، وكانت منازلهم تتاخم بلاد الروم (خطط الشام لمحمد كرد علي ٦١/١) .

سليح ، ومنهم كان الضجاعمة الذين ملكوا الشام قبل الغساسنة (١) . وسارت قبائل سعد هذيم ــ ومنها عذرة ــ وحوتكة وجهينة فنزلوا وادي القرى (٢) . ونزلت قبيلة بلي بين تيماء ويثرب الى عقبة أيلة ، شمالي جهينة (٣) . ونزل بنو كلب بادية السماوة ودومة الجندل الى ناحية بلادطيء من الجبلين (٤) . ولحقت بهراء بأعالي الشام بعد حروب كانت بينها وبين المنذر بن ماء السماء (٥) . وسار بنو ربان بن حلوان وتزيد بن حلوان الى اطراف الجزيرة ثم اغار عليهم سابور فقتل اكثرهم ، ولحق سائرهم ببلاد الشام (٦) .

اما سائر القبائل القحطانية فلم تزل مقيمة في ديارها باليمن ، فأقام بنو خولان في جبال اليمن الى الشرق منه (٧) . وأقامت همدان شرقي بلاد اليمن شمالي صنعاء ، ما بينها وبين صعدة (٨) . ونزلت مذحج تثليث وما دونها ونجران ونواحيها (٩) . واستقر الاشعرون في ناحية الشمال من زبيد، ونزلوا تهامة اليمن الى جوارعك (١٠) . ونزلت بطون حمير ، باستثناء قضاعة ــ اليمن من صنعاء الى عدن الى ظفار (١١) .

---

١ ــ تاريخ ابن خلدون ٢٤/٢ .
٢ ــ معجم البكري ٣٨/١ . ابن خلدون ٢١/٢ .
٣ ــ ابن خلدون ٢١/٢ . البكري ٩٠/١ .
٤ ــ ابن خلدون ٢٥/٢ معجم البكري ٥٠/١ .
٥ ــ الاغاني ٩١/١٥ (ساسي) .
٦ ــ البكري ٢٥/١ .
٧ ــ ابن خلدون ٣٦/٢ .
٨ ــ ابن خلدون ٢٩/٢ . صفة جزيرة العرب ص ١٠٩ .
٩ ــ معجم ياقوت ٧٦/٢ . ابن خلدون ٣٢/٢ .
١٠ ــ معجم ياقوت ٧٦/٢ . ابن خلدون ٣٢/٢ .
١١ ــ ابن خلدون ١٥/٢ .

وكانت منازل كندة جبال اليمن مما يلي حضر موت (١) . وأقامت مَهرة بالشِحر من بلاد اليمن (٢) . (انظر مصور بلاد العرب قبل الاسلام ومنازل القبائل المشهورة) .

* * *

١ ـ ابن خلدون ٣٨/٢ .
٢ ـ معجم البكري ٢٧/١ .

٢

احتدام العصبية القبلية في العصر الجاهلي

في حديثنا عن العصبية القبلية في الفصل السابق فصلنا القول في دواعي ظهورها في المجتمع القبلي واوضحنا انها ضرورة من ضرورات الحياة في ذلك المجتمع تصون القبيلة كيانها من طريقها وتذود عن حماها وترعى مصالحها. والمجتمع القبلي كان هو المجتمع السائد في العصر الجاهلي ، سواء في البادية او في المراكز الحضرية . ولذلك كان ظهور العصبية في ذلك العصر أمراً طبيعياً لا غرابة فيه ، بل كان الادعى للغرابة والادنى للشذوذ ألا تظهر العصبية في ذلك العصر .

ومن جهة اخرى كان ظهور العصبية في المجتمع الجاهلي يلبي حاجة كامنة في نفس العربي ويروي ظمأه الى التعلق بمثل أعلى يعيش من اجله ، ويعكس توقه الى عقيدة يبذل دمه في سبيلها ، فكانت العصبية القبلية صدى هذه الحاجة وتجسداً لذلك التوق . وكان العربي عصرئذ يجد من اللذة في ارتباطه بهده الفكرة وفنائه من أجلها مثل التي يجدها أبناء العصر الحاضر في تعلقهم بفكرة الوطن أو القومية أو المذهب السياسي .

والطابع الغالب على العصبية القبلية في العصر الجاهلي هو ضيق حدودها ، فما كان العرب يعيشون في ذلك العصر في صورة جماعات قبلية واسعة النطاق ، وانما في صورة جماعات صغيرة قد تكون قبيلة صغيرة أو بطناً من قبيلة ، وكل جماعة تستقل بمراعيها ومياهها وحماها الذي لا يحق للجماعات الاخرى تخطي حدوده ، وكل جماعة ملزمة برعاية مصالحها ، والذود عن

حماها ، وهي لا ترى في الجماعات الاخرى إلا أعداء يتربصون بها الشر . ومن هنا كانت العصبية القبلية ضيقة الحدود في ذلك العصر لا تكاد تجاوز حدود البطن او القبيلة في أضيق نطاقها . واذا قُدر لها أن تجاوز هذه الحدود في بعض الاحوال نجدها تفقد حينئذ الكثير من حدتها وعرامها وقوة اندفاعها. ومصلحة القبيلة وحدها هي التي تحدد صلاتها بالقبائل المجاورة لها ، سواء ربطتها بهم واشجة النسب او لم تربطها . وربما آثرت القبيلة بدافع المصلحة والجوار ، محالفة قبيلة من غير نسبها على محالفة قبيلة أخرى تمت اليها بصلة القرابة والنسب (١) .

وضيق نطاق العصبية القبلية في ذلك العصر يفسر لنا ظاهرتين : أولاهما نشوب حروب قبلية في العصر الجاهلي بين بطون تمتّ الى قبيلة واحدة، على رغم شعورها بوحدة نسبها وما بينها من وشائج الرحم ، فكانت العصبية للرهط او البطن تطغى على العصبية الجامعة للقبيلة . ومنها تلك الحروب التي نشبت بين بطون بني عدوان وكادت تؤدي الى فناء هذه القبيلة (٢) ، وكالحروب التي نشبت بين بطون بني مرة بن عوف (٣) ، وكحرب الفساد بين بطون طيء(٤) ، والحروب التي وقعت بين بطون بجيلة وتفرقت على أثرها في شتى قبائل العرب (٥) .

والظاهرة الثانية تحالف قبيلة مع جماعات اخرى غريبة عنها على قبيلة تربطها بها رابطة النسب كتحالف بني ذبيان وبني اسد على بني عبس إخوة ذبيان

---

١ ـ من ذلك ايثار غطفان حلف بني اسد على بني عامر (ديوان النابغة الذبياني ص ٤١ و ٩٨) .

٢ ـ الاغاني ٣/٧٩ .

٣ ـ الاغاني ١٣/١٠ .

٤ ـ تاريخ ابن الاثير ١/٣٨٨ .

٥ ـ معجم البكري ١/٥٩ .

يوم الهباءة(١) ، وتحالف بني تميم وبني ذبيان وكندة على بني عامر وعبس يوم شعب جبلة(٢) ، وتحالف الخزرج مع جهينة وأشجع على إخوتهم الاوس وحليفتهم مزينة يوم بعاث (٣) .

اما العصبية القبلية في نطاقها الواسع ، كالعصبية لقيس كلها او لمضر أو لربيعة ، وكذلك العصبية الشاملة للجذم : لعدنان او لقحطان فهي لم تعرف في العصر الجاهلي ، وانما ظهرت بواكيرها مع الاسلام ثم تبلورت واتضحت معالمها عند وقوع الشقاق بين المسلمين أيام علي وما لبثت ان بلغت غايتها من العنف والقوة في العصر الاموي . ومن الخطا تصور قيام عصبية عدنانية شاملة واخرى قحطانية في العصر الجاهلي ، فالعربي في ذلك العصر كان عاجزاً عن السمو بتفكيره وشعوره العصبي عن حدود عشيرته الادنين ، وربما اتسع نطاق عصبيته فشمل القبيلة بمعناها الضيق ، أما تجاوز هذه الحدود الى القبيلة الواسعة : الشعب والاصل الجامع فلم تكن تأذن به احوال المجتمع القبلي في ذلك العصر ، وهو يمثل تطوراً في مفهوم العصبية لم يكن من المتاح ظهوره في العصر الجاهلي ، عصر التجزئة والوحدات القبلية الصغيرة .

وفي ضوء ما قدمناه ينبغي لنا ان نلزم جانب الحذر والحيطة حين نقرا اخبار الايام والوقائع الجاهلية اذ أننا نجد في بعضها ما يوهم بأن العصبية القحطانية والعدنانية قد برزت على مسرح الاحداث منذ العصر الجاهلي ، وان حروباً جرت بين الكتلتين القحطانية والعدنانية اتحدت فيها قبائل معد كلها بدافع العصبية وانضوت تحت راية واحدة للقاء القبائل القحطانية . فقد

---

١ ـ تاريخ ابن الاثير ٣٤٣/١ .

٢ ـ الاغاني ١٣١/١١ .

٣ ـ شرح حماسة ابي تمام ٢٤/٣ . ديوان حسان بن ثابت ص ١٢١ . الاغاني ١٥٤/١٥ (ساسي) .

ذكروا مثلا ان معداً اجتمعت كلها على كليب وائل يوم خزازى وقاتلت جموع اليمن فظهرت عليها (١) . وهذا الخبر يناقض كل ما نعرفه عن طبيعة الحياة في المجتمع القبلي والاوضاع القبلية السائدة في العصر الجاهلي ، فلم يعرف ذلك العصر هذه الحروب الشاملة ولا هذا اللون من الاحلاف الواسعة النطاق والعصبيات الجامعة . وسياق خبر هذا اليوم في تاريخ ابن الاثير يدل على انه كان بين ربيعة ومذحج فحسب (٢)، ويستخلص من معلقة ابن كلثوم ان قبيلتي بكر وتغلب كانتا فيه متساندتين لا مزية لاحداهما فيه على الاخرى(٣)، والخبر في صورته الاخيرة مقبول ، فيوم خزازى لا يعدو ان يكون يوماً من الايام القبلية المألوفة انتصرت فيه ربيعة على مذحج .

ومن ابرز مظاهر العصبية القبلية في ذلك العصر التماسك بين ابناء القبيلة الواحدة ، وخضوعهم لنظمها واعرافها وتبرؤهم ممن يخرج على هذه الاعراف ، وانقيادهم لاولي الرياسة والزعامة في القبيلة ، وحالات الثأر الفردي التي حفلت بها أخبار هذا العصر ، وغير ذلك من المظاهر التي تحدثنا عنها حديثاً عاماً وسقنا امثلة لها في الفصل السابق .

وسنقف في هذا الفصل وقفة قصيرة عند ظواهر أربع كانت من ابرز آثار العصبية القبلية في هذا العصر وهي :

---

١ ـ تاريخ ابن الاثير ٣١٠/١ .

٢ ـ انظر تاريخ ابن الاثير ٣١٠/١ .

٣ ـ يقول ابن كلثوم في المعلقة :

ونحن غداة أوقد في خزازى رفدنا فوق رفد الرافدينا

فكنا الايمنين اذ التقينا وكان الايسرين بنو أبينا

(شرح المعلقات العشر ص ١٠٨)

١ ــ حرص القبيلة على سيادتها وكرامتها .

٢ ــ الاحلاف القبلية .

٣ ــ الايام الجاهليـــة .

٤ ــ المفاخرات القبليـــة .

١ ــ حرص القبيلة على سيادتها وكرامتها وثورتها على الجور

روح الاعتزاز القبلي من أبرز ما كان يتسم به العربي ، وبسبب هـــذه الروح كانت القبيلة تأبى الخضوع لغيرها وتأنف من الانقياد لقبيلة اخرى أو لدولة من الدول التي كانت تكتنف بلاد العرب في العصر الجاهلي ، وبسبب هذه الروح نمت في نفس البدوي نزعة التمرد على السلطة من أي لون كانت، وقد لازمته هذه النزعة في جميع العهود .

بيد ان القبائل العربية لم تكن تتمتع كلها بهذه الحرية المطلقة في العصر الجاهلي ، ومن الخطأ تصورنا ان جميع القبائل العربية كانت تعيش عصرئذ بمنجاة من أي سيطرة سياسية فحين كانت القبيلة تجد نفسها بازاء خصم قوي لا قبل لها بمناهضته كانت تؤثر ان تطأطيء رأسها أمامه الى حين ، وأن تؤدي له الاتاوة اتقاء لبطشه وأذاه ، حتى اذا امكنتها الفرصة بعد ذلك للتحرر من سلطانه بادرت الى اهتبالها ، فأبت أداء الاتاوة المفروضة عليها ، وجاهرت بالعصيان وربما فتكت بخصمها انتقاماً لما ألحقه بها من الذل والغضاضة بتسلطه عليها ، ولا سيما حين يشتط من له السلطان على القبيلة في فرض الاتاوات وجباية الاموال ، والعربي بطبعه شديد النفور من الجور والظلم ، نزاع الى الحرية والانطلاق من كل قيد ، وهكذا نجد بني اسد يبطشون بحِجر الكندي ابي امرىءالقيس لسوء سيرته فيهم وغلوه في فرض الاتاوة عليهم [١] ، ونجد قبيلة ربيعة تثور على زهير بن جَناب الكلبي لنفس الاسباب،

---

١ ــ الاغـــاني ٨٢/٩ . ديوان امرىء القيس ص ١٣٤ .

ويطعنه أحدهم محاولا قتله (١) ، وكذلك قبيلة هوازن تثور على ربها زهير بن جذيمة العبسي فيقتله سيد بني عامر بن صعصعة خالدُ بن جعفر بن كلاب ثم يفخر بعد ذلك بصنيعه فيقول من أبيات :

بل كيف تكفرُني هوازنُ بعدما أعتقتهم فتوالدوا أحرارا

وقتلت ربَّهم زُهيراً بعدما جَدع الأنوفَ وأكثر الاوتارا(٢)

بل ان بعض القبائل العربية بلغت من القوة مبلغاً أتاح لها ان تفرض على ملوك الحيرة منحها بعض الامتيازات التي كانت تجني من ورائها مغانم مادية ومنزلة مرموقة تحسدها عليها سائر قبائل العرب ، وتتمثل هذه الامتيازات في الردافة التي كانت تستأثر بها قبيلة بني يربوع التميمية (٣) .

الأحلاف القبلية

تحدثنا قبل حديثاً عاماً عن الاحلاف القبلية بوصفها ظاهرة من ظواهر المجتمع القبلي،لهاصلتها بالعصبيةالقبلية وأشرنا ثمة الى دوافع هذهالاحلاف وصورها وشعائرها . ونقف الآن وقفة قصيرة عند اشهر الاحلاف التيعرفها العصر الجاهلي .

---

١ ــ الاغاني ٦٤/٢١ .

٢ ــ الاغاني ٨٢/١١ .

٣ ــ كان من شروط الردافة ان الملك اذا ركب ردف وراءه صاحب الردافة واذا نزل أجلسه عن يمينه وسقاه من كأسه وكان له ربع غنيمة الملك من كل غزوة وله اتاوة على كل من كان في طاعة الملك ، وقد ذكروا ان اول من ردف عتاب بن هرمي ثم ابناؤه بعده . ويذكرون ايضا ان المنذر بن ماء السماء اراد جعل الردافة في بني دارم فأبى بنو يربوع وقاتلوا المنذر يوم طخفة وهزموه فاضطر الى ترك الردافة فيهم . ويظهر من بعض الاخبار ان الردافة كانت لقاء امتناع بني يربوع عن الاغارة على بلاد المناذرة (النقائض ٦٦/١ و ٢٩٨) .

من هذه الاحلاف حلف أسد وغطفان . وقد دعا اليه ــ فيما يظهر ــ تجاور منازل هاتين القبيلتين في بلاد نجد . وقد أشار زهير بن أبي سلمى الى هـذا الحلف في مواضـع كثيرة من شعره واطلـق على المتحالفـين اسم « الاحلاف »(١) . وقد اضطربت اقوال الشـراح في تعيين المقصود بلفظ « الاحلاف » في شعره ، واكثرهم على انه قصد بها غطفان واسد (٢) . ولمـا وقعت الحرب بين عبس وذبيان انحاز بنو اسد الى جانب بني ذبيان وقاتلوا معهم بني عبس يوم الهباءة (٣) . وقد قام الحليفان اسد وذبيان بغـارات مشتركة كثيرة ، والنابغة الذبياني يشير في شعره الى غارات قام بهاالحليفان على ديار الغساسنة وكان له يد في إطلاق سراح نفر من رجال القبيلتين كان الحارث بن أبي شَمِر الغساني أسرهم إثر احدى الغارات (٤) . ويبدو ان بني عامر ساءهم ان يحالف بنو ذبيان ، وهم بنو أبيهم ، قبيلة أسد المعادية لهم والتي لا تمت الى الجِذم القيسي المشترك بينهم وبين بني ذبيان ، فحاولوا إغراءهم بنقض حلفهم لبني أسد ودعوهم الى محالفتهم هم ، ولكن هـذه المحاولة باءت بالاخفاق ، وكان النابغة من أشد المتحمسين لاستمرار هـذا الحلف (٥) .

وكان بين بني أسد وجيرانهم طيء حلف مماثل كان سابقا فيما يظهر على تحالف أسد وغطفان (٦)، ثم عقدت هذه القبائل الثلاث حلفاً مشتركاً أطلق عليه اسم «الاحاليف»، وكان لهذا الحلف مشاركة في بعض الايام الجاهلية كيوم النِسار ، وكانت رئاسة هذا الحلف لحصن بن حذيفة سيد بني فزارة(٧).

---

١ ــ شرح ديوان زهير ص ١٨ ــ ١٠٩ ــ ١١٠ ــ ١٤٤ .

٢ ــ شرح ديوان زهير ص ١٨ و ص ١١٠ لسان العرب مادة «حلف» . البيان والتبيين ٩/٣

٣ ــ تاريخ ابن الاثير ٣٤٣/١ .

٤ ــ ديوان النابغة الذبياني ص ١٣ .

٥ ــ ديوان النابغة ص ٤١ و ٩٨ .

٦ ــ شرح المفضليات ص ٣٦٣ .

٧ ــ شرح المفضليات ص ٣٦٣ . النقائض ٢٣٨/١ .

ومن هذه الاحلاف ايضاً حلف تميم وكلب . وعلى الرغم من اننا لانجدأثراً لهذا الحلف في ايام الجاهلية ونجهل الحافز الذي حمل هاتين القبيلتين على التحالف ، ثمة اخبار كثيرة في شتى المصادر تؤكد عقد هذا الحلف بينهما منذ ايام الجاهلية (١) . وقد جاء في تاريخ الطبري ان خالد بن الوليد أسر جماعة من كلب بدومة الجندل (عام ١٢ هـ .) ، فأجارهم بنو تميم لما كان بينهما من الحلف وأنقذوهم من القتل ، وقد عرّضتهم هذه الاجارة لتقريع خالد الذي اخذ عليهم حفظ أمر الجاهلية وتضييع أمر الاسلام (٢) . ونجد في الشعر المأثور عن العصر الاموي اكثر من اشارة الى هذا الحلف (٣) .

وثمة حلف مشهور عقد في الاسلام هو حلف الأزد وربيعة ، وقد ادّعوا بعد تحالفهم أن لهذا الحلف اصلا قديماً يرجع الى ايام الجاهلية (٤)، ونسبوا الى المهلهل شعراً بيّن الوضع يشيد فيه بهذا الحلف (٥) .

ومن الاحلاف الجاهلية حلف الاوس وغطفان ومزينة (٦) وحالفت الاوس كذلك بني قريظة وبني النضير ، وهما من يهود يثرب ، واستعانت بهما في

---

١ ـ انظر : طبقات ابن سلام ص ٢٩٧ . الاغاني ٢٤/١٩ . الازمنة والامكنة للمرزوقي ١٦٢/٢ . ونجد في النقائض (٢٥/١) خبرا يفيد ان هذا الحلف عقد اثر مقتل عثمان ولكن ما في المصادر الاخرى يؤكد ان زمن هذا الحلف سابق على هذا التاريخ وانه من احلاف الجاهلية .

٢ ـ تاريخ الطبري ٥٧٨/٢ .

٣ ـ انظر مثلا ديوان جرير ص ٢٤٢ وديوان الفرزدق ١٤/١ .

٤ ـ الكامل للمبرد ٢٠٠/٢ طبع ليبسيك في التعليقات .

٥ ـ الحيوان للجاحظ ١٣٤/٣ .

٦ ـ من الاشارة الى هذا الحلف قول قيس بن الخطيم (ص ٢٠ من الديوان) :

لعمري لقد حالفت ذبيان كلها ... وعبسا على ما في الاديم الممدد

تحملت ما كانت مزينة تشتكي ... من الظلم في الاحلاف حمل التغمد

بعض وقائعها مع الخزرج (١) ، أما الخزرج فحالفوا قبيلتي أشجع وجهينة(٢) كما حالفوا بني قينقاع من يهود يثرب (٣) .

وقد أشرنا في فصل المجتمع القبلي الى طائفة اخرى من أحلاف الجاهلية، كحلف الفضول والمطيّبين والاحلاف والحمس وغيرها .

٣ ـ الايام الجاهليـة

تحتل أخبار الحروب القبلية في العصر الجاهلي الجانب الاكبر من تاريخ ذلك العصر ، ولكونها تصور البطولات القبلية القديمة حرصت القبائل في العصر الاموي على استعادة ذكراها وسرد تفاصيلها في كل مناسبة ، سواء للمفاخرة او للمسامرة ، واصبح الوقوف عليها اول ما يحرص عليه الادباء والشعراء وشداة العلم والمعرفة .

على اننا اذا رجعنا الى اخبار هذه الايام في مختلف المصادر التي روتها يدهشنا ما نقع عليه فيها من ضروب المبالغات واضطراب الروايات ، وما نجده من اختلاف الرواة سواء في تحديد زمنها او في ذكر القبائل التي شاركت فيها او في سياقة اخبارها ، ومرجع ذلك كله الى امرين : اولهما العصبية القبلية في العصر الاموي واثرها في رواية هذه الايام ، وسنتحدث عن هذه الظاهرة في كلامنا على مظاهر العصبيات القبلية في العصر الاموي . والثاني اعتماد رواة هذه الاخبار على الروايات الشفهية ، وهي مظنة التبديل والتحريف والنقص والتزيّد ، وهذا ما يدعونا الى التزام الحيطة والحذر عند رجوعنا الى اخبار هذه الايام فيما بين ايدينا من مصادر .

---

١ ـ سيرة ابن هشام ٢٣٩/٢ . تاريخ ابن الاثير ٤٠٠/١ . الاغاني ١٥٤/١٥ (ساسي) وانظر ايضا شرح حماسة ابي تمام ٢٤/٣ .

٢ ـ ابن الاثير ٤٠٠/١ . الاغاني ١٥٤/١٥ .

٣ ـ سيرة ابن هشام ٢٣٩/٢ .

وحين نعود الى اسباب هذه الايام نجد طائفة منها قامت بدافع الحاجة والفقر وسوء الاحوال المعيشية في بلاد العرب ، وطائفة اخرى اكثر منها عدداً واعظم اثراً قامت بدافع الثأر والانتقام ، او بدافع الغضب لشرف القبيلة وسمعتها وكرامتها ، وهي في جميع هذه الاحوال من ابرز مظاهر العصبية القبلية في العصر الجاهلي .

ولا نود ان نفيض هنا في الحديث عن تقاليد القتال في هذه الايام وما يتصل به من أسر وافتداء وديات ونحو ذلك ، فكل هذه الامور قد تناولناها في فصل المجتمع القبلي ، كما انه لا طائل يرجى في تتبع اخبار هذه الايام بالتفصيل لان اكثرها متشابه لا طرافة فيه ، وانما هو سرد للوقائع يتخلله أبيات من الشعر قيلت في تلك المناسبة . وسنجتزىء لذلك بالاشارة الى اشهر هذه الايام .

وربما توهم من يقرأ أخبار هذه الوقائع انها تشبه الحروب المألوفة من حيث اتصال وقائعها وكثرة ضحاياها ، ولم يكن الامر يجري على هذا النحو في الحروب القبلية الجاهلية ، فانما هي وقائع متفرقة تقوم في اوقات متباعدة وتعتمد على عنصر المباغتة وانتهاز الفرصة ، وقد لا تترك وراءها الكثير من الضحايا . وقولهم مثلا ان حرب البسوس امتدت اربعين عاماً لا ينبغي اعتباره تحديداً دقيقاً لمدة هذه الحرب ، والمراد ان حالة العداوة والحرب بين هذين الحيين استمرت مدة طويلة . ومما يدل على قلة خطر هذه الايام ما ذكروه من ان القتلى ذوي الشأن والمنزلة في حرب البسوس لايزيد عددهم على ثمانية أنفار من تغلب واربعة من بكر (١) ، وان عدد بني عبس يوم الهباءة لم يكن يزيد في قول بني عبس انفسهم على مائة فارس (٢) ، وان عدد بني يربوع يوم الغبيط لم يزد على سبعة فوارس (٣) .

---

١ – الاغاني ٥٢/٥ .

٢ – عيون الاخبار لابن قتيبة ١٢٥/١ .

٣ – طبقات الشعراء لابن سلام ص ١٥٢ .

ونحن نلاحظ أن هذه الايام تتخذ صوراً أربعاً :

أ ــ أيام تشبه ما نسميه في مصطلح العصر الحاضر بالحرب الأهلية، وهي الحروب التي تكون بين بطون القبيلة الواحدة . وهي شر انواع الحروب القبلية لانها تؤدي الى تصدع كيان القبيلة الواحدة وتشتت أمرها ، وربما أدت الى فنائها وانقراضها . وقد اشرنا قبل الى سبب قيام هذه الحروب الداخلية في العصر الجاهلي وذكرنا ان مردها الى ضيق حدود العصبية القبلية عصرئذ وغلبة العصبية الضيقة للرهط والبطن على دواعي العصبية الجامعة للقبيلة كلها . وحلماء القبيلة وأولو الحجى فيها كانوا يرون في هذا الضرب من الحروب بادرة تدعو الى الاسى والاسف ، ورجال القبيلة لا ينسون ، وسيوفهم تخوض في دماء ذوي أرحامهم ، وشائج القربى التي تربط بينهم ، ولكنهم يرون انفسهم مضطرين الى ركوب هذا المركب ، فلا يملكون إلاالأسى، وكل بطن يحاول إلقاء التبعة على البطون الاخرى وكلهم لسان حاله قول الحصين بن الحُمام :

يُفلّقْنَ هاماً من رجال أعزّةٍ علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما(١)

ومن هذه الايام الحروب التي نشبت بين بطون قبيلة عدوان وأدت الى فناء أكثرها . وكانت هذه القبيلة قبل ذلك ذات عدد وشوكة حتى ذكروا انهم نزلوا على ماء ، فأحصوا فيهم سبعين الف غلام أغرل (٢) .

ومنها حرب الفساد التي وقعت بين بطني جديلة والغوث من طيء . وقد دارت الدائرة فيها على جديلة فاضطرت الى فراق قومها ولحقت بقبيلة كلب فحالفتها وأقامت فيها عشرين سنة ، ويستدل من اخبار هذه الحرب

١ ــ المفضليات ص ٦٥ .

٢ ــ الاغاني ٣/٨٩ . الاغرل : الذي لم يختن .

انها كانت قبيل ظهور الاسلام . وقد تفاقمت الاحقاد إبان هذه الحرب بين البطون المحتربة حتى طغت على ما بينها من صلات الرحم فارتكب فيها من الفظائع ما لم يرتكب مثله في الحروب التي قامت بين قبائل تأصلت بينهـا العداوة والبغضاء حتى انهم خصفوا نعالهم بآذان القتلى وشربوا الشراب بأقحاف الرؤوس (١) .

ومنها الحروب التي نشبت بين بطني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان : بني صِرمة بن مرّة وحلفائهم وبني سهم بن مرة وحلفائهم . وقد أجلت عن ظفر بني سهم وعلى رأسهم الحصـين بن الحمام المرّي الشاعر في يوم دارة موضـوع (٢) .

ومنها الحروب التي وقعت بين بطون بجيلة بن أنمـار : أحمس بن الغوث وزيد بن الغوث اولا ثم بين عُرينة بن نذير بن قسْر، وأفصى بن نذير بن قسر، وعلى أثرها تشتتت بطون بجيلة وتفرقت في قبائل العرب حتى جمع شملها جرير بن عبد الله البجلي في زمن عمر (٣) .

ب ــ أيام بين قبائل متآخية في نسبها

من أشهر هذه الايام حرب البسوس التي قامت بين قبيلتي بكر وتغلب . وكان الذي هاجها ــ فيما ذكروا ــ ان كليباً التغلبي سيد ربيعه بغي بغيـاً شديداً جاوز فيه كل حد، وقد نقم عليه البكريون بغيه هذا، فلما رمى ناقة جارتهم البسوس أثار صنيعه ابن اختها جساس بن مرة فقتله، ونشبت أثر ذلك حرب ضروس بين الحيين زعموا انها امتدت اربعين سنة . وكانت الايام

---

١ ــ الاغاني ١٣/١٠ . تاريخ ابن الاثير ١/٣٨٨ .

٢ ــ الاغاني ١٤/٢ وما بعدها . شرح المفضليات للانباري ص ١٠٣ .

٣ ــ معجم البكري ١/٥٩ . شرح المفضليات للانباري ص ١١٤ .

فيها تارة لبكر وتارة لتغلب، ومنها أيام الذنائب والقصيبات وواردات وعنيزة وقضة ، واخيراً تدخل في الامر عقلاء الحيين الذين كانوا كارهين لأمر هذه الحرب التي أدت الى تصدع قبيلة وائل وتشتت شملها، فأصلحوا بينهما(١).

ومنها حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان وكلاهما من قبيلةغطفان. وخبر هذه الحرب مضطرب اشد الاضطراب في المصادر التي روته . فنجد اولا خبراً مطولا يتصل بمولد الفرس داحس الذي كان ثمرة مصادفة عجيبة، ثم بالنزاع الذي وقع بشأنه فيما بعد . ثم نجد الرواة يختلفون في خبر هذه الحرب والسبب الذي هاج الرهان بين قيس بن زهير العبسي وحذيفة بن بدر الفزاري وهل هو تغني قينة لحذيفة بنسوة من بني عبس او تحدي احد بني جوشن الغطفانيين حذيفة بن بدر . ثم يختلفون ايضا بشأن الخيل التي شاركت في السبق ، فيذهب الكلبي الى ان كلا من داحس والغبراء كانا لقيس ابن زهير وان حذيفة أجرى من خيله الخطار والحنفاء وان بني فزارة صدوا داحساً والغبراء عن الغاية حين جاءا سابقين (٢) . ويخالف ابو عبيدة رواية الكلبي فيجعل داحساً فرسا لقيس بن زهير والغبراء حِجراً لحَمل بن بدر ، وجعل الرهان يدور بين قيس بن زهير وبين حَمل أخي حذيفة(٣). وثمة رواية ثالثة تجعل النازل في جوار بني بدر قيس بن زهير لا الربيع بن زياد (٤) . ثم تختلف الروايات ايضا في تفصيل الخبر وما نجم عنه . والامر الذي تتفق فيه كل هذه الروايات هو ان بني بدر الفزاريين جاروا على إخوتهم العبسيين وغصبوهم حقهم . وقد اتصلت الوقائع بين عبس وذبيان بسبب الرهان

---

١ ـ يرجع الى خبر هذه الحرب في الاغاني ٥/٢٤ وما بعدها . والنقائض ٢/٩٠٥ وشرح حماسة ابي تمام ٢/٨٢ وتاريخ ابن الاثير ١/٣١٢ .

٢ ـ النقائض ١/٨٣ .

٣ ـ العقد الفريد ٥/١٥٠ .

٤ ـ تاريخ ابن الاثير ١/٣٤٣ .

وقتل فيها نفر من اشراف الحيين منهم حذيفة بن بدر سيد بني فزارة واخواه حَمل وعوف ، ومالك بن زهير اخو قيس ، وعتبة بن قيس بن زهير . ومن الايام المشهورة في هذه الحرب المريقب ، وذو حسا ، والهباءة ، وهو اشهرها . واضطرت قبيلة عبس آخر الامر الى الجلاء عن ديارها وتنقلت في قبائل عديدة لم تحمد جوارها ، ولم تجد آخر الامر خيراً من مصالحة اختها فعادت الى مواطنها وصالحت بني ذبيان وتوادع الحيان . وكان ممن شارك في بعض وقائع هذه الحرب فارس عبس الذائع الصيت عنترة (١) .

ومنها الحروب التي نشبت بين الاوس واخوتهم الخزرج بيثرب، وكلاهما من بني حارثة بن ثعلبة ... بن الازد . ومن اشهر وقائعها حرب سُمير وقد اثارها سمير بن يزيد الاوسي بقتله كعباً الثعلبي جار مالك بن العجلان سيد الخزرج . وقد دامت هذه الحرب عشرين عاماً ، وكان بين الحيين حروب وايام كثيرة غيرها . وكانوا كلما فاءوا الى السلم هاج الحرب بينهم هائج فعادوا الى القتال. واستعان الاوس والخزرج في هذه الوقائع بحلفائهما اليهود وبعض القبائل العربية ، ومن ايامهما المشهورة حرب حاطب ، وحرب فارع، ويوم الربيع ، ويوم البقيع . وكان آخرها واعظمها يوم بُعاث للاوس على الخزرج ، وقد وضع مقدم الرسول الى يثرب حداً لهذه الحروب (٢) .

ج ــ ايام بين قبائل من اصول شتى

وهي اكثر ايام العرب عدداً ومن اشهرها : يوم الكلاب الاول والثاني . وايام طِخفة وأوارة والسُلان وخزازى وفيف الريح والوَقيط والغبيط

---

١ ــ للوقوف على خبر هذه الحرب يرجع الى المصادر الثلاثة السابقة والى الاغاني ١٩/١٦ (ساسي) وامالي المرتضى ٢٠٧/١ ، ومجمع الامثال للميداني ٥٧/٢ وسيرة ابن هشام ٢٨٦/١ .

٢ ــ انظر صحيح البخاري ٤٤/٥ . وتاريخ ابن الاثير ٤٠٠/١ والاغاني ٢/٣ و ٤١/١٤ و ١٥٤/١٥ . وسيرة ابن هشام ٢٨٧/١ . وشرح حماسة ابي تمام ٢٤/٣ . وديوان حسان بن ثابت ص ١٢١ . وديوان قيس بن الخطيم ص ٢٠ .

وجدود وأيام الفجار وذي نجب ، وبزاخة ورحرحان وشعب جبلة والنسار والجفار (١) .

واشهر هذه الايام واعظمها يوم شعب جبلة (٢) . وتذكر الاخبار ان الذي هاجه نزول بني عبس في جوار بني عامر إثر مفارقتهم بني ذبيان بعد حرب داحس . فقد غضب بنو ذبيان لاجارة بني عامر غرماءهم العبسيين وعزموا على قتالهم ، وانضم اليهم بنو حنظلة بن مالك بن تميم والرباب . وكان بنو عامر هزموهم يوم رحرحان الثاني وأسروا معبد بن زرارة فهلك في الاسر عندهم فأعانوا بني ذبيان طلباً بدم معبد . وثمة اقوال اخرى في سبب هذه الحرب(٣) . وكان مع بني ذبيان حلفاؤهم بنو أسد ، وانضم الى هذه القبائل كلها أميران من بني الجون من كندة (٤) في جمع من كندة وصنائعها . ولا ندري السر في مشاركة كندة في أمر هذه الحرب ولا يبعد ان يكون للملوك كندة يد في اثارة هذه الوقعة وتحريض القبائل على قتال بني عامر ، ويذكرون أن بني تميم وبني ذبيان وحلفاءهما جمعوا جمعاً لم يكن في الجاهلية مثله كثرة . أما بنو عامر فكان معهم جيرانهم بنو عبس وبنو غني وباهلة وجماعة من بني سليم وقبائل بجيلة كلها الا قسراً . وكانت بطون بجيلة قد تفرقت في بني عامر وحالفتهم بعد جلائها عن ديارها . وكان صاحب مشورة بني عامر الاحوص بن جعفر ،

---

١ — يرجع الى اخبار هذه الايام في المصادر التالية : نقائض جرير والفرزدق . الجزء الاول من تاريخ ابن الاثير . الجزء الخامس من العقد الفريد . ايام العرب في الجاهلية لجاد المولى وزميله .

٢ — يرجع الى خبر هذا اليوم في الاغاني ١٢١/١١ . والنقائض ٦٥٤/٢ . وتاريخ ابن الاثير ٣٥٥/١ . والعقد الفريد ١٤٦/٥ .

٣ — تاريخ ابن الاثير ٣٥٥/١ .

٤ — بين الروايات المتعددة خلاف في اسم هذين الاميرين وهل هما عمرو بن الجون واخوه معاوية كما في العقد وابن الاثير او هما شرحبيل بن اخضر بن الجون وحسان بن عمرو بن الجون كما في الاغاني او معاوية بن شرحبيل وحسان بن عمرو كما في النقائض .

أما أعداؤهم فكان من رؤسائهم يومئذ لقيط بن زرارة وإليه كانت مشورتهم ، واخوه حاجب ، وعمرو بن عمرو بن عَدَس ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي ، وكان على بني ذبيان سيدهم حصن بن حذيفة الفزاري .

وحين رأى بنو عامر ان لا قِبل لهم بلقاء الجموع المتحالفة عليهم تحصنوا في شعب جبلة ، فلما أقبل عليهم اعداؤهم ارسلوا ابلا كانوا أظمأوها قبل ، وقذفوهم بالحجارة والسهام وهم مشرفون عليهم من علُ ، فانهزم بنو تميم وبنو ذبيان ومن معهم ، ودارت الدائرة عليهم فقتل وأسر منهم يومئذ عـدد كبير . وممن قتل يومئـذ لقيط بن زرارة سيد بني تميم ، ومعاوية بن الجون الكندي .

وقد اضطربت الروايات في تحديد تاريخ هذا اليوم على الرغم من انهـا تنسب كلها الى راوية واحد هو ابو عبيدة . ففي رواية الاغاني انه كان قبل الاسلام بتسع وخمسين سنة (١)، وفي رواية العقد انه كان يوم مولدالرسول عليه السلام ، أي قبل الاسلام بأربعين عاماً (٢) ، ونجد في النقائض روايتين مختلفتين احداهما تجعله قبل الاسلام بسبع وخمسين سنة (٣) ، والثانية تجعله قبل الاسلام بأربعين الى خمس واربعين سنة (٤) .

د ـ أيام بين العرب والاعاجم

كان قيام إمارتي الغساسنة والمناذرة على تخوم دولتي الروم والفرس بمثابة حاجز يصد قبائل العرب عن الاغارة على حدود هاتين الدولتين . واذا اجترأت بعض القبائل على الاعتداء على قوافل الفرس او الروم او الاغارة على

---

١ ـ الاغاني ٧٦٠/١١ .

٢ ـ العقد الفريد ١٤١/٥ .

٣ ـ النقائض ٦٥٤/٢ .

٤ ـ النقائض ٢٢٦/١ .

حدودهما ، او التعرض لقوافل المناذرة والغساسنة انفسهم ، كانت هاتان الامارتان تتكفلان بتأديب هذه القبائل وتوجيه الجيوش اليها ، مستعينين بالقبائل العربية التي كانت تخضع لسلطانهما ، كالذي نجده مثلا في يوم السلان حين وجه النعمان بن المنذر جيشاً من بني ضبة والرباب وتميم ومن صنائعه ووضائعه الى بني عامر بسبب إغارتهم على لطيمته (١) . وثمة حروب وقعت بين المناذرة والغساسنة سببها التنازع بين دولتي الروم والفرس اللتين كانت تخضع لهما هاتان الامارتان ، ومنها يوم حليمة ويوم عين أباغ ، وكانا للغساسنة على المناذرة (٢) .

الا اننا نجد الاعاجم يتولون هم انفسهم احياناً قتال قبائل العرب التي تتحدى سلطانهم ، فيسيرون بجيوشهم اللجبة لقتالهم وتأديبهم ، او يمدون أنصارهم بهذه الجيوش ليستعينوا بها في قتال العرب ، كالذي نجده في أخبار قبيلة إياد حين كثرت غاراتها على السواد وقوافل الفرس (٣) ، وكذلك نجد كسرى يوقع ببني تميم يوم الصفقة لاغارتهم على قوافله ويقتل منهم مقتلة عظيمة في حصن المشقر (٤) . وأعظم هذه الايام يوم ذي قار الذي كان له صدى عظيم في ارجاء الجزيرة العربية ، لانه اول يوم انتصف فيه العرب من العجم (٥) .

والمصادر التي تناولت خبر هذا اليوم ترجع أسبابه الى احداث سابقة تتصل بنزاع قام في الحيرة بين عدي بن زيد العبادي وعدي بن مرينا حول اختيار خلف للمنذر بن المنذر بن ماء السماء ، وينتهي الامر بتولية النعمان

---

١ ــ تاريخ ابن الاثير ٣٩١/١ .

٢ ــ تاريخ ابن الاثير ٣٢٥/١ ــ ٣٢٦ .

٣ ــ الاغاني ٢٣/٢٠ . معجم البكري ٦٧/١ .

٤ ــ تاريخ الطبري ٥٨١/١ . العقد الفريد ٢٢٤/٥ .

٥ ــ يرجع الى خبر هذا اليوم في : تاريخ الطبري ٦٠٠/١ . وتاريخ ابن الاثير ٢٨٥/١ . والعقد الفريد ٢٦٢/٥ . والنقائض ٦٣٩/٢ . ومعجم البلدان لياقوت ٨/٧ . والاغاني ١٠٢/٢ و ١٣٢/٢٠ .

ابن المنذر ، ربيب آل عدي بن زيد ، فيحقد ابن مرينا على عدي بن زيد ولا يزال يسعى به عند النعمان حتى يوغر عليه صدره فيسجنه ثم يقتله . وتتاح فرصة الانتقام بعد حين لزيد بن عدي فيفسد ما بين كسرى أبرويز بن هرمز وعامله النعمان ، فاذا أحس ابن المنذر بالخطر ذهب يلتمس ملاذاً في قبائل العرب ، وينتهي به المطاف الى بني شيبان فيستودعهم أدراعه وسلاحه وأهله ويمضي الى كسرى راجياً ان يظفر منه بالصفح والعفو ، ولكن كسرى يزج به في السجن حيث يلقى حتفه آخر الامر ، وفي رواية اخرى انه أمر بالقائه تحت ارجل الفيلة . ولا يلبث ان يطلب الى عامله على الحيرة بعد النعمان اياس بن قبيصة الطائي ، استرداد ودائع النعمان لدى بني شيبان . ولكن هؤلاء يأبون إخفار ذمتهم ويمتنعون من رد الودائع ، ويكون ذلك — فيما يذكره الاخباريون — سبب توجيه كسرى جيشاً لجباً من المرازبة والعرب لقتال بني شيبان .

ومما يكن من أمر الاحداث التي سبقت هذه المعركة وسواء أكان سبب غضب كسرى على بني‌شيبان وقتاله إياهم إباءهم رد ودائع النعمان أم غاراتهم المتصلة على السواد ، فان خبر هذه الوقعة ثابت لا مجال للشك فيه ، وانما يختلف الرواة في تحديد زمنها ، فجعلها بعضهم يوم ولادة الرسول ، وهو لا يصح لان ولاية النعمان بن المنذر كانت بعد مولد الرسول عليه السلام (١)، وجعلها آخرون بعيد وقعة بدر(٢) ، وقد رووا عن الرسول حديثاً يتصل بنبأ هذه الوقعة (٣) ، وحدد بعض الباحثين زمنها بين عامي ٦٠٤ و ٦١٠ م (٤) .

---

١ — كانت ولاية النعمان ، حسبما يذكر دو برسفال في عام ٥٨٣ م وحددها نولدكه بعام ٥٨٠ م ، وولد الرسول عام ٥٧١ م انظر : (De Perceval 3/146 أمراء غسان ص ٣٦). كان في عام ٦٠٢ م .

٢ — الاغاني ١٣٢/٢٠ . وهذا لايصح لان وقعة بدر كانت عام ٦٢٤ م في حين ان مقتل النعمان كان في عام ٦٠٢ م .

٣ — العقد الفريد ٢٦٢/٥ .

٤ — انظر جواد علي ١٠٣/٤ .

ويدلنا خبر هذا اليوم على ان الرابطة القبلية كان لها وحدها الغلبة والسيطرة في العصر الجاهلي ، إذ أننا نجد كسرى يستعين في قتاله بني شيبان ببعض القبائل العربية ، كتغلب والنمر وقضاعة وإياد ، فضلا عن الاعاجم ، وان كنا نجد في انهزام إياد عن جيش كسرى — ان صح هذا الخبر — بارقة من الشعور القومي الذي يسمو على الشعور القبلي . ولم ينصر بني شيبان يومئذ الا طوائف من بكر بن وائل ، ومع ذلك استطاعت هذه القلة ان تهزم جيش كسرى الضخم هزيمة منكرة كان لها دوي مجلجل في بلاد العرب ، وكانت هزيمة الاعاجم في ذلك اليوم ارهاصاً يبشر بزوال ملكهم على يد الجيوش العربية بعد ذلك بزمن قصير من تاريخ هذه الوقعة .

٤ ــ المفاخرات القبلية

اعتزاز القبلية بأصلها ونسبها وفخرها بمناقبها ومآثرها ، وايمانها بتفوقها الجنسي وفضلها على القبائل الاخرى ، كل هذه من سمات العصبية القبلية الملازمة لها في شتى العصور ، فالعصبية والفخر توءمان لا يفترقان أياً كان لون العصبية .

ونحن نجد تدرجاً في مراتب المفاخرة يماشي درجات العصبية ، فثمة مفاخرات بين بطون القبيلة الواحدة ، ولكن هذه البطون كلها تشترك في مفاخرة القبائل الاخرى بأصلها المشترك ، فحلقات المفاخرة تبدأ في نطاق ضيق ثم تأخذ في الاتساع مسايرة حدود العصبية القبلية .

وكانت القبائل في العصر الجاهلي لا يكاد يضمها مجلس او تلتقي في ندوة او سوق ، حتى تنزع الى المفاخرة والتباهي بذكر المآثر والمناقب . وكثيراً ما كانت هذه المفاخرات تجر وراءها حروباً قبلية ووقائع دامية . وقد روى ابو الفرج ان قريشاً كانت تخرج في الجاهلية الى مكان من شعاب مكة فتتفاخر وتتشاتم ولا يفترق القوم الا عن قتال (١) . واكثر المفاخرات كانت تجري في

---

١ ــ الاغاني ١٤٧/٩ .

الاسواق والمواسم وسوق عكاظ خاصة ، وفي مجالس ملوك الحيرة والشام . وكان شعراء القبيلة وخطباؤها وسادتها هم ألسنتها الناطقة في مجالس المفاخرة وحلبات المنافرة .

وكان مدار هذه المفاخرات على السجايا والمحامد القبلية التي كان المجتمع الجاهلي يعتز بها كأصالة النسب ونبل المحتد وكثرة العدد والشجاعة في القتال ونجدة الملهوف واجارة المستغيث وقرى الضيف واباء الذل ونحو ذلك.

وقد روت المصادر الادبية التي انتهت الينا جانباً من المفاخرات الجاهلية، على ان كثيراً منها لاتطمئن النفس الى صحته ويرجح انه من افتعال الرواة ، ولا سيما الكلبي وابنه .

ومن هذه المفاخرات ما رواه ابن الكلبي عن ابيه من مفاخرة يزيد بن عبد عبد المدان المذحجي وعامر بن الطفيل بعكاظ : أولهما يفخر بقومه مذحج والثاني يفخر ببني عامر وقيس عيلان . وكان مما عيّر به يزيد عامرا ما كانت قبيلته تؤديه من إتاوات للمحرق والنعمان (١) . وثمة مفاخرة اخرى جرت بين يزيد بن عبد المدن واشراف من قيس منهم عامر بن مالك ملاعب الاسنة ودريد ابن الصمة في مجلس الحارث الغساني (٢) ، وفي الخبر مايثير الشك في انه من تلفيقات الكلبي افتعله بدافع العصبية للرفع من شأن قبائل اليمن .

وتروي المصادر الادبية اخبار مفاخرات اخرى كثيرة جرت في مجالس ملوك الحيرة ، ومنها مفاخرة اشراف بني عبس وبني عامر في مجلس النعمان بن المنذر ، وكان في وفد بني عامر ابو براء عامر بن مالك ومالك بن جعفر ولبيد

---

١ ـ الاغاني ٤/١٢ .

٢ ـ الاغاني ١٣/١٢ .

بن ربيعة الشاعر ، وهو يومئذ غلام يفَع قد جعلوه في رحالهم ، وكان في وفد بني عبس الربيع بن زياد العبسي ، وكان أثيراً عند النعمان ، واخوته أنس وعمارة وقيس . وتذكر الرواية ان لبيداً استطاع في ذلك المجلس اعلاء ذكر قومه بني جعفر والحط من شأن الربيع بن زياد وتنفير النعمان من مجالسته حتى أمر باقصائه عنه (١) . ومنها المفاخرة التي جرت في مجلس عمرو بن هند بين بني تغلب وسيدهم يومئذ عمرو بن كلثوم ، وبني بكر وكان الناطق بلسانهم النعمان ابن هَرم البكري . وفي هذا المجلس قال الحارث بن حِلزة شاعر بكر معلقته المشهورة (٢) .

ومنها ايضاً ما حدثنا به من اجتماع اشراف العرب ووفود القبائل في مجلس النعمان بن المنذر (او في مجلس المنذر بن ماء السماء) وما كان من احضار الملك بردى محرق (٣) ، ليلبسهما اكرم العرب واشرفهم حسباً وأعزهم قبيلة، فقام عامر بن أحَيمر بن بهدلة ــ او أحيمر بن خلف بن بهدلة ــ فائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر ، فقال له الملك : وما حجتك فيما ادعيت فأجاب : الشرف من نزار كلها في مضر ، ثم في تميم ، ثم في سعد ، ثم في كعب، ثم في بهدلة ، الخ القصة (٤) .

واشهر المفاخرات الجاهلية التي انتهت الينا تلك المفاخرة التي كانت بين قبائل العرب في مجلس كسرى ، وهي مروية عن ابن الكلبي .

---

١ ــ امالي المرتضى ١/١٨٩ . الاغاني ١٥/٣٦٣ .

٢ ــ شرح المعلقات العشر للتبريزي ص ١٢٥ . الاغاني ١١/٤٢ .

٣ ــ لقب بالمحرق عدد من ملوك المناذرة والغساسنة منهم عمرو بن هند وقد زعموا انه لقب به لانه حرق مائة من بني تميم في يوم أوارة الثاني (الاغاني ١٩/١٢٩ . الكامل للمبرد ١/٩٩) ومنهم امرؤ القيس بن عمرو بن عدي اللخمي وهو المحرق الاكبر ، وعرف بهذا اللقب أيضا الحارث بن عمرو ملك الشام لانه اول من حرق العرب في ديارهم فهم يدعون آل محرق (تاج العروس ٦/٣١٣) . ويرى بعض المحدثين ان لفظ « محرق » ليس هو لقبا لرجل كما توهم القدماء وانما هو اسم صنم (جواد علي ٤/٧٨) وقد اشار بعض القدامى الى ان ثمة صنما لبكر بن وائل يعرف بهذا الاسم (تاج العروس) .

٤ ــ العقد الفريد ٣/٣٣٢ . النقائض ٢/٧١٠ . شرح نهج البلاغة ٣/٤٢٥ .

زعموا ان كسرى قال للنعمان : هل في العرب قبيلة تشرف على قبيلة ؟ قال : نعم . قال : بأي شيء ؟ قال : من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء ثم اتصل ذلك بكمال الرابع ، والبيت من قبيلته فيه . فطلب ذلك فلم يصب الا في آل حذيفة بن بدر (من فزارة) ، وآل حاجب بن زرارة (من تميم) ، وآل ذي الجدين (من شيبان) ، وآل الاشعث بن قيس بيت كندة . فجمع كسرى هؤلاء الرهط وعشائرهم وشعراءهم ، ثم دعاهم الى التفاخر وتعداد مآثرهم ، فقام من كل قوم سيدهم فعدد مآثرهم ، ثم قام شاعرهم فقال شعراً في الفخر بقومه . وكان رؤساء هذه القبائل يومئذ : حذيفة بن بدر الفزاري ، والاشعث ابن قيس الكندي ، وبسطام بن قيس الشيباني ، وحاجب بن زرارة وقيس بن عاصم التميمي . فلما سمع كسرى مقالاتهم أعجب بهم جميعاً ، وأجزل حباءهم (١) .

وأغلب الظن ان خبر هذه المفاخرة هو ايضاً مما لفقه الكلبي وابنه (٢) ، شأنه شأن خبر وفود العرب على كسرى وافتخارهم بقوميتهم (٣) .

ومن صور المفاخرات الجاهلية المنافرات وهي المفاخرات التي يشهدها حكام ينفرون في ختامها أحد الفريقين على الآخر . وكان من حكام المنافرات المشهورين في الجاهلية أكثم بن صيفي ، وهَرِم بن قطبة وضمرة بن ضمرة والاقرع بن حابس ونُفَيل بن عبد العزى (٤) . وكثير من هذه المنافرات يحمل طابعاً شخصياً كمنافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة ، لتنازعهما الرياسة والشرف في رهطهما بني جعفر بن كلاب (٥) . وبعض هذه المنافرات له طابع

---

١ ـ الاغاني ١٠٦/١٧ (ساسي) .

٢ ـ ومما يكشف عن التلفيق في هذا الخبر ان حاجب بن زرارة لم يكن معاصرا لحذيفة بن بدر الذي قتل يوم الهباءة بل كان متأخرا عنه في الزمن .

٣ ـ العقد الفريد ٤/٢ .

٤ ـ البيان والتبيين ٢٩٠/١ . المعمرون للجستاني ص ١٥ .

٥ ـ يرجع الى خبر هذه المنافرة في الاغاني ٥٠/١٥ (ساسي) وديوان الاعشى ص ١٣٨ .

قبلي كمنافرة جرير بن عبد الله البجلي وخالد بن أرطاة الكلبي ، وقد قامت على اثر نزاع بين قبيلتي بجيلة وكلب بصدد أسير كان في يد الكلبيين ، وكـان الحكم في هذه المنافرة الاقرع بن حابس التميمي ، وقد انتهت المنافرة بتنفير الاقرع جريراً على خصمه (١) .

* * *

أثر العصبية في الشعر الجاهلي وفي شعراء الجاهلية

ما عساه يكون موقف الشعراء الجاهليين من هذه العصبية القبلية التي استشرى أمرها في العصر الجاهلي ان لم يكن موقف المتحمس لها ، المناضل في سبيلها ؟ من الطبيعي ان يكون هذا موقفهم منها اذ هم لسان قبيلتهم الناطق بمحامدها ، الذائد عن حماها وهم مجنتها التي تتقي بها غائلة من يتعرضون لثلبها وهجائها من شعراء القبائل الاخرى . وقد عرفت القبائل لشعرائهـا منزلتهم منها فكانت القبيلة اذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الاطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعون في الاعراس ويتباشر الرجال والولدان ، لانه حماية لأعراضهم ، وذبّ عن احسابهم ، ونخليـد لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم (٢) . فلا غرو اذن ان نجد الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم الى الشعر الذي « يقيد عليهم مآثرهم ، ويفخّم شأنهم ، ويهوّل على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من فرسانهم ، ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم(٣) . . . » .

---

١ ــ خبر هذه المنافرة في فرحة الاديب للاعرابي (مخطوط) ص ٨٦ . النقائض ١٣٩/١ .

٢ ــ العمدة لابن رشيق ٤٩/١ .

٣ ــ البيان والتبيين ٢٤١/١ .

وحين ننظر في الشعر الجاهلي الذي انتهى الينا ونتقصى أغراضه وفنونه، يدهشنا ان نتبين غلبة الطابع القبلي عليه ، حتى لا يكاد الباحث يلمح أثر الفردية فيه . فالشاعر الجاهلي كان قلما يتكلم بلسان شخصه او يلجأ الى استعمال الضمائر المفردة الا في بعض الاغراض كالنسيب . وعلى ان الفردية هي ابرز سمات الشعر الغنائي ، نرى الشاعر الجاهلي يتغنى بمفاخر قبيلته، ومآثرها اكثر مما يتغنى بأحاسيسه الفردية ومشاعره الذاتية ، فقداستطاعت الشخصية القبلية ان تستأثر بمشاعره وتستبد بعواطفه حتى كادت تلغي شخصيته الفردية الغاء ، فهي لا تفصح عن ذاتها الا حين ينحو الشاعر الى هذا النسيب التقليدي الذي يستهل به قصائده ، وفي مواضع أخرى قليلة . اما سائر شعره فالطابع القبلي غالب عليه ، ومن هنا كان جل الشعر الجاهلي صدى للروح القبلية التي كانت سائدة في ذلك العصر .

كان الشاعر الجاهلي يرى ان من حق قبيلته عليه ان يقف عليهاموهبته الشعرية ، وأن يحقق الامل الذي عقده عليه قومه ، وأن يسعى – بوصفه مواطناً قبلياً – بكل ما لديه من طاقة وجهد فيما يعود بالخير والنفع على عشيرته . ولم يكن يسع الشاعر في ذلك العصر ان يقف موقف المتفرج من الاحداث القبلية التي يشهدها ، او ان يفرغ لنفسه ويقف شعره على التغني بمشاعره الذاتية ، وانما كان يرى ان اول ما تمليه عليه صفة المواطن القبلي ان يفرح لفرح قبيلته ويغضب لغضبها ويأسى لأساها ، ثم يجد قومه في شعره صدى هذا الفرح والغضب والأسى . فان لم يفعل كان آثماً في حق قومه ، حقيقاً بازدرائهم واحتقارهم ، فالشعر الجاهلي كان يمثل فكرة الفن للمجتمع أصدق تمثيل .

وهكذا نجد الشاعر الجاهلي لا يكاد يبلغهان رجلا ما تعرض لقبيلتهبسوء، او انتقص من مكانتها حتى ينبري لهجائه وثلب قبيلته ، ولا يكاد يسمع شاعراً يفخر على قومه حتى يبادر الى الرد عليه مفاخراً بعشيرته ، ولا يكاد يأتيه نبأ انتصار قومه في موقعة حتى يفيض لسانه بالشعر ، ممجداً هذا النصر ومشيداً بشجاعة قومه وبسالتهم . فان كانت الهزيمة من نصيب قومه

أخذ يلتمس لهم المعاذير ، ويتوعد أعداءهم بثأر قريب ، ويرثي من أصابته يد الردى من فرسان قومه .

وكانت القبائل العربية اذا شهدت المواسم والاسواق حرصت على اصطحاب شعرائها وخطبائها وسرعان ما كانت حلقات المفاخرة تنعقد بين شعراء القبائل ، كل يشيد بمآثر قومه ويعدد مكارمهم وينتقص من شأن القبائل الاخرى . وكانت تقام للشعراء والخطباء منابر بعكاظ يتناشدون عليها اشعارهم ويتفاخرون (١) .

وكذلك حين كانت وفود القبائل تلتقي في مجالس الملوك كان الشعراء ينطقون بلسان قبائلهم ، وكان لهم اثر بيّن في موقف الملك من قبيلتهم . فقد رأينا لبيداً الشاعر مثلا يحامي عن قومه بني عامر في مجلس النعمان بن المنذر ويفلح في تنفير النعمان من مجالسة الربيع بن زياد واقصائه عنه وفي تقريبه اشراف بني عامر اليه بعد ازوراره عنهم (٢) . وذكروا ان بني تغلب وبني بكر اجتمعوا في مجلس عمرو بن هند ، وكان لبني تغلب مؤثراً ، فقال في هذا المجلس الحارث بن حلزة شاعر بكر معلقته المشهورة في الاشادة بقومه والرد على مزاعم تغلب ، وكان ابن هند قد اقام بينه وبين الحارث ستراً لبرص كان بالشاعر ، فلما سمع قصيدته هذه انتشى إعجاباً بها ، فلم يزل يأمر بادناء الحارث منه حتى أمر بطرح الستر وأقعده بازائه ، واستطاع هذا الشاعر ان يستميل عمرو بن هند الى جانب قومه ببراعة شعره (٣) .

وقد استطاع بعض الشعراء بما اصابوا من منزلة عند ملوك الغساسنة والمناذرة وغيرهم ان يردوا عن قومهم عادية هؤلاء الملوك واتباعهم وان يشفعوا لهم اذا وقعوا اسرى في يدهم ، صنيع النابغة الذبياني مثلا حين أوقع ابن

---

١ ـ معجم البلدان لياقوت ٧٠٤/٣ .

٢ ـ أمالي المرتضى ١٨٩/١ . الاغاني ٢٦٣/١٥ .

٣ ـ الاغاني ٤٢/١١ . شرح المعلقات العشر ص ١٢٥ .

الجلاح الكلبي ببني ذبيان واستاق منهم عدداً فقد شفع لهم النابغة فأطلق سراحهم (١) . واستغل النابغة ما له من منزلة عند الغساسنة مرة اخرى في اطلاق سراح أسرى بني فزارة واسد حينما اوقع بهم الحارث بن ابي شمر الغساني (٢) .

ولما أسر الحارث الغساني شأس بن عَبدة ورجالا من تميم أتاد علقمة بن عبدة ، أخو شأس ، مستشفعاً وانشده قصيدته المشهورة التي مطلعها :

طحابك قلب في الحسان طروبُ ... بُعَيد الشباب عصرَ حان مشيبُ

فأعجب به الحارث ، فيماه يروون، فخيره بين الحِباء وبين اطلاق اسرى قومه فاختار الامر الثاني (٣) .

وربما بلغ بالشاعر اخلاصه لقومه ان يرسل الى الملك يتهدده اذا هو حاول الاغارة على قومه ويخوفه عواقب عمله بإشادته بقوة قبيلته ومَنعتها وكثرة عددها . فكذلك نجد عمرو بن كلثوم يرد على وعيد النعمان بن المنذر وتهديده قومه بني تغلب بوعيد مثله يتحدى فيه النعمان ، وصنع مثل ذلك بعمرو بن حِجر الغساني حين هدده بابادة قومه لانهم لم يحسنوا لقاءه (٤). وكذلك نجد النابغة الذبياني يتهدد عمرو بن هند حين بلغه انه يتأهب لغزو قومه بني ذبيان مستعيناً بتغلب ، وكان مما قاله له :

من مبلغ عمرو بن هنـد آيـة ... ومن النصيحة كثرة الانذارِ

لا أعرفنّك عارضـاً لرماحنـا ... في جُف تغلبَ واردي الامدار (٥)

---

١ ـ ديوان النابغة الذبياني ص ٣٢ .

٢ ـ ديوان النابغة ص ١٣ .

٣ ـ العمدة لابن رشيق ٤٢/١ .

٤ ـ الاغاني ٥٧/١١ ـ ٥٨ .

٥ ـ ديوان النابغة ص ٤٨ . الجف : العدد الكثير . الامدار : المدن والقرى .

وحين كانت القبيلة تتلكأ عن الأخذ بثأرها من قوم لهـا عندهم وتر كان شعراء القبيلة ينعون عليها هذا الموقف المشين ويحرضونها بشعرهم على الطلب بدم قتلاها وإدراك ثؤرتها ، ويذكرونها بالعار الذي لحق بهم والذي لا يغسله الا دم الواترين ، فلا يزالون بها حتى تدب الحمية في نفوس رجالها ويسارعوا الى الطلب بدماء قتلاهم . وربما قبل القوم الدية في قتيلهم إيثاراً للعافيـة فينكر عليهم شعراؤهم إيثارهم اللبن على الدم ، ويعيرونهم بنكولهم عن إدراك وترهم ، وقد يشبهونهم بالنساء لعجزهم عن القتال وجبنهم . من ذلك قول كبشة اخت عمرو بن معد يكرب تخاطب قومها تحرضهم على الطلب بـدم اخيها عبد الله وإباء الدية فيـه :

أرسل عبدُ الله إذ حان يومُـه ... الى قومـه لا تعقِلوا لهم دمي

ولا تأخـذوا منهم إفالاً وأبكُراً ... وأترك في بيت بصَعدةَ مُظلمِ

فان انتم لم تثـأروا واتديتـمُ ... فمَشوا بآذان النَعام المصلَّمِ(١)

وموقف الشاعر الجاهلي من الاحداث المتصلة بقبيلته هو في الغالب موقف العصبي الغالي في عصبيته ، فهو يؤثر في الغالب العدوان على المسالمة ، والحرب على المهادنة ، والثأر على الدية . ومن هنا كانت السمة الغالبة على الشعـراء الجاهليين انهم ابواق عدوان ودعاة شر . وقل ان نظفر بشاعر جاهلي يجعل ديدنه الدعوة الى السلم والتنفير من الحرب . ونود أن نصحح هنا رأياً يتصل بالشاعر زهير بن ابي سلمى ، فقد صوره بعضهم فيلسوفاً انسانياً يدعو الى السلام ويكره الحرب وينفر منها . وهذه الصورة لا تمثل حقيقة زهير ، فضلا عن انها تنم عن جهل بطبيعة الحياة في العصر الجاهلي والافكار السائدة فيه . فالحق ان زهيراً كان شاعراً قبلياً شأنه شأن الكثرة الغالبة من شعراء الجاهلية ، وديوانه حافل بالشعر القبلي الذي يمجد فيه بطولة اخواله غطفان ويصف

---

١ ـ حماسة ابي تمام ٢١٧/١ . وانظر امثلة اخرى في حماسة البحتري ص ٣٠ وما بعدها .

الحروب التي خاضوها والغارات التي شنوها على القبائل الاخرى [1] ، والسلم الذي يدعو اليه زهير ليس هو السلم بمعناه الانساني الشامل المنافي لدعوة الحرب على اطلاقها ، وانما هو السلم بين حيين من قبيلة واحدة كانا متآخيين متصافيين ثم وقع بينهما الشر بسبب الرهان في داحس والغبراء ، واتصلت بينهما الحروب ، فهو انما يدعو هذين الحيين الى السلم لئلا تهن قواهما فتطمع فيهما القبائل الاخرى ، وهو حين ينفر من الحرب انما يوجه خطابه الى عبس وذبيان لا الى العرب جميعاً . فضلا عن ان ما قاله في الحث على السلم انما قاله في معرض مدحه هرم بن سنان والحارث بن عوف اللذين احتملا ديات القتلى وأطفآ نار الحرب بين الحيين .

ولئن كانت شدة ارتباط الشاعر بقبيلته وتعصبه لها وطغيان الشعور القبلي على الشعور الفردي فيه قد عادت على القبيلة بالخير والنفع ، لتغنيه بمآثرهم وذوده عنهم ، لقد كان لهذا الترابط القوي بين الشاعر وقبيلته مضاره ومحاذيره ايضاً . فكثيرا ما كان التهاجي بين الشعراء ينقلب الى وقائع دامية بين القبائل التي ينتمون اليها ، وكان التلاحي بين شعراء القبيلة الواحدة ربما أدى الى وقوع الشر بين بطونها ، ولذلك كانت قريش تنكر على الشعراء ان يهجو بعضهم بعضاً وتعاقبهم على ذلك ، وقد همت بقطع لسان ابن الزبعرى لهجائه بني قصي[2] ، وقد نشبت طائفة من الوقائع القبلية بسبب هذا الهجاء الذي كان شعراء القبائل يتبادلونه . والشاعر قد يجر بهجائه الشر والاذى لقومه ، فقد كان هجاء قيس بن جروة عمرو بن هند سبباً في إثارة غضبه على طيء وتنكيله بها في يوم أوارة الثاني [3] .

وكان الشر اذا وقع بين شاعرين فتهاجيا عم الهجاء قبيلتي الشاعرين ، اذ

---

١ — انظر مثلا شرح ديوان زهير الصفحات : ١٠٣ — ١٨٤ — ٢١٢ — ٢٥٣ — ٣٠٠ .

٢ — طبقات ابن سلام ص ١٩٧ .

٣ — تاريخ ابن الاثير ١/٣٣٥ . النقائض ٢/٦٥٢ .

أن الهجاء كان عصرئذ قبليا على الاغلب لا فرديا . ومن هنا كان خوف القبيلة من تعرض شاعرها لشعراء القبائل الاخرى ولا سيما اذا كان شاعرها مغلباً غير كفء لمقارعة فحول الهجائين .

وعلى الرغم مما لمسناه من شدة تعلق الشاعر بقبيلته وعصبيته لها نجد طائفة من شعراء الجاهلية يخرجون احياناً عن نطاق « الجاذبية » القبلية فيقفون جانباً من شعرهم على اغراض تنافي مقتضيات العصبية ، اذ يمدحون بدافع الكسب وجمع المال رجالا لا ينتسبون الى قبيلتهم . ومن هؤلاءالشعراء النابغة الذبياني وأعشى بكر وزهير بن ابي سلمى والحطيئة . ونحن لانشك ان هذه الظاهرة ليست قديمة في الشعر الجاهلي وانما عرفت في اواخرالعصر الجاهلي ، وهي تمثل مرحلة في حياة الشعر العربي وانتقاله من طور الهواية الى طور الاحتراف . والنقاد القدامى لم ينظروا الى هذه الظاهرة نظرةرضى بل وجدوا فيها نذيراًبانحدارمنزلة الشاعرفياواخر ذلك العصر وتقدمالخطيب عليه ، فقال ابو عمرو بن العلاء ان الشاعر كان في الجاهلية يقدمعلى الخطيب لفرط حاجة قومه اليه ؛ « فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا الى السوقة ، وتسرعوا الى اعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر(١) » . وقد وافق الجاحظ ابا عمرو في رأيه هذا (٢) . ويحدد ابن رشيق بدء طور انحطاط منزلة الشاعر الجاهلي بالحقبة التي وجد فيها النابغة وزهير والاعشى الذين تكسبوا بشعرهم ومدحوا الملوك وغيرهم رغبة في الحباء ، ويؤكد ما ذهب اليه ابو عمرو والجاحظ من ان الشاعر الجاهلي كان ارفع منزلة من الخطيب حتى نشأ هؤلاء الشعراء الذين تكسبوا بشعرهم

---

١ – البيان والتبيين ٨٣/٤ .

٢ – البيان والتبيين ٢٤١/١ .

وجعلوه طعمة فانحطت منزلة الشعر الجاهلي واصبحت الخطابة مقدمة عليه(١). وذهب اكثر النقاد الى ان النابغة كان من اشراف قومه وان تكسبه بالشعر قد حط من قدره وغض من شأنه (٢) .

ومن الانصاف لاولئك الشعراء الذين تكسبوا بشعرهم ان نقرر أنهم ، على رغم تكسبهم بالشعر لم ينسوا عصبيتهم ولم يتخلوا عن نصرة قبيلتهم . بل ان منهم من توعد ممدوحيه بشر مستطير اذا حاولوا غزو قومهم ، صنيع النابغة (٣) . وكان النابغة يتوجه الى قومه بالنصح ويشير عليهم الا يقربوا حمى الملوك لئلا يتعرضوا لانتقامهم ، فان خالفوه وعصوه اكتفى بالعتب الرفيق يوجهه اليهم وقد اوقع بهم اعداؤهم :

لقد نهيتُ بني ذبيان عن أقُر وعن تربعهم في كل أصفارِ

فقلتُ يا قوم إن الليث منقبض على براثنه للعَدوة الضاري(٤)

ولم نجد من هؤلاء الشعراء من اقدم على مدح اعداء قومه ، أو ظاهر ممدوحيه على قبيلته ، بل نجدهم جميعاً يسعون في خير عشيرتهم ، والاعشى على رغم تطوافه الطويل في البلدان واختلافه الى الملوك لم يكن ينسى قومه ولا يخفي اشتياقه اليهم :

انني منهمُ وانهم قو مي وإني اليهم مشتاقُ (٥)

---

١ ـ العمدة لابن رشيق ٦٤/١ .

٢ ـ الاغاني ٣/١١ ، العمدة ٦٤/١ .

٣ ـ ديوان النابغة ص ٤٨ .

٤ ـ ديوان النابغة ص ٥٦ . الاصفار ج صفر يريد نزولهم وادي أقر في هذا الشهر .

٥ ـ ديوان الاعشى ص ٢١٣ .

وقد وقف زهير بن أبي سلمى جل شعره على مدح هرم بن سنان واشراف بني مرة ، وهم بمثابة قومه ، وهو لم يمدح هرماً لما كان يناله من حبائه فحسب وانما لصنيعه الذي يستحق كل ثناء في احتماله ديات القتلى وحقنه دماء عبس وذبيان . وكذلك نجد حسان بن ثابت في شعره الجاهلي يكاديقصر مديحه على الغساسنة ، وهم من الازد قبيلة قومه . اما الحطيئة فكان متدافع النسب مغموز الاصل ولهذا ضعفت فيه النزعة العصبية ولا سيما انه لم يلق من قومه الا الاحتقار والازدراء لكونه هجيناً غير صريح النسب ، ومن هنا لم يجد ضيراً في هجو قومه احياناً وفي عرض شعره على مبتاعي الثناء والمديح من اشراف القبائل .

كان للعصبية أثرها البيّن اذن في الشعراء الجاهليين وفي شعرهم ، فكان جل شعره على الفخر بقبيلته والاعتزاز بها ، وهجاء اعدائها وتحدي خصومها ، وهذا يتضح لنا بجلاء حين نستقرىء اغراض الشعر الجاهلي فنجد كثرتها الغالبة مقولة بدافع العصبية ، او دائرة في فلكها . فالشاعر الجاهلي وقف جل ما جاش به صدرهم من القريض من وحي هذه العصبية وصدى لها . والحض على طلب الثأر وشن الغارة على القبائل المعادية لقومه ، ووصف الايام التي شهدها قومه والوقائع التي خاضوها والتعقيب عليها ، ورثاء من سقط صريعاً من قومه في هذه الغارات ، ونحو ذلك من الاغراض المتصلة بالعصبية القبلية والمستوحاة منها .





الفصل الرابع

العصبية القبلية
في ظل الإسلام



١

الاسلام والعصبية القبلية

كان ظهور الاسلام في ربوع الجزيرة العربية ايذاناً بانبلاج فجر جديد مشرق في حياة الامة العربية وبتطور عظيم الخطر في الاوضاع القبلية السائدة في العصر الجاهلي . فالرسالة العظيمة التي نهض بها محمد عليه السلام وحملها الى مختلف القبائل العربية ، لم تؤدّ الى تقويض صرح الديانة الوثنية وإحلال الدين الاسلامي محلها فحسب ، وانما حققت أمراً آخر لا يقل عن الناحية الدينية شأناً ، ذلك هو نقل العرب من طور الوحدات السياسية المتعددة القائمة على نظام القبيلة الى طور الوحدة السياسية القائمة على نظام الدولة ، فأفسحت المجال بعملها هذا لتفتح براعم الشعور القومي واحساس شتى قبائل العرب بقوميتها الجامعة .

ولما قام الاسلام وجه همه الى محاربة النزعات العصبية والروح القبلية، اذ انها هي التي كانت تحول في العصر الجاهلي دون توحد القبائل العربية وجمع شملها في أمة واحدة ، وهي التي أوجدت حالة عداء دائم بين قبائل العرب وأدت الى إثارة الضغائن والاحقاد والى اتصال الحروب والوقائع بينها طوال ذلك العصر . فكان لا بد اذن من شن حرب عنيفة عليها لا هوادة فيها لاقتلاع جذورها من نفوس العرب واحلال مشاعر الاخوة والوئام بينهم محل مشاعر العداوة والبغضاء .

فكذلك وجدت العصبية نفسها منذ مجيء الاسلام امام خصم قوي شديد المراس هو هذه العقيدة الجديدة التي تدعو العرب كافة الى التآخي والتآزر ونبذ اسباب العداوة بينهم . ودار صراع عنيف في نفس العربي بين هذين

المؤثرين ، ولم يكن من اليسير ان يقتلع الدين الجديد من نفوس العرب ، بين عشيّة وضحاها، جذور العصبية التيرسخت فيها على مر القرونوجرتمن وضحاها ، جذور العصبية التي رسخت فيها على مر القرون وجرت من نفوسهم مجرى الدماء في العروق ، فظل لذلك للعصبية سلطانها على النفوس طوال العصر الاسلامي الاموي .

حارب الدين الجديد اذن الروح القبلية والنزعات الجاهلية المتصلة بها . فالحت الآيات القرآنية والاحاديث النبوية على الروابط الاخوية التي تقوم بين المسلم وأخيه ، وتؤلف بين قلوب العرب جميعاً (١) ، ودعت الى نبذ حمية الجاهلية ونزعاتها والى التخلي عن الروح القبلية كقوله تعالى : « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميّة ، حميّة الجاهلية (٢) » . وأثر عن الرسول طائفة من الاحاديث في ذم العصبية والتنفير من دعوة الجاهلية منها قوله : «من قتل تحت راية عِميّة يدعو لعصبية او ينصر عصبية فقتلته جاهلية(٣)». وجاء في خطبته يوم فتح مكة قوله : « يامعشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظّمها بالآباء . الناس من آدم ، وآدم من تراب (٤) » . وكان الرسول لا يزال يحث المسلمين ، اذا ظهرت بينهم نائرة العصبية ، على ترك هذه الدعوة الخبيثة (٥) ، وحين سأله احدهم : ما العصبية ؟ كان جوابه: « أن تعين قومك على الظلم(٦) » .

---

١ ـ كقوله تعالى : « انما المؤمنون أخوة » (سورة الحجرات آية ١٠) .

٢ ـ سورة الفتح آية ٢٦ .

٣ ـ تيسير الوصول لابن الديبع الشيباني ٤/٧ . اخرجه مسلم والنسائي والعمية : الضلال الاكبر .

٤ ـ سيرة ابن هشام ٢/٤١٢ .

٥ ـ صحيح البخاري ٤/١٨٣ .

٦ ـ تيسير الوصول ٤/١٧ اخرجه ابو داود.وانظر امثلة اخرى في صحيح البخاري ٤/١٨٤.

وكذلك حرص الرسول الكريم في بعض كتبه وعهوده التي وجهها الى القبائل على التحذير من الدعوة القبلية وألح على تغليب داعي الدين على العصبية فجاء في هده الى بني الحارث بن كعب قوله : « وينهى اذا كان بين الناس هيج عن الدعاء الى القبائل والعشائر ، وليكن دعاؤهم الى الله وحده لا شريك له ، فمن لم يدع الى الله ودعا الى القبائل والعشائر فليقطعوا بالسيوف (١) . . . » .

ومن المبادىء الاصيلة في الدعوة الاسلامية عدم المفاضلة بين الناس على أساس الانساب او على اساس الاجناس، والمفاضلة انما تكون بالتقوى، وعليه الآية الكريمة : « يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم (٢) » . وأكد الرسول هذا المعنى في خطبة الوداع فقال : « كلكم لآدم ، وآدمُ من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى (٣) » .

وفي سبيل إلغاء دواعي الخصومة والعداوة بين قبائل العرب وسل السخائم والاحقاد القبلية حرص الرسول منذ قيام الدولة الاسلامية على إبطال دماء الجاهلية وإهدارها . وقد الح على هذا الامر في خطبته التي قالها يوم فتح مكة (٤) ، وكذلك في خطبته الاخيرة في حجة الوداع(٥) ، وكأنما حرص الرسول الكريم على الا يلقى وجه ربه قبل أن يلغي اقوى دواعي النزاع والخصومة بين قبائل العرب .

---

١ ـ تاريخ الطبري ٣٨٧/٣ .

٢ ـ سورة الحجرات آية ١٣ .

٣ ـ العقد الفريد ٥٧/٤ .

٤ ـ انساب الاشراف ٣٦٤/١ . سيرة ابن هشام ٤١٢/٢ . وقد جاء فيها قوله : « الا ان كل دين ومال ودم ومأثرة كانت في الجاهلية فهي تحت قدمي » .

٥ ـ سيرة ابن هشام ٦٠٣/٢ . العقد الفريد ٥٧/٤ .

وقد أدخل الاسلام تطوراً خطيراً في الاعراف القبلية التي كانت سائدة في العصر الجاهلي ، من ذلك انه ألغى حق الثأر الفردي وجعل العقاب منوطاً بالدولة لا بالفرد او القبيلة ، والاتجاه نحو فكرة العقوبة كان خطوة هامة للحد من المنازعات القبلية (١) . وكذلك أبطل الاسلام مبدأ التكايل بالدم الذي كان عليه الجاهليون ، وهو المبدأ الذي كان يقرّ التفاوت في تقدير ديات القتلى تبعاً لمنزلة المقتول ، فجعل الاسلام الدية واحدة في جميع الاحوال ، لا فرق بين شريف ووضيع في ذلك . واستن الاسلام كذلك مبدأ القَوَد حين يكون القتل عمداً ، إلا إذا رضي أولياء المقتول بالدية ، فجاء في كتاب الرسول بين المهاجرين والانصار : « وانه من اعتَبَط مؤمناً قتلا عن بيّنة ، فانه قَوَد به ، إلا أن يرضى ولي المقتول (٢) » . وقد جرى خلفاء الرسول والامويون بعده على هذه السنة ، وحين كان أولياء المقتول يصرون على القود كانت الدولة تتولى معاقبة الجاني أو تسلمه الى غرمائه ليقتلوه . ومن أمثلة القود أمر الرسول عثمان بن عفان بقتل الحارث بن سويد لاغتياله المجذر بن ذياد ثأراً بأبيه (٣) .

---

١ ـ الدولة العربية وسقوطها : ولهوزن ص ١٩ .

٢ ـ سيرة ابن هشام ٥٠١/١ . وجاء في البخاري (٥/٩) ان خزاعة قتلت عام الفتح رجلا من بني ليث بقتيل لهم في الجاهلية ، فخير الرسول من يقتل له قتيل بين الدية او القود .

٣ ـ انظر الخبر في سيرة ابن هشام ٨٩/٢ .

٢

موقف الرسول من القبائل واشرافها

وجد سادة القبائل العربية في العقيدة الجديدة خطراً يتهدد زعامتهم وسيادتهم ، كما يتهدد كيان قبائلهم واستقلالها . ونظرت طائفة منهم الى محمد عليه السلام نظرتهم الى زعيم قبلي يحاول ان ينتزع من ايديهم مقاليد الزعامة ويخضع قبائلهم للسيطرة القرشية ، فكان موقفهم لذلك من هذه العقيدة ومن حامل رسالتها موقف العداوة الصريحة والمناهضة السافرة . وادرك الرسول بثاقب بصره ان حرص هؤلاء الزعماء على مراتب الشرف التي يتبؤونها في قومهم والمنافع المادية التي تحققها لهم مناصب الرئاسة هو عقبة كؤود تعترض سبيل انتشار الدعوة الاسلامية واعتناق القبائل العربية لها ، ورأى ان تذليل هذه العقبة لا يتأتى إلا من طريق اصطناع رؤساء القبائل وتألفهم ، فكان لذلك يؤثر من كان معه منهم بالعطاء والهبات ويقسم لهم نصيباً أوفى من الغنائم والفيء ، وكانت خطته هذه مدعاة لاستياء انصاره في بعض الاحيان . جاء في البخاري أن علياً بعث الى النبي بذهيبة فقسمها بين اربعة من اشراف القبائل : الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن بدر الفزاري وزيد الخيل الطائي وعلقمة بن علاثة العامري ، فلما انكر الانصار وقريش صنيعه كان جوابه انه إنما يتألفهم (١) . وحين آثر الرسول بعد غزوة حنين المؤلفة قلوبهم ورؤساء القبائل وأشرافها بالعطاء والفيء،امتعض الأنصار وو َجدوا في أنفسهم ، ولم يخفوا استياءهم لهذه المحاباة ، حتى اظهر لهم الرسول انه إنما آثرهم بمودته ومحبته وآثر الآخرين بعطائه فرضوا (٢) .

---

١ ــ صحيح البخاري ١٣٧/٤ .

٢ ــ سيرة ابن هشام ٤٩٢/٢ .

الا ان الرسول لم يكن ليقبل ادنى مساومة فيما يمس العقيدة أو ولاية المسلمين بعده ، ولذلك رفض ما عرضه عليه هوذة الحنفي من مظاهرته على ان يصير الامر اليه بعد وفاته (١) . كما رفض ما عرضه عليه عامر بن الطفيل من مشاطرته سلطانه (٢) .

وقد أدخل الاسلام تعديلا جوهرياً على المفاهيم القبلية الجاهلية جعلها تنسجم مع الاطار الاسلامي ، فجعل مدار التفاضل بين الرجال على التقوى والايمان ، لا على الاحساب والانساب ، وجعل مدار التفاضل بين القبائل العربية أيضاً على هذه الاسس الاسلامية ، لا على المفاخر الجاهلية . وحين عيّر الأقرع بن حابس التميمي النبي بأنه إنما بايعته القبائل التي لا شأن لها كغفار وأسلم ومزينة وجهينة كان رده عليه بتفضيل هذه القبائل على بني تميم وأسد وغيرهما من القبائل المضرية التي كانت تعتز بأنسابها ومكانتها من القبائل الاخرى (٣) . وأيّد الرسول شعار العصبية القبلية في العصر الجاهلي الذي يدعو الرجل الى نصرة أخيه ظالماً كان او مظلوماً ، ولكنه فسر هذه النصرة تفسيراً إسلامياً يباين كل المباينة التفسير الجاهلي ، اذ جعل نصر الظالم انما يكون بحجزه عن الظلم (٤) .

بيد ان الرسول لم يلغ مراتب الشرف القبلية إلغاء تاماً ، وانما جعلها منوطة بحسن الايمان وقوة العقيدة، فحين سأله قوم عن اكرم العرب كان جوابه: « خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا (٣) » .

---

١ ــ فتوح البلدان ١٠٥/١ .
٢ ــ الاغاني ١٣٢/١٥ (ساسي) .
٣ ــ صحيح البخاري ١٨١/٤ .
٤ ــ تيسير الوصول ٢٨/٣ . والحديث اخرجه البخاري .
٥ ــ صحيح البخاري ١٧٨/٤ .

ولم يكن الرسول يجهل أثر العصبية وصلات الرحم في نفوس العرب فكان يحرص لذلك على ان يكون دعاته وموفدوه الى القبائل ممن تربطهم وشائج النسب بتلك القبائل ، لانهم على استمالتهم أقدر ، ولهذا اختار عمرو بن العاص وأوفده الى قبيلة بلي يستألفهم في غزوة ذات السلاسل لانهم كانوا اخواله [1] .

وقد ذكروا من ضروب التغيير التي احدثها الرسول في الاوضاع القبلية نهيه عن عقد الاحلاف في الاسلام ، فرووا ان قيس بن عاصم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحلف فقال : « لا حلف في الاسلام ، ولكن تمسكوا بحلف الجاهلية [2] » ولكننا نجد في البخاري ما يحمل على الشك في صحة هذا الحديث ، فقد روى البخاري عن عاصم قوله : قلت لأنس بن مالك : أبلغك ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا حلف في الاسلام ؟ فقال : قد حالف النبي صلى الله عليه وسلم بين قريش والانصار في داري [3] » . وفي الواقع نحن نرى ان احلافاً كثيرة عقدت في الاسلام وبعض هذه الاحلاف عقد بمحضر من خلفاء الرسول ، كالحلف الذي كتبه علي بين ربيعة واليمن [4] ، ولو ان هناك نهياً صريحاً عن التحالف في الاسلام لما أقدموا على عقد هذه المحالفات .

●

١ ـ سيرة ابن هشام ٦٢٣/٢ .
٢ ـ الاغاني ٩٠/١٤ .
٣ ـ صحيح البخاري ٢٢/٨ .
٤ ـ شرح نهج البلاغة ٢٢٤/٤ .

٣

موقف خلفــاء الرسول من العصبيات وزعماء القبائل

هذا الموقف الذي وقفه الرسول من العصبيات القبلية والروح الجاهلية ، ومن قبائل العرب وسادتها واشرافها، جرى عليه أيضاً خلفاء الرسول بعده. فقد وجّهوا هممهم الى محاربة العصبية والضرب على ايدي الداعين بها ، كما وجهوا هممهم الى تحطيم عنجهية أشراف القبائل العربية و « الارستقراطية » الأعرابية،والى وضعمعايير لتقدير مكانة الرجال غير معايير الحسبوالنسب.

فقد وقف ابو بكر موقفاً صارماً لا هوادة فيه من حركة الردة وأمربقمعها بكل وسيلة ، لانه وجد فيها خطراً على كيان الدولة الاسلامية الناشئة ، كما رأى فيها ظاهرة قبلية خطيرة تهدد بعودة العرب سيرتها الاولى في الجاهلية من التنابذ والفرقة ، وتزعزع أركان الدين الوليد الذي وكل اليه المسلمون أمر رعايته والسهر عليه . وكان موقفه من رؤساء القبائل المرتدة وأشرافها مستوحى من روح الاسلام ومن مقتضيات التدبير السياسي معاً ، فقتل منهم من قتل وعفا عن طائفة منهم واصطنعهم كالاشعث بن قيس الكندي(١). وقد فقد كثير من زعماء القبائل بعد الاسلام امتيازات الشرف التي كانت لهم في الجاهلية وتضاءلت مهابتهم في نفوس القوم ، وحين أنكر أبو قحافة على ابنه ابي بكر إغلاظه القول لابي سفيان شيخ البطحاء كان جوابه : « إن الله تعالى رفع بالاسلام بيوتاً ووضع بيوتاً (٢) » .

---

١ ـ شرح نهج البلاغة ٩٧/١ .

٢ ـ شرح نهج البلاغة ٧٤/١ . النزاع والتخاصم للمقريزي ص ١٨ .

وكان عمر أشد عنفاً من سلفه في قمع الدعوة العصبية والنزعات القبلية، وفي تجاهل « امتيازات الشرف » الموروثةعن الجاهلية . وكان يأذن في مجلسه للموالي الذين عرفوا بسبقهم الى الاسلام كصهيب وبلال، قبل ان يأذن للنبلاء المسودين أمثال عيينة بن حصن الفزاري والاقرع بن حابس التميمي (١) . ونحن نعلم موقف عمر من جبلة بن الايهم ملك غسان حين أظهر الاسلام بعد اليرموك فقد أراد ان يقتص منه لانه لطم رجلا من سواد الناس وداس على إزاره ، وكان موقف عمر هذا سبب ارتداد جبلة عن الاسلام ولحوقه ببلاد الروم في جمع من قومه (٢) . وحين فرض عمر العطاء للمسلمين وغضب بعض اشراف قريش ان يكون نصيبهم دون نصيب غيرهم أجابهم أنه أعطى على السابقة في الاسلام لا على الاحساب (٣) . وقد وقف عمر من الانساب موقف الرسول قبله ، إذ حض القوم على رعايتها لا ليتعصبوا وإنما ليصلوا أرحامهم ويعرفوا روابط القربى التي تصل بينهم .

وكان لعلي أيضاً موقفه المناهض من العصبية والروح القبلية . ونجد في طائفة من خطبه دعوة صريحة الى مجانبة العصبية والضرب على ايدي الداعين اليها ، كقوله من إحداها : « واذا رأيتم الناس بينهم النائرة ، وقد تداعوا الى العشائر والقبائل ، فاقصدوا لهامهم ووجوههم بالسيف حتى يفزعوا الى الله والى كتابه وسنة نبيه ، فأما تلك الحمية من خطرات الشياطين فانتهوا عنها ، لا أبا لكم (٤) . . . » وقوله من خطبة أخرى بعد أن أوضح مساوىء العصبية : « فان كان لا بد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال ومحامد الافعال (٥) » .

---

١ ــ العثمانية للجاحظ ص ٢١٧ .
٢ ــ فتوح البلدان ١٦١/١ . الاغاني ١٦٢/١٥ .
٣ ــ تاريخ الطبري ١٠٨/٣ .
٤ ــ شرح نهج البلاغة ٣٥٢/١ .
٥ ــ شرح نهج البلاغة ٢٣٩/٣ .

ومنذ الاسلام لم يعد اختيار سيد القبيلة منوطاً بالقبيلة نفسها فحسب، بل بالدولة ايضاً فلا بد من موافقة الخليفة او الوالي على الشخص الذي تختاره القبيلة سيداً لها . وفي احيان كثيرة كانت الدولة هي التي تتولى اختيار رؤساء القبائل الذين اصبحوا اشبه بموظفين في خدمتها [1] .

* * *

١ ـ من امثلة اشراف **الدولة** على منصب الرئاسة في القبيلة جعل عمر رئاسة بكر لمجزأة بن ثور . ثم نقل عثمان هذه الرئاسة الى ابنه شقيق بن مجزأة (الكامل للمبرد ١/٣٦٢) .

٤

استمرار الروح القبلية وظاهرة العصبية

في صــدر الاسلام

هل أدت التعاليم الاسلامية والتدابير التي اتخذها الرسول وخلفــاؤه من بعده الى القضاء على العصبية القبلية والنزعات المتصلــة بها ؟ وهل أدى توحيد العرب في أمة واحدة تظلها الراية الاسلامية الى إلغاء الروح القبليــة إلغاء تاماً وإحلال الشعور القومي محلها ؟ الواقع ان ظهور هذين المؤثرين : الدين والقومية ، على مسرح الحياة العربية أدى دون شك الى اضعاف النزعة القبلية ، ولكنه لم يؤد الى استئصالها واخماد انفاسها، فلم يكن من اليسير القضاء في برهة قصيرة على نزعة رسخت جذورها في نفوس العرب منــذ اقدم عصورهم وجرت من نفوسهم مجرى الدماء من العروق حتى مازجت أرواحهم واستأثرت بمشاعرهم . ولم يكن ذانك العاملان الجديدان قد بلغــا بعدُ من القوة والسلطان على النفوس ما يكفي لتطهير دماء العرب من جراثيم العصبيات ، فضلا عن ان نظام الدولة الواحدة الذي عاش العرب في ظــله منذ الاسلام لم يستطع الاستغناء عن التنظيم القبلي في نظمه الادارية والحربية فكان تخطيط الامصار وتعبئة الجيوش قائمين على هذا الاساس ، ولذلك ظل النظام القبلي قائماً في العصر الاسلامي ضمن نطاق نظام الدولة ، ومن ثم ظل أثره بارزاً في حياة العرب عصرئذ .

وقد أطلت العصبية القبلية وما يتصل بها من نزعات وعادات منذ عهد الرسول نفسه ، فان كثيراً من القبائل العربية التي اعتنقت الاسلام لم تنس احقاد الجاهلية وثاراتها على رغم الحاح الرسول على وضع دماء الجاهلية ،

فقتلت خزاعة عام الفتح رجلا من بني ليث بقتيل لهم في الجاهلية (١) ، وقتل الحارث بن سويد المجذر بن ذياد البلوي لقتله أباه في بعض حروب الأوس والخزرج (٢) ، وقتل محلّم بن جثامة عامر بن الاضبط الاشجعي على رغم إسلامه لضغائن قديمة بينهما (٣) .

وقد رأينا الرسول يحاول أن يخفف من حدة العصبية والتمايز القبلي بوضعه معايير جديدة لتقويم منزلة القبائل هي معايير التقوى والاخلاص للدعوة الاسلامية، ولكن بعض رؤساء القبائل المسرفين في عصبيتهم وعنجهيتهم لم يرتضوا هذا التقويم ، فحين سمع عيينة بن حصن الفزاري النبي عليه السلام يفضل بني غفار وأسلم ومزينة وجهينة لصدق ايمانهم على الحليفين أسد وغطفان قال : « والله لان اكون في النار مع هؤلاء أحب الي من أكون في الجنة مع اولئك (٤) » .

وعلى رغم مؤاخاة الرسول بين المهاجرين والانصار لم تزل الحواجز القبلية بين الفريقين ، وقد كاد الشر أن يقع أكثر من مرة بين المهاجرين والانصار في زمن الرسول . ففي غزاة بني المصطلق اقتتل رجلان من الفريقين بسبب تزاحمهما على الماء فاستصرخ كل منهما قومه وكاد الشر يقع بين المهاجرين والانصار لولا ان تدارك رسول الله الامر فأمر القوم بالرحيل فوراً .

وانتهز زعيم المنافقين عبد الله بن أبي السانحة فأخذ يحرض قومه على المهاجرين فيقول لهم : « قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعدناوجلابيب قريش إلا كما قال الاول : سمّن كلبك يأكلك . والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الاذل (٥) » .

---

١ — صحيح البخاري ٥/٩ .
٢ — سيرة ابن هشام ٨٩/٢ . انساب الاشراف ٢٣١/١ .
٣ — سيرة ابن هشام ٦٢٦/٢ . انساب الاشراف ٣٨٥/١ .
٤ — الاشتقاق لابن دريد ٢٨٥/٢ .
٥ — سيرة ابن هشام ٢٩٠/٢ . صحيح البخاري ١٨٣/٤ . الطبري ٢٦٠/٢ .

بل أن الشر كاد يقع بين قبيلتي الانصار أنفسهم بعد أن أطفأ الرسول بمقدمه اليهم جذوة الحروب التي كانت متصلة بينهما طوال العصرالجاهلي. ويبدو ان اليهود الذين كانوا يشاطرون هاتين القبيلتين مدينتهم قد ساءهم ان يتم التآلف بين هذين الحيين فأخذوا يسعون في إفساد ما بينهما ، فذكروا أن شيخاً منهم أمر فتى يهودياً ان يجلس اليهم فيذكر يوم بعاث وما كان قبله من أيام وما قيل فيها من الشعر ، ففعل ، فتنازع القوم وتفاخروا حتى كاد يكون بينهم شر وتواعدوا اللقاء بالحرة ، فلما علم الرسول بالامر أطفأ الشر بينهم ولامهم على أخذهم بدعوى الجاهلية وهو بين أظهرهم (١). وذكروا أن طويساً المغني كان ولعاً بالشعر الذي قاله الاوس والخزرج في حروبهم يريد بذلك الاغراء ، فقل مجلس اجتمع فيه هذان الحيان إلا وقع فيه شيء (٢) .

وقد اتخذ النزاع الذي كان بين هذين الحيين في الجاهلية صورة جديدة في الاسلام هي تنافسهما في نصرة الرسول عليه السلام . فذكر ابن اسحاق ان هذين الحيين كانا يتصاولان مع رسول الله تصاول الفحلين : لا تصنع الأوس شيئاً فيه غناء عن الرسول إلا قالت الخزرج : والله لا تذهبون بهذه فضلا علينا عند رسول الله ، فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها ، واذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك . فلما قتلت الأوس كعب بن الاشرف لعداوته لرسول الله وتحريضه عليه استأذن الخزرج الرسول في قتل سلام بن ابي الحقيق اليهودي بخيبر ، فأذن لهم (٣) .

ومثل هذه العصبية نجدها بين بطون قريش ايضاً ، فقد كان بين بني هاشم وبني أمية منافسة قديمة ترجع الى ايام الجاهلية ، فلما جهر الرسول

---

١ ــ سيرة ابن هشام ٥٥٥/١ .

٢ ــ الاغاني ٣٩/٣ .

٣ ــ سيرة ابن هشام ٢٧٣/٢ .

الهاشمي بدعوته نصره جل بني هاشم وامتنع اكثر بني امية من الدخول في دينه وعلى رأسهم شيخهم ابو سفيان ، وقد ظلت العصبية بين هاتين الاسرتين قائمة امداً طويلا بعد ذلك .

ولم يكد الرسول يلقى وجه ربه حتى برزت العصبية من مكمنها وسفرت عن وجهها . فقد وقع النزاع اولا بين المهاجرين والانصار في أمر الخلافة ، وكانت سقيفة بني ساعدة مسرحاً لمساجلات ومنازعات عنيفة بين رجال الفريقين والرسول لم يفرغ بعد من دفنه . فالانصار يرون انهم أولى بهذا الامر لنصرتهم الرسول وسابقتهم في الدين ، وهم يظهرون خوفهم من ان يلي هذا الامر قوم كان الانصار قد أوقعوا بهم قبلُ، فهم حاقدون عليهم لذلك(١)، ويرد عليهم المهاجرون حجتهم فيرون انهم أولى بالخلافة لكونهم عشيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكرم العرب أنساباً ، لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش (٢) ... » . ونلاحظ هنا ان ابا بكر يضرب على وتر العصبية إذ يحتج لحق قريش في الخلافة بكونها عشيرة الرسول ، وقد التمس له بعضهم العذر في ذلك فقالوا ان لجوءه الى التحدث عن فضل قريش بحسبها ونسبها انما هو من قبيل مخاطبة القوم بما يقنعهم ، إذ كانوا يقدرون شأن الحسب والقرابة (٣) . وكاد النزاع بين المهاجرين والانصار ان يؤدي الى ارتداد الأمور على إعقابها ، وعودة العرب سيرتهم الاولى من الانقسام والفرقة، لولا ان حسم عمر الامر بمبايعة ابي بكر . وكانت مبايعة المسلمين أبا بكر يومئذ بمثابة إقرار منهم بحق قريش في وراثة النبي عليه السلام ، هذا الحق الذي

---

١ ـ انساب الاشراف ٥٨٢/١ .
٢ ـ انساب الاشراف ٥٨٢/١ . العقد الفريد ٥٨/٤ .
٣ ـ كتاب العثمانية للجاحظ ص ٢٠١ .

ظلت قريش تتشبث به بعد ذلك قروناً عدة . وقد أبى نفر من رؤساء الانصار التسليم بهذا الحق فخرج سعد بن عبادة مفارقاً قومه وامتنع من مبايعة ابي بكر او أي قرشي غيره (١) .

وما كاد الامر يؤول الى ابي بكر حتى ظهر النزاع بين بطون قريش نفسها بسبب الخلافة ، فعليّ وآل الرسول رأوا انهم أحق بهذا الامر من ابي بكر، واحتج عليّ على القوم بمثل ماالحتجوا به على الانصار من حق القرابة (٢) . وكذلك رأى بنو عبد مناف — بنو امية وبنو هاشم — انهم أولى بالخلافة من بني تيم بن مرة ، رهط ابي بكر ، وكان أشدهم إنكاراً لهذا الامر أبا سفيان وخالد بن سعيد بن العاص ، فأخذ ابو سفيان يندد ببني هاشم وبني أمية لارتضائهم ان يلي أمورهم رجل من بني تيم ، وهدد بأن يملأ الارض على ابي بكر خيلا ورجالا (٣) . وامتنع خالد بن سعيد من مبايعة أبي بكر اول الامر وخاطب بني عبد مناف بمثل ما خاطبهم به أبو سفيان (٤) ، وابى بعض اشراف بني امية العمل لابي بكر لهذه الاسباب وآثروا المضي الى الشام (٥) .

وقد قوبل تولي ابي بكر الخلافة بامتعاض وسخط شديدين من قبل طائفة من القبائل . وما لبثت هذه القبائل ان عبرت عن سخطها تعبيراً عملياً بارتدادها عن الاسلام ، وامتناعها عن أداء الزكاة . فقد أدركت بأن تولي أحد القرشيين الخلافة معناه التسليم بحق قريش في الاستئثار بالامر دون سائر قبائل العرب ، ولئن ارتضت هذه القبائل الاذعان لمحمد فما ذاك لقرشيته وانما

---

١ — انساب الاشراف ٥٨٩/١ .
٢ — شرح نهج البلاغة ٥/٢ .
٣ — العثمانية ص ٦٠ . انساب الاشراف ٥٨٨/١ . النزاع والتخاصم ص ١٨ .
٤ — انساب الاشراف ٥٨٨/١ . العثمانية ص ١٧٢ .
٥ — النزاع والتخاصم ص ٣١ .

لنبوته . وقد عبر الحطيئة عن شعورهم هذا في قوله يخاطب قومه ويحثهم على الارتداد :

أطعنا رسول الله اذ كان بيننا ... فيا عجبا ما بالُ دين ابي بكر
أيورثها بكراً إذا مات بعده ... فتلك، وبيت الله، قاصمة الظهر (١)

ولولا حزم ابي بكر وإسراعه في اخماد حركة الردة لتداعت اركان الدولة الاسلامية الناشئة ولعاد العرب سيرتهم الاولى في الجاهلية .

وبقمع حركة الردة خفت صوت العصبية شيئاً وأدرك زعماء القبائل العربية الذين كانوا يحلمون باسترجاع مجدهم القديم ان الدولة العربية أصبحت وطيدة الاركان ثابتة الدعائم، وان عهد الاستقلال القبلي الذي لا يعترف بسلطان فوق سلطان القبيلة قد انقضى الى غير رجعة ، وان فضل قريش على سائر قبائل العرب لا سبيل الى دفعه والاعتراض عليه ، فلم يسعهم إلا الاذعان للامر الواقع ، وأخذوا يتنافسون في إظهار ولائهم للدولة القائمة ليحتفظوا بمناصب السيادة في قومهم ، وأخذت العقيدة الجديدة تجد سبيلها الى قلوب العرب وتتمكن من نفوسهم يوماً بعد يوم، واستطاع عمر بشخصيته الفذة وسياسته الصارمة ان يعلي كلمة الدين ويوطد دعائم الدولة الاسلامية.

على ان حركة الفتح العربي واستقرار قبائل العرب جنباً الى جنب في الامصار والحواضر قد نجم عنها احتكاك القبائل العربية بعضها ببعض ، ولا سيما ان القبائل لم يتم اندماج بعضها ببعض لا في الجيوش ولا في الامصار ، وانما كانت كل قبيلة تؤلف كتلة مستقلة، وأدى هذا الاحتكاك الى إثارة الروح القبلية والعصبيات منذ عهد عثمان . ويلاحظ منذ عهد عمر ان القبائل العربية اخذت تتجمع في الحواضر والامصار المحدثة مؤلفة كتلا قبلية ضخمة تحل

١ – ديوان الحطيئة ص ٣٢٩ . الاغاني ١٥٧/٢ .

محل الوحدات القبلية الصغيرة في العصر الجاهلي ، لان حرص القبائل على توازن القوى في هذه الامصار حمل بطون كل قبيلة على الانضواء كلها تحت لواء قبلي واحد ، وربما انضمت الى القبيلة الكبيرة من طريق الحلف ، بطون وقبائل اخرى صغيرة تجمعها بها رابطة النسب ، فقبائل ضبة والرباب ومزينة مثلا اصبحت جزءاً من كتلة تميم . ثم ازداد نطاق هذا التجمع القبلي اتساعاً بظهور الرابطتين النزارية واليمانية .

وكان التنظيم الاداري والحربي ملزماً بمراعاة الاعتبارات القبلية ، لانه لم يكن من الممكن في ذلك العصر تصور نظام لا يقوم على أساس الوحدات القبلية . فقام لذلك تخطيط الامصار على اساس قبلي ، بل لقد روعي في بعض الامصار انقسام العرب الى أصليها النزاري واليماني ، فذكروا ان سعد بن ابي وقاص حين اختط الكوفة أسهم لنزار وأهل اليمن ، فخرج سهم أهل اليمن في الجانب الشرقي وسهم نزار في الجانب الغربي (١) .

وفي زمن عمر حدث امر كان له أثر كبير ، من طريق غير مباشر ، في ظهور العصبيات وتحدد معالمها وخطوطها البارزة ، ذاك هو وضع ديوان العطاء . وكان الدافع اليه كثرة ماأفاءته الفتوح على المسلمين من أموال الخراج والجزية وغيرها(٢) . وتختلف الروايات في ذكر الدافع المباشر لفرض العطاء كما تختلف في تحديد السنة التي فرض فيها . فتذكر إحداها أن عمر فرض العطاء حين قدم عليه ابو هريرة من البحرين بأموال كثيرة فاحتار في قسمها فأشار عليه احدهم ان يدوّن ديواناً يعطي الناس عليه ، صنيع الاعاجم ، وتذهب رواية اخرى الى ان فرض العطاء تم بعد فتح الشام والعراق ومقتل رستم

١ ـ فتوح البلدان ٢/٣٣٨ .

٢ ـ الفيء : كل مال وصل من المشركين عفوا بلا قتال كمال الهدنة والجزية والخراج واعشار متاجرهم . بخلاف الغنائم فهي ما يؤخذ من المشركين من طريق الحرب (الاحكام السلطانية) ص ١٢١ .

٣ ـ فتوح البلدان ٢/٥٥٤ .

يوم القادسية في عام ١٥ هـ [١]. وتحدد رواية ثالثة مبدأ فرض العطاء بسنة عشرين للهجرة [٢] . ويقال ان الوليد بن هشام بن المغيرة هو الذي اوحى الى عمر بتدوين الديوان وتجنيد الجند أسوة بما رآه في الشام من صنيع ملوكها . وتذكر هذه الرواية ان عمر لما صح عزمه على ذلك دعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم فأمرهم ان يكتبوا الناس على منازلهم [٣].

والمبدأ الذي سار عليه عمر في فرض العطاء لقريش هو القرابة برسول الله ، فبدأ ببني هاشم ثم الاقرب فالاقرب برسول الله . فاذا تساوى القوم في القرابة ، قدم اهل السابقة . ثم فرض للمسلمين على قبائلهم وسابقتهم في الاسلام والجهاد والبلاء ففرض للمهاجرين اولا ثم للانصار ، ثم لسائر القبائل. وفرض للمقاتلة ونسائهم وذرياتهم ، وفضل من شهد المواقع على غيرهم ، ورزق كل مسلم جَريبين في الشهر ، اما العطاء فيدفع الى أهله مرة واحدة في العام .

وقد استدعى فرض نظام العطاء تصنيف الناس بحسب قبائلهم واصولهم ، فنشط النسابون لتدوين الانساب وتصنيف القبائل بحسب أصولها وأجذامها ، فتحددت معالم الرابطتين العدنانية واليمانية كما تحددت معالم الاصول القبلية ضمن إطار هاتين الرابطتين ، وكان لهذا التدوين أثره في عناية القبائل بأنسابها وحرصها على تدوينها ، وأدى ذلك الى تعصبها لنسبها واعتزازها به وميلها الى القبائل التي تربطها بها رابطة النسب والقربى . وهكذا نرى ان وضع ديوان العطاء قد أدى من طريق غير مباشر الى ظهور الروابط القبلية وشيوع المعارف النَسَبية وأدى بالتالي الى ظهور العصبية في صورها المختلفة .

---

١ ـ الطبري ١١٠/٣ . فتوح البلدان ٥٤٨/٣ .
٢ ـ فتوح البلدان ٥٥٠/٣ .
٣ ـ فتوح البلدان ٥٤٩/٣ ـ ٥٦٠ .

ولئن حالت شخصية عمر القوية وسياسته الحازمة دون ظهور آثار العصبية في عصره فان شخصية خلفه عثمان الضعيفة وأخطاءه السياسية قد فسحتا المجال لظهور هذه العصبية واشتداد أمرها في أواخر عهده . وقد بلغ سخط القبائل العربية على سياسته أشدها حين رأوه يحابي قومه ولا يساوي بينهم وبين سائر المسلمين (١) . وفي الحق ان بني امية وجدوا في تبوؤ عثمان منصب الخلافة سانحة لـدعم مكانتهم في قريش ، تلك المكانـة التي زعزعها ظهور النبوة في بني هاشم ، وكان مقتل عثمان بعدئذ ورقة رابحة في يد بني امية مهدت لهم سبيل الوصول الى الحكم تحت ستار الطلب بدم عثمان .

وقد شجع ضعف شخصية عثمان بعض زعماء القبائل واشرافها على اظهار عصبيتهم واعلان سخطهم على سياسة استئثار قريش وبني أميـة بالخلافة ومغانم الحكم . والحادثة التي جرت في مجلس سعيد بن العاص والي الكوفة كانت من بوادر اندلاع شرارة العصبيات . ذكروا ان سعيد بن العاص ولّي الكوفة بعد الوليد بن عقبة ، فكان يجتمع في مجلسه أشراف أهل الكوفة ووجوههم ومنهم مالك بن الاشتر النخعي وزيد وصعصعة ابناصوحان العبديان وعدي بن حاتم الطائي وقيس بن عطارد بن حـاجب التميمي . فتذاكروا يوماً السواد والجبل ، فتمنى صاحب شرطة الامير لو يكون السواد كله لأمير الكوفة فأنكر عليه الاشتر هذا القول وعنفه ، فغضب سعيد بن العاص وقال : « إنما السَواد بستان قريش » ، فأثارت كلمته هذه ثائرة رؤوس القبائل وأغضبهم ان يجعل ابن العاص مراكز رماحهم وما أفـاء الله عليهم بستاناً له ولقومه ، وأعلنوا سخطهم جهاراً على سياسـة عثمـان وولاته وخشي عثمان ان يفسدوا عليه أهل المصر فسيّرهم الى الشام (٢) .

---

١ ـ مما انكروه على عثمان استعماله اقاربه واهل بيته وكتابته لمروان بن الحكم بخمس افريقية واعطاء اقاربه الاموال (انساب الاشراف ٥/٢٥) .

٢ ـ انساب الاشراف ٥/٤٠ . تاريخ الطبري ٣/٣٦٠ .

وتمضي الرواية في تفصيل تتمة الخبر فتذكر ان معاويــة دعا هــؤلاء المسيرين فأخذ يذكر لهم فضل قريش على الناس ، ولكن صعصعة بن صوحان ينكر على معاوية تفضيله قريشاً على سائر القبائل ، فهي لم تكن في الجاهلية اكثر قبائل العرب عدداً ولا امنعها (١) .

وقد تضافرت الدوافع السياسية والدينية والقبلية اخيراً في إضرام نار الثورة على عثمان ، وكان مصرعه إيذاناً باضطراب أمور المسلمين ووقوع الشقاق بين جماعتهم . وبدأت منذ عهد علي سلسلة الاحداث الدامية التي كان التنازع على الحكم دافعها الاول ، وفي غمرة هذه الاحداث وجدت العصبية مجالا للظهور وقوي أمرها حتى فسدت الامصار بسببها ، وكان ذلك ايذاناً بتفاقم امر العصبية في عصر بني امية واتساع نطاقها .

وقد صورت الاخبار اضطراب الاحوال في الامصار بسبب العصبيات فجاء في بعضها ان اهل الكوفة قد فسد أمرهم في اواخر خلافة علي ، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمر بمنازل قبيلة أخرى فينادي باسم قبيلته : يا للنخع مثلا أو يا لكندة نداء يقصد به الفتنة واثارة الشر ، فيتألب عليه فتيان القبيلة التي مر بها فينادون : يا لتميم او يا لربيعة . ويقبلون الى ذلك الصائح فيضربونه فيمضي الرجل الى قبيلته فيستصرخها ، فتسل السيوف وتثور الفتن (٢) . ولذلك وجدنا علياً ينهى عن العصبية والدعوة الى العشائر في طائفة من خطبه .

لم يؤد قيام الدولة الاسلامية اذن الى القضاء على العصبية قضاء مبرماً ولم تخمد جذوتها الا برهة قصيرة ثم عادت الى الاتقاد ثانية واتخذت منذ العصر الاسلامي صوراً جديدة ، وتعقدت مظاهرها لاشتباكها بالعوامل الدينية والسياسية وغيرها .

---

١ ــ تاريخ الطبري ٣٦٢/٣ .
٢ ــ شرح نهج البلاغة ٢٣٩/٣ .

فمن مظاهر العصبية وآثارها الموروثة عن العصر الجاهلي ، والتي خفف الاسلام من غلوائها دون ان يقضي عليها ، التفاخر بالآباء والاجداد والتغني بالمآثر القبلية ، وحرص أشراف القبائل على تقريب الشعراء واكرامهم لينوهوا بذكرهم ويشيدوا بمناقب عشيرتهم . وخبر الحطيئة مع بغيض بن عامر والزبرقان بن بدر مشهور في كتب الادب (١)، وهو مثال لاستمرار الروح الجاهلية في العصر الاسلامي . ومن آثار الروح الجاهلية المعاقرة التي كانت بين غالب بن صعصعة ابي الفرزدق وسحيم بن وثيل الرياحي ، وقد تنافرا في الكرم والشرف وتنافسا في عقر الابل (٢) ، وهذه المعاقرة كانت إحدى المآثر التي أشاد بها الفرزدق في شعره .

وقد حدثت في صدر الاسلام فتن قبلية كتلك الايام القبلية التي شهدها العصر الجاهلي ، ولكنها كانت قليلة جداً بالقياس الى وقائع العصر الجاهلي . وينبغي ان نلاحظ خلافاً اساسياً بين دوافع هذه الوقائع القبلية في العصر الجاهلي ودوافعها في هذا العصر . فلم تعد القبائل يغزو بعضها بعضاً سعياً وراء القوت والمغانم المادية ، فقد أغناهم الله مذ قامت الفتوح عن اكتساب قوتهم من هذه الطريق الشاقة التي أضطرتهم اليها قسوة بيئتهم وفقرها . وكذلك تناقصت الوقائع القبلية التي تقوم بسبب الثأر . وكان في انصراف القبائل الى الجهاد والفتح ما يشغلهم عن قتال بعضهم بعضاً . الا ان ثمة دافعاً جديداً برز في هذا العصر وحدثت بسببه طائفة من الفتن القبلية هو الدافع السياسي ، فالانقسامات السياسية التي تمخض عنها العصر الاسلامي قد استتبعت انقسامات قبلية موازية لها ، وكان يكفي ان يكون سيد القبيلة من انصار معاوية مثلا لتصبح قبيلته كلها أموية الهوى ، او يكون في جانب علي لتغدو عشيرته علوية المنزع . وبسبب تصادم الأهواء السياسية وقعت طائفة من الحروب القبلية ، ولكنها كانت قليلة لا يعتد بها ، وانما

---

١ ـ انظر الاغاني ٢/١٧٩ .
٢ ـ النقائض ١/٤١٤ و ٢/٦٢٥ .

كثرت هذه الفتن وعظم شأنها في العصر الاموي . ومن الايام القبلية التي حدثت في هذا العصر يوم الوقبى بين جماعة من بكر بن وائل وبني مازن ومن نصرهم من بني يربوع وبلعنبر وسببه نزاع على بعض المياه (١) ، ومن الفتن القبلية المتصلة بالنزاع السياسي فتنة ابن الحضرمي بالبصرة (٢) .

ومن آثار العصبية القبلية في هذا العصر رعاية بعض القبائل أحلاف الجاهلية ، ومن ذلك ما صنعه المسلمون من بني تميم حين فتح خالد دومة الجندل ، فقد حثهم عاصم بن عمرو على مؤاسرة الكلبيين ـ حلفاء بني تميم في الجاهلية ـ واجارتهم لانقاذهم من القتل ، ولما بلغ خالداً صنيعهم انكر عليهم ان يحفظوا امر الجاهلية ويضيعوا امر الاسلام (٣) .

ومن آثارها أيضا تذكر الاحقاد والثارات القديمة والطلب بدماء الجاهلية ، ومن هذا القبيل حالات الثأر الفردي التي كانت في زمن الرسول ، وقد تحدثنا عنها آنفاً . وحين أوقع البكريون المسلمون بنصارى بني تغلب ، زمن عمر ، وناشدهم التغلبيون ان يكفوا عنهم ولا يغرقوهم في الماء ، كان جوابهم : تغريق بتحريق . يذكرونهم بذلك يوماً من ايام الجاهلية احرق فيه بنو تغلب قوماً من بكر بن وائل في غيضة ، وقد اغضب عمر تصرفهم هذا الدال على تأصل العداوات القبلية القديمة في نفوسهم (٤) . ومن امثلة الثأر الفردي في هذا العصر قتل زيد بن عدي بن حاتم ـ وكان مع علي يوم صفين ـ رجلا بكرياً من اصحاب علي أيضاً لقتله خاله حابس بن سعد الطائي في بعض ايام صفين ، وكان مع معاوية ، ثم لحق زيد بعد ذلك بمعاوية وقال شعراً يفخر فيه بادراكه وتره :

مَن مبلغ أفناء طيء بأنني ثأرتُ بخالي ثم لم اتأثّم (٥)

---

١ ـ انظر شرح حماسة ابي تمام ٣٤/١ .
٢ ـ انظر خبرها في تاريخ الطبري ٨٤/٤ .
٣ ـ الطبري ٥٧٨/٢ .
٤ ـ الطبري ٦٥٨/٢ .
٥ ـ وقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٥٩٩ .

ومن الانصاف ان نقر انه منذ قيام الدولة العربية واعتناق قبائل العرب العقيدة الاسلامية برز مؤثر جديد نافس العصبية القبلية في سلطانها على نفس العربي واثرها في تفكيره وسلوكه ومشاعره ، هو العقيدة الدينية التي تسمو على العصبية القبلية وتدعو الى الغائها . والصراع بين العصبية والعقيدة الدينية بدأ منذ زمن الرسول عليه السلام ، وقد استطاعت هذه العقيدة ان تقطع روابط العصبية في كثير من الاحوال ، بل انها استطاعت تقطيع وشائج الرحم الماسة في بعض الاحيان ، فبسبب هذه العقيدة انقسمت قريش على نفسها ووقعت الخصومة بين مسلميها ومشركيها ، بل لقد ظهر الشقاق في نطاق الاسرة الواحدة ، فحين نشب القتال بين المسلمين والمشركين كان الرجل ربما يقاتل اخاه او اباه او ابنه ، فقاتل مع الرسول يوم غزاة بدر ابو حذيفة ابن عتبة بن ربيعة ، وكان ابوه عتبة وعمه شيبة واخوه الوليد في صفوف المشركين ، وقد قتلوا جميعاً يومئذ(١) . وهمّ ابو بكر بمبارزة ابنه عبد الرحمن في وقعة احد لولا أن منعه الرسول من ذلك (٢) ، وحاول سعد بن ابي وقاص قتل أخيه عتبة في تلك الوقعة ولكنه راغ منه فلم يدركه (٣) . وحين سألت قبيلة طيء خالداً ان يوجههم لقتال قبيلة قيس بدلا من قتال بني اسد حلفائهم أنكر عليهم عدي بن حاتم طلبهم هذا وقال : « لو ترك هذا الدين اسرتي الادنى فالادنى من قومي لجاهدتهم عليه (٤)» . وفي وقعة الُيس كان أشد الناس على نصارى بكر مسلمي بني عجل، اخوتهم في العشيرة والنسب(٥) .

فقد استطاعت هذه العقيدة الجديدة اذن ان تطغى على رابطة العصبية وان تقطع وشائج الرحم الماسة في بعض الاحيان ، بيد أنها لم تستطع الغاء

---

١ ـ سيرة ابن هشام ٦٢٥/١ . العثمانية للجاحظ ص ٦١ .
٢ ـ انساب الاشراف ٣٢١/١ .
٣ ـ انساب الاشراف ٣٢٣/١ .
٤ ـ الطبري ٤٨٥/٢ .
٥ ـ الطبري ٥٦٠/٢ .

العصبية واقتلاع جذورها من النفوس ، ولم يكن الايمان قد وجد سبيله في تلك الحقبة الى قلوب جميع العرب ، فظلت هذه العصبية تفعل فعلها في نفوس الكثير منهم ، وكان منهم من قاتل مع المسلمين عصبية لقومه لابدافع العقيدة ، فذكروا ان قزمان أبلى في قتال المشركين يوم واحد ، فلما بشروه بالجنة قال : « أي جنة ؟ والله ما قاتلت إلا حمية لقومي [1] » .

ولما افترقت كلمة المسلمين بسبب النزاع على الحكم واصبحوا احزاباً وشيعاً وتقاسمتهم الاهواء السياسية ، ولا سيما منذ مقتل عثمان ، برز عامل آخر اتسع له صدر العربي وخضع لسلطانه هو التحزب السياسي ، فأصبحت نفس العربي موزعة بين هذه المؤثرات الثلاثة تصطلح تارةوتصطرع تارة اخرى ، فينعكس اثر ذلك كله في سلوكه واتجاهه ، فلم تعد نفس العربي خالصة اذن لأثر العصبية القبلية وحدها .

وقد أدت المنازعات السياسية وافتراق المسلمين الى احزاب وشيع الى تصدع الرابطة القبلية في كثير من الاحيان ولا سيما حين تكون بطون القبيلة الواحدة تنزل مواطن شتى ، فتسير كل جماعة منها في ركاب الرجل او الحزب الذي له الغلبة في ديارها . فالقبائل التي استوطنت البصرة مثلا ناصر جلها عائشة وطلحة والزبير ، في حين ان قبائل الكوفة وقفت الى جانب علي ونصرت قبائل الشام معاوية .

فلما نشبت الوقائع بين المسلمين بسبب اختلاف أهوائهم السياسية كان رجال القبيلة الواحدة كثيراً ما يجدون انفسهم مضطرين لقتال بعضهم بعضاً ، ولا سيما إبان الحروب التي قامت بين علي ومعاوية [2] ، بل أن القبيلة كانت تحرص على ان تقف بازاء اختها في هذه الوقائع وتتكفل بأمر قتالها ، فيقاتل

---

١ ــ انساب الاشراف ٢٨١/١ .

٢ ــ انظر الطبري ٩/٤ وما بعدها .

أزد الشام أزد العراق ومضر الشام مضر العراق الخ .. وهي ظاهرة تدعو للعجب وتبدو للوهلة الاولى وكأنها مناقضة للعصبية ، على انها في واقع الامر من التدابير التي لجأ اليها القوم للحيلولة دون تأثر المقاتلين بنوازع العصبية والرحم . فالقبيلة تكره ان ترى اخوتها يقتلون بأيدي قوم آخرين وتؤثر ان تتولى هي قتالهم ، شأن الأب يؤثر ان يتولى بنفسه تأديب ولده اذا خرجوا عن طاعته ويكره ان يرى غيره يتولى هذا الامر . وهكذا وجدنا علياً يأمر — يوم صفين — كل قبيلة من أهل العراق ان تكفيه اختها من اهل الشام (١) ، ووجدنا معاوية يجري على هذه الخطة ايضاً (٢) . وكانت القبيلة حين توضع بازاء اختها تشعر انها تقاتل كفؤها ، ولذلك حين وضع معاوية قبيلة حمير بازاء ربيعة — لأنه لم يكن في أنصاره ربعيون — أظهر ذو الكَلاع استياءه لأنه لم يرَ ربيعة كفؤاً لقومه (٣) .

على ان القبيلة حين كانت تضطر لقتال اختها لم تكن تنسى صلاتالرحم والعصبية التي تربطها بها . وكان احترابها وشعورها بتصدع وحدتهاالقبلية وانقسامها يثير في نفوس رجالها بالغ الاسى والالم ، فحين ندب أزد العراق الى أزد الشام يوم صفين ، قال مخنف بن سليم رأس أزد العراق : « ان من الخطب الجليل والبلاء العظيم أنا صُرفنا الى قومنا وصرفوا الينا . فوالله ما هي الا أيدينا نقطعها بأيدينا ، وما هي الا اجنحتنا نحذفها بأسيافنا، الخ (٤) ... » .

وكان مما يزيد في أسى هذه القبائل المحتربة ويحز في نفوسها شعورها أنها انما يقاتل بعضها بعضاً انتصاراً لرجلين من قريش وادراكها أن قريشاً تسخرها لتحقيق مآربها السياسية وتبذل دماء رجالها في سبيل تحقيق

---

١ — الطبري ٤/٩ .

٢ — وقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٢٥٥ .

٣ — المصدر السابق .

٤ — وقعة صفين ص ٢٩٦ . الطبري ٤/١٨ .

مطامعها في الحكم والخلافة . فلما قتل أبو كعب رأس خثعم العراق ، لم يستطع قاتله ان يمنع نفسه من البكاء وانصرف وهو يقول : « رحمك الله أبا كعب ، لقد قتلتك في طاعة قوم أنت أمس بي رحماً منهم وأحب الي نفساً منهم ، ولا أرى قريشاً الا قد لعبت بنا (١) » .

وقد ظهرت بواكير العصبية الواسعة بين العدنانية والقحطانية منذ وقعة الجمل وفي وقعة صفين خاصة ، اذ كانت هذه الوقعة مظاهرة قبلية ضخمة ، واول احتكاك قبلي واسع النطاق يشهده العصر الاسلامي .

والعصبية للقحطانية او للعدنانية كانت تتجلى في صفوف كل من الجيشين ، فذكروا مثلا ان بعض قبيلة عك كان يدعو قومه الى الاستبسال في القتال كي لاتشمت بهم مضر (٢) ، ولما دعا معاوية طائفة من رجال قريش ان يقتلوا فرسان علي ورؤساء جيشه البارزين فلم يصنعوا شيئاً شمتت بهم اليمانية من اصحاب معاوية (٣) . وعقد معاوية في بعض ايام الموقعة لرجال من مضر على اليمن ففخم ذلك أهل اليمن وكرهوا ان يتأمر عليهم احد من غير قومهم وتحدث بذلك شعراؤهم حتى اضطر معاوية الى إرضائهم (٤) .

ونحن نلاحظ ان الحزب اليماني بدأ يفرض وجوده في الاحداث السياسية منذ فتنة عثمان ، اذ أن جُل الناقمين عليه والمحرضين على الثورة كانوا من اليمن (٥) . وقد ظاهر هؤلاء علياً بعد مقتل عثمان وأبلوا بلاء عظيماً في قتال

---

١ ــ وقعة صفين ص ٢٩٠ .

٢ ــ وقعة صفين ص ٣٣٩ .

٣ ــ المصدر السابق ص ٤٨٥ .

٤ ــ المصدر السابق ص ٤٨٢ ــ ٥٠١ .

٥ ــ انظر انساب الاشراف ٥/٦ وما بعدها . والطبري ٣/٣٩٩ وما بعدها .

معاوية ، ولا سيما قبيلة همدان ، فاضطر علي الى استشارة رؤسائهم في أمر التحكيم ، وعلى رأسهم الاشعث بن قيس ومالك الاشتر . ويقال ان الأشعث هو الذي فرض على عليّ قبول ابي موسى الاشعري حكماً عنه ، وكان علي يرى اختيار عبد الله بن عباس فاعترض الاشعث ان يكون الحكمان من مضر ، وطلب ان يمثل الحكمان الجانبين المضري واليماني ، فلما أظهر عليّ تخوفه من وقوع ابي موسى في حبائل عمرو بن العاص أجابه الاشعث بقوله : « والله لان يحكما ببعض ما نكره وأحدهما من اليمن أحب الينا من ان يكون بعض ما نحب في حكمهما وهما مضريان (1) » .

فالعصبية اليمنية والنزارية قد أطلت برأسها منذ العصر الاسلامي ، وساعدت على انضاجها تلك الحروب التي قامت بين علي وخصومه ثم أحداث التحكيم التي تلتها ، فلما أهلّ العصر الاموي بلغت هذه العصبية مداهـا الاقصى ، على نحو ما سنبينه في الفصول التالية .

---

1 ـ وقعة صفين ص ٥٧٢ .

٥

الشعراء الاسلاميون والعصبية القبلية

كان الشعر الجاهلي في كثرته الغالبة قبلياً يستوحي في اغراضه وفنونه نزعة العصبية ويهتدي بهديها ، وكان جل شعراء الجاهلية دعاة عصبية وملقحي فتن ومؤرثي أضغان . فلما جاء الاسلام أدرك خطر هؤلاء الشعراء على كيان الدولة العربية الناشئة ، فكان من الطبيعي الا يفتح صدره لهم وان يقف من الشعر القبلي المثير للضغائن والعصبيات موقف المناهضة وان ينفر الناس منه . وقد لقي الرسول الكريم من هجاء شعراء المشركين عنتاً شديداً فلا غروَ ان نجده يذم الشعر فيقول : « لأن يمتلىء جوف احدكم قيحاً خير له من ان يمتلىء شعراً (١) » . وهؤلاء الشعراء هم الذين عناهم القرآن في قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون الخ الآية (٢) . . . » . ولكن الرسول نفسه اضطر اول الامر ان يحارب هؤلاء الشعراء بسلاحهم فدعا نفراً من شعراء الانصار الى الرد على هجاء شعراء المشركين بمثله ، وفي طليعتهم حسان ابن ثابت . وأشار الرسول على حسان ان يستعين بأبي بكر ليدله على معايبهم ومثالبهم(٣) . وحين كانت تقدم عليه وفود القبائل ويقوم شعراؤهم وخطباؤهم مفاخرين بقبائلهم كان يدعو انصاره من الشعراء والخطباء الى اجابتهم بمثل ما يقولون (٤) .

وقد وقف خلفاء الرسول موقف المناهض كذلك من الشعر القبلي المثير

١ ـ صحيح البخاري ٣٦/٨ .
٢ ـ سورة الشعراء آية ٢٢٤ .
٣ ـ الاغاني ١٣٧/٤ .
٤ ـ انظر الاغاني ١٤٦/٤ .

للضغائن ، وكان من أشدهم في ذلك عمر بن الخطاب الذي نهى الشعراء عن تناشد اشعار الجاهلية التي من شأنها اثارة الاحقاد والعداوات القبلية (١) ، وضرب على أيدي الشعراء الذين كانوا يؤذون الناس بهجائهم ويهيجون الفتن بأشعارهم ، صنيعه بالحطيئة حين هجا الزبرقان(٢) . وكان عثمان بن عفان اذا أتى بشاعرين يتهاجيان أمر بلزهما بحبل ثم يعطي كلا منهما سوطاً ويأمرهما أن يتجالدا (٣) ، ومن ذلك حبسه لضابىء البرجمي في هجائه بعض الانصار (٤) .

ومنذ العصر الاسلامي نلاحظ ظاهرة جديدة لم يعرفها العصر الجاهلي ، تلك هي لجوء القوم الذين ينالهم اذى الشعراء الى الوالي او الخليفة ليعديهم على الشاعر الذي هجاهم . ومن هذا القبيل استعداء الزبرقان عمر على الحطيئة ، واستعداء بني العجلان عمر ايضا على النجاشي الشاعر (٥) ، واستعداء الانصار عثمان على ضابىء بن الحارث البرجمي . وكان الشعراء في العصر الجاهلي يخوضون في أعراض الناس على هواهم ، وليس ثمة سلطان يردعهم عن ايذاء الناس بهجائهم ، فلما قامت الدولة الاسلامية منعت الشعراء من التصدي لهجاء الناس قمعاً للفتنة ، وعاقبت من يقدم على ذلك بالحد او السجن .

وكان من أثر قيام الدولة الاسلامية وموقفها من شعر العصبيات وانصراف قبائل العرب الى الفتوح ونسيانها ــ الى حين ــ عداواتها القبلية ، كان من أثر ذلك كله ان تناقص الشعر القبلي في صدر الاسلام وقل النظم في الاغراض المتصلة بالعصبيات ، واتجه الشعراء الى فنون اخرى من الشعر ، كالشعر المتصل بالدعوة الاسلامية والشعر المقول في الحث على الجهاد ، وفي وصف

---

١ ــ الاغاني ١٤٠/٤ .
٢ ــ الاغاني ١٧٩/٢ .
٣ ــ انظر في الاغاني ٢٥٥/٦ ما صنعه عثمان بابن دارة ومرة بن واقع الغطفاني .
٤ ــ الطبري ٤٣٠/٣ .
٥ ــ العمدة لابن رشيق ٣٧/١ .

الوقائع بين المسلمين والمشركين ، وأكثروا من النظم في اغراض أخرى كالغزل والمديـح .

وحين نرجع الى معاني الشعر نفسها نستشف الطابع الاسلامي في كثير منها ، فشعراء الانصار مثلا يفاخرون شعراء قريش بنصرة الدين الجـديد وحامل رسالته ويعيرون شعراء المشركين بكفرهم ، ويجعلون الاستشهاد في سبيل العقيدة والذود عن حياض الدين غاية ما يصبون اليه . ومثل هـذا التأثر بالروح الاسلامية يلاحظ في اغراض اخرى، كالرثاء والمديح والوصف(١).

تضاءل اذن شأن الشعر القبلي المتصل بالعصبيات منذ قيام الدولـة الاسلامية وقل النظم في الاغراض المستوحاة من العداوات القبلية كالهجاء والفخر القبليين ونحوهما . الا ان الشعر القبلي مع ذلك لم يلفظ انفاسه ولم يقض عليه قضاء مبرماً في هذا العصر ، لان العصبية القبلية ظلت قائمة فيه ولم يؤد قيام الدولة الاسلامية الى إلغائها والقضاء عليها ، ومتى وجـدت العصبية وجد الشعر المتأثر بها اذ انه مظهرها الادبي والاداة المعبرة عنها .

ومن ثم نجد كثيراً من الشعراء في هذا العصر يخضعون للنزعة العصبية فينطقون بلسانها ويستجيبون لندائها ويستلهمون وحيها فينعكس صـدى ذلك في اغراضهم وافكارهم ومعانيهم . حتى الشعراء الذين تغلغلت العقيـدة الدينية في نفوسهم لم يبرأ شعرهم من أثرها كحسان بن ثابت والعباس بن مرداس . ولم يزل الشاعر في هذا العصر يرى انه لسان قبيلته الناطـق بمحامدها ومآثرها والذابّ عن احسابها ، فحسـان بن ثابت كان شـاعر الرسول المنافح عنه بلسانه ، ولكنه كان الى ذلك شاعر الانصار ، يشيـد بمآثرهم في كل سانحة ، وفخره القبلي يجمع بين القيم الاسلامية من حمـاية

---

١ ـ انظر امثلة لذلك في سيرة ابن هشام ٣٣٠/١ ، ١٢٩/٢ . وفي ديوان حسـان بن ثابت ص ٨٩ ، ٣١٣ .

الرسول ونصرة الدين ومجاهدة المشركين ونحو ذلك ، وبين القيم القبلية الموروثة عن العصر الجاهلي (١) . وقد لاحظ النقاد القدامى انه كان في هجائه المشركين يجري على اسلوب الجاهليين فيذكر الوقائع والايام والمآثر ولا يصنع صنيع عبد الله بن رواحة الذي كان يعتمد في هجائه اياهم على المعاني الاسلامية(٢) ، وقد حملت العصبية حسان على التعريض بالمهاجرين في بعض شعره (٣) . وكذلك كان العباس بن مرداس يظهر اعتزازه بقومه في فخره الاسلامي ويذكر مآثر بني سليم في نصرة الرسول والذود عنه مضيفاً الى هذه المفاخر الاسلامية المآثر القبلية القديمة (٤) .

وقد تجلت عصبية الشعراء إبان الاحداث التي تمخض عنها صدر العصر الاسلامي ، فكانوا يصورون في شعرهم موقف قبيلتهم من هذه الاحداث ، وربما حاول بعضهم إثارة النعرة القبلية او حث قومه على اتخاذ موقف ما من بعض الاحداث . ففي عهد الرسول رأينا شعراء القبائل الوافدة عليه ينطقون بلسان قبائلهم فيفاخرون بها ويشيدون بمآثرها ويعددون مناقبها فيقوم حسان بن ثابت وشعراء الانصار فيجيبونهم بمثل مقالهم ، ومن امثلة هذه المفاخرات مفاخرة بني تميم الرسول حين قدموا عليه في السنة التاسعة للهجرة (٥) .

---

١ ــ انظر مثلا قصيدته التي مطلعها :

أهاجك بالبيداء رسم المنازل　　نعم قد عفاها كل أسحم هاطل

(الديوان ص ٣١٣)

وقصيدته التي مطلعها :

وكنا ملوك الناس قبل محمد　　فلما أتى الاسلام كان لنا الفضل

(ديوان ص ٤٢٨)

٢ ــ الاغاني ٤/١٣٧ .

٣ ــ الاغاني ٤/١٥٥ . سيرة ابن هشام ٢/٣٠٤ .

٤ ــ انظر مثلا سيرة ابن هشام ١/٤٦٢ وما بعدها .

٥ ــ انظر تاريخ الطبري ٢/٣٧٨ .

وقد ظل فن النقائض الذي شهد العصر الجاهلي مولده قائماً في العصر الاسلامي . إلا انه لم يحتفظ بطابعه الجاهلي القديم فلم يعد وقفاً على الاغراض القبلية وانما خضع للمؤثرات الجديدة في هذا العصر وفي طليعتها الدين والسياسة ، فامتزجت فيه لذلك الروح القبلية بالروح الاسلامية والافكار السياسية . ونلاحظ هذه الظاهرة كذلك في الشعر المقول في اعقاب الغزوات، فنجد الطابع الجاهلي واضحاً في شعر المشركين سواء كان هجاء او فخراً او رثاء في حين نجد الطابع الاسلامي هو الغالب في شعر شعراء المسلمين ، ونتبين هذه السمات مثلا في قصيدة امية بن ابي الصلت التي رثى بها من اصيب من قريش يوم بدر ومطلعها :

ألا بكيتِ علـــى الـــكرا	م بني الكرام أولي الممادح (١)

ونتبينها كذلك في هذه المناقضات التي قيلت اثر وقعة أحد بين شعراء قريش وشعراء الانصار (٢) ، فقد نظر شعراء قريش الى هـذه الموقعة بمنظار قبلي ، فصوروها على انها هزيمة للاوس والخزرج على يد قريش ، وان قريشاً قد ثأرت اليوم لهزيمتها يوم بدر ، نجد هذه المعاني مثلا في ابيات عبد الله بن الزِبعرى التي منها قوله :

ليت أشيـاخي ببـــدر شهـدوا	جزع الخزرج من وقـع الأسَلْ
حـين حَكّت بقُبـــاء بركهـــا	واستحرّ القتل في عبـد الأشَلْ
فقتلنـــا الضِعف من اشـرافهـم	وعدلنا مَيل بـدر فاعتـدلْ (٣)

---

١ ــ سيرة ابن هشام ٣٠/٢ .

٢ ــ انظر هذه المناقضات في سيرة ابن هشام ١٢٩/٢ وما بعدها .

٣ ــ سيرة ابن هشام ١٣٦/٢ . البرك : الصدر . عبد الاشل : اراد عبد الاشهل وهو احد بطون الاوس المشهـورة .

وفي حروب الردة وقفت طائفة من الشعراء الى جانب قبائلها المرتدة ، وكان منهم من حرض قومه على الارتداد ، شأن الحطيئة العبسي الذي اخذ يحرض قومه ويعيرهم بالجبن ويثني على بني ذبيان الذين سارعوا الى نقض العهود ومحاربة المسلمين (١) .

ومن شعراء القبائل المرتدة ايضاً ابو شجرة بن عبد العزى السلمي ، ابن الخنساء وهو القائل من أبيات :

فروّيت رمحي من كتيبة خـالد ... واني لأرجـو بعدها أن أعمّرا (٢)

وحين انشق المسلمون على انفسهم في أعقاب مقتل عثمـان وتقسمت قبائلهم الاهواء وجدنا شعراء القبائل يسلكون في الغالب الاتجاه الذي سلكـه قومهم ويدافعون عنه بشعرهم ويشيدون بما كان لقومهم من يد حميدة في نصرته ويهجون خصومه ، وهم في ذلك كله لا يعبرون عن نظرتهم الفرديةوانما عن روحهم القبلية منساقين في تيار جماعتهم . ومن ذلك قول الاعرج الضبي يفخر بوقوف قبيلته بني ضبـة في جانب عائشـة واستبسالهم في الذود عنها يوم الجمـل :

الموت أحلى عندنا من العسـل ... نحن بني ضبـة أصحابُ الجمل

نحن بنو المـوت اذا الموت نـزل ... ننعى ابن عفان بأطراف الأسل (٣)

على ان من هؤلاء الشعراء من لام قومه على الانقياد لقريش وسفك دمائهم في سبيلها ، ومن ذلك قول احد شعراء ضبة يوم الجمل :

أطعنا قريشاً ضلةً من حلومنـا ... ونصرتنـا اهلَ الحجاز عنـاءُ (٤)

---

١ ـ انظر ديوان الحطيئة ص ٣٢٩ . الاغاني ١٥٧/٢ .

٢ ـ تاريخ الطبري ٤٩٣/٢ .

٣ ـ حماسة ابي تمام ٢٨٠/١ . الطبري ٥٢٨/٣ .

٤ ـ الطبري ٥٣١/٣ .

وظهرت في اشعارهم يومئذ بواكير العصبية القبلية في نطاقها الواسع . فثمة شعراء ينطقون بلسان مضر ، وآخرون بلسان ربيعة ، وطائفة اخرى بلسان قبائل اليمن . وقد ظهرت هذه العصبيات في صفوف كل من الجيشين المحتربين ، فنجد قبيلةربيعة تقف كلها في جانبعلي ، وتبلي في قتال اصحاب معاوية بلاء يحمل علياً على إيثارها والثناء عليها حتى كان لا يعدل بها أحدا ، فيشق ذلك على مضر ويظهرون لربيعة القبيح ، وينعكس صدى هذهالعصبية في شعر شعراء الفريقين ويتبادل شعراؤهما الطعن والتعريض وتقوم بينهما المناقضات ، فنجد مثلا الشاعر الربعي الحضين بن المنذر الرقاشي يتحدى قبائل مضر أن تبلى بلاء ربيعة إن استطاعت :

رأت مضر صارت ربيعةُ دونها ... شعارَ أمير المؤمنين وذا الفضلْ

فأبدوا لنا ممّا تجن صدورهم ... علينا من البغضا وذاك له أصلْ

فأبلوا بلانا أو أقروا بفضلنا ... ولن تلحقونا الدهرَ ماحنّتِ الابل(١)

وحين أدلت ربيعة على مضر بحسن بلائها في نصرة علي جاء أشراف القبائل المضرية الى علي فسألوه ان يعفي ربيعة من القتال أياماً لئلا تستأثر بالفضل وتظن انها أولى بعلي من مضر ففعل ، وأبلى المضريون في قتال أهل الشام وانتصفوا من ربيعة وفخر شعراؤهم بحسن بلائهم فقال ابو الطفيل عامر بن واثلة الكناني :

لقينا قبائلَ أنسابهم ... الى حضر موت واهل الجَنَدْ

فلما تنادَوا بآبائهم ... دعونا معدّاً ونعم المَعد (٢)

وكذلك كان شعراء اليمن يفخرون بصدق بلائهم في القتال الى جانب علي

---

١ ـ وقعة صفين ص ٣٤٨ . وشرح نهج البلاغة ٥٠٢/١ .

٢ ـ المصدران السابقان .

ويفخرون بانتمائهم الى الجذم القحطاني (١) . ولما اراد علي المسير الى صفين كانت رياسة كندة وربيعة للاشعث بن قيس الكندي ، ويبدو ان علياً لم يكن يطمئن كثيراً الى الاشعث فنزع منه الرياسة ، وصيّرها لحسان بن محدوج الحنفي فأغضب ذلك أهل اليمن وكاد الشر يتفاقم بين القبيلتين وعبّر شعراء كل منهما عن شعور قومهم ، فنرى النجاشي الحارثي مثلا يصوّر شعور أهل اليمن فيقول :

رضينا بما يرضى علي لنـا بـه ... وان كان فيما يأتِ جَدعُ المنـاخر

على أن في تلك النفوس حـزازةً ... وصدعاً يؤسّيه اكف الجوابر (٢)

وأراد معاوية انتهاز فرصة وقوع العصبية في جيش عليّ فأوعز الى احد الشعراء ان ينظم أبياتاً يحرّض فيها الاشعث وكندة على عليّ وربيعة ومنها :

إن ترض كنـدةُ حسّاناً بصاحبها ... يرض الدُناة وما قحطانُ بالهوجِ

ولكن أهل اليمن يقفون على مكيدة معاوية وينحسم الشر بتولية الاشعث ميمنة أهل العراق (٣) .

ومثل هذه العصبية نجدها في جيش معاوية ايضاً بين مضر واليمن ، ونجد صداها في شعر شعراء القبيلتين . فلما عقد معاوية لرجال من مضر وأمرهم على اليمن غمّ ذلك أهل اليمن وكرهوا ان يتأمر عليهم غيرهم فقام شاعرهم عبد الله بن الحارث السكوني وخاطب معاوية بقوله :

معـاويَ أحييت فينـا الإحَنْ ... وأحـدثتَ في الشـام ما لم يكنْ

عقـدتَ لبُسـر وأصحـابـه ... وما النـاس حولك الا اليمـنْ

---

١ ــ انظر وقعة صفين ص ٤٥١ .

٢ ــ وقعة صفين ص ١٥٣ .

٣ ــ وقعة صفين ص ١٥٥ .

فلا تخلطن بنـــا غـــيرنــــا كما شيب بالمـــاء محضُ اللبن
وإلا فـــدعنـــا على مالنـــا وإنـــا وإنـــا اذا لـــم نهـــن

الخ الابيــات ...

فاضطر معاوية الى ان يترضـاهم وينزع عنهم من أمرّهم عليهم من المضريين [1] .

وولى في احد ايام صفين عمرو بن العاص على قحطان فغضب القحطانية ان يولى عليهم رجل من غيرهم وقال شاعرهم :

معـاويَ إمـا تدْعنـا لعظيمة يلبس من نكرائها الغرضُ بالحقبْ
فول علينـا من يَحوط ذِمارنـا من الحِميريين الملوكِ على العـربْ
ولا تأمرنا بالتـي لا نريدهـا ولا تجعلنا بالهوى موضعَ الذنبْ [2]

وهكذا نرى ان الشعر لعب دوراً بارزاً في تأييد النعرات القبلية واثارة العصبيات في هذه الحقبة ، وتركت العصبية طابعها جلياً في اغراض الشعر وفنونه ومعانيــه عصرئذ .

* * *

١ ــ وقعة صفين ص ٤٨٢ . شرح نهج البلاغة ٢/٢٨٩ .
٢ ــ وقعة صفين ص ٥٠١ . شرح نهج البلاغة ٢/١٩٥ . الغرض : للرحل كالحزام للسرج . والحقب : الحزام يلي حقو البعـير .

الباب الثاني

العصبية القبلية
في عصر بني أمية

الفصل الأول

الأحوال القبلية في هذا العصر

١

مواطن التجمع القبلي في هذا العصر

ما كادت الدولة الاسلامية الناشئة تثبت اقدامها في ربوع الجزيرة العربية ، وتقضي على محاولات الانتقاض والارتداد التي ظهرت عقب وفاة الرسول عليه السلام ، حتى وجهت همها الى فتح الاقطار المجاورة لبلاد العرب تلبية لداعي الجهاد ، ولنشر الرسالة المحمدية في شتى البقاع، فأخذت الجماعات القبلية تغادر منازلها الاولى في بوادي الجزيرة وحواضرها ، مخلفة وراءها مشاهد الصحراءوالخيام والرمالالمنبسطة على مدى البصر، لتستقبل حياة جديدة ولتتخذ لها مواطن جديدة في البلاد المفتوحة . وقد وجدت القبائل العربية في هذه البلاد اقصى ما كان يطمع فيه العربي من توافر المياه والخصب وكثرة الخيرات (١) ، فكان من الطبيعي ان تؤثر الاقامة في هذه البقاع وان تتخذها وطناً جديداً لها ، فأخذت جموعهم تجلو عن مواطنها الاولى موجة إثر موجة لتستقر في شتى البلاد المفتوحة . وانطلق المارد العربي من قمقمه يقوض عروش الاكاسرة والقياصرة ويكتسح البلدان ويرفع الراية الاسلامية في الشرق والغرب . وسرعان ما دانت للدولة العربية اقطار واسعة الارجاء ممتدة الاطراف ، وسرعان ما استوطنت قبائل العرب هذه الاقطار فعمرت الحواضر والبوادي ، وأنشأت الامصار الجديدة كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان . وما لبثت هذه الامصار المحدثة ان نافست المواطن القبلية القديمة في جزيرة العرب فاجتذبت اليها معظم من كان ينزل بها من القبائل العربية .

---

١ ــ جاء في خطبة لخالد بن الوليد قالها بالعراق بعد هزيمة الفرس يوم الولجة قوله : « الا ترون الى الطعام كرفغ التراب . وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في سبيل الله والدعاء الى الله عز وجل ، ولم يكن الا المعاش لكان الرأي ان نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولي الجوع والاقلال من تولاه ممن أثاقل عما انتم عليه » (الطبري ٢/٥٥٩) .

وكان لهذه الهجرات الجماعية ولا ستيطان قبائل العرب الامصار المحدثة والاقطار المفتوحة آثار بعيدة المدى في حياة العرب الاجتماعية عامة وفي المجتمع القبلي خاصة . ومن ابرز هذه الآثار انتقال مراكز الاحتكاك القبلي من ربوع الجزيرة العربية الى هذه المواطن الجديدة ولا سيما العراق والشام وخراسان. ومنها اتساع نطاق التجمع القبلي في اطار روابط النسب الواسعة كالعدنانية والقحطانية ، والمضرية والربعية . ومنها تصدع الوحدة القبلية ، لان القبيلة الضخمة العدد قلما كانت تنزل برمتها في موطن واحد، وانما كانت تتفرق بطونها في مواطن متعددة ، الى غير ذلك من الآثار التي سنتحدث عنها في الفصول التاليـة .

وانه لمن اعسر الامور ان نحاول اقتفاء خطى القبائل العربية منذ بدأت موجات الجلاء الجماعية عن بلاد العرب في مطلع العصر الاسلامي ، وتتبع خط مسيرها ثم استقرارها آخر الامر في مواطنها الجديدة . فليس بين أيدينا من الوثائق والاخبار الوافية ما يعيننا على تحقيق هذا الامر ، فضلا عن ان الارقام التي تذكرها المصادر التاريخية والجغرافية والتي تسجّل عدد القبائل العربية النازلة في هذه المواطن لا تستند الى احصاء دقيق يطمأن الى صحته . ومع ذلك سنحاول ان نرسم مخططاً تقريبياً لمنازل القبائل العربية في مطلع العصر الاموي ، اعتمادا على الاخبار المستخلصة من شتى المصادر التي انتهت الينا، مع علمنا ان الصورة التي سنخرج بها لن تكون صورة شاملة ولا دقيقة في تحديدها معالم التوزع القبلي في تلك الحقبة . ونحب ان نسجل منذ الآن اننا سنوجه جلّ عنايتنا الى المواطن التي كان لها اثر بارز في الاحداث القبلية إبان العصر الاموي ، ولا سيما البصرة والكوفة وبلاد الشام والجزيرة وخراسان .

ومن الامور التي تستوقف الباحث حين يتتبع حركة الهجرات القبلية ان القبائل لم تسر في هجرتها وفق خطة موضوعة تحدد لكل قبيلة خط سيرها وموطن نزولها، وذلك لارتباط هذه الهجرات أول الامر بحركة الفتح . فالقبائل التي تندب لفتح قطر ما كان الامر ينتهي بها غالباً الى الاستقرار فيه،

وهي لذلك كانت خليطاً من قبائل شتى . فاذا نزلت هذه القبائل أحدالمواطن لتستقر به احتلت كل قبيلة خطة لها فيه . وبعد استقرار القبائل في خططها ربما لحقت بها جماعات اخرى فتنزل كل جماعة في خطة قبيلتها . ثم تندب القبائل لفتح مناطق اخرى فتفد من الجزيرة العربية موجات قبلية جديدة . وقد تنضم اليها جماعات من القبائل التي سبقت هجرتها ، فاذا حققت الحملة الجديدة غايتها من الفتح التمست لها موطناً تستقر فيه . وهكذا نجد ان حركة الاستيطان القبلي لم تكن تسير وفق خطة ملتزمة ، وهذا يفسر لنا سبب اختلاط العناصر القبلية المختلفة في مراكز التجمع القبلي المحدثة ، كما يفسر لنا نزول بطون القبيلة الواحدة مواطن شتى . ولو ان هذه الهجرات لم تكن مرتبطة بحركة الفتح لكان من المحتمل ان نجد القبيلة تنزل برمتها في موطن واحد حرصاً على وحدتها وتماسكها .

على ان القبائل كانت تفصح في بعض الاحيان عن ايثارها مهاجَراً على آخر ، وقتال قوم من المشركين دون آخرين . ووراء هذا الاختيار تكمن نزعات قبلية وعوامل اخرى تتصل بالبيئة والجوار والعادات المألوفة وغير ذلك . وهكذا حين اراد عمر ندب الناس مع سعد بن وقاص لقتال الفرس اراد اهل اليمن التوجه الى الشام موطن اسلافهم وكرهوا المسير الى العراق ، فاضطر عمر إزاء إصرارهم ، الى توجيه شطرهم الى الشام وشطرهم الآخر الى العراق (١) . ولوحظ بصورة عامة ان اهل اليمن كانوا ينزعون الى الشام ومضر تنزع الى العراق (٢) . الا أن عمر لم يستجب دائماً لهذه الرغبات ، فكانت جيوشه خليطاً من قبائل شتى . ولنزول القبائل الربعية منذ العصر الجاهلي على حدود بلاد فارس ولما كان لها من تجارب سابقة في قتال الفرس ، كانت تؤثر قتالهم على قتال غيرهم . ولم يكن أحد أجرأ على فارس من

---

١ ـ تاريخ الطبري ٣/٥ .
٢ ـ الطبري ٣/٧ .

ربيعة (١) ، ولذلك كانت طلائع جيوش العرب في قتال أهل فارس كلها من هذه القبيلة (٢) . وكان للفرس في نفوس العرب عامة صورة تدعو للرهبة موروثة عن العصر الجاهلي فكانوا يتحامون قتالهم ويكرهون السير الى العراق (٣) ، ولا سيما بعد هزيمة ابي عبيد الثقفي يوم الجسر ، ولذلك وجد عمر صعوبة كبيرة في ندب قبائل العرب لقتال الفرس حتى هم ان يغزوهم بنفسه (٤) .

القبائل العربيــة في العراق

كانت تنزل العراق منذ العصر الجاهلي طوائف من القبائل العربية اعتنق جلها النصرانية من إياد وبكر وتغلب والنمر وقضاعة ولخم وغيرها (٥) . وحين قامت الفتوح الاسلامية اعتنق الاسلام جماعة منهم وانضموا الى المسلمين في قتالهم الاعاجم ، ومن ظاهرهم من القبائل العربية التي ظلت على نصرانيتها . ومن هؤلاء المثنى بن حارثة الشيباني ، وكان يغير على السواد في رجال من قومه ، ثم أسلم ودعا قومه الى الاسلام ، فولاه ابو بكر قتال الاعاجم ، حتى قدم خالد بن الوليدالعراق فانضم اليه(٦) . وصنع قطبة بن قتادة السدوسي بالبصرة صنيع المثنى بالحيرة ثم انضم كذلك الى خالد حين قدم العراق (٧) . ولما فتح خالد الحيرة صالحه من كان فيها من نصارى العرب واشترط عليهم خالد ان يكونوا عيوناً للمسلمين على أهل فارس (٨) . وكان في جيش فارس الذي قاتل خالداً يوم الوَلجة عدد من عرب الضاحية ومن نصارى بكر بن وائل (٩) . وفي وقعة اليس التي أعقبت الولجة اجتمع نصارى العرب من بني

١ ــ الطبري ٣/٨ .
٢ ــ فتوح البلدان ٢/٢٩٥ .
٣ ــ الطبري ٢/٦٣١ .
٤ ــ فتوح البلدان ٢/٣١٠ .
٥ ــ انظر مواطن القبائل في العصر الجاهلي .
٦ ــ فتوح البلدان ٢/٢٩٥ . الطبري ٢/٥٥٢ .
٧ ــ فتوح البلدان ٢/٢٩٥ . الطبري ٢/٥٥٣ .
٨ ــ فتوح البلدان ٢/٢٩٧ . الطبري ٢/٥٦٥ .
٩ ــ الطبري ٢/٥٦٠ .

عجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية وأهل الحيرة تحت لواء عبد الأسود العجلي وقاتلوا المسلمين مع الفرس (١) . ووجد خالد حين فتح الانبار جماعة من العرب فيها يزعمون انهم بقايا طوائف من العرب نزلوا الانبار منذ أيام بختنصر(٢) . ولقي خالد في سوق فوق الانبار جماعة من كلب وبكر وقضاعة (٣) . ولما قدم خالد عين التمر قاتله من كان فيها من نصارى العرب من النمر وتغلب واياد وغيرهم (٤) .

هذه القبائل كانت نواة قبائل العرب التي استوطنت العراق منذ العصر الاسلامي ثم انضمت اليها القبائل التي وجهها ابو بكر وعمر لفتح العراق ، وجلها من ربيعة ومضر (٥) . ووجه عمر همه منذ بدء ولايته الى فتح العراق وأخذ يندب الناس اليها مع المثنى بن حارثة . وكان اول بعث وجهه عمر الى العراق بعث ابي عبيد بن مسعود الثقفي – ابي المختار – في ألف رجل من أهل المدينة وممن حولها (٦) ، ثم ندب أهل الردة وكان ابو بكر قد أبى الاستعانة بهم في الفتوح ، فأقبلوا سراعاً من كل أوب فرمى بهم الشام والعراق (٧) . وتتابعت البعوث بعد ذلك من شتى قبائل العرب . وليس بين ايدينا ما يعيننا في معرفة قبائل العرب التي قدمت العراق وزمن قدومها وعددها على وجه مفصل دقيق ، وإنما نجد في مختلف المصادر إشارات عابرة واخباراً متفرقة نستلخص منها اسماء القبائل التي نزلت العراق وأعدادها على وجه التقريب .

---

١ – الطبري ٥٦٠/٢ .
٢ – الطبري ٥٧٦/٢ .
٣ – فتوح البلدان ٣٠٢/٢ . الطبري ٦٥٥/٢ .
٤ – الطبري ٥٧٦/٢ .
٥ – الطبري ٥٢/٣ .
٦ – الطبري ٦٣٣/٢ .
٧ – الطبري ٦٣٤/٢ .

وقد كان لهزيمة المسلمين يوم الجسر بعض الاثر في تثبيط القبائل عن التوجه الى العراق . وحين قدمت بجيلة على عمر (عام ١٣ هـ) أرادوا المضي الى الشام ــ مواطن اسلافهم ــ فأبى عمر عليها الا العراق . ولكي يرغبها عمر في اختيار العراق جعل لها ربع ما غلبت عليه (١) . وكذلك حين قدمت عليه طوائف من الازد ، عامتهم من بارق ، يريدون الشام دعاهم الى العراق وما زال بهم حتى قبلوا (٢) . واخذ عمر يوجه الامداد الى المثنى من جميع قبائل العرب التي كانت تفد عليه تنشد الجهاد ، وكان فيمن وجههم اليه طوائف من الرباب وخثعم وبني حنظلة بن تميم وبني عمرو بن تميم ، وضبة وعبد القيس(٣). وقبيل القادسية وجه عمر امداداً أخرى كثيرة الى العراق. وكان همّ ان يسير بنفسه لقتال الفرس ولكن بعض الصحابة ثنوه عن ذلك فوجه اليهم سعد بن ابي وقاص (٤) ، وكان عداد جيش سعد حين توجه الى العراق أربعة آلاف مقاتل ، منهم ألف من قيس عيلان وسائرهم من اليمن(٥). ثم أمد عمر سعداً بعد خروجه بألفي يماني وألف نجدي من قيس (٦) ، وانتخب سعد من بني تميم ثلاثة آلاف ومن الرباب ألفاً ومن بني أسد ثلاثة آلاف وأنزلهم على حدود أرضهم بينه وبين المثنى . وكان مع المثنى ستة آلاف من بكر والفان من سائر ربيعة ، وألفان من بجيلة وألفان من قضاعة وطيء(٧). ثم قدم على سعد الاشعث بن قيس الكندي في ألف وسبعمائة من أهل

---

١ ــ فتوح البلدان ٣١٠/٢ وفي الطبري انه نفلهم ربع خمس ما افاء الله على المسلمين الى نصيبهم من الفيء (٦٤٦/٢) .

٢ ــ فتوح البلدان ٣١٠/٢ . الطبري ٦٤٧/٢ .

٣ ــ الطبري ٦٤٧/٢ .

٤ ــ الطبري ٣/٣ .

٥ ــ يفصل الطبري عدد قبائل اليمن هذه على النحو التالي : ٦٠٠ من حضر موت و ١٣٠٠ من شتى بطون مذحج و ٤٠٠ من كندة و ٧٠٠ من أزد السراة (٥/٣) .

٦ ــ الطبري ٧/٣ .

٧ ــ الطبري ٧/٣ .

اليمن . وقد انضم الى هؤلاء جميعاً من كان مع خالد بالشام من أهل العراق وكان عددهم زهاء ستة آلاف : خمسة آلاف من مضر وربيعة وألف من يمن الحجاز (١) ، فبلغ جمع المسلمين في وقعة القادسية بضعة وثلاثين ألفاً (٢) .

ولهذه الاحصاءات قيمتها في معرفة اسماء القبائل التي نزلت العراق وتقدير اعدادها على وجه التقريب ، وان كنا لا نستطيع الاطمئنان الى دقتها التامة . وهذه القبائل التي اشتركت في موقعة القادسية كانت نواة القبائل التي نزلت الكوفة عند تمصيرها ، وفيهم فرسان العرب يومئذ ووجوهها وبيوت الشرف فيها ، ثم انضمت اليهم جماعات من قبائل اخرى ، من تغلب والنمر وإياد وغيرها (٣) .

وقد تم تمصير الكوفة عام ١٧ للهجرة في أرجح الاقوال (٤) ، وكان سعد قد كتب الى عمر ان الناس قد بَعِضوا في اماكنهم التي نزلوها بعد الفراغ من القادسية وفتح المدائن ، فكتب اليه عمر أن يتخذ لهم دار هجرة والا يجعل بينه وبينهم بحراً ، فاختار موضع الكوفة قريباً من الحيرة ، ويقال ان عبد المسيح بن بقيلة هو الذي دلّه على موضعها ، وكانت تعرف قبل بسورستان ، وقد تولى اختطاطها ابو الهياج الاسدي . وتذكر بعض الروايات أنهم حين أرادوا إنزال القبائل في منازلها أسهموا لنزار واليمن ، فصارت خطط اهل اليمن في الجانب الشرقي من الكوفة وخطط نزار في الجانب الغربي منها(٥) .

---

١ ــ الطبري ٥٢/٣ .
٢ ــ الطبري ٧/٣ وبين المؤرخين خلاف في عدد المسلمين يوم القادسية .
٣ ــ انظر الطبري ١٤٥/٣ .
٤ ــ انظر خبر تمصير الكوفة في فتوح البلدان ٢٢٨/٢ . وتاريخ الطبري ١٤٤/٣ .
٥ ــ فتوح البلدان ٢٣٩/٢ .

ونقل عن الشعبي أن أهل اليمن كانوا حينئذ اثني عشر ألفاً في حين كانت نزار ثمانية آلاف(١) ، ويظهر ان عدداً من القبائل والبطون النزارية آثر النزول في البصرة وغيرها من مدن العراق ، ولذلك اصبحت الغلبة العددية في الكوفة لاهل اليمن . وحسب رواية الشعبي هذه يكون عدد اهل الكوفة عندتمصيرها زهاء عشرين ألفاً ، وهذا يناقض ما جاء في خبر آخر من ان عددهم بلغ ثلاثين ألفاً (٢) ، فينبغي اذن ان نقف من هذه الاحصاءات كلها موقف الاحتراس والحـذر .

وكانت القبائل العربية التي استوطنت الكوفة تضم صفوة الارستقراطية العربية وبيوت الشرف المعروفة منذ الجاهلية واعلام رؤسائها . ولم تكـن البصرة في أول أمرها الا معسكراً صغيراً لحماية جيوش المسلمين من غـارات الاعاجم . ومن البيوت العريقة الشرف التي استوطنت الكوفة آل زرارة بن عُدُس من تميم ، وآل ذي الجدّين من ذُهل بن شيبان ، وآل حذيفة بن بدر الفزاريون من قيس عيلان ، وآل الاشعث بن قيس من كندة . وهذه البيوت الاربعة يجمع أهل النسب على انها كانت موئل الشـرف وبيوت العرب في الجاهلية (٣) .

وقد نزل الكوفة فضلا عن هذه القبائل العربية جماعة من الديلم قيل انهم كانوا مع رستم يوم القادسية ثم استأمنوا سعداً واعتنقوا الاسلام واشترطوا على سعد ان ينزلوا حيث أحبوا ويحالفوا من شاءوا من قبائل العرب ويفرض لهم في العطاء . فأجابهم سعد الى ما طلبوا فنزلوا الكوفة وحالفوا زهرة بن حوِيّة السعدي التميمي . ولعلهم جاروا في محالفتهم بني تميم اخوانهم الاساورة في البصرة . وثمة رواية اخرى تذكر انهم كانوا في حصن قزوين يوم

---

١ ــ فتوح البلدان ٣٣٩/٢ .

٢ ــ الطبري ١٧٣/٣ .

٣ ــ العمدة لابن رشيق ١٨٣/٢ . الاغاني ١٠٥/١٧ . كتاب البلدان لابن الفقيه ص ١٧٣ .

فتحها المسلمون ، وانهم صالحوا المسلمين على مثل شروط الاساورة بالبصرة، فنزلوا الكوفة وحالفوا زهرة بن حوية (١) . وحين كثر عدد هؤلاء «الحمراء» فيما بعد سير زياد شطراً منهم الى بلاد الشام بأمر معاوية ، وشطراً الى البصرة ، فدخلوا في الاساورة (٢) .

ولم تكن الكوفة والبصرة عند إنشائهما الا معسكرين تتجمع فيهما الجيوش العربية لغزو الاقاليم الشرقية ، ولذلك روعيت في توزيع المقاتلة فيهما الاعتبارات الحربية ، فقسم جند الكوفة أول الامر الى أعشار . ويظهر ان نظام تعبئة الجند أعشاراً كان معروفاً منذ زمن الرسول عليه السلام (٣) . وروعي في توزيع الاعشار المبدأ القبلي ، فكل قبيلة او زمرة من القبائل التي ترجع الى اصل واحد تؤلف عشراً . وهذا الاسلوب القبلي في التعبئة كان يساعد على سرعة استنفار الجند وتسهيل توزيع العطاء والفيء عليهم .

ولا نجد في المصادر التي انتهت الينا ذكراً لاسماء القبائل التي تألفت منها الاعشار وانما ذكر الطبري ان هذه الاعشار التي كان يراعى فيها التقارب العددي قد رجح بعضها بعضاً رجحاناً كثيراً بعيد تمصير الكوفة ، فكتب سعد الى عمر في تعديلها فأقر عمر رأيه . فأرسل الى قوم من نساب العرب وذوي رأيهم فحولوا أعشار الكوفة الى أسباع على النحو التالي :

١ ــ كنانة وحلفاؤها من الاحابيش وغيرهم وجديلة (فهم وعدوان) .

٢ ــ قضاعة . وبجيلة . وخثعم . وكندة . وحضرموت . والازد (٤).

---

١ ــ فتوح البلدان ٣٩٤/٢ .

٢ ــ فتوح البلدان ٣٤٣/٢ .

٣ ــ الطبري ٨/٣ .

٤ ــ يستدل مما سبق من اخبار نزول القبائل العربية العراق ان طلائع القبائل الازدية التي نزلت العراق واستوطنت الكوفة هي من أزد السراة : بارق وغامد وبطون دوس وغيرها (انظر الطبري ٦٤٧/٢ ، ٥/٣) .

٣ ــ مذحج وحمير وهمدان ، وحلفاؤهم .

٤ ــ تميم ، والرباب ، وهوازن .

٥ ــ اسد وغطفان ومحارب . والنمر . وضبيعة . وتغلب .

٦ ــ إياد . وعك . وعبد القيس . وأهل هجر والحمراء (١) .

وقد أغفل الطبري السبع الاخير واستظهر ما سينيون انه قبيلة طيء(٢)، استناداً الى تصنيف القبائل في اسباع الكوفة كما نجده في زمن علي بعدئذ(٣). فقد وجد ان قبيلة طيء وحدها هي التي لم يرد ذكرها في تعداد قبائل الاسباع. ولكننا نلاحظ ان قبيلة بكر ايضاً قد اغفل ذكرها في هذه الاسباع ، وقد اصبحت فيما بعد مع أختها تغلب سبعاً مستقلا . هذا الى ان علياً أحدث تعديلا في توزيع قبائل الاسباع حين قدم الكوفة. فلا يمكننا اذن الاطمئنان الى صحة استنتاج ماسينيون ، ولاسيما أن الاسباع كان يراعى فيها الى حد ما التقارب العددي، وما وقفنا عليه من اخبار القبائل التي نزلت الكوفة لا يدل على انه كان لطيء هذا العدد الضخم الذي يسوغ إفرادها في سبع مستقل . والمرجح عندنا ان تصنيف الطبري لهذه الاسباع قد وقع فيه بعض الاضطراب ، وان الصورة التي قدمها لنا جاءت ناقصة الاجزاء وغير دقيقة سواء في تحديدها توزع القبائل الى اسباعها ، او في استيفائها اسماء جميع قبائل الكوفة .

ومن الواضح ان المبدأ القبلي هو الذي اتبع في توزيع هذه الاسباع . فقد وزعت القبائل القحطانية على اسباع ثلاثة، وتوزعت القبائل العدنانية واحلافها من الحمراء واهل هجر الاسباع الباقية . ونلاحظ ان توزيع القبائل العدنانية

---

١ ــ الطبري ٣/١٥١ .

٢ ــ خطط الكوفة لماسينيون ترجمة المصعبي ص ١١ .

٣ ــ انظر وقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ١٣١ . والاخبار الطوال للدينوري ص ١٥٥ .

لم يراع فيه جمع القبائل التي تنتمي الى أصل واحد في زمرة واحدة. فقبيلة قيس عيلان مثلا نجدها مفرقة في الاسباع الاول والرابع والخامس ، وكذلك ربيعة في الخامس والسادس . ولعلهم راعوا في هذا التصنيف مواطن نزول القبائل في الكوفة .

وقد ظل نظام الاسباع متبعاً في الكوفة نيفاً وثلاثين عاما حتى قدم زياد والياً على الكوفة فصيّرها أرباعاً . ولكن توزيع القبائل على الاسباع قد دخل عليه تعديل خلال هذه الحقبة وذلك لان عدد القبائل كان عرضة لتغير متصل نتيجة الهجرات المستمرة والحروب الداخلية والفتوح . ويظهر ان الكثرة العددية في ايام علي أصبحت لقبيلة همدان (١) . وقد تم تعديل الاسباع قبيل وقعة الجمل ــ ٣٦ هـ ــ على النحو التالي :

١ ــ همدان وحمير .

٢ ــ مذحج والأشعرون وطيء .

٣ ــ قريش وكنانة وأسد وتميم والرباب ومزينة .

٤ ــ قيس وعبد القيس .

٥ ــ كندة وحضر موت وقضاعة ومهرة .

٦ ــ الازد وبجيلة وخثعم وخزاعة والانصار .

٧ ــ بكر وتغلب وافناء ربيعة (٢) .

---

١ ــ وقعة صفين ص ٣٤٨ .

٢ ــ ذكر الطبري خمسة من هذه الاسباع وأمراءها (٥١٣/٣) وذكر الدينوري (الاخبار الطوال ص ٥٥) هذه الاسباع ولكنه جعلها ثمانية اذ جعل طيئاً سبعاً ثامنا مستقلا . اما نصر بن مزاحم فقد ذكر الاسباع يوم صفين فجعل طيئاً سبعاً مستقلا وأغفل سبع بكر وتغلب وربيعة . ولكن اخبار وقعة صفين تؤيد ان طيئاً كانت مع مذحج ، دعوتهما واحدة ولكن تختلف الرايتان (وقعة صفين ص ١٣١) . والتصنيف الذي ذكرناه يوفق بين مختلف الروايات (انظر خطط الكوفة ص ١١) .

وقد ذكروا ان ربيعة كانت مع عليّ يوم الجمل ثلث اهل الكوفة ،ونصف من شارك في القتال (١) ، ولا شك ان موقعة الجمل قد أنقصت عدد سكان المصرين إنقاصاً ملحوظاً، اذ بلغ عدد القتلى من الفريقين يومئذ زهاء عشرة آلاف أو يزيدون (٢) .

وحين توجه علي لقتال معاوية في صفين كانت أسباع الكوفة على مابيّناه في وقعة الجمل . الا ان تعبئة الجيش روعي فيها توحيد القبائل التي تنتسب الى اصل واحد من اهل البصرة والكوفة فجعلت يمن الكوفة والبصرة في الميمنة ، والميسرة لربيعة المصرين ، والقلب لمضر(٣) . وقد قدم لنا نصر بياناً اصحاب الالوية القبلية يومئذ (٤) ، ولهذا البيان قيمته في تعريفنا بقبائل وافياً باسماء القبائل التي شاركت في القتال من أهل الشام والعراق واسماء العراق والشام في تلك الحقبة واسماء الرؤساء البارزين فيها .

وقد لاحظ بعض الباحثين أنه لم يكن مع علي يوم صفين من رؤساء قريش سوى خمسة ، بينما انحاز الى جانب معاوية ثلاثة عشر بطناً من بطون قريش والويتها (٥) .

وقد ازداد عدد سكان الكوفة منذ تمصيرها حتى زمن عليّ زيادةسريعة، فبلغ عدد مقاتلة العرب الذين أعدهم عليّ لقتال معاوية سبعة وخمسين ألفاً من العرب ، وثمانية آلافمن الموالي(٦). وفينفس الوقت كان عدد سكانالبصرة

---

١ ــ الطبري ٣/٥٣٤ .

٢ ــ الطبري ٣/٥٤٣ ــ ٥٤٧ .

٣ ــ وقعة صفين ص ٢٣١ . والطبري ٤/٢٤ .

٤ ــ وقعة صفين ص ٢٣١ .

٥ ــ خطط الكوفة ص ١٢ .

٦ ــ الطبري ٤/٥٩ .

يتزايد على نحو أسرع . ويستخلص من خبر استنفار ابن عباس اهل البصرة بعد التحكيم ان عددهم بلغ ستين ألفاً سوى ابنائهم وعبدانهم ومواليهم (١).

وحين تم الامر لمعاوية ودان العراق لحكمه ظلت أسباع الكوفة على حالها. ولا نجد في المصادر التاريخية ما يدل على ان تعديلا ما قد طرأ على الاسباع قبل مقدم زياد والياً عليها عام ٥٠ للهجرة . وقد ذكر الطبري وغيره ان زياداً ربع اهل الكوفة بعد اذ كانوا اسباعاً(٢). ولكن المؤرخين لم يتحدثوا عن الدوافع التي حملت زياداً على تغيير نظام الاسباع وعلى جمع القبائل المتباينة النسب في ربع واحد . ولبعض الباحثين الغربيين آراء بهذا الصدد متعارضة نعود اليها بعد . وقد جعل زياد أرباع الكوفة على النحو التالي :

١ ـ تميم وهمدان .

٢ ـ ربيعة وكندة .

٣ ـ مذحج وأسد .

٤ ـ أهل المدينة (قريش وكنانة والازد وبجيلة وخثعم وقيس عيلان ومزينة (٣)) .

ونلاحظ ان هذا التصنيف أغفل ذكر بعض القبائل التي جاء ذكرها في الاسباع قبل ، كحمير وطيء والاشعر وغيرها . وهذا ينبىء ان زياداً الحق

---

١ ـ الطبري ٤/٥٨ .

٢ ـ الطبري ٣/١٥٢ . العقد الفريد ٥/٨ . وقد اخطأ الطبري حين ذكر في موضع آخر (٥/٢٣٠) ان اهل الكوفة كانوا اخماسا قبل أن يربعهم زياد وانما كانوا اسباعاً .

٣ ـ الطبري ٤/١٩٩ ـ ٥/٣٢٩ وقد أخطأ ماسينيون حين سمى الربع الاخير : اهل العالية (خطط الكوفة ص ١٦) فخمس اهل العالية كان في البصرة وهو يقابل ربع اهل المدينة بالكوفة (الطبري ٥/٣٢٩) .

القبائل القليلة العدد بالكوفة بالقبائل الكبيرة التي تتصل بها في النسب ، كما ردّ طائفة اخرى من القبائل الى اصولها فوحد دعوتها . فألحق مثلا قبائل قضاعة ومهرة وحضرموت بكندة ، وألحق حمير بهمدان ، والأشعر وطيء بمذحج . ويلاحظ ايضاً ان ربع اهل المدينة قد جمع قبائل شتى مضرية ويمنية، ولكن كان يجمع بينها انها كلها كانت تستوطن الحجاز في العصر الجاهلي .

وحين نقف على اسماء رؤوس الارباع ايام زياد نتبين ان الدولة لم تعد تلزم نفسها باختيار رؤوس الأرباع من قبائل الأرباع نفسها(١)، وسنتحدث بعدُ عن الدوافع التي حملت زياداً وغيره على سلوك هذه الخطة .

وقد طرأ تعديل أساسي على احوال القبائل العربية في المصرين إبان ولاية زياد ، اذ انه اراد ان يخفف من شدة الضغط القبلي في العراق فحوّل عام ٥١ هـ مع الربيع بن زياد خمسة وعشرين الفاً بعيالهم من أهل البصرة ومثلهم من أهل الكوفة فأنزلهم دون النهر بخراسان وكان هؤلاء نواة القبائل العربية التي استوطنت هذا المصر (٢) . وكذلك امر معاوية بتحويل جانب من الحمراء الذين كثر عددهم في المصرين الى الشام وأنزلهم انطاكية والسواحل (٣) .

وقد ظل نظام الارباع قائماً في الكوفة بعد ذلك طوال عهد بني أمية . ونجد في المصادر التاريخية إشارات إلى هذه الارباع وأسماء رؤوسها في سياق الحديث

---

١ ــ جعل زياد عمرو بن حريث المخزومي على ربع اهل المدينة ، وقيس بن الوليد بن عبد شمس على ربع ربيعة وكندة وخالد بن عرفطة العذري مولى بني زهرة على ربع تميم وهمدان ، وأبا بردة بن ابي موسى الاشعري على ربع مذحج واسد (الطبري ١٩٩/٤) .

٢ ــ الطبري ٥٠٧/٣ ــ ١٧٠/٤ .

٣ ــ فتوح البلدان ١٣٩/١ ــ ٤٦٣/٢ .

عن بعض الاحداث التي شهدتها الكوفة في هذا العصر [١] . ويستفاد من بعض الاخبار ان التفوق العددي ظلّ في هذا العصر في جانب همدان ومذحج [٢].

وتذكر بعض الاخبار ان البصرة مُصّرت قبل موقعة القادسية ، في عام ١٤ هـ على الارجح[٣] ، وان عمر وجه عتبة بن غزوان المازني في بضع مئات من المقاتلة الى ناحية البصرة ، ليشغل من هناك من اهل الاهواز وفارس وميسان عن إمداد اخوانهم ، فأتاها عام ١٤ هـ وانضم اليه سويد بن قطبة الذهلي ــ او قطبة بن قتادة ــ ومن كان معه من بكر بن وائل وبني تميم [٤]. ثم أمد عمر عتبة بالرجال بعدئذ . وثمة اخبار اخرى تجعل تمصير البصرة متأخراً عن هذا التاريخ في سنة ١٦ او ١٧ للهجرة [٥] .

وتغيب عنا اخبار القبائل التي نزلت البصرة عند تمصيرها ، على انه من المحقق ان عدد سكان البصرة اخذ يتزايد تزايداً سريعاً منذ استقرت فيها أقدام الرواد الاوائل، اذ اننا نجد قبائلها لا تلبث ان تشارك في الفتوح الشرقية مشاركة فعالة ، ويناط باحد رؤسائها ، وهو الاحنف بن قيس سيد تميم ، أمر فتح خراسان [٦] .

---

١ ــ انظر مثلا الطبري ٥/٤٩٩ . وانساب الاشراف ١١/٦ .

٢ ــ انظر الطبري ٤/١١ .

٣ ــ فتوح البلدان ٢/٤٢٥ . الطبري ٣/٨٩ .

٤ ــ فتوح البلدان ٢/٤١٩ . الطبري ٣/٩ .

٥ ــ الطبري ٣/٩٠ و ٣/٤٧ ويمكن تفسير هذا الاختلاف بما ذكره الطبري من ان اهل البصرة لم يستقروا فيها الا عام ١٧ هـ بعد ثلاث نزلات قبلها كانوا ينزلونها ثم يرتحلون (٣/١٤٧) وفي الواقع ان البصرة لم تأخذ صفة المصر منذ بدء نزول العرب فيها ، اذ لم تكن حينئذ سوى معسكر لصد غارات الفرس . وذهب شارل بلا الى ان التنافس بين مؤرخي البصرة والكوفة هو سبب اضطراب الاقوال في تاريخ تمصير هاتين المدينتين (انظر الجاحظ ص ٢٢ تعريب الكيلاني) .

٦ ــ الطبري ٣/١٨٩ .

وكان من دواعي تزايد سكان البصرة على هذا النحو السريع نزوح القبائل التي كانت مواطنها قريبة منها في الجاهلية اليها واستقرارها فيها وفي طليعتها تميم وبكر وعبد القيس . ويستدل من بعض الاخبار ان طليعة من نزلها اول الامر كانوا من تميم وربيعة والازد . فقد ذكروا ان الاساورة حين قدموا البصرة بعد فتح السوس وتستر ، كانوا على ان يحالفوا الازد ، ثم تركوهم وحالفوا بني تميم لانهم أقرب نسباً الى رسول الله [1] . وفي خبر آخر عن المدائني ان شيرويه الاسواري أراد ان ينزل في بكر بن وائل مع خالد بن المعمّر فأبى سياه ذلك فنزلوا في بني تميم . وحسب رواية المدائني هـذه لم يكن الازد نزلوا البصرة يومئذ ولا عبد قيس [2] .

وبدلا من نظام الاعشار الذي اتبع في الكوفة أول الامر اتبع في البصرة نظام الاخماس ، وقد ظل هذا النظام قائماً فيها طوال العصر الاموي دون ان يطرأ عليه او على توزيع القبائل فيه أي تعديل . ونحن نرجح ان استقرار التوزيع القبلي في البصرة مرده الى قلة تنوع القبائل التي استقرت فيها ، على نقيض ما وجدنا في الكوفة ، والى ان الكتل القبلية البارزة فيها وهي تميم والازد وربيعة ظلت لها الغلبة العددية في هذا العصر طوال عصر بني امية . وكانت اخماس البصرة تضم القبائل التالية :

١ ــ تميم وضبّة والرِباب .

٢ ــ عبد القيس .

٣ ــ بكر بن وائل .

٤ ــ الأزد .

---

١ ــ فتوح البلدان ٢/٤٥٩ .

٢ ــ فتوح البلدان ٢/٤٦٠ وفي الاصل عبد شمس وهو تحريف .

٥ ــ أهل العالية (وهم قريش وكنانة وقيس عيلان والانصار وطوائف من قبائل اخرى [١] .

وقد ذهب ولهوزن وتابعه في ذلك شارل بلا الى ان قبائل الازد التي نزلت البصرة في الحقبة الاولى كانت من أزد السراة ، شأن قبائل الكوفة ، وان أزد عمان لم يقدموا البصرة الا في عام ٦٠ للهجرة [٢] . ولكننا نجد في الواقع ان أزد عمان نزلوا البصرة قبل هذا التاريخ ، بل نحن لا نجد ذكراً لغيرهم في الحقبة الاولى . ففي وقعة الجمل كان رؤساء الازد الثلاثة منهم [٣] ، وجميع رؤساء أزد البصرة الذين نجد ذكراً لهم في المصادر التاريخية كانوا من أزد عمان ، بخلاف ما نجد في الكوفة فان كثرة من نزلها كانت من أزد السراة .

وقد حقق ماسينيون منازل كل من اخماس البصرة ومواقعها من الدساكر السبع القديمة التي كانت في موضع البصرة قبل تمصيرها [٤] .

وفي حين كان عدد سكان الكوفة عند تمصيرها يجاوز العشرين ألفاً كان سكان البصرة حين أنشئت لايجاوزون بضع مئات . ولكنها استطاعت اجتذاب

---

١ ــ الطبري ٤٧٨/٤ ــ ٥٥٩/٤ ــ ٣٣٠/٥ . وقعة صفين ص ١٣١ . وقد جعل شارل بلا لقبيلة تميم الشأن الاول بين قبائل البصرة فهم مؤسسو البصرة الحقيقيون . ويستدل من طبقات ابن سعد ان الطبقة الفكرية والسياسية والدينية في القرن الاول للهجرة هي في غالبيتها من تميم . وتميم هي التي أعطت البصرة طابعها السني (الجاحظ ، شارل بلا ص ٥٣) .

٢ ــ ولهوزن : ص ٢١٨ . الجاحظ لشارل بلا ص ٥٤ .

٣ ــ جاء في الطبري (٥١٦/٣) ان الازد كانت يومئذ على ثلاثة رؤساء : صبرة بن شيمان ومسعود وزياد ابني عمرو . والاول من الحدان وهم من أزد عمان . والآخران من العتيك وهم ايضا من أزد عمان (انظر صفة جزيرة العرب للهمداني ص ٢١١) . ويظهر ان خطأ ولهوزن مرده الى اعتباره صبرة بن شيمان من بطن دوس ودوس كثرتها في السراة ، الا ان عشيرة الحدان ليست من دوس وانما من غالب بن عثمان بن نصر بن زهران (انظر جداول الانساب وجمهرة ابن حزم ص ٣٦٤) .

٤ــ انظر خطط الكوفة ص ٣٨ .

عددمن مهاجرة العرب اكثر ممن اجتذبتهم الكوفة . وسرعان مانافست أختها في عدد نازلتها وبذّتها ، فاذا كانت وقعة الجمل وجدنا اصحاب عائشة من اهل البصرة ، وقد فارقهم من قبائلها عبد القيس واعتزل القتال بنو سعد، يبلغ عددهم زهاء ثلاثين ألفاً في حين كان انصار علي من اهل الكوفة والبصرة دونهم عدداً يومئذ ، حسبما تذكر احدى الروايات (١) . وبعيد وقعة صفين كان عدد مقاتلة البصرة زهاء ستين ألفاً سوى ابنائهم في حين بلغ عدد مقاتلة الكوفة سبعة وخمسين ألفاً مع ابنائهم (٢) . وأحصى ديوان الجند ايام زياد مقاتلة البصرة فبلغوا ثمانين ألفاً وعيالهم مائة وعشرين الفاً ، وبلغ عددمقاتلة الكوفة يومئذ ستين ألفاً وعيالهم ثمانين ألفاً (٣) .

وعلى الرغم من هذه الزيادة المطردة ظلت البصرة محافظة على التوزيع القبلي الذي عرفته منذ نشأتها . فلم تفد اليها – فيما يبدو – موجات طارئة واسعة النطاق من قبائل جديدة غير التي كانت تنزلها في اول امرها . ولو انها استقبلت مثل هذه الهجرات لكان من المرجح ان تترك اثراً في التوزيع القبلي فيها . وقد ازداد عدد الازد في البصرة اثر موجة طارئة منهم نزلت البصرة في اواخر عهد معاوية واول عهد يزيد (٤) ، وأدى نزولهم البصرة حينئذ الى

---

١ – الطبري ٩٧/٣ .

٢ – الطبري ٥٨/٤ .

٣ – فتوح البلدان ٤٢٩/٢ .

٤ – الطبري ٣٩٧/٤ . ورواية الطبري لهذا الخبر مضطربة وهي توهم ان الازد لم ينزلوا البصرة قبل هذا التاريخ . ولكن الطبري لم يقصد هذا وقد حدثنا قبل عن نصرة ازد البصرة لعائشة وينبغي ان نفهم من الخبر ان الازد كانوا آخر من نزل البصرة عند تمصيرها ، وان من نزل منهم البصرة في مطلع عهد يزيد انما كانوا موجة طارئة من مهاجرتهم .

أختلال ميزان القوى القبلية فيها. فسارعت ربيعة الى محالفة الازد استظهاراً بهم على مضر التي كان لها الغلبة العددية في ذلك المصر (١) .

وقد انضم الى قبائل العرب في البصرة جماعات من الاساورة والزط والسيابجة . وكان اول من قدم منهم البصرة الاساورة . وقد ذكروا ان سياه الاسواري كان على مقدمة يزدجرد فلما رأى ظهور الاسلام وانتشار الفتوح العربية في بلاد فارس عرض على ابي موسى الاشعري ان يدخل وقومه في الاسلام على ان يقاتلوا الاعاجم مع المسلمين ، وعلى انه ان وقع قتال بين العرب لم يشتركوا فيه . كما اشترطوا على ابي موسى ان يبسط عليهم حمايته وأن ينزلهم حيث شاءوا من البلدان ويفرض عليهم العطاء. فأجابهم أبو موسى الى ما سألوه بعد استشارة عمر ، فصاروا الى البصرة وحالفوا بني تميم ، لانهم اقرب الاحياء نسباً الى رسول الله . ثم انضم الى الاساورة السيابجة والزط ، وكان هؤلاء ينزلون السواحل قبل مقدم المسلمين ، فلحقوا بالاساورة ، فصارت الاساورة في بني سعد والزط والسيابجة في بني حنظلة .

وقد وقف هؤلاء اول الامر موقف الحيدة من الاحداث الداخلية التي قامت بين المسلمين كوقعة الجمل وصفين ، حتى كانت فتنة مسعود فاستعان بهم بنو تميم في قتال الازد وربيعة . وشاركوا بعدئذ في ثورة ابن الاشعث فأضرّ بهم الحجاج لذلك وحط أعطياتهم واجلى طوائف منهم عن البصرة (٢). ويظهر أن عدد هؤلاء الحمراء قد كثر في اوائل عهد بني امية ، حتى تخوف معاوية امرهم فأمر بنقل جماعة منهم ومن ديلم الكوفة الى بلاد الشام (٤).

---

١ ـ الطبري ٣٩٧/٤ .
٢ ـ فتوح البلدان ٤٥٩/٢ .
٣ ـ فتوح البلدان ٤٦٠/٢ .
٤ ـ فتوح البلدان ٤٦٣/٢ .

هذان المصران : الكوفة والبصرة ، هما اللذان كان لقبائلهما الاثر البارز في الاحداث القبلية والسياسية في هذا العصر . اما سائر مدن العراق فلم يكن لها اثر يذكر فيها ، لقلة من نزلها من قبائل العرب .

قبائل العرب بخراسان

بدأت فتوح خراسان منذ اواخر عهد عمر بن الخطاب وفي زمن عثمان استطاع المسلمون تثبيت اقدامهم فيها بعد حملات متتابعة ابان ولاية عبد الله ابن عامر البصرة . وقد استعان ابن عامر في هذه الفتوح بعدد من رؤساء قبائل البصرة البارزين على رأسهم الاحنف بن قيس وعبد الله بن خازم السلمي وقيس بن الهيثم السلمي (١) . وقد شاركت قبائل الكوفة في بعض هذه الفتوح وكانت مدينة بلخ من فتوحهم (٢) ، الا ان فتح خراسان قد تم أكثره على يد قبائل البصرة . وكان الفاتحون يكتفون بفتح بلاد خراسان دون ان يحاولوا الاستيطان بها ، وانما كانوا يقفلون بعد الفتح الى مصرهم ويتركون وراءهم حامية منهم ، وكان هذا دأبهم طوال عهد عثمان (٣) .

وقد ادى فتح خراسان على يد قبائل البصرة الى اعتبارها تابعة لهذا المصر ، وكان ابن عامر هو الذي يعيّن ولاتها في زمن عثمان . ولما آل الامر الى بني امية كانوا يلحقونها بأمير البصرة تارة ويفردونها بوال مستقل يعيّن من قبلهم تارة اخرى . ونحن لانجد ذكراً لنزول العرب خراسان واستقرارهم فيها إلا منذ ولاية زياد البصرة عام ٤٥ هـ . ويبدو ان زياداً اراد اضعاف قوة المعارضة للحكم الاموي التي كانت تحمل رايتها قبائل العراق ، فأمر باجلاء طوائف منهم الى خراسان . ولعل اختيار خراسان موطناً لقبائل

---

١ ــ انظر فتوح البلدان ٣/٤٩٩ وما بعدها . والطبري ٣/٢٤٤ وما بعدها .
٢ ــ الطبري ٣/٢٤٥ .
٣ ــ الطبري ٣/٣٦٠ .

العرب انما يفسره ميل العرب الى النزول قرب المياه والأنهار وحيث يتوافر الخصب والمرعى . وهذا الميل ورثه العرب عن اسلافهم الجاهليين الذين كانوا يؤثرون نصب خيامهم قرب المياه ومساقط الامطار ومنابت الكلأ :

ويذكر البلاذري ان اول من اسكن العرب مرو، حاضرة خراسان، أمَير بن أحمر حين ولاه عليها زياد بن ابي سفيان عام ٤٥ هـ (١) . ولما ولى زياد الربيع بن زياد الحارثي خراسان عام ٥١ هـ حوّل معه من أهل المصرين زهاء خمسين ألفاً بعيالهم فأسكنهم دون النهر (٢) . وفي رواية الطبري ان شطر هؤلاء كان من أهل البصرة والشطر الأخر من اهل الكوفة (٣) . ولكن يستدل من تعداد قبائل خراسان بعد هذه الحقبة ان جل من كان بها من اهل البصرة، فقد بلغ عدد من كان ينزلها منهم ابان فتنة قتيبة اربعين ألفاً في حين لم يجاوز عدد مقاتلة الكوفة الذين كانوا ينزلونها يومئذ سبعة آلاف (٤) . ونحن نرجح ان الغلبة العددية فيها كانت لاهل البصرة منذ بدء استيطانها ولا سيما ان النظام القبلي الذي اتبع فيها هو نفس نظام الاخماس المتبع في البصرة .

ويستدل من بعض الاخبار ان ربيعة ومضر كانت لهما الكثرة العددية بين قبائل خراسان في مبدأ الامر . ولم يصبح للازد شأن يذكر الا منذ ولاية المهلب بن ابي صفرة عليها عام ٧٨ هـ (٥) . ويظهر ان موجات مضرية أكثرها من تميم وقيس توافدت بعدُ على خراسان حتى غدت الكتلة المضرية اكثر كتل خراسان عدداً إبان ولاية قتيبة بن مسلم عليها (٦) .

---

١ ــ فتوح البلدان ٣/٥٠٦ .
٢ ــ فتوح البلدان ٣/٥٠٧ .
٣ ــ الطبري ٤/١٧٠ ــ ٤/٢١٣ .
٤ ــ فتوح البلدان ٣/٥٢٠ .
٥ ــ انظر النقائض ١/٢٦٥ .
٦ ــ الطبري ٥/٢٧٦ .

وقد لعبت قبيلة قيس دوراً بارزاً في احداث خراسان ينبىء بانها لم تكن قلة في ذلك القطر ، وحسب إحصاء الطبري كان عدد مقاتلة خراسان إبان فتنة قتيبة ـ ٩٦ هـ ـ كما يلي :

١ ـ أهل العالية (قيس وغيرها)	تسعة آلاف
٢ ـ بكر بن وائل	سبعة آلاف
٣ ـ تميم [١]	عشرة آلاف
٤ ـ عبد القيس	أربعة آلاف
٥ ـ الأزد	عشرة آلاف
٦ ـ أهل الكوفة	سبعة آلاف
٧ ـ الموالي	سبعة آلاف[٢]

وبسبب التفوق العددي في القبائل المضرية اضطرت ربيعة الى محالفة الازد بخراسان شأنها في البصرة ، بغية إقامة التوازن بين الكتل القبلية في خراسان .

ويظهر ان ولاة خراسان اضطروا احياناً الى الخروج على نظام الاخماس الذي درجوا عليه منذ بدء نزول العرب فيها والمأخوذ عن التوزيع القبلي في البصرة . فقد روى الطبري ان أسد بن عبد الله حين نقل من كان بالبروقان من الجند الى بلخ أراد ان ينزلهم على الاخماس فقيل انهم يتعصبون فخلط بينهم [٣] .

---

١ ـ ان كلمة « تميم » لم تعد تعني في العصر الاموي من ينتسب الى قبيلة تميم وحدها ، وانما اصبحت تضم ايضا قبائل اخرى تشارك تميما في اصل نسبها وتؤلف معها حلفا واحدا كضبة والرباب ومزينة ، وكان رئيس هذا الحلف في زمن قتيبة من ضبة وهو ضرار بن حصين الضبي (انظر الطبري ٥/٢٧٧) .

٢ ـ الطبري ٥/٢٧٧ .

٢ ـ الطبري ٥/٣٨٨ .

ولما فتح العرب ما وراء النهر انتشرت طوائف منهم في هـذه البقعـة واستوطنوها ، ومن اشهر مدن ما وراء النهر التي نزلها العرب سمرقند وقد فتحها قتيبة عام ٩٣ هـ (١) .

قبائل العرب في الشام والجزيرة

كان ينزل بلاد الشام قبل ان يفتحها المسلمون عام ١٣ هـ طائفة من القبائل العربية جلهم من القبائل اليمنية التي نزحت اليها من بلاد العرب . ومن هذه القبائل غسان وتنوخ ولخم وجذام وعاملة وبطون شتى من قضاعة منها سليح وكلب وبهراء ، وكذلك كان ينزل شمال بلاد الشام في الجزيرة المعروفة بجزيرة أقور طوائف من شتى القبائل العربية من تغلب واياد وتنوخ والنمر بن قاسط (٢) . وقد قاتل بعض هؤلاء العرب المسلمين الى جانب الروم في وقعة اليرموك وغيرها(٣) . وبعد ان فتح المسلمون بلادهم اعتنق كثير منهم الاسلام، وأعان عرب الجزيرة ، مسلمهم وكافرهم المسلمين على الروم ، إلا قبيلة إياد فانها آثرت الجلاء الى بلاد الروم ، ولكن عمر ارسل الى ملك الروم يتهدده ان لم يرجع من اتاه من اياد الى بلادهم فأقفل منهم أربعة آلاف هم بقيـة هذه القبيلة في بلاد العرب (٤) .

وحين غلب المسلمون على الجزيرة والمدن الواقعة على الفرات اراد من كان

---

١ ــ فتوح البلدان ٥١٩/٣ . الطبري ٢٥١/٥ .
٢ ــ ارجع الى الفصل الذي عقدناه لمواطن القبائل العربية في العصر الجاهلي .
٣ ــ الطبري ٥٨٧/٢ . فتوح البلدان ١٣٥/١ وما بعدها .
٤ ــ الطبري ١٥٦/٣ ــ ١٥٧ .

ينزل بتلك النواحي من تغلب على الاسلام فأبوا وهموا باللحاق ببلاد الروم وامتنعوا من اداء الجزية أنفة ان يكونوا بمثابة الاعاجم والاعلاج . فأجابهم عمر الى ما طلبوا ضناً بهذه القبيلة العربية ان تجلو عن بلاد العرب واكتفى باضعاف الصدقة عليهم فقبلوا وظلوا في مواطنهم التي كانوا فيها قبل مقدم المسلمين (١) .

وكانت جيوش المسلمين التي قدمت لفتح بلاد الشام نواة القبائل العربية التي استوطنت الشام ومصر بعدئذ ، وكان عددها دون الثلاثين ألفاً (٢) . وكانت القبائل اليمانية تؤثر المضي الى الشام موطن اسلافها ومن هنا غلب العنصر اليمني على قبائل الشام .

وليس بين ايدينا احصاء تاريخي يرشدنا الى معرفة قبائل العرب التي نزلت بلاد الشام وعددها عند الفتح وبعده . الا اننا نستطيع استخلاص احصاء تقريبي للقبائل العربية التي كانت بالشام بعد الفتح اعتماداً على اخبار الوقائع التي جرت بين المسلمين منذ ايام علي كوقعة صفين ومرج راهط واعتمادا على ما نجده في بعض المصادر التاريخية والجغرافية (٣) .

وكانت القبائل الوافدة الى بلاد الشام تتفرق في حواضرها وبواديها وتنزل المنازل التي جلا عنها اهلها في مختلف المدن . وكانت المدن تقسم الى خطط بحسب القبائل التي تنزلها . فحين نزل المسلمون حمص مثلا قسمها السمط ابن الاسود الكندي خططاً بين المسلمين فنزلوها بحسب قبائلهم (٤) . وكانت

---

١ ـ فتوح البلدان ٢١٦/١ . الطبري ١٥٧/٣ .

٢ ـ الطبري ٥٩١/٢ .

٣ ـ من افضلها كتاب « صفة جزيرة العرب » لابي الحسن الهمداني وهو يحدد منازل القبائل العربية بالشام وغيرها كما وجدها في عصره (القرن الرابع الهجري) .

٤ ـ فتوح البلدان ٢١١/١ .

قبائل حمص كلها يمنية ولم يكن فيها من مضر الا قلة قليلة من قيس ، ولهذا ضرب المثل بذلة القيسي بها (١) .

وذكروا انه لما ولي معاوية الشام والجزيرة لعثمان امره ان ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى . فانزل بني تميم الرابية ، وانزل المازحين والمدَيبر اخلاطاً من قيس وأسد وغيرهم وفعل ذلك في جميع نواحي ديار مضر ، ورتب ربيعة في ديارها على ذلك (٢) ، فلم تكن اذن ثمة خطةموحدة لنزول العرب بلاد الشام . فكانوا تارة ينزلون في الحواضر ، ويخالطون اهل البلاد الاصليين وتارة اخرى ينزلون في منازل خاصة بهم او في معسكرات بعيدة عن المدن والقرى .

ويؤخذ من تعداد ألوية القبائل التي كانت مع معاوية يوم صفين ومن تعبئة جيشه يومئذ ان جلّ من قاتل معه كانوا من القبائل اليمنية . والعنصر الغالب في القبائل المضرية التي كانت معه هو العنصر القيسي . اما ربيعة فلم يكن في جيش معاوية احد منها او كانوا قلة لا يعتدّ بهم . وأبرز القبائل اليمنية التي شاركت في القتال معه حمير ، وقضاعة (كلب وبهراء وتنوخ وغيرها) ولخم . وجذام . وهمدان . وخثعم . وغسان . ومذحج . وعك . والاشعر . وكندة . والازد . وابرز القبائل العدنانية التي كانت معه: قيس (وكثرتهم من هوازن وغطفان وسليم) ، واياد (٣) . ومن هنا نرى ان قبيلة قيس كانت تمثل العنصر المضري في بلاد الشام ، وقد لعبت دوراً كبيراً في الاحداث القبلية التي شهدتها بلاد الشام والجزيرة ابان العصر الاموي ، وكان لها دور مماثل في خراسان . اما في العراق فلم يكن لها من الكثرة العددية ما يؤهلها للظهور على مسرح الاحداث القبلية فيها ، ولذلك كان عدادها في المصرين في أهل العالية واهل المدينة .

---

١ ـ مجمع الامثال للميداني ٢٩٤/١ .
٢ ـ فتوح البلدان ٢١١/١ .
٣ ـ انظر وقعة صفين لنصر بن مزاحم ٢٣٢ الى ٢٩٩ .

ويظهر ان عدد القبائل العربية كان يتزايد منذ نزولهم بلاد الشام تزايداً سريعاً . وقد قدر بعضهم عدد مهاجرة العرب التي نزلت الشام عند فتحها بما يزيد على مائة الف . وذكروا ان المسجلين في ديوان العطاء بدمشق وحدها بلغ في الصدر الاول خمسة وأربعين ألفاً(١) . ولا شك أن هذه الارقام لا تمثل العرب الوافدين الى بلاد الشام وحدهم ، وانما تمثل ايضاً من انضم اليهم من العرب الذين كانوا ينزلون هذه البلاد قبل الفتح ثم انضموا بعد الى جيوش المسلمين .

وقد اتبع في توزيع القبائل العربية في بلاد الشام وتجنيدها نظام يختلف عن نظام الاخماس والاسباع الذي اتبع في العراق ، وهو نظام الاجناد . فقد وزعت الجيوش العربية اجناداً تعسكر قرب مدن الشام الرئيسية . وكل جند كان ينسب الى المكان الذي هو فيه لا الى القبائل التي يتألف منها ، فيقال جند الشام وجند الاردن وجند قنسرين ونحو ذلك . ويذكر بعض الباحثين ان العرب اخذوا هذا النظام عن توزيع الاقسام الادارية الذي كان مرعياً في بلاد الشام على عهد الرومان والبيزنطيين (٢) .

اما مواطن القبائل العربية بالشام فنستطيع تحديدها على وجه التقريب اعتماداً على ما انتهى الينا من المصادر التاريخية والجغرافية(٣). ففي فلسطين نجد قبائل لخم وعاملة وجذام وبطوناً من كلب ، وفي الاردن نجد بطوناً من غسان ومذحج وقضاعة وهمدان وكلب وعك . وكانت حوران والجولان منازل خليط من لخم وجهينة وذبيان وغسان . وأغلب القبائل التي نزلت دمشق كانت من اليمانية ، من قضاعة وغسان وحمير وغيرهم الى جانب قلة

---

١ ـ خطط الشام لكرد علي ٦٧/١ .

٢ ـ تاريخ العرب لحتي وزميليه ٢٠٨/١ .

٣ ـ انظر صفة جزيرة العرب للهمداني ص ١٢٩ الى ١٣٤ ، ووقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٢٣٢ . وفتوح البلدان ١٢٨/١ الى ٢٢٩ ، والطبري ٤٠٨/٤ الى ٤٢٠ ، وخطط الشام لكرد علي ٦٤/١ وما بعدها .

من قيس وقريش . واهل حمص كان جلهم يمانيين من كندة وطيء وحمير وكلب وهمدان ، وكانت بها قلة من اياد وقيس . واكثر من نزل حماة ومـا حولها الى سيف البحر من القبائل اليمانية ، وجلهم من تنوخ وبهراء .وكذلك المنطقة الشمالية كان يغلب عليها اهل اليمن من سليح وزبيد وهمدان وكندة وطيء . ولا نجد أثراً للقبائل العدنانية في هذه البقاع الشمالية الا طوائف من اياد وقيس ، وكانت مواطن قيس قنسرين وما حولها . واحتلت قبيلة كلب القضاعية بادية السماوة كلها ، لا يخالطهم فيها سواهم . وهي تمتد من اطراف بلاد العرب الشمالية حتى الفرات ، وتشمل بادية الشام التي تربع بلدة تدمر في سرّتها .

اما الجزيرة التي يشقها نهر الفرات منحدره من بلاد الروم فقد نزلتها قبائل مضرية وربعية . وكانت القبائل المضرية تنزل شرقي الفرات وجلها من القبائل القيسية . وكانت منازل ربيعة شرقي منازل مضر وأولها رأس العين. واستقرت قبيلة تغلب منذ العصر الجاهلي على الخابور – من فروع الفرات – واستوطنت ما بين الخابور والفرات ودجلة . والى يمينها نزلت اختها بكر بن وائل واستقرت النمر بن قاسط في رأس العين .

يتضح من هذا العرض السريع الذي قدمناه ان العنصر الغالب في بلاد الشام كان هو العنصر اليماني الى جانب قلة من قيس وقريش وسائر مضر . أما في الجزيرة فكانت القبائل العدنانية المضرية والربعية هي الغالبة ، ولا نكاد نجد أثراً للقبائل اليمانية في ربوعها .

القبائل العربية في سائر المناطق

ان العصبيات والاحداث القبلية التي حفل بها عصر بني امية كان مسرحها هذه المواطن التي تحدثنا عنها : العراق وخراسان وبلاد الجزيرة والشام . اما سائر البقاع التي نزلتها القبائل العربية في العصر الاموي كمصر والمغرب

العربي والاندلس فلم تظهر فيها احداث قبلية ذات شأن ، او لم يصلنا من أخبارها ما يتصل بهذه العصبيات ، لان ظاهرة العصبية كانت ظاهرة عامة في جميع الاقطار التي استوطنتها القبائل العربية . ومن هذه الاقطار ما لم تظهر فيه حدة العصبية الا بعد العصر الذي نحن بصدده كالاندلس ، فان الفتن القبلية والعصبيات لم تشتد فيها الا قبيل قيام الحكم الاموي فيها . ولذلك قصرنا بحثنا على المواطن التي اشتدت فيها العصبية القبلية ابان عصر بني أميـــة .

ولا ينبغي لنا ان نتصور بعد ما ذكرناه من هجرة القبائل العربية الى مواطنها الجديدة ان حركة الجلاء عن جزيرة العرب كانت جماعية شاملة وان ربوع الجزيرة اصبحت خاوية من السكان بعد هذه الهجرات ، فقد بقي في منازل القبائل العربية الاولى في بلاد العرب جماعات من شتى القبائل العربية التي كانت تنزلها منذ العصر الجاهلي ، ولا سيما القبائل الضخمة . الا ان مراكز الاحتكاك القبلي انتقلت في العصر الاموي من جزيرة العرب الى هذه المواطن الجديدة التي نزلتها القبائل العربية المهاجرة ، ولا سيما البصرة والكوفة وخراسان وبلاد الشام والجزيرة .

* * *

٢

موقف الدولة الاموية من القبائل ورؤسائها
ومن النزعة القبليـة

شاع القول ان سياسة بني امية كانت تعتمد الى حد بعيد على اثـارة العصبية والنعرات القبلية ، لتشغل القبائل العربية بها فتلهى عن معارضة الحكم الاموي . وفي هذا القول شيء من الحق دون ريب . ولكن من الانصاف أن نقرر هنا ، وقبل أن نخوض في دواعي اشتداد العصبية القبلية في هـذا العصر ان جهوداً كثيرة قد بذلت في عصر بني امية لمحاربة النعرة القبلية وما يتصل بها من الدعوة الى العشائر والحمية الجاهلية وأعمال الثأر الفردي والجماعي وغير ذلك . ولكن تيار العصبية كان أقوى من أن توقف مسراه العاتي المندفع هذه المحاولات الفردية المحدودة النطاق ، فلم يكن لها من الاثر الا الحدّ مـن سرعة اندفاعه .

ومن الحق ايضاً ان الدولة الاموية لم تضع خطة منظمة ينتهجها الخلفاء والولاة لمناهضة العصبية القبلية والضرب على أيدي الداعين اليها ، وانما كان سلوك اولي الامر إزاءها مستوحى من نزعة الحاكم الشخصية من جهة ومن مجرى الاحداث السياسية من جهة اخرى . ومن المحقق ان نفراً منهم كان يستوحي في مناهضة العصبية شعوره الديني وسياسة الرسول عليه السلام وخلفائه من بعده ، ولا سيما عمر بن الخطاب الذي أعلن حرباً لا هوادة فيها على العصبية ودعاتها .

وكان أشد ولاة بني أمية تحمساً لخطة عمر في مناهضة العصبية والاخذ على ايدي دعاتها زياد ابن ابيه . فكان يحرص في خطبه على تحذير الناس من العصبية ودعوى الجاهلية ويتهدد الداعين بها بقطع ألسنتهم (١) . وقد نهج نهج عمر في معاقبة

---

١ ـ انظر خطبته البتراء في البيان والتبيين ٢/١٢ .

الشعراء الذين يتصدون لهجاء الناس وإثارة الفتن والاحقاد القبلية في اشعارهم ، فحين استعدت بنو نهشل وبنو فقيم زياداً على الفرزدق لهجائه اياهما طلبه زياد وألح في طلبه ، حتى اضطره الى مفارقة العراق خوفاً منه فلم يعد الى البصرة حتى مات زياد (١) . وكذلك وجه زياد همه الى محاربة الروح الجاهلية ، روح المفاخرة والمنافرة والتبجح بالكرم ، وكان يعاقب لذلك من يقتدون بأهل الجاهلية فيبيحون الناس أموالهم بقصد التفاخر والمباهاة، وكان مما زاد سخطه على الفرزدق انه قدم المربد يوماً فنثر على الناس مالا كان أبوه دفعه اليه ليمتار به (٢) . وكذلك سجن زياد مرة بن محكان السعدي لانه أنهب الناس ماله تحدياً لجماعة من قومه كانوا ينافسونه في الشرف (٣). وكذلك قمع زياد حوادث الثأر الفردي التي حرمتها الدولة وأخذ على يد مرتكبيها ومن ذلك طلبه بني عوف بن القعقاع وقتله عمرو بن عوف لقتلهم غلاماً من بني ميثاء بقيس بن عوف (٤) . وقد بذل زياد كل ما في وسعه من جهد لاطفاء نار العصبية والفتن القبلية إبان ولايته على المصرين. ومن التدابير التي لجأ اليها في سبيل ذلك اخذه رؤوس القبائل بسفهائها وملقحي الفتنة فيها ، وتهديده بقطع العطاء عن مثيري الفتن والقبائل التي تشارك فيها ، وتوجيهه جماعات كثيرة من أهل المصرين الى خراسان ليستقروا فيها . ويذهب لامنس الى أن من وجههم زياد من أهل المصرين الى خراسان انما كانوا من العناصر الخطرة التي اعتادت إثارة الفتن والشغب(٥). وفي رأي ولهوزن ولامنس ان مسلك زياد في توزيع قبائل الكوفة أرباعاً انما كانت الغاية منه القضاء على عصبية القبائل بالكوفة مقر المعارضة للحكم الاموي ، فقد جمع في كل ربع قبائل من أصول متباينة ، وغايته من هذه الوحدات الصناعية جمع العناصر

---

١ ــ الطبري ١٧٩/٤ . الاغاني ٣٠/١٩ (ساسي) .
٢ ــ الطبري ١٧٩/٤ . الكامل للمبرد ٢٩١/١ . النقائض ٦٠٧/٢ .
٣ ــ الاغاني ٩/٢٠ (ساسي) .
٤ ــ النقائض ٧٨/١ .
٥ ــ Lammens : Etude sur le siècle des Omayyades p. 123

المتعادية في زمرة واحدة ، ولم يجعل زياد على رأس هذه الارباع رؤساء القبائل وانما جعل عليها رؤساء يعيّنون من قبله ليضمن ولاءهم له (١) .

الا ان موقف زياد المناهض للعصبيات لم يمنعه حين ألجأته الضرورة من استخدام سلاح العصبيات نفسه لتحقيق بعض المآرب السياسية صنيعه في فتنة ابن الحضرمي أيام عليّ ، فلكي يثير حماسة الازد لنصرته على بني تميم اخذ يضرب على وتر العصبية ويثير في نفوس مجيريه حمية الجاهلية وروح الاعتزاز القبلي (٢) . وكان من دعائم خطته السياسية التي سلكها طوال مدة حكمه ضرب القبائل بعضها ببعض ليحول دون اجتماع كلمتها وتوحد قواها .

وحتى الولاة الذين عرفوا بنزعتهم القبلية وشدة عصبيتهم كانوا يضطرون احياناً الى اتخاذ التدابير لمنع ظهور العصبيات ، فقد خلط اسد بن عبد الله القسري المعروف بشدة عصبيته لليمن بين قبائل العرب في بلخ ولم ينزلهم على الاخماس لئلا يتعصبوا (٣) .

وقد يكون من الحق ان الدولة الاموية نظرت نظرة رضى الى الفتن القبلية التي ثارت في مستهل عهدها لانها شغلت القبائل عن معارضة الحكم الاموي. ولكن من الخطأ البيّن القول ان الفتن القبلية كانت دائماً في صالح الحكم الاموي ، بل ان الامر على نقيض ذلك تماماً . فقد كانت هذه الفتن احد المعاول القوية التي قوضت صرح الدولة الاموية وطاحت بحكمها . وقد علل ولهوزن ذلك بأن هذه المنازعات القبلية جعلت القبائل العربية عاجزة عن إخماد الثورة في خراسان في حين انها يوم كانت متحدة استطاع بنو أمية ان يخضعوا الدولة

---

١ ـ المصدر السابق . ولهوزن ص ١٠٣ وقد خالف ماسينيون رأي لامنس في غاية زياد من تصنيف ارباع الكوفة (انظر خطط الكوفة ص ١٦) .

٢ ـ الطبري ٨٤/٤ .

٣ ـ الطبري ٣٨٨/٥ .

الاسلامية كلها بواسطتها (١) . ومن المحقق ان حركة ابي مسلم في خراسان لم يكن مقدراً لها ان تنجح لولا وقوع الفتنة بين القبائل المضرية واليمنية بخراسان .

وقد أدرك عبد الملك بن مروان بثاقب بصره أن استمرار العداء القبلي الذي استطارت شرارته منذ مرج راهط بين قبائل الشام لم يعد في صالح الدولة، ولهذا حرص على اطفاء نار الفتنة بين قيس وكلب بعيد مرج راهط(٢). ثم تدخل للاصلاح بينهما بعد ان كثرت الوقائع بينهما واحتمل دماء الحيّين(٣). ولم يتردد عبد الملك في دفع اثنين من اشراف قيس الى غرمائهما الكلبيين ليقيدوا منهما لانهما أشعلا نار فتنة قبلية بين الحيين بعد أن تم الصلح وحقنت الدماء وأديت الديات(٤). وسجن عبد الملك في مناسبة اخرى عدداً من وجوه القبائل اليمنية بسبب مقتل غلام من قيس(٥) .

وكان من خلفاء بني امية من أنكروا على ولاتهم ان يتعصبوا لعشائرهم ، وكثيراً ما كانوا يعزلونهم عن عملهم لهذا السبب . فعزل عمر بن عبد العزيز عامله على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي (٦) ، وعزل هشام أسد بن عبد الله القسري عن خراسان لافساده الناس بعصبيته لليمن (٧). ويلاحظ بوجه عام ان الدولة الاموية كانت تشتد في تأديب مثيري الفتن القبلية ومن يمنحون أنفسهم حق الثأر الفردي الذي اصبح منذ الاسلام على عاتق الدولة

---

١ ــ ولهوزن ص ١٧٣ .
٢ ــ الاغاني ٤١/١٢ .
٣ ــ الاغاني ٢٠٠/١٢ .
٤ ــ انساب الاشراف ٣٠٨/٥ . الاغاني ١١٥/١٧ .
٥ ــ الاغاني ١٠٩/١٩ في اخبار بيهس الجرمي .
٦ ــ الطبري ٣١٣/٥ .
٧ ــ الطبري ٣٩٢/٥ .

وسار بعض خلفاء بني أمية على خطة اسلافهم في الضرب على أيدي شعراء الهجاء صنيع الوليد بجرير وابن لجأ (١) .

ولقد جرت الدولة الاموية منذ قيامها على خطة مزدوجة ازاء القبائل العربية. وتقوم هذه الخطة على تألف القبائل واصطناع رؤوسها بالمال والهبات وغيرها من جهة ، ومن جهة اخرى على اذلال رؤوس القبائل وخضد شوكتهم وتجريدهم من سلطانهم القبلي . وأفلحت هذه الخطة المزدوجة في ضم جل رؤساء القبائل وانصارهم الى صف بني أمية وضمان ولائهم لهم في اكثر الاحوال .

وثمة ظاهرة نلاحظها منذ قيام الدولة الاسلامية ، تلك هي حرص الخلفاء والولاة على الاصهار الى الأسر العربية العريقة في الشرف من شتى القبائل العربية ، لما تضفيه هذه المصاهرات على الاسر الحاكمة من مكانة اجتماعية رفيعة مستمدة من الاعراف القبلية السائدة ، ولما لها من الفوائد السياسية في دعم مركز هذه الاسر . وكان الرسول عليه السلام اول من جرى على خطة تألف القبائل العربية من طريق الاصهار اليها . ثم جاراه في ذلك خلفاؤه من بعده فأصهر عثمان الى آل عيينة بن حصن الفزاريين والى آل عدي بن جناب الكلبيين والى غيرهما من الاسر العريقة الشرف في القبائل العربية (٢)، وكذلك صنع علي بن ابي طالب (٣) ، وكثير من الولاة والاشراف ، ثم جرى بنو امية بعدُ على هذه الخطة .

وقد أدرك معاوية بثاقب نظره ، مذ كان والياً على الشام ، مدى الفائدة السياسية التي يجنيها من مصاهرة قبيلة كلب ، أقوى القبائل اليمنية بالشام واكثرها عدداً ، فاختار زوجاً له ميسون بنت بحدل الكلبية التي انجبت له

---

١ ــ الاغاني ٨٢/٨ .
٢ ــ انظر الطبري ٤٤٥/٣ .
٣ ــ الطبري ١١٨/٤ .

أبنه يزيد . وقد حققت الاحداث بعدئذ سداد نظرة معاوية أذ كان لقبيلة كلب اليد الطولى في تأييد خلافة يزيد وفي تثبيت دعائم الحكم الاموي في بلاد الشام . ثم جرى خلفاء بني امية على خطة مؤسس دولتهم في الاصهار الى القبائل القوية لكسب تأييدها . وكانوا يؤثرون الاصهار اما الى قبيلة كلب اليمنية ، واما الى قبيلة قيس المضرية ، وهما من أقوى قبائل الشام واعزها نفراً . ويبرز من بين الاسر القيسية التي حرص بنو امية على مصاهرتها اسم آل عقيل بن عُلّفة المرّي ، وكانت أسرته من أعرق الاسر القيسية شرفاً وأنبهها ذِكراً ، ومن هنا رغب خلفاء بني أمية وأمراؤهم وولاتهم في الاصهار اليه ، على رغم ما عرف به من شدة الجفاء والعُنجهية (١) .

وقد لعبت هذه المصاهرات دوراً بارزاً في الاحداث السياسية التي تمخض عنها العصر الاموي وفي إثارة العصبيات والفتن القبلية في ذلك العصر على ما سنبينه بعدُ .

وفي سبيل تألف القبائل العربية جنح بنو أمية الى وسائل اخرى غير المصاهرات ومنها إغداق الاموال والهبات على رؤساء القبائل ، واصطناع القبائل بزيادة اعطياتها . وعرف بنو أمية ، بفضل خبرتهم التجارية القديمة أثر المال في استمالة الرجال واكتساب الانصار والاعوان ، فأغدقوه على رؤوس القبائل والزعماء الذين يخشون بأسهم وعلى الطامعين في الحكم ومن يرون لانفسهم حقاً فيه من اشراف قريش . آتت هذه الوسيلة أكلها في إخفات صوت المعارضين للحكم الاموي في اكثر الاحيان وفي استمالة رؤساء القبائل ولا سيما قبائل العراق (٢) . وقد استعان عبد الملك بهذه الوسيلة في استمالة

---

١ – انظر امثلة لجفائه وعجرفته في جمهرة ابن حزم ص ٢٤١ . الاغاني ١٣/٢٥٤ . طبقات ابن سلام ص ٥٦١ .

٢ – من امثلة اصطناع رؤساء القبائل اجازة معاوية رؤساء وفد بني تميم حين قدموا عليه ومنهم الاحنف بن قيس وجارية بن قدامة والحتات بن يزيد (النقائض ٢/٦٠٨) .

رؤوس قبائل العراق إبان حكم ابن الزبير ، فأغدق عليهم الاموال ومنّاهم الاماني وأزجى لهم الوعود المغرية . فلما نشب القتال بينه وبين مصعب انحاز اليه اكثرهم وخذلوا مصعباً وأسلموه للقتل (١). والى ذلك كان الترغيب بالعطاء والتهديد بقطعه من أنجع الوسائل التي اتبعها بنو امية لحمل القبائل على لزوم الطاعة واجتناب الفتنة .

وكان بنو امية يؤثرون بوجه عام ، خطة المصانعة إزاء خصومهم وأعدائهم على خطة الجفاء والاقصاء . وهذا يفسر حرص عبد الملك على تقريب قبيلة قيس واصطناع رؤسائها ، على رغم ما كان لهذه القبيلة من المواقف السابقة في نصرة ابن الزبير ومناهضة بني امية .

وحين لا تكون خطة المصانعة كافية وحدها لاستمالة القبائل وحملها على الطاعة كان بنو امية وولاتهم يلجؤون الى خطة القمع والبطش للقضاء على مناهضيهم ومعارضيهم وعلى رؤساء القبائل وأشرافها الذين عرفوا بمعارضتهم الحكم الاموي . وقد وجهت الدولة الاسلامية همها منذ قيامها الى الحد من سلطان سادة القبائل الذي كان يمثل خطراً دائماً على أمن الدولة واستقرارها ، ومن التدابير التي اخذت بها لضمان ولاء القبائل لها جعل رئاسة القبيلة منوطة بالدولة لا بالقبيلة (٢) ، وجرى بنو امية وولاتهم على هذه الخطة فكانوا هم الذين يختارون رؤساء القبائل . واذا اختارت القبيلة لنفسها لم يكن بد من الحصول على موافقة الدولة على الرئيس الذي اختارته (٣) .

---

١ ـ انساب الاشراف ١١/٦ . الطبري ٧/٥ .

٢ ـ من ذلك ان عمر جعل رئاسة بكر لمجزأة بن ثور ثم جعلها عثمان لابنه شقيق بن مجزأة (الكامل للمبرد ٣٦٢/١) .

٣ ـ من ذلك انه لما تنازع مالك بن مسمع وأشيم بن شقيق رئاسة بكر في عهد يزيد بن معاوية ، كتب يزيد الى عبيد الله بن زياد برد الرئاسة الى أشيم (النقائض ٧٢٨/٢ . الطبري ٣٩٦/٤) . وفي اخبار قتيبة بن مسلم انه صرف رياسة بني تميم عن وكيع بن حسان وضيرها لضرار بن حصين الضبي (الطبري ٢٧٧/٥) .

وكانت الدولة هي التي تختار كذلك رؤساء الكتل القبلية في الامصار (الاخماس والارباع الخ ...) . وفي الكوفة اقوى مراكز المعارضة للحكم الاموي كثيراً ماكان رؤساء الارباع لا يمثلون القبائل المنضوية تحت لوائها ، وبهذه الوسيلة وضعت الدولة رئاسة الكتل القبلية في أيدي اشخاص تطمئن الى ولائهم وللقضاء على نفوذ رؤساء القبائل الموروث منذ العصر الجاهلي وللحد من سلطانهم على نفوس جماعتهم كان الولاة يتعمدون في بعض المناسبات إذلال أشراف القبائل وسادتها والغض من مكانتهم ، ولا سيما اشراف قبائل العراق ، وفيهم بيوت الشرف ذات المكانة الرفيعة منذ العصر الجاهلي . ومنذ عهد زياد أصبح رؤساء القبائل واشرافها يؤاخذون بالجرائر التي يرتكبها رجال قبائلهم ويلزمون بتاديب سفهاء قومهم ومن يتمرد منهم على السلطان . وقد سلك زياد هذه الخطة إزاء قبائل الكوفة حين أرادالقبض على حجر بن عدي وأصحابه ، وجعل رجل الكوفة الاول محمد بن الإشعث الكندي امثولة لسائر الرؤساء والاشراف باذلاله إياه وتهديده حتى أرغمه على الاتيان بحجر[1] . ثم جرى على هذه الخطة بعده ابنه عبيد الله ، فلما قدم مسلم بن عقيل الكوفة دعا وجوه اهل الكوفة من كان من عشائرهم معه خوفاً من بطش ابن زياد فانفضوا عنه وخذلوه [2] . وكان أشد ولاة بني أمية اجتراء على رؤساء القبائل ووجوهها الحجاج ، وقد أدى مسلكه الصارم نحوهم الى امتلاء قلوبهم تهيباً له وفرقاً منه . ولما سجن الحجاج مالك بن اسماء وكتب هذا الى ابيه ، وهو سيد فزارة يومئذ ، يطلب اليه الدخول الى الحجاج مستشفعاً له أبى ان يلقاه وسوغ امتناعه من ذلك بقوله:

أبني فزارة لا تُعنتوا شيخكم ... ما لي وما لزيارة الحجاج
شبّهته شبلا غداةَ لقيته ... يَلقي الرؤوس شواخبَ الاوداج[3]

١ - الطبري ١٩١/٤ .
٢ - الطبري ٢٦٠/٤ .
٣ - الاغاني ٤١/١٦ .

وقد أدت سياسة الولاة الصارمة إزاء أشراف أهل العراق الى تضاؤل نفوذهم القبلي ، وفقدانهم كثيراً من امتيازات الشرف التي كان يحظى بهـا أسلافهم في العصر الجاهلي ، فلم يعد يباح لهم مثلا اجارة من يحل بهم سخط السلطان وإلا تعرضوا لاشد الاذى . ولهذا حين طلب زياد الفرزدق لم يرض احد إيواءه خوفاً من بطش زياد (١) . وكذلك لما طلب عبيد الله بن زياد الشاعر ابن مفرّغ فلجأ الى الاحنف بن قيس ليجيره امتنع وكان جوابه : « اني لا أجير على ابن سمية فأعزل ، وانما يجير الرجل على عشيرته فأما على سلطـانه فلا » . فلما اجترأ المنذر بن الجارود على إجارته شتمه ابن زياد وحقـره وانتزع منه جاره قسراً (٢) .

وكان ولاة بني أمية يحرصون على مصاهرة الاسر النبيلة وبيوت الشرف المشهورة في القبائل العربية للدوافع التي ذكرناها قبل ، ولكن بعض هـؤلاء الاشراف كانوا يأنفون من تزويج بناتهم لمن لا يرونهم اكفاء لهم في الشرف ، وحينئذ ربمـا عمد الوالي الى ارغام الرجل على تزويجه ابنته إمعاناً في إذلال ارستقراطية هؤلاء الاشراف وقمعاً لروح الاستعلاء القبلية في نفوسهم . بل ربما أرغموا الرجل على تزويج ابنته ممن يختارونه لها من الرجال ، فحـين تزوج عبيد الله بن زياد هنداً بنت اسماء بن خارجة سيد فزارة عاب محمد بن عمير بن عطارد التميمي ومحمد بن الاشعث الكندي على أسماء صنيعه هذا ، فما كان من ابن زياد الا ان ارغم ابن الاشعث على تزويجه ابنته ، وزوّج اخاه عثمان ابنة محمد بن عمير (٣) . واراد الحجاج ان يكافىء عبد الله بن هانىء الأودي على ولائه له ونصرته اياه بتزويجه ابنة لاسماء بن خارجة، فأبى اسماء ذلك انفة لانه لم يرَ ابن هانيء كفؤاً له في الشرف والمنزلة، فما كان من الحجاج

١ ـ النقائض ٢/٦١٦ .
٢ ـ الاغاني ١٧/٥٦ (ساسي) .
٣ ـ انساب الاشراف ٤/٩٣ .

الا أن دعا له بالسياط وهم بضربه فاضطر أسماء الى الاذعان . وصنع الحجاج مثل ذلك بسعيد بن قيس الهمداني سيد يمانية الكوفة (١).

وهكذا نجد سادة القبائل واشرافها يفقدون في هذا العصر كثيراً مما كان يحظى به اسلافهم في العصر الجاهلي من مكانة وسلطان في قبائلهم ومن امتيازات الشرف التي كانت لهم قبلُ .



١ ــ شرح نهج البلاغة ١/٣٥٧ .

الفصل الثاني

دواعي اشتداد العصبية القبلية
في هذا العصر



لم تؤد الجهود التي بذلت في سبيل القضاء على العصبية القبلية في هـذا العصر الى تحقيق الغاية المرجوة لأنها لم تكن مستوحاة من سياسة عامة ثابتة للدولة، وانما كانت محاولات فردية على الاغلب تخضع لمناسبات خاصة، فلم تؤد الا الى تلطيف حدة العصبيات في بعض الاحوال .

وقد كان مقدراً للعصبيات ان تطل برأسها في هذا العصر استمراراً لما كان عليه الامر في العصر الجاهلي وصدر الاسلام ، لان دواعي الغائها لم تكن قد بلغت من القوة عصرئذ ما يمكن من القضاء عليها ، فلم يكن ظهورها فيه ليثير أي عجب او دهشة . ولكن الامر الذي يلفت النظر هو ان هذه العصبيات بلغت من الحدة والعنفوان في هذا العصر مدى لم تبلغه في العصور السابقة وتوافر لها من دواعي الاشتداد والاثارة فيه ما لم يتوافر لها مثله في سائر العصور . وسنلم إلمامة سريعة بأبرز دواعي احتدام العصبيات القبلية في هذا العصر .

١

الدواعي الاجتماعية

طرأ على المجتمع العربي تطور بعيد الاثر في هذا العصر ، ذاك هو انتقال جمهور القبائل العربية من الطور البدوي الى الطور الحضري، نتيجة لجلائها عن موطنها الاول في جزيرة العرب واستقرارها في الحواضر والامصار المنشأة في مختلف البلاد المفتوحة . وكان هذا التحضر في ذاته خطوة اولى في سبيل القضاء على الروح القبلية والعصبيات ، لانه يؤدي مع الزمن الى اختلاط القبائل بعضها ببعض ونسيانها انسابها القديمة وانصهارها في كتلة مدنية واحدة . ولكن اندماج القبائل بعضها ببعض في هذه الحواضر لم يتحقق الا

بعد انقضاء احقاب طويلة على نزولها فيها . ولعل تأخر هذا الاندماج مرده الى الخطة التي سارت عليها العرب في استيطانهم الامصار والحواضر ، فان نظام توزيع العطاء على الجند واستنفار المقاتلين قد فرض على الدولة ان تخطط الامصار على اساس قبلي ، فجعل لكل قبيلة خطتها التي تستقل بسكناها . ولم يكن في استطاعة العرب عند بدء نزولهم الامصار ان يتصوروا تخطيطاً آخر يحل محل التخطيط القبلي فيهـا ، بل انهـم جروا في بعض الامصار ، كالكوفة مثلا على شطرالمدينة شطرين : احدهما لقبائل اليمـن والآخر للقبائل النزارية (١) . وكان لهذا الاسلوب القبلي في تخطيط الامصار اكبر الاثر في احتدام العصبيات ونشوب الفتن القبلية فيها ، اذ ان جمعطائفة من القبائل تأصلت في نفوسها روح العداء القبلي منذ أقدم العصور في بلـد واحد كان امراً في غاية الخطورة ، وقد حملت هذه القبائل معها الى مواطنها المحدثة خصوماتها القبلية القديمة وعداواتها المتوارثـة وذكريات الايـام والوقائع التي قامت بينها في العصر الجاهلي . وهكذا كانت الاوضاع السائدة في تلك الامصار تمهد السبيل لهياج العصبيات ونشوب الفتن القبليةبصورة مستمرة . فمن ناحية كان استقلال كل قبيلة بخطتها يزيد في حدة التكتل القبلي وفي استمرار روح العداوة والشر بين شتى القبائل النازلة في بلـد واحد ، وفي إعاقة اندماج العناصر القبلية المختلفة بعضها ببعض ، ومن ناحية اخرى كان تجاور منازل هذه القبائل في البلد الواحد يؤدي الى سهولـة احتكاك بعضها ببعض ووقوع المنازعات والخصومات بينها ، فكانت الفتن القبلية تثور بسبب هذا التجاور لأتفه الدواعي ، وكان يكفي ان يقع الشر في المسجدالجامعاو فيسوق المدينةاو فيساحتهاالعامةبين رجلين من قبيلتين مختلفتين ليمتد النزاع الى سائر رجال القبيلتين .بل ربما عمّت الفتنة المدينةبأسرها، لاستنصار كل قبيلة بحلفائها من القبائل الاخرى ، وقد أدت لطمة وجّهها أحد البكريين لرجل قرشي الى نشوب فتنة من أعنف الفتن القبلية التي شهدتها مدينة البصرة في عصر بني أمية (٢) .

١ ـ فتوح البلدان ٣٣٩/١ .

٢ ـ انظر خبر هذه الفتنة في الطبري ٣٩٦/٤ .

فكذلك نرى ان استقرار العرب في المراكز الحضرية لم يؤد الى إطفاء نار العصبيات ، بل أدى على النقيض الى احتدام نارهـا والى ازدياد فرص الاشتباك القبلي . وقد انتقلت مراكز الاحتكاك القبلي في هذا العصر من بوادي جزيرة العرب وحواضرها الى هذه الامصار والحواضر التي نزحت اليها كثرة القبائل العربية منذ الاسلام . وقد صور ابن ابي الحديد ما كان للتنظيم القبلي في الامصار من أثر في هياج العصبيات في خبره الذي ساقه عن فساد أهل الكوفة في اواخر ايام علي ، فكان الرجل يتعمّد المرور بمنازل القبائل المعادية لقبيلته والتحرش بها لاثارة الفتنة والشر(1) . وهذه الصورة كانت تتكرر طوال عصر بني امية في الكوفة والبصرة وغيرهما من الامصار كلمـا اضطربت الاحوال السياسية وتراخت قبضة السلطة الحاكمة عن ضبط الامور وإقرار النظام في هذه الامصار .

ومن هذه الاسباب الاجتماعية ايضا المصاهرات ، فقد أشرنا قبلُ الى حرص خلفاء بني امية وأشرافهم وولاتهم على مصاهرة الاسر العريقة النسب في شتى القبائل العربية ، وقد لعبت هذه المصاهرات دوراً بارزاً في إثـارة العصبيات القبلية في هذا العصر ، فالخليفة او الوالي حين يصهر الى قبيلة ما ، او يرتبط من طريق أمه برابطة القرابة بها ، يجد نفسه مدفوعاً الى التعصب لها وإيثارها على القبائل الاخرى ، وعند وقوع عداوة بين هذه القبيلة وبين احدى القبائل الاخرى نجده ينحاز دون تردد الى صف القبيلة التي يرتبط بها بصلة المصاهرة . ويدلنا على اثر هذه المصاهرات في ايثار قبيلة على اخرى ، وفي تبدل العواطف والمشاعر ما احدثه إصهار خالد بن يزيد الى آل الزبير من تبدل في شعوره نحو هذه الاسرة التي ناصبت بني امية العداوة ونازعتها سلطانها ، حتى لقد غدت أحب أسرة الى نفسه ، وعبر عن تبدل شعوره هذا في أبياته التي منها قوله :

---

1 ـ شرح نهج البلاغة ٢٣٩/٣ .

أحبّ بني العوّام طرّاً لحبّها ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا (١)

وقد عرف خالد أثر هذه المصاهرات في النفوس فلما أكره الحجاج عبدالله ابن جعفر على تزويجه ابنته خاف ان يؤدي زواجه منها الى ان ينقلب شعوره العدائي نحو بني هاشم حباً وإعجاباً ، فدخل على عبد الملك وخوفه عاقبة هذه المصاهرة وما قد يكون لها من أثر في نفس الحجاج ، وهو من سلطانه بحيث يعلم ، فأرغم عبد الملك الحجاج لهذا السبب على تطليق ابنة عبد الله بن جعفر (٢) .

وعرف خالد بن يزيد بتعصبه كذلك لقبيلة كلب على قيس لانهم كانوا أخوال ابيه ، واخوال زوجة ثانية له (٣) . وذكروا أن مسلمة بن عبد الملك حين تزوج الرباب بنت زفر بن الحارث القيسي صارت أسرتها اثيرة عنده، فكان يأذن للهذيل وكوثر اخوي الرباب في اول الناس (٤) .

وبسبب هذه المصاهرات وجدنا خلفاء بني امية وولاتهم وأشرافهم ينحازون تارة الى قيس وتارة الى كلب وتارة الى غيرهما . وكان إيثار احدى القبائل على غيرها مدعاة لغضب القبائل الاخرى وسخطها على الخليفة او الوالي . بل ان هذه المصاهرات قد ادت الى وقوع الخصومة والنزاع بين ابناء البيت الاموي انفسهم ، فمن كانت امهاتهم من قيس كانوا يؤيدون هذه القبيلة وينتصرون لها ، وربما حرضوا على الثأر لها واثاروا الفتن والحروب بين القبيلتين ، فقد جاء في شرح الحماسة ان خالد بن يزيد لما ضاق بافتخار ابناء القيسيات من بني امية عليه ، حرض حُميد بن بحدل الكلبي على الايقاع بقيس ، ومهد له السبيل الى ذلك بافتعاله عهداً على لسان عبد الملك بأخذ الصدقة منهم (٥) .

---

١ ـ الكامل للمبرد ٢٠٤/١ . انساب الاشراف ٦٦/٤ .
٢ ـ الكامل للمبرد ٢٠٤/١ .
٣ ـ الاغاني ٩١/١٦ (ساسي) .
٤ ـ انساب الاشراف ٣٠٧/٥ .
٥ ـ شرح حماسة ابي تمام ٩٦/٢ .

وكما كان خلفاء بني امية واشرافهم يتعصبون للقبيلة التي يصهرون اليها او لقبيلة اخوالهم كانت القبائل العربية تتعصب كذلك للخليفة او الوالي الذي يمت اليهـا بصلة القرابة من طريق المصاهرة ، وتنتصر له اذا ثارت عليـه القبائل الاخرى .

٢

الدواعي السياسيـة

وكذلك كان للسياسة اثرها في احتدام نار العصبيـة القبلية في ذلك العصر ، اذ ان بني امية وجدوا في إثارة هذه العصبيات في بعض الاحوال ، كسباً سياسياً لدولتهم ، ودعماً لسلطانهم ، لان اشتغال القبائل بعضهـا ببعض واندفاعها في تيار الخصومات القبلية كان قميناً بصرفها عن معارضة نظام الحكم الاموي ، كما كان قميناً بالحيلولة دون تكتل القبائل المعارضـة لحكمهم وتوحيد صفوفها . فاذا افترقت كلمتها اصبحت عاجزة عن انتقف في جبهة موحدة امام بني امية وعن ان تحاول انتزاع السلطة من يدهم . وقد أشار ولهوزن الى ان ولاة بني اميةجروا على خطةتأجيج نار الخصومةلتوطيد مركزهم وتثبيت اقدامهم في ولايتهم ولو ان خطتهم هذه لم يقيض لها النجاح في جميع الاحوال (١) . ومن الانصاف ان نقرر ان هذا الحكم لا يشمل جميع ولاة بني امية ، فقد رأينا طائفة منهم يقفون من العصبية ودعاتها موقف الانكار والمناهضـة ويبذلون غاية جهدهم لمحاربة الروح الجاهليـة والنزعات القبليـة .

وكثيراً ما كانت العصبية تهيج بسبب إيثار الخليفة او الوالي قبيلةما على

---

١ ــ ولهوزن ص ٥٨ .

سائر القبائل الاخرى بالتقريب والهبات والمناصب الادارية والنافع المادية ، وكان انحياز الخليفة او الوالي الى قبيلة ما مرده في كثير من الاحيان الى اتحاد النسب او الى صلات المصاهرة التي تحدثنا عنها . على ان البواعث السياسية كثيراً ما كانت تحمل السلطان على سلوك سياسة الايثار هذه ، فهو قد ينحاز الى القبيلة ذات العدد والقوة تألفاً لها واستظهاراً بها على القبائل الاخرى او قصد ايقاع الفتنة بين القبائل التي يخشى شرها .

وقد وضع معاوية اللبنة الاولى في سياسة الايثار القبلية هذه بانحيازه في بدء خلافته الى القبائل اليمنية بالشام ، وهم كثرة انصاره . وظل يؤثرها بالعطاء حقبة طويلة ولا يفرض عطاء لسواها ، حتى عزت اليمن بالشام في عهده وتطاولوا على مضر وهددوا باخراجهم من الشام . وحينئذ تحركت في معاوية عصبيته المضرية ففرض ــ فيما ذكروا ــ عطاء لاربعة آلاف رجل من قيس دفعة واحدة ثم حطا خطوة اخرى فجعل يغزي اليمن في البحر وقيساً في البر رعاية لها ، فأسخط بصنيعه هــذا اليمانية وعبّر أحــد شعرائهم عن هذا السخط بأبيات منها :

أتترك قيس آمنين بــدارهم ونركبُ ظهرالبحرِ والبحرُ زاخرُ

فاضطر معاوية حينئذ الى استرضاء اليمن وادعى انه ما فعل ذلك الا لانهم موضع ثقته (١) .

وقد سار نفر من خلفاء بني أمية على خطــة مؤسس دولتهم ، يقرب بعضهم اليمانية، ويقرب بعض آخر المضرية ، فيؤدي صنيعهم هــذا الى إثارة العصبيات والخصومات القبلية . وقد ذهب ولهوزن الى ان هــذه السياسة المتحيزة لم يظهر الا في الحقبة الاخيرة من عصر بني امية ، على اننا لاحظنــا ان بوادر هذا التحيّز قد تجلت منذ مطلع العصر الاموي ، وذهب ولهوزن أيضاً إلى ان سياسة يزيد بن عبد الملك الموالية للقيسية لم تكن هي

---

١ ــ الاغاني ٦٩/١٨ .

التي دفعته الى محاربة اليمن وانما كان دافعه الى ذلك الثأر ، وكان لكلب في بلاطه من الحظوة مثلما كان لقيس (١) . وفي الواقع ان نقمة يزيد بن عبد الملك انما كانت موجهة الى يزيد بن المهلب وآله لتنكيله بأصهاره آل ابي عقيل إبان خلافة سليمان بن عبد الملك (٢) ، فلما وقفت أزد العراق في صف ابن المهلب كان من الطبيعي ان يقف يزيد بن عبد الملك منهم موقف العداوة وان يختار ولاته من المضرية (٣) .

وحين استخلف هشام بن عبد الملك قوي أمر اليمانية لتوليته خالداً القسري العراق ولكن هشاماً لم يكن راضياً عن سياسة خالد واخيه اسد والي خراسان في التعصب لليمانية ، فحمل خالداً على عزل اخيه عن خراسان لافساده الناس بعصبيته(٤)، بل إنه اصبح كارهاً لليمانية عازفاً عن استعمالهم منذ ان فسد ما بينه وبين خالد القسري . وقد ذكروا انه لما أراد اختيار وال لخراسان بعد وفاة أسد بن عبد الله أشير عليه بجديع بن علي الازدي المعروف بالكرماني فأجابهم إنه لاحاجة له في اليمانية واختار لولاية خراسان أحد المضرية وهو نصر بن سيار الكناني (٥) . بل اننا نجد هشاماً ينقاد لداعي العصبية الضيقة فيأبى ان يكون عامله على خراسان قيسياً ، ويقابل عصبية يوسف ابن عمر لقيس بعصبية خندفية (٦) .

ولما استخلف الوليد بن يزيد وقف موقف التأييد الصريح للقيسية، أصهار

---

١ ــ ولهوزن ص ١٨٤ ــ ٢٦٠ .

٢ ــ كان يزيد متزوجا ابنة محمد بن يوسف الثقفي اخي الحجاج وهي ام ابنه الوليد.

٣ ــ كان والي البصرة والكوفة في عهده مسلمة بن عبد الملك ثم عمر بن هبيرة القيسي وولي خراسان سعيد خذينة وهو قرشي ثم سعيد بن عمرو الحرشي وهو قيسي . وولى مكة عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري (الطبري ومعجم الانساب لزامباور) .

٤ ــ الطبري ٣٩٢/٥ .

٥ ــ الاخبار الطوال للدينوري ٣٤٢/١ .

٦ ــ الطبري ٤٧٩/٥ .

أبيه ، وفي عهده قتل خالد القسري فأحفظ مقتله اليمانية بالشام وكان مقتله احد اسباب ثورتهم عليه وقتلهم إياه . وقد نسبت الى الوليد قصيدة يفخر فيها بالعدنانية وينال من اليمانية ، ويسخر منهم ويتحداهم ان ينتصروا لخالد ، وكانت هذه القصيدة سبباً في تفاقم نقمة اليمانيةعلى الوليد (١) .

فلما أديل ليزيد الناقص من الوليد الثاني كان من الطبيعي ان يقرب اليه اليمانية الذين حملوه الى سدة الحكم وظاهروه في ثورته . وقد عزل القيسية عن أعماله وأقصاهم عن مجلسه حتى لم يعد يغشاه احد منهم . بل لقد بلغ من سخطه على قيس ، فيما ذكر الطبري ، انه همّ باستئصالها وما منعه من ذلك الا كراهيته سفك الدماء ، وعلل نقمته عليها بقوله « انها ما عزت إلا ذلّ الاسلام (٢) » .

ثم بويع مروان بن محمد بالخلافة واعتمد على العنصر القيسي فأثاربذلك اليمانية في شتى مواطنهم وكانت ثورتهم عليه احد اسباب انهيار الحكم الاموي لانه شغل بمقاتلتهم فلم يتنبه لخطر ابي مسلم الخراساني الا بعد فوات الاوان .

وينبغي ألا نسقط من حسابنا ، حين نتحدث عن دور خلفاء بني امية في إثارة العصبيات ، عصبيتهم لقبيلتهم قريش عامة ولبني امية خاصة . وكانوا يعلنون في كل مناسبة ان لقريش وحدها الحق في تولي امور المسلمين وليس لغيرهم ان يطمع في هذا الامر . ونجد معاوية يؤيد ، منذ زمن عثمان ، حق قريش في الحكم ويعدد لمن سيّرهم عثمان اليه من اشراف اهل الكوفة فضائل قريش التي تجعل الخلافة وقفاً عليهم دون غيرهم (٣) . وكان انصار بني أمية يؤيدونهم في دعواهم ان الخلافة حق لهم دون غيرهم وينكرون على القبائل الاخرى مطالبتها بهذا الامر ، فحين اتى مسلم بن عقبة المري بمعقل

---

١ ــ الاخبار الطوال ٣٤٨/١ . الطبري ٥٣٩/٥ .

٢ ــ الطبري ٥٧٢/٥ .

٣ ــ الطبري ٣٦١/٣ .

أبن سنان بنعيد وقعة الحرة ، أنكر عليه أن يكون لغطفان وأشجع من الخلع والخلافة شيء[1]. وهذه السياسة المستعلية كان لها دون ريب أثر قوي في تحريك النعرات القبلية وإثارة العصبيات .

ومن الامور التي أدت الى إثارة العصبيات والنعرات القبلية سياسة التحريش بين الشعراء والرجال البارزين التي سار عليها نفر من خلفاء بني امية وولاتهم . وكان اشدهم ولعاً بهذا الامر بشر بن مروان ، أخا عبد الملك وواليه على العراق ، فكان لا يزال يغري بين الشعراء ويحرض بعضهم على هجاء بعض . فهو الذي أغرى بين جرير والاخطل (٢) ، وهو الذي أغرى بين جرير وسراقة البارقي (٣). وفي اعتقادنا أن بشراً لم يكن يستوحي في عمله هذا مصلحة الدولة وانما كان يستجيب لنزعة في نفسه . ويدلنا موقفه من المهلب بن ابي صفرة وسعيه في ابعاده عن القيادة وفي الايقاع بينه وبين أبن مخنف ، رئيس ازد الكوفة ، على انه لم يكن يتوخى دائماً ما فيه صالح الدولة التي يمثلها (٤) .

وقد لجأ عبد الملك نفسه الى خطة التحريش والاغراء هذه في بعض الاحيان . فقد ذكروا ان عياش بن الزبرقان دخل عليه يوماً وعنده رَوح بن زِنباع الجذامي فقال عبد الملك : يا عياش اما ترى هذا اليماني يفخر عليك بملوك اليمن ؟ فما لبث ان لج التفاخر بين الرجلين وتعصّب كل منهما لقومه (٥) . وحرّش مرة اخرى بين كثير بن هراشة الكلابي والحجاج بن يوسف الثقفي (٦) . وأغرى ابن زياد مرة بين المنذر بن الجارود العبدي وعبد الله بن خازم السلمي (٧) .

---

١ ـ الطبري ٣٧٨/٤ .
٢ ـ طبقات ابن سلام ص ٢٧٧ ـ ٤٠٨ .
٣ ـ الاغاني ٦٨/٨ . انساب الاشراف ١٧٤/٥ .
٤ ـ انظر خبره مع المهلب في الكامل للمبرد ٢١٩/٢ .
٥ ـ انساب الاشراف ٢٥٤/١١ .
٦ ـ الانباه لابن عبد البر ص ٨٩ .
٧ ـ البيان والتبيين للجاحظ ٢٨٥/٢ .

وقد أدرك دعاة بني العباس الفائدة التي تعود عليهم من إثارة العصبيات والفتن بين القبائل العربية من طريق اغراء بعضها ببعض . فلما وجه ابراهيم ابن محمد أبا مسلم الى خراسان اوصاه ان يقرب اليه اليمانية ويكرمهم ، وان يتهم ربيعة في أمرهم وان يقتل من شك في أمره من مضر فانهم العدو القريب الدار (١) .

وقد نجح أبو مسلم في اتباع خطة الاغراء بين قبائل خراسان وأفلح في إفساد الامور بين نصر بن سيار والكرماني بعد ان أوشك الصلح ان يتم بينهما وان يتحالفا على قتاله وأتيح له ان يضرب بهذه الخطةالقبائل اليمنية بالمضرية وان يوهن قوى الفريقين وهذا ما سهّل عليه القضاء عليهما جميعاً آخر الامر (٢) .

ولغايات سياسية ايضاً حاول بعض خلفاء بني امية ، ولا سيما معاوية وابنه يزيد وعبد الملك بن مروان ، ضم بعض القبائل اليمانية كقضاعةوخزاعة وجذام الى زمرة القبائل المعدية ، ولكن هذه المحاولات قوبلت باستنكار عنيف من جانب القبائل اليمانية وكانت مدعاة لاثارة العصبيات والخصومات القبلية (٣) .

وكذلك كانت عصبية ولاة الامويين لقبائلهم وسوء سيرتهم في امصارهم من الدوافع القوية في إثارة العصبيات في ذلك العصر . ولم ينج من الخضوع لداعي العصبية الا قلة من الولاة في طليعتهم زياد . ونحن نلاحظ بوجه عام ان عصبية الوالي لقومه تشتد حين تكون قبيلته ذات صولة وعدد في المصر الذي يتولاه ، فالوالي انما يستظهر بقبيلته ومنها يستمد قوته وسلطانه ، والوالي الذي لا يكون له سند قبلي لايجد من يحميه عند وقوع الفتنةواختلال الامور في مصره . ولذلك اضطر زياد الى الاستجارة بالازد إبان فتنة ابن الحضرمي بالبصرة (٤) ، وكذلك صنع ابنه عبيد الله إبان فتنة مسعود ثم

---

١ – الطبري ١٤/٦ .
٢ – الاخبار الطوال ٣٦٠/١ . الطبري ٣٢/٦ .
٣ – انظر الاغاني ١١/٩ و ٣١٤/٩ ومنتخبات في اخبار اليمن ص ٨٧ .
٤ – الطبري ٨/٤ .

أضطر الى الفرار من البصرة لينجو بنفسه (١) . ولهذا السبب كان الخلفاء يحرصون في الغالب على ان يكون للوالي الذي يختارونه قبيلة قوية تنصره وتشد أزره في مصره ، والوالي الذي لا يجد سنداً من قبيلة قوية لا مفرّ له من ان يستعيض عنه بحماية الخليفة . فحين اختار هشام بن عبد الملك نصر ابن سيار والياً لخراسان واعترض بعضهم على هذا الاختيار لانه ليس لـه قبيلة تنصره بخراسان اجابهم هشام انه له بمثابة عشيرته (٢) . فاذا فقـد الوالي هذه الحماية تزعزع سلطانه وطمعت فيه القبائل وتعرضت حيـاته للخطر . ولم تَحُل شخصية قتيبة بن مسلم القوية وسلطانه الشخصي دون ثورة قبائل خراسان عليه وقتلهم اياه حين اعلن تمرده على سليمان بن عبـد الملك ونادى بخلعه ، لان باهلة قبيلته لم يكن لها من القوة في خراسان ما يتيح لها حمايته (٣) . ولهذه الاسباب كان الوالي الذي لا يعتمد على سند قبلي في مصره يؤثر التزام الحيدة في موقفه من القبائل التي يبسط عليها سلطانه صنيع زياد وابنه في البصرة . اما حين تكون له قبيلة قوية يستظهر بها فهو يتعصب لها ويؤثرها بالمنافع والخيرات ويعادي من اجلها سائر القبائل . فلا غرو ان نجد القبيلة يشرق وجهها بالبهجة والبشر ويتعانق أبناؤها حين يقع اختيار الخليفة على وال ينتمي اليها (٤) .

وممن اتهم بالعصبية من ولاة بني امية الحجاج بن يوسف الثقفي ، ومن آثار عصبيته اختياره جل عماله من القيسية . ولكن عصبية الحجاج يفسرها انه لم يكن يطمئن الا الى ولاء رجال قيس ، ولا سيما بعد ثورة ابن الاشعث. ولهذا سعى في إقصاء آل المهلب اليمانية عن ولاية خراسان ودفعها الى وال قيسي يطمئن الى ولائه هو قتيبة بن مسلم (٥) . اما قبل ثورة ابن الاشعث

---

١ ــ الطبري ٣٨٧/٤ .
٢ ــ الطبري ٤٧٩/٥ .
٣ ــ الطبري ٢٧٣/٥ .
٤ ــ انظر مثلا الطبري ٢٧٧/٥ و ٣٩٦/٥ .
٥ ــ الطبري ١٩٢/٥ .

فلم يظهر من الحجاج مثل هذا التعصب ، فهو الذي اختار المهلب والياً لخراسان ثم اختار ابنه يزيد بعده . وهو الذي اختار عبد الرحمن بن محمد ابن الاشعث قائداً لجيش البصرة الذي وجهه لقتال رتبيل . وكذلك اتهم الحجاج باغضائه عن ثورة موسى بن عبد الله بن خازم السلمي بدافع العصبية القيسية ، ولهذا ايضاً نقم على المفضل بن المهلب قتله موسى بن عبد الله حين ولاه خراسان (١) . وبدلا من ان يحاول الحجاج إخماد نار العصبيات القبلية والقضاء على الروح القبلية الجاهلية أسوة بخطة سلفه زياد وجدناه يقف موقف المتفرج من المعركة الهجائية التي ثارت بين جرير والفرزدق والتي شارك فيها شعراء آخرون كثيرون . بل انه كان ربما شجع على أحياءالروح الجاهلية في بعض الاحيان ، فقد حدثوا انه أمر جريراً والفرزدق أن يأتياه في لباس آبائهما في الجاهلية ، فأتاه الفرزدق بلباس الديباج والخز ، وأتاه جرير بلباس الحرب والقتال (٢) .

ومن ولاة بني امية الغالين في عصبيتهم الجراح بن عبد الله الحكمي ، وكان يقول : « والله لرجل من قومي أحب الي من مائة غيرهم » . وبسبب عصبيته هذه عزله عمر بن عبد العزيز عن ولاية خراسان (٣) . ومن الولاة المتعصبين عمر بن هبيرة والي العراق زمن يزيد بن عبد الملك وكان من دواعي فخره أنه لم يعرض له امر رأى فيه منفعة لقومه قيس الا فعله (٤) . ومنهم خالد بن عبد الله القسري وكان من اشد خلق الله عصبية على نزار (٥) ، وقد اتهمته المضرية بتعمده إيذاء شعراء مضر وحبسهم (٦) . وكانت عصبيته

---

١ ــ الطبري ٢٠٦/٥ .
٢ ــ الاغاني ٧٦/٨ .
٣ ــ الطبري ٣١٣/٥ .
٤ ــ الطبري ٣٦٩/٥ .
٥ ــ الاغاني ٢٩/١٩ ــ ٦٠ (ساسي) .
٦ ــ طبقات ابن سلام ص ٢٦٨ .

على نزار من اسباب نقمته على الكميت الاسدي لقوله قصيدته المشهورة في هجاء اليمن ، فاحتال خالد فيما يروون في إسخاط هشام عليه حتى أمر بحبسه (١) . وكان اسد بن عبد الله ينافس اخاه خالداً في عصبيته على النزارية ، وافسد بعصبيته هذه قبائل خراسان حتى اضطر هشام الى عزله عن ولايتها (٢) . فلما ولّي نصر بن سيار خراسان بعده أظهر العصبية لمضر فلم يستعمل طوال اربع سنين الا مضرياً (٣) . وكانت عصبيته لمضر بمثابة رد فعل لعصبية أسد لليمانية .

وعرف بهذه العصبية ايضا يوسف بن عمر الثقفي والي العراق بعد خالد ابن عبد الله ، وقد ظهرت عصبيته في مناسبات شتى منها انه حين استشاره هشام فيمن يوليه خراسان ، لم يشر عليه الا بجماعة من قيس ولكن هشاماً آثر عليهم نصر بن سيار الكناني وكان من قوله ليوسف بن عمر : « ولكنك تقيّست عليّ وانا متخندف عليك (٤) » .

وظهرت عصبية الولاة ايضاً في أقطار اخرى غير العراق والشام وخراسان وقد جاء في بعض الاخبار ان هشام بن عبد الملك عزل حنظلة بن صفوان الكلبي عن إفريقية وولاها عبيدة بن عبد الرحمن السلمي فأضرّ بمن هناك من كلب وتعصّب عليهم (٥) .

وقد أدت عصبية الولاة هذه الى اتقاد نار العصبيات طوال عصر بني امية ، والى اتصال الفتن القبلية في شتى اقطار الدولة الاسلامية ولا سيما في خراسان التي ظهرت فيها عصبية الولاة على اشدها .

---

١ ـ الاغاني ١١٠/١٥ (ساسي) .
٢ ـ الطبري ٣٩٢/٥ .
٣ ـ الطبري ٤٨٠/٥ .
٤ ـ الطبري ٤٧٩/٥ .
٥ ـ انساب الاشراف ١٤٢/٥ .

ويتصل بالسياسة عامل آخر من بواعث هياج الخصومات القبلية في هذا العصر هو تنازع القبائل التي تنزل في ديار واحدة السلطان السياسي فيها . فكل قبيلة ترغب في أن يكون لها نصيب الاسد من المناصب السياسية والادارية وان تكون لها الكلمة الاولى في المصر ، وان تتبوأ مركز الصدارة بين القبائل التي تشاركها في ديارها . وحين تفلح القبيلة في إيصال احد رجالها الى منصب الامارة في مصرها تعتد ذلك نصراً سياسياً لها وتسعى في ان تجني من وراء ذلك غاية ما يسعها ان تجنيه من المغانم المادية والمكانة الاجتماعية .

على ان ادراك قبيلة ما قسطاً كبيراً من النفوذ السياسي كان يجعلها موضع حسد سائر القبائل ويوغر عليها صدورها فتجعل همها زعزعة سلطان هذه القبيلة فتثور العصبيات لهذا السبب وتستعر الخصومات القبلية وربما أفضى الامر الى ثورة القبائل الناقمة على الدولة التي استمدت منها القبيلة سلطانها ونفوذها ومظاهرة اعدائها عليها .

ولقد كان هذا التنازع على السلطان السياسي من جملة الاسباب التي أدت الى وقوع الفتنة بين قبيلتي كلب وقيس بالشام . اذ ان استئثار كلب بالمناصب السياسية أوغر عليها صدور قبيلة قيس القوية فانحازت الى ابن الزبير وظاهرته على بني امية املا في ان يؤدي انتصاره الى انتزاعها المركز السياسي السابق الذي كانت تحتله قبيلة كلب منذ أيام يزيد بن معاوية .

وعقب وفاة يزيد تنازعت قبائل البصرة النفوذ السياسي فيها وأرادت الازد ان تجعل سيدها مسعود بن عمرو اميراً للبصرة ، ولكن قبيلة تميم القوية لم تكن لترضى ان يتأمر عليها رجل ينتمي الى القبيلة التي تنافسها وكان ذلك سبب مقتل مسعود ونشوب الفتنة بسببه (١) .

---

١ ــ انظر الطبري ٣٨٧/٤ . انساب الاشراف ٩٨/٤ .

ووقع نزاع قبلي مماثل في خراسان إثر موت يزيد أيضاً سببه الصراع على السلطان السياسي وعلى منصب الامارة فيها . واستطاع عبد الله بن خازم السلمي بعد قتال طويل بين قبيلته وبين قبائل ربيعة والازد ان يستأثر بالامور في ذلك المصر الى حين (١) .

وحين كان النزاع على السلطة يحتدم بين قبائل المصر كانوا يلجؤون الى حل وسط ينهي هذا النزاع هو ان يولوا أمرهم والياً من قريش . فهكذا وجدنا قبائل البصرة تحسم النزاع الذي قام بينها بعدموت يزيد باختيار عبد الله بن الحارث بن نوفل الهاشمي ريثما يجتمع امر الناس على امام (٢). وحذت قبائل الكوفة حذوهم فولوا عامر بن مسعود بن خلف القرشي (٣) . وكذلك حين وقعت الفتنة بين قبائل خراسان كتبوا الى عبد الملك ان يولي عليهم قرشياً لايحسدونه ولايتعصبون عليه فولى خراسان أمية بن عبد الله (٤) .



٣

الدواعي الاقتصادية

والنزاع بين القبائل لم يكن مرده الى الرغبة في الاستئثار بالسلطان السياسي فحسب، وانما مرده ايضاً الى الرغبة في الحصول على القسط الاوفى من المغانم المادية التي يحققها هذا السلطان . فالارتباط وثيق بين العوامل

---

١ - فتوح البلدان ٥١١/٣ .
٢ - الطبري ٣٩٤/٤ .
٣ - الطبري ٤٠٨/٤ .
٤ - الطبري ٣٨/٥ .

السياسية والعوامل الاقتصادية . وقد رأينا القبائل العربية تسلك في العصر الجاهلي سبيل الغزو والغارات لتحقيق الكسب المادي . فلما قامت الدولة الاسلامية سلكت القبائل طرقاً أخرى لتحقيق هذا الكسب ومنها طريق السياسة وتولي المناصب الادارية والحربية . وكانت هذه المناصب تعود على اربابها بفوائد جمة وأموال طائلة . وهذا يعلل ما كان يقوم بسببها من التنازع الشديد بين اشراف القبائل ورؤسائها . فالوجاهة السياسية كانت تستتبع دائماً المغانم المادية ، والتنافس على المناصب السياسية والادارية يخفي وراءه تنافساً على المكاسب والمغانم ، والصراع السياسي بين القبائل يحمل في الوقت عينه طابع صراع اقتصادي هـو صورة جـديدة من صور الغزو القبلي في العصر الجاهلي تلائم مقتضيات البيئة الجديدة . والقبائل العربية التي قاست حياة الضنك والشظف في العصر الجاهلي لم تعد تقنعها المغانم التافهة في العصر الاموي بل اخذت ترنو الى الظفر بنصيب اعظم من المغانم المادية يوفر لها حياة رضية هانئة . وكان لا مفر من ان يشتد النزاع بينها لهذا السبب لان كل قبيلة كانت تحاول الاستئثار بالحظ الاوفى من هذه المغانم على حساب القبائل الاخرى . وفي النزاع الذي نشب بين قبائل خراسان بعد موت يزيد نسمع قبيلة بكر تتساءل حين استأثر ابن خازم وقومه بالامر : « علام يأكل هؤلاء خراسان دوننا ؟ (١) » فالغنائم والفيء والمنافع المادية كانت محور اكثر الخصومات القبلية التي ذرت قرنها في عصر بني امية .

وفي بعض الاحوال كان النزاع القبلي يحمل طابعاً اقتصادياً خالصاً يذكرنا بنزاع القبائل على موارد المياه ومنابت الكلأ في العصر الجاهلي . فالنزاع على امتلاك ارض او مورد ماء او مرعى ماشية ، لم ينقض امره بانقضاء العصـر الجاهلي ، وانما تجدد في العصر الاموي على نطاق قبلي اوسع ، وفي صورة اعنف مما كان عليه الامر في الجاهلية . وكان الموطن الاول للخصومات القبلية الناجمة عن التنازع على المراعي وموارد الماء بلاد الجزيرة التي كانت مسرحاً لوقائع دامية متصلة بين قبيلتي قيس وتغلب في اوائل هذا العصر .

---

١ ــ فتوح البلدان ٥١١/٣ .

٤

أثر الشعراء والخطباء

وعامل اخير في إثارة العصبيات لا يقل عما ذكرنا شأناً هو العامل البياني، ونريد به ما كان للشعراء والخطباء من يد في تهييج الخصومات القبلية واثارة العصبيات . ولن نطيل القول هنا في اثر الشعراء في إيقاد نيران العصبية القبلية ، اذ اننا أفردنا له فصلا مستقلا يأتي بعدُ . وحسبنا ان نشير الآن الى ان هؤلاء الشعراء والخطباء كانوا من أقوى دواعي اثارة العصبيات في عصر بني امية ، اما من طريق مباشر في دعوتهم القوم الى الثأر وتحريضهم على قتال القبائل المعادية لهم وتحديهم خصومهم ، واما من طريق غير مباشر هو تلك المفاخرات والمناقضات التي كانت تقع بينهم ويستعيدون فيها ذكرى الوقائع القبلية وينشرون المثالب والمعايب فينكؤون بذلك الجروح القبلية القديمة التي اوشكت ان تندمل ويثيرون الحزازات التي كاد الزمن ان يعفي عليها فتتجدد الخصومات وتتصل الوقائع .

* * *



الفصل الثالث

حدود العصبيّة القبليّة وأبرز مظاهرها في هذا العصر



١

اتساع حدود العصبية في عصر بني أميـة

ظهور التكتلات القبلية الضخمة وموقفها من احـداث العصر الاموي

لم تتعد العصبية القبلية في العصر الجاهلي ، على ما راينا ، حدود البطن او الرهط الا في احوال نادرة ، اذ كانت الجماعات القبلية تعيش في صورة وحدات صغيرة مستقلة يسعى كل منها وراء مصالحه الخاصة التي كانت كثيراً ما تتعارض مع مصلحة القبيلة الجامعة .

ومنذ العصر الاسلامي اضطرت هذه الوحدات الصغيرة الى ان ينضم بعضها الى بعض لدى استيطانها الحواضر المفتوحة والامصار المحدثة ، فتنزل بطون القبيلة كلها خطة واحدة او خططاً متجاورة ويكون لها راية واحدة ورئيس واحد . واصبحت هذه البطون تؤلف كتلة قبلية واحـدة يدها واحدة وعصبيتها واحدة . وقد اضطرتها مجاورتها لجماعات قبلية تحمل لها روح العداء ان تتحد كلها في جبهة واحدة تقف في وجه الكتـل القبلية الاخرى . فقبيلة قيس مثلا التي لم تؤلف في العصر الجاهلي كتلة قبلية واحدة والتي كان بين بطونها حروب وخصومات متصلة في ذلك العصر اصبحت في هذا العصر كتلة واحدة على اختلاف بطونها تتعاون معاً فيما يعود عليها بالخير والنفع واصبح لفظ قيس يعمها جميعاً فلا نجد لبني سليم او لغطفان او لعامر دعوة مستقلة تميزهم من قبيلتهم المشتركة . ومثال قيس هذا يمكن ان نطبقه على سائر القبائل الكبيرة في هذا العصر .

بل ان نظام التوزيع القبلي (الاسباع والاخماس ونحوها) الذي اتبع في

بعض الامصار قد ألجأ بعض القبائل القليلة العدد الى الانضواء تحت راية قبيلة قوية تجامعها في النسب فتكون دعوتها واحدة . ففي العراق وخراسان مثلا وجدنا قبيلة تميم تضم تحت لوائها فضلا عن بطونها المعروفة قبيلتي الرباب وضبة(١)، ووجدنا قبيلة مذحج في الكوفة تشمل دعوتها قبيلة طيء ، اختها في النسب (٢) . وقد ادى هذا الضرب من التحالف القبلي الى وحدة الشعور العصبي في الجماعات القبلية التي تعيش في ظل راية قبلية واحدة. ولهذا رأينا هذه الزمر القبلية تعمل معاً إبان الاحداث القبلية التي تمخض عنها هذا العصر ، ومن ذلك انه لما قامت الفتنة في مسجد البصرة بين مضر وربيعة ، ونادى احدهم يالتميم ، لبى نداءه نفر من بني ضبة كانوا في المسجد آنذاك (٣) .

فكذلك نرى ان السمة الغالبة على العصبية القبلية في هذا العصر هي اتساع نطاقها. فالعصبية للرهط أو البطن حلت محلها العصبية القبيلة والجذم، وعصر بني امية هو عصر التكتلات القبلية الواسعة النطاق .

بيد ان اتساع نطاق العصبية في هذا العصر لم يلغ العصبيات الضيقة إلغاء تاماً ، فظلت العصبية للرهط والبطن قائمة ، ولكن شأنها تضاءل وهان خطرها في هذا العصر . وهي ان وجدت لم تكن في الغالب تجاوز حدود المفاخرة اللفظية والمهاترة اللسانية . وقلما نجد في هذا العصر وقائع قبلية بين بطون القبيلة الواحدة كالتي كانت تنشب في العصر الجاهلي . وقد بلغت العصبية القبلية في هذا العصر مداها الاقصى الذي لا تسمو عليه الا العصبية للامة كلها — وهي الظاهرة التي شهد عصر بني امية مولدها ثم استفحل امرها في عصر بني العباس حين اصطدمت العصبية العربية بالعصبيات العجمية وحركة الشعوبية — . والمدى الاقصى الذي بلغته

---

١ — يجمع بين هذه القبائل الثلاث انتماؤها كلها الى أد بن طابخة (انظر جداول الانساب).
٢ — تنتمي كل من طيء ومذحج الى أدد بن زيد .. بن كهلان .
٣ — الطبري ٣٩٦/٤ .

العصبية القبلية هو العصبية للجذم ، لعدنان او لقحطان . ثم تأخذ حدود العصبية في الضيق في نطاق كل من هاتين العصبيتين وفق نظام هرمي قاعدته الجذم وقمته الرهط والعشيرة .

ونتيجة لاتساع نطاق العصبية وانضمام بطون القبيلة بعضها الى بعض في هذا العصر ، وتكوينها كتلة قبلية واحدة برزت على مسرح الاحداث فيه اسماء القبائل الكبيرة الضخمة العدد وكادت تتوارى فيه اسماء البطون المتفرعة منها والتي كان لها وجود مستقل في العصر الجاهلي . وحتى في الاحداث التي كان احد البطون يلعب فيها دوراً بارزاً كان يلجأ الى اطلاق اسم القبيلة الجامع بدلا منه ، ولذلك تتردد اسماء القبائل الضخمة : بكر وتغلب وعبد القيس واسد وقيس وتميم وكلب والازد وغيرها في جل الاحداث القبلية في هذا العصر .

وفي طائفة اخرى من الاحداث القبلية تتوارى اسماء هذه القبائل الضخمة نفسها ، وتحل محلها اسماء الشعوب والاجذام كربيعة ومضر ونزار واليمن وعدنان وقحطان . وفي هذه الاحوال نرى جميع القبائل التي تمت الى جذم واحد ينضم بعضها الى بعض وتجتمع كلها على قتال الكتل القبلية المعادية لها تحت لواء رئيس واحد منها . فالفتن القبلية التي قامت في خراسان أواخرَ عهد بني امية مثلا كانت تضم جميع القبائل النزارية من جانب والقبائل القحطانية كلها من جانب آخر ، وكان يقود الجبهة النزارية نصر بن سيار ، وهو من كنانة ، ويقود الجبهة اليمانية جديع بن علي الكرماني وهو من الازد .

وحين نتقصى اخبار العصبيات القبلية عامة في هذا العصر نجد ان ثمة كتلا قبلية ثلاثاً تلعب الادوار البارزة فيها وهي : اليمن ، وربيعة ، ومضر . ونحن نلاحظ ان القبائل القحطانية اضطرت منذ آل الامر الى بني امية ان توحد صفوفها في المعترك القبلي خشية ان تتسلط عليها القبائل المضرية وان تتعرض مصالحها السياسية والاقتصادية للخطر . وقد رأينا بعض قبائل

اليمن يحز في نفسها ان تتصدع وحدتها وتقتتل يوم صفين في سبيل رجلين من قريش . ولم تزل طائفة منها ناقمة في دخيلة نفسها على العدنانية منذ أفضى الامر اليهم واقصي عنه الانصار اليمانية عقب وفاة الرسول عليه السلام . وقد ادركت الكتلة القحطانية ان الحجة التي بنى عليها المهاجرون من قريش حقهم في تولي امور المسلمين ، وهي قرابتهم من رسول الله ، قد قضت على اي امل لهم في الوصول الى الحكم ، ودفعها ذلك الى التآزر والتعاضد فأصبحت الدعوة اليمانية تجمع شمل القبائل القحطانية كافة ، على كثرة عددها وتشعب بطونها . فالرابطة القحطانية أصبحت في هذا العصر واضحة المعالم وثيقة العرى لها دعاتها وأنصارها من الامراء والاشراف والشعراء والخطباء . اما الرابطة العدنانية فكانت عرضة للتصدع في كثير من الاحوال . فلم تكن ربيعة ومضر تؤلفان دائماً جبهة موحدة ابان الاحداث القبلية التي شهدها هـذا العصر ، وفق ما يقضي به تدرج مراتب العصبية . بل كانتا كثيراً ما تتعاديان وتقتتلان ، شأن قيس وتغلب في الجزيرة مثلا وتميم وبكر في خراسان إبان فتنة ابن خازم . والظاهرة العجيبة ان قبيلة ربيعة كانت تنحـاز في اكثر الاحيان الى جانب القحطانية وتظاهرها على اختها مضر ، كالذي حدث في البصرة عقب وفاة يزيد بن معاوية مثلا ، وما ذاك الا لتضارب مصالح هاتـين القبيلتين السياسية والاقتصادية ، ولانه كان في نفس ربيعة من السخط على مضر والحسد لها بسبب استئثارها بالحكم مثل الذي كان في نفس القحطانية ، وقد صور ابن خازم هذا الحقد بقوله : « ان ربيعة لم تزل غضاباً على ربها منذ اختار الله رسوله من مضر(١) » . فلا غرو ان نجد هذا الشعور المشترك يؤلف بين اليمن وربيعة ويدفعهما الى توحيد جبهتهما والى التحالف الحربي على منافستهما المشتركة مضر في كثير من الاحيان (٢) .

---

١ ــ الطبري ٤/٤٢٤ .

٢ ــ تحالفت اليمن وربيعة على مضر ابان فتنة مسعود مثلا وفي زمن ولاية المهلب على خراسان (الاغاني ١٤/٢٩٠) وفي وقعة البروقان بخراسان (٥/٣٧٩) وحين ظهر امر الدعوة العباسية في العراق (الاخبار الطوال ١/٣٦٥) .

وعلى الرغم من وحدة الشعور العصبي بين شتى القبائل القحطانية ، كان تباين المصالح ربما أدى احياناً الى انقسام الجبهة اليمانية . فنجد يمانية الشام تقف احياناً موقفاً معادياً من يمانية العراق ، ولا سيما ان القبائل القحطانية في كل من هذين القطرين كانت متباينة في أصولها القريبة ، لا يوحد بينها الا الجذم القحطاني المشترك . اذ كانت كثرة يمانية الشام من قضاعة وحمير وعكّ في حين كانت كثرة يمانية العراق من الأزد وهمدان ومذحج . ومن هنا كان من الضروري عدم اطلاق لفظ اليمانية في جميع الاحوال ، وان نميز بين الكتلة اليمانية الشامية ، والكتلة اليمانية العراقية ، ولو اننا سنرى ان وحدة المصالح كانت كثيراً ما توحد موقف هاتين الكتلتين .

وقد وقفت هذه الكتل الثلاث : اليمانية والمضرية والربعية من احداث العصر الاموي الموقف الذي تمليه عليه عصبيتها في اغلب الاحيان، وكان رائدها دائماً توخي مصلحتها القبلية . وفي احوال قليلة كانت مطامع رؤساء القبائل وغايتهم الشخصية هي التي تحدد موقف قبائلهم ، كالذي وجدناه مثلا إبان الصراع بين ابن الزبير وعبد الملك ، فقد استطاع عبد الملك اغراء العدد الاكبر من رؤساء قبائل العراق ووجوهها بالمال والوعود السخية وجعلهم ينحازون اليه ويخذلون مصعبا (١). على انه حتى في هذه الاحوال لا يسعنا اتهام هؤلاء الرؤساء بأن مسلكهم كان مناقضاً لمصلحة قبائلهم فلعلهم كانوا يرون من الخير لهم ولقبائلهم ان يبادروا بالتقرب وإظهار الولاء لمن يتوقعون صيرورة الحكم اليه آخر الامر .

ومنذ مستهل العصر الاموي قنعت الكتلة اليمانية الشآمية ، وقد فاتها الوصول الى الحكم، بأن تجعل صلتها وطيدة بالأسرة الحاكمة لتطمئن الى رعاية مصالحها في ظلها . وقد تحقق لها هذا الامر إبان حكم معاوية لانهم كانوا جلّ أنصاره في صفين ، فضلا عما كان بينهم وبينه من صلات المصاهرة وكان خلفه يزيد أشد تقريباً لليمانية منه ، ولا سيما قبيلة أخواله كلب .

---

١ ـ انساب الاشراف ١١/٦ .

فلما أضطربت الأمور عقب وفاة يزيد سنحت الفرصة أما اليمانية للاستيلاء على مقاليد الامور ، ولا سيما ان الكثرة العددية بالشام كانت في جانبهم ، فضلا عن انه لم يقع بينهم من الخلاف والفرقة كالذي وقع بين النزارية . بل ان بعض المصادر قد ذكرت ان اليمانية حاولوا بالفعل الوصول الى الحكم وأن حسان بن بحدل الكلبي ، رأس يمانية الشام يومئذ ، ادعى الخلافة أياماً ثم تخلى عنها ، وكان تخليه عنها مدعاة لاستياء قومه منه (١) . وكان يعزيهم عن إخفاقهم في الوصول الى الحكم ان مروان لم يظفر بالخلافة الا على سواعدهم وهو ما عبر عنه شاعرهم بقوله :

فإلاّ يكن منا الخليفةُ نفسه ... فما نالها إلاّ ونحن شهودُ (٢)

فقد أصبحت لهم يد عند الخليفة ، وهو لاشك مُثيبهم عنها . وقد منّ بعض شعرائهم على بني امية مساندتهم اياهم وتخليهم لهم عن منصب الخلافة :

نزلنا لكم عن منبر الملك بعدما ... ظللتم وماإن تستطيعون منبرا(٣)

وقد قنع يمانية الشام أخيراً بمساندة بني امية ومظاهرتهم على ابن الزبير وسائر خصومهم رعاية لمصالحهم واكتفوا بأن شرطوا على مروان ما كان لهم من الشروط على معاوية وابنه يزيد ، ومنها ان يفرض لألفي رجل منهم في ألفين ألفين ، وان يكون لهم صدر المجلس وكل ما كان من حل وعقد فينبغي ان يكون عن رأي منهم ومشورة (٤).

وقد أتيحت الفرصة أمام يمانية العراق للوصول الى الحكم إبان ثورة ابن

---

١ ـ نقائض جرير والاخطل ص ١ وما بعدها .
٢ ـ انساب الاشراف ١٣٥/٥ .
٣ ـ انساب الاشراف ١٣٥/٥ .
٤ ـ مروج الذهب للمسعودي ٨٤/٢ .

الأشعث وظاهرتهم مضر العراق في هذه الثورة بغية التخلص من سلطان اهل الشام عليهم ، ولكن يمانية الشام لم يؤيدوا هذهالثورة بلكانوا سبب إخفاقها والقضاء عليها لانهم كرهوا انتقال مركز الدولة الى العراق . فلم تكن يد القحطانية واحدة في جميع الاحوال لاختلاف المصالح القبليةضمن نطاقالاصل الواحد . وعلى كل كان موقف القبائل القحطانيةطوال العصر الامويمستوحى من مصالحهم القبلية وهدفهم الاول السعي في جر المنفعة اليهم . ويدلنا على ذلك هذا الحوار الذي جرى بين اثنين من سادة كندة بالشام وهما مالك بن هبيرة السكوني والحصين بن نمير السكوني بصدد اختيار من يخلف يزيد بن معاوية من بني امية . وكان الحصين يميل الى استخلاف مروان بن الحكم في حين ان ابن هبيرة كان هواه في خالد بن يزيد . فقال مالك : « هلم فلنبايع هذا الغلام الذي نحن ولدنا أباه وهو ابن اختنا ، فقد عرفت منزلتنا من أبيه فانه يحملنا على رقاب العرب غداً » . فلما أصر الحصين على موقفه قال له مالك : « والله لئن استخلفت مروان وآل مروان ليحسدنك على سوطك وشراك نعلك وظل شجرة تستظل بها.إن مروان ابو عشيرة (لعلها ابو عشرة) ، وأخو عشيرة وعم عشيرة ، فان بايعتموه كنتم عبيداً لهم ولكن عليكم بابن اختكم [1] ... » . وكان مما يزيد في مخاوف ابن هبيرة صلة آل مروان بقيس وتخوفه أن تعطفهم عليهم،إذا صار الامر اليهم، عاطفة الرحم والعصبية فيتنكروا لليمانية . وقد سارت اليمانية على خطة تأييد كل خليفة يرعى جانبها ، فان لم ترض عن سياسته إزاءها ثارت عليه صنيعها بالوليد بن يزيد ومروان بن محمد لانحيازهما الى صف القيسية .

وكذلك كان موقف سائر الجماعات القبلية الضخمة من احداث العصر الاموي ومن بني امية مستوحى في المرتبة الاولى من المصلحة القبلية . وفي ضوء هذا المبدأ نعلل الموقف الذياتخذتهالقبائل من هذه الاحداث فنعللمثلا

---

١ ـ الطبري ٤/٤١٣ .

نقمة قيس على يزيد بن معاوية حين آل الامر اليه لانهم أيقنوا انه سينحازالى قبيلة اخواله كلب (١) . ولهذا السبب ايضاً ظاهرت قيس ابن الزبير بعدوفاة يزيد . وكذلك ساندت المضرية مروان بن محمد بدافع النقمة على اليمانية الذين قتلوا الوليد بن يزيد والرغبة في الثأر له (٢) . وعلى الجملة كانت جميع القبائل تسلك في ذلك العصر المسلك الملائم لمصلحتها القبلية .

بيد ان اتساع حدود العصبيات في هذا العصر لم يلغ العصبيات الضيقة التي تكون بين بطون القبيلة الواحدة او بين اسر البطن الواحد ، على ماقدمنا. ولكن هذه العصبيات كانت اقل خطراً في هذا العصر من العصبيات الواسعة ولم تتعد في مظاهرها حدود المفاخرات والمهاترات اللفظية الا في احوال قليلة.

ونحن نجد صدى هذه العصبيات على الغالب في اشعار شعراء البطـون وفيما كان يقع بينهم من مناقضات وملاحاة . فنجد مثلا في شعر الفرزدق والبعيث وجرير صدى العصبية بين بطني تميم: دارم ويربوع، ونجد في أهاجي عقيل بن علفة وشبيب بن البرصاء صدى العصبية التي أثاراها بتهاجيهما بين بطني بني مرة : يربوع بن غيظ ونشبة بن غيظ وكلاهما من ذبيان (٣) . وكذلك اثار شبيب بن البرصاء وارطأة بن سهية بتهاجيهما العصبية بين رهطيهما بني عوف بن ابي حارثة وبني عقفان بن ابي حارثة وكلاهما من بني نشبة بن غيظ بن مرة (٤) ، وفي مثل هذه المهاجـاة نجد العصبية تبلغ اضيق حـدودهـا .

وبعض هذه العصبيات الضيقة كان يثور بين بطون القبيلة الواحدة من

---

١ ـ انظر نقائض جرير والاخطل ص ١ وما بعدها .
٢ ـ الاخبار الطوال للدينوري ٣٥٠/١ .
٣ ـ انظر الاغاني ٢٧٢/١٢ .
٤ ـ الاغاني ٣٢/١٣ .

جراء التنازع على رياسة القبيلة ، كذلك النزاع الذي قام بين بطون بكر من جراء التنازع على الرياسة بين اشيم بن شقيق بن ثور ، وهو من بطن سدوس وبين مالك بن مِسمع وهو من بطن قيس بن ثعلبة (١) .

وفي احوال قليلة كانت هذه العصبيات الضيقة تؤدي الى نشوب الوقائع بين بطون القبيلة الواحدة، كتلك الوقائع التي نشبت بين بطني قُشير وجَعدة بأصبهان (٢) ، وكلاهما من بني عامر ، وكالنزاع الذي نشب بين بَحير بن ورقاء الصريمي وبُكير بن وشاح العوفي وادى الى وقوع العصبية والفتنة بين بطون بني سعد بن تميم بخراسان (٣) .



١ ــ الطبري ٣٩٦/٤ . النقائض ٧٢٨/٢ .
٢ ــ الاغاني ١٣/٥ .
٣ ــ انظر خبر هذا النزاع في الطبري ٢١/٤ ــ ٣٨ ــ ١٢٨ ــ ١٤٣ .

٢

مظاهر العصبية القبلية
وآثارها في هذا العصر

كان للعصبية في العصر الاموي مظاهر وآثار شتى تتجلى في صورة صراع حربي تارة ، وصراع لساني تارة اخرى ، كما تتجلى في اعتزاز القبائل بأنسابها وحرصها عليها وتمسكها بها ، وفي افتعال الاخبار والروايات التي ترفع من شأن القبيلة وفي استمرار بعض النزعات القبلية الموروثة عن الجاهلية، كالدعوة الى العشائر والتناصر القبلي والمعاقرات والثأر الفردي وغيرها وسنقف عند كل من هذه المظاهر وقفة قصيرة .

أ ـ التمسك بالانساب والاعتزاز بها

من مظاهر العصبية في هذا العصر تعلق القبائل بأنسابها وحرصها عليها واعتزازها بها وكرهها الانتماء الى غير أصلها ولو كانت القبيلة التي يراد الحاق نسبهم بها من القبائل العريقة في شرفها وحسبها .

وقد جاء في أخبار كثير الخزاعي الشاعر انه قال في مجلس عبد الملك أبياتاً ينتسب فيها الى كنانة ويفخر فيها باتصال نسبه بنسب الأسرة القرشية الحاكمة ومطلعها :

أليس ابي بالصلت ام ليس اخوتي بكل هجان من بني النضر أزهرا[1]
اذا ما قطعنا من قريش قرابة فأيّ قسيٍّ يحمل النبل ميسرا

---

١ ـ النضر هو النضر بن كنانة بن خزيمة وكان للنضر ولد يقال له الصلت (انساب الاشراف ٣٨/١) .

فحمله عبد الملك على أن ينشد هذا الشعر على منبري الكوفة والبصرة ، فلما حاول كثير ان يذيع أبياته هذه غضب أزد العراق والحجاز وآذوه وتهددوه بالقتل ورد عليه مقاله بعض شعرائهم . وكان مما اجابه به الأحوص — وهو من الأوس — :

ستأبى بنو عمرو عليك وينتمي ... لهم حسب في جذم غسان مُعرقُ

فإنك لا عمرا أباك حفظته ... ولا النضر إن ضيعت شيخك تلحقُ (١)

وادعى روح بن زنباع الجذامي عند يزيد بن معاوية انهم معديون وليسوا من اليمن وطلب الى يزيد إلحاقهم بمعد ووافقه في ذلك الشاعر عدي بن الرقاع العاملي (٢) ، فبلغ ذلك ناتل بن قيس سيد جذام فدخل على يزيد مغضباً وأعلن أنهم يمانون من قحطان وأنهم ليسوا بمختلفين عن نسبهم هذا ، وشتم روحاً لمحاولته نسبة قومه الى غير أصلهم ، واضطر روح الى التراجع وكذلك رجع عدي بن الرقاع عن مقالته وقال في تأكيد نسبتهم الى قحطان أبياتاً منها قوله :

قحطان والدنا الذي ندعى له ... وأبو خزيمة خندف بن نزارِ (٣)

وذكر نشوان الحميري ان معاوية وابنه يزيد حرضا بعض رؤساء قضاعة على الانتقاء من اليمن والانتساب الى معد فلما بلغ ذلك قضاعة غضبوا غضباً شديداً وأنكروا ذلك أشد الانكار ثم حشدوا واجتمعوا ودخلوا مسجد دمشق يوم الجمعة على يزيد وهم يرتجزون أبياتاً يؤكدون فيها انتماء قضاعة الى حمير واليمن (٤) .

---

١ — الاغاني ١١/٩ . ديوان كثير ص ١٩ . انساب الاشراف ٣٨/١ . بنو عمرو : هم بنو ربيعة بن حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء ... بن الازد، وهذا هو نسب خزاعة عند من ينسبهم الى الازد .

٢ — عاملة ولخم وجذام كلها من اصل واحد فهم من ولد عدي بن الحارث بن مرة بن أدد ابن كهلان .

٣ — الاغاني ٣١٤/٩ .

٤ — منتخبات في اخبار اليمن لنشوان الحميري ص ٨٧ .

وكان من أوجع الهجاء أن ينفي الرجل من قومه او يطعن في نسبه . وقد بلغ ببني عوف المريين اعتزازهم بنسبهم وتمسكهم به أن كل شيخ منهم كان يتمنى ان يصيبه العمى ليعرف أنه عوفي ، وكان العمى شائعاً في بني عوف. ولما أسن الشاعر شبيب بن البرصاء العوفي ولم يعمَ هجاه خصمه أرطاة بن زفر ونفاه عن بني عوف وغمز في نسبه ومما قاله فيه :

فلو كنتَ عوفياً عَميتَ وأسهلت كُداك ولكن المريبَ مُريبُ

ثم عمي شبيب بعد وفاة أرطاة فكان يتمنى لو أن أرطاة امتد به العمر ليراه أعمى فيعلم انه عوفي (١) .

ب ــ التماسك القبلي

ادركت القبائل في هذا العصر ان مصلحتها تقضي بشدة تماسكهاوتناصر افرادها،لانها بتماسكها وتناصرهاتستطيع تحقيق أغراضها من تبوؤ المناصب الرفيعة في الدولة وجر المغانم الى ابنائها ومناهضة القبائل الاخرى ونحو ذلك . وقد ظهر هذا التماسك في مظاهر شتى منها التفاف القبيلة حول الوالي اذا كان من رجالهاونصرتها إياه ، ولقاء ذلك يرعى الوالي مصلحةالقبيلة ويؤثرها على القبائل الاخرى ويختار حاشيته ومساعديه منها في الغالب ، وقد رأينا أن هذا الايثار كان من دواعي هياج العصبيات والفتن القبلية في هذا العصر . وقد ذكروا أن نصر بن سيار لما ولي خراسان لم يستعمل طوال مدة ولايته رجالا من غير مضر (٢) . ولم يكن الولاة يحاولون اخفاء عصبيتهم لقومهم بل كانوا ربما فاخروا بسعيهم في سبيل جر المنافع اليهم (٣) . وكان

---

١ ــ الاغاني ١٣/٣٣ و ١٢/٢٧٩ .

٢ ــ الطبري ٥/٤٨٠ .

٣ ــ كان عمر بن هبيرة يفخر بأنه لم يعرض له امر فيه منفعةلقومه الا فعله(الطبري ٥/٦٣٩).

هذا التماسك يسمو احياناً على الخصومات الشخصية بين رجال القبيله الواحدة ، فعلى رغم الخصومة العنيفة التي قامت بين عمر بن هبيرة وسعيد الحرشي ، – وكلاهما من قيس – لم يتردد الحرشي في إطلاق سراح ابن هبيرة حين ظفر به ضناً ان يسلم رجلا من قومه الى اعدائه من القبائل الاخرى(١). وقد لاحظ ولهوزن ان قبيلة قيس قد حققت مغانم عظيمة في العصر الاموي بفضل تماسك رجالها وانهم اول من كون عصابة حقيقية انتشرت في جميع مرافق الدولة ومناصبها (٢) .

وقد تجلى التماسك القبلي في نطاق العصبيات الواسعة ايضاً ، فحين سجن خالد القسري الفرزدق أوصى هذا ابنه ان يستعين بقيسية الشام ليشفعوا له عند هشام ، ففعلوا ، على رغم ما كان في نفوسهم نحوه لكثرة هجائه اياهم . وقد عبر الفرزدق عن هذه الرابطة المضرية التي تؤلف بين قيس وتميم في قوله من قصيدة قالها بهذه المناسبة :

ألم تر قيساً ، قيس عيلان شمرت	لنصري وحاطتني هناك قرومها
فقد حالفت قيس على الناس كلهم	تميماً ، فهم منها ومنها تميمها
وعادت عدوّي ، إن قيساً لأسرتي	وقومي اذا ما الناس عدّ صميمها(٣)

وكان هذا التماسك يتجلى كذلك بين بطون القبيلة الواحدة حتى حينما تتناءى منازلهم وتتباعد مواطنهم . ولهذا رأينا قيس العراق تنتصر لقيس الشام أيام العصبية بين قيس وربيعة بالجزيرة . وكذلك انتصرت ربيعة العراق لربيعة الشام ، وأمدت كل قبيلة أختها بالرجال والسلاح ، وثار

---

١ – الطبري ٣٦٩/٥ .

٢ – ولهوزن ص ٥٩ .

٣ – طبقات ابن سلام ص ٢٩٤ ، ديوان الفرزدق ص ٧٦١ .

النزاع بين اشراف القيسية والربعية بالعراق لهذا السبب(١) . ولما أتى عبيد الله بن زياد بن ظبيان بني تغلب مُمداً لهم ثارت العصبية بمصعب فقتل أخاه النابىء بن زياد فيما ذكروا (٢) .

وكذلك ظهر مثل هذا التماسك إبان الحروب التي ثارت بين قيس وكلب بالشام والجزيرة فحين أوقع حُميد بن حُريث بن بَحدل الكلبي بقيس الشام غضب لذلك أشراف القيسية بالعراق ، واستعدى أسماء بن خارجة الفزاري عبد الملك على حميد انتصاراً لقومه (٣) .

وظهر هذا التماسك والتناصر ايضاً في سائر الفتن القبلية في الشام والعراق وخراسان ، فقد حرق مالك بن مسمع دور بني تميم بالبصرة إبان فتنة مسعود رداً على استعراض ابن خازم قبيلة ربيعة بهراة (٤) . ولما اوقع ابن خازم ببني تميم في خراسان وقتل فرسانهم في قصر فرتنا غضبت تميم العراق وهاجت لصنيعه (٥) ، وكذلك حين هاجت العصبية بخراسان بين اليمنية والمضرية أرسلت يمانية الشام الى خراسان رجلا يعدل بألف ــ فيما ذكروا ــ في خمس مائة رجل من يمانية الشام لنصرة قومهم(٦) .

---

١ ــ تاريخ ابن الاثير ٤/٤ وما بعدها . الاغاني ٢٠٥/١٢ . انساب الاشراف ٣١٨/٥ . وروى البلاذري ايضا انه لما قتل عمير بن الحباب وقف عكرمة بن ربعي ، وهو من ربيعة ، على اسماء بن خارجة الفزاري فقال له : قتلت بنو تغلب عمير بن الحباب فأجابه اسماء : لا بأس ، انما قتل في ديار القوم مقبلا غير مدبر . ثم قال :

يدي لك رهن عن سليم بغارة ... تشيب لها أصداغ بكر بن وائل
وتترك أولاد الفد وكس عالة ... يتامى أيامى نهزة للقبائل

(أنساب الاشراف ٣٢٧/٥ . طبقات ابن سلام ص ٤١٦)

٢ ــ تاريخ ابن الاثير ٤/٤ .

٣ ــ الاغاني ١١٤/١٧ (ساسي) . انساب الاشراف ٣٠٨/٥ .

٤ ــ الطبري ٢٩٧/٤ .

٥ ــ الطبري ٥٤٧/٤ .

٦ ــ الطبري ٤٣٥/٥ .

ج ـ الاحقاد القبلية

ليس ثمة شعور أعمق جذوراً في نفس العربي المتعصب لقبيلته من حقده على القبائل المعادية لقومه . والقبيلة لاتنسى موجدتها على القبائل الاخرى وما تطلبها به من دماء وثأرات مهما تتطاول عليها الآماد . وقد جاء الاسلام يدعو القوم الى نبذ مابينهم من ضغائن واحقاد قديمة والى وضع دماء الجاهلية لئلا تتجدد الفتن القبلية بسببها . بيد ان تصفية نفوس العرب جميعاً من رواسب الجاهلية كان يتطلب مزيداً من الوقت ، على ما قدمنا ، فضلا عن تجدد الضغائن والاحقاد في العصر الاموي لتوافر دواعي الخصومة والتنازع بين القبائل ، فظلت لذلك قبائل العرب في هذا العصر تعاودها ذكرى احقادها القديمة وضغائنها المتوارثة ودمائها المطلولة في القبائل الاخرى ، وكان مسلكها إزاء القبائل الاخرى مستوحى في كثير من الاحيان من هذه الضغائن . وقد صور الاخطل عمق جذور العداوات القبلية وتأصل الاحقاد في النفوس في قوله :

إذا ما قلتُ قد صالحتُ بكراً ... أبى الاضغانُ والنسب البعيدُ
وأيام لنا ولهم طِوال ... يَعضّ الهامَ فيهنّ الحديدُ (١)

وصور كذلك تواري هذه الاحقاد حيناً ثم ظهورها ثانية في بيت سار مسير الامثال :

إنّ الضغينة تلقاها وإن قَدُمت ... كالعر يكمُن حيناً ثم ينتشرُ (٢)

وهذه الاحقاد تجعل القوم يسرون بكل مصيبة تحل بأعدائهم ويبتهجون لكل نائبة تنزل بهم ، وقد عبر أعشى تغلب عن هذا الشعور في قوله :

يزداد لحم المناقي في منازلنا ... طِيباً إذا عزّ في أعدائنا المرق(٣)

---

١ ـ انساب الاشرف ١٧١/٥ . طبقات ابن سلام ص ٤٠١ .
٢ ـ نقائض جرير والاخطل ص ١٥٧ . العر : الجرب .
٣ ـ البيان والتبيين ١٨٤/٢ . المناقي ج منقية : الناقة ذات الشحم .

ويحدثنا ابو الفرج ان معاوية لما وجه بُسر بن ارطاة الفهري الى الحجاز واليمن قام اليه جماعة من قيس فناشدوه الا يجعل لبسر سلطاناً على قيس فيقتل قيساً بمن قتلت بنو ُسليم من بني فهر وبني كنانة يوم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة (١) .

وصورت بعض الاخبار يزيد بن معاوية في وقعة الحرة بمظهر الثائر لمصرع قريش في غزاة بدر ، وزعموا انه تمثل بعدها بقول ابن الزبعرى :

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزعَ الخزرج من وقع الأسَل(٢)

وبدافع هذه الاحقاد القبلية ثارت بنو تميم على قتيبة بن مسلم حين أعلن عصيانه بخراسان ، إذ انه كان قد أوغر صدور بني تميم عليه بقتله بعض آل الاهتم من قبلُ كما وتر رئيسهم وكيعاً بصرفه الرئاسة عنه وجعلها في ضِرار ابن حصين الضبي (٣) . وكذلك لما استنصر قتيبة بني عامر على القبائل التي ائتمرت به أبت ان تنصره لانه كان قد جفاهم قبلُ (٤) .

وبدافع هذه الاحقاد القبلية أيضاً انحاز عمير بن الحباب الى جيش ابراهيم بن الاشتر وتخلى عن اهل الشام أنصار بني أمية يوم الخازر لانه لم ينس إيقاع بني امية وانصارهم اليمانية بقيس في موقعة مرج راهط . وكان خذلان عمير اهل الشام من اسباب هزيمتهم يومئذ(٥). وكذلك لما

---

١ ــ الاغاني ٥/١٠ .

٢ ــ الاخبار الطوال للدينوري ٢٧٧/١ .

٣ ــ الطبري ٥/٢٧٦ . نقائض جرير والفرزدق ٣٤٩/١ .

٤ ــ الطبري ٢٧٩/٤ .

٥ ــ انساب الاشراف ٥/٢٨٦ . الكامل للمبرد ١٦٦/٢ . الاخبار الطوال ٣٠٢/١ .

اصطلح زفر بن الحارث وعبد الملك أمر زفر ابنه ان يسير مع عبد الملك لقتال مصعب ، ولكنه ما كاد يقارب مصعباً حتى هرب اليه وانضم الى جيشه (١).

وقد ادى استئثار قريش بالامر دون سائر القبائل الى ان تضمر لهـا القبائل الاخرى الكراهية والحسد والحقد . وكان مما يبعث الاسى في نفوسهم اضطرارهم الى المحاماة عنها وبذل دمائهم في سبيلها . وقد صور احد شعراء عبد القيس ما تكنه نفوسهم من حقد وحسد لقريش بقوله :

تولت قريش لذة العيش واتقت ... بنا كل فج من خراسان أغبرا

فليتَ قريشاً اصبحوا ذاتَ ليلةٍ ... يعومون في لج من البحر اخضرا(٢)

ودعا شاعر قيسي قومه الى حقن دمائهم والى ان يدعوا قريشاً وشأنها، فالتنازع على الملك يعنيها وحدها ، فلتقتتل من أجله ان شاءت(٣). وبلغ من حقد بعض القبائل على قريش ان أبا حمزة الخارجي حين أقبل الى المدينة جعلت خزاعة تدله على عورات أهلها ليقتلهم ، وأظهر أحد اليمانية شماتته بمصارع قريش يومئذ(٤). ولما بايع عبد الله بن عمر الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي لم يخف أحد الشعراء الربعيين سروره وابتهاجه بخضوع قريش لبكر بن وائل وعبر عن شعوره هذا بقوله :

الم تر أن الله أظهـر دينـه ... وصلت قريش خلفَ بكر بن وائل(٥)

ويتصل بهذه الاحقاد القبلية حوادث الثأر الفردي التي لم تستطع الدولة القضاء عليها قضاء مبرماً على رغم تشددها في معاقبة مرتكبيها . ومن أمثلتها في هذا العصر مقتل بَحير بن ورقاء الصريمي بيد صعصعة بن حرب ، أحد بني

---

١ ـ تاريخ ابن الاثير ١٦/٤.
٢ ـ الطبري ٤٣٦/٥ .
٣ ـ جمهرة ابن حزم ص ٢٣٦ .
٤ ـ الطبري ٥٧/٦ .
٥ ـ الطبري ٦٢٠/٥ .

عوف بن كعب بن سعد ، أخذاً بثأر بُكير بن وشاح الذي قتله بحير (١).

د ـ استمرار النزعات الجاهلية

حارب الاسلام النزعات الجاهلية وقضى على كثير منها ولكن بعضها ظل قائماً في العصر الاموي لان نفوس العرب لم تكن قد تخلصت بعد من رواسب الماضي القريب . وقد رأينا طائفة من ولاة بني امية وزياداً خاصة يقفون من هذه النزعات موقف المناهض ويحذّرون القوم من التعلق بها ويضربون على ايدي الداعين اليها . ومن هذه النزعات التداعي الى القبائل والعشائر عند وقوع الشر ، وهو ما سماه زياد بـ « دعوى الجاهلية » وحذر الناس منهـا وهدد الداعين بها بقطع ألسنتهم في خطبته البتراء (٢) . ومنها إنهابالاشراف الناس أموالهم ، وهي عادة جاهلية كان يلجأ اليها المشهورون حين تهزهم الاريحية او يتحداهم منافسوهم في الشرف ، وهي كذلك مما نهى زياد الناس عنه ، وبسببها لاحق الفرزدق وسجن مرة بن محكان الشاعر (٣) .

ومن صور التنافس في الكرم الموروثة عن العصر الجاهلي المعاقرات، وهي ان يتنافس شريفان في عقر الأبل وإطعام الناس ، وقد حدثت في زمن علي معاقرة مشهورة بين غالب أبي الفرزدق وسُحيم بن وَثيل الرياحي ، وإبان ولاية مصعب على العراق حدثت معاقرة بين عِكرمة بن ربعي الملقب بالفياض لشدة كرمه ، وبين حوشب بن يزيد الشيباني ، وكلاهما من قبيلة بكر ، وكانا يتباريان في إطعام الناس ونحر الجزر في عسكر مصعب ، وكانت الغلبة لعكرمة

---

١ ـ الطبري ١٤٣/٥ .
٢ ـ انظر البيان والتبيين ٦٢/٢ .
٣ ـ الطبري ١٧٦/٤ . الاغاني ٩/٢٠ .

في هذه المباراة (١) . وجرت منافرة ومفاخرة بين جَناب بن شريك المجاشعي، وبين بني قَطَن بن نهشل فعقر جناب ثمانين ناقة فأراد بنو قطن معاقرته ولكن الناس خوّفوهم من معاقرة آل صعصعة فكفوا عن ذلك ، وكانت هــذه الحادثة إحدى المفاخر التي أشاد بها الفرزدق في نقائضه (٢) .

ومن صور التنافس في الكرم وما يؤدي اليه من وقوع الشر بن القبائل خبر الحارث بن حاطب ، وكان على صدقات بني حنظلة أيام زياد ، فورد على بني مالك بن حنظلة فصنعوا له طعاماً فسبق طعام بني طهية طعام بني عوف ابن القعقاع فاقتتلوا بينهم بسبب هذه المنافسة ، ونجم عن ذلك وقائع قبلية متصلة بين الفريقين (٣) .

وقد ظلت نزعة المفاخرة والمنافرة غالبة على النفوس في هذا العصر ، بل إنها ازدادت شدة فيه لاجتماع شتى القبائل في البلد الواحد وتجاور منازلها وتنافسها . وقد جاء في الاغاني ان أشراف الكوفة كانوا يخرجون الى ظاهرها ليتناشدوا الاشعار ويتذاكروا أخبار الايام والوقائع (٤) . فلا يكاد يلتقي رجلان من قبيلتين مختلفتين حتى يتذاكرا أيام قبيلتيهمـا في الجاهليـة ويتفاخرا (٥) .

وعلى الرغم من ان الاسلام وضع مبادىء جديدة مستمدة من التقوى والعمل الصالح في المفاضلة بين الناس،ظلت طائفة من رجال القبائل وأشرافها متعلقة بالمبادىء الجاهلية التي تجعل أسس المفاضلة بين الناس قائمة على

---

١ ـ الاغاني ١٨/٢٠ .

٢ ـ انظر نقائض جرير والفرزدق ٩٤١/٢ .

٣ ـ انظر خبرها في النقائض ٧٨/١ وما بعدها .

٤ ـ الاغاني ٢٢٢/١٥ .

٥ ـ انظر البيان والتبيين ١٨١/٢ .

الاحساب والانساب والمآثر الجاهلية ، وعلى هذه الاسس قامت المفاخرات والمنافرات القبلية في هذا العصر . ولتعلق أشراف العرب بهذه المبادىء كانوا يأنفون من مصاهرة من لايجدونهم أكفاء لهم في الشرف ، ولو بلغوا أرفع المناصب في الدولة ، فحين طلب والي المدينة عثمان بن حيان المري الى عقيل ابن علفة المري أن يزوجه ابنته رده رداً غير كريم وعرض عليه ان يتزوج بكرة من إبله (١) . ومن آثار هذه الروح الجاهلية ان عمر بن يزيد الأسيدي ، وهو من أشراف بني تميم ، تزوج امرأة من بني عُدُس بن زيد ، وهم بيت تميم ، وكان جرير حانقاً على ابن يزيد لتفضيله الفرزدق عليه فقال فيه قصيدة منها قوله :

نكحتَ الى بني عُدُس بن زيد   فقد هجنتَ خيلهم العرابا

فأثار قوله هذا بني عدس فما زالوا بابن يزيد حتى خلعوا المرأة منه (٢).



---

١ ــ جمهرة ابن حزم ص ٢٤١ . الاغاني ٢٥٤/١٢ .
٢ ــ الاغاني ٧٤/٨ .

هـ ـ الأحلاف القبليـة

اضطرت بعض القبائل في هذا العصر الى الدخول في احلاف قبلية غايتها إقامة التوازن بين الكتل القبلية النازلة في البلد الواحد ، او التناصر لدفع أذى قبيلة قوية معادية .

وثمة أحلاف جاهلية ظلت مرعية في هذا العصر كحلف تميم وكلب الذي تحدثنا عنه آنفاً ، إلا ان هذا الحلف لم يكن له أثر في مجرى الاحداث القبلية التي تمخض عنها عصر بني أمية ، وانما ظهر أثره في بعض المناسبات ، فحين سجن خالد القسري الفرزدق مثلا شفع له سعيد بن الوليد الابرش الكلبي عند هشام فأطلق سراحه ، وقد أشار الفرزدق في شعره اكثر من مرة الى حلف تميم وكلب والاواصر القوية التي تربط بينهما كقوله :

أبى حِلف كلب في تميم وعَقدُها   كما سَنت الآباء ان يتغيرا(١)

وأشهر المحالفات القبلية التي شهدها العصر الاموي حلف ربيعة واليمن، وقد ظهر التقارب بين هاتين الكتلتين منذ زمن علي اذ كان جل انصاره منهما، وأورد ابن ابي الحديد صيغة حلف كتبه علي بين ربيعة واليمن بالعراق ذكر انه منقول من خط ابن الكلبي (٢) .

وفي مستهل العصر الاموي عقد حلف جديد بين قبيلة بكر الربعية وقبيلة الازد اليمنية بالبصرة . وقد أشارت بعض المصادر التاريخية الى دوافع هذا الحلف فذكرت ان مضر كانت تكثر ربيعة بالبصرة وكان بنو تميم قد حالفوا

---

١ ـ طبقات ابن سلام ص ٢٩٧ . الاغاني ٢٤/١٩ .

٢ ـ وهذه صيغة هذا الحلف كما رواه ابن ابي الحديد : « هذا ما اجتمع عليه اهل اليمن حاضرها وباديها وربيعة حاضرها وباديها . انهم على كتاب الله يدعون اليه ويأمرون به ويجيبون من دعا اليه وأمر به لايشترون به ثمنا قليلا ولا يرضون به بدلا . وانهم يد واحدة على من خالف ذلك وتركه وانهم انصار بعضهم لبعض دعوتهم واحدة لاينقضون من عهدهم لمعاتبة عاتب ، ولا لغضب غاضب ولا لاستذلال قوم قوما ولا لمسبة قوم قوما على ذلك شاهدهم وغائبهم ، وسفيههم وعالمهم وحليمهم وجاهلهم . ثم ان عليهم بذلك عهد الله وميثاقه ان عهد الله كان مسؤولا » (شرح نهج البلاغة ٢٣٤/٤) .

الأساورة والسيابجة بالبصرة ، فاصبحت لها الغلبة فيها ، فلما كثر عـدد الأزد بالبصرة وقوي أمرهم حث بنو تميم سيدهم الأحنف على محالفتهم قبل ان تسبقهم الى ذلك ربيعة ، فلم يشأ الأحنف ان يظهر حرصه على هذا الامر، وانتظر ان تخطو الأزد الخطوة الاولى ، لان طلب الحلف يصم القبيلة بالذلة والهوان ، ويجعلها في منزلة دون منزلة حليفتها . وحينئذ بادرت ربيعة الى طلب محالفة الازد لتشد بهم أزرها وتقوى بهم على تميم ، فأوفدت سيدها مالك بن مسمع ليعرض عليهم تجديد ما بينهما من احلاف قديمة ، ومنها حلف بكر وكندة ، وحلف بني ذهل بن ثعلبة وطيء ، فقبلوا . وقد تم عقد هذا الحلف في صدر خلافة يزيد بن معاوية ، وأشارت المصادر الى أن كتابين كتبا في توثيق هذا الحلف وتوكيده،ولكننا لم نقف على أثر لهما ، ويظهر أنهما تضمنا الاتفاق على دعم حكم يزيد الذي ساندته قبائل اليمن بالشام .

ولما بلغ الامر الاحنف أنكر على ابن مسمع إقدامه على عقد هذا الحلف مع نهي الاسلام عن ذلك ، ولكن ابن‌مسمع‌ذكره بمحالفته الاساورة‌والسيابجة وأشعره انه عارف بحقيقة الدوافع التي حملته على إنكار هذا الامر وان‌الذي أزعجه حقاً هو ظفر ربيعة بهذه النعمة دون تميم ، وكان جواب الاحنف ان عواقب هذا الحلف الوخيمة هي التي حملته على إنكاره وأن على ربيعة‌أن‌تعلن خضوعها وانقيادها للازد منذ اليوم (١). وقد ادعى الازد وربيعة بعد تحالفهما ان لحلفهما أصلا قديماً يرجع الى ايام الجاهلية (٢) . وعلى كل أدى عقد هذا الحلف الى توازن القوى القبلية في البصرة والى وقوف كتلتي تميم وأحلافها ضبة والرباب من جهة والازد وربيعة من جهة‌اخرى موقف العداوة والمنافسة طوال عصر بني أمية .

ثم استدعت الاحوال تجديد هذا الحلف مرة أخرى بُعيد وفاة يزيد، فقد هاج شر بين تميم وبكر بسبب مقتل احد البكريين ، وخاف مالك بن مسمع ان تدور الدائرة على قومه ، وهم دون تميم عدداً وقوة ، فسأل مسعود بن عمرو العتكي ، سيد الازد يومئذ ، أن يجدد الحلف بين قبيلتيهما . وأراد

---

١ ـ الطبري ٣٩٦/٤ وما بعدها . النقائض ٧٢٨/٢ . انساب الاشراف ١٠٥/٤ .

٢ ـ الكامل للمبرد ٣٠٠/٢ ط . ليبسيك . الاخبار الطوال ٣٥٢/١ .

عبيد الله بن زياد أنتهاز الفرصة للأيقاع بين تميم وبكر فحث مسعود بن عمرو على تجديد هذا الحلف وبذل في سبيل اتمام ذلك مالا كثيراً ، وكتبوا في ذلك كتاباً غير الكتابين السابقين (١) .

وقد ظهر أثر هذا الحلف في جل الاحداث التي شهدتها البصرة بعدئذ كفتنة مسعود ويوم الجنفرة ، وفتنة المثنى بن مخربة العبدي ، وثورة ابن المهلب . وظهر أثره أخيراً إبان القتال الذي دار بين أنصار الامويين وأنصار بني العباس في أواخر العصر الاموي .

وكان من الطبيعي ان يمتد أثر هذا الحلف الى خراسان ـ وهي مستعمرة بصرية ـ فتعقد ربيعة والازد فيها حلفاً مماثلا لحلف اخوتهم بالبصرة . وليس بين أيدينا ما يقفنا على مناسبة عقد هذا الحلف او زمنه ، ومن المرجح أنه عقد إبان ولاية المهلب بن ابي صفرة على خراسان (٧٨ ـ ٨٢ هـ) إذ ان الازد لم يكثر عددهم ويقوَ أمرهم الا منذ مقدم المهلب ، وليس في احداث خراسان التي سبقت ولاية ابن المهلب ما يدل على قيام تحالف بين الربعيين واليمانين فيها ، رما رجحه ابو عبيدة في النقائض (٢) من ان الازد كانت مع ربيعة إبان فتنة ابن خازم لا تؤيده أخبار هذه الفتنة المروية في المصادر التاريخية . ولا يبعد ان يكون المهلب هو الذي سعى في عقد هذا الحلف ، وقد ذكرت بعض المصادر ان شراً وقع زمن ولايته بين الأزد وعبد القيس وأنه سارع الى اطفائه فأصلح بين الفريقين واحتمل الديات (٣) ، ونقل ابو الفرج ان ربيعة واليمن كانت متحالفة في زمن المهلب وابنه (٤) . وكذلك نجد في ابيات نهار بن توسعة التي رثى بها المهلب إشارة الى هذا الحلف :

تُطيف به قحطانُ قد عصبت به واحلافها من حي بكر وتغلبَ (٥)

ونقل ابو الفرج ايضاً ان ربيعة لما حالفت اليمن حشدت مع يزيد بن المهلب ونزلت حواليه هي والازد ثم استبطأته في بعض امورها فشغبت عليه حتى ارضاها (٦) .

---

١ ـ الطبري ٣٩٦/٤ .
٢ ـ انظر النقائض ٣٦٥/١ .
٣ ـ الاغاني ٢٨٧/١٤ .
٤ ـ الاغاني ٢٩٠/١٤ .
٥ ـ الطبري ١٦٢/٥ .
٦ ـ الاغاني ٣٤٩/١ .

ثم نجد اشارة الى هذا الحلف في سياق فتنة قتيبة بن مسلم فقد جاء ان اليمانية لما أجمعوا على مناهضة قتيبة أرادوا ان يدعوا حلفاءهم من ربيعة فأتوا الحضين بن المنذر سيد ربيعة ، فأشار عليهم ان يوافقوا تميماً لانها اكثر قبائل خراسان عدداً (١) .

وقد ظهر أثر هذا الحلف في طائفة من الاحداث كوقعة البروقان (١٠٦ هـ) التي دارت رحاها ببلخ بين المضرية وعلى رأسهم نصر بن سيار ، وبين الازد وبكر وعليهما عمرو بن مسلم (٢) .

ولما ثارت الفتنة في خراسان بين نصر بن سيار والكرماني اجتمعت اليمانية وربيعة تحت لواء الكرماني واجتمعت مضر الى نصر . وروى الدينوري ان الكرماني ارسل الى رجل من سلالة ملوك حمير يدعى عمر بن ابراهيم ، وكان مستوطناً الكوفة ، فسأله أن يوجه اليه بنسخة حلف اليمن وربيعة الذي كان بينهم في الجاهلية ليحييه ويجدده ، فأرسل اليه به ، فجمع الكرماني أشراف اليمن وربيعة فقرأ عليهم صيغة الحلف ، فلما قرىء عليهم توافقوا على ان ينصر بعضهم بعضاً (٣) . ونحن نشك في صحة هذا النص ونرجح ان اليمانية افتعلته لاستمالة ربيعة اليها .

---

١ ــ النقائض ١/٣٤٩ .

٢ ــ انظر الطبري ٥/٣٧٩ .

٣ ــ الاخبار الطوال للدينوري ١/٣٥٢ . ونسوق هنا نص هذا الحلف ــ على شكنا في صحته ــ لقيمته في بيان صيغ الاحلاف وشعائرها :

« بسم الله العلي الاعظم ، الماجد المنعم ، هذا ما احتلف عليه آل قحطان وربيعة الاخوان ، احتلفوا على السوا السوا ، والاواصر والاخا ، وما احتذى رجل حذا ، وما راح راكب واغتدى ، يحمله الصغار عن الكبار ، والاشرار عن الاخيار ، آخر الدهر والابد ، الى انقضاء مدة الامد ، وانقراض الآباء والولد ، حلف يوطأ ويثب ، ما طلع نجم وغرب ، خلطوا عليه دماهم ، =

وقد انتهى أمر الحلف بين ربيعة واليمن في صدر العصر العباسي ، وتم نقضه على يد معن بن زائدة الشيباني الذي تعصب على اليمانية ونكل بهم ، وأدى ذلك الى إيقاع عقبة بن سلم الهنائي الازدي بمن كان ينزل عمان والبحرين من ربيعة (١) .

وكذلك اضطرت ضرورات التوازن القبلي قبائل البصرة الى عقد محالفات أخرى في إطار كل من الكتلتين النزارية والقحطانية ، وكانت كتلة تميم فيها تشمل قبائل ضبة والرباب ومزينة ، أخواتها في النسب ، كما كانت نضم سائر القبائل المضرية ، وقد أشار الفرزدق الى ما كان بين قبيلتي تميم وقيس من روابط الحلف فقال :

فقد حالفت قيس على الناس كلها تميماً فهم منها ومنها تميمها(٢)

وينبغي أن نشير هنا الى أن هذه الاحلاف لم يكن لها طابع الالزام الصارم، فلم يكن ثمة أمر أسرع انتكاثاً ولا أسهل انتقاضاً من هذه المعاهدات القبلية، ومن هنا كانت القبائل تحرص على تجديد ما بينها من عهود ومحالفات ، في كل مناسبة تجد ، توكيداً لها وتوثيقاً .

عند ملك ارضاهم ، خلطها بخمر وسقاهم ، جز من نواصيهم اشعارهم ، وقلم من انامل‍هم اظفارهم ، فجمع ذلك في صر ، ودفنه تحت ماء غمر ، في جوف قعر بحر ، آخر الدهر ، لا سهو فيه ولا نسيان ،ولاغدر ولا خذلان ، بعقد موكد شديد ، الى آخر الدهر الابد ، ما دعا صبي أباه ، وما حلب عبد في اناد تحمل عليه الحوامل ، وتقبل عليه القوابل ، ما حل بعد عام قابل ، عليه المحيا والممات ، حتى ييبس الفرات ، وكتب في الشهر الاصم ، عند ملك أخي ذمم ، تبع بن ملكيكرب ، معدن الفضل والحسب ، عليهم جميعا كفل ، شهد الله الاجل ، الذي ما شاء فعل ، عقله من عقل ، وجهله من جهل » .

١ ــ مروج الذهب للمسعودي ١٥٣/٢ .

٢ ــ ديوان الفرزدق ص ٧٦١ .

و ـ الصراع الحربي

الوقائع القبلية في الشام والجزيرة والعراق وخراسان

انقضت بقيام الدولة العربية ظاهرة الغزو في سبيل اكتساب القوت ، ولم يعد لها شأن يذكر ، ولا سيما ان الدولة وقفت منها موقفاً صارماً وأخذت من يقدم على الغزو بأشد العقاب . ومن جانب آخر فتح الجهاد أمام المسلمين ابواب الرزق،وأفاءت عليهم فتوحاتهم من الاموال والغنائم ماأغناهم عن اللجوء الى خطة أسلافهم من غزو بعضهم بعضاً .

على ان انصراف القبائل عن الغزو في سبيل القوت منذ العصر الاسلامي لم يلغ جميع دواعي النزاع القبلي ، بل لعل النزاع قد ازداد حدة وضراوة في العصر الاموي عما كان عليه قبلُ ، تبعاً لاشتداد العصبية وجسامة الفوائد المتنازع عليها ، وضخامة عدد الجماعات القبلية فيه . فالقتال لم يعد يدور في سبيل صِرمة من الابل او قطيع من الشاء ، أو حول مورد ماء ومنبت كلأ ، وإنما اصبحت له دوافع اخطر شأناً وأعمق جذوراً ، كالنزاع على السلطان السياسي ، ومواطن الخصب الواسعة والمغانم المادية الضخمة ونحو ذلك . وقد تضخم عدد الجماعات القبليةفي هذا العصر تضخماً يلفت النظر واتسمت الحروب القبلية فيه بطابع العنف والضراوة والقسوة، وأصبحت غايتهاالافناء والابادة لا الحصول على الاسرى ، كما كان عليه الامر في العصر الجاهلي ، لان جلها أصبح يقوم بدافع الثأر وشفاء احقاد النفوس لابدافع الجوع والحاجة . وحين نقرأ أخبار هذه الوقائع القبلية يدهشنا ضخامة عدد القتلى فيهاوألوان الوحشية التي تجلت فيها كقتل الاسرى وبقر بطون النساء (١) . وقد جاء في بعض الاخبار ان قيساً بقرت يوم ماكسين بطون ألفين من نساء بني تغلب (٢) . ويرى ولهوزن ان هذه العادة الوحشية والتي لم تكن معروفة بين العرب ، كانت مألوفة في سورية من قبل (٣) .

---

١ ـ انظر انساب الاشراف ٢١٨/٥ . والاغاني ١٢٧/٢٠ .
٢ ـ الاغاني ١٢٧/٢٠ .
٣ ـ ولهوزن ص ١٧١ .

وأن عنف الحروب القبلية واتساع نطاقها في هذا العصر والوحشية التي تجلت فيها ، كل ذلك يدفعنا الى القول بأن العصبية القبليـة لم تتجل في صورتها القوية العنيفة الا في العصر الاموي . وقد أدت هذه الوقائع الى تأريث الاحقاد والضغائن بين القبائل وانعكس صدى ذلك كله في الشعر الذي قاله الشعراء عصرئذ ، وذلك ما سنتبينه في الباب الثالث من هذا البحث .

وقد شهدت بلاد الشام والجزيرة والعراق وخراسان أشد الحروب القبلية عنفاً وضراوة وسنلم فيما يلي بأبرز هذه الوقائع وأسباب قيامها .

الحروب القبلية في الشام والجزيرة في مطلع هذا العصر

لم تحدث في عهد معاوية فتن قبلية ذات شأن لا في الشام ولا في سائر المناطق التي أظلها سلطانه ، ومرد ذلك الى السياسة الحكيمة التي اتبعها معاوية إزاء القبائل ورؤسائها والى سياسة واليه المحنك زياد ، فاتسم عهده بهدوء نسبي وأخلد رجال قريش الطامعون في الحكم الى السكينة ، آملين ان يؤول الامر اليهم بعده . فلما بويع يزيد ظهرت طلائع الفتن والثورات ، فثار الحسين اولا ثم عبد الله بن الزبير ثم مات يزيد فجأة وجيوشه تحاصر ابن الزبير في مكة . ولم يستطع ابنه معاوية الثاني ان ينهض بالامر فتخلى عن الحكم ، وترك للناس ان يختاروا من يلي أمورهم بعده ، فكان ذلك نذيراً باضطراب الامور في شتى أرجاء الدولة ، وأطلت الفتن برأسها في الشام والعراق وخراسان وسائر المناطق .

وقائع قيس وكلب

أخبار هذه الحروب مضطربة ولا يتضح فيها التتابع الزمني ، وسنحاول ان نلخصها وان نوفق بين مختلف الروايات التي وجدناها في المصادر التاريخية والادبيـة .

فحين اضطربت الامور في الشام وقفت قبيلة كلب ــ أقوى القبائل اليمنية بالشام ــ الموقف الذي تمليه عليها مصلحتها ، وهو مساندة بني امية عامة

والاسرة السفيانية خاصة ، لما بينهما من روابط المصاهرة . ووقفت كذلك سائر القبائل اليمانية في صف بني امية ، إلا أفراداً منهم ، وكانت هذهالقبائل تخشى ان يصير الامر الى ابن الزبير فتفقد بلاد الشام مركزها السياسي الذي اصبح لها منذ استقرار الحكم الاموي فيها . وكان يتزعم الكتلةاليمانية سيد كلب وخال يزيد حسان بن مالك بن بحدل ، وكان تواقاً الى مبايعة خالد بن يزيد ، ولكنه اضطر الى العدول عن اختياره لصغر سنه والىمبايعة مروان بن الحكم شيخ بني امية يومئذ . وكان الموقف في نظر مروان يدعو الى اليأس لولا ما بثه عبيد الله بن زياد ، حين قدم الشام ، في نفسه من روح العزيمـة والامل .

ولقيت الدعوة لبني امية معارضة عنيفة من جانب قبيلة قيس التيكانت تتزعم الكتلة المضرية بالشام ، ولم تكن راضية عن حكم يزيد الذي اعتمد على العنصر اليمانيوقرب اليه أخواله الكلبيين، فلما دعا ابن الزبير لنفسهسارعت باعلان مبايعتها له ، وثار سيدها زُفَر بن الحارث الكلابي بقنسرين وخلعطاعة بني امية ، وكانت بين زفر وابن الزبير صلات قوية منذ وقعة الجمل. وهكذا أصبح الصدام لا مفر منه بين القبائل اليمانية التي تنزعمها كلب والمؤيدة لبني امية ، وبين قبيلة قيس المؤيدة لابن الزبير .

وقد بدأت بوادر الصدام في دمشق نفسها ، وكان عليها يومئذ الضحاكبن قيس الفهري القرشي ، وكان يهوى هوى ابن الزبير ويدعو اليه خفية ، فلما بلغ ذلك حسان بن مالك كتب الى الضحاك كتاباً يدعوه فيه الى طاعة بنيامية وينال من ابن الزبير ، وأمره ان يقرأ كتابه على الناس ، فلما تغافل الضحاك عن قراءته قام احدالكلبيين فقرأه على الناس ، وقام بعض بني اميةوانصارهم من كلب وغسان فصدقوا مقالة حسان وطعنوا على ابن الزبير ، فتصدى لهم بعض انصار ابن الزبير وهاج الناس واضطربوا ، وما لبثت الفتنة ان نشبت بين قيس وكلب في دمشق ، وعرف هذا اليوم بيوم جيرون (١) .

---

١ ـ الطبري ٤٠٩/٤ .

واضطر الضحاك الى التظاهر بالولاء لبني أمية ، وواعد حساناً اللقاء بالجابية ، ولكنه ما كاد يسير بجموعه حتى اعلن الولاء لابن الزبير ونزل مرج راهط(١) بمن معه من انصار ابن الزبير ، وكتب الى زفر بن الحارث الكلابي بقنسرين ، والى ناتل بن قيس الجذامي بفلسطين ، والى النعمان بن بشير بحمص ، يستمدهم ، وكانوا على طاعة ابن الزبير فأمدوه ، وكان جل من معه من قيس . ووافى بنو أمية حسان بن مالك بالجابية بمن شايعهم ، واجتمعت اليهم قبائل اليمن من كلب وكندة وغسان وغيرها ، ثم التقى الجمعان بالمرج في اواخر عام ٦٤ هـ ، ولم يكن ميزان القوى متعادلا ، فدارت الدائرة على الضحاك وانصاره وأجلت الموقعة عن مقتله ، وقتل معه من قيس واهل دمشق عدد ضخم كان منهم ، فيما ذكروا ، ثمانون من الاشراف ، كلهم كان يأخذ الفين في العطاء وقطيفة(٢) . وجاء في بعض المصادر ان قتلى قيس بلغوا يومئذ تسعة آلاف وقتلى اليمن ألفاً وثلاث مائة (٣) .

وعلى الرغم من ان الدوافع السياسية كانت بارزة في هذه الموقعة ، بوسعنا أن ننظر اليها من الزاوية القبلية وان نرى فيها صراعاً خفياً على السلطان السياسي بالشام بين قبيلتي قيس المضرية وكلب اليمانية ومن ظاهرها من قبائل اليمن ، وهي من هذه الوجهة مرحلة من مراحل النزاع القبلي بين جذمي عدنان وقحطان الذي احتدم أواره طوال ذلك العهد ، وقد أثارت هذه الموقعة وراءها ذيلا من النزاع اللساني بين شعراء الفريقين واتصلت الاهاجي والمناقضات بينهما ، على نحو ما سنذكر فيما بعد ، وكان شعراء قيس يشيرون كلما اوقع قومهم ببني كلب بعد ذلك الى انهم إنما يثأرون لقتلى يوم المرج (٤) .

---

١ ـ مرج راهط : موضع بغوطة دمشق .

٢ ـ انساب الاشراف ١٣٦/٥ . الطبري ٤١٥/٤ . ويرجع في تفصيل خبر هذه الموقعة الى انساب الاشراف ١٢٨/٥ وما بعدها . والطبري ٤١٣/٤ . والاغاني ١١١/١٧ (ساسي) . ومروج الذهب ٨٤/٢ .

٣ ـ نقائض جرير والاخطل ص ١٧ .

٤ ـ انظر الاغاني ١٢١/٢٠ وما بعدها .

كانت موقعة المرج الشرارة الاولى للحروب العنيفة التي نشبت إثرها بين قبيلتي قيس وكلب ، لان قبيلة قيس لم تنس هزيمتها يومئذ وآلت ان تثأر لنفسها من كلب ، وفارق سيد بني عامر زفر بن الحارث قنسرين الى قرقيسياء موطن القيسية فتحصن بها وطرد عاملها الحميري وأعلن ولاءه لابن الزبير (١) . وكانت منازل كلب البادية تتاخم منازل بطون قيس التي نزلت الجزيرة ، وجلها من بني سليم وبني عامر بن صعصعة ، فأخذ زفر يغير ببني عامر على احياء كلب النازلة ببادية السماوة وتدمر ، وما لبث ان شاركه في هذه الغارات زعيم قيسي آخر كان يرأس بني سليم هو عمير بن الحباب ، بل انه اصبح بعد حين الخصم الألد لقبيلة كلب وشن عليها غارات متصلة ، وكان عمير قد اظهر الولاء لعبد الملك وفي نفسه ما فيها من الحقد على بني امية وكلب منذ موقعة المرج ، فلما كانت وقعة الخازر بين جند الشام وجيش المختار (٦٧ هـ) انهزم عمير وهو على ميسرة عبيد الله بن زياد ونادى : يا لثارات المرج ، وحاقت الهزيمة بأهل الشام وقتل ابن زياد . وإثر ذلك اضطر عمير ان يلجأ الى زفر بقرقيسياء خوفاً من بطش عبد الملك . ثم طلب الامان من عبد الملك فآمنه ولكنه ما لبث ان القى به في السجن . واحتال عمير في الفرار من سجنه وعاد الى الجزيرة فنزل على نهر البليخ ، بين حران والرقة ، واجتمعت اليه سليم وقيس ، فكان يغير بهم على أحياء كلب واليمانية ؛ وكان عبد الملك مشغولا حينئذ بالتأهب لقتال مصعب بن الزبير ، وهاجت كلب لغارات قيس عليها فولت أمرها حميد بن حريث بن بحدل ، فسار بها للاغارة على قيس ، وتوجه اول الامر الى جماعة من بني نمير كانت تنزل قرب تدمر ، وكان بينها وبين كلب عقد ، فقتلهم قتلا ذريعاً . ورد زفر على قتل بني نمير بقتله خمسمائة أسير من كلب كانوا في يده ، ثم مضى حميد لقتال عمير ، وكان هذا غائباً في بعض غاراته ، فأوقع حميد بعسكره ، واتصلت الغارات والوقائع بين الحيين بعدئذ . ومن الايام المشهورة التي كانت بينهما

---

١ ـ انساب الاشراف ٥/٣٠١ .

يوم الغوير ويوم الاكليل ويوم الفرس ويوم دهمان . ولما ضاقت كلب البادية أخيراً بغارات قيس عليها تحملت طوائف منها عن ديارها فلحقت بغور الشام، وعلق زفر على ارتحالها بقوله :

يا كلبُ ، قد كلب الزمانُ عليكم	وأصابكم مني عذاب مرسَلُ
إن السماوة ، لا سماوة فالحقي	بالغور فالأفحاصُ بئس الموئلُ
فجنوبِ عكا فالسواحلِ إنها	أرض تذوبُ بها اللقاحُ وتهزلُ[1]

ولما فرغ عبد الملك من قتل عمرو الاشدق بدمشق (٦٩ هـ) سار الى زفر فحصره بقرقيسياء ، ولكنه اضطر آخر الامر الى مصالحته بعد أن أعياه أمره ، وشرط زفر على عبد الملك الا يقاتل معه ابن الزبير . وكانت الفتنة قد نشبت حينئذ بالجزيرة بين قيس وتغلب ، فشغلت قيس عن قتال كلب، الا ان ميدان النزاع بين هاتين القبيلتين انتقل الى مواطن اخرى ، فان وقائع حميد بقيس في الجزيرة قد أثارت حفيظة نفر من زعماء القيسية في العراق ، فلما قدم عبد الملك لقتال مصعب دخل عبد الله بن مسعدة الفزاري عليه ونال من حميد في مجلسه ، وأظهر ألمه لما حل ببني سليم وبني عامر ، واحنق هذا الامر حميداً فآلى ان يوقع ببني فزارة ــ رهط ابن مسعدة ــ . ويقال ان خالد بن يزيد قد مهد له السبيل بافتعاله عهداً على لسان عبد الملك يبيح لحميد جباية الصدقات من أهل البادية ، ولم تكن فزارة قد شاركت بعدُ في هذه الفتن القبلية لبعد منازلها ببادية الحجاز وجنوبي بلاد الشام عن مواطن النزاع ، فأتاها حميد في جمع من كلب وقتل منها مقتلة عظيمة ، ويقال انه قتل من بني بدر وحدهم خمسين رجلا .

وقد أثارت هذه الواقعة فزارة العراق فطلب أشرافها ، وعلى رأسهم أسماءُ بن خارجة، الى عبد الملك ــ وقد فرغ من قتال مصعب ــ أن يقيدهم من

---

١ ــ انساب الاشراف ٢٩٨/٥ . الافحاص : الاجم والبلوط يريد منابت الشجر بفلسطين .

حميد . ولكنه ابى معتلا أنهم كانوا في فتنة ، والفتنة كالجاهلية لا قودَ فيها . ويبدو أن عبد الملك لم يشأ الاخذ بمبدأ القود الذي سنه الاسلام لئلا يغضب قبيلة كلب بقتله احد زعمائها البارزين ، وعرض على فزارة الدياتمن اعطيات قضاعة وحمير بالشام ، فتظاهر القوم بقبولها وقد بيتوا في انفسهم أمراً ، وعيرهم ابن مخلاة شاعر كلب بقبولهم الديات فقال من أبيات :

خذوها يابني ذبيــان عَقــلا   على الاحياء واعتقدوا الخِزاما
مواعدَ من بني مروان دينــاً   ندافعكم بهــا عامــاً فعــامــا

وما كاد بنو فزارة يقبضون الديات حتى سارعوا فابتاعوا بها خيــلا وسلاحاً ثم حشدوا جموعهم فأغاروا على بطنين من كلب : بني عبد ود وبني عليم ، كانا على ماء لهما يعرف ببنات قَين ، فقتلوا عدداً كبيراً من رجــال الحيين . وبلغ الخبر عبد الملك فاشتد غضبه وأمر الحجاج،عامله علىالحجاز يومئذ ، أن يوجه اليه سعيد بن عيينة وحلحلة بن قيس الفزاريين ، وهما اللذان قادا جموع فزارة وقيس يوم بنات قين ، فلما ظفر بهما وأبت كلب قبول الديات دفعهما اليها فقتلتهما . ولقي مقتلهما إنكاراً شديداً من جانب قيس ، وابتهاجاً من جانب كلب وعبر احد شعراء كلب عن شعور قومهبقوله:

نحن قتلنــا سيديهم بشيخِنا   سويد فما كانا وفاء به دمــا

ثم هدأت الفتنة بين الحيين بعد ذلك (١) .

وقائع قيس وتغلب

لما نشب النزاع بين قيس وكلب ظاهرت قبيلة تغلب قيساً بدافع الرابطة

---

١ ـ يرجع في تفصيل وقائع قيس وكلب الى المصادر التالية : انساب الاشراف ٥/٢٩٨ وما بعدها . الاغاني ٢٠/١٢٠ وما بعدها.الاغاني ١٧/١١١ وما بعدها . شرح حماسة ابي تمام ٢/٩٦.

النزارية وشاركت في بعض الغارات على كلب ، ويبدو انه كان ثمة عداوة سابقة بين تغلب وكلب يدل عليها قول الاخطل :

نبئت كلباً تمنى أن تحاربنا وطالما حاربوونا ثم ما ظفروا (١)

إلا ان قيساً لم تحسن جوار حليفتها تغلب، وكان أصحاب عمير يسخرون مشايخ تغلب ويسيئون جوارهم ، فبدأت الصلات تفسد بين الحيين . وعلى أثر احدى غارات قيس على كلب رجع عمير فنزل على الخابور في جوار منازل تغلب ، ولم يلق نزوله في هذا الموضع ترحيباً من بني تغلب ، وما لبث الشر ان هاج بين الحيين بسبب أعنز استاقها بعض بني الحريش، وهم بطن من بني عامر ، وحاول بنو تغلب الاستعانة بزفر لاجلاء عمير عن الخابور ، ولكنه لم يشأ التدخل في الامر ، فحدثت بين الحيين وقائع توسط على اثرها زفر لاصلاح الامر واحتمل دية قتيل من تغلب .

إلا أن عميراً كان يطمع – فيما يبدو – في إجلاء بني تغلب عن الجزيرة ، او إخضاعهم لسلطان قيس ، فقدم على مصعب واعلمه انه حمل كلب البادية على الجلاء الى مدائن الشام ولم يبق في الجزيرة إلا حي من ربيعة اكثرهم نصارى ، وسأله ان يوليه عليهم ، ولعله أدخل في روعه أنهم خليقون بمظاهرة بني مروان في حرب اهل العراق (٢) . ومهما يكن من أمر فقد عاد عمير وفي يده عهد من مصعب يبيح له جباية الاموال من تغلب . وتحقق ما توقعه عمير فقد أبت تغلب أداء ما طلب منها فاتخذ عمير رفضها ذريعة للايقاع بها يوم ماكسين(٣)، وقتل يومئذ منهم مقتلة عظيمة وقتل رئيسهم شُعيث بن مُليل.

---

١ – انساب الاشراف ٣١٣/٥ .

٢ – ولهوزن ص ١٦٧ .

٣ – ماكسين او ماكس : من قرى الخابور قرب رأس العين (انساب الاشراف ٣١٦/٥) .

وكان عمير يحرض اصحابه على إبادة تغلب ويهيب بقومه ألا يستبقوا منهم أحداً ، وبقروا في تلك الموقعة بطون عدد كبير من نسائهم ، والى ذلك يشير ابن صفار المحاربي في قوله :

بقرنـا منهـم ألفـي بَقَـير   فلم نترك لحـاملة جنينـا (١)

وقد وقف زفر اول الامر موقف الكاره المنكر لصنيع عمير ، فقد خشي ان يؤدي مسلكه الى إلقاء بني تغلب في احضان بني مروان ، وهو ما تحقق فعلا . كما كان كارهاً لوقوع الشر بين الاخوين ربيعة ومضر وعدوهما المشترك كلب متربص بهما ، وهو أولى بأن توجه اليه حراب قيس ، فوجه لذلك الى عمير لوماً صاغه في الابيات التالية :

ألا مـن مُبلـغ عني عمـيراً   رسـالةَ عاتب وعليـك زار
أتتركُ حـي ذي كلـع وكلب   وتجعلُ حـد نابك في نِزارِ
كمعتمدٍ على إحـدى يـديه   فخـانتـه بوَهي وانكسارِ (٢)

وكانت هذه الموقعة نذيراً باحتدام الشر بين الحيين ، وكان عبد الملك مشغولا عنهما حينئذ بعدوه مصعب ، ولعله لم يكن كارهاً لاشتغال القبائل عنه بقتال بعضها بعضاً . ولما احتدم الشر استمدت تغلب قبائل ربيعـة بالجزيرة والعراق فجاءها مدد من النمر بن قاسط وبني شيبان ، وجعـل التغلبيون عليهم يزيد بن هوبر . وحاول عمير الاستعانة بقبيلتي اسد وتميم وذكرهما وشائج الرحم والعصبية فقال :

أيا أخوينـا من تميم هُديتما   ومن أسد هل تسمعان المناديا
ألم تعلما إذ جاء بكرُ بن وائل   وتغلبُ ألفـاً تهز العواليـا

١ ــ الاغاني ١٢٧/٢٠ .
٢ ــ الاغاني ١٢٨/٢٠ .

الى قومهم قد تعلمون مكانهم وكانوا جميعاً حاضرين وباديا(١)

ولكن هاتين القبيلتين أبتا مؤازرته ، فاضطر عمير ان يلقى جموع ربيعة وحده ، ودارت الدائرة على قومه يوم الثرثار الاول (٢) وبقرت يومئذ بطون ثلاثين امرأة من بني سليم .

وما لبثت قيس ان ثأرت لهزيمتها فأوقعت بتغلب يوم الثرثار الثاني ، وأمدّها زفر من قرقيسياء ، وكان قد وقف في بادىء الامر بمعزل عن هذه الحرب ، وأبلت في ذلك اليوم سليم بلاء حسناً وانهزمت بنو عامر ، وتوالت بعد ذلك الوقائع بين الحيين ، وكان الظفر في اكثرها لقيس ، ومنها أيام الفُدَين والسكير ولَبّى والشرعبية والبليخ . ولما رأت تغلب إلحاح عمير عليها حشدت جمعاً عظيماً من حاضرتها وباديتها والتقوا بقيس وعليها عمير وزفر عند الحشاك(٣) ، واتصل القتال بينهما ثلاثة ايام ، وفي اليوم الثالث انهزم زفر بمن معه من عامر فلحق بقرقيسياء مدّعياً انه بلغه توجه عبد الملك اليه ، ودارت الدائرة على اصحاب عمير واستحرّ القتل بسليم وغني ، وأجلت الموقعة عن مقتل عمير وهزيمة أصحابه هزيمة منكرة . وأشاع مقتل عمير ابتهاجاً غامراً في نفوس بني تغلب وبعثوا برأسه الى عبد الملك تعبيراً عن ولائهم له .

وبعد مقتل عمير وجد زفر نفسه ملزماً بالثأر له ، فأخذ يلاحق تغلب بغاراته وينكّل بها حيث ثقفها ، وصبّ عليها جام انتقامه يوم الكُحيل في وحشية وعنف بالغين، وطارد فلول تغلب التي ذهبت تلتمس النجاة محاولة عبور دجلة ، فغرّق منهم بشراً عظيماً وقتل من وقع في يده أسيراً منهم وبقر

---

١ ـ انساب الاشراف ٣١٨/٥ .

٢ ـ الثرثار : نهر ينزع من هرماس نصيبين ويفرغ في دجلة بين الكحيل ورأس العين .

٣ ـ الحشاك : نهر يأخذ من الهرماس قرب الشرعبية (انساب الاشراف ٣٢٣/٥) .

بطون نسائهم ، واخيراً تدخل عبد الملك ، وقد استقر له الامر ، فأصلح بين الحيين وحقن الدماء .

ولكن الاخطل شاعر تغلب يؤجج مرة اخرى نار العداوة بين الحيين بتذكيره الجحّاف بن حكيم السلمي في مجلس عبد الملك بمن قُتل من قيس على يد قبيلته ويتحدّاه ان يثأر لهم فيسائله من ابيات :

ألا سائل الجحّاف هل هو ثائر بقتلى أصيبت من سليم وعامر (١)

وسرعان ما يصله ردّ الجحاف على هذا التحدي ، فهو يلجأ الى الخطة التي اتبعها ابن حريث قبله ، فيفتعل على لسان عبد الملك عهداً يخوّله جباية صدقات بكر وتغلب بالجزيرة ، ويسير بأصحابه من قيس فيدهم بني تغلب بالبِشر . وهم غارّون ، فيقتل منهم مقتلة عظيمة (٧٣ هـ) ، ويقع الاخطل نفسه في الاسر ثم يطلقه آسره وقد ظنه عبداً — فيما رووا — ويقتل ابنه في الموقعة ثم يقدم الاخطل على عبد الملك مستغيثاً به مما فعله الجحّاف :

لقد أوقع الجحّاف بالبِشر وقعةً الى الله منها المشتكى والمعوّلُ

ويضطر الجحّاف الى اللحاق ببلاد الروم خوفاً من بطش عبد الملك ، ثم يشفع له أشراف قيس فيؤمنه عبد الملك ولكنه يلزمه ديات القتلى يوم البشر ويأمر ابنه الوليد باحتمال سائر الدماء بين القبيلتين وإطفاء الفتنة . فيقدم الجحاف على الحجاج يستعينه في أداء الديات ويضطر الحجاج ان يمد يد العون اليه لما يينهما من الرابطة القيسية (٢) .

---

١ — انساب الاشراف ٣٢٨/٥ .

٢ — يرجع في تفصيل وقائع قيس وتغلب الى المصادر التالية : انساب الاشراف ٣١٣/٥ وما بعدها . تاريخ ابن الاثير ٣/٤ وما بعدها . نقائض جرير والاخطل ص ١ وما بعدها . نقائض جرير والفرزدق ٤٠١/١ . الاغاني ١٩٨/١٢ . الاغاني ١٢٦/٢٠ .

الفتن القبلية في العراق

كان موت يزيد بن معاوية (٦٤ هـ) نذيراً باستعار الفتن القبلية في مناطق التجمع القبلي الرئيسية وهي الشام والجزيرة والعراق وخراسان . وقد تبين لنا في دراستنا احوال المجتمع القبلي ان الفتن القبلية انما تطل برأسها إبان اضطراب الاحوال السياسية ، وحين يتجلى عجز السلطان عن ضبط أمور الدولة ، فكذلك نرى انه ما كادت انباء اضطراب الامور في الشام إثر وفاة يزيد وتخلّي معاوية الثاني عن الحكم تبلغ أسماع أهل العراق حتى بادرت القبائل الى اعلان خلافها على واليها الصارم عبيد الله بن زياد ، ولا سيما ان ابن زياد لم تكن له قبيلة تدعم سلطانه ويستظهر بها عند الملمات .

ونحن نلاحظ ان البصرة شهدت من الفتن القبلية ما لم تشهده منافستها الكوفة ، ولعل مبعث ذلك ان الكتل القبلية الثلاث التي نزلت البصرة ، وهي مضر وربيعة والأزد ، كانت شديدة التماسك كثيرة العدد متنازعة المصالح ، ومن هنا كان الصراع بينها عنيفاً على السلطان السياسي في البصرة ، ولم يكن ثمة اتجاه سياسي يؤلف بين قبائلها . في حين ان قبائل الكوفة على كثرتها وتنوع اصولها كان يؤلف بين كثرتها اتجاهها السياسي المعارض للحكم الاموي ، وهذا ما حال دون ظهور خصومات قبلية ذات شأن فيها كالتي شهدتها البصرة .

وقد أرجع بعض الباحثين هذه الظاهرة الى دواع اخرى ، منها ان البصرة لم تتأثر بالانظمة السياسية القديمة كما تأثرت الكوفة بأنظمة فارس عن طريق الموالي ، وكما تأثرت الشام بأنظمة الروم ، ومنها أن اغلب قبائل البصرة كان من القبائل الممعنة في البداوة التي لم تفهم نظام الدولة كما فهمه سكان الكوفة الذين كان جلهم من القبائل اليمنية المتحضرة(١) . وفي اعتقادنا ان تنازع المصالح

---

١ ــ نقائض جرير والفرزدق : محمود غناوي الزهيري ص ١٧٥ .

السياسية بين الكتل القبلية الثلاث في البصرة انما كان السبب الاول في تفاقم النزعة القبلية واحتدام العصبيات فيها .

مقتل مسعود بن عمرو

اول فتنة قبلية خطيرة شهدتها البصرة كانت تلك التي تمخضت عن مقتل مسعود بن عمرو العتكي سيد الأزد . واخبار هذه الفتنة مضطربة اشد الاضطراب في المصادر التي تحدثت عنها ، والطبري وحده يذكر عدة روايات متعارضة تتصل بخبر هذه الفتنة ، ومما زاد في اضطراب اخبارها ان كلامن القبائل التي شاركت فيها روت خبرها على نحو يبرز الدور الذي لعبته فيها ويعظم من شأنها . ومن خلال الاخبار المتناقضة والروايات المتعارضة سنحاول تلخيص خبر هذه الفتنة على النحو الذي يبدو لنا أكثر ملاءمة لمنطق الاحداث والواقع التاريخي .

كان عبيد الله بن زياد قد استطاع ضبط الامور في العراق منذ ان جعله معاوية والياً عليها عام ٥٥ هـ فحمل اهلها على طاعة بني امية وقمع حركات الخوارج ونكل بالشيعة ، وكان يستوحي في حكمه سياسة أبيه الحازمة الصلبة ، ولكنه كان يستمد سلطانه من تأييد الخليفة له اذ لم تكن له قبيلة تشد ازره ويستظهر بها . فلما مات يزيد وساد الاضطراب بلاد الشام ، ادرك ابن زياد انه اصبح معرضاً لخطر جسيم من جانب قبائل العراق الناقمة عليه . وقد حاول اول الامر استمالة أهل العراق اليه وحملهم على الاخلاد الى السكينة ولزوم الطاعة ريثما يُجمع أهل الشام على امام يرتضونه لهم . بل لعل آمالا أبعد مدى قد راودت مخيلته حينئذ ، فأخذ في سبيل ذلك يذكر أهل العراق بما حققه لهم من منافع وبسعيه فيما فيه خيرهم ، ولكن أهل البصرة ما كادوا يفارقونه ، بعد ان تظاهروا برضاهم به ومبايعتهم إياه، حتى جعلوا يمسحون أكفّهم بجدران الدار ، يتحللون بذلك من البيعة له ،

فما كانوا ليولوا ابن مرجانة أمرهم في الفرقة ، كما ولوه أمرهم في الجماعة[1]، وانما كان يحملهم على الانقياد اليه قبلُ استناده الى الدعم القوي من جانب البيت الاموي ، اما الآن فلم يبق ثمة ما يحملهم على هذا الامر .

حينئذ لجأ ابن زياد الى الخطة التي اكدت جدواها التجارب السابقة ، وهي اصطناع رؤوس القبائل بالمال . وكانت الدعوة لابن الزبير قد لقيت صداها لدى القبائل المضرية ، وتميم خاصة ، وكان يتولى أمرها سلمة بن ذؤيب الرياحي ، فرأى ابن زياد ان يصطنع رؤساء ربيعة بالمال ليصرفهم عن السير في ركاب القبائل المضرية . ولما خشي أن يثب به أهل المِصر في دار الامارة حمل معه الاموال ولجأ الى بيت سيد الازد مسعود بن عمرو العتكي فاحتمى به ، جارياً على نفس الخطة التي سلكها أبوه من قبلُ في فتنة ابن الحضرمي للايقاع بين قبائل البصرة ، وللافادة من الخصومات العميقة الجذور التي كانت بينها . ويبدو ان مسعوداً كان كارهاً أول الامر لالتجاء ابن زياد اليه ، ليقينه ان هذا الامر سيؤدي حتماً الى وقوع الفتنة بين قبائل البصرة ، فضلا عن ان الازد لما أجاروا بالامس زياداً لم يلقوا عنده ما يحبون من المكافأة وحسن الجزاء . على ان مسعوداً اضطر الى قبول ابن زياد في داره وبسط حمايته عليه . وما لبثت ربيعة التي أغدق ابن زياد الاموال على رؤوسها ، ان انضمت الى الأزد في نصرتها لابن زياد ، وجددت القبيلتان الحلف الذي كان بينهما من قبلُ في الجماعة على يزيد . وتذكر الاخبار ان الذي حفز ربيعة على الانضمام الى الازد وقوع الشر بينها وبين مضر بسبب لطم احد البكريين قرشياً في المسجد [2] . ونحسب ان هذه الحادثة وحدها أتفه من ان تكون سبباً جوهرياً في انحياز ربيعة الى الازد وتحالفهما على مضر ، وان وراء هذا التحالف دوافع سياسية ومصالح قبلية ، يضاف الى ذلك ان ابن زياد قد لعب دوراً بارزاً في إتمام هذا الحلف ، وبذل في سبيل ذلك اموالا كثيرة[3] .

---

١ – الطبري ٣٨٩/٤ .
٢ – الطبري ٣٩٦/٤ .
٣ – الطبري ٣٩٧/٤ .

ولما رأى ابن زياد ألاّ طائل يرجى من إقامته بالبصرة ولا مطمع له في العودة الى دار الامارة آثر المسير الى الشام ليمد أولياءه بني امية برأيه ونصرته . ومن المحقق انهم كانوا يفتقرون في ذلك الحين الى نصير مخلص سديد الرأي مثله ، وكان لمقدمه أثر بيّن في تحويل مجرى الامور في الشام .
وقد حددت احدى الروايات تاريخ خروج ابن زياد الى الشام فجعلته بعد انقضاء تسعين يوماً على وفاة يزيد (١). وذهبت رواية اخرى الى ان ابن زياد انما لحق بالشام بعد مقتل مسعود في شوال من عام ٦٤ هـ (٢) ، ولكن هذه الرواية غير مقبولة في نظرنا ، فان الدور الكبير الذي لعبه ابن زياد في مبايعة مروان بن الحكم وابقاء الامر في يد بني أمية ثم في القتال يوم مرج راهط ينبيء انه قدم الشام في وقت مبكر لا بعد مقتل مسعود الذي حدث بعد انقضاء زهاء ستة اشهر على موت يزيد (٣).

ولما مضى ابن زياد الى الشام استخلف مكانه مجيره مسعود بن عمرو ، وكانت قبائل مضر قد اختارت والياً لها فأراد ابن زياد إفساد أمر ابن الزبير باستخلافه مسعوداً ولا شك ان ابن زياد كان بعيد النظر في تدبيره هذا ، فقد أدرك ان هذا الامر سيؤدي الى نشوب الفتنة بين قبائل البصرة ، إذ ان تميماً وقيساً وسائر مضر لم تكن لترضى بان يتولى امورها سيد منافستها الأزد ، وأصرّ مسعود على ان ينهض بالمهمة التي عهد اليه بها ابن زياد ، فتوجه بقومه الازد وحلفائه بكر فاحتل دار الامارة والمسجد ، واغتنم مالك بن مسمع الفرصة للانتقام من بني تميم فأحرق دور جماعة منهم . وحاول الاحنف ، سيد مضر البصرة ، تجنب الصدام الحربي متذرعاً بما عرف عنه من حلم وأناة ، ولكنه وجد نفسه آخر الامر مضطراً الى مجابهة العنف بمثله ، مستعيناً بحلفائه الاساورة . واستطاع بنو تميم اقتحام مسجد البصرة ، فاستنزلوا مسعوداً عن المنبر وقتلوه ، وأصابت أشيم بن شقيق ، رئيس

---

١ ــ الطبري ٤/٤١٤ .
٢ ــ الطبري ٤/٤٠١ .
٣ ــ توفي يزيد في منتصف شهر ربيع الاول عام ٦٤ هـ وقتل مسعود في اول شوال من نفس العام . انظر الطبري ٤/٣٨٤ ــ ٤٠٠ .

بكر ، طعنة ولكنه استطاع النجاة بنفسه. فالدافع الحقيقي لقتل مسعود إنما هو محاولته فرض نفسه أميراً على البصرة لاستخلاف ابن زياد اياه ، يؤيد ذلك ما نجده في اشعار بعض التميميين كقول احدهم :

رجا التأميرَ مسعود فأضحى صريعاً قد أزرناه المنونا(١)

وقد الصقت بعض الروايات تهمة قتل مسعود بالخوارج ، وزعمت ان الاحنف حرضهم على ذلك (٢) ، ولكن هذا الامر بعيد الاحتمال ، فليس من المعقول ان يستعين الاحنف بالخوارج وهم اعداء اهل المصر جميعاً ، ولم يكن بنو تميم ليرضوا بأداء دية مسعود لو لم يكونوا هم قتلته .

وعلى اثر مقتل مسعود حشدت الازدجموعها وراستعليها زياد بن عمرو أخا مسعود ، ورفدها حليفها مالك بن مسمع في بكر بن وائل وسائر ربيعة وتوجهت لقتال بني تميم . وبدا ان الحرب محتمة الوقوع بين الفريقين ، بل لقد ذكرت احدى الروايات ان قتالا عنيفاً دار بينهما وأن تميماً ناشدت اعداءها الكف عن القتال (٣) . وتذهب رواية اخرى الى أن الاحنف استطاع بحلمه تجنب الصدام ، وهدأ من ثائرة جموع الازد المتحفزة للقتال بخطبة بليغة ارتجلها يومئذ (٤) . وحين عرض على القوم الديات أصر زيادعلى انتكون

---

١ ــ النقائض ١/١٣ . الطبري ٤/٤٠٢ .

٢ ــ الطبري ٤/٤٠٤ .

٣ ــ الطبري ٤/٤٠٥ . انساب الاشراف ٤/٢١٢ .

٤ ــ الكامل للمبرد ١/٨١ .

دية مسعود عشر ديات ، دية المَشْعَرَة (١) ، لانه كان مُثّل به ، وأبى الاحنف إلا دية واحدة لان الاسلام أذهب أمر الجاهلية ، وكاد القتال ينشب بين الفريقين مرة اخرى بسبب ذلك ، ثم اتفقا على تحكيم رجلين من أشراف قريش في الامر ، وحسم النزاع باحتمال بني تميم ومضر ديات الازد وربيعة وتم الاتفاق على ان يَدُوا مسعوداً عشر ديات ويطلّوا دماء بني تميم (٢) . وهذا التساهل من جانب الاحنف يؤكد نزعته السلمية ورغبته في حقن الدماء بأي ثمن ، وربما كان لتفاقم خطر الخوارج الازارقة حينئذ واقتراب جموعهم من البصرة أثر كبير في حمل قبائل البصرة على إيثار الصلح وحقن الدماء (٣).

ولما تم الصلح اتفق أهل البصرة على اختيار أمير منهم يتولى أمرهم ريثما يجتمع أمر الناس على إمام ، ومن المعتاد في مثل هذه الاحوال ان يلجأ القوم الى اختيار احد رجال قريش تجنباً لنشوب العصبية ، وقد وقع اختيار القوم أولا على عبد الملك بن عبد الله بن عامر ، ثم جعلوا مكانه عبدَ الله بن الحارث بن عبد المطلب المعروف ببَبّة (٤) .

وفي نفس الوقت الذي قامت فيه فتنة مسعود بالبصرة ثار أهل الكوفة بعمرو بن حريث خليفة ابن زياد فيها وولوا أمرهم عامر بن مسعود القرشي ريثما يجتمع امر الناس على إمام ، وما لبثت قبائل البصرة والكوفة وسائر العراق ان أعلنت ولاءها لابن الزبير وانقادت اليه فبعث عماله عليها .

---

١ ـ دية المشعرة : كان الجاهليون يقولون للملوك اذا قتلوا : أشعروا، ودية المشعرة : دية الملوك (لسان العرب) .

٢ ـ وقد سجل الشعراء ما اتفق عليه القول في اشعارهم فقال احد شعراء عبد القيس :

قتلنا بقتلى الازد مثنى وضوعفت ديات وأهدرنا دماء تميم

(انساب الاشراف ١١٥/٤)

٣ ـ ولهوزن ص ٣٢٦ .

٤ ـ يرجع الى خبر هذه الفتنة في المصادر التالية : الطبري ٣٨٧/٤ وما بعدها . النقائض ١١٢/١ و ٧٢٨/٢ . انساب الاشراف ٩٨/٤ وما بعدها . الكامل للمبرد ٨١/١ . الاخبار الطوال ٢٩٠/١ .

فتنة المثنّى بن مخرّبة

وفي عام ٦٦ هـ شهدت البصرة فتنة قبلية اخرى أثارها النزاع السياسي بين ابن الزبير والمختار الثقفي الذي غلب على الكوفة واخذ يسعى في بسط سلطانه على سائر بلاد العراق . فقد بايع المختار احد رجال ربيعة البارزين في البصرة هو المثنى بن مخربة العبدي وصار الى البصرة ليبث فيها الدعـوة للمختار والتف حوله نفر من قبيلته عبد القيس التي عرفت بتشيعها لآل علي. ولما قوي امرهم صاروا الى مدينة الرزق فعسكروا عندها ، فوجه اليهم والي البصرة الحارث بن عبدالله المعروف بالقُباع صاحبَ شرطته عبّاد بن الحصين التميمي فهزمهم . وحينئذ لجأ المثنى الى قومه عبد القيس فاحتمى بهم ، ولما حاول القباع إلقاء القبض عليهم مستعيناً بالاحنف بن قيس في مضرحمي لهم البكريون وانصارهم من الازد . وعلى الرغم من ان هؤلاء كانوا على طاعة ابن الزبير فقد حملتهم العصبية على نصرة اخوانهم من عبد القيس ، واقتتل القوم قتالا يسيراً وكلهم يهوى الصلح . وقد تظاهر الاحنف بكراهيته الصلح وعلل مسلكه هذا لرجل أنكره عليه بقوله : « ان ربيعة والازد كثير عددهم بالمصر ، وقد تحالفوا وصاروا يداً علينا فان أريناهم الهيبة لهم ركبونا ، والله ما هم بأحرص على السلم والصلح مني (١) » . وفض النزاع أخيراً باخراج المثنى وأصحابه من البصرة (٢) .

إيقاع المختار بأهل الكوفة

وفي العام نفسه يحدث انشقاق بين أهل الكوفة فيظاهر فريق منهم المختار الثقفي ويثور عليه فريق آخر منهم . وكانت لهذه الحركة دوافع شتى ، فالذين ظاهروا المختار هم الشيعة والموالي ، والذين ثاروا عليه هم أشراف

---

١ ـ انساب الاشراف ٢٤٤/٥ .

٢ ـ خبر هذه الفتنة في الطبري ٥٣٦/٤ . وانساب الاشراف ٢٤٤/٥ .

أهل الكوفة وجل العناصر العربية فيها ، وقد ساءهم أن يجعل المختارلمواليهم نصيباً في الفيء . ونلاحظ أن هذه الثورة لم تخل من الطوابع القبلية ، فالذين ظاهروا المختار جلهم من القبائل التي غلب عليها التشيع ، من همدان وبجيلة وخثعم ومذحج وغيرها . ولم يكن معه من أشراف اهل الكوفة وذوي الرياسة فيها إلا نفر ضئيل يبرز منهم اسم رجل واحد هو ابراهيم بن الاشترالنخعي. وحين أجمع الناقمون على المختارعلى الوثوببه حشدوا جموعهمفيمعسكرات ثلاثة أحدها لقبائل اليمن والثاني لمضر والثالث لربيعة ، وقد حالت العصبية دون توحيد رايتهم وخضوعهم لرئيس واحد ، ولعل هذا كان أحد دواعي إخفاقهم ، بل ان المنافسة كانت بين اشراف اليمن أنفسهم فانهم لما اجتمعوا بجبانة السبيع وحضرت الصلاة كره كل رئيس منهم ان يتقدمه صاحبه (١)، ولتقدير المختار أثر العصبية في النفوس وجه ابن الاشتر اليماني لقتال المضرية ، لانه خشي ألا يبالغ في قتال قومه إن سيّره اليهم (٢) .

يوم الجفرة

وقد لعبت الاهواء السياسية دورها مرة اخرى في اثارة الفتن القبلية في البصرة ، فقد وجه عبد الملك بن مروان خالدَ بن عبد الله بن خالد بن أسيد القرشي في عام ٧٠ هـ الى البصرة ليدعو الى بني امية ، وكان مصعب يومئذ مشغولا بقتال المختار في الكوفة ، فطمع عبد الملك ان يغلب على البصرة . وقد كاتبه طائفة من أشرافها ورؤساء القبائل فيهاواظهرت الولاء له ووعدتهالنصرة على مصعب . فلما قدم خالد البصرة نزل اول الامر على احد أشراف قبيلة باهلة ، وحين رأى انه عاجز عن حمايته لجأ الى سيد بكر مالك بن مسمع فأجاره . وأتاه حليفه زياد بن عمرو في الازد وانضم اليهما انصار بني امية

---

١ ـ الطبري ٥٢٠/٤ .

٢ ـ الطبري ٥٢١/٤ .

وفيهم نفر من بني تميم الا ان كثرة مضر كانت في جانب ابن الزبير ، وكان يتزعمها يومئذ عمر بن عبيدالله بن معمر القرشي خليفة مصعب على البصرة[1]. وقد وقع القتال بين الفريقين في مكان يعرف بجفرة نافع بن الحارث واتصلت الوقائع بينهم طوال اربعة وعشرين يوماً وأصيبت في بعضها عين مالك بن مسمع ، ثم اصطلح القوم اخيراً على ان يخرج خالد من البصرة . ولما قفل مصعب الى البصرة بعد فراغه من قتل المختار ، حقر أصحاب خالد وهدم دورهم وقتل جماعة منهم ، واضطر مالك بن مسمع ان يفر الى بلدة ثأج باليمامة خوفاً من بطش مصعب ولم يعد الى البصرة الا بعد مقتله (٢) .

* * *

ومنذ مقتل ابن الزبير واستقرار الامر لبني أمية هدأت ثائرة الفتن القبلية في العراق لانشغال اهل المصرين بقتال الخوارج الذين اشتدت شوكتهم حينئذ . فشغل اهل البصرة بقتال الازارقة كما شغل اهل الكوفة بقتال شبيب واصحابه من الصفرية ، فضلا عن انشغال هؤلاء وأولئك بالفتوح الشرقية فيما وراء النهر وسجستان وبلاد السند . ولذلك لا تقع طوال حقبة طويلة أية أحداث قبلية ذات شأن . وقد رأى بعض الباحثين في ثورة ابن الجارود على الحجاج ظاهرة من ظواهر العصبية[3] ، على انها في الواقع كانت صدى عوامل شتى، وظاهرت قبيلة قيس يومئذ سيدها الحجاج لأنها لم تشأ ان تدع قيسياً يقتل وينهب ماله[4]. وقد أدت سياسة الحجاج العنيفة الى

---

١ ــ كان الاحنف قد صحب مصعبا في مسيره الى الكوفة لقتال المختار فمات هناك .

٢ ــ خبر هذه الفتنة في الطبري ٣/٥ وما بعدها . وانساب الاشراف ١٥٥/٤ . وتاريخ ابن الاثير ٢/٤ .

٣ ــ نقائض جرير والفرزدق : محمود غناوي الزهيري ص ١٧٨ .

٤ ــ تاريخ ابن الاثير ١٥٨/٤ .

توحيد مشاعر اهل العراق كافة في اتجاه واحد هو كراهية الحجاج والسخط على بني امية الذين ولوه عليهم . ولذلك لما شق عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث عصا الطاعة (عام ٨١ هـ) وأعلن خلافه على الحجاج وخلع عبد الملك ، اجتمع على تأييده ومظاهرته اهل العراق كافة ، يمنيهم ومضريهم وربعيهم ، ولم تر القبائل النزارية ضيراً في ان تسير تحت لواء احد اليمانية وان تبايعه بالخلافة لشدة سخطها على الحجاج وبني امية واهل الشام عامة. ويصور لنا اتفاق كلمة شتى القبائل العراقية إبان هذه الثورة قول أعشى همدان:

سار بجمع كالدَبى من قحطانْ ومن معد قد أتى ابنْ عدنان

بجحفلٍ جَم شديدِ الارنان(١)

وقد تجلى في ثورة ابن الاشعث لون آخر من العصبية هو العصبية للوطن، فان أهل العراق ضاقوا بتسلط اهل الشام عليهم وتجبر ولاتهم وطغيانهم فأرادوا ان ينتزعوا الامر من يدهم ويجعلوه في يد رجل من اهل العراق يؤهله ماضي أسلافه العريق في الملك والحكم لتبوؤ منصب الخلافة ومنازعة بني أمية فيه . ولم يستطع الحجاج ان يقضي على هذه الفتنة الا بجند الشام المخلصين للسلالة الاموية .

ثورة ابن المهلب

وبعد يسير من موت الحجاج يعلن يزيد بن المهلب خلافه على يزيد بن عبد الملك ، ويغلب على البصرة (١٠١ هـ) ، ولكن حركته لا تلقى تأييداً جماعياً من قبائل العراق كالذي لقيته ثورة ابن الاشعث ، لان دوافع الثورة مختلفة في

---

١ ــ الطبري ١٤٨/٥ .

الحالين ، وثورة ابن المهلب أدنى الى ان تكون وليدة عداء شخصي بين ابن المهلب وبين يزيد بن عبد الملك الناقم عليه لتنكيله بأصهاره آل ابي عَقيل ؛ ولذلك نجد العصبية تلعب دورها في هذه الثورة . فقد نصرت أزد البصرة ابن المهلب وظاهرتها حليفتها بكر ، ونصرت كثرة مضر عدي بن أرطاة الفزاري والي البصرة من قبل يزيد[1] . وحدث في الكوفة انشقاق مماثل بين قبائلها[2] على ان ثورة ابن المهلب لم تكن دوافعها قبلية خالصة ولذلك كان معه نفر من مضر كما وقفت طائفة من اليمانية في صفوف بني مروان كآل مخنف فيالكوفة الذين عرفوا بولائهم للبيت الاموي . والذين قضوا على ثورة ابن المهلب هم جند الشام ، وكثرتهم من اليمانية .

الفتن القبلية في خراسان

نزلت قبائل العرب خراسان واستوطنتها حاملة معها عصبياتها وخصوماتها القبلية ، فلم تكد تستقر اقدام العرب فيها حتى هاجت الفتن بينهم بسبب التنازع على السلطان السياسي فيها وما يستتبعه من مغانم مادية . وقد ظهر التنافس أول الامر بين القادة الذين تم على يدهم فتح خراسان، ولاسيما بين قيس بن الهيثم السلمي وابن عمه عبد الله بن خازم السلمي ، ثم اتخذ النزاع طابعاً قبلياً بُعيد وفاة يزيد بن معاوية ، فان الاضطراب السياسي الذي عم أرجاء بلاد الشام والعراق في تلك الحقبة ثارت ريحه في خراسان أيضاً ، ولم يجد واليها سلم بن زياد مناصاً من مغادرتها خشية وثوب القوم به ، صنيعهم بأخيه يزيد . وكانت سجستان قد انتقض أمرها قبيل ذلك وقتل فيها يزيد بن زياد أخو سلم، وثارت العصبية فيها بين المضرية والربعية وغلب كل قوم على مدينتهم (٣) .

---

١ ــ الطبري ٣٢٨/٥ .

٢ ــ الطبري ٣٣٧/٥ وما بعدها .

٣ ــ فتوح البلدان ٤٩٠/٢ .

وقبل ان يشخص سلم من خراسان استخلف مكانه المهلب بن ابي صفرة، ولكن قبيلة بكر تظهر كراهيتها لتولية المهلب الازدي عليها ، ويحمل سليمان بن مَرثد ، أحد رؤساء بكر البارزين ، سَلماً على أن يوليه جانباً من خراسان ، كما يضطر سلم الى تولية رئيس آخر من بكر هو أوس بن ثعلبة مدينة هراة .

ولكن عبد الله بن خازم السلمي الذي كان يطمع منذ أمد في ولاية خراسان يلقى سلماً فيحمله على ان يكتب له عهداً بولاية خراسان كلها . وعلى ذلك بات الاصطدام بين الكتل القبلية في خراسان أمراً لا مفر منه .

أما المهلب فسرعان ما نفض يده من الامر وقد أيقن ألا قبل له بقتال المضرية او الربعية لقلة من كان معه من الازد يومئذ . ولكن ربيعة لم تكن لتلقي سلاحها امام ابن خازم وتدع مضر تأكل خراسان دونها ، فما لبث القتال ان نشب بين ابن خازم في المضرية ، واكثرهم تميم وقيس، وبين سليمان بن مرثد في بكر وسائر ربيعة، وأسفرت الموقعة التي دارت رحاها بمرو الروذ عن مقتل ابن مرثد وهزيمة بكر . ثم ألحق ابن خازم هزيمة أخرى بقبيلة بكر وقتل عمرو بن مرثد أخا سليمان ، وحينئذ لحقت فلول بكر بَهراة وتحصنت بها واستعدت للقاء ابن خازم تحت قيادة أوس بن ثعلبة .

وقد قام أحد وجوه مضر بمحاولة لاصلاح الامور بين ربيعة ومضر، وقد حز في نفسه ان تقع الفرقة بين ابناء نزار ويسفك بعضهم دماء بعض. ولكن محاولته هذه باءت بالاخفاق ، وبدا ان ربيعة لا يرضيها غير اجلاء مضر كلها عن خراسان ، واتصل القتال بين الحيين عاماً كاملا ، وأخيراً استطاع ابن خازم استدراج ربيعة الى مغادرة موقعها الحصين والى قتاله وجهاً لوجه ، وما لبثت الهزيمة ان حاقت بها فقتلت منها مقتلة عظيمة ، وسلك ابن خازم إزاء الاسرى مسلكاً بعيداً عن الرحمة فظل يقتل كل من وقع في يده منهم حتى غابت الشمس . واضطرت ربيعة بعد هذه الضربة القاضية التي نزلت بها الى التزام السكينة وصفت البلاد لابن خازم .

على ان النزاع ما لبث ان دب بين المضرية انفسهم ووقعت الفتنة بين قيس وتميم. ولا تذكر الاخبار سبباً مقنعاً لوقوع العداوة بين الحيين . والطبري يرده الى ما أظهره ابن خازم من الجفاء لبني تميم حين دانت له خراسان ، ولكننا نميل الى ان الدافع الحقيقي لوقوع العداوة بينهما هو التنازع على موارد خراسان . ويبدو ان ابن خازم كان يريد أن يستأثر هو وقومه بنصيب الاسد منها ، والى ذلك لم يكن ابن خازم ممن يؤمنون بسياسة الرفق والاصطناع، بل كان الى سياسة البطش والعنف أميل، وقد أغضب بني تميم بقتله اثنين من رجالهم جلداً بالسياط . ولما رأى بنو تميم ومن تضمه زمرتهم كضبّة ومُزينة ان ابن خازم لا يسوي بين حيي مضر وانه يخضع لنازعة العصبية الضيقة بايثاره قيساً عليهم ، هاجوا وثاروا به وما لبثوا ان غلبوا على هراة وقتلوا واليها محمد بن عبد الله بن خازم ، ثم اخذوا يعدون العدة للقاء ابن خازم وولوا عليهم فارسهم الحريش بن هلال القُريعي ، ولم يبق على ولائه لابن خازم من رؤسائهم غير بُكير بن وشاح العُطاردي (١) .

وقد دام القتال بين ابن خازم وبني تميم زهاء سنتين حتى مل الفريقان الحرب ، ولما يئس بنو تميم من إمكان التغلب على ابن خازم آثروا الخروج عن بلاده ، ولكنهم ارتكبوا غلطة جسيمة بتفريقهم جماعتهم ، فانتهز ابن خازم هذه السانحة للايقاع بهم بعد أن أعجزه القضاء عليهم حين كانوا يداً واحدة، وبدأ برئيسهم الحريش بن هلال فحمله على مفارقة خراسان كلها ، ثم حصر جماعة من فرسانهم نزلت قصر فرَتنا فلما نزلوا على حكمه أخيراً قتلهم جميعاً ثأراً بابنه محمد ، وفيهم فرسان لا نظير لهم امثال زهير بن ذُؤيب العدوي وعثمان بن بشر المزني . ثم مضى ابن خازم الى أبرشهر لقتال من لجأ اليها من بني تميم وعليهم بحير بن ورقاء الصَريمي (٢) .

---

١ ــ هكذا ضبط اسمه الطبري والبلاذري وضبطه ابن حزم ص ٢٠٧ : بكير بن الوساج .

٢ ــ كذا ضبط اسمه الطبري وضبط في فتوح البلدان (٥١٢/٣) وابن حزم (ص ٢٠٨) بجير بن وفاء .

ولما قتل مصعب (٧٢ هـ) كتب عبد الملك الى ابن خازم يعرض عليه ان يبايع له ويجعل له خراسان سبع سنين . ولكن ابن خازم يأبى الخروج عن ولائه لابن الزبير ، وقبيلة قيس زبيرية الهوى ، فيعمد عبد الملك حينئذ الى إغراء بُكير بن وشاح ، خليفة ابن خازم على مرو ، فيكتب اليه بعهده على خراسان ليفسد ما بينه وبين ابن خازم . ويتحقق ظنه فان بكيراً ما نشب ان خلع عبد الله بن الزبير ودعا الى عبد الملك فأجابه اهل مرو . وحين أحس ابن خازم بحرج مركزه وقد أصبح بين نارين اراد اللحاق بابنه موسى بالترمذ ولكن بحيراً يدركه قبل ان يستطيع ادراك مأمنه ويتولى قتل ابن خازم فارس من تميم يدعى وكيع بن الدورقية، وكان ابن خازم قد وتره بقتل أخيه لأمه .

الا ان مقتل ابن خازم لم يضع حداً للفتن القبلية في خراسان ، وظهر النزاع هذه المرة بين بطون بني تميم نفسها ، وكان الذي هاجه ادعاء بكير لدى عبد الملك انه هو الذي قتل ابن خازم لينال الحظوة عنده ، وقد منع بحيراً من المضي برأس ابن خازم الى عبد الله وحبسه ، ففسد من جراء ذلك ما بين بني مقاعس بن عمرو بن كعب رهط بحير ومن معهم من البطون ، وبين بني عوف بن كعب رهط بكير ومن ظاهرهم من الابناء [1] ، وافترقت بنو سعد ووقعت العصبية بينهم حتى خاف المسلمون بخراسان ان ينتهز عدوهم فرصة تفرقهم فينقض عليهم، فبعثوا الى عبد الملك ان يولي عليهم رجلا من قريش لا يتعصبون عليه، فعزل عبد الملك بكيراً وولى مكانه أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد .

ولما قدم أمية خراسان عرض على بكير ولاية شرطته ، ولكن بكيراً أنف

---

١ ـ بنو سعد بن زيد مناة بن تميم فرعان : الابناء وهم بنو عوافة وجشم ومالك وعبدشمس والحارث ، والبطون وهم بنو كعب وعمرو ابني سعد بن زيد مناة ، وكان البطون يتعصبون على الابناء الا ان بني عوف بن كعب بن سعد (ومنهم بكير) كانوا مع اعمامهم الابناء على اخوتهم سائر بني كعب بن سعد (جمهرة ابن حزم ص ٢٠٧) .

ان يغدو صاحب شرطة بعد أن كان أميراً تحمل الحراب بين يديه ، أما بحير فلم يتردد في قبول هذا المنصب حين عرض عليه لانه كان يبيت في نفسه أمراً، ولم يتظاهر بقبوله مصالحة خصمه بكير إلا ترقباً لفرصة الانتقام منه . ثم أراد امية غزو ما وراء النهر فاستخلف بكيراً على مرو ولم يصغ لتحذير بحير، وما لبث بكير انخلع أمية وغلب على مرو فاضطر أمية الى العودة مسرعاً لقتال بكير . ولما طال القتال وخاف بكير ان يغدر به اهل مرو طلب الصلح فأجابه أمية اليه ، ولكن بحيراً ما زال يوغر صدر امية على بكير ويتهمه بالتحريض على خلعه حتى قبض عليه ودفعه الى بحير فقتله بيده (٧٧ هـ) .

وقد أحفظ قتل بكير صدور بني عوف بن كعب والابناء على بحير ووقعت العصبية بين رهطي الرجلين مرة أخرى ، فعقد جماعة من بني عوف العزم على قتل بحير وما زالوا يتحينون الفرص حتى استطاع احدهم قتله علناً في مجلس المهلب بعد انقضاء اربعة اعوام على قتل بكير(١) .

ومنذ أن ولّى الحجاج المهلب بن أبي صفرة خراسان عام ٧٨ هـ كثر عدد الازد فيها واصبح لهم لذلك شأن في الاحداث القبلية التي شهدتها خراسان بعد . وظهرت بوادر مشاركة الازد في الخصومات القبلية منذ عهد المهلب نفسه ، فقد وقع شر بين الازد وعبد القيس اتصل من جرائه الهجاء بين كعب الاشقري وزياد الاعجم ، وحسم الشر على يد المهلب الذي تحمل ديات الفريقين وأطفأ الفتنة (٢) .

وفي عام ٩٦ هـ تقع فتنة عامة في خراسان تجتمع فيها كلمة القبائل كافة

---

١ ــ يرجع الى خبر فتنة ابن خازم وما يتصل بها في الطبري، ٤/٤٢٠ و ٤٨٤ و ٥٤٥ والطبري ٥/٢١ ــ ٣٨ ــ ١٢٨ ــ ١٤٣ . وفي فتوح البلدان ٣/٥١١، وما بعدها . وجمهرة ابن حزم ص ٢٠٧ .

٢ ــ الاغاني ١٤/١٨٧ .

على قتيبة بن مسلم وعشيرته باهلة القليلة العدد ، وكان في ظن قتيبة انه لا يكاد يعلن خلعه لسليمان بن عبد الملك حتى تبادر جميع قبائل خراسان الى تأييده والالتفاف حوله . ولكن هذه القبائل خيبت أمله ولم تظهر أي تحمس لما دعاها اليه ، فلم يكن ثمة ما يحملها على خلع سليمان وقد بايعته سائر الامصار ، وما كان للازد وربيعة ان ترضيا برجل من قيس مكان رجل من قريش . بل ان مضر نفسها كانت كارهة لامر قتيبة ، فبنو تميم الذين كانت لهم الكثرة العددية بخراسان كانوا ساخطين على قتيبة لقتله آل الاهتم ولصرفه الرياسة عن وكيع بن حسان وجعلها في ضرار بن حصين الضبي ، وبنو عامر كانوا ناقمين كذلك على قتيبة لانه كان جفاهم قبل . وارتكب قتيبة غلطته الكبرى حين وجه الى قبائل خراسان تلك الخطبة العنيفة المليئة بالشتائم والاهانات والتي عمّ فيها بالشتم الازد وربيعة ومضر والموالي ، فوحّد بذلك كلمة هذه القبائل عليه ، وحال دون انتصار المضرية له وحمايتها اياه . وأدرك الحضين بن المنذر ، سيد بكر ، بثاقب نظره ان من الخير ألا تنفرد ربيعة وحلفاؤها الازد بالثورة على قتيبة لئلا تنحاز مضر اليه بدافع العصبية ، بل انه اصر على وضع راية الثائرين في يد وكيع التميمي إمعاناً في توفير اسباب القطيعة بين قتيبة وقومه، ولا سيما ان قبيلة تميم كانت يومئذ اكثر خراسان رجلا عربياً . فلما أحيط بقتيبة أخيراً لم يجد من حوله نصيراً ولم تستطع عشيرته القليلة المتضعة ان تدفع عنه مصيره التعس (١) . ولو كانت وراءه قبيلة قوية تنصره لكان من المحتمل الا يلقى هذا المصير ، ولما اجترأت قبائل خراسان على الائتمار به .

الفتن القبلية في اواخر العصر الاموي

بعد هدوء الفتنة بين قيس وكلب ، وقيس وتغلب ، تستقر الاوضاع

---

١ ــ يرجع الى خبر مقتل قتيبة في الطبري ٢٧٣/٥ وما بعدها ، والنقائض ٣٤٩/١ .

القبلية في بلاد الشام والجزيرة فلا تقع فيها احداث قبلية ذات شأن طوال حقبة تمتد زهاء نصف قرن ، أي حتى تولي الوليد بن يزيد الخلافة ، وتكون قبائل الشام في هذه الحقبة ، وقد أعلنت ولاءها المطلق لبني امية ، مشغولة بغزو بلاد الروم من جهة ، وباخماد الثورات التي نشبت في أقطار الدولة الاخرى ، وفي العراق خاصة ، من جهة اخرى . والى هذه القبائل يرجع الفضل في القضاء على ثورات الازارقة والصفرية وثورة ابن الاشعث ، وثورة ابن المهلب .

على أنه منذ تولى الوليد بن يزيد الخلافة (١٢٦ هـ) أطلت الفتن القبلية برأسها في الشام ثانية واحتدم النزاع على الحكم بين أبناء البيت الاموي . وعلى الرغم من ان الثورة على الوليد الثاني إنما قامت على سواعد اليمانية ، لا يسعنا النظر الى هذه الثورة على انها ظاهرة من ظواهر العصبية الخالصة ، على نحو ما نجده عند الدينوري (١) ، وانما كانت صدى عوامل شتى ، وكانت العصبية أبرز هذه العوامل . فقد أثار الوليد عليه سخط اليمانية بقتله خالد بن عبد الله القسري ، وكان خالد قد اقام بعد عزله بالشام واتصل باليمانية فيها ، ولعل مما زاد في إثارة سخط اليمانية عليه ان جلّ عمّاله كانوا من المضرية ، ومن القيسية خاصة ، وكانت أمه منهم . ولا شك ان أنصار خالد القسري وابناءه قد لعبوا دوراً بارزاً في إثارة اليمانية عليه ، وقد نسبت الى الوليد قصيدة يهزأ فيها بالقحطانيين ويفخر عليهم بقومه ويتحداهم ان ينتصروا لخالد القسري ومنها :

وهذا خالد فينا قتيلا	ألا منعوه إن كانوا رجالا
فلو كانت قبائل ذات عزّ	لماذهبت صنائعه ضلالا

فلما شاعت هذه الابيات في الناس ازداد سخط اليمانية عليه ، وهم عظم جند الشام ، فظاهروا يزيد بن الوليد عليه ، ولا يبعد أن تكون هذه القصيدة

---

١ ـ انظر الاخبار الطوال للدينوري ١/٣٤٨ .

مفتعلة على لسان الوليد لاثارة العصبية في أهل اليمن، وتحريضهم على الوليد، وثمة خبر مروي عن بعض الكلبيين يؤيد هذا الاحتمال (١) .

ويضاف الى عامل العصبية عوامل اخرى ، فقد أحنق الوليد عليه بني عميه الوليد بن عبد الملك وهشام باضطهاده إياهم وسوء سيرته فيهم . وكان لابن عمه يزيد بن الوليد اليد الطولى في تأليب الناس عليه بما كان يذيعه من أخبار مجونه وفسقه . ولم تكن خصومة يزيد لابن عمه الخليفة مردها الى موقف الوليد من بني عمه ، والى ما اشتهر به من استهتار بأمور الدين فحسب وانما الى موقفه من القدرية ايضاً ، وكان يزيد الناقص من اشد الناس تحمساً لهم ، ولذلك وجدنا نفراً من هؤلاء القدرية يظاهرون يزيد على ابن عمه الخليفة وفي طليعتهم منصور بن جمهور الكلبي . وكان الوليد قد كلم بشأن من نفاهم هشام من القدرية ، فأبى ان يطلقهم وأظهر تأييده لموقف سلفه هشام منهم (٢) . وقد زاد في سخط الناس على الوليد مسلكه الماجن واستخفافه بأمور الدين ، وان كنا نشك في صحة الكثير مما نسب اليه في هذا الصدد ، ونرجح انه من افتعال خصومه ، وهذه العوامل كلها تضافرت لاثارة الناس عليه ثم قتله آخر الامر . وقد أعلن شعراء اليمانية بعد مصرعه انهم إنما قتلوه أخذاً بثار خالد القسري فقال خلف بن خليفة :

لقد سكّنت كلبٌ وأسباق مَذحج صدًى كان يزقو ليله غيرَ راقدِ
تركن أمير المؤمنين بخالدٍ مكبّاً على خيشومه غيرَ ساجدِ

وقال نصر بن سعيد الانصاري من ابيات :

لا ترضَ من خالدٍ إن كنت متّئراً إلا بكلّ عظيمِ الملك مشهورِ
أسعرتَ ملك نزار ثم رُعتَهم بالخيلِ تركض بالشُمّ المغاويرِ (٣)

١ ــ انظر الطبري ٥/٥٤١ .
٢ ــ الطبري ٥/٥٣٩ .
٣ ــ الطبري ٥/٥٦٣ .

وكان مقتــل الوليد بن زيــاد فاتحة فتن وثورات متصلة بالشــام ، امتدت حتى نهاية عصر بني أمية ، وكان لها اليد الطولى في تقويض دعــائم حكمهم . فقد أسخط مقتل الوليد نفراً من بني امية فثاروا على يزيدالناقص وظاهرهم بعض أهل الاجناد ، وفي طليعة الثائرين مروان بن محمد الذي اظهر الخلاف على يزيد ودعــا الى الطلب بدم الوليــد . وأحنق يزيــد عليــه المضرية لاقصائه إياهم واستعانته باليمانية في اعماله ، بل انه كان لا يخفي كراهيته لقيس ويتمنى لو استطاع القضاء عليهم جميعاً ، متظاهراً ان مايدفعه الى ذلك انما هو غيرته على الدين (١) .

وقد امتد نطاق العصبيات في عهده حتى شمل بلاد العراق وخراسان، ولم يستطع إقرار الامــور في الشام الا بعــد عنــاء ومشقة بالغين . ثــم عاجلته منيته في نفس العام ، ولم يستطع اخوه ابراهيم القبض على ناصية الامور فنازعه في الخلافة مروان بن محمد وآزرته في ثورته عليه المضرية التي ندمت لخذلانها الوليد الثاني وأحفظها افتخار شعراء اليمانية بقتله (٢) .

وما كاد الامر يؤول الى مروان بن محمد حتى ثارت عليه اليمانية التي ساءها ما أصبح لقيس عنده من الحظوة والمنزلة ، وشجعها على ثورتهــا بعض امراء بني امية الطامعين في الحكم ، وفي طليعتهم سليمان بن هشام . وما لبث الاضطراب ان عمّ سائر ارجاء الدولة ، فثار الخوارج في العراق ، واشتد الصراع بين اليمانية والمضرية في العراق وخراسان . ثم أقحمت الكوفة نفسها في غمار العصبيات التي ظلت بمنأى عنها حقبة طويلة ، فعلى أثر وفاة يزيد الناقص ووقوع الحرب بين ابراهيم بن الوليد ومروان بن محمد

---

١ – الطبري ٥/٥٧٢ .

٢ – يرجع الى اخبار مقتل الوليد بن يزيد والاحداث التي تلته في الاغاني ٧/١ وما بعدها والطبري ٥/٥٣٢ وما بعــدها .

قدم الكوفة اسماعيل بن عبد الله القسري منهزماً من جيش أبراهيم وأفتعل كتاباً على لسانه بولاية الكوفة ثم دعا اليمانية الى نصرته فأجابوه . ولا يكاد عبد الله بن عمر بن عبد العزيز يخمد حركة اسماعيل حتى تقع العصبية بين اهل الكوفة بسبب إيثار ابن عمر طائفة من أشراف مضر وربيعة بالعطايا العظام وحرمانه آخرين منها، ويحشد الناقمون من اشراف الربعيين أصحابهم في الكوفة ، وابن عمر يومئذ بالحيرة ، ولكن عاصماً ، أخا ابن عمر ، يوفّق في إرضاء الساخطين ، وتهدئة الاحوال .

ولما تم الامر لمروان بن محمد بالشام أيقن عبد الله بن عمر ان مصيره العزل، وكان يزيد الناقص ولاه العراق ثم أقره اخوه ابراهيم عليها بعده فأخذ له البيعة من اهلها . وقد تحقق ظن ابن عمر فان مروان ما لبث ان عزله وولى مكانه احد فرسان قيس البارزين وهو النضر بن سعيد الحرشي ، ولكن ابن عمر يمتنع من التنازل عن منصب الولاية ، ويستظهر باليمانية الذين كانوا ناقمين على مروان لتعصبه للمضرية ويلوذ بالحيرة ، واجتمعت المضرية الى النضر بن سعيد بالكوفة ثم وقعت الحرب بين الرجلين ولم تزل متصلة بينهما طوال اربعة اشهر .

ولا يلبث ان يبرز على مسرح الاحداث فريق آخر أراد كذلك انتهاز فرصة اضطراب الاحوال في الشام والعراق للاستيلاء على مقاليد الامور ، فقد جمع الخوارج جموعهم وثاروا بالجزيرة ثم اتجهوا الى العراق واستطاعت جموعهم التي تولى قيادتها الضحاك بن قيس الشيباني الاحاطة بالكوفة ومحاصرة أهلها. وهنا يضطر ابن عمر والحرشي الى نبذ خلافاتهما وتجتمع كلمة النزارية واليمانية على قتال الضحاك . وتتكرر هذه الظاهرة الطريفة مرة اخرى في واسط بعد انهزام ابن عمر والحرشي اليها ، فان الرجلين ما كادا يستقران فيها حتى عاودا القتال بينهما ، شأنهما قبل مقدم الضحاك ، مع ابن عمر

اليمانية ، ومع الحرشي النزارية ، فلما دنت جموع الخوارج من واسط تكافأ واجتمعت كلمتهما مرة اخرى على قتال عدوهما المشترك . وينحسم النزاع بين النزارية واليمانية اخيراً بخروج الحرشي الى مروان واستسلام ابن عمر للضحاك (١) .

وآخر فتنة قبلية شهدتها بلاد العراق كانت في السنة التي تقوض فيها الحكم الاموي ، فقد ساندت اليمانيةمن اهل البصرة والكوفة الدعوةالعباسية نكاية بمروان بن محمد المتعصب للمضرية ، وانضمت اليها حليفتها بكر وربيعة ، ووقفت النزارية في جانب بني امية . ودار قتال عنيف بين الفريقين في البصرة ، وعلى رأس المضرية سلم بن قتيبة الباهلي ، وعلى اليمانية وحلفائهم سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، ودارت الدائرة اخيراً على اليمانية والربعية واستبيحت دور آل المهلب والازد . ودار قتال مماثل في الكوفة بين محمد بن خالد بن عبد الله القسري ومعه اليمانية والربعية ، وبين يزيد بن عمر بن هبيرة والي العراق من قبل مروان . وحين التحم القتال نادى محمد بن خالد من كان مع يزيد من قومه ودعاهم الى الانضمام اليه وذكرهم مقتل ابيه ، وتحامل بني امية عليهم ، فمالوا اليه ولم يبق مع ابن هبيرة الا قيس وتميم . وقد انطفأت جذوة هذه الفتن اخيراًبتغلب بني العباس على مروان وبني امية وتوليهم مقاليد الامور في العراق (٢) .

اما خراسان ، فقد شهدت في اواخر العصر الاموي فتناً قبلية متصلةبين المضرية من جانب واليمانية والربعية من جانب آخر، ولعبت قبيلة الازد دوراً بارزاً في هذه الفتن . وقد بدأت مشاركتها الجادة في الاحداث القبلية منذ

---

١ ـ انظر الطبري ٥٩٩/٥ وما بعدها .

٢ ـ انظر الطبري ٧٥/٦ وما بعدها . والاخبار الطوال ٣٦٥/١ وما بعدها .

أواخر القرن الاول الهجري، حين أشتدت العصبية وظهر التنافس القوي بين قبائل خراسان حول منصب الولاية ، وساندت الازد حليفتها ربيعة في جميع الوقائع التي حدثت منذ ذلك الحين . وقد بدأت طلائع الفتنة بين المضرية واليمنية منذ وقعة البَروقان ببَلخ (عام ١٠٦ هـ) . ويبدو ان عزل هشام عمر بن هبيرة عن العراق وتوليته خالد بن عبد الله القسري مكانه قد اغرى اليمانية وحلفاءهم بخراسان بالتمرّد على عامل خراسان القيسي مسلم بن سعيد الكلابي ، فلما أراد مسلم غزو ما وراء النهر تلكأ وجوه اليمانية والربعية ببلخ عن المسير معه ، وشجعهم على مسلكهم هذا عامل بلخ عمرو بن مسلم الباهلي ، أخو قتيبة . ولكي يستميل المتمردون عمراً اليهم ادعوا أن قبيلة باهلة مرجعها الحقيقي في النسب الى تغلب لا الى قيس . وأرسل مسلم بن سعيد نصر بن سيّار ليحمل المتخلفين على المسير معه ولكنهم أبوا ، واجتمعت الازد وربيعة بالبَرُوقان فسار اليهم نصر بالمضرية وهزمهم ثم قتل جماعة منهم وعاقب رؤساءهم (١) .

وفي أواخر العصر الاموي ثارت ريح العصبية بين المضرية واليمانية على اوسع مداها ، وبدأت سلسلة الوقائع الدامية بينهما ولم تزل متصلة حتى أواخر عصر بني أمية ، وكان لها أكبر الاثر في تقويض صرح الحكم الاموي ، لان انصار بني العباس استغلوا فرصة اشتغال قبائل خراسان بعضها ببعض لنشر دعوتهم وتأليب العناصر العجمية على العنصر العربي ، ومن هناك انطلقت جحافل انصارهم الى سائر البلاد التي أظلّها الحكم الاموي .

وكانت بداية النزاع القبلي التزاحم الذي قام على ولاية خراسان بين رأس اليمانية جديع بن علي الازدي المعروف بالكرماني وشيخ المضرية فيها نصر بن سيار الكناني ، فعلى أثر موت أسد بن عبد الله القسري والي

---

١ – الطبري ٣٧٩/٤ .

خراسان المعروف بشدة تعصبه لليمانية ، أستشار هشام خاصته فيمن يوليه خراسان (١) ، فأشير عليه بعدد من الرجال أحدهم نصر بن سيار الكناني ، وكان هوى يوسف بن عمر في القيسية ، فكتب الى هشام يرشح لولاية خراسان نفراً منهم ويثني عليهم ، ثم وضع اسم نصر في ذيل القائمة لانه لم يكن قيسياً . ولكن هشاماً يختار نصراً دون سائر المرشحين ، ولماقيل له انه ليس بذي عشيرة في خراسان تمنعه اجاب : انا عشيرته . ويلاحظ ان هشاماً منذ غضب على واليه خالد القسري عزف عن استعمال اليمانية ، وكان — الى ذلك — سيء الرأي في ربيعة ، فكان كلما أشير عليه بتولية أحدهم أباه متذرعاً بأن ربيعة لا تسد بها الثغور (٢) . ونحن نلاحظ ان ربيعة كانت سيئة الحظ في الوصول الى مناصب الولاية ، فقل ان نجد من رجالها من وصل الى هذه المرتبة ، وانما كانت الولاية متداولة بين المضرية واليمانية.

وقد برهن نصر حين آلت اليه ولاية خراسان على كفاية نادرة واخلاص يحمد عليه . ولكن يوسف بن عمر كان يطمع في ضم خراسان ذات الخيرات الوافرة الى عمله — وكانت ولاية خراسان تضم الى امير العراق تارة ، وتستقل عنها تارة اخرى فيكون واليهاتابعاً للخليفة مباشرة — فقام بمحاولات كثيرة لهذه الغاية وحاول افساد ما بين هشام ونصر ، ولكن محاولاته هذه باءت كلها بالاخفاق وظل نصر يتربع ولاية خراسان حتى وفاة هشام (عام ١٢٥ هـ) .

ولما آلت الخلافة الى الوليد بن يزيد القيسي الهوى توطدت مكانة يوسف ابن عمر واستطاع حمل الوليد على ان يرد اليه ولاية خراسان ، واحس نصر ان

---

١ — ثمة رواية اخرى في الطبري (٤٧٧/٥) تجعل جديعا الكرماني يولى خراسان بعد أسد ثم يعزل ويولى مكانه نصر ، وهي رواية غير مقبولة في نظرنا لانها تنسب امر توليه الكرماني الى يوسف بن عمر الثقفي فلم يكن ابن عمر المعروف بتعصبه للقيسية ليولي خراسان احد اليمانية ولا سيما بعد غضبة هشام على خالد القسري وسائر اليمانية .

٢ — الطبري ٤٧٨/٥ .

أبن عمر لا يضمر له الخير فتثاقل عن المضي اليه ، فلما ألح عليه يوسف بن عمر بالقدوم عليه وتهيأ للمسير ، أتته الانباء بوقوع الفتنة بالشام ومقتل الوليد وقدوم منصور بن جمهور العراق من قبل يزيد الناقص . وما عتم منصور ان أوفد أخاه منظوراً الى خراسان ليتولى عمل نصر ، ولكن نصراً يمتنع من تسليم عمله اليه ويسعى في ارضاء العناصر اليمنية والربعية التي كانت ساخطة عليه لعصبيته لمضر ، ويفلح نصر اخيراً في إقرار الامور في مصره ، ولكن الى حين، فان العصبية ما لبثت أن أطلت برأسها وقامت الفتنة بين اليمانية والمضرية .

ومن المحقق ان الفتن القبلية في خراسان كانت امتداداً لنظيرتهافي الشام، وقد قامتا في زمن متقارب ، بل ان ثمة دلائل على قيام تعاون وثيق بين القبائل المتحدة الاصل في البلدين ، فقد ذكروا ان يمانية الشام ارسلوا ايام العصبية رجالا منهم لنصرة قومهم (١) .

وقد ظهرت بوادر الفتنة منذ امتنع نصر من التنازل عن منصب الولاية الى عامل منصور بن جمهور ، فان الازد رأوا ان الفرصة اصبحت سانحة للشغب واثارة الفتن . وشجعهم على ذلك انتصار اليمانية بالشام في ثورتهم على الوليد الثاني وقتلهم اياه ، فأخذ الكرماني يحرض قومه على الوثوب بنصر ويفسد الناس عليه ، وما لبث نصر ان اتاه كتاب عبد الله بن عمر والي العراق بعد منصور بن جمهور وفيه عهده على خراسان ، ولكي يقضي نصر على بذور الفتنة قبل استفحال امرها أمر بسجن الكرماني رأس الازد ، ولكن اصحابه يحتالون في اخراجه من محبسه فيلتف حوله اليمانية والربعية ويلوذ نصر بالمضرية ويتأهب الفريقان للقتال . ولكي يقوي الكرماني اواصر الاتحاد بين اليمانية والربعية يعمد الى تجديد الحلف الذي ادعى انه كان قائماً بين ربيعة واليمن في الجاهلية (٢) .

---

١ ــ الطبري ٥/٤٣٥ .
٢ ــ الاخبار الطوال ١/٣٥٢ .

ولا يلبث النزاع الثنائي ان يتحول الى نزاع ثلاثي بعودة الحارث بن سريج ، رأس المرجئة ، من بلاد الترك الى خراسان وانضمام جمهور من اهلها اليه اكثرهم من بني تميم والمضرية . وقد أدى مقدم الحارث الى تصدع صفوف المضرية اذ ان الحارث واصحابه ساندوا الكرماني في قتال نصر ، واستحر القتال بين الفريقين ، وخشي نصر ان تدور الدائرة عليه فآثر الخروج عن مرو والابتعاد عن ميدان المعركة الى حين ، وكأنه كان يتوقع نشوب الخلاف بين الكرماني وابن سريج حين يفارقهما عدوهما المشترك .

وقد تحقق ما كان يتوقعه نصر ، فما كادت مرو تقع في يد الكرماني حتى دب النزاع بينه وبين الحارث ونشب القتال بينهما لتنازعهما السلطان ، وما لبثت الهزيمة ان حاقت بابن سريج وانتهى الامر بمقتله (عام ١٢٨ هـ) .

وما كادت مرو تصفو للكرماني واليمانية حتى أطلقوا العنان لنوازع الحقد والعصبية فهدموا دور المضرية وأوقعوا بهم وأظهر شعراؤهم الشماتة بهزيمة مضر ، فأدى هذا كله الى إثارة غضب المضرية وأخذ شعراؤهم يحرضون قومهم على قتال اليمن ، ويعيرونهم خضوعهم لمزون عمان . وما لبث نصر ان عاود قتال الكرماني واتصلت الوقائع بينهما حتى وهنت قوى الفريقين وأثخن كل منهما صاحبه ، وحينئذ انتهز ابو مسلم الفرصة لاظهار الدعوة العباسية والتفت حوله العناصر العجمية التي أطمعها قتال العرب بعضها بعضاً وافتراق كلمتهم ، وما نشبت المسودة ان غلبت على كثير من بلاد خراسان وكثر جمعها ، وجاء ابو مسلم فعسكر بين نصر والكرماني .

وحينئذ فقط أحست العناصر العربية المقتتلة بالخطر الداهم ، وأدركت ، بعد فوات الاوان ، أن نائرة العصبية التي فرقت جمعهم وأوهنت قواهم ، قد أطمعت فيهم أنصار الدعوة العباسية ومن والاهم من الاعاجم ، فأرادوا ان يوحدوا جبهتهم ويجمعوا كلمتهم لقتال ابي مسلم ، ويتخلى نصر عن عصبيته

الضيقة لينطق بلسان قومه العرب كافة ، ويهيب بهم أن يتحدوا ويجمعوا كلمتهم لمنابذة عدوهم المشترك (١) ، الا ان ابا مسلم يحتال في افساد ما بين نصر والكرماني ويستميل اليه الكرماني ويدعوه الى محالفته على نصر ، ويهم الكرماني بالمضي الى أبي مسلم لولا ان نصراً يثنيه عما همّ به ويخوفه أمر أبي مسلم وغدره ، ثم يدعوه الى الموادعة فيقبل ، وحين يقدم على نصر لامضاء الموادعة في قلة من اصحابه، يغدر به ابن سيار ويوجه اليه من يقتله (١٢٩ هـ).

وبدافع الحقد على قاتل ابيهما ينضم ولدا الكرماني علي وعثمان الى أبي مسلم وقد وعدهما ان يطلب بثأرهما . ولكنه لايكاد يستقر له الامر في خراسان بهزيمة نصر وفراره من مرو ، حتى يغدر بولدي الكرماني ويقتلهما ، وتنطفىء بذلك جذوة الفتن القبلية التي أوهنت قوى العرب بخراسان وأتاحت لدعاة بني العباس نشر دعوتهم فيها مستعينين بالعناصر الخراسانية للقضاء على الدولة الاموية العربية (٢) .

---

١ - انظر ابيات نصر في العقد الفريد ٤٧٨/٤ .

٢ - يرجع الى اخبار هذه الفتنة في الطبري ٤٧٧/٥ - ٥٠٨ - ٥٣٣ - ٥٧٧ - ٥٨٤ - ٦٠٤ . والطبري ٢/٦ - ٨ - ٢٢ - ٣٦ - ٤٥ . وفي الاخبار الطوال ٣٥٢/١ وما بعدها .

ز ـ الصراع في ميدان القول

المفــاخرات

الى جانب الصراع الحربي الذي لم تهدأ ثائرته بين القبائل العربية طوال عصر بني أمية ، كان ثمة لون آخر من الصراع انصرفت اليه هذه القبائل بدافع العصبية والنعرة القبلية، هو الصراع اللساني الذي تولى أمره الشعراء والخطباء، اذ كانوا ينافحون عن قبائلهم بشعرهم وبيانهم فيهاجمون خصومها، ويفاخرون بمحامدها ، ويمجدون فضائلها ، ويشيدون بذكر بطولاتها ووقائعها الظافرة .

والحديث عن الشعراء وأثرهم في الذياد عن قبائلهم وصلتهم بالعصبيات موضعه الباب الثالث من هذا البحث ، فلن نعرج عليه الآن ، وحسبنا ان نشير هنا الى ان المصاولات الشعرية كانت من ابرز مظاهر العصبية عصرئذ ، بل لعلنا لا نجد عصراً شارك فيه الشعر والشعراء في الخصومات القبلية كالعصر الاموي . وحديثنا هنا نقصره على ما وقع بين البلغاء والخطباء وأرباب القول من مفاخرات ومنافرات ومساجلات إبان هذا العصر ، فقد كان من أثر تمكن العصبية من نفوس القوم وغلبتها عليهم انهم ما يكاد يضمهم مجلس حتى ينزعوا الى التفاخر والتساجل فيعدد كل منهم فضائل قومه ومآثرهم ، ويرفع من شأنهم ويغض من شأن القبائل الاخرى . وكثيراً ما كانت هذه المفاخرات تقوم في مجلس الخليفة او الوالي ، وربما قامت في سوق المدينة العامة التي يؤمها الناس من شتى القبائل فيكون التقاؤهم فيها مدعاة لوقوع التفاخر بينهم ، شأنهم يوم كانوا يلتقون في سوق عكاظ وغيرها في العصر الجاهلي .

وهذه المفاخرات كانت تساير درجات العصبية وحدودها ، فثمة مفاخرات تساير العصبية في نطاقها الواسع وهي التي كانت تقوم بين العدنانية والقحطانية ، ومفاخرات اخرى املتها العصبية في نطاقها الضيق بين بطون القبيلة الواحدة او بين أسر البطن الواحد .

وحين نرجع الى الضرب الاول من هذه المفاخرات ونتقصى الامور التي

كان الفريقان يستندان اليها في مفاخراتهما ، نجد أهل اليمن يفاخرون بماضيهم العريق وما كان لهم من حضارات قديمة ومجد مؤثل فهم سلالة التبابعة والاقيال الذين دانت لهم قبائل العرب ، وأخضعوا الامم الاخرى لسلطانهم ، ويفاخرون كذلك بوقائعهم التي انتصروا فيها ايام الجاهلية ورجالهم المشهورين في الجاهلية والاسلام .

ويجيبهم العدنانيون فيفاخرون بانتماء الرسول اليهم ونزول الكتاب بين ظهرانيهم وبكون الخلفاء منهم ويعددون كذلك أيامهم التي انتصروا فيها على اليمن في الجاهلية والاسلام ، ويفاخرون برجالهم المشهورين من فرسان وأجواد وقادة جيوش وغيرهم . ومن هذا القبيل مفاخرة الابرش الكلبي وخالد بن صفوان في مجلس هشام بن عبد الملك ، قال الابرش : « لنا ربع البيت(١)، ومنا حاتم طي ، ومنا المهلب بن ابي صفرة » . فقال خالد : « منا النبي المرسَل ، وفينا الكتاب المنزل ، ولنا الخليفة المؤمل » . فآلى الابرش لافاخر مضرياً بعد ذلك (٢) . وقد كانت لخالد بن صفوان جولات موفقة في ميدان المفاخرة ، وهو صاحب القول المأثور في أهل اليمن حين ُدعي الى مفاخرتهم : « هم بين حائك برد ، وسائس قرد ، ودابغ جلد ، دل عليهم هدهد ، وملكتهم امرأة وغرقتهم فأرة (٣)... » .

ويظهر ان الخلفاء كان يطيب لهم دعوة خطباء القبائل الى التفاخر والتباهي حين تفد اليهم وفودهم ، ويجدون متعة كبيرة في تتبع هذه المساجلات ، وشهدت مجالسهم مفاخرات كثيرة منذ ايام معاوية ، ولذلك كانت كل قبيلة تحرص على ان يكون في عداد وفدها الى الخليفة نخبة من البلغاء والخطباء المفوهين لينطقوا بلسانها عند المفاخرة وتصاول أرباب القول . وقد ذكر الجاحظ ان خطباء نزار واليمن اجتمعوا في مجلس معاوية فلما قام خطباء نزار وذهبوا في الخطب كل مذهب قام صَبرة بن شيمان، سيد الازد ، فقال :

---

١ ـ يريد بربع البيت الركن اليماني .
٢ ـ العقد الفريد ٣/٣٣٠ .
٣ ـ البيان والتبيين ١/٣٢٩ . العقد الفريد ٣/٣٣٠ .

« ياأمير المؤمنين ، إنا حيّ فَعال ، ولسنا حيّ مقال ، ونحن نبلغ بفعالنا اكثر من مقال غيرنا (١) » . فمجالس الخلفاء كانت اذن حلبات يتبارى فيها خطباء القبائل ، ويتصاول بلغاؤها في مجال القول والتفاخر .

وربما وجدنا الخلفاء يحرشون بين أشراف القبائل وبلغائها ويثيرون فيهم النعرة القبلية ليحملوهم على التفاخر بمحضرهم – وقد قدمنا ان إثارة هذه النعرات كانت تكمن وراءها في كثير من الاحيان غايات سياسية – فجاء في بعض الاخبار ان عياش بن الزبرقان دخل على عبد الملك بن مروان وعنده روح ابن زنباع فقال عبد الملك : يا عياش ، أما ترى هذا اليماني يفخر بملوك اليمن ؟ فقال عياش : يا أمير المؤمنين ، نحن بنو اسماعيل بن ابراهيم ، فملك اخوتنا بني اسحاق بن ابراهيم اعظم من ملكهم : ملك سليمان بن داود مع النبوة ، ونحن بنو اسماعيل ففينا النبوة والملك ، فملكنا وملك اخوتنا أعظم من ملكهم (٢) .

وكذلك كانت تقوم مفاخرات كثيرة في نطاق العصبيات الضيقة ، سواء بين القبائل المنتمية الى اصل واحد ، او بين بطون القبيلة الواحدة ، او بين أسر البطن الواحد . وهذه المفاخرات كثيراً ما نجدها متصلة بالخصومات القبلية التي ثارت في ذلك العصر ، وهي في أحيان أخرى أثر من آثارالعداوات القبلية الموروثة عن العصر الجاهلي .

ومن أمثلة هذه المفاخرات ما رواه انس من مفاخرة الاوس والخزرج(٣)، وهذه المفاخرة ذات طابع ديني لان القبيلتين تفاخرتا برجالهما الذين عرفوا بحسن الصحبة او البلاء في الدين او قراءة القرآن ، وهذا ينبئنا ان المتدينين انفسهم لم يكونوا بمنجاة من الروح القبلية . وفي المصادر الادبية والتاريخية أمثلة كثيرة لهذه المفاخرات(٤) ومنها ما كان يدور بين النسابين ورواة الاخبار كالمفاخرة التي قامت في مجلس عبد الله بن عامر بين دغفل الشيباني النسابة

---

١ – البيان والتبيين ٣٠٠/١ .
٢ – انساب الاشراف ٢٥٤/١١ .
٣ – انظر العقد الفريد ٣٣١/٣ .
٤ – انظر مثلا امالي المرتضى ٢٨٧/١ . انساب الاشراف ٢٨٧/١١ . بلوغ الارب للالوسي ٢٧٩/١ .

والحنتف بن يزيد العنبري وقد تذاكرا فيها ايام قبيلتيهما في الجاهلية (١) .
ومنها ما كان يدور بين رجال الدولة والولاة والامراء الذين لم يبرءوا كذلك من النزوع الى التفاخر بمآثر قبائلهم (٢) .

واكثر المفاخرات في حدود العصبيات الضيقة قامت بين بطون قريش التي تنازعت الحكم ولا سيما بين بني هاشم وبني امية . والمفاخرات التي قامت بين هذين البيتين انما كانت صدى الصراع السياسي العنيف الذي كان دائراً بينهما بسبب الحكم . وكان بنو هاشم يفخرون على بني امية بانتماء الرسول اليهم ويرون انهم لذلك احق بالخلافة من منافسيهم ، وكانوا يعيرون بني أمية بتلكئهم عن إجابة دعوة الرسول ، وبأن أبا سفيان كان من المؤلفة قلوبهم ثم يذكرون مثالب كل من رجال بني امية ، ويجيبهم بنو امية ذاكرين ما كان لهم من مآثر في الجاهلية ، ويعيّرون بني هاشم بتركهم امر الخلافة لبني تيم وبني عدي ، ويتهمون علياً بالتحريض على قتل عثمان ونحو ذلك . وأكثر ما نجده من هذه المفاخرات انما دار في مجلس معاوية ، وكان يتنازع المقال فيه اقطاب البيتين وانصارهما . ومثال هذه المفاخرات ما اورده صاحب العقد قال : « قال يوماً معاوية وعنده ابن عباس : اذا جاءت بنو هاشم بقديمها وحديثها ، وجاءت بنو امية بأحلامها وسياستها ، وبنو أسد ابن عبد العزى برفادتها ودياتها ، وبنو عبد الدار بحجابها ولوائها ، وبنو مخزوم بأفعالها واموالها ، وبنو تميم بصديقها وجوادها ، وبنو عدي بفاروقها ومتفكرها ، وبنو سهم بآرائها ودهائها ، وبنو جُمَح بشرفها وأنفتها ، وبنو عامر بن لؤي بفارسها وقريعها ، فمن ذا يجلّي في مضمارها ويجري الى غايتها ؟ ما تقول يا بن عباس ؟ قال : أقول ليس حيّ يفخرون بأمر الا والى جنبهم من يشركهم ، إلا قريشاً فانهم يفخرون بالنبوة التي لا يشاركون فيها ، ولا يساوون بها ولا يدفعون عنها ، وأشهد ان الله لم يجعل محمداً

---

١ ــ البيان والتبيين ٣١٨/١ .
٢ ــ انظر مثلا خبر الحجاج والمهلب في الكامل للمبرد ٢٢٣/٢ .

من قريش إلا وقريش خير البرية ، ولم يجعله في بني عبد المطلب الا وهم خير بني هاشم ، ما نريد ان نفخر عليكم الا بما تفخرون به(١) ... » .

وامثال هذه المفاخرات قامت كذلك بين آل الزبير وبني امية ، وبين آل الزبير وبني هاشم ، بل ثمة مفاخرات كثيرة قامت بين أسر البيت الاموي نفسه ، ومردّها كلها الى الصراع السياسي والنزاع على الحكم ، وتتجلى فيها الروح الجاهلية ، روح المفاخرة بالاحساب والانساب والمآثر مختلطة بالمعاني الاسلامية التي تدور حول النبوة ونصرة الدين ، ورعاية أمور المسلمين ونحو ذلك(٢) .

ولم تقتصر هذه المفاخرات على العرب الصرحاء بل ان عدواها انتشرت فشملت الموالي ايضاً ، فكان موالي كل قبيلة يفاخرون كذلك بمآثرها ومناقبها . وقد ذكر ابو الفرج ان سديفاً مولى بني هاشم ، وشبيباً مولى بني امية ، كانا يخرجان الى ظاهر مكة ، هذا في موالي بني هاشم وذاك في موالي بني أمية ، فيتفاخرون ويتشاتمون (٣) .

---

١ ـ العقد الفريد ١٠/٤ . جواد بني تيم : عبيد الله بن معمر والمتفكر : أراد به زيد بن عمرو بن نفيل .

٢ ـ للوقوف على أمثلة لهذه المفاخرات يرجع الى العقد الفريد ٤/٤ وما بعدها ، وكتاب النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم للمقريزي . وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧/٣ و ٤٧٦/٣ و ٤٩٣/٤ .

٣ ـ الاغاني ١٧٤/٩ .

ح ـ الافتعال في الانساب والاخبار

كان ثمة ميدان آخر اصطرعت فيه العصبيات غير ميدان القتال ، وساح الادب والبيان ، ذاك هو ميدان الرواية والتاريخ ، الذي تجلت فيه مشاركة رواة الاخبار والاشعار والنسابين في المحاماة عن قبائلهم والتعصب لها والمفاخرة بها ، فقد فرضت العصبية على كل مواطن قبلي متحمس لجماعته ان ينتصر لها ويذود عنها بالوسيلة التي يملكها ، سواء بسلاح الحرب أم بسلاحالا دب والبيان أم بسلاح التزوير والتاريخي وتلفيق الانساب ووضع الاحاديث واختلاق الاخبار وافتعال الاشعار . وقد نشط هذا اللون من الوان النشاط القبلي الناجم عن استشراء العصبية طوال عصر بني امية وظل قائماً بعد ذلك أمداً طويلا في العصر العباسي واحتدم أواره فيه حتى غدا أبرز مظاهر الصراع القبلي في ذلك العصر .

ويكاد يكون هذا اللون من الصراع وقفاً على العصبية الواسعة النطاق بين العدنانية والقحطانية ، ولم يكن للعصبيات الاخرى مشاركة فيه ذات خطر ، واكثر ما نجد أثر العصبيات الضيقة في رواية اخبار الجاهلية وايامها، فقد حملت العصبية رواة هذه الاخبار والايام على تحريف اخبار الوقائع الجاهلية تضخيماً من شأن الدور الذي لعبته قبيلتهم فيها،ومن هنا اصبحنا نجد للخبر الواحد روايات مختلفة وكثيراً ما تكون متناقضة . وفي العقد الفريد خبر يقفنا على أثر العصبية في اضطراب رواية الايام الجاهلية واخبارها ، فقد روى ابو عبيدة أن نفراً من اهل البصرة كانوا يتجالسون يوم الجمعة ويتفاخرون ، فتنازعوا يوماً في الرياسة يوم خزاز ، وكان من المألوف ان يتنازع رواة الاخبار في رئاسة القبائل ايام الجاهلية ، اذ ان كل قبيلة كانت تأنف ان تقر بخضوعها لرئيس من غيرها فتزعم ان الرئيس كان منها او ان القوم كانوا متساندين ، فقال خالد بن جبلة : كان الاحوص بن جعفر الرئيس ، وذهب عامر ومسمع ابنا عبد الملك بن مسمع الى ان رئيس القوم يومئذ كان كليب وائل ، وادعى ابراهيم بن محمد بن نوح العطاردي ان الرئيس كان زرارة بن عدس . فتحاكموا الى ابي عمرو بن العلاء فنفي

مشاركة بني عامر بن صعصعة وبني دارم وبني جشم بن بكر في هـذا اليوم ونفى ان يكون كليب وائل رئيس القوم يومئذ واستدل بشعر لعمرو بن كلثوم على انهم كانوا متساندين (١) .

ونحو هذا الاضطراب نجده في اخبار كثير من الايام الجاهليـة ، ومن قبيل ذلك ما نجده في اخبار يوم شعب جبلة ، فثمة رواية تذكر ان سنان بن ابي حارثة المري لما لحق به بنو عامر قاتلهم وردهم على اعقابهم . ولكن بني جعفر بن كلاب ينكرون هذه الرواية ، ويزعمـون ان عروة الرحال وجـد سنان بن ابي حارثة وابنيه هرماً ويزيد على غدير والعطش يكاد ان يهلكهم فجز نواصيهم وأعتقهم (٢) . وأشار ابو عبيدة الى ما وقـع من اضطراب وتخليط في خبر يوم النِسـار واختلاف اقوال قبائل الرباب وقيس عيـلان وأسد فيه (٣) . وذكر ابو عبيدة أيضاً ان عبد الملك بن مروان سأل رجـالا كانوا عنده من كان على الناس يوم النِسـار ؟ فقالوا انهم كانوا متساندين ، ولكن احد رجال الاخبار الثقات يؤكد لعبد الملك انه لم يكن للقوم يومئـذ الا رئيس واحد هو حِصن بن حذيفة الفزاري (٤) .

وكما أدخلوا التحريف على أخبار الوقائع الجاهلية لغايات قبلية فعلوا مثل ذلك أحياناً في الانساب العربية . فالقبيلة ربما ادعت انتماء قبيلة اخرى الى نسبها وافتعلت جدولا نسبياً يؤيد مدعاها بغية استمالة هذه القبيلة الى صفها وكسب تأييدها ونصرتها . ومن هذا القبيل ما وجدناه ابان الفتنة القبلية التي ثارت بالبروقان من ادعاء تغلب ان قبيلة باهلة تنتسب اليهـا وافتعالها شعراً يؤيد هذه النسبة ، استظهاراً بباهلة وأميرها ببلخ عمرو بن مسلم على المضرية ، وادعت الازد مثل هذه الدعوى ايضاً لنفس الغاية (٥) .

---

١ ـ العقد الفريد ٢٤٥/٥ . والذين ورد ذكرهم في هذا الخبر كانوا كلهم من مخضرمي العصرين الاموي والعباسي ، فيحتمل لذلك أن يكون زمن الخبر العصر الاموي أو صدر العصر العباسـي .

٢ ـ الاغاني ١٥٧/١١ .

٣ ـ النقائض ٢٣٨/١ .

٤ ـ النقائض ٢٣٨/١ .

٥ ـ الطبري ٣٨٠/٥ .

وهذا الضرب من العبث بالانساب وتجاذب القبائل كان احد مظاهر الصراع القبلي البارزة بين العدنانية والقحطانية ، فقد حرصت كل من الكتلتين على ضم اكبر عدد من القبائل الى شجرتها النسبية لتشد بها أزرها وتغدو الكثرة العددية في جانبها . وفي سبيل ذلك اقدمت على تزوير الانساب وافتعالها ووضع الاشعار والاحاديث والاخبار التي تؤيد مزعمها . وهذا الافتعال والتزوير في الانساب هو احد الاسباب التي حملت طائفة من الباحثين المحدثين على الشك في صحة جداول الانساب العربية .

وأشهر القبائل التي احتدم النزاع حولها وتجاذبتها العدنانية والقحطانية قبيلة قضاعة الضخمة التي تنتمي اليها طائفة من القبائل المشهورة منها كلب وسعد هذيم وبَلِي وبهراء وسَليح . وحين استقر الحكم الاموي بالشام كانت قبائل قضاعة تستوطن جانباً كبيراً من هذه البلاد ، فرأى الامويون ان تثبيت اوتاد ملكهم بالشام منوط باكتساب تأييد هذه القبائل . وقد رأينا بني امية يسعون منذ زمن عثمان ، في ربط اسبابهم بأسباب قبيلة كلب القوية استظهارا بها فيصهر اليها نفر من اشرافهم منهم عثمان ومعاوية وسعيد بن العاص . ولما آل الامر اليهم كانت قضاعة وكلب خاصة هي اضخم الكتل القبلية في بلاد الشام ، وكان انحياز هذه الكتلة الى اي حزب سياسي خليقاً بترجيح كفته وبمنحه تأييداً حربياً وسياسياً عظيم الخطر . وكذلك كان انحياز هذه القبيلة الى احدى الكتلتين العدنانية والقحطانية ، خليقاً بترجيح كفتها العددية وباختلال ميزان القوى القبلية ، ومن هنا كان حرص كل منهما على ادعاء أنها أم قضاعة الرؤوم . ومما افسح المجال لتنازع نسب هذه القبيلة استقرار جل بطونها في شمالي بلاد العرب وفي بلاد الشام منذ اقدم العصور ومجاورتها القبائل العدنانية في منازلها . وقد قام نسابو كل من الكتلتين والاخباريون فيهما بمحاولات كثيرة منذ مستهل العصر الاموي حتى منتصف العصر العباسي في سبيل ضم هذه القبيلة الى شجرتهم النَسَبية .

وقد ذهب بعض نسابي اليمن الى ان قضاعة انما نسبت الى معد أيام العصبية ، وفي زمن معاوية وابنه يزيد بوجه خاص ، وان معاوية وابنه بذلا لرؤساء قضاعة اموالا جسيمة لقاء الانتفاء من اليمن والانتساب الى معد وان نفراً من رؤساء قضاعة أجابوهما الى هذا الامر ، واشاعوا القول بانتساب قضاعة في معد، ولكن قضاعة تغضب غضباً شديداً لشيوع هذا القول وتنكره اشد الانكار ثم تجمع جموعها وتدخل مسجد دمشق يوم الجمعة وهي ترتجز بقول شاعرها :

يا أيها الداعي ادعنا وبشّرِ	وكن قضاعيّاً ولا تنزّرِ
نحن بنو الشيخ الهجان الازهر	قضاعةَ بنِ مالك بن حميرِ
النسبِ المعروف غير المنكرِ	من قال قولا غير ذا يتبصّرِ

فيضطر يزيد إزاء ذلك الى إلحاق قضاعة بأهل اليمن (١) .

ويرد محمد بن حبيب هذا الاضطراب في نسب قضاعة الى الحرب التي ثارت بين قيس وكلب ، فيذكر ان خالد بن يزيد أشار على أخواله من كلب بمحالفة اليمن والانتساب اليهم لاذلال بني مروان ومن انحط في هواهم من قيس ، فأجابه الى ذلك بعضهم وعصاه آخرون (٢) . وذهب مؤرج بن عمرو الى ان قضاعة لم تزل معدية وانهم احدثوا القول بالنسب الحميري في اواخر عصر بني امية ووضعوا الاشعار في تأييد ذلك (٣) . وذكر بعضهم ان اول من ألحق قضاعة بحمير عمرو بن مرة الجهني (٤) .

---

١ – منتخبات في أخبار اليمن لنشوان الحميري ص ٨٧ . الاكليل للهمداني ص ١٠١ . تاج العروس ٥/٤٧٠ وينسب هذا الرجز الى أفلح بن يعبوب القضاعي (أنساب الاشراف ١/١٨).

٢ – الانباه على قبائل الرواة لابن عبد البر ص ٦٠ .

٣ – الاغاني ٨/٩٠ .

٤ – انساب الاشراف ١/١٦ .

وأراد بعضهم التوفيق بين النسبين فاخترع قصة ظاهرة التلفيق تذهب الى ان قضاعة كانت امرأة من جرهم تزوجها مالك بن حمير ثم خلف عليها بعده معد فولدت له قضاعة على فراش مالك ، وكانت العرب تنسب الرجل الى زوج امه . ويظهر ان هذه القصة شاعت وانتشرت في المحافل وكانت موضع سخرية بعض شعراء نزار (١) . وذكروا ان عمر بن عبد العزيز — وكانت أم ابيه كلبية — قال لبعض اخوال أبيه : « إن علي منكم لغضاضة ، غضتكم حرب قوم — يريد حرب قيس — فابتغيتم عن أبيكم وانتميتم الى غيره ، وكنتم إخوة قوم لأمّهم فصيرتم أنفسكم إخوتهم لأبيهم وأمهم (٢) » .

ولكي يؤيد كل فريق دعواه عمد الى وضع الاحاديث على لسان الرسول، فوضعت نزار حديثاً ينسب فيه الرسول قضاعة الى معد ، بل يجعله بكر ولده (٣) ، ووضع أهل اليمن أحاديث تنقض هذا القول وتؤيد نسبة قضاعة الى حمير (٤) . وكذلك دعم الفريقان دعواهما بأبيات من الشعر لشعراء قدماء ومحدثين (٥) .

---

١ — الانباه ص ٦١ . أنساب الاشراف ١٥/١ .

٢ — أنساب الاشراف ١٦/١ .

٣ — الانباه ص ٥٩ . أنساب الاشراف ١٦/١ .

٤ — الانباه ص ٦٠ .

٥ — احتجت نزار بقول زهير :

قضاعيــة أو أختهـا مضرية ‏ ‏ ‏ ‏ يحرّق في حافاتها الحطب الجزل
(ديوان زهير ص ١٠)

وبقول لبيد :

فلا تسألينا واسـألي عن بلائنا ‏ ‏ ‏ ‏ اياداً وكلبـاً من معـدّ ووائلا
(ديوان لبيد ص ٢٣)

وبقول جميل العذري القضاعي :

أنا جميـل في السنام من معدّ ‏ ‏ ‏ ‏ في الأسرة الحصداء والعيص الأشد
(الاغاني ٩٠/٨)

واحتج اليمانون بنحو ذلك (انظر الاغاني ٩٠/٨) .

ومن المرجح ان الخبر المطول الذي رواه البكري والذي يتحدث عن افتراق ولد معد وجلائهم عن تهامة ــ ومنهم قضاعة ــ انما وضع لتأكيد انتساب قضاعة الى معد (١) . والخبر يرويه ابن الكلبي منسوباً الى ابن عباس،ونحن نشك في صحة نسبته الى ابن الكلبي، لان نسابي اليمن ــ وعلى رأسهم الكلبي وابنه ــ هم الذين رجحوا كفة انتماء قضاعة الى اليمن (٢).

وقد لاقى القول بانتماء قضاعة الى حمير والجذم اليماني هوى في نفس القضاعيين ، لانهم ارادوا الاستظهار بيمانية الشام على قيس ، ولان في انتسابهم الى حمير ذات الماضي العريق في الحضارة والملك ، ما يرفع من شأنهم عند مفاخرة القبائل النزارية ، فأخذ شعراؤهم يؤكدون هذه النسبة في أشعارهم ويفخرون بنسبهم اليماني ، وأجابهم شعراء نزار ساخرين تارة، ومعاتبين تارة اخرى (٣) . وسنعود الى مناقضات شعراء نزار وقضاعة بهذا الصدد في الباب الاخير من هذا البحث .

ومن القبائل التي تنازعتها القحطانية والعدنانية ايضاً جذام . وهي عند نسابي اليمن قحطانية النجار ولكن نسابي مضر ينكرون انتماءها الى الجذم القحطاني ، ويدعون أن جذام هو ابن أسدة بن خزيمة ، أخي أسد، ويحتجون على دعواهم ببيتين ينسبونهما الى امرىء القيس او لبشر بن ابي خازم الاسدي (٤) .

ويبدو ان القول بانتماء جذام الى مضر انما شاع كذلك في صدر العصر الاموي ايام العصبية بالشام، وان بني امية أرادوا تألف هذه القبيلة التي كان لها عدد وقوة بالشام ، فأغروا بعض رؤسائها بالانتماء الى معد ووافقهم في ذلك احد سادة

---

١ ــ انظر معجم البكري ١/١٧ .
٢ ــ انظر الانباه ص ٦١ .
٣ ــ انظر مثلا الانباه ص ٦٢ .
٤ ــ أنساب الاشراف ١/٣٦ . الانباه ص ١٠٤ .

جذام البارزين وهو روح بن زنباع والشاعر العاملي عدي بن الرقاع (١) . ولكن هذا النبأ ما كاد يبلغ اسماع الجذاميين المتعصبين لاصلهم اليماني حتى غضبوا وقدموا على يزيد وعلى رأسهم سيدهم ناتل بن قيس ، فأعلنوا في مجلسه جهازاً انهم من الجذم القحطاني لا يرومون عنه بديلا ، واضطر ابن الرقاع إثر ذلك الى العدول عن قوله الاول والى التمسك بالشعار القحطاني على نحو ماذكرنا آنفاً (٢) .

على ان المضرية لم يتخلوا عن دعواهم وعن اقحام جذام في عداد انسابهم ، وكان شعراؤهم لا يفتأون يلومون جذاماً على تنكرها لابيها خزيمة (٣) . ولما آل الامر الى مروان بن محمد ابى إلا رد جذام الى نسبها في بني أسد تعصباً منه لمضر ، وكان صنيعه هذا موضع انكار نفر من شعراء اليمن (٤).

وما قيل في جذام قيل مثله في اختها لخم فقد جعلها نسابو مضر معدية النجار ايضاً وقرنها اكثرهم بجذام في انتمائها الى اسدة بن خزيمة بن مدركة، وذهب بعضهم الى ان قنص بن معد هو ابو لخم وأيدوا قولهم بما نقلوه عن النسابة القرشي جبير بن مطعم من نسبته ملك الحيرة اللخمي النعمان بن المنذر الى اشلاء قنص بن معد (٥) . ويظهر ان القحطانية لما فاخروا العدنانية بملوكهم في الجاهلية ادعت العدنانية هذه الدعوى لتضم الى شجرة نسبها آل نصر ملوك الحيرة ، ولا سيما النعمان بن المنذر الذي كان لاسمه صيت مدو يملأ ارجاء الجزيرة العربية .

---

١ - جذام ولخم وعاملة من أصل واحد فانتماء احداها الى جذم ما يعني انتماء اختيها اليه أيضاً .

٢ - انظر الاغاني ٩/٣٠٧ . وجمهرة ابن حزم ص ٣٩٥ .

٣ - انظر أنساب الاشراف ١/٣٧ .

٤ - انظر أنساب الاشراف ١/٢٣ .

٥ - الانباه ص ١٠٤ . أنساب الاشراف ١/٢٣ .

والى بواعث العصبية بين القحطانية والعدنانية نرد كذلك الاختلاف الذي وقع بين نسابي الفريقين حول نسب قبائل اخرى كخزاعة (١) ، وعاملة (٢) ، وبجيلة وخثعم(٣) ، واياد(٤) ، وعك(٥) وغيرها، وقد احتج هؤلاء واولئك على دعواهم بأحاديث نسبوها الى الرسول عليه السلام واشعار اضافوها الى شعراء الجاهلية .

ولم يقتصر التلفيق في الانساب والتزوير التاريخي على الفروع بل امتد الى الاصول نفسها فقد شق على القحطانية ان يفاخرهم العدنانيون بانتمائهم الى الانبياء ، بكونهم أبناء إسماعيل بن إبراهيم وبظهور محمد عليه السلام بين ظهرانيهم ، فادعى نفر منهم ان العرب كافة هم من سلالة اسماعيل بن إبراهيم وافتعلوا لتأييد ذلك سلسلة نسبية ترجع كلا من عدنان وقحطان إلى الجذم الاسماعيلي ، واحتجوا بقول الرسول عليه السلام لنفر من اسلم والانصار : « ارموا بني اسماعيل ، فان أباكم كان رامياً » ، وبشعر نسبوه الى المنذر بن حرام جد حسان بن ثابت (٦) ، ولجأت طائفة اخرى منهم الى اقحام اسم هود النبي في سلسلة النسب القحطاني ليجعلوه بازاء اسماعيل الذي فاخرهم به العدنانيون ، فقالوا ان قحطان هو ابن عابر ، وعابر هو هود النبي (٧). وقد ذكر وهب بن منبه ان اليمن ادعت هوداً أباً لها حين وقعت

---

١ ــ انظر أنساب الاشراف ٢٤/١ ، وسيرة ابن هشام ٧٦/١، وجمهرة ابن حزم ص ٢٢٢.

٢ ــ انظر المعارف لابن قتيبة ص ٤٦ والانباه ص ١٠٣ .

٣ ــ انظر الانباه ص ١٠٠ وجمهرة ابن حزم ص ٢٦٥ ــ ٢٦٧ وأنساب الاشراف ٢٣/١ ،سيرة ابن هشام ٧٣/١ .

٤ ــ انظر التنبيه والاشراف للمسعودي ص ٥٩ وانساب الاشراف ٢٥/١ .

٥ ــ انظر منتخبات في تاريخ اليمن لنشوان الحميري ص ٧٤ وأنساب الاشراف ١٣/١ وسيرة ابن هشام ٧/١ .

٦ ــ الانباه ص ٥٦ ، سيرة ابن هشام ٧/١ .

٧ ــ منتخبات ص ٨٣ ، التنبيه والاشراف ص ٧٠ ، أخبار عبيد بن شرية (ملحق بكتاب التيجان لوهب بن منبه ص ٣١٣) .

العصبية بين اليمن ومضر ، رداً على افتخار العدنانية بأبيها اسماعيل (١) . بل ان القحطانية لم تقنع بنبي واحد ، فادعوا ان صالحاً النبي كان منهم أيضا وانه حميري من آل ذي رعين (٢) . ثم اضافوا الى هذين النبيين ثالثاً فجعلوا النبوة تهبط على احد تبابعة حمير وهو اسعد تبع المعروف بتبع الاوسط ، فزعموا انه كان نبياً مرسلا الى نفسه ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : « وقومُ تبع كل كذب الرسلَ فحقَّ وعيد (٣) » ، فقالوا إنه لم يعلم ان الله ارسل الى قوم تبع رسولا غير تبع . وزعموا ان الرسول نهى عن سبه لانه آمن به قبل ظهوره بسبعمائة عام ، ونسبوا الى تبّعهم هذا شعراً ظاهر الافتعال يعلن فيه ايمانه بنبوة محمد وانه لو امتد به العمر لكان وزيره ولألزم العرب والعجم طاعته (٤) .

ولم يقتصر الصراع بين نسابي العدنانية والقحطانية وأهل الاخبار والرواية فيهما على تنازع القبائل والانبياء فحسب بل امتد الى الامم القديمة ذات الحضارات العريقة . فلما فاخرت القحطانية بملوكها القدامى وبما كان لهم من سلطان على القبائل المعدية ادعت العدنانية ان الفرس الذين دانت لهم بلاد اليمن قديما يرجعون في نسبهم الى جدهم الذي ينتمون اليه اذ هم من ولد اسحاق بن ابراهيم . وزعم بعضهم ان منوشهر الذي ترجع اليه الفرس جميعاً في انسابها انما هو يعيش بن ويزك، وان ويزك هو اسحاق بن ابراهيم، واستشهدوا على ذلك بقول بعض شعراء الفرس :

---

١ ــ الانباه ص ٥٨ . كتاب العرب لابن قتيبة ص ٣٥٥ .

٢ ــ منتخبات ص ٦٢ .

٣ ــ سورة ق ، آية ١٤ .

٤ ــ منتخبات ص ١٢ .

أبونـا ويـزك وبـه أسـامي اذا افتخر المفـاخرُ بالولاده (١)

ويعيش هو عيصو المذكور في التوراة وهو ابن اسحاق (٢) .

وقد لهج شعراء النزارية في مفاخرة اليمانية بهذه القرابة التي تصل بينهم وبين أمة من أعرق الامم القديمة حضارة وأبعدها سلطاناً . وممن فخر بهذه القرابة جرير(٣) ، واسحاق بن سويد العدوي الذي يقول :

اذا افتخرت قحطانُ يوماً بسؤدد اتى فخرنا أعلى عليهـا واسودا
ملكناهم بدءا بإسحـاق عمّنـا وكانوا لنا عوناً على الدهر أعبُدا(٤)

وتوثيقاً لهذا النسب المفتعل زعم اخباريو العدنانية ان الفرس كانت تقصد البيت الحرام بالنذر العظام في سالف الدهر تعظيماً لجدهـا ابراهيم الخليل (٥) .

بل ان العدنانية لم يقنعوا بادعاء القرابة من الفرس وحدهم فضموا كذلك الى أرومتهم النسبية أمماً أخرى ، فادعوا ان بينهم وبين الاكراد نسباً(٦) ، وان صلات القربى تربطهم بالهنود والبربر والديلم (٧) . وأراد القحطانية مجاراتهم في هذه المزاعم فادعوا قرابتهم باليونان ، أعداء الفرس الالداء ، وزعموا ان يونان بن عابر هو اخو قحطان بن عابر(٨) . ولادعاء النزارية قرابتهم

---

١ ـ التنبيه والاشراف ص ٩٥ . الطبري ٢٦٥/١ .

٢ ـ جـواد علي ٣٤٢/١ .

٣ ـ انظر ديوان جرير ص ٢٤٢ .

٤ ـ التنبيه والاشراف ص ٩٥ .

٥ ـ التنبيه والاشراف ص ٩٥ .

٦ ـ مروج الذهب ٣٠٧/١ . التنبيه والاشراف ص ٧٨ .

٧ ـ العقـد الفريد ٤٠٧/٣ .

٨ ـ التنبيه والاشراف ص ١٠٠ .

بالديلم ادعى القحطانية قرابتهم بالترك ، وزعموا ان بعض تبابعتهم احتل بلاد ما وراء النهر وبنى مدينة سمرقند وخلف فيها حامية من حمير (١) . وهكذا لم يكد يغادر نسابو الفريقين أمة من الامم الا تجاذبوها وتنازعوا قرابتها حتى قال احد شعراء الاعاجم يخاطب العرب ويشير الى استلحاقهم شتى الامم بنسبهم :

زعمتم بأن الهند أولاد خندف ... وبينكم قربى وبين البرابر
وديلمُ من نسل ابن ضبّة باسل ... وبرجانُ من أولاد عمرو بن عامر
فقد صار كل الناس اولادَ واحد ... وصاروا سواء فيأصول العناصر (٢)

وكما تنازع العدنانية والقحطانية الانبياء والامم تنازعوا كذلك الرجال المشهورين في التاريخ القديم ، فادعت اليمانية الضحاك (٣) ، وزعمت انه من الازد(٤) ، وادعوا ايضاً ذا القرنين المذكور في سورة الكهف ، واكثرهم على ان المقصود به تُبع الاقرن ، واليه أشار النعمان بن بشير في قوله :

فمن ذا يفاخرنا من الناس معشر ... كرام فذو القرنين منا وحاتمُ (٥)

كما ادعوا لقمان الحكيم وجعلوه حميري النسب يماني النجار (٦) .

ثم اتسع موضوع التنازع فشمل التاريخ القديم كله ، واخذ كل من الفريقين يفتعل القصص التاريخي والاخبار التي تحيط ماضيه بهالة مشرقة

---

١ ـ منتخبات ص ٥٦ . ومروج الذهب ٣٠٠/١ .
٢ ـ العقد الفريد ٤٠٧/٣ .
٣ ـ مؤرخو العرب يطلقون اسم الضحاك على بيوراسب أحد ملوك فارس الاوائل ويدعونه أيضاً الازدهاك (انظر ابن خلدون ٢٣٠/١) .
٤ ـ التنبيه والاشراف ص ٧٥ . ابن خلدون ٢٣٠/١ .
٥ ـ منتخبات ص ٤٨ .
٦ ـ منتخبات ص ٩٦ .

تدعو الى الفخر ، وافتعلوا من الشعر ما يدعم قصصهم هذا واضافوه الى الشعراء القدامى والى التبابعة وغيرهم . وكان اخباريو اليمن اطول باعاً في اختراع القصص وتزوير التاريخ من أخباريي العدنانية ، واكثر ما عرف من هذه الاخبار الملفقة في العصر الاموي مأخوذ عن عبيد بن شرية الجرهمي ورواة اهل الحيرة (١) . وكان معاوية قد استدعى عبيداً من صنعاء ـ فيما رووا ـ وسأله عن اخبار الامم القديمة وملوك العرب فأخذ يحدثه بذلك ، وأمر معاوية بتدوين احاديثه (٢) . وقد انتهى الينا كتاب اخبار عبيد بن شريةوهو حافل بطريف الاخبار والاحاديثوالاشعار التي نسجها خيالهذا الرأوية(٣). وقد اسهم شعراء اليمانية في العصر الاموي في حملة التلفيق والانتحال هذه فوضعوا على السن تبابعة حمير وملوك اليمن واشرافها وشعرائها ما لا يحصى من ابيات الشعر التي لم يجر بها لسانهم ، وعلى رأس هؤلاء الشعراء يزيد بن مُفرغ الحميري ، وقد جاء في الاغاني ان يزيد هو الذي وضع شعر تبع وقصته(٤) . اما رواة العدنانية واخباريوها فقد أحسوا بعجزهم عن مضاهاة اليمانية في مجال التلفيق التاريخي فوجهوا هممهم الى الناحية الادبية وافتعلوا على لسان شعراء نزار القدامى ما شاء لهم خيالهم ان يفتعلوا من الشعر ليفاخروا القحطانية بهذا التراث الادبيالذي لم يتح للقحطانية مثله .

وربما كان من آثار هذاالصراعالتاريخي ادعاءاليمانيةانهم العربالخلص، وانالعدنانيين انماأخذواالعربيةعنهم، فهم مستعربةوليسوابالعربالخلص(٥).

١ ـ التنبيه والاشراف ص ٧٢ .

٢ ـ الفهرست لابن النديم ص ١٣٢ .

٣ ـ انظر كتاب أخبار عبيد بن شرية وهو مطبوع في مجلد واحد مع كتاب التيجان في ملوك حمير لوهب بن منبه . طبع حيدر آباد عام ١٣٤٧ هـ .

٤ ـ الاغاني ٥٢/١٧ (ساسي) .

٥ ـ نهاية الارب للنويري ٢٩٢/٢ . فجر الاسلام ص ٦ .

ولتأييد هذه الدعوى اخترعت اليمانية اسطورة يعرب بن قحطان الذيزعموا انه اول من نطق العربية ، وان لفظي العرب والعربية مأخوذان منه(١) ، وافتعلوا حديثاً على لسان الرسول يؤيد هذا الزعم (٢) ، ثم قالوا اناسماعيل أصهر الى جرهم وعنها اخذ اللغة العربية ثم علمها ابناءه العدنانية المستعربة. ولكن نزاراً تأبى التسليم بهذه الدعوى وتذهب الى ان اسماعيل تعلم اللغة العربية إلهاماً من الله ولم يأخذها عن جرهم(٣) .

وقد ملات القحطانية سجل تاريخها القديم ، ولا سيما تاريخ ملوكها التبابعة ، بالاخبار التي اخترعوها والتي تتحدث عن مغازي ملوك اليمن ومآثرها الخالدة ، فجعلوا جيوشهم الفاتحة تغزو بلاد الفرس والهند والترك وما وراء النهر وافريقية والمغرب والروم ، فضلا عنبلاد العرب(٤)، وجعلوا تبابعتهم السبعين يملكون الارض كلها ومن فيها من العرب والعجم(٥)، ووضعوا على لسان تبابعتهم وشعرائهم القدماءاشعاراً يشيدون فيها بمآثرهم ويتحدثون عن مغازيهم ومما وضعوه على لسان اسعد تبع مثلا قوله :

قد دعتني نفسي لأن أنطح الـ   صين بخيل أقودها من ظَفار(٦)

ووضعوا على لسان علقمة بن ذي جدن قوله في ملوك حمير :

دانت معد لهم عَنوةً   والترك والرومُ بنو الأصفر(٧)

---

١ ـ أخبار عبيد بن شرية ص ٣١٥ . التنبيه والاشراف ص ٧٠ .

٢ ـ المزهر للسيوطي ٣٢/١٠ .

٣ ـ مروج الذهب ٢١٤/١ .

٤ ـ انظر الطبري ٢٦٩/١ . والمعارف لابن قتيبة ص ٢٧١ .

٥ ـ منتخبات ص ١٢ .

٦ ـ منتخبات ص ٦٧ .

٧ ـ منتخبات ص ٣٨ .

بل انهم وضعوا على لسان شعراء العدنانية القدماء شعراً يقرون فيه بسيادة اليمن عليهم وخضوع نزار لسلطانهم (١) .

ومن مظاهر هذا الصراع ايضاً تضخيم أخبار فرسان الجاهلية المشهورين وسادتهم وأشرافهم والمبالغة في تصوير مآثرهم ومناقبهم . ومن المرجح ان خيال رواة اليمن هو الذي اضفى على حاتم الطائي هذه الصورة الاسطورية في الكرم (٢) ، وهو الذي اضاف الى يزيد بن عبد المدان هذه المآثر العظيمة التي تحدثت عنها كتب الادب (٣)، وهو الذي نسب الى زهير بن جناب الكلبي هذه البطولات الخارقة والمواهب العجيبة التي تتحدث عنها اخباره(٤)، وهو الذي جعل من عمرو بن معد يكرب الزبيدي فارساً لا يُشق له غبار ، ومقاتلا باسلا لا يعرف الهزيمة وقد زعموا انه أسر من الفرسان عددا لا يحصى وأدخلوا في عداد أسراه فرسان النزارية المشهورين امثال عنترة ودريد بن الصمة والحارث بن ظالم المري (٥) . وقد جاء في الاغاني ان اشراف الكوفة كانوا يخرجون الى ظاهرها يتناشدون الاشعار ويتذاكرون ايام الناس ، فكان عمرو بن معد يكرب يختلق الاخبار التي تتحدث عن شجاعته الخارقة والمواقع التي خاضها في الجاهلية ، وحين تبين كذبه اعتذر بانه انما يخترع هذه الاخبار ارهاباً للمعدية (٦).

وصنعت النزارية صنيع اهل اليمن في تضخيم اخبار فرسانها وسادتها

---

١ ـ منتخبات ص ١٢ .

٢ ـ انظر مثلا منتخبات في أخبار اليمن ص ٢٤ .

٣ ـ انظر أخبار يزيد بن عبد المدان في الاغاني ٤/١٢ وما بعدها .

٤ ـ انظر الاغاني ٦٣/٢١ وما بعدهما .

٥ ـ منتخبات ص ٩١ .

٦ ـ الاغاني ٢٣/١٥ .

واشرافها في الجاهلية ومن ذلك تضخيمهم أخبار كليب وائل ومبالغتهم في تصوير عظم سلطانه واخبار انتصاراته على جيوش اليمن (١) .

ومن آثار هذا اللون من الصراع القبلي ايضاً هذه الاحاديث الكثيرةالتي وضعت على لسان الرسول عليه السلام في فضائل القبائل(٢)، ويظهر ان طائفة من هذه الاحاديث الموضوعة قد شاعت في زمن معاوية ، ومنها احاديث تتنبأ بصيرورة الملك الى بني قحطان وخروجه من يد قريش ، وقدانكرمعاوية هذه الاحاديث ونهى الناس عن روايتها وحذرهم الاخذ بما جاء فيها (٣).

وما قدمناه من اخبار هذا اللون من الصراع بين العدنانية والقحطانية ، ينبئنا بالدور الكبير الذي لعبه النسابون وأهل الاخبار ورواة الاشعار في هذا الصراع القبلي المحتدم الأوار ، ولم تزل مخلفات هذا الصراع وآثاره ماثلة في المصادر التاريخية والادبية حتى يومنا هذا . وكثير من الاخبار المفتعلة والانساب الملفقة التي وضعت بدافع هذه العصبية ارتدى على الزمن لبوس الحقائق التاريخية المقررة .

* * *

---

١ ــ انظر العقد الفريد ٢٤٥/٥ . والاغاني ٢٤/٥ . وتاريخ ابن الاثير ٣١٠/١ .

٢ ــ من ذلك مثلا ما روي عن أبي هريرة عن الرسول : « الايمان يمان ، آل لخم وجذام ، صلوات الله على جذام ، يقاتلون الكفار على رؤوس الشعاف ، ينصرون الله ورسوله » . (الانباه ص ١٠٤).

٣ ــ صحيح البخاري ١٧٩/٤ .

٣

اشتباك العصبية بالمؤثرات الأخرى

كان للعصبية سلطانها ذاك الطاغي على نفوس القوم في عصر بني مروان ، وتركت في الحياة العامة ما تركت من آثار بعيدة المدى ، جليلة الخطر . وقد لمسنا من مظاهرها المتعددة المناحي ، المتباينة السمات ما وقفنا على قوة سلطانها وشمول أثرها شتى نواحي النشاط الانساني في ذلك العصر .

وقد خضعت نفوس العرب لهذا المؤثر العاتي وتصرفت في حياتها على هديه ، ولكن كان ثمة مؤثرات أخرى وجدت سبيلها الى نفوس العرب منذ قيام الدولة الاسلامية ونازعت العصبية مكانتها فيها. وفي طليعة هذه المؤثرات الطارئة المذاهب الدينية والأهواء السياسية والشعور القومي والرابطة المدنية.

ولم يكن التقاء هذه المؤثرات في نفس العربي ، كلها أو بعضها، يؤدي دائماً الى تعارضها واصطدام بعضها ببعض ، فلم يكن من العسير أن يجمع الرجل بين عصبيته لقومه ، وبين تعلّقه بمذهب ديني أو ارتباطه بحزب سياسي . بيد أن هـذه المؤثرات لم تكن تتخذ اتجاهات متوازية في جميع الاحوال ، وحينئذ لا يكون ثمة مفرّ من اصطدام بعضها ببعض ، وقيام صراع عنيف في نفس العربي بين هذه المؤثرات ، كلٌ يريد أن يستأثر بعواطفه ومشاعره وأن يوجهه الوجهة التي يريدها .

آ ــ وقد تعرضت الوحدة القبلية منذ ظهور الفرق الدينية المختلفة مع مطلع العصر الاموي لخطر التصدع والتمزق في كثير من الاحوال ، اذ لم يكن من اليسير حمل القبيلة كلها علي اعتناق مذهب ديني واحد . وظهرت بوادر

هذا التصدع بُعيد حادثة التحكيم في انشقاق الخوارج عن جماعة عليّ ، وكان هؤلاء الخوارج خليطاً من قبائل شتى يجمع بينهم مبدأ ديني واحد . وكذلك وجدت عقيدة التشيّع صداها في نفوس طوائف أخرى من مختلف القبائل . ومثل ذلك يلاحظ في المذاهب الدينية الأخرى التي تمخض عنها عصر بني أمية كالمرجئة والقدرية . وقد يتفق أن نجد قبيلة برمّتها تعتنق مذهباً دينياً واحداً ، شأن قبيلة همدان في الكوفة التي اعتنق جمهورها مذهب التشيّع ، ومثلها قبيلة عبد القيس في البصرة (١) . ولكنّ هذه الظاهرة لم تكن مطّردة في جميع القبائل بل كانت ظاهرة نادرة ، والقبيلة الكبيرة قلما كانت تجتمع على مذهب ديني واحد ، ومن هنا كان الصدام بين الفرق الدينية يؤدي غالباً الى تصدّع الوحدة القبلية والى نشوب القتال بين أبناء القبيلة الواحدة في بعض الاحيان . وقد استطاعت العقيدة الدينية إيجاد رابطة روحية تسمو في أحيان كثيرة على رابطة العصبية القبلية وتقطع وشائجها. فليس عجباً اذن أن نجد القتال ينشب أحياناً بين فرقتين دينيتين متعاديتين تنتميان الى قبيلة واحـدة ، وقد تكرّرت هذه الظاهرة إبان الوقائع التي دارت بين الخوارج وخصومهم من أهل العراق (٢) .

أفلحت المذاهب الدينية اذن في تصديع وحدة كثير من القبائل وفي ايجاد عقيدة روحية جديدة يستوحيها العربي في سلوكه ، وكثيراً ما كان التعارض يقع بينها وبين عصبيته لجماعته ، وحينئذ تغدو نفس العربي مسرحاً لصراع عنيف بين هاتين النزعتين تكون الغلبة فيه للنزعة التي لها السلطان الأقوى في نفسه . فالخوارج مثلا كان مسلكهم مستوحى في المرتبة الاولى من عقيدتهم

---

١ ــ انظر خطط الكوفة لماسينيون ص ٣٩ .

٢ ــ اقتتلت ذات يوم كتيبتان احداهما من جيش المهلب والاخرى من الخوارج فاذا كلاهما من تميم (الطبري ١٢١/٥) . وفي وقعة دولاب بين الخوارج وأهل البصرة أصبح رئيس كل من الفريقين من بني يربوع اثر مقتل نافع بن الازرق ومسلم بن عبيس (الاغاني ١٤٢/٦ . والكامل للمبرد ١٨١/٢) .

لا من عصبيتهم . وهكذا حين استنصر مالك بن مسمع نافع بن الأزرق الحنفي إبان فتنة مسعود على بني تميم أبى نافع أن ينصره تلبية لداعي العصبية اذ أن أهل البصرة كانوا في نظره سواء ، وكلهم له أعداء لمخالفتهم مذهبه(١) . وحاول عتّاب بن ورقاءصرف الزبير بن علي الخارجي عن مقاتلته من طريق تذكيره بما بينهما من الوشائج القبلية إذ كلاهما من بني يربوع ، فكان جواب الزبير : « ان أدنى الفاسقين وأبعدهم من الحق سواء (٢) » . وكان من الخوارج من أنكر على الناس عصبيتهم وتعلقهم بالأنساب ، لأن الاسلام قد ساوى بين الناس جميعاً ، ولسان حالهم قول عمران بن حطان :

فنحن بنو الإسلام والله واحد وأولى عباد الله بالله من شكر(٣)

ومع ذلك لم يبرأ الخوارج كلهم من أثر العصبية ، فكان منهم من خضع لداعيها واستجاب لندائها في بعض الاحوال . من ذلك أن شبيب بن يزيد الخارجي لما لقي النضر بن القعقاع بن شور، وقد خلفه الحجاج وراءه ، حاول أن يعرفه بنفسه ليحمله على الفرار فلا يضطر الى قتل أحد أشراف قبيلته – بكر – ولكن أصحاب شبيب يفطنون للأمر ويشدّون على النضر فيقتلونه(٤) . وجاء في الطبري أن شبيباً كان قد أوغر صدور نفر من أصحابه بقتله رجالاً من عشائرهم ، فلمّا تخلّف في أخريات أصحابه ائتمر به هؤلاء فقطعوا به الجسر ليدركوا ثأرهم به وكان ذلك سبب هلاكه (٥) . وجاء فيه أيضاً أن رجلاً من أصحاب شبيب غضب لإيقاعه برهطه فأغار على رهط شبيب وأوقع بهم ، ولما أنكر عليه شبيب ذلك كان جوابه : « والله يا أمير المؤمنين ، ما أصبت من رهطك عشر ما أصبت من رهطي ، وما يحلّ لك يا أمير المؤمنين أن تجد من

---

١ – الكامل للمبرد ١٨٦/٢ .

٢ – الكامل للمبرد ٢٠٦/٢ .

٣ – الكامل ١١١/٢

٤ – الطبري ٧٥/٥ .

٥ – الطبري ١٠٣/٥ .

قتل الكافرين (١) ». وسبى الأزارقة في احدى الوقائع امرأة شريفة تنتمي الى آل الجارود وأقيمت لتباع فخشي خارجي من قومها أن تؤول الى أحد الأعاجم فضرب عنقها غيرة وعصبية وتذرع بخشيته الفتنة على أصحابه (٢)، وذكروا انه بعد انتهاء وقعة قديد بين ابي حمزة الخارجي وأهل المدينة أتي علي بن الحصين بالأسرى ، فكان اذا أتي بأنصاري أطلقه واذا أتي بقرشي ضرب عنقه (٣) .

ولئن كان الخوارج على شدة تأثرهم بالروح الدينية وانقيادهم لعقيدتهم لم يبرؤوا من أثر العصبية ، لمن الطبيعي أن يكون سائر الناس أكثر استجابة لداعي العصبية وأشد انقياداً لتأثيرها .

ب ــ وكذلك ظهر منذ مطلع العصر الاموي خصم قوي للعصبية نازعها سلطانها على نفوس القوم ذاك هو الهوى السياسي. فالصراع من أجل الحكم واختلاف المسلمين حول من يحق له تولي أمورهم وطريقة اختياره واختلافهم حول أسلوب الحكم ، والمبادىء التي ينبغي للحاكم أن يستوحيها في سياسة أمور رعيته ، كل هذه الامور أوجبت وقوع الخلاف بين جماهير المسلمين وانقسامهم الى أحزاب لكل منها عقيدته السياسية التي يناضل من أجلها . وكان بعض هذه الاحزاب يجمع بين الطابعين الديني والسياسي في وقت واحد كحزب الخوارج ، وحزب الشيعة . وعلى الرغم من أن القبيلة كانت تنحاز في أغلب الاحوال الى الحزب الذي يؤيده سيدها ، وعلى الرغم من ان الشعور العصبي والاتجاه السياسي كانا يأتلفان ويسيران جنباً الى جنب في أغلب الاحوال ، لم يكن بد من وقوع نزاع داخلي بين أبناء القبيلة الواحدة في بعض الاحيان من جراء تباين الأهواء السياسية ولا سيما حين تكون القبيلة الواحدة تنزل مواطن متعددة متباعدة .

---

١ ــ الطبري ١٠٣/٥ .
٢ ــ الطبري ١٦/٥ .
٣ ــ الاغاني ١٠٢/٢٠ .

وهكذا كان التعارض يقع بين الهوى السياسي ، والرابطة القبلية ، ويدور الصراع في نفس العربي بين هذين المؤثرين . وقد ظهرت بوادر هذا التعارض منذ وقعة الجمل وفي وقعة صفين خاصة ، وكان تصدع وحدة القبيلة بسبب الخلاف السياسي يثير في نفوس أبناء القبيلة المتعصبين أعمق الأسى وأشد الألم .

وكانت المصلحة السياسية كثيراً ما تحمل القبائل المتعادية على نسيان عداواتها الى حين وطرح خصوماتها القبلية جانباً ، ولا سيما حينما تجد هذه القبائل نفسها بإزاء خصم سياسي مشترك يتربص بها شراً فإنها تنسى خصوماتها حينئذ وتتحالف على قتال هذا العدو المشترك ، فاذا فرغت من قتاله عادت حالة العداء القبلي بينها الى ما كانت عليه قبل . وقد برزت هذه الظاهرة إبان النزاع الذي ثار بين عبد الله بن عمر والنضر بن سعيد الحرشي بالعراق وكانت اليمانية مع ابن عمر والمضرية مع الحرشي ، فلما قدم الضحاك بن قيس الخارجي اصطلح ابن عمر والحرشي فصارت يدهما واحدة على قتاله (١) . وتكررت هذه الظاهرة في خراسان إبان النزاع بين الكرماني ونصر بن سيار ، فحين أظهر أبو مسلم دعوته وقوي أمره توادعت اليمانية والمضرية واتفقتا على قتال عدوّهما المشترك ، ولكنّ أبا مسلم يفلح في قطع أواصر هذا الحلف وفي إفساد الأمر بين اليمانية والمضرية (٢) .

وفي أحيان أخرى كانت العصبية تسمو على المصلحة السياسية والرابطة الحزبية ، ففي فتنة المثنى بن مخرّبة العبدي بالبصرة منعت قبيلة ربيعة المثنى وقاتلت عنه بدافع العصبية وظاهرتها في ذلك حليفتها الأزد ، على الرغم من ولاء القبيلتين جميعاً لابن الزبير وعداوتهما للمختار (٣) .

---

١ ــ الطبري ٦١١/٥ .

٢ ــ الطبري ٣٧/٦ .

٣ ــ الطبري ٥٣٦/٤ . أنساب الاشراف ٢٤٤/٥ .

ويلاحظ بوجه عام أن عامل العصبية وحده لا يكفي لتفسير كثير من الاحداث والفتن التي شهدها هذا العصر ، إذ كانت الأهواء السياسية تختلط بالعصبية وتزيد من حدة الصراع بين الأحياء المتنازعة .

ومن هنا ينبغي لنا ملاحظة اشتباك هذين العاملين في جلّ الفتن القبلية ، كتلك التي نشبت بين قيس وكلب وبين قيس وتغلب بالجزيرة وبين الأزد ومضر في كل من العراق وخراسان . وأبرز مثال لاشتباك العصبية بالسياسة ذاك الصراع العنيف الذي قام بين البيتين الهاشمي والاموي ، فقد كان بين هاتين الاسرتين عداوة قديمة تمتد جذورها الى ما قبل الاسلام بزمن غير قصير الا ان النزاع بينهما اتخذ منذ العصر الاموي طابعاً أشد عنفاً وضراوة بسبب التنافس على الحكم والمنافع المادية والسلطان السياسي ، فلم يعد التنافس بينهما مقصوراً على مراتب الشرف والرياسة في قريش ، شأنه في الجاهلية .

وهذه الاهواء السياسية اوقعت الخصومة بين اشهر بطون قريش الطامعة في الحكم ، ولا سيما البيت الهاشمي والبيت الاموي والبيت الزبيري، وكان كل من هذه البيوت الثلاثة المتنافسة على الحكم يكره ان يرى لمنافسيه فضلا عليه او ميزة . وبلغ الامر بعبد الله بن الزبير ، فيما زعموا ، انه مكث مدة ادعائه الخلافة اربعين ليلة لا يصلي فيها على النبي لئلا تشمخ رجال بآنافها (١) . وقد روت المصادر الادبية مفاخرات كثيرة جرت بين هذه البيوت الثلاثة خلال هذا العصر يعتز فيها كل منها بما كان له من مآثر في الجاهلية والاسلام (٢) .

بل اننا نجد نائرة العصبية تقتحم باب البيت الاموي نفسه بسبب التنافس على الحكم ، وتثير نزاعاً مستتراً حيناً وسافراً حيناً آخر ، بين

---

١ – نهج البلاغة ٣٥٨/١ .

٢ – يرجع الى هذه المفاخرات في الجزء الثاني من جمهرة خطب العرب لاحمد زكي صفوت.

أسره الطامعة في تولي الخلافة ، ولا سيما بين آل حرب بن امية ، رهط معاوية ، وآل ابي العاص بن أمية ، رهط مروان بن الحكم . وظهرت بوادر هذا النزاع منذ بدء عهد معاوية ، اذ كان آل ابي العاص يتوقعون – وقد صار الامر الى معاوية – ان يجري على سياسة عثمان في تقريب ذوي رحمه ورعاية جانبهم ، وان يقلدهم الامارات ويغدق عليهم الاموال ، ولا سيما ان معاوية لم يرتق منبر الخلافة إلا من طريق الطلب بدم عثمان ، وهو من آل ابي العاص . ولكن معاوية خيب ماكانوا يعقدونه عليه من آمال ، فهو على رغم رعايته البيت الاموي عامة بدافع العصبية ، لم يأذن لبني أمية ان يشتطوا عليه في تحقيق اغراضهم ومطامعهم او ان يفسدوا عليه سلطانه ، فضلا عن انه كان قد عقد العزم على جعل الخلافة إرثاً متداولا في البيت السفياني ، ولذلك وجه همه طوال مدة حكمه الى كسر شوكة الرجال البارزين من فروع البيت الاموي الاخرى وتهيئة الجو لتولية الامر بنيه بعد وفاته . وكان في طليعة من يخشى منافستهم مروان بن الحكم وسعيد بن العاص ولذلك دأب على الاغراء بينهما ليضعف جانبهما . ومن الوسائل التي اتبعها لافساد ما بينهما انه كان يولي احدهما المدينة ثم يعزله ويولي الآخر مكانه . وفي احدى المرات أمر سعيد بن العاص بهدم دار مروان فلما أبى عزله وولى مكانه مروان وأمره بهدم دار سعيد ، فلما همّ مروان بذلك أبرز له سعيد كتاب معاوية الذي كان أرسله اليه فأدرك الرجلان غاية معاوية في الاغراء بينهما (١) . وقد أورد ابو الفرج خبر عزل معاوية مروان في احدى المرات وما كان من دخوله عليه وتوعده اياه ، ونحن نسوق كلام مروان هنا لقيمته في تصوير الصراع بين هاتين الاسرتين ، قال : « والله ما أنصفتنا ولا جزيتنا جزاءنا . لقد كانت السابقة من بني عبد شمس لآل ابي العاص ، والصهر برسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ، والخلافة فيهم ، فوصلوكم يابني حرب وشرفوكم ، وولّوكم فما عزلوكم ولا آثروا عليكم ، حتى اذا وُليتم وأفضى الامر اليكم ابيتم إلا اثره وسوء صنيعة وقبح قطيعة . فرويداً

---

١ – الطبري ٤/٢١٨ .

رويداً . قد بلغ بنو الحكم وبنو بنيه نيفاً وعشرين وإنما هي أيام قلائل حتى يكملوا أربعين ، ويعلم امرؤ أين يكون منهم حينئذ ، ثم هم للجزاء بالحسنى وللسوء بالمرصاد (١) » .

وكل من معاوية ومروان كان يتّهم صاحبه بأنه يستوحي في مسلكه عصبيته الضيقة لرهطه. من ذلك ان مروان ضرب مرة إبان ولايته على الحجاز عبد الرحمن بن أرطاة لشربه الخمر ، فلما بلغ الخبر معاوية غضب واتهم مروان أنه ضربه لانه حليف آل حرب، ولو كان حليف ابي العاص لما ضربه(٢).

وقد اشتدت نقمة آل ابي العاص على معاوية منذ ان جعل ولاية العهد لابنه يزيد، وصارحه بعضهم بسخطهم ، فدخل عليه سعيد بن عثمان بن عفان وأظهر إنكاره لصنيعه لأنه أولى بالأمر من يزيد ومنّ على معاوية بما كان لرهطه من فضل عليه إذ ولوه وآثروه . فأجابه معاوية بكلام يذكر فيه فضله على آل ابي العاص وجاء في آخره قوله : « وما كنت بئس الوالي لكم : لقد قمت بثأركم ، وقتلت قتلة أبيكم ، وجعلت الامر فيكم ، وأغنيت فقيركم، ورفعت الوضيع منكم (٣) » .

وبعد وفاة يزيد عاد النزاع بين الاسرتين مرة اخرى ، وكانت طائفة من انصار بني أمية ترى جعل الخلافة في خالد بن يزيد بن معاوية ، وفي طليعة هؤلاء اخواله الكلبيون . وطائفة اخرى آثرت عليه مروان بن الحكم لسنه وتجربته . وقد حسم النزاع بمبايعة مروان على ان يكون الامر من بعده لخالد بن يزيد ثم لعمرو بن سعيد بن العاص (٤) . ولكن مروان ما كاد يتولى

---

١ ـ الاغاني ٢٦٠/١٣ .

٢ ـ الاغاني ٢٤٦/٢ .

٣ ـ الاغاني ٥٥/١٧ (ساسي) .

٤ ـ الطبري ٤١٤/٤ .

الامر حتى سعى في جعل ولاية العهد لبنيه ، ولكي يخرج الولاية من يد خالد ابن يزيد عمد الى الزواج من امه تصغيراً لشأنه ، وكان يتعمد تحقيره في مجلسه وإظهاره بمظهر الاحمق على ملأ من اهل الشام ليسقط في أعينهم ، وهذا ما حمل أم خالد على خنق مروان انتقاماً لابنها ، فيما يرون (١).

ولما آلت الخلافة الى عبد الملك لم يخف خالد بن يزيد استياءه ولكنه اضطر الى الاذعان للامر الواقع لان السفيانيين كانوا قلة حينئذ بالقياس الى آل مروان . الا ان منافساً قوياً من آل ابي العاص برز لعبد الملك هو عمرو بن سعيد بن العاص المعروف بالاشدق ، وكان مروان قد جعل اليه ولاية العهد بعد خالد بن يزيد فلما استأثر عبد الملك بالامر نقم عليه ، ثم انتهز فرصة خروج عبد الملك لقتال مصعب فغلب على دمشق ولكن عبد الملك استطاع اخماد حركته وقتله (٢) ، ومنذ ذلك الحين استأثر البيت المرواني بالحكم حتى نهاية عهد بني امية .

على ان النزاع ما لبث ان نشب في اواخر العصر الاموي بين المروانيين أنفسهم ، وأدى هذا النزاع الى تصدع كتلتهم وافتراق أمرهم والى اضطراب الاحوال في بلاد الشام مقرّهم فلم يجد العباسيون لذلك مشقة كبيرة في التغلب عليهم وتقويض صرح دولتهم .

ج ــ ومنذ ان قضى الله بتوحيد شتات العرب في امة واحدة تخضع لدستور واحد وتظلها راية واحدة ، ومنذ ان احتك العنصر العربي بالامم الاعجمية من طريق الفتوح والمخالطة ، أحست شتى القبائل العربية بهذه الرابطة الجنسية التي تؤلف بين العرب جميعاً وتجعل منهم أمة متميزة من سائر الامم ، لها مقوماتها وخصائصها الفكرية والحضارية ، واخذ الشعور

---

١ ــ الطبري ٤/٤٧٤ .

٢ ــ الطبري ٤/٥٩٦ .

القومي يجد سبيله الى نفوس العرب وبدأت الامة العربية تعي ذاتها وتدرك المغزى العظيم الذي ينطوي عليه توحدها في ظل الراية الاسلامية . إلا أن هذا الحس القومي لم يبلغ في عصر بني امية من القوة والسلطان على النفوس مبلغاً يأذن بالغاء الفوارق القبلية والقضاء على النزعة العصبية المستشرية ، ولم يؤتَ تياره من قوة الاندفاع ما يتيح له اكتساح الروح القبلية التي تعترض مجراه . ومن هنا لم يستطع الشعور القومي ان يسمو على الفوارق القبلية في عصر بني امية وان يقتلع من نفوس العرب جذور العصبيات الراسخة فيها منذ اقدم العصور ، فظلت العصبية قائمة في هذا العصر يسايرها الشعور القومي الناشيء دون ان يعترض سبيلها ، بل لعل العرب لم يدركوا عصرئذ التعارض الاصيل بين هاتين النزعتين ، وظلت الكلمةالاولى في ذلك العصر للرابطة القبلية . وما كان الشعور القومي الشامل يطغى على الفوارق القبلية الا حين كان العنصر العربي يصطدم بالعناصر الاعجمية . وقد شهدت اواخر ذلك العصر مستهل الصراع العنيف الذي نشب بين العنصرين العربي والعجمي ، ذاك الصراع الذي بلغ اشده في العصر العباسي وترك آثاره البعيدة في الحياة العامة عصرئذ .

فالشعور القومي لم يتجه في العصر الاموي اذن الى إلغاء الشعور القبلي، ولم يجعل من اهدافه امتصاص النزعات الجزئية الضيقة التي كانت تفرق بين طوائف الامة العربية بل كان يبدو وكأنه غير مناقض للشعور القبلي ، فهو قمة الهرم التي تلتقي عندها النزعات القبلية والنهر الذي تصب فيه روافدها ، ولم يكن العربي يحس بالحرج في جمعه بين هذين النقيضين ، وكان يؤلف بينهما بجعله ولاءه في المرتبة الاولى لقبيلته ثم لقومه كافة ، وكأنه كان يرى العصبية للعرب جميعاً لوناً من العصبية القبلية واسع النطاق .

ولم يتجل الحس القومي المنافي للعصبية الا حين اشتد خطر الاعاجم في اواخر العصر الاموي ، فقد أيقن عقلاء العرب حينئذ ان خصوماتهم القبلية تحول دون اتحاد كلمتهم ، واجتماع يدهم على عدوهم المتربص بهم ، فأخذوا

يهيبون بالقبائل المحتربة ان تكف عما هي فيه وان توحد جبهتها لقتال العناصر الاعجمية التي لاغاية لها الا القضاء على العنصر العربي ، فنسمع نصر بن سيار يخاطب قبائل خراسان المتنازعة بقوله :

أبلغ ربيعةَ في مرو وإخوتهم	فليغضبوا قبل أن لاينفعَ الغضبُ
ولينصبوا الحرب إن القوم قد نصبوا	حرباً يحرق في حافاتها الحطبُ
ما بالكم تلقحون الحرب بينكم	كأن أهل الحجا عن رأيكم عُزُبُ
وتتركون عدواً قد اظلكم	مما تأشب لا دين ولا حسبُ
قِدماً يدينون ديناً ما سمعت به	عن الرسول ولم تنزلْ به الكتبُ
فمن يكن سائلاً عن أصلِ دينهم	فإنّ دينهم أن يُقتَل العربُ (١)

ولكن صيحته جاءت بعد فوات الاوان ، لان القبائل المتنازعة لم تستطع تناسي خصوماتها وعصبياتها الضيقة ، وهذا ما أوهن قواها أمام عدوها المشترك ، ومهد السبيل للقضاء على الدولة العربية الاموية .

د ـ وثمة عصبية من لون آخر اوجدها استقرار قبائل العرب في الحواضر والامصار منذ مستهل العصر الاسلامي ، تلك هي عصبية أهل كل مصر لمصرهم ، فقد أدى اشتراك جماعة من القبائل في سكنى موطن واحد الى خلق ضرب من الترابط بين اهل المصر على اختلاف قبائلهم والى تعصبهم لبلدهم وايثارهم نازلتها على نازلة البلدان الاخرى . وهذه الرابطة المدنية كانت من اقوى العوامل التي أدت مع الزمن الى الغاء العصبية القبلية بين سكان الحواضر ، الا انه لم يكن لها شأن يذكر في عصر بني امية ، وكان من آثارها قيام مفاخرات بين سكان الامصار تنطق بمدى تعصبهم لبلدهم ، وأشهرها تلك التي قامت بين اهل البصرة واهل الكوفة .

وقد اشار الاحنف بن قيس الى هذه الرابطة المدنية في خطبته التي قالها

---

١ ـ العقد الفريد ٤/٤٧٨ .

إثر فتنة مسعود فقال : « يامعشر الازد وربيعة من أهل البصرة ، انتم والله احب الينا من تميم الكوفة وانتم جيراننا في الدار ويدنا على العدو [1] . . » .

فكذلك نرى ان العصبية القبلية لم تنفرد وحدها بالسلطان والتأثير في نفوس القوم في عصر بني امية بل كان ثمة مؤثرات اخرى خضعت لها نفوس العرب ، وهذه العوامل هي التي ادت مع الزمن الى الغاء العصبية والقضاء على الروح القبلية ، ولا سيما في المدن والحواضر .



---

١ ـ الكامل للمبرد ٨٢/١ .

الباب الثالث

أثر العصبية القبلية
في الشعر الأموي

الفصل الأول

الشعراء والعصبية القبلية



١

خضوع الشعراء في شتى مواطنهم لنزعة العصبية

منذان وجدت العصبية كان الشعراء حملة لوائها ورسلها المخلصين، يبشرون بدعوتها ويسيرون في ركابها وينفخون في ابواقها . وقد رددنا قبل خضوع الشاعر القديم لداعي العصبية الى استئثار الشخصية القبلية بمشاعره وعواطفه وتفكيره حتى كادت تلغى فرديته إلغاء تاماً ، فلا غرو ان نجده داعياً مخلصاً من دعاة العصبية يهتدي بهديها وينطق بلسانها . وكانت صفة المواطن القبلي تملي على الشاعر ان يقف شعره على قبيلته : ينافح عنها ، ويشيد بمفاخرها ، ويلهج بمآثرها ، ويمجد بطولاتها ، ومن هنا كان الطابع القبلي هو الغالب على شعره .

ومنذ العصر الاسلامي وجدت الاحزاب السياسية والفرق الدينية فلم يعد ولاء الشاعر وقفاً على قبيلته وحدها ، فان العقيدة المذهبية والتحزب السياسي وجدا أنصاراً متحمسين لدعوتهما ونافسا العصبية القبلية في سلطانها على نفوس القوم ، فلم يعد شعر الشاعر وقفاً على الاغراض القبلية، وانما أصبح شعره صدى النزعة الغالبة عليه ، قبلية كانت او دينية او سياسية . وربما جمع الشاعر بين نزعتين يصدر عنهما في شعره ، بل ان من الشعراء من اتسعت نفسه لهذه النوازع كلها شأن الكميت والطرماح مثلا . وقل ان نجد شاعراً أموياً لم يخضع لواحدة من هذه النزعات ، لايشذ عن ذلك إلا نفر ضئيل من الشعراء صرفوا عن المشاركة في أحداث الحياة العامة فاتجهوا الى حياة اللهو والفراغ والعبث ، وكان شعرهم صدى حياتهم هذه العابثة اللاهية ، أمثال عمر بن ابي ربيعة . على ان الشعراء الغزلين أنفسهم لم يبرؤوا من أثر العصبية فكان منهم من خضع لداعيها وأفصح

شعره عن تأثره بها ومن هؤلاء جميل وكثير والاحوص ، بل ان عمر نفسه لم يبرأ من أثر هذه العصبية .

ونحن حين نستعرض شعراء هذا العصر ونرصد اتجاهاتهم الشعرية والاغراض التي نظموا فيها نلاحظ ان الكثرة الغالبة منهم لم تزل تجري على سنن الشعراء الجاهليين فتقف جل شعرها على الاغراض القبلية وتقدم ولاءها القبلي على سائر النزعات والمشاعر التي تجيش في صدرها وينعكس صداها في اشعارها . ولم تزل السمة الغالبة على الشاعر في هذا العصر انه لسان قومه المنافح عنهم ، المشيد بمآثرهم . حتى الشعراء الذين احترفوا الشعر واتخذوه مكسبة ومتجراً لم يستطيعوا التحرر من السلطان القبلي في اشعارهم ، على ما سنبين بعدُ ، فلا غرو ان نَجد ميسم العصبية يتجلى واضحاً في جل الشعر الذي خلفه لنا شعراء العصر الاموي وفي جل الاغراض التي عالجوها .

ولم يكن خضوع الشعراء لداعي العصبية وقفاً على شعراء بلد دون آخر، وإنما كان شاملا يتناول شعراء الشام والعراق وخراسان والحجاز وسائر البلاد التي استظلت براية الدولة العربية ، على تفاوت في درجات التأثروشدة العصبية ، ومن المحقق ان شعراء البلاد التي احتدمت فيها نار العصبيات كانوا أشد استجابة لداعيها واكثر تعلقاً بها من شعراء البلاد الاخرى .

وكان جل الشعراء الذين خاضوا غمار معركة العصبيات في بلاد الشام والجزيرة ينتمون اما الى قيس المضرية واما الى تغلب الربعية واما الى كلب اليمنية. وفي طليعة الشعراء الذين كانوا ينطقون بلسان قيس زفر بن الحارث الكلابي ونُفَيع بن صفار المحاربي ، والعُجَير السلولي . ومن أبرز شعراء تغلب الاخطل والقطامي وأعشى تغلب . اما اليمانية فقد برز من شعرائهم الذين حملوا لواء العصبية عصرئذ عمرو بن مخلاة وجواس بن القعطل وحكيم

بن عياش المعروف بابن الاعور وعمران بن هلباء والاصبغ بن ذؤالة وكل هؤلاء من كلب . وأفلح بن يعبوب النمري[1] وعدي بن الرقاع العاملي .

وفي العراق حظيت القبائل النزارية — ولا سيما تميم وبكر — بالعدد الاوفى من الشعراء المنافحين عن قبائلهم وفي مقدمتهم الفرزدق وجرير والبعيث وغسان السليطي والعجاج الراجز وابنه رؤبة — وكل هؤلاء من تميم — وابو جلدة اليشكري وعبد الله بن الزبير الاسدي والكميت بن زيد الاسدي وعويف القوافي الفزاري وابو النجم العجلي الراجز والعديل بن الفرخ العجلي. ومن أبرز شعراء القحطانية في العراق عصرئذ الطرماح بن حكيم الطائي وسراقة ابن مرداس البارقي .

واستقرت طائفة من الشعراء المبرزين في خراسان وبلاد العجم يصفون المواقع التي كان الفاتحون العرب يخوضونها ويمدحون الامراء وينافحون — الى ذلك — عن عشائرهم ، وينطقون بلسانهم ، ومنهم النابغة الجعدي والمغيرة بن حبناء التميمي وكعب الاشقري والشمردل اليربوعي ، ونهار بن توسعة البكري .

وعلى الرغم من نزوح العدد الاكبر من الشعراء الى الامصار المحدثة والمواطن الجديدة التي استقرت فيها عشائرهم إثر هجرتها من مواطنها الاولى في الجزيرة العربية ظلت طائفة كبيرة من شعراء القبائل مقيمة في بلاد العرب، ولا سيما في الحجاز ونجد . وقد شهدت هذه المواطن معارك قبلية حامية الوطيس بين الشعراء المستقرين فيها . ونجد في طليعتهم شعراء اربعة حملوا لواء الشعر في قبيلة ذبيان هم شبيب بن البرصاء وأرطاة بن سُهية وَعقيل بن علفة وابن ميادة . ونبغ كذلك من قبائل قيس عيلان الحكم الخُضري والمساور بن هند العبسي وابو وجزة السعدي (٢) . وعرف بشدة

---

١ — من النمر بن وبرة ... بن قضاعة .

٢ — من بني سعد بن بكر بن هوازن .

العصبية من شعراء قريش عبيد الله بن قيس الرقيات وعبد الرحمن بن الحكم الاموي والفضل اللهبي وعبد الله بن عمر العَبلي،ومن شعراء الانصار الاحوص وعبد الرحمن بن حسان . وبرز من شعراء القبائل الاخرى المرار بن سعيد الفقعسي الاسدي وكُثير الخزاعي وحُريث بن عناب الطائي .

ولم يكن سلطان العصبية مقصوراً على العرب الخلص من الشعراء بل شمل كذلك الموالي . فقد رأينا موالي كل قبيلة يتعصبون لها ويشاركون مشاركة فعالة في المنافحة عنها ، فكذلك كان شأن الشعراء منهم اذ ان لحمة الولاء التي كانت تربطهم بعشائرهم فرضت عليهم التعصب لهذه العشائر والتعلق بها والمحاماة عنها بأشعارهم ، وربما بلغت شدة منافحة المولى عن عشيرة موالية وبلاؤه في الدفاع عنها مبلغاً يحمل العشيرة على ان تلوذبمولاها وتدعوه شاعرها ولسانها دون سائر شعرائها الآخرين ، صنيع قبيلة عبد القيس بزياد الاعجم مثلا اذ كانت ربيعة كلها تحتمي به وتدعوه لسانها (١). وحين بلغ زياداً ان الفرزدق يهمّ بهجاء قبيلة عبد القيس وجه اليه ابياتاً يحذره فيها من ان يضع نفسه في مأزق لا يسهل عليه الخلاص منه ، ويقدم له نموذجاً من مقدرته الهجائية بقوله :

وما ترك الهاجون لي إن هجوته مصحاً أراه في أديم الفرزدقِ

فلما قرأ الفرزدق ابياته وادرك انه بازاء فحل من فحول الهجاء رجع عما همّ به وآلى لا يهجو قوماً فيهم مثل هذا الشاعر (٢) . وقد أتتنا انباء طائفة من شعراء الموالي وغلوهم في التعصب لعشائرهم والذياد عنها ، وخبر سُديف ، مولى بني هاشم ، ومحاماته عن مواليه وإثارته الفتن في مكةبسببهم مشهور في كتب الادب (٣) . ومن شعراء الموالي الذين عرفوا باخلاصهم لمواليهم ايضاً ثابت قطنة مولى الازد وفارسهم في خراسان ونُصيب مولى بني مروان .

* * *

---

١ ــ الاغاني ٩٤/١٣ .

٢ ــ الاغاني ٣٩٢/١٥ . العمدة لابن رشيق ٤٩/١ .

٣ ــ الاغاني ١٦٢/١٤ (ساسي) .

وكان خضوع الشعراء لداعي العصبية يتجلى في صور شتى منها منافحتهم عن قبائلهم بلسانهم ومفاخرتهم بها ، واعتزازهم بأنسابهم وحرصهم عليها ، وتسجيلهم جميع الأحداث القبلية التي شهدوها أو التي اتصلت بهم أخبارها، وإحاطتهم ماضي قبيلتهم بهالة من المفاخر والبطولات . وكان لهم فضلاً عن ذلك يد في إثارة كثير من الفتن وتأريث الأحقاد والضغائن القبلية .

كان الشاعر المتعصب لقومه يرى ان الله لم يمنحه موهبة الشعر الا لينطق بلسان قومه ويلهج بمآثرهم ويدفع عنهم ويناضل خصومهم ، ويكاد يرى ان شعره ينبغي أن يكون وقفاً كله على عشيرته وان قوله الشعر لغير هذه الغاية عقوق لحقوق عشيرته عليه . ومن هنا كان الشاعر لا يزال يردد انه شاعر قومه ولسانهم وان منافحته عن قومه في طليعة الواجبات المفروضة عليه ، فنسمع الفرزدق يقول مثلاً :

أنا الضامن الراعي عليهم وإنما يدافع عن أحسابهم أنا او مثلي(١)

وعلى الشاعر ، لكي ينهض بالمهمة التي تلقيها على عاتقه صفة المواطن القبلي، أن يقف بالمرصاد لكل من يتصدّى لهجاء قبيلته أو يتعرض لها بشر ، فإن لم يفعل كان غير جدير بالشرف الذي يضفيه على صاحبه لقب « شاعر القوم » ، ونظرت اليه عشيرته نظرة الازدراء والاحتقار . وهكذا لما بالغ جرير في هجاء البعيث وعشيرته بني مجاشع وأخذ يلغ في أعراض النساء، والفرزدق ساكت لا يجيبه ولا ينتصر لقومه لما كان نذره على نفسه من الامتناع عن الهجاء ، أقبلت اليه نساء مجاشع يعيّرنه ويلحينه وهو شاعر قومه، لتقصيره في المنافحة عنهم ، وما زلن به حتى أحفظنه وأثرن حميّته فكسر قيده وبادر الى مهاجاة جرير والذبّ عن أحساب عشيرته (٢) .

---

١ ـ النقائض ١٢٨/١ .

٢ ـ النقائض ١٢٤/١ .

وقد أقحم شعراء القبائل أنفسهم في حومة النزاع السياسي الذي أستعر أواره طوال عصر بني أميـــة بين مختلف الاحزاب والفرق ، وأعلنوا موقف عشائرهم من شتى الاحداث السياسية ، وكانوا في إفصاحهم عن عواطف جماعتهم واتجاهها السياسي أشبه بالصحف التي تنطق اليوم بلسان الاحزاب السياسية .

وهذا النزاع السياسي كان وثيق الارتباط بالنزاع القبلي الواسع المدى بين الكتلتين النزارية والقحطانية ، فكان شعراء كل كتلة يقفون من الأحداث السياسية الموقف الذي تمليه عليهم عصبيتهم ومصلحتهم القبلية .

وفي ضوء هـــذا المبـــدأ نفسر موقف شعراء كل من الكتلتين إزاء شتى الأحداث التي تمخض عنها عصر بني أمية .

فقد أيد شعرا ءالكتلة اليمانية في الشام البيت الأموي واحتجّوا لحقــه في الحكم وناهضوا منافسيه من الزبيرية وغيرهم لأن مصلحتهم القبلية كانت تفرض عليهم مساندة الحكم الأموي . واستظهار بني أمية باليمانية في أول حكمهم واصطناعهم اياهم أدّى الى نقمة شعراء نزار ، ولا سيما القيسية منهم ، على بني أمية وحكمهم فولّوا وجههم شطر ابن الزبير وظاهروه على بني أمية . وبسبب هذه الخصومة السياسية القبلية ثارت معركة لسانية عنيفة بين شعراء الفريقين لم تهــدأ ثائرتها الا باستتباب الامر لعبد الملك أخيراً واصلاحه بين القبائل المتنازعة .

وفي فتنة مسعود التي ثارت بالعراق إثر وفاة يزيد الاول انقسم شعراء البصرة فريقين ظاهر أحدهما الكتلة المضرية ، وساند الفريق الآخر الكتلة الأزدية الربعية المحتلفة ، الا أن شعراء هــذه الكتلة كانوا قلة بالقياس الى شعراء الكتلة المضرية . فنحن نلاحظ ان شعراء مضر ما زالوا حتى العصر الاموي يقبضون على ناصية الشعر وما زالت لهم الغلبة ســواء من الناحية العددية أو من حيث الإجادة الفنية .

ومثل هذا يقال في سائر الفتن السياسية القبلية التي ذرّت قرنها في عصر بني أمية . فقد وقف شعراء كل قبيلة وكل كتلة الموقف الذي تمليه عليه عصبيتهم ومصلحة قبيلتهم . ولم ينج من الانقياد لنزعة العصبية إلا قلة من الشعراء ، بل ان هؤلاء الشعراء أنفسهم لم يبرؤوا تماماً من أثر العصبية وانما كانت أصواتهم خافتة بالقياس الى الشعراء الآخرين .

ومن الأصوات الخافتة التي ارتفعت تناهض العصبية صوت الشاعر نهار بن توسعة التميمي البكري الذي كان يؤثر الانتماء الى الإسلام على الانتماء الى بكر أو تميم :

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... اذا هتفوا ببكرٍ أو تميمِ
دَعيّ القوم ينصر مدّعيه ... فيلحقه بذي النسب الصميمِ
وما كرمٌ ولو شرُفت جدود ... ولكنّ التقيَّ هو الكريمُ (١)

وهذا الشعر المنافي للعصبية لم يمنع نهاراً نفسه من أن يباهي بمقتل قتيبة بن مسلم على يد قومه فيقول :

ولما رأينا الباهليَّ ابن مسلم ... تجبّر عمّمناه عضباً مهنّدا(٢)

ولما ثارت معركة الأنساب في صدر العصر الاموي واحتدم النزاع بين النسّابين ورجال القبائل حولها ، وتنازعت الكتلتان النزارية والقحطانية طائفة من القبائل استظهاراً بها ، على نحو ما بينّا في فصل سابق ، شارك

---

١ ـ الشعر والشعراء ٥٢١/١ .
٢ ـ الطبري ٢٨٣/٥ .

الشعراء مشاركة فعّالة في هذا النزاع ولا سيما في النزاع الذي دار حول نسب قضاعة . فشعراء العدنانية أنكروا أن يكون لقضاعة أب غير نزار ، وشعراء القحطانية يجذبونها الى حظيرتهم ويعقدون أسبابهم بأسبابها، فنسمع أعشى ثعلبة مثلاً يمنّ على قضاعة انهم لولا الخلفاء لم يعتقوا ويكذّب دعواهم في انتساب قضاعة الى اليمن ، ثم يظهر قلة احتفال نزار بمفارقة قضاعة لهـا فيقول :

أبلغ قضاعةَ في القِرطاس أنهم ... لولا خلائفُ دينِ الله ما عُتقوا

قالت قضاعةُ إنّا من ذوي يمنٍ ... والله يعلم ما برّوا وما صدقوا

قد ادّعَوا والداً ما مسّ أمّهم ... قد يعلمون ولكن ذلك الفَرَقُ

ما ضرّ شيخَ نزار أن يفارقه ... كلبٌ وجرم اذا أبناؤه اتفقوا(١)

ولما ادّعى كثيّر انه نزاري النسب من كنانة أنكر عليه شعراء اليمانية نسبة خزاعة الى غير جذمها القحطاني . ولما همّ أن ينشد شعره في نسبة قومه الى قريش على منبري الكوفة والبصرة تلبية لطلب عبد الملك تهدّده شاعر الأزد سراقة البارقي بالقتل إن أقدم على هذا الأمر فعدل عما همّ به ونسب الى سراقة أو الى الأحوص قوله بهذه المناسبة :

لعمري لقد جاء العراق كثيّرٌ ... بأحدوثةٍ من وحيه المتكذّبِ

أيزعم اني من كنانة أوّلي ... وما لي من أمٍّ هناك ، ولا أبِ

فإن كنتَ حرّاً أو تخافُ معرّةً ... فخذ ما أخذتَ من أميرك واذهبِ (٢)

---

١ ـ الانباه ص ٦٢ . البيان والتبيين ١٣٢/٢ . ديوان الاعشى والاعشين ص ٢٧٤ .

٢ ـ ديوان كثير ص ٢٢ . الاغاني ١٢/٩ .

ومثل هذا الموقف وقفه شعراء النزارية واليمانية من قبائل لخم وجذام وعاملة ، فقد أنكر شعراء اليمانية أن يكون لهذه القبائل أب غير قحطان ، واضطر عديّ بن الرقاع العاملي الى التراجع عما كان ادعاه من انتسابها الى نزار ارضاء لبني أمية ، وعاد فأقرّ بانتمائها الى الجذم القحطاني في قوله :

قحطانُ والدنا الذي ندعى له	وأبو خزيمة خندفُ بنُ نزارِ
أنبيــع والدنا الذي ندعى له	بأبي معاشــر غــائبٍ متواري
تلك التجــارة لا زكاءَ لمثلهــا	ذهبٌ يبــاع بآنك وإبارِ (١)

ولكن شعراء نزار أصرّوا على أن جذاماً واختيها انما تنحدر من صلب أسدة بن خزيمة بن مدركة وهم ملحقون ببني أسد، فيقول أبو السماك الأسدي في توكيد هــذه النسبة :

أبلغ جُذاماً ولخماً إن لقيتهم	والقومُ ينفعهم علم الذي علموا
إنّا نذكّركــم بالله أن تدعــوا	اباكم حين جدّ القوم واعتزموا
لاتدّعوا معشراً ليسوا بإخوتكم	حتى الممات وإن عزّوا وإن كرموا(٢)

ولما ردّ مروان بن محمد نسب جذام الى بني أسد انكر شعراء القحطانية هذا الأمر أشد الانكار فقال القعقاع الطائي من أبيات :

ماكنت أحسب أن يمتدّ بي أجلي	حتى تكون جُذامٌ في بني أسد(٣)

* * *

---

١ ــ الاغاني ٣١٤/٩ الآنك : الرصاص . الابار : جمع ابرة .

٢ ــ انساب الاشراف ٣٧/١ .

٣ ــ انساب الاشراف ٣٦/١ .

وكان للشعراء ، فضلاً عما ذكرناه من آثار خضوعهم لنزعة العصبية ، موقف أشد خطورة وأبعد أثراً، ذاك هو تأجيجهم نار العصبية وإثارتهم الفتن الدامية بين القبائل بأشعارهم . فلم يكن الشعراء عصرئذ في كثرتهم الغالبة دعاة سلام ورسل محبة وأخوّة ، على ما نتصوره اليوم من مهمة الشاعر ، وإنما كانوا أبواق فتنة ودعاة شر ، دأبهم أن يقرعوا طبول الحرب ويحرّشوا بين القبائل ، فإذا وقعت الواقعة طفقوا يهللون لها ويرقصون حول نيرانها جذلين مبتهجين ، فلا غرو أن نسمع الحسن البصري يتهم الشعراء والخطباء بأنه لم تكن فتنة الا كانوا أكثر أهلها (١) .

وما أكثر الفتن التي كان الشعراء مثيريها وموقدي نارها عصرئذ ، فقد أتانا نبأ الشرّ الذي ألحقه الأخطل بقومه حين تحدّى الجحّاف بن حكيم السلمي في مجلس عبد الملك ، بعد أن هدأت الفتنة بين قيس وتغلب ، أن يثأر لمن قتل من قومه في المواقع التي دارت بين القبيلتين فخاطبه بأبياته التي يقول منها :

ألا سائل الجحّاف هل هو ثائرٌ	بقتلى أصيبت من سليمٍ وعامرِ

فقد أثارت أبياته هذه الجحاف وحملته على الإيقاع ببني تغلب يوم البِشر . ولما لقي الجحّاف الأخطل بعد عودته من بلاد الروم ساءله في سخرية المنتصر :

أبا مالك هل لمتني إذ حضضتني	على القتل أم هل لامني كل لائمِ ؟
أبا مالك إني أطعتك في التي	حضضت عليها فعلَ حرّان حازمِ
فإن تدعني أخرى أجبك بمثلها	واني لطبٌ بالوغى جدّ عالم (٢)

وللأخطل موقف سابق في إثارة الضغائن القبلية يرجع الى مستهلّ العصر

١ ـ الطبري ٥/٣٤٠ .

٢ ـ الاغاني ١٢/١٩٨ . تاريخ ابن الاثير ٤/٨ .

الأموي حين حرّضه يزيد بن معاوية على هجاء الأنصار فقال فيهم قصيدته التي منها قـوله :

ذهبت قريشٌ بالمكارم والعـلا   واللؤم تحت عمـائم الأنصارِ

فلما بلغ قوله الأنصار هاجوا ودخلوا على معاوية غاضبين متوعّدين ولم تهدأ ثائرتهم حتى وعدهم معاوية بقطع لسان الأخطل (١) .

وأتانا نبأ الكُميت وابن الأعـور الكلبي اللذين أثارا الفتنة بين المضرية واليمانية بأشعارهما التي قالاها بدافع العصبية (٢) .

وكانت قصيدة الوليد بن يزيد التي قالها في تحدّي اليمن – أو التي افتعلت على لسانه – من دواعي نقمة اليمانية على الوليد وثورتهم عليه ، فيما ذكروا ، فقد أثارت هذه القصيدة ثائرة القبائل اليمانية بالشام لما فيها من التحدّي السافر وروح الاستعلاء والمفاخرة بالنزارية والتذكير بمقتل خـالد القسري والتعريض بعروبة القحطانية (٣) .

وكان الشعراء لا يفتأون يذكّرون قومهم بالأحقاد القبلية والضغائن القديمة لتظلّ ذكرى العداوات القبلية حية في نفوسهم ولتكون صلتهم بالقبائل الاخرى صلة العداوة والقطيعة لا صلة المسالمة والمودّة ، فما كان الشعراء رسل سلام يبشرون بالتعايش السلمي بين القبائل ، وانما كانوا – في الأغلب – رسل شر وملقحي فتن . وها هو ذا زفر بن الحارث يؤكد لنا ان حزازات الصدور باقية مهما يَطل عليها الأمـد :

فقد ينبت المرعى على دِمن الثرى   وتبقى حزازات الصدور كما هيا(٤)

---

١ – الاغاني ١٠٦/١٥ و ١٢٦/١٤ (ساسي) .
٢ – الاغاني ١١٠/١٥ .
٣ – انظر الاخبار الطوال ٢٤٨/١ . والطبري ٥٣٩/٥ .
٤ – الاغاني ١١١/١٧ .

وكان الناس يتحلقون حول شعراء الهجاء والمناقضات في الاسواق والمحافل يستمعون اليهم ينشرون المعايب ويتتبعون المخازي وينهشون الأعراض ويهجون خصومهم وقبائلهم أقبح هجاء ، فتغلي الدماء لسماع هذا الشعر وتجيش الأحقاد في الصدور وتتأرث العداوات القبلية ، ويكون أتفه الاسباب حينئذ داعياً لوقوع الفتنة بين القبائل المتعادية .

ويتصل باثارة الفتن والعداوات تحريض الشعراء قومهم على الثأر من أعدائهم وحث الموتورين على الطلب بدماء قتلاهم . ونحن نعلم ما للشعر من سلطان على نفس العربي الغضوب السريع الانفعال، والكلمة التي تمس مواطن الحمية والأنفة منه تحيله شعلة متأججة من الغضب والهياج ، لا يفثأ سورتها الا الانتقام وسفك الدماء . وخبر ابن دارة وتحريضه قبيلة عكل على الثأر لصاحبه السمهري مشهور في كتب الادب ، فقد كان السمهري العكلي لصاً فاتكاً فأسلمه بنو أسد للسلطان فأمر بقتله ، وكان السمهري نديماً للشاعر الغطفاني ابن دارة (١) فأخذ يحرض بني عكل على الثأر له من بني أسد ، ومن قوله في هذا الصدد يشبههم بالنساء إذا عجزوا عن إدراك وترهم :

وإن أنتم لم تثأروا بأخيكم	فكونوا نساءً للخَلوقِ وللكحلِ
وبيعوا الردينيّات بالحَلي واقعدوا	على الذلّ وابتاعوا المغازل بالنبلِ

وما زال يحرضهم حتى جمعوا جموعهم وأغاروا على بني أسد ثائرين بصاحبهم (٢) .

---

١ ـ هناك ثلاثة اخوة يعرفون بابن دارة وكلهم شعراء أحدهم سالم بن مسافع بن دارة وقد قتله بنو فزارة في زمن عثمان . والثاني عبد الرحمن بن مسافع بن دارة الذي قتله بنو اسد وهو من شعراء العصر الاموي وهو المقصود هنا (انظر الاغاني ٢١/٤٩) .

٢ ـ الاغاني ٢١/٥٠ .

ولما قتل بحير بن ورقاء الصريمي بُكير بن وشاحِ العطاردي قال عثمان بن رجاء السعدي أبياتاً يحضّ فيها آل بكير على الثأر ومنها :

فلو كنتَ من عوف بن سعد ذؤابةً تــركتَ بحــيراً في دم مترقرقِ

فلما سمع بنو عوف بن كعب هذا الشعر تعاقد جماعة منهم على الطلب بدم بكير وما زالوا يترصّدون غرة بحير حتى ظفر به أحدهم فقتله (١) .



---

١ ــ الطبري ١٤٣/٥ .

٢

استظهار القبيلة بشعرائها والشاعر بقبيلته

كانت القبيلة تلوذ بشاعرها الناطق بلسانها المنافح عنها وتتقي به أذى شعراء القبائل المعادية لها ، فالشعر سلاح ماض تدفع به القبيلة عن نفسها غائلة المتصدّين لهجائها وتقارع به شعراء القبائل المناوئة لها .

وحين ينبغ في القبيلة شاعر ماضي اللسان نافذ القول، يشيع نبوغه الجذل والابتهاج في نفوس قومه كما يحمل شعراء القبائل الاخرى على تحامي التعرّض لقبيلته بسوء .

على أن القبيلة لم تكن تلوذ إلا بشاعر مُفلق تطمئن الى براعته الهجائية ومقدرته على مصاولة فحول الشعراء ، ولم تكن تأذن للمغلبين المفحمين من شعرائها أن يتعرّضوا لشعراء القبائل الاخرى مخافة أن يجرّ عليها هذا الهجاء شراً لا قِبل لها بدفعه، وأن يسقط شاعرها في ميدان المصاولة فيلبس الخزي قومه جميعاً . وتذكر الأخبار أن جريراً لما انبرى لمهاجاة غسان السليطي ، وهو يومئذ غلام لم يعالج الشعر بعد، كفه قومه عن ذلك وقالوا له : أنت ضَرَع وهو مُذَكٍّ (١) ، وخشوا ألا يكون كفؤاً لغسان ، حتى استطاع جرير أن يبرهن لهم على طول باعه في مضمار الهجاء فاطمأنوا اليه وتباشروا به (٢) .

وحين يكون للقبيلة شاعر فحل سليط اللسان تتحامى القبائل الاخرى

---

١ ــ يقال : مهر ضرع أي ضعيف لا يقوى على العدو ، والمذكّي من الخيل : الذي أتى عليه من السن ما يجعله قادراً على العدو والجري في حلبات السباق .

٢ ــ النقائض ١/٣ .

التعرض له أو لقبيلته بسوء خشية أن يكسوهم بهجائه حلة من الخزي لا تبلى على الدهر ، فحين تعرض غلام من الأنصار للفرزدق وتحدّاه أن يأتي بمثل قصيدة حسان الميمية بادر قومه بالاعتذار اليه وتبرؤوا لديه من جريرة سفيههم ، ولم يدع الفرزدق هذه المناسبة تفوته، فقد انتهزها للفخر بمقدرته الهجائية وتخوّف القبائل شرّه فقال :

فمن يكُ خائفاً لأذاةِ شعري فقد أمن الهجاءَ بنو حرامِ
هم قادوا سفيههم وخافوا قلائدَ مثل أطواقِ الحمامِ (١)

والشاعر الذي يتصدّى لمقارعة شعراء القبائل الاخرى فلا يثبت أمامهم ويتجلى عجزه عن مجاراتهم يتشاءم به قومه ويسخطون عليه لما يجرّه عليهم من قوارع الهجاء ، ومردّ ذلك الى ما ذكرناه من التلازم بين الشاعر وقومه والى غلبة الطابع القبلي على الهجاء عصرئذ. فالشعراء لم يكونوا يكتفون بهجاء خصومهم وإنما يعمّون بهجائهم القبيلة كلها ويلبسونها شملة من المهانة والخزي تلزمهم آخر الدهر ، فلا جرم تتخوّف القبيلة عواقب هذه الحروب الهجائية التي تنشب بين شعرائها وشعراء القبائل الاخرى وتخشى مغبة اندحار شاعرها في ميدان المصاولة . وقد دهى بني نمير شر مستطير حين تعرض شاعرهم الراعي لجرير وهجاه ، إذ أن جريراً ألبسهم سبّة الدهر بقصيدته الدامغة المشهورة التي نظمها في هجائهم حتى حملهم على الرحيل عن منازلهم ، فلا عجب أن يتشاءموا بشاعرهم الراعي وأن يوسعوه هو وابنه سباً وشتماً (٢) . ويرى الجاحظ انه لم تلق قبيلة من جميع ما هُجيت به ما لقيت نمير من قول جرير :

فغُضّ الطرف إنك من نميرٍ فلا كعباً بلغت ولا كلابا (٣)

---

١ ـ الاغاني ١١/١٩ .

٢ ـ الاغاني ٢٩/٨ .

٣ ـ البيان والتبيين ٣٦/٤ .

وكذلك جرّ كعب الأشقري على قومه الأزد شراً كثيراً بتعرضه لشاعر عبد القيس زياد الأعجم فلما جاء كعب يشكو زياداً الى المهلب سيد الازد قال يلومه : « أنت أسمعتنا هذا وأطلقت لسانه فينا ، وقد كنت غنياً عن هجاء عبد القيس وفيهم مثل زياد (١) » .

هذه المهمة الثقيلة التي كانت القبيلة تنوطها بشاعرها في المحاماة عنها والذود عن أحسابها تقفنا على المنزلة الرفيعة التي كانت للشاعر في قومه عصرئذ ، فهو عندهم موضع الإعزاز والإكرام والتقريب ، لا يتوانون عن نصرته اذا استنجد بهم ولا عن مدّ يد العون اليه اذا ركبه العوز. وفي المصادر الأدبية أخبار كثيرة تنطق بما كان للشعراء من مكانة في قبائلهم . ذكروا مثلاً ان كعب ابن جعيل كان شاعر تغلب قبل الأخطل وكان لا يأتي قوماً منهم إلا أكرموه وضربوا له قبة ، حتى انه كانت تمدّ له حبال بين وتدين فتملأ له غنماً (٢) ، وقدم أعشى همدان على النعمان بن بشير يشكو له سوء حاله فكلم له يمانية حمص ، وهم ليسوا بعشيرته الأدنين ، فبادروا الى اكرامه وأعطاه كل منهم ديناراً فعاد وفي وفاضه عشرون ألف دينار (٣) .

وكما كانت القبيلة تستظهر بشاعرها كان الشاعر يستظهر بقبيلته ويحتمي بها ، وربما تحدّى بها سلطان الدولة فالشاعر سوّار بن المضرّب تحدّى سلطان الحجاج وبني أمية بعزة قومه بني تميم :

أترجو بنو مروان سمعي وطاعتي ودوني تميمٌ والفلاة ورائيا (٤)

---

١ ـ الاغاني ٢٨٨/١٤ .

٢ ـ الاغاني ٢٨٠/٨ .

٣ ـ الاغاني ٤٩/٦ .

٤ ـ الكامل للمبرد ٣٠١/١ . نوادر ابي زيد ص ٤٥ .

ولما أراد يزيد بن المهلب إشخاص الفرزدق اليه حين فتح جرجان ليمدحه ويمدح آل المهلب أبى وأظهر اعتزازه بقومه وامتناعه بهم في قوله :

سـآبى وتأبى لي تميـمٌ وربمـا أبيت فلم يقـدر عليّ امـيرُ (١)

ولم يكن الفرزدق ليستطيع تحدي معاوية بأبياته المشهورة التي قالها حين احتجز معاوية ميراث عمه الحُتات بن يزيد لو لم يكن مطمئناً الى نصرة قومه إياه وامتناعه بهم (٢) .

وحين سجن عبّاد بن زياد يزيد بن مفرّغ أرسل الى يمانيـة الشام رسولاً بأبيات يستثير فيها حميتهم ويدعوهم الى نصرته ، فلما تليت عليهم هاجوا ودخلوا على يزيد يهدّدون ويتوعدون إن لم يطـلق سراح شاعرهم فاضطر يزيد الى إرضائهم وأمر عبّاداً باطلاق سراح ابن مفرغ (٣) . فكذلك حين يكون للشاعر قبيلة قوية يستظهر بها ويشدّ بها أزره ربما تهيّبَ السلطان التعرض له وتحامى مد يد الأذى اليه خوفاً من غضب عشيرته وثورتهم عليه. وخبر ابن مفرّغ وابن زياد خير مثال لحاماة القبيلة عن شاعرها واستظهاره بها ، وكان عبيد الله بن زياد حين ظفر بابن مفرّغ همّ أن يقتله وكتب الى يزيد يستأذنه في الأمر فكتب اليه يزيد يحذّره من الإقـدام على ذلك وكان مما قاله له : « إياك وقتله ، ولكن عاقبه بما ينكله ويشدّ سلطانك ، ولا تبلغ نفسه فإن له عشيرة هي جندي وبطانتي ولا ترضى بقتله مني ولا تقنع الا بالقود منك فاحذر ذلك (٤) ... » . فالعصبية كانت تفرض على القبيلة وشاعرها واجبات النصرة المتبادلة وتخلي أحدهما عن النهوض بهذا الواجب

---

١ ــ طبقات ابن سلام ص ٢٨٦ .

٢ ــ الطبري ١٨٠/٤ . الاغاني ١٣٧/١٩ .

٣ ــ الاغاني ٥٩/١٧ (ساسي) .

٤ ــ الاغاني ٥٦/١٧ .

كان يعرضه لأقبح الذم ، فقد لام ابن مفرّغ حلفاءه من قريش لتخليهم عن نصرته حين سجنه ابن زياد (١) . وكذلك نقم السمهريّ الشاعر على قومه امتناعهم من نصرته حين حبسه السلطان فقال يذمهم :

الا ليتني من غير عكل قبيلتي ولم أدر ما شبّان عكلٍ وشيبُها
ترى الباب لا تسطيع شيئاً وراءه كأنا قنيّ أسلمتها كعوبها (٢)

فالأصل الذي تقوم عليه صلة الشاعر بقبيلته إنما هو الولاء والنصرة والرعاية تلبية لداعي العصبية الذي يربطه بها ، وما خرج عن هذا الأصل فهو في حكم الشاذ الذي لا يقاس عليه .

* * *

---

١ ـ الاغاني ٥٧/١٧ .

٢ ـ الاغاني ٥٤/٢١ .

٣

الشعراء والعصبيات الكبرى

لم تكن عصبية الشاعر تقف دائماً عند حدود رهطه وعشيرته الأدنين وانما كانت تجاوز هذه الحدود في كثير من الاحيان لتضم قومه جميعاً والجذم الذي ينحدر منه . وهـذه العصبيات الواسعة تأخذ روافدها من شتى القبائل والبطون لتصب آخر الأمر في أحد النهرين العظيمين : العدنانية أو القحطانية، وبديه ان ولاء الشاعر في المرتبة الاولى إنما يكون لعشيرته ، ثم يتسع نطاق هذا الولاء فيشمل القبيلة برمتها .

وربما استطاع الشاعر أن يسمو بعاطفته عن نوازع العصبية الضيقة التي توقع العداوة بين العشائر المنتمية الى قبيلة واحدة ، فيدعو الى نبذ أسباب العداوة والخصومة، والى جمع كلمة هذه العشائر تحت راية الرابطة النسبية المشتركة ، ولا سيما حين يكون لهذه العشائر عدو مشترك يشمت لوقوع العداوة بينها ويتربص وقوع الشر بينها للايقاع بها . فكذلك نجـد القطامي التغلبي يحزّ في نفسه وقوع الحرب بين حيّي نزار : ربيعة ومضر ، فيهيب بهما أن يطفئا نار العداوة بينهما وأن يفيئا الى الصلح لئلا تشمت قضاعـة باحترابهما :

ألـم يحزنـكَ ان حبـال قيس ... وتغلبَ قـد تبـاينت انقطـاعـا
يطيعـون الغُواة وكـان شـرّاً ... لمؤتمـر الغـواية ان يُطـاعـا
ألم يحـزنك انّ ابنَـي نـزارٍ ... أسـالا من دمـائهـا التِـلاعـا
فلا تَبعـَدْ دمـاءُ بنـي نـزار ... ولا تقرَرْ عيـونك ياقضاعا (١)

---

١ ـ ديوان القطامي ص ٣٧ .

وقد وقف زفر بن الحارث القيسي من هذه الخصومة التي نشبت بين قيس وتغلب موقف المتألم المنكر في أول الأمر، ولام عمير بن الحباب على إيقاعه العداوة بين ابني نزار وانصرافه عن اليمانية أعدائهم المتربصين بهم فقال :

الا مـن ُمبلغٌ عنـي عمـيرا	رسـالةَ عـاتبٍ وعليـك زاري
أتترك حيَّ ذي كَلَـعٍ وكلـبٍ	وتجعـلُ حـدّ نابـك في نـزارِ
كمعتمـدٍ على احدى يديـه	فخانتـه بوَهْيٍ وانكسـارِ (١)

وهذه العصبية الواسعة هي التي كانت تعطف الشاعر على الأحياء التي تربطه بها آصرة الرحم الكبرى وان تناءت ديارها ، وتحمله على التعصب لها والانتصار لها والمحاماة عنها اذا تعرّض لها أحد بسوء . وهي التي تفسر لنا أيضاً مشاركة الشعراء في الأحداث القبلية التي لا تتصل برهطهم وعشيرتهم الأقربين وانما بقبيلتهم الجامعة ، فالفرزدق مثلاً يغضب لما صنعه أسد بن عبد الله القسري بأشراف مضر في خراسان وعلى رأسهم نصر بن سيّار الكناني ويوجّه الى خالد بن عبد الله والي العراق هذا التحدّي :

أخالدُ لولا الدينُ لم تُعطَ طاعةً	ولولا بنو مروانَ لم توثِقوا نصرا
إذاً لوجـدتم دون شـدٍّ وثاقـه	بني الحرب لاكشُفَ اللقاءِ ولا ضجرْا(٢)

وهو يحسّ أنه ونصر بن سيار تربطهما آصرة واحدة :

يا نصرُ انت فتى نزارٍ كلهـا	ريشي وريشك من جناحٍ واحدِ(٣)

١ ــ الاغاني ١٢٨/٢٠ .

٢ ــ ديوان الفرزدق ص ٤٠٣ . الطبري ٣٩٤/٥ .

٣ ــ ديوان الفرزدق ص ١٥٤ .

وبلسان هذه العصبية الواسعة ينطق الطرماح بن حكيم الطائي فيفخر بقحطان كافة ويباهي انه شاعرها المنافح عنها :

أذبّبُ عن أحساب قحطانَ إنني   انا ابن بني بطحائها حيث حلّتِ [1]

وآصرة الرحم الكبرى هذه هي التي أدّت الى تجمع شعراء العصرالأموي في كتلتين ضخمتين : شعراء العدنانية، وشعراء القحطانية . ولا يظهر التكافؤ العددي بين شعراء الكتلتين ، اذ ان الشعر من الأمور التي ذهبت القبائل النزارية بفضل الإكثار منها والابداع فيها . وليس هنا موضع البحث في أسباب تخلف القبائل القحطانية في مضمار الشعر ، وحسبنا أن نسجل هنا ظاهرة التفوق الكمّي والكيفي في شعراء نزار ، وقد برّز في تميم وحدها من الشعراء ما يوازي عدد الشعراء في قبائل اليمن كافة .



---

١ ـ ديوان الطرّماح ص ١٣٩ .

٤

شعراء الفرق الدينية والعصبيات

كان الشاعر في العصر الجاهلي يخضع لمؤثر وحيد هو عصبيته لقومه ، فكان ولاؤه وقفاً على قومه لاينازعهم مكانتهم في نفسه مؤثر آخر، وكان شعره لذلك صدى عصبيته لعشيرته ، وتعبيراً عن ولائه لها ، فكان يقول الشعر معبّراً عن حسه الفردي تارة ، وعن حسه القبلي تارة أخرى .

ومنذ الاسلام ظهرت في المجتمع العربي قيم ومؤثرات جديدة يستوحيها الشاعر ويقول شعره استجابة لداعيها ، وما لبثت هذه القيم أن تبلورت في صورة فرق دينية لكل منها مذهبها وعقائدها، ولكل منها أشياعها وأنصارها. وكان من الطبيعي أن تجد هذه العقائد صداها في نفوس طائفة من الشعراء : يعتنقونها ويبشّرون بها ويدافعون عنها بلسانهم ، وربما ناضلوا عنها في ساح القتال واستشهدوا في سبيلها . فكان للخوارج شعراؤهم أمثال عمران بن حطان والطرمّاح بن حكيم ، كما كان للشيعة شعراؤهم أمثال كثيّر والكميت بن زيد وكان للمرجئة أيضاً شعراء ينصرونهم في طليعتهم ثابت قطنة الازدي صاحب القصيدة المشهورة في بيان مذهب الإرجاء ، وكذلك القول في سائر الفرق الدينية التي أظلّها عصر بني أمية . وهكذا نرى ان نفس الشاعر الأموي لم تعد خالصة للنزعة القبلية وحدها ، تلك النزعة التي كانت تستأثر بنفس الشاعر الجاهلي من قبلُ ، بل وجد مؤثر روحيّ جديد ينافس العصبية على مكانتها في نفوس الشعراء وينازعها سلطانها عليهم .

وهنا نتساءل : هل استطاع هذا المؤثر الجديد اقتلاع جذور العصبية من نفوس الشعراء الذين خضعوا لسلطانه وجعلها خالصة لأثر العقيدة المذهبية

وحدها لا ينازعها في ذلك منازع ؟ وهل بلغت قوة العقيدة مبلغاً يجعلها تطغى على الشعور العصبي فتقطع كل وشيجة تربط الشاعر بقومه وتحيل عصبيته القبلية عصبية مذهبية فلا يدين بالولاء إلا للمذهب الذي يعتنقه ولا يتعصب إلا لمن يشاركونه عقيدته هذه أياً كانت عشائرهم ؟...

الذي نجده في الواقع ان العقيدة المذهبية لم تستطع القضاء على لُحمة العصبية أو إلغاء المشاعر القبلية من نفوس شعراء المذاهب ، حتى من عرف منهم بشدة التقوى والتشرّب لروح العقيدة كبعض شعراء الخوارج . وقد قدّمنا ان العقيدة الدينية التي قامت على أساس مناهضة العصبية لم تستطع استئصال هذا الشعور الطاغي من نفوس القوم عصرئذ لعمق جذوره وشدة تمكنه من نفوسهم . فلا غرو ان يكون الشعراء أشدّ تمسكاً بواشجة العصبية والروابط القبلية ، وهم أسرع الناس استجابة للمؤثرات العاطفية وأكثرهم انفعالا بها ، فضلا عن كونهم ألسنة قبائلهم المنافحة عنها ومعقد آمالها في الذبّ عن أحسابها والإشادة بمآثرها . وكل ما نجده من أثر هذه العقيدة المذهبية في نفوس شعراء الفرق الدينية انها خففت من غلواء الشعور العصبي ولطفت من حدته وقدّمت عليه الرابطة العقدية ، فهم يؤثرون إخوانهم في العقيدة على اخوانهم في القبيلة .

وقد استطاعت قلة من شعراء الخوارج السموّ بعقيدتهم فوق روابط العصبية والرحم ورأت أن الإسلام يؤاخي بين الناس جميعاً ولا يجعل لعربي فضلاً على عجميّ إلا بالتقوى . وبديه ان العقيدة الخارجية التي قامت على مبدأ المساواة بين المسلمين جميعاً لا يسعها أن تقرّ التفاوت الجنسي بين قبيلة وقبيلة ، ولا يسعها أن تجعل لعربيّ فضلاً على عربي آخر لكونه ينتمي الى قبيلة أعرق نسباً وأنبل محتداً . وشعراء الخوارج الذين انطوت نفوسهم على ايمان صادق بهذه العقيدة استطاعوا أن يبرؤوا من نزعة العصبية ، وأن يسموا بأنفسهم ومشاعرهم فوق الروابط القبلية. وها هوذا عمران بن حطان الشيباني ينزل في جماعة من الأزد فيحمد جوارهم ولا يرى ضيراً في الثناء

عليهم ، ثم يعلن إنكاره لتعلق القوم بالأنساب وسؤالهم كل نازل فيهم عن قبيلته ، والناس عنده متساوون قد آخى بينهم الإسلام ولا يفضل أحدهم صاحبه الا بتقوى الله .

نزلنا بحمد الله في خير منزل ... نسر بما فيه من الأنس والخفر
نزلنا بقوم يجمع الله شملهم ... وليس لهم عود سوى المجد يعتصر
من الأزد ، إن الأزد أكرم معشر ... يمانية طابوا اذا نسب البشر
فاصبحت فيهم آمناً لا كمعشر ... أتوني فقالوا : من ربيعة او مضر ؟
أم الحي قحطان فتلك سفاهة ... كما قال لي روح وصاحبه زفر
وما منهما إلا يسر بنسبة ... تقربني منه وان كان ذا نفر
فنحن بنو الأسلام والله واحد ... وأولى عباد الله بالله من شكر[1]

وقد اقترن الولاء للعقيدة المذهبية بالولاء للقبيلة عند طائفة من شعراء الخوارج ، فشبيل بن عزرة الضبعي الخارجي مثلاً لا يكتم سروره لمبايعة عبد الله بن عمر الأموي القرشي الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي ولطأطأة قريش هامتها المتعالية أمام قبيلة بكر بن وائل فيقول :

ألم تر أن الله أظهر دينه ... وصلت قريش خلف بكر بن وائل[2]

ومصقلة بن عتبان الشيباني الخارجي يخاطب الخليفة فيحضه على إرضاء بكر بن وائل قومه ويتهدده إن لم يفعل بيوم يترقبه عصيب ، ثم يفاخره بالخوارج المشهورين الذين انحدروا من دوحة قبيلة بكر :

وأبلغ أمير المؤمنين رسالة ... وذو النصح ان لم يرع منك قريب
فانك إن لا ترض بكر بن وائل ... يكن لك يوم بالعراق عصيب

---

١ ـ الكامل للمبرد ١١١/٢ .
٢ ـ الطبري ٦٢٠/٥ .

فان يكُ منكم كان مروانُ وابنـه ... وعمروٌ ومنكـم هاشم وحَبيبُ

فمنـا سُويدٌ والبُطـينُ وقعنب ... ومنـا أمـير المـؤمنـين شبيبُ

ولا صلحَ ما دامت منابر أرضنـا ... يقومُ عليها من ثقيف خطيبُ (١)

بل ان من شعراء الخوارج من عرف بشدة العصبية وعنف الشعور القبلي وهو الطرّماح بن حكيم الطائي . كان الطرماح خارجياً من الصفرية ، وكان في الوقت نفسه عصبياً غالياً في عصبيته لقحطان (٢) ، وكان أحد من شاركوا في معركة العصبيات العنيفة التي احتدم أُوارها بين النزارية والقحطانية ، وكانت بينه وبين شعراء العدنانية مناقضات ومفاخرات كثيرة (٣) . وكان من دواعي فخـره انه شاعر قحطان الـذي ناطت به المحاماة عنها والذود عن أحسابها(٤). وكان ينتهز كل سانحة للتنويه بمفاخر قومه القحطانية والإشادة بمآثرهم ، ومما فاخر به نصرة الأنصار اليمانية الرسول عليه السلام يوم قدم يثرب ، ومظاهرة اليمانية بني أمية وتثبيتهم دعائم ملكهم :

فبعزّنـا نَصـر النبي محمـدٌ ... وبنا تثبّت في دمشقَ المنبرُ (٥)

ومثل ذلك يقال في شعراء الشيعة ، فقد اتسعت صدور أكثرهم لعقيدة التشيع كما اتسعت لنحلة العصبية ، والتقت النزعتان في نفوسهم دون أن يحسّوا في التقائهما أي لون من التناقض. فكثيّر، على ما عرف به من شدة التشيّع لبني هاشم ، لم يتخلّ عن عصبيته لقومه اليمانية ، فلما قتل يزيد

---

١ ـ مروج الذهب للمسعودي ١٣٦/٢ . سويد والبطين وقعنب وشبيب كلهم من خوارج قبيلة بكر .

٢ ـ الاغاني ١٠٩/١٥ (ساسي) .

٣ ـ انظر مثلا ديوانه الصفحات : ٨٦ ـ ١٥٨ ـ ١٣٩ ـ ١٤٧ .

٤ ـ انظر ديوان الطرماح ص ١٣٩ .

٥ ـ ديوان الطرماح ص ١٤٧ .

ابن عبد الملك آل المهلب لم يستطع إخفاء حزنه لمصرعهم وأظهر يزيد عجبه من جمع كثيّر بين تشيّعه لبني هاشم وعصبيته لقومه (١) .

وكان الكميت الأسدي أشد شعراء الشيعة غلوّاً في تشيعه كما كان في الوقت عينه أشدهم غلواً في عصبيته وانتصاره لقومه النزارية ، وقد وصفه أبو الفرج فقال : « كان من شعراء مضر وألسنتها المتعصّبين على القحطانية ، المقارنين المقارعين لشعرائهم ، العلماء بالمثالب والأيام ، المفاخرين بها (٢) ... » وهو صاحب القصيدة المشهورة « المذهبة » في هجاء اليمن والفخر بنزار . وكانت عصبيته لقومه هي سبب مقتله ـ فيما يروون ـ فقد دخل على يوسف ابن عمر الثقفي ومدحه بأبيات يعرّض فيها بسلفه خالد القسري ، فأحفظت أبياته هذه جند يوسف اليمانية فوجؤوا بطنه بسيوفهم ، متذرّعين أنه مدح الأمير قبل أن يأذن له (٣) .

فلم يكن شعراء المذاهب عصرئذ يرون إذن ان ثمة تعارضاً بين ارتباطهم بمذاهبهم ، وبين تعصبهم لقبائلهم ، ولو كانت العقيدة التي يعتنقونها تجافي في روحها وتعاليمها مبدأ العصبية ، فإن تعدد النزعات والأهواء كان طابع ذلك العصر الذي أطلّت فيه الأمة العربية على آفاق فكرية جديدة غيّرت معالم حياتها . ومن المحقق ان التقاء هذه النزعات المتضادة في نفوس القوم إنما كانت نتيجة من نتائج تعقد الحياة الفكرية والدينية والاجتماعية في ذلك العصر . فثمة مخلفات موروثة رسخت جذورها في نفوس العرب منذ أقدم العصور ، وثمة معتقدات جديدة تلقفتها قلوب القوم الظامئة الى المعرفة والايمان بالمثل الروحية ، ولكن هذه المعتقدات الجديدة لم تكن

---

١ ـ الاغاني ٢١/٩ .
٢ ـ الاغاني ١٠٩/١٥ (ساسي) .

٣ ـ الاغاني ١١٦/١٥ .

قد بلغت عصرئذ من عمق النفاذ الى القلوب والسيطرة على سلوك معتنقيها وعواطفهم مبلغاً يأذن لها باستئصال جذور العصبية من النفوس ، وهي لذلك لم تجد مفراً من أن تفسح لها مكاناً في جوارها الى حين .

وثمة ظاهرة وقف أمامها القدماء دهشين متحيرين ، تلك هي قيام أواصر صداقة وطيدة الاركان بين شاعرين كانا على طرفي نقيض في عصبيتهما وعقيدتهما المذهبية هما الكميت والطرماح ، قال الجاحظ : « لم ير الناس أعجب حالاً من الكميت والطرماح ، وكان الكميت عدنانياً عصبياً ، وكان الطرماح قحطانياً عصبياً ، وكان الكميت شيعياً من الغالية ، وكان الطرماح خارجياً من الصفرية ، وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة ، وكان الطرماح يتعصب لأهل الشأم ، وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط ، ثم لم يجر بينهما صرم ولا جفوة ولا إعراض ولا شيء مما تدعو هذه الخصال اليه (١) » .

وتعليل هذه الظاهرة عندنا مفتاحه ما أجابا به حين سئلا عن السر في اتفاقهما مع اختلاف أهوائهما وهو قولهما : « اتفقنا على بغض العامة (٢) » . فقد أوجدت ألوان الثقافة الطارئة على العرب في عصر بني أمية طبقة مستنيرة ترتفع بمستواها الفكري عن سواد الناس ، ولعل نظرتها اليهم لم تكن تخلو من ترفّع واستعلاء . وهذا التفوق الفكري كان يوجد ضرباً من التقارب بين أفراد هذه الطبقة المثقفة المستنيرة ويؤلّف بينهم على رغم تباعد أهوائهم واختلافها . يضاف الى ذلك ما أشرنا اليه قبل في حديثنا عن ظاهرة العصبية من ان قبيلتي الشاعرين كانتا تعيشان في الكوفة على صفاء ومودة ، وكانت بينهما أحلاف قديمة لا تزال ذكراها توثق صلات المودة بينهما ، ولو كانت بين قبيلتي أسد وطيء عداوة مباشرة لما قدّر لهذه الصداقة أن تقوم بين الشاعرين . أما عصبية الكميت للعدنانية وعصبية الطرماح للقحطانية فهي

---

١ ـ البيان والتبيين ١/٤٣ .
٢ ـ الاغاني ١٥/١٠٩ .

عصبية لآصرة الرحم الكبرى لا للعشيرة ، فلم يكن بين الشاعرين عداوة قبلية مباشرة كالتي كانت بين الكميت وحكيم بن عياش الكلبي مثلاً .

وفوق ذلك كله نجـد أن كلا الشاعرين كان يقف من الحكم الأموي موقف المعارضة وينظر الى السلطة القائمة نظرة السخط والكراهية ، ولا ريب ان اتفاقهما في معارضة الحكم الأموي والسخط على السلطان كان يقارب مابينهما على رغم اختلاف مذهبهما . فليس في قيام الصداقة بين هذين الشاعرين ما يدعو اذن الى كثير من العجب والدهشة ، وصداقتهما تشبه الصداقة التي نجدها تقوم اليوم في بعض الاحيان بين اتباع الاحزاب السياسية المتباينة الأهواء ، أو بين رجال الصحافة المختلفي المنازع والاتجاهات .



٥

شــعراء المديح والعصبية

ان صفة الشاعر القبلي كانت تفرض على صاحبها أن يقف شعره كله على قبيلته ، ينشر محامدها ويذيع مفاخرها ، ويناضل خصومها ، ومن تمام الولاء للعشيرة ألا ّ يجري لسان الشاعر بالثناء على غير قومه وألا يمدح أناساً من قبائل أخرى ، ولا سيما حينما يكون بين هذه القبائل وبين قبيلته عداوة مستحكمة .

على اننا لاحظنا قبل ظاهرة انحراف الشعر منذ أواخر العصر الجاهلي عن غايته الأصيلة وهي التعبير الصادق عما يجيش في نفس الشاعر من عواطف وانفعالات ، اذ انه غدا وسيلة للتكسب وطريقاً سهلاً الى الغنى والثراء . وقد أغرى هذا الطريق نفراً من فحول الشعراء بسلوكه فلم يعد الشعر لدى هؤلاء هواية يشبع بها الشاعر حاجة نفسية تراوده وتدفعه الى التعبير عما يحس ّ به ، ولم يعد الشعر شيئاً تجيش به صدورهم فتقذفه ألسنتهم ، وانما أصبح حرفة مجزية توفر لصاحبها المال الجم ّ والحياة الهانئة ، وهو مطالب لذلك باتقان هذه الحرفة وبذل غاية جهده في تجويدها ، ولا عليه بعد ذلك ألا يكــون شعره صدى صادقاً لشعوره وتصويراً أميناً لما يحسه لأن المعو ّل عندهم على اتقان الصنعة لا على صدق الشعور .

وقد لقي هذا الاتجاه المنحرف في مفهوم الشعر تشجيعاً بعيد المدى منذ عصر بني أميــة ، فقــد حرص الخلفاء والولاة على تقريب فحول الشعراء واصطناعهم بالهبات والمال ليحيطوهم بهالة من التمجيد والتعظيم تحمل الناس على الاعجاب بهم والالتفاف حولهم ، وليصرفوهم في نفس الوقت عن إثارة قبائلهم عليهم وعن مظاهرة خصومهم ومناوئيهم . وهكذا وجد الشعراء سبيل

الثراء ممهدة أمامهم بسلوكهم طريق المديح ورأوا أن من الغبن لهم أن يقفوا موهبتهم الشعرية على أغراض لا تعود عليهم بالنفع المادي ، فلم يترددوا في سلوك سبيل المديح واتخاذه حرفة لهم . وما لبث فن المديح أن طغى على سائر فنون الشعر الاصيلة واحتلّ المنزلة الاولى بين أغراض الشعر العربي ووجه اليه الشعراء جلّ عنايتهم وبذلوا غاية جهدهم في تجويده واتقانه .

وحين كان الشاعر يقصد الى مدح رجال من قبيلته يجد أمامه متسعاً للقول وينطلق على هواه في إغداق الثناء على ممدوحه وقومه ، اذ أن عاطفته المدحية تلتقي حينئذ بشعوره العصبي ويأتلفان معاً فلا يجد أي حرج في الثناء على ممدوحه وإضافة كل منقبة اليه والى قومه فلا غرو أن نجد هذا الضرب من المديح يتسم بصدق الشعور وحرارة اللهجة وقوة العاطفة ، شأن كعب الأشقري مثلاً في مدحه المهلب بن أبي صفرة (١) ، وثابت قطنة في مدحه يزيد بن المهلب (٢) ، والفرزدق وجرير في مدحهما هلال بن أحوز المازني التميمي ، وابن الرقيات في مدحه مصعب بن الزبير .

ولكن الشاعر لم يكن يقف مديحه على رجال قومه وحدهم ، بل كان مضطراً الى انتجاع الأمراء والولاة من أي قبيلة كانوا ، وكان لا مفرّ في هذه الحال من أن يقع التعارض بين ولاء الشاعر لقومه وتعصبه لهم وبين مدحه أناساً من غير قبيلته كثيراً ما يكون بينهم وبين قومه حزازات قبلية أو عداوات موروثة ، وحينئذ يجد الشاعر نفسه في مأزق حرج لا يسهل عليه الخلاص منه ، فهو معرض لاغضاب قبيلته اذا مدح أعداءها ولأن يوصم بوصمة العقوق القبلي ، وهي أشنع ما يوصم به الشاعر في ذلك العصر . وهو — من جانب آخر — اذا امتنع عن المديح سدّت دونه أبواب الرزق والثروة والحياة

١ — انظر الاغاني ٢٨٣/٢٤ وما بعدها .

٢ — انظر الاغاني ٢٦٣/١٤ وما بعدها .

الناعمة وكان عليه أن يعاني حياة العوز والفاقة ويحرم نفسه ملذات الحياة وأطايبها ، ولم يكن ذاك بالأمر اليسير في عصر أقبل فيه الناس على الحياة ومتاعها إقبال الجائع المقرور على شهيّ المآكل وأمسكوا بتلابيب الملذات والشهوات أي إمساك .

والشاعر حين يتصدّى لمدح خليفة أو والٍ أو رجل شريف ليس بينه وبين قومه عداوة ما لا يقع في مثل هذا الحرج الذي تحدثنا عنه ، اذ ان احتراف المديح أصبح أمراً شائعاً عصرئذ تقرّه الأوضاع السياسية والاجتماعية ولا يلقى أي انكار من قوم الشاعر . وحتى الشعراء الذين عرفوا بشدة العصبية لقومهم كان احترافهم المديح يضطرهم الى مدح رجال من غير قومهم ابتغاء المال ، وربما كان بين قوم الشاعر وقوم الممدوح عداوة قبلية سافرة، شأن الفرزدق الذي عرف بشدة عصبيته لقومه، فان عصبيته هذه لم تحل دون مدحه رجالاً ينتمون الى قبائل لا تربطها صلات المودة بتميم ، وممن مدحهم أسد بن عبد الله القسري الذي عرف بشدة عصبيته لليمن ، وآل المهلب وهم من الأزد خصوم تميم الألدّاء بالبصرة (١) .

وعلى رغم ذلك كله كانت العصبية ربما غلبت على طائفة من شعراء المديح وهم في مجلس الممدوح فاذا لسانهم يجري فخراً بقومهم بدلاً من جريانه بالمديح، ويكون صنيعهم هذا مدعاة لإثارة غضب الممدوح وسخطه على الشاعر في كثير من الاحيان ، فقد دخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك مرة فاستنشده وهو يرى انه سيمدحه ولكن لسان الفرزدق لم يجر الا بالفخر بأبيه وقومه ، وانطلق ينشد أبياته التي مطلعها :

وقومٍ كأن الريحَ تطلب عندهم لها تِرةً من جذبها بالعصائبِ

فلما سمع سليمان هذه الابيات تمعّر وجهه غضباً واظهر للشاعر الجفاء والسخط(٢) . فالفرزدق لم يستطع مغالبة شعوره العصبي حتى وهو بين

١ ــ انظر ديوان الفرزدق ص ٣٤٠ ــ ٣٧٤ ــ ٥٨١ ــ ٥٩٢ .
٢ ــ طبقات ابن سلام ص ٥٤٧ .

يدي الخليفة وفي موقف المديح والثناء . وصنع يزيد بن الحكم الثقفي صنيع الفرزدق فقد وفد على الحجاج فولاّه فارس ثم استنشده فعدل يزيد عن المديح المرتقب الى الفخر بآبائه ورهطه بني كعب فقال :

من يكُ سائلا عني فانّي	أنا ابنُ الصيدِ من سَلفي ثقيفِ
وفي كعبٍ ومن كالحيّ كعبٍ	حللتُ ذؤابة الجبل المنيفِ

ويغضب الحجاج وهو يسمع الشاعر يفخر برهطه وكأنه يتحداه بمنزلة رهطه في ثقيف ، قبيلتهما المشتركة ، فيستردّ منه عهد الولاية ويطرده . ولا يلبث أن يأتيه جواب الشاعر بعد أن فارقه وأصبح في مأمن من بطشه : « أورثني أبي مجده وفعاله ، وأورثك أبوك أعنزاً ترعاها (١) » .

أما حين يمدح الشاعر قوماً غير قومه ، حتى لو لم يكن بينهم وبين قومه عداوة قبلية ، فالأمر لا يخلو من غضاضة ، ومسلك الشاعر حينئذ يكون موضع الانكار والاستهجان عند أبناء قومه المتعصبين لعشيرتهم . فالفرزدق مثلاً كان لا يزال ينكر على جرير مدحه قبيلة قيس ومنافحته عنها فهو يخاطبه بمثل قوله :

تعيّرنا أيامَ قيس ولم ندع	لعيلانَ أنفاً مستقيم الخياشمِ
فما أنتَ من قيسٍ فتنبحَ دونها	ولا من تميم في الرؤوس الاعاظمِ
وانك إذ تهجو تميماً وترتشي	تبابينَ قيس أو سحوق العمائمِ
كمُهريقِ ماءٍ بالفلاةِ وغرّه	سرابٌ أثارته رياحُ السمائمِ (٢)

ويبلغ حرج الشاعر أشدّه حين يقع شرّ بين قومه وبين ممدوحيه فلا

١ ــ خزانة الادب للبغدادي ٥٤/١ .

٢ ــ النقائض ٣٧٧/١ .

يدري حينئذ أي مسلك يسلك ، وهو في الغالب يقف الموقف الذي تمليه عليه عصبيته ، فينحاز الى صفوف قومه وينقلب على ممدوحيه ويتناسى يدهم عنده فاذا به يوسعهم ذماً وشتماً بعد أن كان براهم بالأمس معدن الفضائل وموئل الشرف فيرميهم بالنبل، ويقذفهم بالحجارة بعد أن كان ينثر عليهم الرياحين . وقد وقع جرير في مثل هذا الحرج حين قتل أحد رجال قومه قتيبة بن مسلم الباهلي القيسي ، فهو لا يملك أن يلوم قومه على صنيعهم ، بل من حقه أن يفخر بهم ، وهو من جانب آخر لا يستطيع أن يقف الى جانب قيس ويعادي قومه . ومن هنا كان جرير مضطرباً مذبذباً إزاء هذه الحادثة ، فهو يفخر بما فعله وكيع ويرى ان قتل قتيبة كان دافعه درء الفتنة ، ثم يعتب على باهلة عتباً رفيقاً ويناشدها ألا تأخذ تميماً كلها بجريرة رجل منهم ، وحسبها أن تثأر لنفسها من رهط قيس بن عاصم السعدي ، ثم يعود الى هجّيراه في سائر قصائده من مدح قيس وتعداد مناقبها وتفضيلها على رهط الفرزدق فيقول في ميميته المشهورة :

فغيركَ أدّى للخليفة عهدَه ... وغيرك جلّى عن وجوه الاهاتمِ

فإنّ وكيعاً حين خارت مجاشع ... كفى شعبَ صدع الفتنة المتفاقمِ

أباهل ما احببتُ قتل ابن مسلم ... ولا ان تروعوا قومكم بالمظالمِ

أباهل قد اوفيتمُ من دمائكم ... إذاما قتلتم رهطَ قيس بن عاصمِ (١)

وموقف جرير من قبيلة قيس جدير بالبحث لمعرفة حقيقة دوافعه ، فقد يبدو عجيباً أن يقف شاعر فحل عرف بشدة العصبية لقومه وبلائه في المنافحة عنهم هذا الموقف من قبيلة قيس ، إذ وقف على مدحها جانباً من شعره ولم يكن يرى ضيراً في تعداد وقائعها التي نصرت فيها على بني دارم ، رهط الفرزدق وتفضيلها عليهم ، مع أن تدرج مراتب العصبية كان يملي عليه

---

١ ــ النقائض ١/٤٠٠ .

أن يقف نقيض هذا الموقف وأن يفاخر قبيلة قيس بوقائع بني تميم عامة ، ولا سيما أنه كانت بين تميم وقيس أيام كثيرة في الجاهلية مازالت ذكراها حيّة في نفوس القوم ، كما كانت بين القبيلتين وقائع أخرى في عصر بني أمية من شأنها أن تؤرث الأحقاد وتثير الضغائن بينهما . فبنو تميم لم يغفروا لعبد الله ابن خازم تنكيله بهم في خراسان ، والقيسية لم تنس ان سيدها ابن خازم إنما قتل بيد وكيع بن الدورقية التميمي ، وقد زاد في تباعد ما بين الحيين بعد ذلك مقتل قتيبة بن مسلم القيسي بيد وكيع بن حسان اليربوعي ، فكيف ارتضى جرير لنفسه اذن أن ينطق بلسان قيس ويشيد بمآثرها وينوّه بذكرها، حتى لقد قام في إشادته بذكر قيس ومناقبها مقاماً لم يقمه أي شاعر آخر من شعراء قيس أنفسهم ؟

من المحقق ان موقف جرير انما تفسّره الى حد بعيد الاحداث السياسية التي عاصرها جرير ، فقد قرنت الاحداث بين قبيلتي قيس ويربوع منذ أوائل العصر الأموي ، اذ ظاهر كلاهما الحزب الزبيري وكان كلاهما صادق الولاء له وقد أفاض الدكتور شوقي ضيف في بيان أثر هذا العامل السياسي في تقريب ما بين قيس ويربوع (١) .

وقد ينبغي أن لا نسقط من حسابنا ما كان لولاة العراق القيسيين ــ والحجاج خاصة ــ من أثر في هذا التقارب بين قيس وجرير ، ومن المحتمل أن يكون الحجاج قد أوعز من طرف خفيّ الى شاعره جرير الذي كانت له حظوة لديه ، أن ينوّه بذكر قيس ويشيد بمآثرها وأوعز من جانب آخر الى القيسية أن تجزل له العطاء وأن تستميله بكثرة هباتها ، وهو الأمر الذي أشار اليه الفرزدق أكثر من مرة في نقائضه مع جرير كقوله مثلاً :

وانك اذ تهجو تميماً وترتشي ... تبابين قيس او سحوق العمائم(٢)

١ ــ انظر التطور والتجديد في الشعر الاموي للدكتور شوقي ضيف ص ٣٠٥ .

٢ ــ النقائض ٣٧٧/١ .

وجرير من الشعراء الذين احترفوا المديح للتكسب وجمع المال ، وقد عرف بشدة جشعه وإلحافه في السؤال ، فلم يكن يرى ضيراً اذن في مديح قيس طمعاً في المال ، بل انه لم يكن يرى ضيراً في مديح الموالي ، ولهذا كان اذا حلّ في بلدة أطافت به القيسية والموالي يسألونه عن حاله ، ويغدقون عليه المال والمهبات (١) .

بيد ان ثمة سبباً مباشراً نرى انه كان الدافع الاول لتنويه جرير بمآثر قيس واشادته بوقائعها ، ذاك هو نشوب الهجاء بينه وبين الاخطل ، فان جريراً لم يجد سبيلاً لاغاظة الاخطل أجدى من تذكيره بالوقائع التي كانت الى حين قريب بين قومه بني تغلب وبين أعدائهم القيسية في بلاد الجزيرة ، ومنها ما وقع بعد نشوب الهجاء بينهما وهو يوم البشر (٧٣ هـ) . ولم يكتف جرير بالاشادة بأيام قيس على تغلب في الاسلام بل أضاف اليها أيامها في الجاهلية. وكان جرير ربما أشار في نقائضه الاولى مع الفرزدق الى بعض أيام قيس على بني دارم في الجاهلية إغاظة لخصومه كيوم رحرحان مثلاً (٢) . وكان الفرزدق يتحامى التعرّض لقيس طوال عهد الحجاج القيسي ، حتى اذا مات الحجاج وقتل قتيبة بن مسلم اغتنم السانحة لهجاء قيس هجاء صريحاً والنيل منها وأخذ يوجّه الى جرير أعنف اللوم لمدحه قبيلة قيس ، وهي ليست عشيرته ، ويذكّره ما صنعه ابن خازم القيسي ببني تميم في خراسان ، واضطر جرير منذ ذلك الحين الى لزوم جانب الدفاع عن قيس وتعداد أيامها على بني دارم والاشادة بمآثرها إغاظة للفرزدق ، واتصل منذ ذلك الحين ذكر قيس في نقائض الشاعرين .

والى ذلك لا ينبغي لنا أن نبالغ في قصة العداوة بين قيس وتميم في ذلك العصر فان أيام قيس وتميم في الجاهلية وكذلك ما وقع بينهما في خراسان ، كل ذلك لم يكن ليباعد ما بين قيس وتميم في البصرة ، اذ أن دواعي التماسك

---

١ ـ الاغاني ٦٤/٨ .
٢ ـ انظر النقائض ٢٢٦/١ .

والتناصر بين القبيلتين في ذلك المصر كانت أقوى من أن تقطع وشائجها تلك الذكريات القديمة والاحداث الطارئة . وقد وقفت قيس وسائر أهل العالية الى جانب بني تميم إبان جُلّ الاحداث التي شهدتها البصرة . وكانت دواعي التوازن القبلي في ذلك المصر تفرض على الكتلة المضرية أن تتماسك قبائلها وتكون يدها واحدة على القبائل المعادية لها ، فآصرة الرحم الكبرى كانت موضع الرعاية لدى جميع القبائل المضرية في البصرة . وقد أشرنا قبلُ الى قيام تحالف بين هذه القبائل رداً على حلف ربيعة والأزد ، فلا ضير على جرير إذن أن يثني على قيس ويشيد بمآثرها ، بل ان خصمه الفرزدق نفسه قد مدح قيس عيلان في بعض المناسبات وأشار الى ما كان بينها وبين تميم من الحلف كقوله حين شفعت له قيسية الشام لاخراجه من سجن خالد القسري :

ألم تر قيساً قيس عيلان شمّرت ... لنصري وحاطتني هناك قرومُها
فقد حالفت قيسٌ على الناس كلهم ... تميماً فهم منها ومنها تميمـا
وعادت عدوّي ان قيساً لأسرتي ... وقومي اذا ما الناس عدّ قديمها(١)

فجرير في مدح قبيلة قيس انما كان ينطق بلسان العصبية الواسعة ويعبّر عن واشجة الرحم الكبرى التي كانت تؤلف بين شتى القبائل المضرية في البصرة .

وحرفة المديح ربما اضطرت صاحبها الى أن يهجو رجال قومه ارضاء لمدوحه ، والشاعر هنا يضطر الى ركوب مركب النفاق والمراءاة الذي ركبه جميع الشعراء المدّاحين . على أن الشاعر الصادق العصبية يأبى الاقدام على هذا الامر مهما يكن الثواب الذي يتوقعه لقاء مديحه مغرياً . أما كعب الأشقري الأزدي فلم ير ضيراً في أن يمدح قتيبة بن مسلم القيسي ، وأن يذم في نفس

---

١ ـ ديوان الفرزدق ص ٧٦١ . طبقات ابن سلام ص ٢٩٦ .

الوقت سلفه يزيد بن المهلب ، أخاه في النسب ، وأن يطعن في صحة نسبه وذلك في قصيدته التي يقول منها :

رمتكَ فيــلٌ بما فيها وما ظلمتْ من بعدمارامها الفجفاجةُ الصَلِفُ
قيسٌ صريحٌ وبعضالناسيجمعهم قرى وريفٌ، فمنسوبٌ ومقترف(١)

وقد تحمل الشاعر على مدح أعداء قومه يد أسداها اليه الممدوح فلا يرى مندوحة من شكره والثناء عليه لئلا يتهم بالجحود ونكران الفضل ، صنيعَ القطامي التغلبي حين أطلقه زفر بن الحارث عدو قومه الألدّ من الأسر ، وقد ظفر به في بعض المواقع فقال يمدحه :

من مُبلغٌ زفــر القيسيَّ مِدحته من القطاميِّ قــولاً غير إفنــادِ
إني وان كان قومي ليس بينهم وبين قومــك إلا ضربة الهــادي
مُثنٍ عليك بما استبقيتَ معرفتي وقد تعرّض مني مقتلٌ بادي (٢)

وكذلك صنع ثابت قطنة الأزدي حين أطلقه نصر بن سيّار الكناني من السجن وألطفه فقال يشكر صنيعه دون أن ينسى مكانة قومه الأزد وشرف منبتهم :

إنيوانكنت من جِذم الذي نضرت منه الفروع وزنديالثاقبُ الواري
لذاكرٌ منك أمراً قد سبقت به من كان قبلك يا نصر بن سيّار
ناضلتَ عني نضال الحر اذ قعدت دونيالعشيرة واستبطأتُ أنصاري٣

---

١ ــ الاغاني ٢٩٩/١٤ . الطبري ٢٤٧/٥ . فيل : مدينة خوارزم . وكان يزيد بن المهلب رام فتحها فاستعصت عليه ثم فتحها قتيبة . الفجفاجة : الكثير الكلام . المنسوب : الصريح النسب . المقترف : غير خالص النسب .

٢ ــ ديوان القطامي ص ١٠ . الاغاني ١٢٨/٢٠ . الهادي (هنا) : السيف .

٣ ــ الطبري ٣٩٩/٥ .

على أنه في أغلب الاحوال نجد شعراء القبائل لا يتخلون عن غصبيتهم مع احترافهم المديح ، فهم يقحمون فخرهم بقومهم في أكثر أماديحهم وعصبيتهم تطل برأسها في جل ما ينظمون من الشعر ، بل هم يتخذون من صلاتهم الممدوحين وسيلة لدعم مكانة قبيلتهم لديهم وتقوية مركزها السياسي ، صنيع الاخطل في مدائحه لبني أمية .

وقد حملت العصبية أحد شعراء بني أسد على أن يفتدي ممدوحه اليماني بقحطان كافة ويضن بقومه أن يجعلهم فداء لممدوحه فيقول :

ألا جعل الله اليمانين كلهم ... فدًى لفتى الفتيان يحيى بن حيّانِ
ولولا عُريقٌ فيَّ من عصبيةٍ ... لقلت وألفاً من معدّ بن عدنانِ
ولكنّ نفسي لم تطب بعشيرتي ... وطابت له نفسي بأبناء قحطانِ [1]

فعصبية الشاعر لقومه لم تحل اذن دون مديحه رجالاً من قبائل أخرى بدافع التكسب تارة وعرفان الجميل تارة أخرى ، على أن هذا المديح لم يكن يلغي في اغلب الاحوال عصبية الشاعر لقومه ، ولا ينسيه انصرافه الى المديح افتخاره بقومه واعتزازه بالانتساب اليهم في جل أماديحه .

* * *

١ ـ الكامل للمبرد ١٩٨/١ . البيان والتبيين ٣٠٩/٣ .

٦

شـعراء السياسة والعصبيات

كان للأحزاب السياسية التي ظهرت في العصر الاموي شعراؤها الناطقون بلسانها والمدافعون عن مبادئها ، وكان انضواء هـؤلاء الشعراء تحت لواء الاحزاب السياسية يخضع لاعتبارات شتى، فبعضهم أغري بالمال والهبات، ولا سيما جلّ أولئك الذين وقفوا في جانب الحزب الاموي الحاكم . ومنهم من حمله على مؤازرة الحزب الذي اختاره اعتقاده بصحة مبادئه ، وصواب اتجاهه السياسي دون النظر الى أية اعتبارات قبلية . على أن جانباً كبيراً من شعراء السياسة كان اتجاههم السياسي منبثقاً عن شعورهم العصبي ومتفقاً مع النزعة السياسية التي ارتضتها قبيلتهم ، وقلّ أن نجد شاعراً يفارق قومه حين يجمعون على مناصرة حزب سياسي ما ، شأن أعشى همدان مثلاً فانه خالف اتجاه قبيلته حين شايعت المختار ونصرته وآثر البقاء في جانب مصعب بن الزبير (١) . على انه حتى في مثل هذه الاحوال نجد الشاعر موزع القلب بين عقيدته السياسية وعصبيته القبلية ولم يستطع أعشى همدان كتمان أساه لمصارع قومه حين أوقع بهم مصعب فقال :

وما إن سرّني إهـلاك قـومي   وان كانوا وجدّك في خَبار (٢)

وجلّ الشعراء الذين ساروا في ركاب الحزب الاموي انما دفعهم الى ذلك الطمع في العطاء واغراء المال ولم يدفعهم الى ذلك اعتناقهم مبادىء هذا الحزب وايمانهم انه صاحب الحق وحده في تولي أمور الناس . وكثرة هـؤلاء من

---

١ ـ انظر الطبري ٥٥٠/٤ وما بعدها .

٢ ـ الطبري ٥٦١/٤ .

محترفي المديح الذين تحدثنا عنهم آنفاً ، ومن أبرزهم جرير والفرزدق وعبد الله بن الزبير الأسدي والنابغة الشيباني . ومن هنا لا نعجب اذا وجدنا بعض هؤلاء الشعراء لا يصدقون ممدوحيهم الولاء ، ينصرونهم ما كان الامر في يدهم ، فاذا أديل منهم لسواهم انقلبوا عليهم وانحازوا الى من أصبح لهم الأمر بعدهم . وهؤلاء الشعراء كانوا ينتمون الى مختلف القبائل التي أظلها الحكم الاموي ، ونحن نلاحظ انهم على رغم مظاهرتهم الحزب الاموي لم يكونوا يتخلّون عن عصبياتهم القبلية ، لأن نزعتهم القبلية كانت أعنف وأصدق وأعمق جذوراً من هواهم السياسي . فاذا وقع التعارض بين عصبيتهم ونزعتهم السياسية لم يترددوا في تلبية داعي العصبية ، فحين استجابت كثرة القبائل المضرية في العراق لدعوة ابن الزبير وأعلنوا خلافهم على بني أمية وقف شعراء مضر في جانب قبائلهم وجاهروا بتأييدهم للحزب الزبيري ، وكان موقفهم هذا مدعاة لاثارة نقمة عبد الملك على شعراء مضر ولذلك ظل أمداً لا يأذن لشعراء مضر في الدخول عليه ولا يسمع لهم (١) . ولكن الامر ما كاد يستقر لعبد الملك ويقضي على الحزب الزبيري نهائياً حتى عاد هؤلاء الشعراء الى الحظيرة الاموية وأعلنوا ولاءهم للحزب المرواني . وقد ذكروا ان عبد الله ابن الزبير الأسدي كان من الشعراء الغالين في التعصب لبني أمية ونصرتهم على عدوهم ، وقد لقي في سبيلهم عناءً كثيراً . فلما غلب مصعب بن الزبير على الكوفة أتي به أسيراً فمنّ عليه مصعب وأحسن اليه فانقلب نصيراً للحزب الزبيري وانقطع الى مصعب يمدحه ولازمه حتى آخر أيامه (٢) ، وقد ترك قتل مصعب في نفسه أسى عميقاً وخاطب قاتله عبيد الله بن زياد بن ظبيان بقوله :

أبا مطرٍ شلّت يمينٌ تفرّعت ... بسيفك رأسَ ابن الحواريّ مصعب (٣)

---

١ ـ طبقات ابن سلام ص ٣٥٧ .

٢ ـ الاغاني ٢١٧/١٤ (دار الكتب) .

٣ ـ ٢٣٣/١٤ .

فلما انقادت العراق بعدئذ لسلطان بني أميــة عاد ابن الزبير اليهم يمدحهم ويمدح ولاتهم ولا سيما بشر بن مروان ولم يتورع عن التعريض بعبد الله بن الزبير حين صلبه الحجاج فقال فيه أبياته التي أولها :

مشى ابنُ الزبير القهقرى فتقدّمت   أميةُ حتى أحرزوا القصباتِ (١)

ومن شعراء الحزب الاموي طائفة لم تقنع بمديحهم وتعداد مناقبهم بل أقحمت نفسها في غمار السياسة الى حد الدفاع عن حق بني أمية في الحكم والاحتجاج لهم وتحريضهم على التمسك بالخلافة بكل قواهم . وجل هؤلاء من العثمانية الذين أنكروا مقتل عثمان وسخطوا على قاتليه ، ثم انحازوا بعد ذلك الى الحزب الاموي وحرّضوا خلفاء بني أمية على الطلب بدم عثمان . ومن هؤلاء النفر عبد الله بن همام السلولي ، وقد ذكر ابن سلام انه كان له جاه عند السلطان ووصلة بهم ، وكان عند آل حرب مكيناً حظياً فيهم (٢) ، وهو الذي حدا يزيد بن معاوية على البيعة لابنه معاوية وأنشده شعراً رثى فيه معاوية بن أبي سفيان ومن قوله في ذلك :

خلافــةَ ربّكم كونوا عليهــا   اذا غُمــزت عنابسةٌ أسودا
تلقّفهــا يزيــد عــن أبيــه   فدونكها مُعاويَ عن يزيــدا
أديروها بني حــرب عليــكم   ولا ترموا بها الغَرَضَ البعيدا(٣)

---

١ ـ الاغاني ١٤/٢٥٠ .

٢ ـ طبقات ابن سلام ص ٥٢٢ .

٣ ـ نقائض جرير والاخطل ص ٢ . طبقات ابن سلام ص ٥٢٢ . مع اختلاف يسير في رواية الابيات وقد نسبت هذه الابيات في النقائض الى عليّ بن الغدير الغنوي ونسبها ابن سلام الى عبد الله بن همام وهو الصحيح لأن علي بن الغدير لم يكن من شعراء بني أمية المقربين منهم فضلا عن كونه قيسياً متعصباً يكره يزيد بن معاوية لتقربيه الكلبيين ، وكذلك الابيات التي ذكرت في النقائض بعد هــذه الابيات نرجح أيضاً انها لعبد الله بن همام الذي عرف بالتشيع لعثمان وبني أميــة .

وفي أبيات أخرى نجده يحرّض بني أمية على التشبث بالخلافة وأن يجيبوا من سألهم الشورى في أمرها بقوة السلاح ، وهو ينكر أن يكون لأعداء بني أمية حق في الشورى بعد قتلهم عثمان :

إن الخلافة إن تثبت لثالثكم ... تثبُتْ أواخيّها فيكم فلا ترُمِ

عيشوا وأنتم من الدنيا على ثقة ... واستصلحوا جندَ أهل الشام للبُهمِ

فلا تحِلنّها في دار غيركم ... إني أخاف عليكم حسرة الندمِ

فما لمن سالكَ الشورى مشاورةٌ ... إلا بطعنٍ وضربٍ صائبٍ خَذِمِ

أنّى تكونُ له شورى وقد قتلوا ... عثمان ضحّوا به في الاشهر الحرمِ[1]

وابن همام قيسي من بني مرة وكنا نتوقع أن لا يقف في صفوف الحزب الاموي ، وخاصة انه كان في زمن يزيد بن معاوية الذي أسخط القيسية بتقريبه قبيلة كلب أصهاره ، ولا تفسير لموقفه الا عثمانيته ، فقد جعلته شديد التعلق ببني أمية الثائرين لعثمان .

وظاهر بني أمية كذلك نفر من الشعراء الموالي كأبي العباس الأعمى واسماعيل بن يسار وقد عرف عن العباس هذا صدق ولائه لبني مروان واخلاصه لهم حتى بعد أن خرج الامر من يدهم وأُديل منهم لبني العباس[2].

وثمة شعراء آخرون انساقوا الى مظاهرة بني أمية لدوافع قبلية ونفعية في آن واحد ، شأنَ الاخطل وأعشى تغلب . فقد انصرف الاخطل الى مديح بني أمية والاحتجاج لحقهم في الحكم استجابة لنزعة قبيلته الاموية الهوى ،

---

١ ـ نقائض جرير والاخطل ص ٤ . الاواخي ج أخيَّة : الاوتاد . البُهم : النائبات . الخـذم : القاطع .

٢ ـ انظر أخباره في الاغاني ١٥/٥٩ (ساسي) وما بعدها .

ولكنه لم يكن دون صاحبيه جرير والفرزدق طمعاً وسعياً وراء المال من طريق التكسب بالشعر .

وطائفة أخرى من الشعراء وقفت في جانب الحزب الاموي لدوافع قبلية خالصة وهم شعراء اليمانية بالشام ، ومن أبرزهم عديّ بن الرقاع العاملي وعمرو بن مخلاة الكلبي وحكيم بن عياش الكلبي . وكان هؤلاء في نصرتهم الحزب الأموي إنما ينطقون بلسان قبائلهم ويدافعون عن مصالحها ، ومن هنا نجدهم لا يحجمون عن توجيه أعنف اللوم الى بني أمية ويعتبون عليهم أشد العتب حين يأنسون منهم ازوراراً عن قومهم أو تقريباً لأعدائهم (١) .

أما الحزب الزبيري فلم يستطع منافسة الحزب الاموي في استمالة الشعراء الى جانبه، واتخاذهم أبواقاً تدعو لنصرته وتدافع عنه ، فان عبد الله بن الزبير لم يكن يبسط كفه بالعطاء لهم كما بسطها بنو مروان . وقد استطاع هذا الحزب أن يحظى بتأييد طائفة من الشعراء جلهم من مضر ، إبان الحقبة التي انبسط فيها سلطان ابن الزبير على العراق ، ولكن هؤلاء الشعراء لم يقفوا شعرهم على نصرة هذا الحزب وحده ، فقد ظاهروه حين كان له الأمر وحين دانت له قبائلهم بالطاعة ، فلما خرج الامر من يده وانقادت القبائل العراقية لسلطان بني أمية انقلب عليه بعضهم وانصرف عنه بعض آخر ، وكانوا في الحالين إنما يعبّرون عن اتجاه عشائرهم السياسي ولا يحيدون عن مقتضيات الولاء القبلي . وطائفة أخرى من الشعراء كان همها التكسب بالشعر فهي تعرضه على كل من يبسط لها كفه بالعطاء فاذا لم تصب من الرجل ما كانت تؤمل من مال وهبات انقلبت عليه فأوسعته لوماً وذماً وهجاء شأن عبد الله ابن فضالة الأسدي مثلا ، فقد قصد ابن الزبير مستمنحاً فلما لم يظفر منه ببغيته هجاه ومدح خصومه بني أمية في أبياته التي يقول منها :

---

١ ـ انظر مثلا شرح حماسة ابي تمام ٦٦/٤ وما بعدها ، وأنساب الاشراف ١٣٥/٥ .

أزرى الحاجاتِ عند أبي خُبَيبٍ نكِدنَ ولا أُميةَ بالبلادِ
من الاعياص أو من آل حربٍ أغرّ كغرّة الفرس الجواد (١)

ولم يظفر الحزب الزبيري الا بشاعر واحد أخلص له الولاء ووقف جلّ شعره على نصرته وهو عبيد الله بن قيس الرُقيات ، وكان ابن الرقيات في نصرته الحزب الزبيري انما يمثل وجهة نظر القرشي المتعصب لقومه المؤيد لسلطانهم وحقهم في حكم سائر قبائل العرب ، المشفق على قومه ان تفرق بينهم الأهواء وتمزق شملهم المطامع فتذهب ريحهم ويشمت بهم أعداؤهم ، وقد ساءه أن ينقل بنو أمية حاضرة ملكهم الى الشام وأن يستظهروا باليمانية على اخوانهم المضرية ، كما ساءه أن يبيحوا لجند الشام من اليمانية وغيرهم انتهاك حرمة الديار المقدسة، فسخط عليهم أشد السخط ، وعبّر عن سخطه هذا في قصيدته الهمزية ، حتى انه بات يرى في قتلهم شفاء لنفسه :

أنا عنكم بني أميةَ مز ورّ وأنتم في نفسيَ الاعداءُ
إن قتلى بالطفّ قد أوجعتني كان منكم لئن ُقتلتم شِفاءُ(٢)

وقد وقف ابن الرقيات جلّ شعره على مدح مصعب بن الزبير ولازمه حتى آخر أيامه ثم توارى بعد مقتله خشية بطش بني أمية ، ثم لما أمن على نفسه وفد على عبد الملك فمدحه ومدح آل مروان في قصيدته التي يقول منها :

ما نقِموا من بني أمية الا انهم يحلمون ان غضبوا
وأنهم سادة الملوك فما تصلح إلا عليهم العربُ (٣)

---

١ ـ الاغاني ٧١/١٢ .

٢ ـ ديوان ابن الرقيات ص ١٧٠ .

٣ ـ ديوان ابن الرقيات ص ١٦٧ .

ولكن هذا المديح - على رغم انه لايناقض نزعته القبلية القرشية وينسجم مع ايمان الشاعر بفضل قريش على سائر قبائل العرب - لم يكن ينبعث من قلب ينبض بالمودة الصادقة والولاء المخلص لمدوحيه ، وذاك أمر لم يخفعلى عبد الملك ولذلك أبى أن يثيبه على مديحه بل حرمه العطاء مدة حياته (١).

والشعراء الذين أخلصوا الولاء لحزبهم السياسي دون النظر في الغالب الى الاعتبارات القبلية هم شعراء الخوارج الذين تحدثنا عنهم في كلامنا على شعراء الفرق الدينية . ونحن نلاحظ مع ذلك أن جلّ هؤلاء الشعراء كانوا ينتمون الى قبائل قوية كانت تنقم على قريش استئثارها بالامر دون سائر قبائل العرب ، كتميم وبكر والأزد ، ومن هنا لم نجد من شعراء الخوارج أحداً ينتمي الى بطن من بطون قريش .

وكذلك شأن الحزب الشيعي الذي كان يجمع كحزب الخوارج بين الصفتين السياسية والدينية ، فان الشعراء الذين ظاهروه إنما مالوا اليه لايمانهم بالمبادىء التي كان يدعو اليها ، ولم ينحازوا اليه مدفوعين بنزعتهم القبلية أو رغبة في المكاسب . وقد حدثنا ان الكميت بن زيد ، رأس شعراء الشيعة عصرئذ ، كان يأبى أن ينال من بني هاشم عطاء لقاء نصرته إياهم بشعره وأماديحه فيهم ولم يكن يقبل منهم الا ثيابهم التي تلي أجسادهم تبركاً بها(٢).

وثمة شعراء شاركوا في الفتن السياسية التي شهدها العصر الاموي ونصرها بعضهم بلسانه ونصرها آخرون بلسانهم وحسامهم ، وهؤلاء الشعراء كانوا في موقفهم السياسي هذا إنما يستجيبون في المنزلة الاولى لنزعتهم القبلية ، فالذين ظاهروا ابن الأشعث مثلاً في ثورته على بني أمية هم شعراء القبائل العراقية التي أعلنت خلافها على بني أمية وسخطها على سياستهم

---

١ - الاغاني ٧٦/٥ .

٢ - خزانة الادب ٦٩/١ .

وسياسة ولاتهم ، ونصرت ابن الأشعث رغبة في نزع سلطان أهل الشام عنهم، وفي ضوءهذهالنظرة نفسرموقف أعشىهمدان وأبيجلدة اليشكري وغيرهمامن ثورة ابن الأشعث. فأعشى همدان كان يعبّر عن سخط قبائل اليمانية بالكوفة على بني أمية المستأثرين بالحكم ومن ظاهرهم من أهل الشام ، وعن سخطهم على سياسة ولاة بني أمية الذين جاروا في الحكم ، ويظهر الأعشى اعتزازه واعتزاز قومه همدان واليمانية بالسير في ركاب رجل كابن الأشعث ينحدر من سلالة ملوك اليمن القدماء فيقول في مدحه من قصيدة له :

كم من أبٍ لك كان يعقِد تاجه	بجبينِ أبلج مِقولٍ صنديدِ
واذا دعا لعظيمة حشدت له	همدانُ تحت لوائه المعقودِ
واذا دعوت بآل كندة أجفلوا	بكهول صِدقٍ سيّدٍ ومسودِ (١)

على أن ثورة ابن الأشعث لم تكن تمثل ثورة قبائل العراق اليمانية وحدها على سلطان أهل الشام وانما كانت تمثل ثورة قبائل العراق كافة يمنيها ومضريّها وربعيّها ، ومن هنا نسمع أعشى همدان يصوّر التفاف جميع هذه القبائل حول ابن الأشعث في قوله :

سار بجمعٍ كالدبى من قحطانْ
ومن معدٍّ قد أتى ابنُ عدنانْ
بجحفلٍ جمٍّ شديد الإرنانْ
فقل لحجّاج وليٍّ الشيطانْ
يثبُت لجمعي مذحج وهمدان
والحيِّ من بكرٍ وقيسِ عيلانْ (٢)

---

١ - ديوان الاعشى والاعشين ص ٣٢٣ . الاغاني ٤٦/٦ .

٢ - ديوان الاعشى والاعشين ص ٣٤١ . الدبى : الجراد .

وقد ابلى أعشى همدان في ثورة ابن الأشعث بلاء حمل الحجاج على قتله حين ظفر به بعد إخماد الثورة وأبى أن يعفو عنه ولم تشفع له قصيدته الطويلة التي قالها في مديحه والتي حاول استدرار عطفه بواسطتها (١) .

وكان ابو جلدة اليشكري من شعراء الكوفة أيضاً كأعشى همدان ، وكان قبل خروجه مع ابن الاشعث من أخصّ الناس بالحجاج ، فلما قامت ثورة ابن الاشعث وشاركت فيها قبائل الكوفة والبصرة جميعها ، ومنها قبيلة يشكر قومه ، شارك فيها هو أيضاً انتصاراً لقومه ، وسخطاً على بني أمية وولاتهم وعلى أهل الشام ، وكان من أشد الناس تحريضاً على الحجاج . وقد انتهى الامر بمقتله كذلك في هذه الثورة . وكان يسلك في إثارة حمية الناس لقتال الحجاج مسالك شتى ، وكان من أنجع هذه السبل تخويفهم مقدم أهل الشام واستباحتهم ديارهم ونساءهم . ففي يوم الزاوية مثلاً خرج بين الصفين واقبل على أهل الكوفة فأنشدهم أبياتاً منها قوله :

فقل للحواريات يبكين غيرَنا ... ولا تبكِنا الا الكلاب النوابحُ
بكين الينا خشيةً ان تبيحها ... رماحُ النصارى والسيوفُ الجوارحُ

فلما انشدهم هذه الأبيات أنفوا وثاروا فشدّوا شدة تضعضع لها عسكر الحجاج (٢) .

ولما ظهر جند الشام أخيراً على أهل العراق عبّر عن أساه لما حلّ بأهل الكوفة بقوله :

أيا لهفي ويا حزني جميعاً ... ويا غمَّ الفؤاد لما لقينا
تركنا الدين والدنيا جميعاً ... وخلّينا الحلائل والبنينا

---

١ ـ الطبري ٥/١٨٠ الطبري ٦/٨٥ .

٢ ـ الاغاني ١١/٣١٠ . الحواريات : نساء أهل الامصار سموا بذلك لبياضهن .

فمـا كنـا أناساً أهـل ديـنٍ فنصبرَ للبـلاء اذا ابتلينـا
وما كنـا أناساً أهـل دنيـا فنمنَعهـا وان لم نرجُ دينـا
تركنـا دُورنا لطغَـام عكٍّ وأنبـاطِ القـرى والأشعرينا (١)

وما يصدق على ثورة ابن الاشعث يصدق على غيرها من الاحداث السياسية التي شهدها عصر بني أمية والتي كان موقف الشعراء منها منسجماً ــ في أغلب الاحيان ــ مع موقف قبائلهم منها ومع عاطفتهم القبلية .



---

١ ــ الاغاني ٣١٢/١١ .

الفصل الثاني

المناقضات القبليّة



تمهيـد : النزعـة القبلية في الشعر الأمـوي

في دراستنا للشعر الجاهلي وأثر العصبية القبلية فيه لاحظنا غلبة الطابع القبلي عليه ، فالشاعر لا يكاد يتحدث الا بلسان قبيلته ، وجلّ شعره كان صدى حسّه القبلي وعصبيته لقومه ، وهو يحقق مبدأ تسخير مواهب الفرد في سبيل الجماعة تحقيقاً مثالياً .

وهذه الظاهرة استمرت بعدُ في الشعر الاسلامي والاموي وظل الطـابع القبلي واضح السمات في أكثر ما تمخضت عنه قرائح الشعراء في عصر بني مروان . بيد ان النزعة الفردية أخذت كذلك تثبت أقدامها في الشعر ، ولم يعد الشاعر يقف شعره على قبيلته وحدها بل يقف جانباً منه كبيراً أو صغيراً على تغني مشاعره الذاتية وانفعالاته الفردية ، وهذا الطابع الفردي يتجلى خاصة في آثار الشعراء الذين وقفوا شعرهم على الغزل كعمر بن أبي ربيعة وجميل بن معمر . وكذلك منذ اتسع مجال التكسب بالشعر في ذلك العصر وكثر عدد الشعراء الذين احترفوا المديح خرج جانب كبير من الشعر عن نطاق الجاذبية القبلية ، فأخذت طائفة من الشعراء تسخر موهبتها الشعرية لغير الأغراض القبلية الخالصة ، وتسعى عن طريق المديح وراء منفعتها الخاصة بدلاً من السعي في صالح الجماعة التي تنتمي اليها وتنطق بلسانها . وهـذا الاتجـاه الجديد ينبئنا بأن شخصية الشاعر بدأت تنزع شيئاً فشيئاً الى الاستقلال عن شخصية الجماعة التي تنتمي اليها وأخذت تنحو نحو تحقيق ذاتها والاعراب عن مشاعرها التي تنفرد بها ، وبدأ حسّ الشاعر الفردي يتمرّد على حسه القبلي ويطالبه بحقه في التعبير – من حين الى آخر – عن خوالجه النفسية التي لا تشاركه فيها جماعته .

على أن احتدام العصبيات في ذلك العصر وانهماك القبائل في الخصومات

والفتن الناجمة عنهـا حالا دون استقلال شخصية الشاعر عـن شخصية جماعته ، ذلك الاستقلال الذي يقطع وشائج العصبية التي تربط الشاعر بعشيرته، فظل الشاعر يرى أن مهمته الاولى هي المحاماة عن قبيلته والتحدث بلسـانها والاشـادة بمناقبهـا فلا غرو أن نجـد الشعراء المندفعـين في تيار العصبية يرصدون جلّ شعرهم للأغراض القبلية ، ولا غرو أن تظـل عصبيتهم هي المصدر الاول الذي يستوحون منه معانيهم وأفكارهم ، وأن يتجلى حسهم القبلي في أكثر ما ينظمون من الشعر ، وأن يظل للشخصية القبلية سلطانها على أنفسهم حتى في الاغراض التي يفترض أن يكون الشاعر فيها مجرداً عن حسه القبلي كفن المديح .

وهكذا اذا رجعنا الى ما بين أيدينا من شعر العصر الاموي نجد الشخصية القبلية تطلّ علينا في شتى أغراضه وفنونه ، ونجد العصبية تسم أكثر هذا الشعر بميسمها . فثمة أغراض مألوفة في الشعر العربي طبعتها العصبية بطابعها كالهجاء والمناقضات والفخر والرثاء والمديح ، وثمة أغراض أخرى تتصل بالعصبية والحيـاة القبلية اتصالاً مباشراً كوصف الوقائع القبلية والتعليق على نتائجها، وكإثارة الفتن والخصومات القبلية والحضّ على الثأر، وكالدفاع عن حقوق القبيلة لدى السلطان ودعم مكانتها السياسية الاجتماعية، وكتصوير صلة الشاعر بعشيرته ، ونحو ذلك من الاغراض . وسنقف الآن وقفة مستأنية عند كل من هذه الاغراض، متقصّين معالمها البارزة وخصائصها الفنيـة .

١

المناقضات القبليــة

فن النقائض : أصوله وأغراضه

حين ننظر في هذا الهجاء القبلي الذي ورثناه عن العصر الاموي نلاحظ أن جله قد سلك سبيل النقائض ، ومردّ ذلك الى أن فن المناقضة هو المرحلة الاخيرة من مراحل تطور الهجاء القبلي ، والهجاء القبلي قد بلغ غايته من النضج الفني في عصر بني أمية ، فمن الطبيعي اذن أن يجري أكثره في ذلك العصر على طريقة النقائض .

وقد رأينا ان الوقائع القبلية كانت ترافقها مبارزات شعرية بين شعراء القبائل المحتربة يتراشقون فيها بسهام الهجاء ذياداً عن عشائرهم ويتقاذفون بحجارة الشتم والسباب ، فالهجاء القبلي لم يكن في الغالب هجاء من جانب واحد بل كان يتوافر فيه عنصر التبادل والمقابلة بالمثل ، ومن هنا غلب عليه طابع المناقضة ، فالشاعر ينقض معاني خصمه كما يردّ المقاتل الطعنة الموجهة اليه بطعنة مماثلة ، فهنا قتال ومصاولة سلاحهما الحراب والسيوف والسهام ، وهناك قتال ومصاولة سلاحهما الكلم وقوارص الأهاجي .

وليس فن المناقضة من مستحدثات العصر الاموي ، وانما هو فن جاهلي قديم انتهت الينا نماذج منه ترجع الى أوائل عصر الجاهلية الادبي وتتصل بأقدم الوقائع الجاهلية التي وصلتنا أخبارها (١) . ولكن هذا الفن كان في صورته القديمة يحمل طابع السذاجة الفنية ، ولا يكلف الشاعر مشقة في الغوص على المعاني البكر وصور الهجاء الطريفة وتقصّي المثالب القبلية ، ولم

---

١ ــ انظر مثلا الاغاني ٨٢/٩ و ٩٨/١١ وما بعدها ، ونقائض جرير والفرزدق ٤٥٥/١ .

تكتمل صورة النقائض الفنية الا في عصر بني أمية على يد فحول شعراء الهجاء الذين تألقوا فيه امثال جرير والفرزدق والاخطل وغيرهم . ومن جهة أخرى نلاحظ ان الهجاء القديم الذي التزم فيه قالب النقائض قليل بالقياس الى سائر الهجاء القبلي ، أما في عصر بني أمية فقد كاد هذا القالب أن يستأثر بجلّ الهجاء القبلي المقول فيه ، ولهذا يحق لنا القول بأن فن النقائض يوشك أن يكون فنـاً أموياً خالصاً .

وفارق كبير بين هجاء مطلق القيود ، يجري فيه الشاعر على هـواه ، لا يلتزم فيه قافية مرسومة ولا بحراً معيّناً ، ولا يأخذ الشاعر فيه نفسه بنقض معاني خصمه وصد هجماته . وبين هجاء مقيد يلتزم فيه الشاعر قالباً شعرياً مرسوماً له شروطه وقواعده الفنية ويطالب الشاعر فيه بتقصي معاني خصمه ونقضها واحداً إثر آخر . فضلاً عما يستوجبه التزام هذا القالب الفني من اجادة الصنعة الفنية واطالة القصيد والتزود بألوان من الثقافة لا غنى عنها لمن يريد خوض هذا المعترك الفني . فالاتجاه نحو النقائض هو في ذاته خطوة نحو الارتقاء بفن الهجاء القبلي ، وقالب النقائض هو خير قالب يصاغ فيه الهجاء القبلي ويتيح له استكمال صورته الفنية الممتازة .

والشروط التي يفرضها التزام قالب النقائض منها ما يمس بناء القصيدة الخارجي وموسيقاها العامة ، وهو التزام الشاعرين المتناقضين بحراً واحداً وقافية واحدة وروياً واحداً ، ومنها ما يتصل ببنائها الداخلي وهو نقض الشاعر معاني خصمه .

وفي الغالب تتفق النقيضتان في المجـرى ، فلا نحسّ أي اختلاف في موسيقاهما العامة ، وفي أحوال قليلة يضطر الشاعر الى تغيير حركة الرويّ فنحس تبايناً طفيفاً في موسيقا النقضيتين ، ومثال ذلك نقيضتا الفرزدق وجرير اللاميتان ، ففي قصيدة الفرزدق جاء الرويّ مضموماً :

إن الـذي سمك السماء بنى لنـا بيتـاً دعائمـه أعـزّ وأطـولُ

ولما أجابه جرير جعل حركة الروي الكسر بدلاً من الضم :

لمـن الديـار كأنهـا لـم تـحللِ بين الكِناس وبين طلح الأعـزلِ

وإلزام الشاعرين المتناقضين الخضوع لهذه القيود في المعاني والموسيقا يوحي بأن فن النقائض كان عندهم لوناً من المباراة الادبية يظهر فيها كل من الشاعرين المتناقضين مهارته في التغلب على خصمه ضمن قيود فنية مرسومة، وهـذه القيود من شأنها أن تسهل على المحكمين أمر المفاضلة بين النقيضتين والموازنة بينهما .

هـذا ما يدل عليه لفظ النقائض بمعناه الدقيق ، على أن له دلالة عامة وذلك حين يكتفي الشاعر بنقض معاني خصمه دون أن يلزم نفسه مجاراة قصيدته في الوزن والقافية .

والمناقضة إنما تثيرها بين الشعراء الخصومات القبلية أو الشخصية ، فهي لذلك من توابع فن الهجاء والهجاء هو الغرض الاساسي فيها ، ولكنها مع ذلك ليست هجاءً خالصاً ، وانما هي هجاء مقترن بالفخر لانها تقوم على التحدي والمنازعة في الشرف والمنافسة في المآثر ، والنقائض ليس يراد بها الى التنفيس عما تكنه الصدور من احقاد وضغائن فحسب ، وانما يراد بها أيضاً الى المطاولة والمنازعة في الشرف والفضائل ، والشاعر لا يقنع بهجاء خصومه وتحقيرهم وتجريدهم من كل منقبة فلا بد له بعد ذلك من أن يضع قبيلته بإزاء القبيلة التي يهجوها ، مفاخراً بها ومنوّهاً بمناقبها وسجاياها التي حرم منها خصومه ، فكل نقيضة في المهجوين تقابلها فضيلة في قومه ، فالبخل في مهجويه يقابله الكرم في عشيرته ، على نحو ما نجده في قول الفرزدق :

وكنا اذا نامت كليبٌ عن القِرى الى الضيف نمشي بالعبيط ونلحفُ(١)

---

١ ـ النقائض ٥٦٢/٢ .

والجبن في خصومه يقابله الشجاعة في قومه ، وكذا القول في سائر الخلال .

وهذا التلازم بين الهجاء والفخر تفسّره غلبة الروح القبلية في ذلك العصر وما كان للعصبية من سلطان على النفوس فيه ، فكل قبيلة كانت ترى لنفسها من المكانة والشرف ما ليس لغيرها ، فاذا وقع نزاع بين عشيرتين لم يكتف شعراؤهما بالتهاجي والتلاحي بل أضافوا الى ذلك عنصر الفخر وادّعى كل فريق أن قومه هم السابقون الى مراتب المجد ومراقي الفخار ، ومن هنا نرى ان اقتران الهجاء بالفخر في النقائض أمر طبيعي وهما الفرضان الرئيسيان في كل نقيضة .

بيد أن شيوع فن المديح في ذلك العصر قد جعل الشعراء يجنحون في أحوال نادرة الى إقحام المديح في بعض نقائضهم ، وكأنهم أشفقوا أن يذهب ما أنفقوا من جهد في نظم القصيدة هباء وأن لا يجنوا منها أي مغنم . أو لعلهم يريدون أن يعرضوا على الممدوح براعتهم في فن الهجاء فضلاً عن المديح ، ومنزلة الشاعر الفنية انما تقوم على إجادة هذين الغرضين معاً ، فمزجوا لذلك هجاءهم خصومهم بمديح الخلفاء والولاة والاشراف ، على تباين ما بين هذين الغرضين ، وجعلوا نقيضتهم شطرين ، شطراً يرفع به الشاعر ممدوحه الى الثريّا وشطراً ينحط به الشاعر بمهجوّه الى الحضيض . وقد لجأ الفرزدق الى مزج المديح بالهجاء والفخر في أشهر نقائضه مع جرير وهي الميمية التي قالها إثر مقتل قتيبة بن مسلم ، فقد وقف جانباً منها على مديح سليمان بن عبد الملك . وجرى على هذه الخطة أيضاً في نقائض أخرى (١) . وكذلك صنع جرير في طائفة من نقائضه ، منها نقيضته التي مطلعها :

لعلّ فراق الحيّ للبَين عامدي عشيةَ قارات الرحيل الفوارد (٢)

فقد وقف جانباً منها على مدح خالد بن عبد الله القسري ، ومدح في نقيضة أخرى هلال بن أحوز المازني (٣) .

---

١ ـ انظر النقائض ١/٣٤٢ ، ٢/١٠٠٤ .
٢ ـ النقائض ٢/٩٨٥ . القارات : صغار الجبال .
٣ ـ انظر النقائض ٢/٩٩١ .

وربما لجأ الشاعر الى المديح في بعض نقائضه استظهاراً بالممدوح على المهجوّين ، صنيعَ الاخطل في قصيدة « خف القطين » ، وهي أشهر نقائضه، فقد استهلها بمديح عبد الملك بن مروان وبني أمية ثم وصل مديحه هذا بتحذير بني أمية من زُفر بن الحارث عدوّ قومه الألدّ وتحريضهم عليه في قوله :

بني أمية إني ناصحٌ لكمُ   فلا يبيتنّ فيكم آمناً زُفَرُ
واتخذوه عدوّاً إنّ شاهده   وما تغيّب من أخلاقه دعَرُ

ثم أخذ يذكّر عبد الملك بأيادي بني تغلب عنده وقتلهم عُمير بن الحباب ليستميله الى جانبهم :

وقد نُصرتَ أميرَ المؤمنين بنا   لمّا أتاك ببطن الغوطةِ الخبرُ
يُعرّفونك رأسَ ابن الحُباب وقد   أضحى وللسيف في خيشومه أثرُ

ثم انصرف الاخطل بعد هذه المقدّمات الى هجاء قيس وبني كليب وشاعرهم جرير (١) .

وهذا اللون من المديح يظهرنا على صلة النقائض بالحياة السياسية في ذلك العصر ، فقد كان الاخطل شاعراً يحطب في حبل الحزب الاموي ويحتجّ لحقه في الحكم ويقارع خصومه وكانت نقيضته هذه من أجود القصائد التي قالها في نصرة هذا الحزب ، وهي من غرر الشعر السياسي في عصر بني مروان . فالسياسة كانت من الاغراض البارزة في فن النقائض ، وظهور الاحزاب السياسية المتعارضة في العصر الاموي قد أدّى الى التحام التناقض بين شعراء هذه المذاهب ، كلٌ يدفع عن حزبه وينتصر لمبادئه ويهجو خصومه .

١ ــ انظر نقائض جرير والاخطل ص ١٥٧ .

والخصومات السياسية كانت وراء كثير من المعارك الهجائية التي احتدم أوارها بين شعراء العصر الاموي ، ومنها المناقضات التي ثارت بين جرير والاخطل ، وبين الكميت وابن عيّاش الكلبي ، وبين شعراء المضرية واليمانية بالشام إبان فتنة الوليد بن يزيد وغيرها .

وقد يكون مزج الهجاء بالمديح له ما يسوّغه ، ولكن جريراً لجأ في احدى نقائضه الى مزج رثاء زوجه خالدة بهجاء الفرزدق وذلك في نقيضته التي مطلعها :

لولا الحياءُ لعادني استعبارُ	ولزرتُ قبركِ والحبيبُ يُزار(١)

وهو أمر لا يبدو لنا مستساغاً ولا مقبولاً لأن المرء في حالة الرثاء يكون مشغولاً بحزنه عن هجاء الناس وثلبهم ، إلا أن جريراً والفرزدق لم يكن ليشغلهما عن خصومتهما شاغل ما ، فلم يكد ينثني راجعاً بعد أن أودع امرأته مقرّها الاخير حتى مثلت في مخيلته صورة خصمه الفرزدق ، فما هو ان فرغ من رثاء زوجته والبكاء عليها حتى انصرف الى هجاء قريع العمر ، بل لقد جعل الرثاء مدخلاً للهجاء فقال :

أفأمّ حَزرةَ يا فرزدقُ عِبتمُ	غضب المليكُ عليكم القَهّارُ
كانت اذا هجر الحليل فراشها	خُزن الحديث وعفّت الأسرارُ
ليست كأمّك اذ يعض بقرطها	قَين وليس على القرون خمارُ(٢)

---

١ – انظر النقائض ٨٤٧/٢ . ومن المحتمل ان هذه النقيضة لم تنظم كلها دفعة واحدة ، وانها كانت في الاصل قصيدة رثاء في زوجه فقط ، فلما نقضها الفرزدق ونال من أم حزرة أضاف اليها جرير أبياتاً في هجاء الفرزدق ونقض قصيدته ، ومما يقوي هذا الاحتمال دفاع جرير عن امرأته في هذه القصيدة وتبرئتها مما وصمها به الفرزدق والفرزدق انما تعرض لأم حزرة في نقيضته هذه رداً على ثناء جرير عليها . وليست هذه الظاهرة – ظاهرة الاضافة الى النقيضة بعد نظمها – وقفا على هذه القصيدة وحدها ، فان ثمة دلائل تشير الى ان هناك طائفة من النقائض تجلّت فيها هذه الظاهرة ، ومنها – فيما نرجّح – نقيضة الفرزدق الميمية المشهورة .

٢ – النقائض ٨٤٩/٢ . قيل ان صائغا استدعي لينزع قرط أم الفرزدق فعض أذنها .

وعدا الاغراض التي ذكرناها تشتمل النقائض على أغراض أخرى منها وصف الوقائع التي دارت رحاها بين القبائل والتعليق على نتائجها كالاعتذار عن الهزيمة والحض على الثأر وما الى ذلك .

تلك هي الاغراض البارزة في النقائض . أما في استهلالها فقد جرى الشعراء غالباً على السنة التقليدية في الشعر وهي الوقوف على الاطلال والنسيب (١) . وقد لا يجد الشاعر في نفسه ميلاً الى التشبيب فيتسرّع الى هجاء خصمه ويبادره بالهجوم منذ مطلع القصيدة دون أن يمهد لهجائه بالنسيب أو غيره ، وأكثر ما نجد ذلك في نقائض الفرزدق ، فقد استهلّ قصيدته في هجاء الأصمّ الباهلي بقوله :

أكان الباهليّ يظنّ أني ... سأقعد لا يجاوزه سِبابي (٢)

واستهلّ نقيضة أخرى في هجاء جرير بقوله :

ودّ جريرُ اللؤم لو كان عانياً ... ولم يدنِ من زأر الأسودِ الضراغمِ (٣)

وربما عدل الشاعر عن الهجاء واستهلّ نقيضته بالفخر ، ومن ذلك قول الفرزدق في مطلع احدى نقائضه :

لا قومَ أكرمُ من تميمٍ إذ غدت ... عوذُ النساء يُسَقْنَ كالآجالِ (٤)

والمبدأ الذي يقوم عليه فن المناقضة هو تتبّع الشاعر معاني خصمه ونقضها وتفنيدها ، فاذا رمى الاول قبيلة الثاني بنقيضة عمد الناقض الى التبرؤ من وصمتها وألصقها بقبيلة خصمه ، وربما استعمل الناقض الفاظ خصمه بعينها ، فلما قال غسان السليطي يهجو بني كليب :

---

١ — انظر مثلا نقائض جرير والفرزدق ١١٠/١ — ١٢٢ — ١٥٨ و ٧٠٥/٢ — ٧٨٧ .
٢ — النقائض ١٠٢٧/٢ .
٣ — النقائض ٧١٨/٢ .
٤ — النقائض ٢٧٥/١ . وانظر أيضا النقائض ١٨١/١ — ٤٥١/١ . العوذ من النساء : اللائي معهن أولادهن . الآجال ج أجل : الفريق من البقر والظباء .

قبح الإلــــه بني كَليب إنهـــم — خُور القلوب ، أخفّةُ الأحــلام

أجــابه جــرير :

أبني ُاديرة إن فيــكم فاعلمــوا — خَورَ القلوب وخفــةَ الأحلام (١)

وقد يذكر الشاعر معايب خصومه ونقائصهم فيجيبه الناقض بتعداد نقائص في قبيلة خصمه توازي المطاعن التي ذكرها ، وتلك طريقة الموازاة والمقابلة ، ومثالها الابيات التي قالها الحكم الخضري في هجاء بني مرة :

فيا مُرّ قد أخزاكِ في كل موطن — من اللؤم خلاّتٌ يزدن على العشر
فمنهنّ ان العبد حامي ذِماركم — وبئس المحامي العبدُ عن حوزة الثغر
ومنهنّ ان لم تمسحوا وجه سابق — جوادٍ ولم تأتوا حَصاناً على طُهر

الخ ... الأبيات .

فقد نقضها ابن ميّادة فذكر ما يوازي هذه المثالب في عشيرة الحكم فقال :

لقــد سبقت بالمخزيات محاربٌ — وفازت بخلاّت على قومهــا عشر
فمنهن ان لم تعقروا ذات ذروة — لحقٍ اذا ما احتيج يوماً الى العقر

الخ ... الابيات (٢) .

وربما كانت المقابلة بالمفاخر بدلاً من المعايب ، فاذا فخر الاول بأيام قومه التي انتصروا فيها أجابه الناقض مفاخراً كذلك بأيام عشيرته ، واذا فخر الاول بالأحساب والأنساب والمآثر فاخره الناقض بنحو ذلك . فاذا فخر البعيث مثلاً بأيام قومه بني مجاشع فقال :

---

١ ــ النقائض ١٦/١ ــ ١٨ .

٢ ــ الاغاني ٢٩٨/٢ .

ونحـــن حـــدرنا طيّئاً عن بلادها | ونحـــن رددنا الحَوفزان مُكلّما
ضربنا بطونَ الخيل حتى تداركت | ذوي كلـــع والأشعثين وخثعما

أجابه جرير مفاخراً بأيام يربوع :

فهلا سألتَ الناسَ إن كنتَ جاهلاً | بأيامنـــا يابن الضروط لتعلمـــا
ويومَ أبي قابوس لم نُعطه المنى | ولكن صَدعنا البيض حتى تهزّما

الخ ... الابيات (١) .

وقد يعير الشاعر خصمه بحادثة ما فيحتال الناقض في قلب المعرّة الى منقبة ويجعلها مصدراً لفخره واعتزازه ، فلما عيّر جرير الفرزدق بنبوّ السيف في يــده (٢) أجــابه الفرزدق فجعل من ذلك مفخرة يباهي بها واعتذر عن نبوّ السيف في يده اعتذاراً لبقاً فقال :

فلا نقتــلُ الأسرى ولكن نفكّهم | اذا أثقــل الأعناقَ حمــل المغارمِ
فهل ضربةُ الروميّ جاعلةٌ لكــم | أباً عن كليبٍ أو أباً مثــل دارمِ
كذاك سيوفُ الهند تنبو ظُباتها | ويقطعن أحيــاناً مُناط التمائمِ (٣)

ومن أساليب النقض كذلك تنازع الفضائل وادّعاء كلّ من الخصمين انه

---

١ ــ النقائض ٤٥/١ ــ ٦٤ .

٢ ــ ذكر أبو عبيدة نقلا عن رؤبة بن العجاج أن سليمان بن عبد الملك حج وحجت معه الشعراء فلما كان بالمدينة تلقوه بعدد من أسرى الروم فأخذ سليمان يدفع كل أسير الى رجل ممن كانوا معه ليقتله وكان معه جرير والفرزدق أما جرير فقد دس اليه بنو عبس سيفاً ماضياً ضرب به رأس الاسير فأبانه . وأما الفرزدق فقد دفع اليه سيف كهام ضرب به رأس أسيره ضربات فلم يصنع شيئاً ، فعيَّره جرير بهذا الامر (النقائض ٣٨٣/١) .

٣ ــ النقائض ٣٨٣/١ .

أجدر بها ، ومن ذلك ادّعاء كل من جرير والفرزدق فضيلة الذياد عن تميم والمحاماة عن أحسابها (١) .

ومن أساليبه أيضاً التكذيب والنفي ، فاذا ادّعى الشاعر فضيلة لقومه جاء الناقض فدفعها عنهم وكذّب مقال خصمه ، فاذا قال الفرزدق مثلاً يفخر بقومه وعلوّ منزلتهم :

ان الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتاً دعائمه أعزّ وأطولُ

بيتاً بناه لنا المليكُ وما بنى ... حكم السماء فانه لا ينقلُ (٢)

اجابه جرير نافياً أن يكون لمجاشع هذا الشرف الذي يدعونه :

وبنى بناءك في الحضيض الأسفل ... بيتاً يُحمّم قَينكم بفنائه

أخزى الذي سمك السماءَ مجاشعاً ... دنساً مقاعدُه خبيث المدخل (٣)

وقد يذكر الشاعر مصاباً ألمّ به ويصف شدة وقعه في نفسه ، فيأتي الناقض ويسخر من مصاب خصمه ويهوّن من شأنه ويستخفّ به ، فحين ماتت خالدة زوج جرير ورثاها بقصيدته المشهورة التي يقول فيها :

لولا الحياءُ لهاجني استعبار ... ولزرت قبرك والحبيب يُزارُ

ولقد نظرت وما تمتع نظرةٍ ... في اللحدِ حيث تمكَن المِحفارُ

كانت مكرّمةَ العشيرِ ولم يكن ... يخشى غوائلَ أمّ حزرةَ جارُ

صلى الملائكة الذين تُخُيّروا ... والصالحون عليك والابرارُ (٤)

---

١ ـ انظر النقائض ١/١٢٨ ـ ١٦١ .

٢ ـ النقائض ١/١٨١ .

٣ ـ النقائض ١/١٨١ و ١/٢١٣ .

٤ ـ النقائض ٢/٨٤٧ .

جاء الفرزدق ونقض قصيدة جرير هذه فسخر من مصابه الذي ألمّ به ورمى المتوفاة بكل فاحشة ولم يمنعه موتها من هجائها أقبح هجاء ، ونعى على جرير بكاءه عليها وإلمامه بقبرها ، ومن قوله في ذلك :

قال الملائكة الذين تخيّروا	والمصطَفون لدينه الاخيارُ
أبكى الأله على نبيثةَ من بكى	جَدفاً ينوح على صداه حمارُ
كانت منافقةَ الحياةِ وموتُها	خِزيٌ علانية عليك وعارُ
تبكي على امرأة وعندك مثلها	قعساءُ ليس لها عليك خِمارُ
إن الزيارة في الحياة ولا أرى	ميتاً اذا دخل القبور يُزارُ[1]

ويطول بنا القول اذا شئنا تقصي سائر طرق نقض المعاني فيما انتهى الينا من نقائض العصر الاموي وما أوردناه يكفي لبيان أبرز أساليب النقض التي اتبعها الشعراء عصرئذ .

أما الخصائص الفنية التي تتجلى في فن النقائض فانها لا تختلف عن خصائص الفنون التي تشتمل عليها هذه النقائض ، وفن الهجاء خاصة ، الا فيما يتوافر فيها من إحكام الصنعة الفنية والاتكاء على الجدل والمناظرة واستقصاء المثالب والمفاخر واطالة القصيد ، وقد انتهينا الى أن فن النقائض هو المرحلة الاخيرة من مراحل الهجاء القبلي والصورة المكتملة لهذا الفن .

ونحن اذا تقصينا الدوافع التي قيلت بسببها النقائض الاموية وجدنا جُلّها يرجع الى العصبيات والخصومات القبلية التي استعرت نارها عصرئذ، وحتى حين تكون الدوافع شخصية لا تلبث أن تتحوّل الى نقائض قبلية

---

١ ــ النقائض ٨٧٣/٢ ، النبيثة : ما نبش من تراب القبر .

لتعرّض كلٍ من الشاعرين المتناقضين الى قبيلة خصمه وعمّها بهجائه ، ومن هنا أوشك فن النقائض أن يكون فناً قبلياً خالصاً . ونحن لن نتحدث هنا الا عن المناقضات القبلية ولن نقف عند النقائض القليلة ذات الطابع الفردي المحض كنقائض هُدبة بن خشرم العُذري وزيادة بن زيد الرقاشي (١) ، ونقائض حارثة بن بدر الغُداني وأنَس بن زُنيم الليثي (٢) ونقائض أبي جلدة اليشكري وقتادة بن مُغرب اليشكري (٣) .

***

١ ـ انظر خبرها في الاغاني ٢١/٢٦٤ .
٢ ـ انظر الاغاني ٢١/٢٢ .
٣ ـ انظر الاغاني ١١/٣٢٦ .

١

المناقضات في نطـاق العصبيات الكبرى

تمثل هذه المناقضات العصبية القبلية في أوسع مداها، وهي العصبيةبين العدنانية والقحطانية ، كما تمثّل العصبيات الواسعة في نطاق الجذم الواحد ، وهي التي كانت بين الربعية والمضرية ، وقـد رأينا ربيعة تقف في كثير من المناسبات الى جانب اليمن وتحالفها على أختها مضر .

وجلّ هذه المناقضات يتصل بالحروب والفتن القبلية التي شهدها العصر الاموي ، فكان النزاع اللساني يمهّد للنزاع الحربي ويحرّض عليه ، فاذا نشب النزاع الحربي نشبمعه في الوقت عينه نزاع مماثل بين شعراء الفريقين وتقارعوا بسهام القول ، وبعد انطفاء جذوة الفتنة وهدوء القتال يظلّ الصراع قائماً بين شعراء الفريقين : يندبون القتلى ، ويعلّقون على نتائج الموقعة ، ويمهّدون الجو لوقائع مقبلة ، وربما وجـدنا أبطال النزاع الحربي أنفسهم يشاركون في النزاع اللساني اذا توافرت لهم الموهبة الشعرية .

وكثير من هـذه المناقضات ، ولا سيما تلك التي كانت بين النزاريـة والقحطانية، أثارته الخصومات والأهواء السياسية. وقد رأينا هذه التيارات السياسية تلعب دوراً كبيراً في إثارة العصبيات ونشوب الفتن القبلية عصرئذ.

آ ـ المناقضات بين نزار واليمن

كانت وقعة مرج راهط الشرارة الاولى التي أشعلت نار العداوة المباشرة بين مضرية الشام التي كانت تمثلها قبيلة قيس ، وبين القبائل اليمنية فيها ، وكثرتها من كلب. فعلى أثر هزيمة قيس في تلكالموقعة اضطر زفر بن الحارث،

سيد قيس ، أن يلجأ الى قرقيسياء ، وضوت اليه القيسية ، فلما استقر به المقام هناك أخذ يقول الشعر في التعليق على هذه الموقعة ، ومن ذلك قصيدة له يعبّر فيها عن شعوره العدائي إزاء كلب وبني مروان ، ويعتذر فيها عن هزيمة قيس ، ويتوعد كلباً وسائر اليمانية بلقاء بينهما قريب تثأر فيه قيس لهزيمتها يوم المرج ، ومنها قوله :

لعمري لقد أبقت وقيعةُ راهطٍ لمَروانَ صَدعاً بيننا متنائيا
أتذهب كلبٌ لم تنلها رماحنا ويُترك قتلى راهطٍ هي ماهيا
فقد ينبتُ المرعى على دِمن الثرى وتبقى حزازاتُ الصدور كما هيا
فلاصُلحَ حتى تَنْحِطَ الخيل بالقنا وتثأر من نسوان كلبٍ نسائيا
ألا ليت شعري هل تصيبنّ غارتي تَنوخاً وحيّيْ طيّءٍ من شفائيا(١)

فلما بلغت هذه القصيدة أسماع كلب واليمانية بادر شعراؤهما الى نقضها ، ومن هؤلاء جوّاس بن القعطل الكلبي الذي أجاب زفر بنقيضة يُظهر فيها شماتته بما أصاب قيساً يوم المرج ويهجو زفر وقومه ثم يفخر بقبيلته كلب ومنها قوله :

لعمري لقد أبقت وقيعةُ راهطٍ على زُفرٍ داءً من الداء باقيا
تُبكي على قتلى سُليمٍ وعامر وذبيانَ معذوراً وتُبكي البواكيا
دعا بسلاح ثم أحجم إذ رأى سيوف جناب والطِوالَ المَذاكيا
عليها كأسدِ الغاب فتيانُ نجدةٍ اذا شرعوا نحو الطِعان العواليا(٢)

وقد شارك في هذه المعركة اللسانية التي نشبت في أعقاب مرج راهط شعراء كثيرون من الجانبين غير زفر وابن القعطل ومنهم عمرو بن مخلاة الكلبي وعبد

١ ـ الطبري ٤/٤١٨ . الاغاني ١٧/١١١ (ساسي) .
٢ ـ الطبري ٤/٤١٨ وما بعدها . الاغاني ١٧/١١١ وما بعدها . بنو جناب : بطن من كلب . وفي الاغاني أن الابيات لابن مخلاة .

الرحمن بن الحكم وأخوه مروان ومَعبد الكلابي (١) ، ومن ذلك قول عمرو بن مخلاة يذكر يوم المرج وهزيمة قيس ويفخر بقومه :

ويوم ترى الرايات فيه كأنها عوائفُ طيرٍ مستديرٌ وواقعُ
فمن يكُ قد لاقى من المرج غبطةً فكان لقيسٍ فيه خاصٍ وجادعُ
فلن يَنصَب القيسيّ للناس رايةً من الدهر الا وهو خزيانُ خاشعُ
ولما زحفنا بالصفوف فأقبلوا إلينا فقلنا اليوم ما حُمَّ واقعُ
وقلنا سلوا الاقوام عنا وعنكم عن الدينِ والاحساب كيف نماصعُ(٢)

فأجابه زفربن الحارث بقصيدة ينقض فيها أبياته هذه ويفخر عليه بالرابطة المضرية التي تجمع بين قبيلة قيس وقريش ويعيّره الانقياد لبني أمية، فقبيلة كلب لا مفر لها من أن تدين بالطاعة لهم أو لقريش إخوتهم في النسب العدناني:

فخرتَ ابنَ مخلاة الحمار بمشهدٍ علاك به في المرج من لا تدافعُ
علاكَ به قومٌ كأنك وسطهم اذا الحرب شبت ثعلبٌ متظالعُ
فإن نكُ نازعنا قُريشاً فانهم أخونا ومولانا الذين ننازعُ
فأيّ قبيلَينا وأمّك ما يكنْ له المُلكُ تتبعه وخدك ضارعُ(٣)

وما لبثت قيس أن شنّت غاراتها الانتقامية على من كان يجاورها من كلب البادية ، وتوالت الغارات والوقائع بينهما ، فاحتدمت المعركة اللسانية بين شعراء الفريقين واتصلت المناقضات والأهاجي بينهما ، وشارك في هذه الملحمة

---

١ ــ انظر أنساب الاشراف ١٢٨/٥ وما بعدها . والطبري ٤١٥/٤ وما بعدها . والاغاني ١١١/١٧ ومروج الذهب ٨٤/٢ . ونقائض جرير والاخطل ص ١٨ وما بعدها .
٢ ــ نقائض جرير والاخطل ص ١٧ ، نماصع : نضارب .
٣ ــ نقائض جرير والاخطل ص ١٩ .

شعراء كثر ، فمن شعراء اليمانية الذين شاركوا فيها عمرو بن مخلاة ، وابن القعطل ، وهند الجلاحية ، وعميرة بنت حسان الكلبية ، وسنان بن جابر الجهني ، ومن شعراء قيس زفر بن الحارث وعنويف القوافي وعليّ بن الغدير الغنوي وعمير بن الحباب السُلمي وأرطاة بن سُهيّة والراعي النميري وغيرهم .

ومن ذلك ما قيل على أثر وقعة الاكليل التي أوقع فيها عمير بن الحباب بكلب ، فقد قالت هند الجُلاحية أبياتاً ترثي بها قتلى قومها وتحرّض كلباً على الثأر ومنها :

ألا هل ثائرٌ بدماء قوم أصابهم عمير بن الحبابِ
فان لم يثأروا مَن قد اصابوا فكانوا أعبداً لبني كلابِ

فلما التقوا بعدئذ هزمهم عمير وأكثر فيهم القتل ثم قال يجيب هنداً على أبياتها:

ألا يا هندُ هند بني الجلاح سُقيتِ الغيث من قُلل السَحاب
الا يا هند لو عاينتِ يوماً لقومك لامتنعتِ عن الشرابِ
غداةَ ندوسهم بالخيل حتى أباد القتلُ حيَّ بني جنابِ
ولو عطفت مواساةٌ حُمَيداً لغودر شِلوه جزر الذئابِ (١)

وما لبثت قيس أن شغلت عن كلب بقتال بني تغلب فهدأت الخصومة بين شعراء نزار واليمن بالشام الى حين وتوقفت المناقضات بينهما أو كادت .

***

بيد أن نزاعاً شعرياً مماثلاً كان قد ثار في العراق عقب وفاة يزيد بن معاوية

١ ـ الاغاني ١١٨/٢٠ .

واضطراب أمور الدولة بسبب النزاع على الحكم وثارت المناقضات والأهاجي بين شعراء مضر من جانب ، وشعراء اليمن وربيعة من جانب آخر ، وكان مقتل مسعود بن عمرو المحرّك الاول لهذه المعركة الشعرية ، فقد استغلّ شعراء تميم ومن ظاهرهم هذا الامر لهجاء الازد وتحقير شأنهم والاستخفاف بحلفهم مع ربيعة وتعيير ربيعة بفرار أشيم وابن مسمع ومن ذلك قول الفرزدق مثلاً يشير الى فرار أشيم بن شقيق ومقتل مسعود :

لو أنّ أشيمَ لم يسبِقْ أسنّتنا ... وأخطأ الباب إذ نيراننا تَقِدُ
إذاً لوافق مسعوداً وصاحبه ... وقد تهافتت الاعفاجُ والكبدُ (١)

وأجاب شعراء الأزد وربيعة على هذه الأهاجي بمثلها وعيّروا بني تميم بدفع دية مسعود عشر ديات وباهدار دماء قتلاهم ومن هذا قول عمرو بن دراك العبدي :

قتلنا بقتلى الازد مثنى وضوعفت ... دياتٌ واهدرنا دماء تميمِ
بعشرِ ديات لابن عمرو توفيت ... عياناً ولم تُجعل ضَمانَ نجومِ
نزلتم على حكم الأغر ابن مِسمع ... على حكم طلاب التِرات غَشومِ (٢)

وقد شارك في هذه المعركة عدد ضخم من شعراء نزار واليمن وربيعة في طليعتهم الفرزدق وجرير كما شارك فيها رجّاز الفريقين ومنهم العجّاج التميمي وأبو النجم العجلي والقلاخ العنبري والقُحيف العنبري وغطفان بن أُنيف الكعبي التميمي ووافد بن خليفة المِنقري (٣) .

---

١ ــ الطبري ٤٠١/٤ . ديوان الفرزدق ص ١٩٣ . الاعفاج ، ج عفج : الامعاء .
٢ ــ انساب الاشراف ١١٥/٤ .
٣ ــ انظر ما قاله شعراء الفريقين ورجّازهم في الطبري ٣٨٧/٤ وما بعدها . وأنساب الاشراف ٩٨/٤ وما بعدها ، ونقائض جرير والفرزدق ١١٢/١ وما بعدها . والكامل للمبرد ٨١/١ وما بعدها ، ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٢١٠/٢٢٦ .

ثم ثار النزاع بأخرة بين نزار واليمن في الشام والعراق من جراء عصبية خلفاء بني أمية وانحيازهم الى قبيلة دون أخرى ، وكان للشعراء نصيب في إيقاد نار الفتنة بين الفريقين، وكان الناطق بلسان شعراء نزار إبان هذا النزاع شاعراً كوفياً هو الكُميت الأسدي ، وقد وقع التلاحي بينه وبين الشاعر الكلبي الشامي حكيم بن عياش المعروف بالأعور الكلبي ، وقال الكميت إبان هذه المعركة قصيدته المشهورة في هجاء اليمن والتي مطلعها :

الا حُيّيتِ عنــا يا مدينــا وهــل باسٌ نقــولُ مسلّمينــا

ولم يصل الينا من هذه القصيدة إلا أبيات متفرقة وقد ذكروا انهــا تناهز ثلاثمائة بيت وانه لم يترك فيها حياً من أحياء اليمن إلا هجاهم(١) . وقــد اختلفوا في بيان الدوافع الى قول هذه القصيدة ، فذكر المسعودي انه قالهــا لغرض سياسي هو إثارة الفتنة بالعراق لافساح المجال أمام الشيعة لاعــلان ثورتهم على الحكم الاموي ، وان الذي دفعه الى قولها عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر (٢) . وذهب آخرون الى أن دافعها قبلي لا سياسي فروى أبو الفرج ان حكيم بن عياش كان ولعاً بهجاء مضر ، فكانت شعراء مضر تهجوه فلا تصيب منه مقتلاً ، وكان الكميت يرقب عن كثب هذه المعركة الهجائية ويتحامى خوضها خوفاً من بطش خالد القسري ، امير العراق يومئذ من قبل هشام، على أن شعراء مضر استطاعوا أخيراً إثارته على ابن‌عياش حين أسمعوه ما قاله في نساء نزار من الهجاء الفاحش ، فقال حينئذ قصيدته هذه ولجّ التهاجي بينه وبين ابن عياش(٣). وقد تعرض الكميت في قصيدته هذه لخالد

---

١ ــ الاغاني ١١٥/١٥ (ساسي) . خزانة الادب للبغدادي ٨٦/١ . وقد أورد أبو الفرج أبياتاً من هذه القصيدة في هجاء خالد القسري ، كما أورد البغدادي طائفة من أبياتها ، وكذلك أورد المسعودي جانبا منها في مروج الذهب ؟ ١٥٣/٢ ! . وأورد ابن قتيبة بعض أبياتها في كتاب المعــاني الكبير .

٢ ــ مروج الذهب ١٥٥/٢ .

٣ ــ الاغاني ١١٢/١٥ .

القسري المعروف بتعصبه على النزارية وعرّض بنسبه وعشيرته ومن قوله فيه:

ومن عجبٍ، بجيلَ لعمرِ، أمّ غَذتكِ وغيرها تتأمّمينا
تجاوزت المياه بلا دليلٍ ولا علمٍ تعسفَ مخطئينا
فانك والتحوّل من معدٍّ كهَيْلةَ قبلنا والحالبينا
تخطّت خيرهم حَلَباً وبساً الى الوالي المغادرها ذَنينا
كعنز السوءِ تنطح عالفيها وترميها عصيّ الذابحينا (١)

وقد تعرّض الكميت بسبب قصيدته هذه لغضب خالد القسري فسجنه ثم احتال في الهرب من محبسه وقدم الشام فاستجار بقريش فأخذوا له أماناً من هشام (٢) .

وقد نقض ابن عيّاش قصيدة الكميت هذه، على اننا لم نقف من نقيضته الا على أبيات متفرقة منها قوله :

سقيناهم دماءَهم فسالت فأبررنا اليه مُقسمينا (٣)

وكذلك نقض هذه القصيدة شعراء آخرون من اليمن لا في العصر الاموي فحسب بل في العصر العباسي أيضاً ، وكان ممن تصدّى لنقضها دعبل الخزاعي ، على رغم رابطة التشيع التي كانت تصله بالكميت (٤) . وهذا يظهرنا على ما كان لهذه القصيدة من أثر في إيقاد نار العصبية بين العدنانية والقحطانية .

---

١ ــ الاغاني ١١٢/١٥ ، والتصويب من لسان العرب مادة « أمم » . تأمم : اتخذها أماً . هيلة : عنز كانت تنطح من يطعمها فضرب المثل بها . الذنين : الضعيف الهالك ، يشير بهذه الابيات الى ما يقال من أن قبيلة بجيلة معدّية الاصل وانها تحولت الى اليمن وانتمت الى انمار بن اراش .

٢ ــ الاغاني ١١٠/١٥ .

٣ ــ لسان العرب مادة « برر » .

٤ ــ مروج الذهب ١٥٥/٢ .

وبلغت هذه المعركة بين شعراء النزارية واليمانية أشدّها إبان حكم الوليد الثاني وبعد مقتله ، فقد رأينا الوليد يثير عليه سخط اليمانية بتعصبه لقيس ونزار وقتله خالداً القسريّ ، فلما دعاهم يزيد بن الوليد الى الثورة بابن عمه الخليفة لبّوا دعوته سراعاً وانتهى الامر بقتلهم الوليد . وقد نسب الى الوليد الثاني قصيدة يهجو فيما اليمن ويتحداهم ويحقّر من شأنهم ويفاخر بالنزارية ، وقيل ان هذه القصيدة كان لها يد في إثارة عصبية اليمانية على الوليد ، وانها كانت من أسباب ثورتهم عليه، اذ انه يتحداهم فيها أن ينتصروا لخالد ان كانوا ذوي عز ومنعة فيقول :

وهذا خالدٌ فينا قتيلا ألا منعوه إن كانوا رجالا
ولو كانت بنو قحطان عرباً لما ذهبت صنائعه ضَلالا
ولكن المذلّة ضعضعتهم فلم يجدوا لذلّتهم مقالا (١)

فلما بلغت هذه القصيدة مسامع شعراء اليمانية بادروا الى نقضها ، وكان ممن نقضها عِمران بن هلباء الكلبي فقال قصيدة يذكر فيها الوقائع التي انتصرت فيها اليمانية على النزارية ، كموقعة مرج راهط ، ويفخر فيها باليمانية عامة ، وبأسرهم المشهورة كآل الأشعث وآل المهلب ، ويتوعد فيها نزاراً بالثأر لمقتل خالد ، ومنها :

جعلنا للقبائل من نزارٍ غداةَ المرج أياماً طِوالا
بنا ملك الملك من قريش وأودى جَدّ من أودى فزالا
متى تلقَ السكونَ وتلق كلباً بعبسٍ تخش من ملك زوالا
سنبكي خالداً بمهنداتٍ ولا تذهبْ صنائعه ضلالا
ستلقى إن بقيت مسوّماتٍ عوابسَ لا يُزايلن الحِلالا (٢)

---

١ ـ الاخبار الطوال ٣٤٨/١ .

٢ ـ الطبري ٥٤٢/٥ . الحِلال ج حلة : الجماعة من البيوت .

وقد شارك عدد ضخم من شعراء النزارية واليمانية في هذه المعركة اللسانية التي احتدم أوارها إثر هياج العصبيات على نطاق واسع بين هذين الجذمين في أواخر العصر الأموي ، وامتد ميدان هذه المعركة من الشام الى العراق وخراسان .

مناقضات الطرماح والفرزدق

ومن المناقضات المشهورة التي ثارت بين شعراء نزار وقحطان تلك التي ثارت بين الطرماح الطائي والفرزدق التميمي. ونحن نرجح ان الخصومة التي ثارت بين هذين الشاعرين مردّها الى الأحداث القبلية التي شهدتها العراق في زمنهما ، لأننا لم نجد في أخبارهما ما يشير الى نشوب خصومة شخصية بينهما ، أو خصومة قبلية مباشرة بين عشيرتيهما ، فضلاً عن أن الشاعرين كانا مختلفين داراً ، فالفرزدق بصري ، والطرماح شامي المنشأ كوفي الديار ، ولكن الشاعرين عرفا بشدة عصبيتهما لقومهما . ويحتمل أن يكون الطرماح ثار على الفرزدق حين سمعه يهجو الأزد وقحطان في بعض ما هجاهم به ، ولذلك وجدناه يفخر بذوده عن أحساب قحطان فيقول :

أذبّب عن احساب قحطانَ إنني   انا ابنُ بني بطحائها حيث حلّتِ (١)

والمناقضات التي قامت بينهما تتسم بطابع قبليّ واضح ، بل ان كلاً منهما لم يكن يقنع بهجاء عشيرة خصمه وانما كان يعم بهجائه الجذم الذي تنتمي اليه كله ، فكان الفرزدق يهجو اليمن عامة والطرماح يهجو نزاراً برمّتها . وفي احدى هذه النقائض نجد الفرزدق يصب وابل هجائه على قبيلة طيء ويتهمها بفساد العقيدة وكتمان النصرانية دينها القديم ويتعرض لنساء طيء فيرميهنّ بكل فاحشة ثم يفخر على الطرماح بمصرع الأزد اليمانية على يد بني تميم بقندابيل فيقول :

---

١ ــ ديوان الطرماح ص ١٣٩ .

لقد هتك العبدُ الطِرماحُ ستره — وأصلى بنارٍ قومه فتصلّتِ
ولولا حِذارٌ أن تقتّل طيىء — لما سجدت لله يوماً وصلتِ
نصارى وأنباط يؤدّون جزيةً — سِراعاً بها جمزاً اذا هي أهلتِ
أتذكر شأن الازد ما انت منهم — وما لقيت منا عمانٌ وذلتِ
قتلناهم حتى أبرنا شريدهم — وقد سُبيت نسوانهم واستُحلتِ
نسيتم بقِنِدابيل يوماً مذكراً — شهيراً وقتلى الازدِ بالقاع جُرتِ
ولو أن عصفوراً يمدّ جناحه — على طيءٍ في دارها لاستظلتِ (١)

ويجيبه الطرّماح فيحقّر شأن بني تميم ويعيّرها خضوعها لابن المهلب ويفتخر بطيء وقحطان كافة وأيامها وفضلها في تثبيت قواعد الدين والدولة الاسلامية فيقول :

بأي بلادٍ تطلب العز بعدما — بمولدها هانت تميم وذلتِ
أقرت تميمٌ لابن دحمة حُكمه — وكانت اذا سيمت هواناً أقرتِ
وكانت تميم وسطَ قحطان اذسمت — كمقذوفةٍ في اليم ليلا فضلت
ونجاك من أسد العراق كتائبٌ — لقحطانَ اهل الشام يوم استهلتِ
بهم ينصر الله الخليفة كلما — رأوا نعل صنديد عن الحق زلتِ
بهم نصر الله النبي وأثبتت — عُرى عقدِ الاسلام حتى استمرتِ

١ ـ ديوان الفرزدق ص ١٣٥ . الجمز : الوثب . قنابيل : الموضع الذي اوقع فيه هلال بن أحوز المازني بفلول آل المهلب بعد اخفاق ثورتهم بالبصرة .

فخرتَ بيوم العَقر شرقي بابلٍ	وقد جَبُنت فيــه تميمٌ وذلّت
تميمٌ بطرق اللؤمِ أهدى من القطا	ولو سلكت طرق المكارم ضلتِ (١)

***

وعلى رغم ما كان بين قبيلتي ربيعة والأزد من أواصر الحلف في العــراق وخراسان لم يكن الصفاء بينهما يخلو من بعض ما يعكره من حين الى آخر . فقد وقع الشر بين قبيلة عبــد القيس الربعية وقبيلة الأزد بخراسان أيام المهلب بن أبي صفرة ، ولجّ من جراء ذلك التلاحي بين **زياد الأعجم** ، شاعر عبد القيس ، **وكعب الأشقري** شاعر الأزد ، حتى أطفأ المهلب نار الفتنة بين القبيلتين وتحمّل ديات القتلى (٢) . وقد أورد أبو الفرج نماذج من تهاجي هذين الشاعرين ، ومما قاله كعب في هجاء عبد القيس وشاعرها :

لعلّ عُبيدَ القيس تحسِبُ أنهــا	كتغلبَ في يوم الحفيظةِ او بكر
يضعضع عبدَ القيس في الناس منصب	دنيء واحساب ُجبِرن على كسرِ
اذا شاع امر الناس وانشقت العصا	فإن لكَيزاً لا َتريش ولا تبري (٣)

فنقض زياد هذه الأبيات بقصيدة منها قوله :

اذا عذب الله الرجــال بشعرهم	أمنت لكعب ان ُيعذّب بالشعرِ (٤)

---

١ ــ ديوان الطرماح ص ١٣٩ . ابن دحمة : يزيد بن المهلب . يوم العقر : يوم هزيمة ابن المهلب .

٢ ــ الاغاني ٢٨٧/١٤ و ٣٩٣/١٥ .

٣ ــ الاغاني ٢٨٨/١٤ .

٤ ــ الاغاني ٣٩٣/١٥ .

وقد تناول كل من الشاعرين معايب قبيلة خصمه وما تعيّر به ، وكانت نقائضهما قبلية خالصة تمثل ولاء كل منهما لعشيرته . على أن كعباً لم يكن نداً لمقارعة زياد فما لبث أن ظهر عليه خصمه حتى اضطر أن يشكوه الى **المهلب** ، راجياً أن ينتصر له ولقومه وهو سيدهم وحاميهم ، ولكن المهلب كان يعرف لزياد مكانته الشعرية وشفعت له مدائحه فيه فلم يغضت لهجائه قومه الأزد واكتفى باصلاح ما بين الشاعرين فتكافا وانقطع التهاجي بينهما (١).

وبسبب الخصومات السياسية ونشوب الحرب بين المهلب والخوارج ، تهاجى **ابن الكوّاء** اليشكري **وثابت قطنة** الأزدي، واتصل هجاؤهما بعشيرتيهما فكان ابن الكواء يهجو المهلب والأزد كافة ، وثابت قطنة يهجو ابن الكوّاء ويشكر عامة (٢) .

وثمة مناقضات أخرى بين شعراء نزار واليمن لم تكن دوافعها قبلية بل شخصية ، ولكن هذه المناقضات ما لبثت أن اتسمت بالطابع القبلي بسبب شيوع العصبية وارتباط الشاعر بقومه وتعصب القبيلة لشعرائها . وقد ذكرنا قبلُ أن الشاعر لم يكن يكتفي بهجاء خصمه بل كان يعمّ عشيرته كلها بهجائه وسرعان مايتحول الهجاء بين الشاعرين الى هجاء قبلي مرتبط بأسباب العصبية ونوازعها .

١ ــ فقد وقع شر بين عبد الرحمن بن **حسان بن ثابت** الأنصاري ، **وعبد الرحمن بن الحكم** الأموي بسبب تعرّض حسان لامرأة ابن الحكم ، وكانا قبل ذلك خِلّين متصافيين ، فلجّ التهاجي بينهما واتصلت نقائضهما. وما لبث أن شارك في خصومتهما شعراء آخرون منهم أبو واسع الأسدي ومسكين الدارمي والأخطل ، وما لبثت المعركة الشخصية أن تحولت الى معركة قبلية . وكان

---

١ ــ الاغاني ١٤/٢٨٨ .

٢ ــ الاغاني ١٤/٢٧٦ .

ابن حسان يتناول آل الحكم بهجائه ويعمّ به قريشاً كلها ، ويجيبه ابن الحكم بهجاء الخزرج والانصار كافة ، فلما كثر التهاجي بينهما وأفحشا وتعرضا للمحصنات أمر معاوية عامله على المدينة أن يضرب كلاً منهما مائة سوط .

وقد أورد أبو الفرج جانباً مما تناقضا به (١). ولما ظهر ابن حسان على خصمه استعان ابن الحكم بنفر من شعراء نزار من أصحابه ، ومنهم الأخطل ومسكين الدارمي ، فهجا الاخطل ابن حسان وعمّ بهجائه الانصار ، وقد حرّضه على ذلك يزيد بن معاوية انتصاراً لابن الحكم ،وقال بهذا الصدد قصيدته المشهورة التي هجا فيها الانصار ومنها قوله :

لعن الإلـــهُ من اليهـود عصابةً	بالجزع بـين ُجلاجـلٍ وصِرارِ
قوم اذا هـدر العصـير رأيتهم	ُحمراً عيـو ُنهم كجمـر النـارِ
ذهبت قريشٌ بالمكـارم والعـلى	واللؤمُ تحت عمـائم الانصارِ (٢)

فلما بلغت هذه القصيدة مسامع الانصار هاجوا وغضبوا ودخلوا على معاوية ثائرين متوعدين فأرضاهم معاوية بأن وعدهم بقطع لسان الاخطل ، وقد نقض النعمان بن بشير ، سيد الانصار ، قصيدة الاخطل بأبيات يهجو فيها الاخطل وقومه ومنها :

أبلغ قبـائل تغلبَ ابنـة وائلٍ	َمن بالفـرات وجـانب الثرثـارِ
فاللؤم بـين أنوف تغلبَ بيّـنٌ	كالرقم فوقَ ذراعِ كل حمـارِ (٣)

---

١ ـ انظر الاغاني ١١٥/١٥ .

٢ ـ ديوان الاخطل ص ٣١٤ .

٣ ـ الاغاني ١١٩/١٥ .

وكذلك وجّه مسكين الدارمي الى ابن حسان قصيدة يتحدّاه فيها ويرمي قفازه في وجهه داعياً إياه الى المفاخرة والمنافرة وأولها :

الا إن الشبـاب ثيـابُ لُبسٍ　　　　وما الامـوالُ الا كالظـلالِ

وقد ذكـر أبو الفرج ان القصيدة طويلة جداً وأنه ملأها بذكر مفاخر بني تميم ، فأجابه ابن حسان بقصيدة أطول منها يناقضه فيها ويدعوه الى المناضلة والمناجزة ومنها :

أتاني عنـك يا مسكـين قـولٌ　　　　بذلت النِصفَ فيـه غـيرَ آلِ
دعوتَ الى التناضل غيرَ قَحـمٍ　　　　ولا غمرٍ يطـير لدى النضالِ (١)

٢ ـ ومن هذا القبيل أيضاً مناقضة **جرير وسراقة البارقي** ، شاعر أزد الكوفة . وقـد ثارت الخصومة بينهما بسبب إغراء بشر بن مروان سراقة بهجاء جـرير وتفضيل الفرزدق عليه ، وكان إغراء الشعراء بعضهم ببعض هجّيراه وديدنه . ويبدو أن هوى بشر كان مع الفرزدق لأماديحه فيه ، ومن هنا وجدناه يحرّض الشعراء على تفضيل الفرزدق ، وممن حرّضهم على ذلك سراقة البارقي فقال أبياتاً يفضّل فيها الفرزدق على جرير (٢)، وتذهب رواية أخرى الى أن الذي حرّض سراقة على تفضيل الفرزدق هو محمد بن عمير بن عطارد لا بشر ، فقـد بذل أربعة آلاف درهم وفرساً لمن فضل من الشعراء الفرزدق على جرير ، فلم يقدم على هذا الامر إلا سراقة فانه قال يفضل الفرزدق من قصيدة :

أبلـغ تميمـاً غثهـا وسمينَهـا　　　　والحكمُ يقصِد مـرّة ويجـورُ
ان الفـرزدق برّزت أعراقُـه　　　　سبقاً وخلّف في الغبـار جريرُ

---

١ ـ الاغاني ١٥/٢٨٨ .
٢ ـ طبقات ابن سلام ٣٧٧ .

ذهب الفرزدق بالفضائل والعلا ... وابن المراغة مُخلَف محسورُ
هذا قضاء البارقي وإنني ... بالميل في ميزانهم لبصيرُ (١)

وما كاد سراقة يقول أبياته هذه حتى بادر بشر بارسالها الى جرير ، وهو يومئذ بالمرّوت من البادية ، وأمره أن يجيب عليها ، ولم يكن جرير يحتاج الى من يأمره بذلك، فلم يكن ليغضي على تحرش الشعراء به، وما لبث رسول بشر أن عاد اليه يحمل جواب جرير على أبيات سراقة ، وهي قصيدة طويلة وقف طرفاً منها على مديح بشر وتوجيه عتب رفيق اليه لأنه لم ينتصر له فقال :

يا بشرُ حَقَّ لوجهك التبشيرُ ... هلاّ غضبتَ لنا وانتَ اميرُ
قد كان حقك ان تقول لبارقٍ ... يا آلَ بارق فيمَ سُبَّ جريرُ

ثم انصرف الى هجاء سراقة وقومه بارق هجاء موجعاً وفخر عليه بخِندف وقرن سراقة بصاحبيه الفرزدق والاخطل ومن ذلك قوله :

انصرت قينَ بني قُفَيرة مُحلِباً ... أسُراقُ ليس لبارقَ التخييرُ
أسراق إنك قد تُركت مُخلَفاً ... وغبارُ عثيرها عليك يثورُ
تؤتى الكرام مُهورهنَّ سياقةً ... ونساءُ بارقَ ما لهنَّ مُهورُ
إن الملامةَ والمذلة فاعلموا ... قَدَرٌ لاول بارقٍ مقدورُ
إني بنى لي زاخرٌ من خِندف ... للمُلك فيه منابر وسريرُ (٢)

ثم عاد الى هجاء سراقة وقومه في قصيدة أخرى ومنها :

فاذا لقيتَ مجيلِساً من بارق ... لاقيتَ أطبع مجلسٍ اخلاقا
الناقصين إذا يُعدّ حصاهم ... والجامعين مذلةً ونفاقا (٣)

---

١ ـ الاغاني ٦٨/٨ .
٢ ـ ديوان جرير ٣٠٠ .
٣ ـ ديوان جرير ٣٩٦ .

وتذكر الرواية ان نقيضة جرير لما أتى بها رسول بشر قرئت بالعراق فأفحم سراقة ولم ينطق بعدها بشيء من مناقضته (١) .

٣ ـ ومن هذا الضرب أيضاً تلك المعركة الهجائية التي نشبت بخراسان بين **ثابت قطنة** الازدي **وحاجب بن ذبيان المازني** التميمي المعروف بحاجب الفيل . وقد هاج الشر بينهما ، تنافسهما في مديح يزيد بن المهلب . ذكر أبو الفرج ان حاجباً دخل على يزيد فمدحه بقصيدة فأمر له بدرع وسيف ورمح وفرس ، فحسده ثابت قطنة وانتقد قصيدته هذه وكان هذا سبب وقوع الشر بينهما (٢) . ولما لجّ ثابت في هجاء حاجب وقومه انبرى حاجب للرد عليه وقال : « والله لا أرضى بهجاء ثابت وحده ولا بهجاء الأزد كلها ، ولا أرضى حتى أهجو اليمن طرّا » ، وحقق قوله بالفعل فقال يهجوهم :

دعوني وقحطاناً ، وقولوا لثابتٍ ... تنحّ ولا تقرب مُصاولة البُزلِ
فللزَّنجُ خيرٌ حين تُنسب ، والدآ ... من ابناء قحطانَ العفاشلة الغُرْلِ
أناسٌ اذا الهيجاءُ شبت رأيتهم ... أذلَّ على وطءِ الهوان من النعلِ
نساؤهم فوضى لمن كان عاهراً ... وجيرانهم نهبُ الفوارس والرَّجل(٣)

واتصل منذ ذلك الحين التهاجي بين الشاعرين ، فلما قال حاجب بيته المشهور في ثابت :

لا يعرفُ الناس منه غيرَ قطنته ... وما سواها من الانسابِ مجهولُ

---

١ ـ الاغاني ٦٩/٨ .

٢ ـ الاغاني ٢٦٤/١٤ .

٣ ـ الاغاني ٢٦٨/١٤ . البزل ج بازل : الرجل الكامل في تجربته . العفاشلة ج عفشل : الثقيل الوخم . الغرل ج اغرل : الذي لم يختتن . الرجل : ج راجل .

أجـابه ثابت :

هيهات ذلك بيتٌ قد سُبقتَ به   فاطلب له ثانياً يا حاجبَ الفيلِ (١)

* * *

ب ـ المناقضات بين مضر وربيعة

أدى تعارض المصالح القبلية في عصر بني أمية الى وقوع العداء بين حيّي نزار : ربيعة ومضر ، في اكثر البلاد التي أظلّهـا الحكم الاموي ولم تستطع آصرة الرحم العدنانية المشتركة أن تؤلف بين هذين الحيين وتجعل يدهما واحدة للوقوف معاً في وجه الكتلة القحطانية ، بل لقد رأينا قبيلة ربيعة في كل من البصرة وخراسان تنحاز الى صف اليمن وتحالف قبيلة الأزد على أختها مضر . وقد تحدثنا قبلُ عن دوافع هذا الحلف المناقض لما كانت تقضي به العصبية في حدودها الكبرى والذي أملته دواعي التوازن القبلي في ذينك المصرين . ونحن نلاحظ ان العداوة بين حيّي نزار قديمة ترجع جذورها الى العصر الجاهلي الذي شهد نشوب وقائع متصلة بين القبائل الربعية والمضرية كان من شأنها تأريث الأحقاد والضغائن بينهما .

وقد أدت العداوة بين هذين الحيين الى وقوع التلاحي والتناقض بين شعرائهما في كل من بلاد الجزيرة والشام والعراق وخراسان. فحين تحوّلت قبيلة قيس من قتـال كلب الى قتال بني تغلب بالجزيرة واتصلت الوقائع بينهما ثارت معركة لسانية بين شعراء قيس وتغلب شارك فيها شعراء كثر منهـم الأخطل والقطامي وعمرو بن الأهتم ، وكانوا أبرز الشعراء الناطقين بلسان تغلب في تلك المعركـة ، يقابلهم من شعـراء قيس زُفر بن الحـارث وعمير بن الحباب ونُفيع بن صفّار وغيرهم .

---

١ ـ الاغاني ١٤/٢٦٨ .

وكانت المعركة اللسانية بين شعراء القبيلتين تساير ما كان يقع بينهما من وقائع قبلية فهي تهدأ بهدوء هذه الاحداث وتثور بثورتها. ويبدو ان الاخطل كان غائباً حين بدأت طلائع الفتنة بين قيس وتغلب فقال حين بلغه الأمر :

أتاني ودوني الزابيان كلاهما ودجلةُ أنباءٌ أمرّ من الصبرِ
أتاني بان ابنَي نِزارٍ تضاغنا وتغلبُ أولى بالوفاء وبالغدرِ (١)

ثم ما لبث أن شارك في هذه المعركة وخاضها بكل قواه، واتصلت الاهاجي والمناقصات بينه وبين شعراء قيس ولا سيما بينه وبين نفيع بن صفّار المحاربي، ففي أعقاب هزيمة قيس يوم الثرثار الاول، ثم مقتل عمير بن الحباب يوم الحشّاك قال الاخطل قصيدة طويلة يظهر فيها شماتته بما نزل بقيس ويهجو قبائلها بطناً بطناً ومنها :

شفى النفس قتلي من سُليم وعامرٍ ولم تشفِها قتلى غنيٍّ ولا جَسرِ
لعمري لقد لاقت سليمٌ وعامرٌ على جانب الثرثار راغيةَ البَكرِ
وما تركت أسيافنا يوم جُردت لاعدائنا قيسِ بين عيلان من عُذرِ (٢)

فأجابه نفيع بن صفار بنقيضة يقول منها :

أبا مالكٍ ، لا يُدرَكُ الوتر بالخنا ولكن بأطرافِ الردَينية السُمرِ
ظللِنا نُفرّي بالسيوف رؤوسهم ولا حيَّ يفري بالسيوف كما نفري

---

١ ـ انساب الاشراف ٣١٤/٥ .

٢ ـ نقائض جرير والاخطل ص ٢٨ . انساب الاشراف ٣١٨/٥ . راغية البكر : يشير الى ناقة ثمود التي هلك اصحابها بسببها .

الى ان تروحنا نسوق نساءهم وما خمشوا فينا بناب ولا ظفر

قتلتم عميراً لا تعدون غيره وكم قد قتلنا من عمير ومن عمرو (١)

ولابن صفار هذا قصيدة في تعداد هزائم تغلب وأيام قيس عليها تعارض قصيدة الاخطل التي هجا فيها بطون قيس ، وقد انتهى الينا طائفة من أبيات هذه القصيدة منها قوله :

وأيام القناطر قد تركتم رئيسكم لنا غَلِقاً رهينا

تركنا الباكيات على شُعيث سواجمَ عبرة ما ينقضينا

بقرنا منهم الفَي بَقير فلم نترك لحاملةٍ جنينا (٢)

وما لبث ميدان هذه المعركة أن اتسع وخاض حلبتها نفر من شعراء العراق المضريين والربعيين ، ولما نشب التهاجي بين جرير والاخطل واتصلت النقائض بينهما أخذا يستعيدان أخبار الوقائع التي نشبت بين تغلب وقيس بالجزيرة . ولذلك ظلت ذكرى هذه الوقائع حيّة في أذهان الناس أمداً طويلاً بعد انطفاء جذوتها . وسنقف عند نقائض هذين الشاعرين وقفة قصيرة بعد الفراغ من استعراض سائر المناقضات التي دارت بين شعراء مضر وربيعة .

وقد شهدت بلاد العراق وخراسان مناقضات كثيرة بين الشعراء المضريين والربعيين ، وأكثرها يتصل بالاحداث القبلية التي دارت رحاها في هذين القطرين ، ولا سيما منذ وفاة يزيد الاول ، كفتنة عبد الله بن خازم بخراسان ومقتل مسعود بن عمرو بالعراق . وقد تأصلت الأحقاد بين هذين الحيين الى

---

١ ـ نقائض جرير والاخطل ص ٣٨ . انساب الاشراف ٥/٣١٨ .

٢ ـ الاغاني ٢٠/١١٧ . انساب الاشراف ٥/٣١٦ . شعيث : هو شعيث بن مليل رئيس تغلب يوم ماكسين ، وقد قتل في ذلك اليوم .

حد أن المناقضات بين شعرائهما كانت متصلة تثيرها أتفه المناسبات . ولم تكن المعركة اللسانية وقفاً على الشعراء بل شارك فيها الرجّاز أيضاً أمثال العجاج التميمي وأبي النجم العجلي ودكين الدارمي وغيرهم . وقد روى أبو الفرج ان العجاج أتى المربد يوماً فأنشد الناس أرجوزته التي أولها :

قــد جَبر الدِين الإله فجَبرْ

وقد ذكر فيها ربيعة وهجاهم . فجاء رجل من بكر الى أبي النجم العجلي فأخبره بالامر ، فما أسرع أن وافى المربد على جمل مهنوء وهو ينشد مطلع أرجوزته التي ينقض بها ارجوزة العجاج وأولها :

تذكّر القلبُ وجهــلاً ما ذكرْ

وتحلّق الناس حوله يستمعون ، حتى اذا بلغ قوله :

شيطانه أنثى وشيطاني ذكــرْ

تعلّق الناس هذا البيت وهرب العجاج عنه (١) .

وكذلك أدت الخصومات الشخصية بين شعراء مضر وربيعة الى نشوب مناقضات كثيرة بين الفريقين ما لبثت أن تحولت الى مناقضات قبلية ، ومن ذلك ما وقع بين **الأبيرد الرياحي** التميمي **وسلمان العجلي**، وقد ثارت الخصومة بينهما بسبب تعرّض الأبيرد لامرأة رجل من عجل وتغزله بها فحمي للعجلي شاعر قومه وهجا الأبيرد وأجابه الأبيرد بمثل هجائه وقذف كل منهما قبيلة خصمه بوابل هجائه وتناولها بكل سوء ، ومما تقارضا به قول سلمان يهجو بني رياح ويعيّرهم شرب المني :

---

١ ـ الاغاني ١٠/١٥٢ .

لعمـركَ إننـي وبنـي ريـــاح ... لكالعــادي فصـــادف سهم رامي

وإن يُـذكـر طعـامهم بسـوء ... فان طعـامَهـم شـــر الطعـام

شريجٌ من مني أبي سُـــواج ... وآخـرُ خالصٌ مـن حيضِ آمِ

فقال الأبيرد يجيبه ويعرّض بنصرانية بني عجل :

بنـو عِجـل أذل من المطـــايا ... ومن لحم الجـزور على الثمـامِ

تحيـا المسلمون اذا تـلاقـوا ... وعِجـل ما تحيـا بالسـلامِ

اذا عجليـــة ولدت غـلامـاً ... الى عِجـل فقبُـح من غــلامِ

يمص بثديهـا فـرخٌ لئيـم ... سـلالة أعبـد ورضيـعُ آمِ

خبيث الريح ينشــأ بالمخـازي ... لئيـمٌ بـين آبـاء لئـامِ (١)

ووقع الشر كذلك بين **زياد الأعجم**، مولى عبد القيس وشاعرها بخراسان، وبين **المغيرة بن حبناء** التميمي ، بسبب تقديم المهلب زياداً على سائر الشعراء الذين كانوا يشهدون مجلسه ، وإيثاره إياه بالجوائز والصلات ، وما لبث التهاجي أن لجّ بينهما وامتدّ أذاه الى قـوم الشاعرين ، فكان زياد يهجو بني تميم وآل حبناء ويعدّد مخازيهم . وكان المغيرة يجيبه بهجاء عبد القيس وذكر مثالبهم ، وكثيراً ما كانا يتقاولان ويتناقضان في مجلس المهلب فاذا قال المغيرة لزياد مثـلاً :

اقول لـه وانكـر بعض قـولي ... ألم تعـرِف رقـابَ بني تميـمِ

اجـابه زياد :

---

١ ــ الاغاني ١٣/١٣١ . الشريج : الخليط من لونين مختلفين، الآم : جمع أمة . الثمام : نبت ضعيف لا يطول .



بلـــى فعـــرفتهـــنّ مُقصـــراتٍ جِبـــاه مَذلة وسِبـــالَ لُوْم (١)

***

نقائض جرير والأخطل :

بوسعنا تحديد الزمن الذي ابتدأت فيه المناقضة بين جرير والاخطل على وجه التقريب استناداً الى بعض الاخبار التي تحدثت عن سبب نشوب الهجاء بينهما، فقد ذكروا أن الذي هاج الشر بين الشاعرين تفضيل الاخطل الفرزدق على خصمه جرير في مجلس بشر بن مروان (٢) ، وقد ولى عبد الملك أخاه بشراً الكوفة بُعيد مقتل مصعب بن الزبير في منتصف عام ٧١ هـ . ثم ضم اليـه ولاية البصرة عام ٧٣ هـ بعد عزل خالد بن عبد الله بن أسيد عنها ، وتوفي بشر عام ٧٥ هـ (٣) . وعلى هذا فان ابتداء التهاجي بين الشاعرين كان إبان هذه الحقبة . ونحن نرجّح ان ابتداء المناقضة بينهما كان قبل يوم البشر الذي أوقع فيه الجحّاف ببني تغلب ، لأننا لم نجد جريراً يتحدث عن هذا اليوم في أولى نقائضه مع الاخطل ، على كثرة إشارته اليه في سائر نقائضه معه ، إذ أن الاخطل كان هو المسبّب لهذه الوقعة وقد أسر في ذلك اليوم وقتل أبوه، فلو ان المهاجاة بين جرير والاخطل بدأت بعيد ذلك اليوم لكان من المتوقع أن يطنب جرير في الحديث عنه في تلك النقيضة ، وقد حددت المصادر زمن هذا اليوم بعام ٧٣ هـ (٤) ، فبـدء التناقض بين الشاعرين كان إذن قبل هـذا

---

١ – الاغاني ٩٤/١٣ . السبال ج سبلة : مقدم الشعر .

٢ – طبقات ابن سلام ص ٣٨٧ . الاغاني ٣١٥/٨ . نقائض جرير والفرزدق ٨٧٩/٢ .

٣ – الطبري ١٢/٥ – ٤٠ .

٤ – الاغاني ٢٠٠/١٢ .

الحين (١) . ويؤيد ما ذهبنا أليه أن جريراً هاجى سراقة البارقي وبشر يومئذ بالكوفة ، وهو يشير في القصيدة التي هجاه بها الى هجائه الاخطل (ديوان جرير ص ٣٠٢) ، فمهاجاته الاخطل كانت اذن قبل وقوع الهجاء بينه وبين سراقة .

وقد ظلت الحرب الهجائية مستعرة بين الشاعرين زهاء عشرين عاماً ولم تتوقف الا بوفاة الاخطل عام ٩٢هـ . بل انهمالم يكفا عن تقارض الهجاء حتى عند الموت ، فقد ذكروا ان الاخطل لما دنت منيته وسألوه عما يوصي به أجابهم بقوله :

أوصي الفرزدق عند الممات ... بأمّ جرير واعيارها

وزار القبورَ ابو مالك ... برغم العداة وأوتارها (٢)

فلما بلغ جريراً خبر وفاته وقوله هذين البيتين بادر الى نقضهما بأبيات يهجو فيها الاخطل ويظهر شماتته بموته وأولها :

---

١ – يستظهر الاستاذ الزهيري (نقائض جرير والفرزدق ص ٨٧) ان المناقضة بين الشاعرين كانت في عام ٧٣ هـ لان في نقيضة جرير اشارة الى يوم البشر وهو قوله :

ولقد شفوك من المكوّى جنبه ... والله أنزله بدار هوان

اعتماداً على شرح النقائض (٨٩٩/٢) وذكر ان هذا البيت يراد به الشمرذى التغلبي الذي أشار على أصحابه من تغلب أن لا يقبروا قتلاهم بل يحرقوهم فأصابه شهاب فأحرق جنبه . ونحن لا نطمئن الى هذا التفسير فسياق الابيات يدل على انه يتحدث عن قومه بني يربوع ويشيد بوقائعهم القديمة ، ولم يتحدث جرير عن وقائع قيس الا في أواخر هذه القصيدة ولم يتحدث فيها عن يوم البشر، فضلا عن ان حادثة تحريق القتلى كانت في وقعة ماكسين ، وهي أولىالوقائع التي جرت بين قيس وتغلب، لا في يوم البشر (انظر نقائض جرير والاخطل ص ٢٣٠) .

٢ – الاغاني ٣٠٥/٨ .

زار القبور أبو مالك فكان كالأم زوارها (١)

والمصادر الادبية ترجع سبب الخصومة بين جرير والاخطل الى تفضيل الاخطل الفرزدق على جرير في مجلس بشر ، وهو سبب كافٍ وحده لاثارة غضب جرير على الاخطل ولحمله على هجائه . على اننا لا نطمئن الى ما روي من اجتماع هؤلاء الشعراء الثلاثة في مجلس بشر ، وإرغام الامير الاخطل على المفاضلة بين الشاعرين ، فقد ذكروا ان هؤلاء الشعراء الثلاثة اجتمعوا في مجلس بشر ، وكان بشر مولعاً بالاغراء بين الشعراء ، فقال للأخطل : احكم بين الفرزدق وجرير فقال : اعفني أيها الامير . واظهر خشيته من عواقب هذا الحكم المشؤوم ، ولكنه إزاء اصرار الامير اضطر ان يحكم بينهما بقوله : « الفرزدق ينحت من صخر ، وجرير يغرف من بحر » فلم يرض جرير عن حكمه هذا وكان ذلك سبب استطارة الهجاء بينهما (٢). والذي يدعو للشك في صحة هذا الخبر قولهم باجتماع الشعراء الثلاثة معاً في مجلس بشر . وقد جاء في خبر آخر ان جريراً لقي الاخطل في مجلس عبد الملك بعد ذلك بزمن وكانا تهاجيا قبل ذلك ولم يلق أحدهما صاحبه (٣) . فضلاً عن ان الحكم الذي قضى به الاخطل ليس من شأنه إسخاط جرير ، بل كان قميناً بإرضائه لأنه في جانبه لا في جانب خاصمه ، فهو يشير الى انقياد الشعر له واستعصائه على الفرزدق . فالقول بأن جريراً غضب على الاخطل لهذا السبب يدعو الى الشك في صحة الخبر نفسه .

والرواية التي نجدها أدنى الى الصحة هي تلك التي رواها أبو عبيدة والتي تذكر ان الاخطل قدم على بشر بالكوفة فبعث اليه محمد بن عمير بألف درهم وكسوة وبغلة وخمر ، وقد توقع أن يطلب اليه بشر الحكم بين الشاعرين ،

---

١ — ديوان جرير ص ٣٠٣ .

٢ — طبقات ابن سلام ص ٤٠٨ . الاغاني ٣١٥/٨ .

٣ — الاغاني ٧٢/٨ .

وحرّضه على تفضيل نسيبه الفرزدق ، ففعل ، وكان هذا سبب سخط جـرير عليه وهجائه إياه (١) . وقد أشار جرير الى رشوة محمد بن عمير الاخطل بقوله من قصيدة يهجوه بها :

رشتك ُمجاشع سَـكرا بفَلس فلا يهنيـكَ رشوةُ من رشاكا(٢)

وينبغي أن نشير الى أن المفاضلة بين الشاعرين لم يكن مدارها على البراعة الشعرية وحدها ، وانما على شرف النسبة ونبل المحتد ، وعلى الموازنة بين قبيلتي الشاعرين في المرتبة الاولى ، ومن هنا نجـد جريراً يستهل نقيضته الاولى التي قالهـا في هجـاء الاخطل بتكذيب ما زعمه من أن قوم الفرزدق أشرف من قـومه :

كذب الأخيطلُ ان قومي فيهـم تاجُ الملوك ورايـة النعمـان(٣)

والتحكيم انما كان يتناول في المرتبة الاولى المفاضلة بين عشيرتيهما، ولذلك كان جل المحكمين ينحازون الى جانب الفرزدق لأن عشيرته كانت أشرف من عشيرة جرير ، وقد أشار جرير في قصيدة أخرى هجا بها الاخطل إشارة واضحة الى أن التحكيم كان يتناول قبيلتي الشاعرين فقال :

أتحـكمُ للقيـون ، كذبت إنـا ورثنا المجـد قبل تراثِ عادِ (٤)

ونحن نتساءل بعد ذلك : ما الذي حمل الاخطل على أن يزجّ بنفسه في أتون هذه المعركة الهجائية ويدسّ أنفه في تلك الخصومة الشعرية التي كانت

---

١ ـ نقائض جرير والفرزدق ٨٧٩/٢ . الاغاني ٦١/١١ . طبقات ابن سلام ص ٣٨٧ .

٢ ـ ديوان جرير ص ٤١١ . طبقات ابن سلام ص ٣٩٠ .

٣ ـ ديوان جرير ص ٥٧٣ .

٤ ـ ديوان جرير ص ١٤٥ .

قائمة بين فحلي تميم، معرّضاً نفسه للسان جرير وهجائه المر ؟..من المحقق ان الاخطل كان يتوقع ، وقد قدم على بشر ، أن يسأله عن الشاعرين ويطلب اليه المفاضلة بينهما . فقد عرف عن بشر ولعه بالإغراء بين الشعراء وإثارة الخصومات بينهم ، ولكن كان في وسع الاخطل أن يقف موقف المحايد من الشاعرين ، فلا يفضّل أحدهما على الآخر لو لم يكن راغباً في خوض هذه المعركة . وأغلب الظن ان الشهرة العريضة التي أتاحتها لجرير والفرزدق تلك الخصومة الناشبة بينهما كانت أحد الدوافع القوية التي حملت الاخطل على المشاركة في هذه المعركة الهجائية . فقد آنس من نفسه مقدرة على المصاولة الشعرية ووجد نفسه نداً لهذين الفحلين وهاجته شهوة الصراع والرغبة في الشهرة ، فدفعه ذلك كله الى أن يزجّ بنفسه في غمار هذه الملحمة . وقد تحقق ظنه فان مصاولته جريراً قد أكسبته شهرة أدبية بعيدة المدى، واقترن اسمه في المجالس الادبية ولدى نقاد الشعر باسم ذينك الشاعرين الفحلين . وقد أورد أبو الفرج خبراً يدل على مدى ثقة الاخطل بمقدرته الشعرية وبراعته الهجائية ، فذكر أن رجلاً من بني شيبان نصح الى الاخطل ألا يقحم نفسه بين شاعري تميم ، ولا سيما ان في وسع جرير هجاء ربيعة بما لا يقدر على هجاء مضر بمثله ، وكان جواب الاخطل قوله : « صدقت في نصحك وعرفت مرادك، وصلتك رحم. فوا الصليب والقربان لاتخلصنّ الى كليب خاصة دون مضر بما يلبسهم خزيه ويشملهم عاره. ثم اعلم ان العالم بالشعر لايبالي،وحقّ الصليب ، اذا مرّ به البيت المعاير السائر الجيد، أمسلم قاله أم نصراني(١)» .

كانت فاتحة نقائض جرير مع الاخطل قصيدته التي قالها حين بلغه نبأ مفاضلة الاخطل بينه وبين الفرزدق وهي التي مطلعها :

لمن الديار بِبُرقةِ الرَوحانِ   إذ لا نبيعُ زماننا بزَمانِ (٢)

---

١ – الاغاني ٢٨٩/٨ .

٢ – في نقائض جرير والفرزدق ص ٨٧٩ وردت قصيدة الفرزدق التي قالها في هذه =

وفي هذه القصيدة نجد جريراً يستأنف ما كان يخوض فيه من هجاء الفرزدق وبني دارم ولكنه يضيف الى ذلك هجاء محمد بن عمير الذي حرّض الاخطل على تفضيل الفرزدق وهجاء جرير ، فعرّض به وبقومه آل عطارد وغمز من نسبه وفضل عليه أشراف تميم في الكوفة أمثال شبث بن ربعي ومعقل بن قيس الرياحي ، ثم استدار نحو الاخطل فطعن في قضائه الذي قضاه لأنه مخمور لا حكم له ، وهجا قومه بني تغلب وفضّل عليهم إخوتهم بكراً فقال منها :

ياذا العباءة ان بشراً قد قضى	أن لا تجوزَ حكومةُ النشوانِ
فدعوا الحكومة لستُم من اهلها	إن الحكومة في بني شيبانِ
بكرٌ أحق بان يكونوا مقنعاً	او ان يفوا بحقيقة الجيران
قتلوا كليبكم بلقحة جارهم	يا خُزرَ تغلب لستمُ بِهجانِ

ثم طفق يفاخره بقومه بني كليب وبسائر القبائل المضرية ويتحداه أن يثبت لمصاولته ثم أخذ يعدد وقائع قيس وأيامها على تغلب في الجزيرة وغيرها ، وأخيراً وجّه سهام هجائه الى بني تغلب فعيّرهم بالنصرانية ورمى نسائهم بكل فاحشة (١) .

وما لبث أن جاءه رد الاخطل على قصيدته هذه فقد أجابه عليها بنقيضة طويلة يردّ فيها على تحدّي جرير بمثله فيقول :

= المناسبة سابقة على قصيدة جرير . وكذلك نجد في خبر مهاجاة جرير والاخطل (الاغاني ٦١/١١) نقيضة الاخطل مقدمة على قصيدة جرير هذه . والصحيح أن جريراً كان البادىء بالهجوم ثم جاء الاخطل فنقض قصيدة جرير ، وكانت قصيدة الفرزدق هي الثالثة . ويشهد بما ذكرناه سياق خبر المهاجاة وخبر آخر في الاغاني (٣١٥/٨) وكذلك سياق النقائض الثلاث نفسها ، وفي نقيضة الاخطل بيت يرد فيه على مطلع قصيدة جرير هذا وهو قوله :

أنسيت قتلى بالكلاب وحابس	وبكيت ويحك برقة الروحان

١ — ديوان جرير ص ٥٦٩ . نقائض جرير والاخطل ص ٢١٠ .

ما بـال قـوم لا تغب أذاتهم ‏ قعس الظهور من الحقين بطان

هم هيجوا حربي وما لهم بها ‏ لو واجهتهم باللقاء يدان

ثم ينصرف الى هجاء بني كليب فيرميهم بكل نقيصة ويفضّل عليهم بني دارم وينسب اليهم كلّ مأثرة عرفت بها تميم فيقول :

قبح الإله بني كليب إنهم ‏ لا يحفظون محارم الجيران

واذا تنودب للمكارم والعلى ‏ لم يندبوا لترادف الاعوان

تاجُ الملوك وفخرُهم في دارم ‏ أيامَ يربوع مع الرعيان

سبقوا أباك بكل مجمع تلعة ‏ بالمجد عند مواقف الركبان

قوم اذا خطرت عليك قرومهم ‏ طرحوك بين كلاكل وجران

ويختم النقيضة بتعداده الايام التي هزمت فيها بنو يربوع وتميم في الجاهلية كيوم الكلاب :

ودت تميم بالكلاب لو انها ‏ باعت هناك زمانها بزمان (١)

وحين ننظر في نقائض هذين الشاعرين عامة (٢) ، نجد جريراً يتعمد فيها

---

١ ــ نقائض جرير والاخطل ص ٢١٩ . الحقين : اللبن الذي حقن في السقاء ، أي جمع. الكلكل : صدر البعير . والجران : مقدم عنقه .

٢ ــ جمعت نقائض جرير والاخطل في ديوان نشره الاب انطون الصالحاني في بيروت عام ١٩٢٢ نقلا عن نسخة الآستانة . وقد ذكر في مقدمة الكتاب ان جامعه هو ابو تمام الشاعر ، وربما كان هذا الامر يفتقر الى مزيد من التحقيق . والديوان يشتمل على عشرين نقيضة ومن المرجح ان جامع هذه النقائض أغفل جانباً من نقائض الشاعرين ، اذ اننا نجد في ديوانيهما قصائد تحمل طابع النقائض وليست في هذا الكتاب . وكذلك أورد أبو الفرج في الاغاني (٣١٦/٨) أبياتاً من نقيضتين لجرير والاخطل لا نجدهما في هذا الكتاب .

الاشادة بمآثر قيس وأيامها التي نصرت فيها على تغلب بالجزيرة وكأنه شاعرها الناطق بلسانها ، كقوله من نقيضة :

أنسيت يومك بالجزيرة بعدما كانت عواقبه عليك وَبالا

حملت عليك حماة قيس خيلَها شُعثاً عوابسَ تحمل الابطالا

ما زلتَ تحسبُ كل شيء بعدهم خيلا تشد عليكم ورجالا

زفر الرئيسُ ابو الهذيل أبادكم فسبى النساء وأحرز الاموالا

قال الاخيطلُ اذ رأى راياتهم يا مار سرجسَ لا نريد قتالا (١)

كما نجده يشيد بمآثر قومه بني تميم ويفاخر الاخطل بأيامهم الظافرة في الجاهلية كيومي ذي نجَب وطِخفة ومن ذلك قوله في نقيضة :

أبا بطِخفة او أيام ذي نجَب نعمُ الفوارس لما التفت العُذَرُ

لولا فوارسُ يربوعٍ بذي نجب ضاق الطريق وعي الورِد والصدَرُ

نحن اجتبينا حياض المجد مترعةً من حومةلم يخالط صفوها كدَرُ (٢)

وقد وجد جرير في نصرانية الاخطل وقومه منفذاً سهلاً الى هجائهم ، فلم تكد تخلو أهجية له فيهم من الاشارة الى دينهم وتعييرهم شرب الخمر وأكل لحم الخنزير وأداء الجزية ونحو ذلك ، ولم يكن يتورّع عن قذف نساء تغلب بكل فاحشة ، فنسمعه يقول مثلاً في احدى نقائضه :

---

١ ـ نقائض جرير والاخطل ص ٨٣ . ديوان جرير ص ٤٥١ .

٢ ـ النقائض ص ١٦٦ وما بعدها . ديوان جرير ص ٢٥٩ .

قبح الإلـه وجـوه تغلب كلمـا ... شبح الحجيجُ وكبـروا إهـلالا

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد ... وبجبرائيـل وكذبوا مِيكـالا

المُعرسين اذا انتشَوا ببناتهم ... والـدائبين إجـارةً وسؤالا

لولا الجِزا قسم السواد وتغلب ... في المسلمين فكنتم أنفـالا (١)

ولقاء ذلك كان يُدلّ على الاخطل بالاسلام ويفاخره بقبائل مضر عامة ومآثرها وما لها من فضل على سائر القبائل ، وفي طليعتها النبوّة والخلافة ، ويتحداه أن يأتي بمثل رجال مضر المشهورين في الجاهلية والاسلام . فجرير هنا يلوذ بآصرة الرحم الكبرى التي تربطه بقبائل مضر كافة ليفاخر خصمه الربعي ويعلو عليه ، نحو قوله في بعض نقائضه :

قومي تميم هم القوم الذين هـمُ ... ينفون تغلب عن بحبوحة الدارِ

ترمي خزيمة من أرمي ويغضب لي ... أبناءُ مُرٍّ بنو غرّاءَ مِذكـارِ

جئني بمثـل بني بـدر لقومهم ... أو مثـل أسرة منظـور بن سيارِ

او مثـل آلِ زهـير والقنا قصَد ... والخيل في رَهَج منهـا وإعصارِ

او عامرِ بن طفيـل في مُركبـه ... او حارث يوم نادى القوم يا حارِ (٢)

---

١ ــ النقائض ص ٨٣ وما بعدها . ديوان جرير ص ٤٥٠ . اجارة وسؤالا : أي بين أجير وسائل . الجزا : جمع جزية . الانفال : الغنـائم .

٢ ــ النقائض ص ١٤٢ . ديوان جرير ص ٣١٠ . المذكار : التي تلد الذكور ، بنو بدر : أعرق بيوت فزارة نسباً . منظور بن سيار : هو منظور بن زبان بن سيار الفزاري . آل زهير : آل زهير بن جذيمة سيد بني عبس في الجاهلية . القصد : المكسور . حارث هو الحارث ابن ظالم المري الذي قتل خالد بن جعفر سيد بني كلاب في الجاهلية .

والى هذا الهجاء القبلي كان جرير يهجو خصمه الاخطل هجاء شخصياً فيلقبه بدوبل (١) ويصغّر اسمه تحقيراً له ويعيّره إدمانه شرب الخمرة ولا يني يذكره بما جرّه على قومه من الشر بتحدّيه الجحّاف بن حكيم السُلمي حتى أوقع بتغلب يوم البشر ، فيقول له مثلاً :

بكي دوبل لا يرقىء الله دمعه — ألا إنما يبكي من الذل دوبلُ

فانك والجحاف حين تحضه — اردت بذاك المكثَ والوِردُ اعجلُ

حضضتَ على القوم الذين تركتهم — تعل الرُدينات فيهم وتنهلُ (٢)

وكان الاخطل في اهاجيه لجرير ، يخصّ قبيلة كليب بالهجاء دون سائر تميم لئلا يتعرض لنصيره الفرزدق . وكان يضيف الى هجاء كليب هجاء قبيلة قيس لما كان بينها وبين قومه من الوقائع بالجزيرة ، أما سائر قبائل مضر فلم يكن يتعرض لها لانه لم يكن يستطيع مجاراة خصمه في تعميم الهجاء ، وفي مضر النبوة والخلافة ، كما لم يكن في وسعه التعرّض لدين جرير ، دين الخليفة والدولة ، فكان لذلك مجال القول أمامه أضيق من مجال جرير ، ومن هنا وجدناه يسدّد سهام هجائه الى كليب ، فيضيف اليها كل مخزية تسب بها تميم ، ويفضل عليها قبيلة دارم إمعاناً في إغاظة جرير ، كما يفضل الفرزدق على جرير ويصوّر عجزه عن مجاراته في مضمار الفخار والشعر فنسمعه يقول مثلاً :

لما جرى هو والفرزدق لم يكن — نزِقاً ولا لمدى المئين صبورا

قوم هم سبقوا أباك الى العلى — جرياً وصِرتَ مخلفاً محسورا

١ ـ الدوبل : ولد الخنزير والحمار .

٢ ـ نقائض جرير والاخطل ص ٦٤ . ديوان جرير ص ٤٥٥ .

أزعمت ان بني كليب ســـادة	قبحـاً لذلك معشـراً مذكـورا
يا شـر من وطىء التراب قبيـلة	حيـاً والأم ميت مقبـورا
لولا فـوارسُ دارم لقَسمتـم	مثل اقتسام الياسرين جَزورا(١)

وهو لا ينسى ـ الى ذلك ـ أن يذكـر أيام تميم التي هزمت فيها في الجاهلية ، ولا سيما يوم الكلاب ، وأن يفاخره بأيام قومه التي انتصروا فيها، وربما فاخر بأيام ربيعة عامة كيوم ذي قار ، فيقول مثلاً :

هلا كفيتم معـداً يوم مُعضـلة	كما كفينـا معداً يوم ذي قـارِ
جاءت كتائبُ كسرى وهي ُمعلمة	فاستأصلوها وأردَوا كل جبـارِ
هلا منعتم شُر حبيلا وقد حدِبت	له تميم بجمـع غـيرِ اخيـارِ
يوم الكُلاب وقد سِيقت نساؤكم	سوقَ الجلائب من عون وابكارِ(٢)

ويعرّج على قبيلة قيس فيعدّد مثالبها . ويذكر أيام تغلب عليها في الجزيرة كقوله له مثـلا :

فان تك حرب ابنَي نزار تواضعت	فقـد عذرتنا من كلاب ومن كعب
وفي الُحقبِ من افناء قيس كأنهم	بمنعرج الثرثار ُخشب على خشب
لعَمري لقـد لاقت ُسليم وعامر	على جانب الثرثار راغيةَ السَقبِ(٣)

١ ـ نقائض جرير والاخطل ص ١٠٤ .

٢ ـ المصدر السابق ص ١٣٤ .

٣ ـ المصدر السابق ص ٩٧ . الراغية : الناقة التي ترغو ، والسقب ولدها .

وكان يحرص على التذكير بمقتل عمير بن الحباب على أيدي بني تغلب يوم الحشّاك فيقول مثلاً من رائيته « خف القطين » وهي أجود نقائضه :

وقد نصرت اميرَ المؤمنين بنا   لما أتاك ببطن الغوطة الخبرُ

يعرفونك راسَ ابنِ الحباب وقد   اضحى وللسيف في خيشومه أثر(١)

ومن الانصاف أن نقرّر ان الاخطل، على رغم ضيق مجال القول أمامه، استطاع ان يثبت لقراع جرير وان يكون نداً له في ميدان المصاولة الشعرية .

***

---

١ — نقائض جرير والاخطل ص ١٥٧ .

٣

المناقضات في نطاق العصبيات الصغرى

كثيراً ما كان الشر يقع بين شاعرين يمتّان الى بطنين من قبيلة واحدة ، أو ينتميان الى قبيلتين تنحدران من أب مشترك ، لداع قبلي أو شخصي ، فيتقارضان الشعر ويتناقضان. وربما شارك شعراء آخرون في هذه المصاولة الشعرية فتتسع ساحة المعركة ، ويستحرّ الصراع، ولا يلبث النزاع أن يتخذ طابعاً قبلياً متصلا بأسباب العصبية ونوازعها .

وأشهر هذا الضرب من المناقضات تلك التي قامت بين شاعري تميم : جرير والفرزدق ، وسنقف عندها وقفة قصيرة بعد فراغنا من استعراض المناقضات الاخرى .

١ ــ من هذه المناقضات تلك التي قامت في صدر العصر الاموي بين **النابغة الجعدي وليلى الاخيلية** العقيلية ــ وكلاهما من بني عامر بن صعصعة ــ وكان الذي هاجها نزاعاً ثار بأصبهان بين بني قشير وبين أبناء عمهم بني جعدة ، فهجا سوّار بن أوفى القشيري النابغة، فأجابه النابغة بقصيدته التي سميت « الفاضحة » ، والتي ذكر فيها مثالب بني قشير وعقيل. ويبدو أن بني عقيل كانوا مظاهرين لبني قشير في هذا النزاع ، وقد فخر النابغة في قصيدته هذه بمآثر قومه بني جعدة وبسيدهم المشهور عبد الله بن جعدة، ونسب الى قشير وعقيل كل ما كانت تسبّ به بنو عامر ، ومطلع هذه القصيدة :

أما ترى ظلل الايام قد حسرت عني وشمرت ذيلا كان ذيالا (١)

---

١ ــ الاغاني ٥/١٤ .

فلما ذاعت قصيدة النابغة هذه والحّ في هجاء قشير وعقيل انبرت ليلى الأخيلية العُقيلية للذياد عن عشيرتها ولجّ الهجاء بينها وبين النابغة ، وكان النابغة ينفذ الى هجاء ليلى من ناحية جنسها فهو يعيّرها بكونها امرأة تصلح لمعاشرة الرجال ولا تصلح لتهجائهم ، ويقذفها بكل فاحشة ولا يتورع عن استعمال الالفاظ الصريحة النابية، ويتهمها بأنها تسعى وراء المآكل والمشارب التي تهيج فيها الغلمة فيخاطبها بنحو قوله :

وقد أكلت بقلا وخيماً نباته وقد شربت من آخرِ الصيف أيّلا(١)

وقد اجابت ليلى الاخيلية بنقيضة بلغت فيها من النابغة وقومه كل مبلغ، وجعلته فيها ينبغ بلؤمه لا بشعره :

أنابغ إن تنبغْ بلؤمك لا تجدْ للؤمك الا وسطَ جعدة مَجعلا

وأجابته على ما عيّرها به من معاشرة الرجال جواباً مفحماً بقولها :

تعيّرنا داءً بأمك مثله وأيّ حَصانٍ لا يُقالُ لها هَلا

وقد بلغ من أثر هذه النقيضة في بني جعدة انهم همّوا باستعداء صاحب المدينة عليها ليأخذ بحقهم منها (٢) .

٢ ـ وممن هاجاهم النابغة الجعدي أيضاً من شعراء مضر أوس **بن مغراء السعدي** التميمي . وقد ثار الشر بينهما حين اوقع بُسر بن أرطاة ببني سعد ،

---

١ ـ الاغاني ٥/١٦ . الأيّل جمع آئل : اللبن الخاثر ، ويقال انه يسمن ويغلم . وفي رواية أخرى : أيّل ، وهو ذكر الوعل ، يريد أنها شربت لبن الأيل لأن ألبان الأيل اذا شربتها الخيل اغتلمت (لسان العرب مادة أول) .

٢ ـ الاغاني ٥/١٧ .

وهم نزول في بني جعدة بالفَلَج ، فلم ينصروهم (١) . ولم يكن أوس قريعاً للنابغة في الشعر ومع ذلك استطاع أن يظهر عليه بهجائه ، والبيت الذي حكم فيه لأوس بالغلبة على خصمه هو قوله في بني عامر ، قوم النابغة :

لَعمرُكَ ما تَبلى سرابيلُ عامرٍ　　من اللؤم ما دامت عليها جلودُها

وقد أعان النابغة في هذه المعركة الهجائية كعب بن جُعيل التغلبي وأعان ابن مغراء العجاج الراجز والاخطل (٢) .

٣ ــ ووقع الشر أيام يزيد بن معاوية بين **المتوكل بن عبد الله** الليثي **ومعن ابن حمل** الدِيلي ــ وكلاهما من كنانة ــ . وذكر ابو عمرو الشيباني ان معن ابن حمل ظل يهجو المتوكل سنين والمتوكل معرض عنه لا يجيبه ثم هجاه بعد ذلك وهجا قومه من بني الديل هجاء مقذعاً استحيا منه وندم فقال يظهر ندمه لهجائه بني الديل ، وهم إخوة قومه بني الليث :

ندمت على شتمي العشيرةَ بعدما　　تغنّى بها غَوري وحن يماني

قلبتُ لهم ظهر المِجنّ وليتني　　رجعت بفضلٍ من يدٍ ولسانِ

وهو يظهر في قصيدته هذه اضطراره الى هجاء رهط خصمه فيقول :

على انني لم أرمِ في الشعر مُسلماً　　ولم أهجُ الا من روى وهجاني

همُ بطروا الحلم الذي من سجيتي　　فبدّلت قومي شدةً بلِيانِ

ولو شئتم أولادَ وهبٍ نزعتمُ　　ونحن جميع شملُنا اخوانِ

نهيتم اخاكم عن هجائي وقد مضى　　له بعد حولٍ كاملٍ سنتانِ

---

١ ــ انظر تفصيل الخبر في الاغاني ١٠/٥ وما بعدها . الفلج : موضع لبني جعدة بنجد .
٢ ــ الاغاني ١٢/٥ .

فأجابه معن على قصيدته هذه بنقيضة يفخر فيها بنفسه وقومه وشعره ومنها:

ندمتَ كذاك العبدُ يندم بعدما غلبتَ وسار الشعر كل مكانِ

ولاقيتَ قرماً في أرومة ما جدٍ كريماً عزيزاً دائم الخطرانِ

انا الشاعر المعروفُ وجهي ونسبتي أعفّ وتحميني يدي ولساني

وأغلب من هاجيتُ عفواً وأنتمي الى معشرٍ بيضِ الوجوه حسانِ (١)

٤ ــ ومن الشعراء الذين عرفوا بنزوعهم الى الشر وكثرة ملاحاتهم الشعراء **أرطاة بن سهية** المرّي ، وممن هاجاهم **شبيب بن البرصاء** المرّي (٢)، وليس في أخبار هذين الشاعرين ما ينبئنا بسبب وقوع الشر بينهما . ولاتفاقهما في الانتساب الى بني مرة كان كل منهما ينفي صاحبه عن عشيرته في أهاجيه ويفخر برهطه . وقد ذكر أبو الفرج ان يحيى بن الحكم، أخا مروان بن الحكم، حاول أن يصلح ما بين الشاعرين ، وكانت بنو مرّة تألفه لصهره فيهم (٣) . ولما لجّ شبيب في هجاء رهط أرطاة وآذاهم استعدوا عليه والي المدينة عثمان ابن حيّان المرّي ، فدعا به وتوعده فعاهده ألا يعود الى هجاء قومه (٤) وقد طعن أرطاة في نسب شبيب ونفاه عن بني عوف لانه لم يعم ، وكان العمى شائعاً في رهطه فقال :

فلو كنتَ عوفياً عَميتَ واسهلت كذاك ولكن المريبَ مُريبُ

---

١ ــ الاغاني ١٦٤/١٢ وما بعدها .

٢ ــ يتفق الشاعران في انتسابهما الى ابي حارثة بن مرة بن نشبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ثم يختلف نسبهما بعد ذلك ، فشبيب من بني عوف بن ابي حارثة وأرطاة من بني عقفان بن ابي حارثة (انظر الاغاني ٢٧١/١٢ و ٢٩/١٣) .

٣ ــ الاغاني ٣٢/١٣ .

٤ ــ الاغاني ٢٧٧/١٢ .

ثم عمي شبيب بعد وفاة أرطاة ، فكان يتمنى لو طالت حياة أرطاة ليعلم أنه عوفيّ صريح النسب (١) .

وبلغ من شدة العداوة بينهما أن يقف أرطاة في جانب خصوم شبيب من شعراء القبائل الاخرى ويعينهم على ابن عشيرته (٢) ، وقد أشار أبو الفرج الى نشوب التناقض بينهما وأورد جانباً مما تهاجيا به (٣) .

٥ ــ وممن هاجاهم أرطاة أيضاً زُميل **بن عبد مناف** الفزاري ، قاتل ابن دارة الشاعر . ولما تلاحيا توعد زُميل أرطاة أن يسقيه بكأس ابن دارة فأجابه أرطاة :

يا زُملُ انى إن اكن لك سائقاً	تركضْ برجليك النجاةَ والحق
لا تحسبنّي كامرىءٍ صادفته	بمَضيعة فخدشتَه بالمِرفق
اني امرؤ أوفي اذا قارعتكم	قصبَ الرِهان وما اشأ اتعرقِ

فأجابه زُميل يناقضه :

يا أرطَ إن تك فاعلا ما قلتَه	والمرءُ يستحيي اذا لم يصدقِ
فافعل كما فعل ابنُ دارة سالمٌ	ثم امش هَونَك سادراً لا تتّقِ
واذا جعلتك بين لحيي شابكالانيا	ب فارعَد ما بدا لك وابرُق (٤)

---

١ ــ الاغاني ١٢/٢٧٩ .
٢ ــ الاغاني ١٢/٢٧٧ .
٣ ــ انظر الاغاني ١٢/٢٧١ وما بعدها و ١٣/٢٩ وما بعدها . وانظر أيضا في حماسة ابي تمام ٤/١٩٩ قصيدة رائية لارطاة يفخر فيها بقومه ويحتمل انها نقضية لقصيدة شبيب التي تحاكيها وزناً وقافية والتي أوردها أبو الفرج في الاغاني ١٢/٢٧٧ .
٤ ــ الاغاني ١٣/٣٧ .

٦ – ولم يكن شبيب دون صاحبه نزوعاً الى الشر وملاحاة الشعراء ، وثمة شاعر آخر من بني مرة شارك في هذه المعارك الهجائية ونشب التهاجي بينه وبين شبيب ، هو عقيل بن علّفة (١) وكانت تربط بين الشاعرين صلة النسب المرّي المشترك فضلاً عن أن كلاً منهما كان ابن خالة الآخر (٢) ، وقد هاج الشر بينهما اعتداء عقيل على جار لرهط شبيب بلغه انه يتحدث الى نساء بني مرّة ، وكان عقيل شرساً جافياً سيىء الخلق ، فحمي شبيب لجار قومه ولجّ التلاحي بين الشاعرين من جرّاء ذلك ، وكلاهما كان من أشراف قومه وسادتهم (٣) .

٧ – وفي الدائرة القيسية أيضاً ثارت خصومة أخرى بين عقيل بن عُلّفة **وعويف القوافي** الفزاري على أثر قتال نشب بين بني مرة وبني حنّ بن عُذرة، فقد وجه عويف القوافي لومه الى بني مرة لأنهم لم ينتصروا لهم في هذه الموقعة فقال من قصيدة :

كنا لكم يا مُر أماً حَفيةً ... وكنتم لنا يا مرُ بَوّاً مُجلّدا
وكنتم لنا سيفاً وكنا وعاءَه ... اذا نحن خفنا ان يَكلّ فيُغمدا

فأجابه عقيل من قصيدة يناقضه بها :

اذا قلتَ قد سامحتَ سهماً ومازناً ... ابى النسبُ الداني وكفرُهم اليدا
فما كنت أماً بل جعلتك لي أخاً ... وقد كنتَ في الناس الطريدَ المشردا
ولو أنني يومَ ابنِ جرح لقيتهم ... لجردت في الاعداء عضباً مهندا(٤)

---

١ – ينتمي عقيل الى بني يربوع بن غيظ بن مرة .
٢ – الاغاني ١٢/٢١٧ .
٣ – الاغاني ١٢/٢٧١ .
٤ – الاغاني ١٧/١١٠ .

٨ ـ وقد شهدت خراسان معارك هجائية ومناقضات كثيرة جرت في إطار العصبيات الصغرى ومنها تلك التي دارت بين **زياد الأعجم،** مولى عبد القيس وشاعرها ، **وقتادة بن مغرب** اليشكري، وكلاهما من قبيلة ربيعة ، ويبدو أن زياداً قد بالغ في هجاء قتادة وعشيرته حتى لامه في ذلك بعضهم ونهاه عن تمزيق أعراض قومه (١) لأنه عمّ بهجائه قبيلة يشكر كلها .

وعلى رغم الخصومة التي كانت بين قتادة بن مغرب وابن عشيرته **أبي جلدة اليشكري،** لم يستطع أبو جلدة أن يقف مكتوف اليدين وهو يرى زياداً ينهش قومه وشاعرهم ، فأخذ يهجوه ويتوعده إن هو لم يكفّ عن ثلب قومه فيخاطبه بنحو قوله :

لا تهجُ يشكر يا زياد ولا تكن غرضاً وانت عن الاذى في معزل
واعلم بانهم اذا ما حصّلوا خيرٌ واكرم من ابيك الأغرلِ (٢)

٩ ـ ومن المعارك الهجائية التي شهدتها بلاد نجد تلك التي ثارت بين الشاعر العبسي **المساور بن هند** والشاعر الأسدي **المرار بن سعيد الفقعسي** . ولم تشر المصادر الى سبب الخصومة بينهما ، ومن المحتمل أن يكون الشرّ قد هاج بينهما على أثر الغارة التي شنها المرّار وأخوه على بني عبس واستياقهما إبلاً لهم (٣) . وقد لجّ الهجاء بينهما وعمّ أذاه قومهما وبلغ المساور من هجاء بني أسد كل مبلغ حتى قال بعض الشعراء :

شقيت بنو أسدٍ بشعرِ مساور إن الشقيّ بكل حبلٍ يخنَقُ (٤)

---

١ ـ الاغاني ٣٩٠/١٥ .

٢ ـ الاغاني ٣٢١/١١ .

٣ ـ الاغاني ٣١٨/١٠ .

٤ ـ الشعر والشعراء ٣٠٧/١ .

ومما هجا به مساور بني أسد قوله :

ما سرّني أن أمي من بني أسدٍ   وأن ربي ينجيني من النارِ
وانهم زوجوني من بناتهم   وأن لي كل يوم ألفَ دينارِ

فأجابه المرّار على هذا الهجاء بقوله :

لستَ الى الأم من عبس ومن أسد   وانما انت دينارُ بن دينارِ
وان تكن انت من عبس وأمهم   فأم عبسكم من جارة الجارِ (١)

وما قاله مساور في هجاء بني أسد ينبيء بأنه كان من شعراء الهجاء المبرزين ، وأن المرّار لم يكن ندّاً له في هذا المضمار (٢) .

١٠ ـ ومن أشهر المناقضات القبلية التي كان مسرحها بلاد الحجاز تلك التي دارت بين الشاعرين القيسيين **ابن ميادة** المرّي **وحكم بن معمر** الخضري(٣) في أواخر عصر بني أمية (٤). وقد ثار التهاجي بينهما بسبب تنقّص ابن ميادة

---

١ ـ الشعر والشعراء ٣٠٧/١ . الاغاني ٢١٨/١٠ . دينار بن دينار : أي عبد بن عبد . وقد نسب ابو الفرج في موضع آخر بيتي مساور الى حكيم بن عياش الكلبي وذكر انه هجا بهما الكميت وساق بيتين للكميت يناقضه فيهما (الاغاني ١٢٢/١٥) .

٢ ـ انظر مثالا آخر من هجاء المساور بني اسد في شرح حماسة أبي تمام ٢٣/٤ .

٣ ـ الخضر : هم ولد مالك بن طريف بن محارب ، من قيس عيلان .

٤ ـ ابن ميّادة من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية . وهذه المناقضات جرت في العصر الاموي في زمن هشام بن عبد الملك بدليل ان قوم ابن ميادة استعدوا اسماعيل بن هشام المخزومي على الحكم وكان والياً على الحجاز من قبل هشام (انظر الاغاني ٢٩٧/٢) .

من قيمة شعر الحكم وهو ينشد الناس في مصلى النبي عليه السلام (١) . ولم يكن هذان الشاعران يلجآن في تناقضهما الى الشعر وحده بل كانا يعمدان كذلك الى السجع والرجز ، وقد لحق بني مرة وبني محارب من تهاجيهما اذى كثير حتى ان بني مرة استعدوا عامل المدينة على الحكم فطلبه ليقتصّ منه ففر الى الشام ولم يبرحها حتى مات (٢) . وقد افتنّ كل من هذين الشاعرين في هجاء قبيلة خصمه وفي إسباغ المخازي عليها ، فاذا قال الحكم مثلاً في هجاء بني مرة :

فيا مرُّ قد أخزاكِ في كل موطن ... من اللؤمِ خلات يزدنَ على العشر
فمنهن أن العبد حامي ذماركم ... وبئس المحامي العبدُ عن حوزة الثغرِ
ومنهن أن لم تمسحوا وجهَ سابقٍ ... جواد ولم تأتوا حصاناً على طهرِ

اجابه ابن ميّادة بنقيضة يجري فيها على غراره فيذكر لمحارب من المخزيات عشراً ، ومنها :

لقد سبقت بالمخزيات محاربٌ ... وفازت بخلات على قومها عشرِ
فمنهن أن لم تعقروا ذات ذروة ... لحقٍّ اذا ما احتيج يوماً الى العقرِ
ومنهن أن كانت شيوخُ محاربٍ ... كما قد علمتم لا تريش ولا تبري
ومنهن أن لو كان في البحر بعضكم ... لخبث ضاحي جلده حومة البحرِ (٣)

وقد ذكر أبو الفرج ان لهذين الشاعرين مناقضات كثيرة في الشعر والرجز (٤) .

---

١ — الاغاني ٢/٢٨٣ .

٢ — الاغاني ٢/٢٩٧ .

٣ — الاغاني ٢/٢٩٨ .

٤ — المصدر السابق .

نقائض جرير والفرزدق ومن تعرّض لهما من شعراء مضر (١)

ان الشر لم يقع بين فحلي تميم جـرير والفرزدق مباشرة وانما سبقته أحداث تحدث عنها ديوان النقائض حديثاً مسهباً(٢) . وكان أول شاعر لحم الهجاء بينه وبين جرير **غسان بن ذهيل** السليطي ، وسليط وكليب كلاهما من بني يربوع ، ولم يكن جرير قد عالج الشعر قبل ذلك ، وانما كان ترعية يرعى الغنم على أبيه عطية . وقد حدد أبو عبيدة زمن ابتداء المناقضة بين جـرير وغسان فجعله مستهل ملك ابن ا لزبير (٣) أي في حدود عام ٦٥ هـ . وفي هذا التحديد نظر لانه يناقض ما جاء في مقدمة النقيضتين (١٥) و (١٦) لجرير وغسان فهي تنص على أنهما قيلتا حين اجتمع الناس على معاوية (٤) ، وقد أشار بعض الباحثين الى خطأ هذا التحديد والى أن لجرير شعراً مقولاً منذ زمن معاوية في حين ان خبر النقائض يذكر ان جريراً لم يكن قال الشعر قبل مهاجاته السليطي، ورجح ان مبدأ المناقضة بينهما يرجع الى عام ٤٢هـ (٥) .

ويذكر شارح النقائض ان الهجاء ثار بين الشاعرين على أثر نزاع قام بين بني جُحيش بن سليط وبني الخَطفي ، رهط جرير ، على غدير بالقاع ، فقد

١ ــ جمع نقائض جرير والفرزدق وشرحها أبو عبيدة معمر بن المثنى ونشرها المستشرق انطوني اشلي بيفان عام ١٩٠٥ في ثلاثة أجزاء ثالثها للفهارس . وبلغ عدد النقائض في هـذه المجموعة مائة وثلاث عشرة نقيضة ، وهي تشتمل ــ هذا نقائض جرير والفرزدق ــ على نقائض لغسان السليطي والبعيث المجاشعي وغيرهما . وقد نشرت النقائض مرة أخرى عام ١٩٣٥ في جزأين بتحقيق الصاوي ، ولكن المحقق لم يستوف نشر النقائض وما نشره لا يشتمل الا على اثنتين وستين نقيضة .

٢ ــ انظر النقائض ١/١ وما بعدها .

٣ ــ النقائض ٢/١ .

٤ ــ النقائض ٢٥/١ .

٥ ــ نقائض جرير والفرزدق للزهيري ص ٦٤ .

جعل بنو الخطفى يهجونهم بسببه حتى أضطروهم الى الاستعانة بابن عمهم غسان بن ذهيل ليجيب عنهم ، وجرير يومئذ غلام يرعى على أبيه الغنم ، فأراد أن يتفلت الى غسان ويهجوه فمنعه قومه بادىء الامر لأنهم لم يجدوه نداً لمقارعة غسان ، ولكن جريراً ما لبث أن برهن على براعته الهجائية ، وكانت باكورة نقائضه رجزاً ، ثم انصرف الى الشعر يقوله أبياتاً قليلة يهجو بها السليطي وقومه ، وما لبث التهاجي أن لحم بينه وبين غسان واتصلت نقائضهما ، وكان يصبّ جام نقمته على بني سليط ويجعلهم شر عشيرة في بني يربوع ، ويجيبه غسان فيلصق كل مخزية ببني كليب ، رهط جرير ، فاذا قال غسان مثلاً :

قبح الإله بني كليب إنهم ... خورُ القلوب ، أخفةُ الاحلامِ
قوم اذا ذُكر الكرام بصالح ... لم يُذكَروا في صالح الاقوامِ
صبرٌ على طول الهوان أذل من ... نعلٍ من الانعام للاقدامِ
ويبين بخر اللؤم حين رأيتهم ... في كل كهل منهمُ وغلامِ

أجابه جرير بقوله :

أبني أدَيرة إن فيكم فاعلموا ... خورَ القلوب وخفةَ الاحلام
بئس الفوارسُ يوم نعفِ قُشاوة ... والخيل عادية على بِسطامِ
الظاعنون على العمى بجميعهم ... والخافضون بغير دارِ مُقامِ (١)

وبعد زمن من نشوب التهاجي بين غسان وجرير ، دخل الحومة شاعر ثالث من بني تميم هو **البعيث المجاشعي**، وكانت تربطه برهط غسان صلة رحم

---

١ ـ النقائض ١٦/١ . يوم قشاوة . يوم لبسطام بن قيس الشيباني على بني يربوع ، ولم يكن لبني سليط فيه بلاء يذكر .

من قبل النَوار بنت مجاشع ففضل رهط غسان على رهط جرير ، ونصر السليطي على خصمه، فحمي جرير وتفلّت الى البعيث يهجوه وقومه، وكانت باكورة اهاجيه فيه قصيدته التي مطلعها :

طاف الخيال واين منك لِماما ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ فارجع لزَورك بالسلام سلاما

وقد تردد البعيث طويلاً قبل أن يجيب جريراً على قصيدته هذه حتى أثار حفيظته عليه بعض بني مجاشع فحمي وقال يجيبه بأبيات منها قوله :

أجرير اقصِر لا تحنْ بك شِقوةٌ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ان الشقيّ ترى له اعلاما (١)

ثم لجّ التهاجي بين جرير والبعيث بعد ذلك ، وسقط غسان . وكان البعيث في نقائضه مع جرير يلصق ببني كليب ويربوع كل مثلبة ومخزية ويفخر بمجاشع وينسب اليها كل منقبة وفضيلة ، وكان جرير يجيبه بنحو ذلك فيلصق ببني مجاشع كل معرّة ويتعرض لنسائهم بفاحش القول ويفخر ببني يربوع ويشيد بأيامهم التي انتصروا فيها على أعدائهم ، ويخصّ البعيث بهجائه ويطعن في نسبه ، فنسمع البعيث مثلاً يقول :

بني الخطفى هل تدفُنُنّ اباكم ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ كليباً ومولاكم حراماً ليكتما

فكل كليبيٍّ عليه علامة ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ من اللؤم تبدو حاسراً او معمما

فانك قد جاريت سابقَ حلبةٍ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ نجيبَ جياد بين فرعين مُعلَما

ونحن حدرنا طيئاً عن بلادها ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ونحن رددنا الحوفزان مكلما (٢)

---

١ ـ النقائض ٣٧/١ وما بعدها .

٢ ـ النقائض ٤٢/١ . يشير في البيت الاخير الى أيقاع بني دارم ببني طيء انتقاماً منهم لتحريضهم عمرو بن المنذر عليهم يوم أوارة . والحوفزان هو الحارث بن شريك الشيباني وقد زجه قيس بن عاصم المنقري بالرمح في بعض المواقع فلقب بالحوفزان لذلك .

ويجيبه جرير بنقيضة يقول منها :

لعمري لقد جارى دعي مُجاشع ... عَذوماً على طول المجاراة مِرجما

فاني لهاجيكم واني لراغبٌ ... باحسابنا فضلا بنا وتكرّما

سأحمَد يربوعاً على أن وِردها ... اذا ذيد لم يُحبَس وان ذاد حكما

وإنا لقوّالون للخيل أقدمي ... اذا لم يجد وغلُ الفوارس مَقدما(١)

ولم يكن البعيث بالشاعر المفحم المغلّب ، ولكنه لم يكن كفؤاً لمقارعة جرير ، فما لبث جرير أن علاه وظهر عليه ، وحينئذ لجأت نساء مجاشع الى شاعرها الفرزدق يثرن حفيظته على جرير ويهبن به أن يذود عن أعراض قومه. وكان الفرزدق في ذلك الحين عازفاً عن الخوض في معارك الهجاء ، لانه كان حج وعاهد الله لا يهجو أحداً ، ثم قيّد نفسه وآلى لا يحلّ قيده حتى يجمع القرآن ، إلا أنه كان يرقب عن كثب هذه المعركة الهجائية التي ثارت بين جرير والبعيث ، موقناً الاّ مفرّ له من خوض غمارها عاجلا أو آجلا ، ليقينه ان البعيث لم يكن أهلاً لمصاولة جرير ، وهو لن يسعه الوقوف موقف المتفرج وجرير يستبيح أعراض قومه. ولعله كان يتعمد التريث في خوض هذا المعترك ريثما يتجلى تفوق جرير على خصمه ليكون له فضل إنقاذ قومه من براثن هذا الشاعر الفحل . وهكذا لما أقبلت اليه نساء مجاشع يستنجدن به لم يتردد في كسر قيده وتفلّت الى جرير يبادره الهجاء في قصيدته التي مطلعها :

الا استهزأت مني هنيدةُ أن رأت ... أسيراً يُداني خطوَه حلقُ الحِجْلِ(٢)

---

١ ـ النقائض ٥٩/١ وما بعدها. العذوم : العضوض . المرجم : الذي يرجم الارض برجله شبه نفسه بالفرس السريع القوي . الورد ، هنا : الجيش . الوغل : الضعيف .

٢ ـ النقائض ١٢٤/١ . الحجل : القيد .

على أنه لم يكتف بهجاء جرير بل شمل البعيث أيضاً بهجائه لتعريضه قومه للفضيحة بمهاجاته جريراً وعجزه عن مقارعته، وأعلن الفرزدق للملأ أنه وحده شاعر مجاشع الذائد عنها :

انا الضامن الراعي عليهم وانما يدافع عن احسابهم انا او مثلي

ولما بلغت هذه القصيدة مسامع البعيث انبرى لنقضها فقال قصيد يهجو بها الفرزدق وجريراً معاً وجاء دور جرير فقال قصيدة ينقض بها قصيدتي الفرزدق والبعيث معاً ، وقد أسفرت هذه المناقضة الثلاثية الطريفة عن سقوط البعيث صريعاً تحت أقدام فحلي القريض المتصاولين ، ولحم التهاجي منذ ذلك الحين بين جرير والفرزدق ، وظلا يتقارضان الهجاء زهاء خمسة وأربعين عاماً ، ولم تتوقف معركتهما الهجائية الا بموت الفرزدق عام ١١٤ هـ فكانت أطول معركة هجائية عرفها أدبنا العربي في جميع عصوره .

وأبو عبيدة لم يؤرخ زمن ابتداء المناقضة بين هذين الشاعرين، ونحن نجد في نقائض جرير والبعيث ما يدل على أن خصومتهما استمرت الى ما بعد وفاة يزيد ، وهو إشارة جرير في النقيضة (٣٠) الى مقتل مسعود بن عمرو وفرار عبيد الله من العراق بقوله :

ويوم عبيد الله خضنا براية وزافرة تمت الينا تميمها (١)

فمن الطبيعي أن تكون مناقضة جرير والفرزدق قد بدأت بعد هذا التاريخ ، أي بعد عام ٦٤ هـ ، يؤيد ذلك مخاطبة جرير الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة والي العراق من قبل ابن الزبير (٦٥ ـ ٦٧ هـ) في نقيضته الاولى مع الفرزدق بقوله :

---

١ ـ النقائض ١١٢/١ .

أبا خالد أبليتَ حزماً ونائــــلا وكل امرىءٍ مثنى عليه بما يُبلي(١)

ولعلنا نتساءل عن السبب في استمرار الخصومة بين شاعري تميم كل هذه الحقبة الطويلة، وهل كان ثمة ما يسوّغ اتصال الشر بينهما قرابة نصف قرن من الزمان ؟ الحق اننا لا نستطيع تعليل هذه العداوة بدوافع العصبية وحدها ، فلم يكن بين عشيرتي الشاعرين ، كليب ومجاشع ، عداوة تدفـع الشاعرين الى التهارش وتقارض الهجاء في عناد وضراوة طوال هـذه الحقبة المديدة ، ومن المحقق ان تميماً قبيلتهما المشتركة ، لم تكن راضية عن نشوب هذه المعركة الهجائية التي أذاعت مخازيها في الناس، حتى لقد ذهب أبو عبيدة الى إن الله لم يخلق أشأم من هذين الشاعرين على قومهما لاخراجهما مثالب بني تميم وعيوبهم (٢) ، فقد ينبغي أن نلتمس اذن سبباً آخر لاتصال التهاجي بين هذين الشاعرين يضاف الى دوافع العصبية ، ولم يكن لنزاع هيّن بين بني مجاشع وبني ذهيل بن يربوع أن يثير مثل هذه المعركة الهجائية الطـويلة الأمـد . والتعليل البعيد لاتصال هذه الأهاجي بين الشاعرين يكمن في أن هـذه المناقضات كانت سبيلاً لاذاعة شهرة الشاعرين وطيران صيتهما في الآفاق ، فقد وجدا ان الناس يقبلون على سماع نقائضهما إقبالا عجيباً ، ولا يكاد أحدهما يتهيأ لانشاد نقيضة له في المربـد حتى يتحلّق الناس حـوله

---

١ ــ النقائض ١٥٨/١ وما بعدها . وكان الحارث حين تواقف جرير والفرزدق بالمربد أرسل في طلبهما فهربا ولما لجّا في الهجاء هدم الحارث داريهما ، وأشار الفرزدق الى هذا الامر بقوله في نقيضة له (النقائض ٦٠٧/٢) :

أحارثُ داري مرتـين هدمتها وكنتَ ابنَ اخت لا تخاف غوائله

كما اشار اليه جرير في نقيضة هذه القصيدة بقوله (النقائض ٦٨٢/٢) :

أحارثُ خذ ما شئت منا ومنهم ودعنا نقس مجداً تُعدّ فواضله

فما في كتـاب الله تهـديم دارنا بتهـديم ماخور خبيث مداخله

٢ ــ النقائض ٤٩/٢ .

ويزدحمون لسماعها ويستقبلونها بالتصفيق والتهليل ، فاذا انفضّ الجمع انطلقوا يرددون أبيات القصيدة ويتناقلونها في كل محفل، ويصدرون أحكامهم عليها ، وهم بعد ذلك يترقبون نقيضتها بصبر نافد ، كما يترقب الناس صدور الصحف في أيامنا ويتشوقون الى الوقوف على أحدث أنبائها . ومن هنا لم نجد جريراً والفرزدق يضيقان باستمرار التهاجي بينهما لانه حقق لهما هذه الدعاية الادبية الضخمة التي وضعتهما في طليعة فحول الشعراء عصرئذ ، ومن هنا أيضاً أخفقت المحاولات التي بذلها بعضهم لاصلاح ما بين الشاعرين فلم يكفا عن التهارش والتقارض (١) . وكلما أوشكت نار المعركة على الخمود عاجلها أحدهم بوقود من هجائه يزيدها تلهّباً واستعاراً، وعلى هذا النحو ظل خبر تناقضهما حديث كل مجلس وسمر كل محفل . ومن هنا نرى ان العداوة بينهما كانت أدنى الى المنافسة الادبية منها الى الخصومة القبلية ، فكلاهما كان يتوخى إظهار براعته الشعرية ومقدرته الهجائية ليحظى بلقب شاعر تميم الاول ، وكلاهما كان يحرص على إرضاء مستمعيه والظفر باعجابهم مصطنعاً في سبيل ذلك شتى أساليب الهجاء . ومن المؤكد انهما لم يلجآ الى الافحاش في القول وذكر العورات والسوءات إلا لأنهما وجدا الناس يقبلون على هذا اللون من الهجاء ويهشّون لسماعه ، وهذا يؤكد ما سبق أن ذكرناه من أن فن الهجاء أصبح حرفة قائمة بنفسها في هذا العصر يتوافر عليها صاحبها ليبلغ بها شأوها من الاتقان والاحكام .

فكذلك نرى ان العداوة بين الشاعرين لم تكن عداوة قبلية مستحكمة ، وثمة أخبار كثيرة تشهد بقيام التعاطف والمودة بين الشاعرين (٢)، ومن آيات هذا التعاطف سعي جرير في استنقاذ الفرزدق من سجنه حين حبسه صاحب الشرطة(٣)، وتوسط الفرزدق لدى المهلب ليعفي جريراً من قتال الأزارقة(٤).

---

١ ـ انظر الاغاني ٣٣/١٩ .

٢ ـ انظر التطور والتجديد لشوقي ضيف ص ١٩٦ .

٣ ـ الاغاني ٤٢/١٩ .

٤ ـ الاغاني ٢٨/١٩ .

وكانت لحمة العصبية الواشجة بينهما ربما حملت أحدهما على مدّ يد العون الى صاحبه حين يهاجيه شاعر آخر (١) .

فالعداوة بين جرير والفرزدق مردّها في الاصل الى الخصومات القبلية ، ولكن استمرارها على هذا النحو مردّه الى الرغبة في الظفر بهـذه الدعاوة الأدبية المجلجلة التي حققها الشاعران من طريق تهاجيهما ومردّه أيضاً الى تنازع الشاعرين لواء الزعامة الشعرية في بني تميم ، وقد رأينـا الفرزدق يسخط على البعيث لادعائه انه شاعر مجاشع الذائد عن أحسابها فسدد سهام هجائه أول الأمر اليه ليزيحه من طريقه ، فلما خلا ميدان المعركة له ولجرير أخـذا يتصاولان بعنف وضراوة لاثبات مهارتهما الهجائية وللظفـر بمرتبة الصدارة في شعراء تميم ، وكان كل منهما كفؤاً لصاحبه فلم يتح لأحدهما الظهور على خصمه وإخماله وظل لواء الشعر في تميم متداولاً بينهما مـدة حياتهما .

وفي رأينا ان الشهرة الادبية التي ظفر بها جرير والفرزدق والاخطل في عصرهم كان مردّها في المرتبة الاولى الى هذه المصاولات الهجائية التي قامت بينهم ، فهي التي أذاعت شهرتهم وأطارت صيتهم في الآفـاق ، وهي التي قدمتهم على سائر شعراء العصر الاموي ، فضلاً عن الشهرة التي أصابوها من طريق إجادتهم فن المديح الذي وقفوا عليه جانباً كبيرا من أشعارهم ، ولولا هذه المناقضات التي قامت بينهم لما شُغل النقاد بالموازنة بينهم .

ولما جلبته هذه المناقضات لهم من أسباب الشهرة وذيوع الصيت أقـدم نفر من الشعراء على قذف أنفسهم في أتّون هذه المعركة الهجائية ، وكانوا يتحرشون في الغالب بجرير لما عرف عنه من شدة الانفعال والغضب والاسراع الى هجاء كل من يتعرض له أو لقومه بسوء ، ولأن عشيرته كانت دون عشيرة

---

١ ـ انظر خبر اعانة الفرزدق جريراً على ابن لجأ في طبقات ابن سلام ص ٣٧٠ .

الفرزدق شرفاً ونباهة ذكر ، فكانت الشعراء تتعرض له ليهجوهم فينبه ذكرهم (١) ، والى هذا يشير جرير في هجائه التيم بقوله :

ونُبئت تيماً قد هجوني ليُذكروا فهذا الذي لايشتهون من الذكرِ (١)

ولهذا كله كثر عدد الشعراء الذين هاجاهم جرير كثرة تلفت النظر حتى جاوز عددهم العشرين ومنهم شعراء مجيدون أمثال الراعي النميري وسراقة البارقي وعمر بن لجأ . أما الفرزدق فكان يترفع عن هجاء من لا يراهم أكفاء له ، ولذلك انصرفوا عنه الى جرير وتكاثروا عليه .

فهذه المناقضات بين جرير والفرزدق كانت تمثل إذن لوناً من المبارزة الشعرية تتجلى فيها براعة كل من الشاعرين في كيل الضربات لخصمه وتسديد سهام الهجاء الى مواطن الضعف في قومه بنشر مثالبهم وإذاعة معايبهم ، ومن هنا اتخذ هجاؤهما طابعاً قبلياً الى جانب طابعه الشخصي . وقد شحنت نقائضهما صدور عشيرتيهما بالأحقاد وأثارت الحفائظ ، ولم تجن يربوع ودارم من وراء هذه المناقضات غير إذاعة مثالبها في الناس ، أما الشاعران فقد جنيا من وراء ذلك شهرة أدبية خلدت ذكرهما على الدهر .

وحين نعود الى نقائض هذين الشاعرين نجد جريراً قد تعلق بطائفة من المثالب لا يزال يعيّر بها بني دارم ، قوم الفرزدق ، في جميع أهاجيه ، ومما عيّرهم به تخلّيهم عن نصرة الزبير بن العوّام ، وكان استجار بالنَعِر بن الزمّام المجاشعي ، منصرفه من وقعة الجمل ، فلحق به عمرو بن جرموز السعدي فغدر به وقتله ولم تمنعه مجاشع (٣) ومن ذلك قوله مثلاً :

---

١ — طبقات ابن سلام ص ٣٨٠ .

٢ — ديوان جرير ص ٢١٤ .

٣ — انظرِ النقائض ٨٠/١ . والطبري ٥٣٩/٣ .

أجـيران الزبـير غـررتمـوه كمـا اغتر المشبـهُ بالسـرابِ
ولو سـار الزبـير فحـل فينـا لمـا يئس الزبـيرُ من الإيـابِ
وما بات النوائـحُ مـن قـريش يُراوحن التفجـع بانتحابِ (١)

وعيّرهم كذلك اكل الخزير ، وهو طعام يعمل من الدقيق واللحم ، كقوله :

ويكفي خزيرُ المرحلـين مجاشعاً اذا ماالسرايا حثركضاً مُغيرها(٢)

ورمى جرير الفرزدق وقومه بالهجنة لأن قفيرة جدة الفرزدق وأم صعصعة كانت سبيّة من قضاعة سباها سلمى بن جندل يوم الحرَجات (٣)، (أو كانت جدته أمَة وهبها كسرى لزرارة بن عدُس وجاءت بقفيرة من سكين بن حارثة ابن زيد الدارمي(٤)) واليها يشير جرير في قوله :

قفيرةُمن قِنٍّ لسلمى بن جندلٍ أبوك ابنها بين الإماءِ الخوادمِ(٥)

وكان لا يفتأ يعيّر بني مجاشع بأنهم قيون، ويدعو الفرزدق بابن القين،وسبب ذلك ان صعصعة جدّه كان له قيون منهم جُبير ووقبان ودَيسم ، فنسب

---

١ ـ النقائض ١٠٣٥/٢ . ديوان جرير ص ٢٧ .

٢ ـ النقائض ٥٤٤/١ . وخبر الخزير ان ركباً من مجاشع مرّوا في الجاهلية وهم عجال على شهـاب التغلبي فسألهم أن ينزلوا فقالوا : نحن مستعجلون ، فقـال : لا تجوزوا حتى تصيبوا القرى ، فحمل اليهم خزيرة فجعلوا يأكلونها وهم على ابلهم ويعظمون اللقم حتى سالت على لحاهم (الشعر والشعراء ٤٤٢/١) .

٣ ـ النقائض ٧٦٧/٢ .

٤ ـ الشعر والشعراء ٤٤٢/١ ، النقائض ٢١٩/١ .

٥ ـ النقائض ٤٢٧/١ .

جرير غالباً أبا الفرزدق الى جبير، وجعل قبيلة مجاشع كلها قيوناً[1]، فكذلك نرى قبائل العرب ظلّت في هذا العصر على عنجهيتها ، ترى في مزاولة الحرف والصناعات منقصة ومثلبة ، وجرير يلحّ على هذا المطعن في أهاجيه التي قالها في الفرزدق والبعيث إلحاحاً شديداً ، ولا يزال يولّد منه المعاني والصور كقوله مثلاً :

اخزى الذي سمك السماء مجاشعاً	وبنى بناءك في الحضيض الاسفلِ
بيتاً يحمم قينكم بفنائه	دنساً مقاعده ، خبيثَ المدخلِ
إني بنى لي في المكارم أوّلي	ونفخت كيرك في الزمان الاول
أعيتك مأثرةُ القيونِ مجاشعٍ	فانظر لعلك تدّعي من نهشلِ [2]

وعيّر جرير الفرزدق ورهطه بتعرض فتيان من بني منقر لأخته جعثن[3]، ولم يتورّع عن رمي جعثن بكل فاحشة وعن تضخيم الحادثة وإضافة ما شاء له خياله أن يضيف اليها حتى جعل حديثها مضغة في الأفواه فنسمعه يقول مثلاً :

فهلاّ غِرتِ يوم أراد قومٌ	أصابوا عقرَ جِعثِنِ ان تغارا
أتذكر صوتَ جِعثن إذ تنادي	ومَنشدَكَ القلائدَ والخِمارا
الم تخشوا اذا بلغ المخازي	على سوءات جعثن ان تثارا [4]

---

١ ـ النقائض ٧٨/١ . الشعر والشعراء ٤٤٢/١ .

٢ ـ النقائض ٢١٣/١ .

٣ ـ نزل الفرزدق في بني منقر والحيّ خلوف فجاءت أفعى الى جارية منقرية فدخلت مهما في شعارها فخافت وصرخت فجاء الفرزدق فاحتال للافعى والتزم الجارية فنهرته فقال فيها شعراً اسخط عليه بني منقر فأرسلوا رجلا ليعرض لجعثن أخت الفرزدق ، فلما خرجت وثب فضرب بيده على نحرها فصاحت ومضى الرجل فعيّر الفرزدق بذلك (النقائض ٢٢٢/١ . الشعر والشعراء ٤٤٤/١) .

٤ ـ النقائض ٢٥١/١ . العقر : ارش الافتضاض .

وألى هذه المعايب وأمثالها كان جرير يعيّر قوم الفرزدق بالوقائع التي هزموا فيها سواء في الجاهلية أو في الاسلام كيوم رحرحان ، ويفاخر بقومه بني يربوع وأيامهم الظافرة كيوم طِخفة ، ويضيف الى قومه كل مأثرة يحمد بها بنو تميم ، قبيلهما المشترك . وسنعود الى تفصيل القول في هذه الناحية في حديثنا عن المفاخرات القبلية .

ولم يكتف جرير بهجاء بني دارم بل أضاف اليهم كذلك بني ضَبَّة، أخوال الفرزدق ، لانتصارهم له بدافع العصبية ، وكذلك انتصر للفرزدق أعمام قومه بنو طُهيّة، فشملهم جرير بهجائه أيضاً لهذا السبب كما هجا آل الزبرقان بن بدر الذين نصروا الفرزدق لأن أمّهم هنيدة بنت صعصعة كانت عمة الفرزدق.

ولم يقنع جرير بالمثالب القبلية ، بل أضاف اليها مطاعن شخصية كانت في الفرزدق ، فكان لا يزال يعيّره بما اشتهر من فجوره وفسقه وبنفي عمر بن عبد العزيز إياه من المدينة لهذا السبب ، نحو قوله :

زار الفرزدقُ أهلَ الحجازِ … فلم يحظَ فيهم ولم يُحمَدِ

نفاك الأغرّ ابنُ عبد العزيز … بحقك تنفى من المسجدِ (١)

كما عيّره بحادثة نبو السيف في يده وقد أشرنا اليها آنفاً(٢) ، وبقصر قامته ، ونحو ذلك من المطاعن فيقول مثلاً :

لقد ولدت أم الفرزدق فاجراً … فجاءت بوَزواز قصير القوائمِ

يوصّل حبليه اذا جنّ ليله … ليرقى الى جاراته بالسلالمِ

أتيت حدودَ الله مذ أنت يافعٌ … وشبت فما ينهاك شيبُ اللهازمِ (٣)

---

١ ـ النقائض ٧٩٨/٢ .

٢ ـ النقائض ٣٨٣/١ .

٣ ـ النقائض ٣٩٥/١ .

وكان الفرزدق يردّ ضربات جرير بضربات مماثلة فيعدّد مخازي قبيلة يربوع عامة ، وكليب ــ رهط جرير ــ خاصة ، فيعيّرهم بحادثة أبي سُواج، وبسوق الأعيار ورعي الشاء والغنم كقوله مثلاً :

ألا إن ميراث الكليبي لابنــــه إذا مــات رِبقــا ثلَّــةٍ وحبائله

فأقبِــل على رِبقَي أبيك فانمــا لكل امرىء ما اورثته أوائله (٢)

وقد أطلق على جرير لقب ابن المراغة، وكان لايزال يعيّره بضعة أبيه عطية ورهطه وانه لذلك يحاول التنصل من الانتماء الى أبيه فيخاطبه بنحو قوله :

ان استراقك يا جريرُ قصائدي مثلُ ادعــاء سوى أبيك تنقّلُ

وابنُ المراغة يــدعي مــن دارم والعبدُ غــير أبيــه قد يتنحّــلُ

ليس الكــرام بناحليك أباهــم حتى تُرد الى عطيــةَ تُعتلُ (٣)

وعيّر الفرزدق بني يربوع بالوقائع التي هزموا فيها أيام الجاهلية، ومنّ عليهم بما كان لبني دارم من يد عليهم في بعض هذه الوقائع كيوم ذي بَيض الذي أغار فيه بنو شيبان على بني يربوع واستاقوا إبلهم فلحق بنــو دارم ببني شيبان واستنقذوا ما في أيديهم من أموال بني يربوع فيقول فيه :

لو تعلمون غداةَ يُطــرد سَبيكم بالسفح بــين مُليحة وطِحــالِ

---

١ ــ وقع شر بين ابي سواج الضبي وصُرد بن جمرة اليربوعي فزعم صرد انه يخالف الى امرأة ابي سواج فاحتال هذا في التغرير بصرد وسقاه لبناً ممزوجاً بمنيّ عبد فكان بنو يربوع لا يزالون يعيِّرون بهذا الامر (انظر تفصيل الخبر في الاغاني ٣٠٩/٨ . والنقائض ٢٠٦/١) .

٢ ــ النقائض ٦٠١/٢ . الربق : حبل تشد به المعزى . الثلة : جماعة الضأن والغنم .

٣ ــ النقائض ٢٠٢/١ . تعتل تقاد .

والحوفزان مسوّمٌ أفراسه	والمحصنات يجلن كل مجال
حتى تداركها فوارسُ مالكٍ	ركضاً بكل ُطوالةٍ وُطوالِ (١)

ولم يكن الفرزدق يكتفي بهجاء بني كليب وبني يربوع وإنما كان يطوق بهجائه قبيلة قيس أيضاً نكاية بجرير الذي كان لا يزال يمدحها وينافح عنها . على ان جانب الفخر في نقائض الفرزدق أوسع من جانب الهجاء ، لانه وجد في شرف آبائه وقومه ما يحمله على مباهاة جرير وقومه بهم في كل نقيضة فهو لا يني يفاخر بجده صعصعة محيي المؤودات ، وبأبيه غالب ومعاقرته المشهورة لسُحيم بن وَثيل الرياحي ، وبسائر الرجال المشهورين في قومه ، ويفيض في الاشادة بمآثرهم ووقائعهم ، بل ان الفرزدق لم يكن يقنع بمفاخرة جرير بقومه ، فكان يفاخره بالشعر أيضاً ويتحداه أن يأتي بمثل شعره كما كان يتحداه أن يأتي بمثل قومه(٢) ، وكان ينهي بعض نقائضه بتحدي جرير أن ينقض قصيدته نحو قوله في ختام احدى نقائضه :

فدونك هذي فانتقضها فانها	شديد قُوى امراسها ومواصله(٣)

ولدوران المعركة بين هذين الشاعرين في الدائرة التميمية كان كل منهما يدّعي انه وحده شاعر تميم الذائد عنها ويحاول الظفر بمنزلة الشاعر الاول في هذه القبيلة ، فنسمع الفرزدق يقول مثلاً :

انا ابنُ تميم والمحامي وراءها	اذا اسلم الجاني ذِمارَ المحارم(٤)

---

١ ــ النقائض ١٨٥/١ . الحوفزان : رئيس بني شيبان يوم ذي بيض . مالك : ابو دارم.

٢ ــ انظر مثلا النقيضة (٣٩) ١٨١/١ وما بعدها .

٣ ــ النقائض ٦٢٨/٢ .

٤ ــ ديوان الفرزدق ص ٨٥٧ .

ونسمع جريراً يهتف :

تمنى رجـال من تميم لي الاذى   وما ذاد عن أحسابهم ذائد مثلي(١)

***

وفي إطار العصبيات الصغرى أيضاً ثارت معركة هجائية بين جرير وبين شاعر تيم الرباب **عمر بن لجأ** ، والرباب كانت احدى القبائل التي تضمها زمرة تميم وأحلافها بالبصرة لما بينهما من صلات الرحم ، فكلاهما تنتمي الى أدّ ابن طابخة .

وقد ثار الشرّ بين جرير وابن لجأ بسبب ملاحظة أبداها جرير على معنى أورده ابن لجأ في أرجوزة له ، فردّ عليه ابن لجأ وعاب عليه بعض معانيه ، وتغالظا القول فاتهم جرير ابن لجأ بالانتصار للفرزدق وإعانته عليه، وما لبث أن عبّر عن سخطه على ابن لجأ تعبيراً عملياً فنظم قصيدة في هجائه يقول فيها:

هـلا سوانا ادراتم يابني لجـأٍ   شيئاً يقـارب او وحشاً لها غِرَرُ
أحين كنتُ سـماماً يا بني لجـأ   وخاطرتْ بي عن أحسابها مضـرُ
خل الطريق لمن يبني المنـار بـه   وأبرز ببرزة حيث اضطرك القدرُ
انت ابن بَرزة منسوباً الى لجـأ   عند العُصارة والعيدان تعتصرُ

وسرعان ما جاءه جواب التيمي اذ نقض قصيدته هذه بقصيدة يقول منها :

لقد كذبتَ وشر القـول أكذبـه   ما خاطرت بك عن احسابها مضرُ
ألستَ نزوةَ خوارٍ على أمـة   لا يسبق الحلبـات اللؤمَ والخورُ

---

١ ـ النقائض ١٦١/١ .

ما قلت من مـرة الا سأنقضهـا يا بن الاتان بمثلي تنقض المِررُ(١)

وكانت هاتان القصيدتان فاتحة النقائض بينهما، ثم اتصل التهاجي بينهما بعد ذلك ، وفي ديوان جرير زهاء عشرين قصيدة في هجاء التيم وشاعرها ابن لجأ ، ولم تصلنا الا أبيات قليلة من أهاجي ابن لجأ في جرير ، ونجد ابن لجأ يشير في بعض أهاجيه الى خبر أبي سُواج الذي عُيّرت به بنو يربوع فيقول :

اذا ما ابنُ يربوع أتـاك لمأكـل على مجلس ان الاكيل مجالسُ

فقل لابن يربوع ألست براحضٍ سِبـالك عنـا انهـن نجـائسُ

تُمسّح يربوعٌ سِـبالا لئيمـة بهامن مَنيّ العبدِ رَطبٌ ويابسُ(٢)

ويظهر أن ابن لجأ كان يستعين على هجاء جرير بشعراء قومه ، وقد روى ابن سلام ان قبيلة التيم كانوا رعاة غنم يغدون في غنمهم ثم يروحون وقد جـاء كل رجل منهم بأبيات فينتحلها ابن لجـأ ومن هؤلاء السَرندى ، وهو أشعر التيم بعد ابن لجـأ (٣) .

وكان جرير اذا هجا التيم وصفهم بالذلة وهوان الشأن واللؤم والضعة ، وجعل همّهم المأكل والمشرب ، أما القتال فلا خبرة لهم به وليسوا أهلاً له ، لحقارة شأنهم ، ولانصرافهم الى رعي الشاء والغنم ، وهو يجردهم من جميع المآثر والمناقب التي يفاخر بها ، فنسمعه يقول مثلاً :

---

١ ـ طبقات ابن سلام ص ٣٦٣ . الاغاني ٧٠/٨ . أدرأتم : ختلتم للصيد أو اتخذتم دريئة ، وهي التي تسدد اليها السهام . برزة : هي أم عمر بن لجأ . وفي رواية الطبقات : « له عرر » والعرة : الأذى .

٢ ـ طبقات ابن سلام ص ٣٦٦ . الاغاني ٧٦/٨ .

٣ ـ طبقات ابن سلام ص ٣٧٢ . الاغاني ٧٨/٨ .

يا تيمُ ما القارون في شدة القِرى ... بتيم ولا الحاملون عند الحقائق

وتيم تماشيها الكلابُ اذا غدت ... ولم تمش تيم في ظِلال الخوافق

وتيم بأبواب الزُروب أذلة ... وما تهتدي تيم لباب السُرادقِ

وما أحسنَ التيمي في جاهلية ... منادمةَ الجبار فوق النمارقِ

تعادى على الثغر المخوف جيادُنا ... وتيم تحاسى جُنحاً في المعالقِ (١)

ولم يكن جرير يتورّع عن رمي نساء تيم بكل فاحشة ، وكان خصمه يقابله بمثل ذلك ، ولذلك أتى بهما عمر بن عبد العزيز، وكان والياً على المدينة فأقامهما على البُلُس مقرونين (٢)، وهي عادة جرى عليها بنو أمية للأخذ على يد شعراء الهجاء الذين يقذفون المحصنات ويلغون في أعراض الناس .

والى ذلك كان جرير يطعن في نسب التيم وينفيهم من خِندف ، ومن الانتساب الى اسماعيل جد العدنانية ويجعلهم من أبناء حام، فيقول مثلاً :

أبوك التيم ليس بخندفيٍ ... ارابَ سوادُ لونكم ارابا (٣)

او يقول :

---

١ – ديوان جرير ص ٢٩٩. النمارق : جمع نمرقة : الوسادة . تحاسى : تشرب الحساء. والمعالق : العلب الصغار .

٢ – الاغاني ٨٢/٨. البلس : غرائر كبار يجعل فيها التبن ويقام عليها من يراد التشهير به. وذكر في رواية أخرى ان الذي فعل بهما ذلك هو الوليد بن عبد الملك حين قدم المدينة وانه أمر عامله عليها أبا بكر بن حزم بضربهما والتشهير بهما (طبقات الشعراء ص ٣٦٨ . الاغاني ٧١/٨) وهذا الخبر لا يصحّ لان ابن حزم لم يكن والياً للوليد وانما لعمر بن عبد العزيز . وقد ولي عمر بن عبد العزيز الحجاز للوليد بن عبد الملك .

٣ – ديوان جرير ص ٢٣ .

ما بين تيم وأسماعيلَ من نسبٍ ... الا القرابةُ بين الزَنج والرومِ
ان ابن تيمٍ لمنسوب لوالده ... داني القرابة من حام ويحمومِ(١)

واذا عمد الى المفاخرة فاخر التيم بأيام يربوع وتميم ، وبرجال بني يربوع المشهورين ، وتحدّى خصمه ان يأتيه بمثل أشراف قومه وتطاول عليه بنسب قومه العريق ، نحو قوله مثلاً :

لنا البدرُ المنير وكل نجم ... وفيمَ التيم من طلب النجومِ
أبونا مالك وأبوك تيمٌ ... فقد عُرف الاغر من البهيمِ
فعمرو عمنا وانا ابنُ زيد ... فأكرمْ بالابوة والجدودِ (٢)

وعلى كثرة أهاجي جرير في التيم لم يكن لهجائه كبير أثر فيهم لوضاعة اصلهم ، وحقارة شأنهم ، ولذلك حين سأل جريراً ابنه لمَ لم يصنع هجاؤه في التيم شيئاً ، كان جوابه انه لم يجد بناءً يهدمه ولا شرفاً يضعه (٣) .

ويذكر ابن سلاّم ان قبيلة الشاعرين ضاقت بهجائهما لنشرهما مساوىء قومهما وافتئاتهما على الأحياء والأموات ، فما زالوا بهما حتى أصلحوا بينهما بالمواثيق والعهود ، فكفّ التيمي ، وكان جرير لا يزال يسل الواحدة بعد الواحدة فيه ، فيقول ابن لجأ : والله ما نقضت هذه ولا سمعتها ، فيقول جرير : هذه كانت قبل الصلح (٤) .

وتذكر بعض الاخبار ان الفرزدق حمي لجرير أن يتعلّق به التيمي ، على

---

١ – ديوان جرير ص ٤٨٩ .

٢ – ديوان جرير ص ٥٢٨ .

٣ – الاغاني ٧٨/٨ .

٤ – طبقات ابن سلام ٣٧٢ . الاغاني ٧٨/٨ .

ما كان بينهما من خصومة وعداوة ، فنصح لجرير أن يأتي التيمي من عل ، وخاطب التيميَّ بقوله :

وما انت إن قرما تميمٍ تساميا ... اخا التيم الا كالوشيظة في العظم

فلو كنتَ مولى العز او في ظلاله ... ظلمت ولكن لا يدي لك بالظلمِ

فأجابه التيمي بقوله :

كذبت انا القَرم الذي دق مالكاً ... وافناء يربوع وما انت بالقرمِ(١)

ومن العجيب أن يقف الفرزدق هذا الموقف من ابن لجأ ، مع أن جريراً انما نقم على ابن لجأ نصرته للفرزدق (٢) ، ولذلك كان يقرنه في أهاجيه الى الفرزدق والاخطل ، ومن هنا يساورنا بعض الشك في صحة هذا الخبر ولا سيما اننا نجد للفرزدق قصيدة ينتصر فيها لتيم على كليب ومطلعها :

لئن نذرت تيم هجاءَ قبيلة ... لئام لقد حلت لتيمٍ نذورُها (٣)

ومن المحقق ان فن النقائض قد تطور تطوراً بعيد المدى على يد جرير والفرزدق والاخطل فقد توافروا على إجادته وإحكام أصوله حتى بلغوا به غايته من الارتقاء الفني. وكان كل منهم يسعى جهده لاستقصاء مثالب خصمه وقومه وتتبع مطاعنهم وتسديد سهام الهجاء النافذة الى مواطن النقص في نسبهم وماضيهم وأخبارهم، ولنقض قصيدة خصمه ودحض مزاعمه مستعيناً بشتى ضروب الثقافة التي أتيح له الوقوف عليها ، ومتسلحاً بسلاح الجدل

---

١ ـ الاغاني ٧٧/١ ، ٢٢/١٩ .

٢ ـ انظر الاغاني ٧٠/٨ .

٣ ـ ديوان الفرزدق ص ٤١٠ .

الذي اقتبسه الشعراء عن حلقات المناظرة والجدل الديني والفلسفي التي شاعت في ذلك العصر . وقد طالت النقائض على أيدي هؤلاء الشعراء طولاً يلفت النظر وتعددت الاغراض التي تشتمل عليها واحكمت أصولها فلا غرو أن تجمع نقائض هؤلاء الشعراء الثلاثة في دواوين مستقلة وأن يعد فن النقائض فناً أموياً خالصاً لما بلغه من الرقي على ايديهم .



الفصل الثالث

أساليب الهجاء القبلي
وخصائصه الفنية

١

احتدام الهجاء القبلي واحتفال الشعراء به

في عصر بني أمية

الهجاء من الفنون العريقة في الشعر العربي ، فمنذ أحسّ الشاعر العربي خطر هذه الأداة التي يملكها اتخذها سلاحاً في يده يتهدّد به الخصوم ، ويقارع به الأعداء ، ويلوّح به فيحمل الناس على الإذعان لرغباته وتلبية مطالبه . وقديماً عرف الناس شأن الهجاء فكانوا يتحامون إغضاب الشعراء ويتّقون أذى لسانهم ويسعون الى إرضائهم بكل سبيل . وقد وصف المختار الثقفي أثر شعراء الهجاء فقال : « اتّقوا لسان الشاعر ، فان شرّه حاضر ، وقوله فاجر ، وسعيه بائر (١) » .

إلا أن الشاعر القديم لم يكن يعيش لنفسه فحسب ، وانما كان يعيش لجماعته أولاً ، وكانت فردية الشاعر تتوارى في الغالب أمام شخصية القبيلة التي ينتمي اليها وتذوب في بوتقتها ، ومن هنا أصبحت هذه الأداة التي يملكها وقفاً على قبيلته في المرتبة الاولى . وكانت الدوافع التي تحمل الشاعر على الهجاء قبلية في الغالب ، كأن يقوم نزاع قبلي على المياه أو المراعي ، أو تنشب حرب بين قبيلة الشاعر وقبيلة أخرى ، أو تقع مفاخرات أو منافرات بينهما ، ونحو ذلك من دواعي الخصومات القبلية .

وكما كان الهجاء قبلياً في دوافعه كان قبلياً كذلك في طوابعه وسماته . فالشاعر لا يخصّ بهجائه فرداً و حداً ، وانما يتناول القبيلة كلها : يجرّدها

---

١ ــ الطبري ٤/٥١٠ .

من المناقب ويرميها بكل نقيصة ويغضّ من شرف نسبتها ومنزلتها بين سائر القبائل . وحتى حينما كانت شرارة الهجاء تندلع بين شاعرين مختلفي القبيلة لأسباب شخصية كان الهجاء الذي يتقارضانه يتسم بالطابع القبلي ، ومردّ ذلك الى ما عرفناه من شدة ارتباط الشاعر بجماعته وذوبان شخصيته في شخصيتها ، فاذا أراد الشاعر إيلام منافسه سلك الى ذلك سبيل الطعن في قبيلته والغض من مكانتها والحطّ مـن شأنها فيقع هجاؤه هـذا من نفس خصمه أبلغ موقع ويؤذيه أشد الأذى ، وشمول الشاعر القبيلة كلها بهجائه هو الذي كان يحمل القبائل على اتقاء لسان الشاعر وتحامي هجائه ما وجدت الى ذلك سبيلاً . ولهذا السبب عينه كانت القبيلة تتباشر اذا نبغ فيها شاعر مفلق ماضي اللسان ، اذ كانت تجد فيه مجنّاً تتقي به أذى شعراء القبـائل الاخرى ، وسلاحاً ماضياً تقارع به خصومها ، إلا أن يكون شاعرها مفحماً مغلّباً عاجزاً عن مصاولة الفحول ، فينقلب حينئذ تباشر قومه به تشاؤماً وسرورهم بوجوده بينهم سخطاً وحنقاً .

فلما كان العصر الاموي ظلّ الطابع القبلي غالبـاً على فنّ الهجاء فيه لاتصاله بالعصبيات التي لفح أوارها قبائل العرب جميعاً في ذلك العصر ، وسواء كانت بواعث الخصومة بين الشعراء شخصية أم قبلية كان الهجـاء عندهم يكتسي اللون القبلي لما ذكرناه من التلازم القوي بين الشاعر وقبيلته ، ولو أن الهجاء بدأ يفسح صدره كذلك للطابع الشخصي الذي ما لبث أن أصبح السمة الغالبة على الهجاء في العصور التالية .

وهكذا ماكانت تثور فتنة قبلية أو تهيج العصبيات لداع من الدواعي حتى يسارع شعراء القبائل الى خوض المعمعة بسلاحهم اللساني الماضي فيتهاجون ويتفاخرون ، وتتصل المناقضات بينهم ويسدّد كل منهم سهامه الى خصومه فيلصق بهم كل المثالب ، ويرميهم بكل ألوان المخازي .

ولاشتداد أمر العصبيات في العصر الاموي واتصال الفتن القبلية فيـه

لم تهدأ ثائرة الهجاء القبلي طوال ذلك العصر ، وكان الهجاء من أشد الاسلحة مضاء عصرئذ . وثمة قبائل بلغ منها الهجاء ما لم يبلغه السيف والسنان ، فقد ألبس جرير قبيلة بني نمير حلّة من هجائه بقصيدته الدامغة لا تبلى يد الدهر ، حتى أصبح الرجل منهم يتحاشى الانتساب الى عشيرته وينتسب الى قبيلته الجامعة بني عامر(١). وقد تحدث الجاحظ عن أثر الهجاء في طائفة من القبائل كان لها فضل وشرف ، كبني نمير وعنزة وجَرم وعُكل وسَلول وغيرها ، وبيّن ما كان للهجاء من أثر في محق ذلك الفضل كله (٢) .

وبلغ من شدة تأذي بعض القبائل بالهجاء مبلغاً حملها على قتل الشعراء الذين تصدّوا لهجائها وأقضّوا مضجعها بسلاطة لسانهم، صنيع قيس عيلان بعُبيد الله بن الحر(٣)، واليمانية بالكميت(٤) ، وبني أسد بابن دارة (٥) .

وكان شعراء الهجاء يعرفون ما لهجائهم من شدة الوقع وبليغ الأثر في خصومهم ، فكانوا يشبّهون هجاءهم بالنار التي يصطلي بها أعداؤهم ، أو الصواعق التي تنقض عليهم (٦) .

---

١ ــ البيان والتبيين ٤/٣٥ .

٢ ــ المصدر السابق .

٣ ــ الطبري ٤/٥٩٤ .

٤ ــ الاغاني ١٥/١١٥ .

٥ ــ الاغاني ٢١/٥٧ .

٦ ــ كقول الفرزدق في هجاء الطرماح وقومه (الديوان ص ١٣٥) :

لقد هتك العبد الطرماح ستره ... وأصلى بنار قومه فتصلّت

وكقول جرير (الديوان ص ٧١) :

أعدّ الله للشعراء مني ... صواعقَ يخضعون لها الرقابا

وكان قيام أكثر الهجاء على الاساس القبلي عصرئذ يوقع الشاعر في حرج شديد حين يضطر الى مهاجاة شاعر من عشيرته ، فهو لا يستطيع التعرّض لعشيرة الشاعر المهجو فيؤذي قومه ، ولا يرى بدّاً حينئذ من هجاء خصمه هجاء شخصياً بعيداً عن المعاني القبلية . وقد أظهر الفرزدق سروره بتوقف معركة الهجاء بينه وبين أخيه في العشيرة مسكين الدارمي وقال معلّقاً على ذلك : « نجوت من مهاجاة مسكين لأنه لو هجاني لاضطرني أن أهدم شطر حسبي وفخري ، لأنه من بحبوحة نسبي وأشراف عشيرتي ، فكان جرير حينئذ ينتصف مني بيدي ولساني (١) » .

ولم تكن القبيلة تنظر نظرة رضى الى نشوب الهجاء بين شعرائها ، لأنهم حينئذ يسيئون الى قبيلتهم شر إساءة بنشرهم معايبها وفضحهم مخازيها وثلبهم أعراضها . ومن المحقق ان قبيلة تميم لم تكن راضية عن نشوب معركة الهجاء بين شاعريها جرير والفرزدق ، وما جرّ شعراء على قبيلتهم من الأذى ما جره جرير والفرزدق والبعيث على قبيلتهم بني تميم من جـراء وقوع التهـاجي بينهم . وكانت القبيلة تسعى لذلك في الاصلاح ما بين شعرائها المتهاجين . فحين وقع الهجاء بين جرير وابن لجأ التيمي وجدنا رجال القبيلة يسعون في اصلاح ما بينهما (٢) .

وقد أصاب فن الهجاء القبلي تطور بعيد المدى في هذا العصر تناول نواحيه جميعاً : تنـاول قالبه الفني كما تناول المعاني التي استخدمها الشعراء ، والأفكار التي عرضوا لها ، والخصائص الفنية المتصلة بالصياغة والأسلوب والأداء الفني (٣) . والظاهرة التي تستلفت النظر في هذا العصر هي انصراف

---

١ ـ الاغاني ٦٩/١٨ .

٢ ـ الاغاني ٧٨/٨ .

٣ ـ انظر التطور والتجديد في الشعر الاموي ص ١٨٠ .

طائفة من الشعراء الى احتراف الهجاء وإتقانه وتجويد صنعته لأنهم وجدوا فيه مصدر شهرة لهم ووسيلة من وسائل الدعاوة الشعرية تذيع اسمهم في الآفاق . وليس عجيباً أن يكون الشعراء الذين احترفوا الهجاء وأجادوه هم أنفسهم الذين احترفوا المديح وأجادوه ، فان البراعة الشعرية عندهم إنما تتجلى أول ما تتجلى في هـذين الضربين من الشعر ، والشاعر الفحل مطالب باتقانهما معاً ليحظى بالمنزلة الشعرية التي يصبو اليها ، بل اننـا نمضي الى أبعد من ذلك فندّعي ان ما أصابه فحول شعراء العصر الاموي من الشهرة ونباهة الذكر من طريق إجادتهم الهجاء يفوق ما أصابوه من طـريق المديح ، وهي دعوى أتيح لنا إقامة الدليل عليهـا في الفصل السابق لدى حديثنا عن فن النقائض . فكذلك نجد أسماء فحول الشعراء في العصر الاموي كجرير والفرزدق والاخطل والراعي وزياد الأعجم وثابت قطنة وعبد الله بن الزبير مقترنة باجادة فني المديح والهجاء على السواء .



٢

أساليبه

خرج الهجاء القبلي في عصر بني أمية عن بساطته التي كان عليها في العصر الجاهلي وعن عفويته البعيدة عن أسباب التعقيد والصنعة ليصبح فناً قائماً بذاته ، يستمدّ الشاعر مادته من منابع شتى ويبذل أقصى جهده ليبلغ به ما يريد من شدة التأثير والإقذاع ، ولا يزال يشحذ نصال القول حتى تغدو أشد ما تكون مضاءً ونفاذاً . وقد أضاف شعراء هذا العصر الى ألوان الهجاء القبلي القديمة ألواناً جديدة لم تكن مألوفة قبل . وهـذه الأساليب كلها أفضت بفن الهجاء القبلي في ذلك العصر الى غايته القصوى التي لم يبلغها في أي عصر آخر .

١ ـ كان الشاعر القديم يعتمد في هجائه القبلي أول ما يعتمد على عنصر **التجريد** . فهو يجرّد مهجوّه وقبيلته من جميع الفضائل والمناقب التي كانت مناط التفاخر في مجتمعه القبلي ، كالشجاعة والنجدة وإغاثة الملهوف وحماية الجار والكرم ونبل المحتد وعراقة النسب ونحوها . وقد استمرّ هذا اللون من الهجاء في عصر بني أمية ، وظلّ له وقعه البليغ في نفوس المهجوين ، لأن المجتمع القبلي لم يختلف كبير اختلاف في ذلك العصر عما كان عليه في العصر الجاهلي ، ولم تزل للفضائل الجاهلية منزلتها في نفوس القوم ، ولا سيما حين تكون القبيلة من القبائل المعرقة في الشرف والنبل ، فان هذا الضرب من الهجاء يطعنها طعنات موجعة ، أما القبيلة الوضيعة الخاملة الذكر فان هجاء التجريد لا ينفذ منها الى الصميم ولا يكون له من شدة الوقع في نفوسها مثل الذي يكون له في نفوس القبائل النابهة الذكر . فقبيلة تيم الرباب مثلاً لم تستطع أهاجي جرير أن تنال منها ، على كثرة ما قاله فيها ، لخمول ذكرها ، وضآلة شأنها ، وقد أجاب جرير ابنه حجناء حين سأله عن السبب في أن

هجاءه لم يضر التيم بقوله : « إني لم أجد حسباً أضعه ، ولا بناء أهدمه(١) » .
وأشدّ ما يؤذي القبيلة النابهة الذكر أن يطلب اليها الشاعر التخلي عن المكارم لأنها ليست لها أهلاً والانصراف الى غيرها من الامور التي تطيق القيام بها ، ومن هذا القبيل قول الاخطل في بني النجار ، رهط حسان بن ثابت :

خلوا المكارم لستمُ من اهلها   وخذوا مساحيَكم بني النجارِ (٢)

ومن أشد هذا اللون من الهجاء وقعاً قول الطرماح في بني تميم :

تميم بطرق اللؤمِ أهدى من القطا   ولو سلكت طرقَ المكارم ضلتِ (٣)

وقد افتنّ جرير في هجائه قبيلة تيم الرباب وتجريدها من كل منقبة ومكرمة ومن قوله في ذلك :

اتفخرُ تيم بالضلال ولم يكن   لهم حسب ذاكٍ ولا عددٌ مُثري
فما فخرت تيم بيوم عظيمة   ولا قبضوا الا بخالفة صِفرِ
ولو تستعفّ التيم أو تحسن القِرى   ولكنّ تيماً لا تعفّ ولا تقري
ولم تدرِ تيم ما الأعنّةُ والقنا   ولم تدر تيم ما الوِراد من الشقر
وقد يُحسن التيمي عقدَ نِجافه   ولم يحسنوا عقدَ القِلادة بالمهرِ (٤)

---

١ ــ الاغاني ٨/٣٤ .

٢ ــ الاغاني ١٥/١٠٧ . يعيِّرهم الشاعر بقوله : خذوا مساحيكم ، انهم اهل زراعة . والمسحاة : المجرفة .

٣ ــ ديوان الطرماح ص ١٣٩ .

٤ ــ ديوان جرير ص ٢١٠ . الخالفة : اليد التي لا تقبض على خير . الصفر : الفارغة . النجاف : شمال الشاة الذي يعلق على ضرعها . يريد أنهم يحسنون رعي الماشية ولا يحسنون القتال وركوب الخيل .

وكذلك لجأ الاخطل الى التجريد في هجائه بني كليب رهط جرير فقال من نقيضة له يجرّدهم من حماية الجار والإسراع الى المكارم :

قبحَ الإله بني كليب إنهــــم لا يحفظـــون محـارمَ الجـيرانِ
واذا تنُودب للمكـارم والعـلى لم ينَدبوا لترادف الاعوانِ (١)

ولا بد للشاعر بعــد أن يجرد القبيلة التي يهجوها من جميع الفضائل والمناقب من أن يتمّ هــذا الهجاء السلبي بهجاء ايجابي ، فيلصق بالقبيلة المهجوّة كل نقيصة ومخزية ويخلع عليها شتى أنواع المثالب التي كانت القبائل تتهاجى بهـا عصرئذ ، وهي عين المثالب التي كان الجاهليون يتهاجون بهـا بالاضافة الى مثالب أخرى ولدتها البيئة الاموية، وفي رأس النقائض الجاهلية القديمة الجبن والذلّة والبخل والغدر بالجار ووضاعة النسب وقلة العدد وخفة الأحلام ، وقد ظلّ الهجاء بهذه النقائص يفعل فعله في نفوس القـوم ويؤلمها أشد الايلام. وهكذا نسمع أبا واسع الأسدي يهجو بني النجار فيلصق بهم تهمة الغـدر بالجـار :

ومـا للجـارِ حين يحل فيهم لديكم يا بني النجـارِ حــامِ
يظـل الجـار مفترشـا يديـه مخافتكم لـدى ملث الظلامِ (٢)

ونسمع زياداً الأعجم يهجو عشيرة الأشقر، رهط كعب الأشقري، فيرميهم بالكذب والبخـل :

قبَيلـة خيرُهـا شرهـا وأصـدقهـا الكاذبُ الآثـمُ
وضيفهـمُ وسط أبياتهـم وان لـم يكن صائمـاً صائم (٣)

---

١ ـ نقائض جرير والاخطل ص ٢٢٢ .

٢ ـ الاغاني ١٥/١١٧ . ملث الظلام : اختلاطه .

٣ ـ الاغاني ١٥/٣٩٣ .

ويهجوهم في موضع آخر فيصفهم بالقلة والذلة :

نُبئت اشقر تهجونا فقلت لهم ... ما كنت احسبهم كانوا ولا خُلقوا

لا يكثرون وان طالت حياتهم ... ولو يبولُ عليهم ثعلب غرقوا

قوم من الحَسب الادنى بمنزلة ... كالفَقع بالقاع لا اصل ولا ورقُ

ان الاشاقر قد أضحوا بمنزلة ... لو يرهنون بنَعلي عبدنا غَلِقوا(١)

ولم تزل قلة العدد في القبيلة من الخصال التي تعرضها للذم والتحقير ، وأي تحقير أشد من نعت الأشاقر بأنهم من القلة بحيث تغرقهم بونة ثعلب ، ومثل ذلك قول الفرزدق في طيء فقد جعلهم من القلة بحيث يستظلون بجناح عصفور :

ولو ان عصفوراً يمد جناحه ... على طيء في دارها لاستظلت (٢)

ولعلّ أشدّ ما قيل في وصف القبيلة بالذلّ قول البعيث في هجاء بني كليب ، رهط جرير :

ألستَ كليبياً اذا سيم خُطةُ ... أقر كاقرار الحليلة للبعلِ

وكل كُليبيٍّ صحيفهُ وجهه ... أذلّ لأقدام الرجالِ من النعلِ

وقد أقر بعض بني كليب ان هذا الهجاء كان أشد ما هجيت به بنو كليب (٣) .

ولم يبلغ شاعر أموي في وصف قوم بالجبن والخوف من لقاء خصومهم

---

١ ــ الاغاني ٢٢٨/١٤ . الفقع : الكمأة . غلق الرهن : استحقه المرتهن لعجز الراهن عن فكاكه .

٢ ــ ديوان الفرزدق ص ١٣٧ .

٣ ــ نقائض جرير والفرزدق ١٥٧/١ .

ما بلغــه الطرماح في هجائه بني تميم وتصوير خوفهم من الأزد ، خصومهم الألداء . وقد اعتمد في ذلك على المعاني الإسلامية التي أحسن شعراء الهجاء استغلالها في ذلك العصر ، فجعــل بني تميم يخشون الأزد خشية بالغــة حتى لو أنهم أرادوا ورود الحوض يوم القيامة ثم وجدوا عليه الأزد لتركوا وروده . كما جعلهم يمتنعون من قتال الأزد ويتحامونه ولا يقدمون عليه ولو هدّدهم الله بعذاب من عنده شديد :

لو حان وِردُ تميم ثم قيــل لها حوض الرسول عليه الازدُ لم تردِ
أو نزّل الله وحيــاً ان يعــذّبهــا ان لم تَعُد لقتال الازدِ لم تعُدِ (١)

والهجاء بخفة الأحلام لم يزل شائعاً في هذا العصر ، وهي من الصفات التي ألحّ عليها جرير في أهاجيه القبلية ، ومن ذلك قوله في بني نمير :

ولو وُزنت حلومُ بنــي نمــير على الميزان ما وزَنت ذبابا (٢)

وقد ظل الطعن في الأنساب من أشد سهام الهجاء القبلي نفاذاً في ذلك العصر ، فان أوجــع ما ترمى به القبيلة أن تغمز في نسبها أو يوضع من مكانتهــا ؛ وها هوذا عبد الله بن الزبير الاسدي يهجو رهط عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي فينفيهم من الانتساب الى العرب ، ويردهم الى حام بن نوح :

وانتم بني حامِ بن نوح أرى لكــم شفاهاً كأذناب المشاجر وُرّما (٣)

وينحو جرير نحوه في هجــاء التيم فينكر أن يكون بينهم وبين اسماعيل أبي النزارية أية صــلة :

---

١ – ديوان الطرماح ص ١٤٥ . الاغاني ٤٣/١٢ .

٢ – ديوان جرير ص ٧٤ .

٣ – الاغاني ٢٢٠/١٤ . المشاجر جمع مشجر : عود الهودج . وصفهم بغلظ الشفاه ونسبهم الى الزنج .

ما بين تيم وأسماعيلَ من نسب   إلا القـرابةَ بين الزَنج والروم(١)

هذه المطاعن كلها ، تداولها الشعراء والهجاؤون في عصر بني أمية وجروا فيها على سنن أسلافهم الجاهليين واقتصر ابداعهم فيها على الافتنان في طرق التعبير والتصوير. فزياد الأعجم مثلاً يعبّر عن بخل مهجويه تعبيراً غير مباشر اذ يجعــل ضيفهم يصوم مكرهــاً ، ونحن نرى في هــذا التعبير أثر الثقافة الاسلامية في توليد المعاني الجديدة ، كما رأيناه في هجاء الطرماح بني تميم ، وسنعود الى بيان هــذا الأثر بمزيد من التفصيل في كلامنا على خصائص الهجــاء الفنية .

والى هذه النقائص القبلية المعروفة أضاف شعراء الهجاء في العصر الأموي نقائص أخرى لم يكن شعراء الجاهلية يقفون عندها ، كما ألحّوا على نقائص كانت معروفة لشعراء الجاهلية ولكنهم لم يعنوا بابرازها والوقوف عنــدها عناية شعراء العصر الاموي . وهذه المطاعن كانت وليدة البيئة الاجتماعية الاموية التي أوجدت معــايير جديدة تقوّم بها مراتب الشرف والنبل لدى الجماعات القبلية. وفي رأس هذه المطاعن صفة ألحّ عليها شعراء الهجاء إلحاحاً عجيباً حتى لم تكــد تخلو منها أهجية من أهاجيهم القبلية ، وقد افتنّوا في تصويرها وذهبوا في توليد المعاني منها كلّ مذهب ، تلك هي صفة اللؤم . واللؤم في اصطلاح أهل اللغــة « ضد العتق والكرم » واللئيم هو « الدنيء الاصل ، الشحيح النفس (٢)» . ولكن هذا اللفظ اكتسب في البيئة الاموية دلالة أوسع وأعمّ تجمع بين الشح والجشع وذلة النفس وضعة الاصل ودناءة الخلق والغدر والخبث وما شاكل ذلك من الخصال التي كانت موضع الذم والطعن في ذلك العصر . ويبدو لنا ان شيوع الهجاء بهذه الخصلة انما كان نتيجة التزاحم العنيف الذي دار بين القبائل العربية عصرئذ في سبيل الظفر بالقسط الأوفى من المغانم المادية. ولم تكن القبيلة تتورّع من سلوك أي سبيل

---

١ ـ ديوان جرير ص ٨٤٩ .

٢ ـ لسان العرب ، مادة « لؤم » .

يفضي بها الى هذه الغاية ، وكان سعيها وراء هذا الغرض يفرض عليها أحياناً اللجوء الى خطة الغدر والخبث والخيانة والتلوّن، ومن هنا شاع رمي القبائل بصفة اللؤم التي تجمع هذه الخصال الذميمة كلها. وقد جمع الحكم الخضري طائفة من هذه الخصال التي تلتقي كلها في صفة اللؤم الجامعة ، في قوله يهجو بني مرة رهط خصمه ابن ميادة :

فيا مُـرّ قد أخزاك في كل موطن ... من اللؤم خَلاّتٌ يزدن على العشرِ
فمنهن أن العبـد حامي ذمـاركم ... وبئس المحامي العبدُ عن حوزة الثغرِ
ومنهن أن لم تمسحوا وجهَ سابق ... جواد ولم تأتوا حصانا على طُهرِ
ومنهـن ان الميت يُدفن عندكـم ... فيفسو على دُفّانه وهو في القبرِ
ومنهن ان الجارَ يسكن وسطكـم ... بريئا فيُلقى بالخيـانة والغـدرِ
ومنهن ان الشيخ يوجـد فيكـم ... يدب على الجارات محدودب الظهر(١)

وهجا جرير قبيلة التيم فجعل لؤمها يُخلَق معها يوم خلقت :

من الاصـلاب ينزل لـؤمُ تيـم ... وفي الارحـام يُخلَق والمشيم(٢)

وردّد زياد الأعجم معنى جرير هـذا في هجائه بني حبناء ، رهط خصمه المغيرة بن حبناء ، ولكنه أتى به في صورة مغايرة فقال :

أرى كل قوم ينسِل اللؤمُ عندهم ... ولؤمُ بني حبنـاء ليس بناسلِ
يشب مـع المولود مثلَ شبـابه ... ويلقـاه مولوداً بأيـدي القوابـلِ

---

١ ـ الاغاني ٢/٢٩٨ .

٢ ـ ديوان جرير ص ٥٢٩ . المشيم : جمع مشيمة : موضع الجنين .

ويرضعه من ثـدي أمٍّ لئيمةٍ ويُخلَق من ماءِ امرئٍ غيرِ طائلِ (١)

ومن المطاعن التي تناولها شعراء الهجاء في هذا العصر أيضاً ما يتصل بالعقيدة الدينية ، فالشاعر ربما اتهم مهجويه بالتقصير في أداء الفروض الدينية من صلاة وصيام ونحو ذلك ، كقول الحزين الديلي في بني كعب بن خزاعة :

لا يدرسون كتابَ الله بينهم ولا يصومون من حرصٍ على الشِبَعِ (٢)

وكقول الفرزدق يتهم نساء باهلة بقلة احتفالها بالاغتسال عقب الحيض :

ولا اغتسلت من حيضةٍ باهليةٌ بحقٍّ ولا باتت حَصاناً على طهرِ (٣)

وكقول زياد الأعجم في هجاء بني يشكر وقد وصفهم بأنهم أبداً على غير طهر وأنّ مَسهم مفسد للطهارة :

اذا يشكريٌّ مسَّ ثوبك ثوبه فلا تذكرن الله حتى تطهرا (٤)

وربما اتهم الشاعر مهجويه بارتكاب المعاصي التي نهى الله عنها كقول الأبيرد الرياحي يهجو بني عجل ويرميهم بشرب الخمر :

اذا شرب العجليُّ نجّس كأسه وظلت بكفي جأنبَ غيرِ أزهرا
ولم تكُ في الإشراك عجلٌ تذوقها ليالي يَسبيها مقاولُ حِميرا
ولكنها هانت وحُرم شربها فمالت بنو عجلٍ لما كان اكفرا (٥)

---

١ ـ الاغاني ١٣/٩٠ . نسل : سقط وذهب .

٢ ـ الاغاني ١٥/٣٣٢ .

٣ ـ ديوان الفرزدق ص ٤٠٨ .

٤ ـ الاغاني ١٣/١٠٣ .

٥ ـ الاغاني ١٣/١٣٢ . الجأنب : القصير القميء . يسبيها : يشتريها .

وكقول الفرزدق يرمي باهلة بإتيان المحارم :

أباهلُ ، أي مُحكمةٍ احلّت ... لكم أخواتكم تحت الثيابِ (1)

وربما مضى الشاعر أبعد من ذلك فرمى مهجوّيه بالكفر والمروق من الدين ، ولا سيما حين يتعرّض لهجاء قبيلة انتشرت فيها النصرانية كعجل وطيّء وتغلب . ومن هذا القبيل قول الفرزدق يهجو طيئاً :

ولولا حِذارٌ ان تُقتّل طيّءٌ ... لما سجدت لله يوماً وصلّتِ

نصارى وانباط يؤدّون جزية ... سِراعاً بها جمزاً اذا هي أهلّتِ

سألتُ حجيجَ المسلمين فلم اجد ... ذبيحةَ طائيٍّ لمن حجّ حلّتِ (2)

وهذا كله يقفنا على أثر الدين الجديد في المجتمع القبلي الاموي ، فقد أوجد فضائل وقيماً جديدة مستمدة من العقيدة الدينية لا من الروح الجاهلية والفضائل القبلية القديمة ، وأصبح التمسك بهذه الفضائل الدينية من المحامد التي يدور حولها التفاخر والتباهي ، والاخلال بها من المطاعن التي تشين سمعة القبيلة وتنتقص من مكانتها ، وهذه نقلة في حياة المجتمع القبلي لها خطورتها ، وتطوّر في المفاهيم القبلية بعيد الأثر .

٢ـ ولم يكن الهجاء وقفاً على الصفات المعنوية وانما كان يتعرض كذلك للصفات الحسية والعيوب الخَلقية ، فيصف الشاعر قبح مهجوّيه وسوء منظرهم وشهواتهم الحسية ونحو ذلك . وكان الجاهليون قلما يلتفتون الى هذه

---

١ ـ ديوان الفرزدق ص ٣٦ . المحكمة : الآية . يريد أي آية احلت لكم ما تحت الثياب من اخواتكم .

٢ ـ ديوان الفرزدق ص ١٣٥ . جمزاً : وثباً . والجمز ضرب من العدو .

الناحية في الهجاء ، لأن همهم كان منصرفاً الى الصفات المعنوية التي كان لها شأنها الاول في ذلك العصر . ولم يكن قبح المنظر ودمامة الهيئة من الامور التي يُعاب بها المرء في ذلك العصر . أما في العصر الاموي فقد أصبح للصفات الحسية والعيوب في الهيئة شأنها في المجتمع القبلي ، ومردّ ذلك الى ما أصاب العرب في ذلك العصر من تحضّرٍ نسبيّ والى ما أصاب أذواقهم من تغيّر وتحول نتيجة هذه الحياة المترفة المتحضرة . وفي المجتمع المتحضر المترف يكثر الالتفات الى العيوب الخلقية التي تؤذي حاسة الاستمتاع بالجمال والأذواق المرهفة ، كما يكثر الالتفات الى العيوب التي تنافي الحياة الحضرية وآداب اللياقة كالنهم والشره وسوء المؤاكلة والمجالسة والمنادمة ونحو ذلك من الامور التي تنكرها أذواق المتحضرين . ومن هنا كثر تعرض الشعراء لهذه العيوب في هجائهم وان لم يبلغوا في عنايتهم بهذه الناحية مبلغ شعراء العصر العباسي بعدهم ، ومن هذا القبيل قول جرير في هجاء قبيلة الهجيم ، يصوّر سوء منظرهم ونهمهم :

ان الهُجَيم قبيلة ملعونة — حُصُّ اللحى متشابهوا الألوانِ
هم يتركون بينهم وبناتهم — صُعْرَ الأنوف لريحِ كل دخانِ
لو يسمعون بأكلةٍ أو شربةٍ — بعُمانَ أصبح جمعهم بعُمان(١)

ونحو ذلك قوله في هجاء التيم :

ولو يدفن التيمي ثم دعوته — الى فضل زاد جاء يسعى من القبرِ(٢)

ويبدو أن الهجاء القائم على المعاني الحسية أصبح يلقى رواجاً شديداً في عصر بني أمية ، وكان المستمعون الذين يتحلقون حول شعراء الهجاء يستقبلونه

---

١ ـ الاغاني ٥٢/٨ . لحية حصاء : قليل شعرها .

٢ ـ ديوان جرير ص ٢١٢ .

بالضحك والتهليل، وهذا الاقبال على الهجاء الحسّي هو الذي يفسر لنا اسراف شعراء الهجاء عصرئذ في ايراد هذه المعاني في أهاجيهم ، ولا سيما تلك التي تدور حول العلاقات الجنسية ، فنحن نرى ان إسراف الشعراء في إيرادها انما مردّه الى الرغبة في إرضاء الذوق العام في ذلك العصر، أو على الأقل ذوق أولئك المستمعين الذين يحرصون على شهود حلقات المناقضة والهجاء .

٣ـ ومما ألحّ عليه شعراء الهجاء في ذلك العصر نعتهم القبيلة بالهوان والعجز والخضوع للقبائل الاخرى **تحقيراً لشأنها** وإظهاراً لهوان أمرها وقلة خطرها في المجتمع القبلي فقد بات من أشدّ ما تهجى به القبيلة وصفها بأنها من القبائل الذليلة المستضعفة التي ليس لها أدنى أثر سواء في توجيه الاحداث السياسية في ذلك العصر ، أو في توازن القوى القبلية في الامصار ، ولا تملك إلا الخضوع للقبائل القوية والانقياد لمن يلي أمرها من غيرها . فاسمع الطرماح مثلاً يهجو بني تميم فيعيرهم الانقياد ليزيد بن المهلب والقحطانية :

بأي بلاد تطلب العز بعدما ... بمولدها هانت تميمٌ وذلّتِ

أقرّت تميمٌ لابن دحمة حكمه ... وكانت اذا سيمت هواناً أقرّتِ

وكانت تميم وسط قحطان إذ سمت ... كمقذوفة في اليمّ ليلا فضلتِ (١)

وقد لجأ الطرماح الى أسلوب التحقير أيضاً في هجائه بني أسد اذ جعلهم من حقارة الشأن بحيث يخفى أمرهم على رب العباد، إن جاز أن يخفى عليه شيء، ثم شبههم في اقامتهم على الذل بالوتد :

لو كان يخفى على الرحمان خافية ... من خَلقه خفيت عنه بنو أسدِ

---

١ ـ ديوان الطرماح ص ١٣٩ . ابن دحمة : هو يزيد بن المهلب ودحمة أمه .

قومٌ أقام بـدار الذل أولهـــم كما أقامت عليه جِذمة الوِتدِ (١)

وأي تحقير أشد من أن يصف جرير قبيلة التيم فلا يجعل لها حظاً في قضاء ولا مشورة ولا يرى فرقاً بين سادتهم وعبيدهم :

ويقضى الامر حين تغيب تيـم ولا يستأمَـرون وهـم شهـودُ

وانـك لـو لقيتَ عبيـد تيـم وتيمـاً قلت أيّهـم العبيـدُ (٢)

وربما جعل الشاعر مهجويه من حقارة الشأن وهوان المنزلة بحيث ان الله يؤخر خلقهم حتى يفرغ من خلق القبائل جميعاً، وذلك قول زياد الأعجم في بني جرم:

قضى الله خلقَ الناس ثم خلقتمُ بقية خلقِ الله آخـرَ آخـرِ (٣)

وهو نظير قول الطرماح في تيم الرباب وإخوتها :

وما خلقت تيـمٌ وعبدُ مناتهـا وضبةُ إلا بعـد خلقِ القبائلِ (٤)

وأشد الوان التحقير ان يتجاهل الشاعر وجود القبيلة برمّتها ويدّعي انه لم يسمع قبلُ باسمها وهذا ما صنعه زياد الأعجم في هجائه جرماً في قوله :

فمن انتمُ ؟ إنا نسينا من انتـمُ وريحكم من أي ريحِ الاعاصرِ (٥)؟

---

١ ـ ديوان الطرماح ص ١٤٥ .

٢ ـ ديوان جرير ص ١٦٥ .

٣ ـ الاغاني ١٥/٣٩٤ .

٤ ـ ديوان الطرماح ص ١٥٩ .

٥ ـ شرح الحماسة للتبريزي ٤/٧ .

وقد سلك المساور بن هند العبسي مسلكاً طريفاً في إظهار حقارة بني أسد وهوان شأنهم، فقد رأيناه يعلن ألاّ شيء يغريه بالانتماء الى بني أسد أو الاصهار اليهم ، لا الربح الدنيوي العاجل ، ولا الفوز بجنة الخلد في الآجل ، فيقول :

ما سرّني ان أمّي من بني أسد وان ربّي ينجّيني من النارِ

او انهم زوجوني من بناتهم وان لي كل يوم ألفَ دينارِ (١)

٤ ـ ويتصل بهجاء التجريد ورمي القبيلة بالمثالب وتحقير شأنها الهجاء الذي يقوم **على التعيير بالمثالب القبلية** . فثمة عيوب ومطاعن عرفت بها طائفة من القبائل وعيّرت بها . وهذه المثالب تعلّق بها شعراء الهجاء وأداروا أهاجيهم حولها . وكان لا بد للشاعر الهجّاء الراغب في إجادة فنه من التنقيب عن مخازي كل قبيلة ومثالبها ، حتى اذا تصدّى لهجائها سدّد سهامه الى ما عرفه من مواطن العيب فيها .

ومواطن النقص هذه قد تكون راجعة الى أصل القبيلة وموطنها الاول ، أو الى أمور تتعلق بنسبها ، أو الى وقعة انهزمت فيها ، أو الى حادثة مهينة تعرضت لها ، أو الى نقيصة من نقائص الخلق والطباع عرفت بها . فالقبيلة التي كان أسلافها مثلاً يعانون الصناعة أو الزراعة أو أية حرفة من الحرف تغدو غرضاً سهلاً لشعراء الهجاء ، اذ هم يجدون في مزاولتها هذه الامور مغمزاً لا يزالون يعيّرونها به . فقد عيّر الانصار بمزاولتهم الزراعة ، فقال فيهم الأخطل :

خلوا المكارم لستمُ من أهلها وخذوا مساحيكم بني النجارِ (٢)

وعيّر بنو حنيفة كذلك بمزاولتهم الزراعة ومعالجة النخل فقال فيهم جرير :

---

١ ـ الاغاني ٣١٨/١٠ .

٢ ـ ديوان الاخطل ص ٣١٤ .

ابنـاءُ نخلٍ وحيطـان ومزرعةٍ سيوفهم خُشُبٌ فيها مساحيها

قطعُ الدِبار وأبرُ النخلِ عادُتهم قِدما فماجاوزتهذا مساعيها(١)

وعُيّر أزدُ عمان بمزاولتهم الملاحة وصيد الأسماك فقال الفرزدق يعيّرهم بذلك ويصفهم انهم في أصلهم عجم كانوا على المجوسية :

ولما رأيت الازدَ تهفـو لحـاهم حـوالي مزونيٍّ لئيم المركبِ

مقلدة بعـد القُـلوس أعنـةً عجبتُ ومن يسمعْ بذلك يعجبِ

تغـم انوفـاً لم تكـن عربيـةً لحا نَبط أفـواههـا لم تعـرّبَ

فكيف ولم يأتوا بمكـة منسكـاً ولم يعبدوا الاوثانَ عند المحصّبِ

ولم يدعُ داعٍ يا صباحاً فيركبوا الى الرَوع الا في السفينِ المضبَّبِ(٢)

وعيّرهم زياد الأعجم بنحو ذلك فقـال :

اتتـك الازدُ مصفراً لحـاهـا تساقطُ من مناخرها الُجوافُ(٣)

وحين تشيع في القبيلة خلّة مستكرهة يتعلق بها أيضاً شعراء الهجـاء ويعيّرونها بها ويديرون هجاءهم حولها . فكانت قبيلة عبد القيس مثلاً تعيّر بالفسو ، ولذلك لم يكن يخلو هجاء قيل فيها من الاشارة الى هذه الغميزة ، من ذلك قول كعب الأشقري :

---

١ ـ ديوان جرير ص ٦٠٠ . الدبار : مشارات المزرعة . ابر النخل : اصلاحه .

٢ ـ ديوان الفرزدق ص ١١ . المزون : الملاحون . والمزوني هنا المهلب بن أبي صفرة . القلوس : جمع قلس، حبل السفينة الضخم . المضبَّب : من ضبب الباب اذا جعل فيه ضبة .

٣ ـ الجواف : ضرب من السمك .

واجعل لكَيزاً وراء النــاس كلهم   أهلَ الفسْاء وأهلَ النتن والقذر
قــومٌ علينا ضباب من فسْائهم   حتى ترانا له مِيداً من السكْر (١)

وقد افتنّ الهجّاؤون في توليد المعاني من هذه الخصلة وبلغ المغيرة بن حبناء في ذلك ما لم يبلغه سواه إذ قال :

اذا كنت للعبدي جاراً فلا تزل   على حَذَرٍ منه اذا كان طــاعمــاً
أناساً يعــدّون الفســاء لجارهم   اذا شبعوا عند الجُباةِ الدراهما
من الفَسو يقضون الحقوق عليهم   ويعطون مولاهم اذا كان غارمــا
لهم زَجلٌ فيــه اذا ما تجــاوبوا   سمعت زفيراً فيهمُ وهما هما (٢)

والقبيلة التي تشيع فيها النصرانية تغدو كذلك فريسة سهلة لشعراء الهجاء من المسلمين ، فهم يتطاولون عليها بالاسلام ، ويعيّرونها شرب الخمر وأكل لحم الخنزير وأداء الجزية للمسلمين ونحو ذلك مما يتصل بالعقيدة النصرانية ، ويكون الشاعر آمناً حينذاك أن يجيبه خصمه بمثل هجائه لأنــه لا يستطيع التعرّض للاسلام ، وهو دين الخلافة والدولة ، فالهجــاء هنا لا سبيل الى نقضه ، وهذا ما قصده عمر بن عبد العزيز بقوله حين سأله سليمان بن عبد الملك عن جــرير والاخطل : « ان الاخطل ضيّق عليه كفره القول ، وانّ جريراً وسّع عليه إسلامه قوله (٣) » . فقــد وجد جرير في نصرانية الاخطل وقومه متسعاً للقول ولتسديد سهام الهجاء النافــذة الى صدر قبيلة تغلب ، فلم يغفل عن الاشارة الى هذه الناحية في جميع نقائضه مع الاخطل كقوله في احداها :

---

١ ــ الاغاني ٢٩٠/١٤ . الميد ج مائد : من يصيبه دوار أو غثيان من السكر أو ركوب البحــر ونحوهما .

٢ ــ الاغاني ٩٤/١٣ .

٣ ــ الاغاني ٣٠٦/٨ .

أن الخلافــة والنبــوة والهــدى ... رغمٌ لتغلبَ في الحيــاة طويــلُ

فارقتمُ سبل النبوة فاخضعــوا ... بجزى الخليفةِ، والذليلُ ذليلُ[1]

ومن القبائل التي عُيّرت بهذه المعاني أيضاً لانتشار النصرانية فيها عجل وطيّء وعذرة، ومن ذلك قول عبد الله بن الزبير في هجاء بني عجل:

وكيف بعجل إن دنا الفِصحُ واغتدت ... عليك بنو عجلٍ ومرجلكم يغــلي

وعندك قسيسُ النصارى وصلبها ... وعانيةٌ صهباء مثلُ جنى النخلِ[2]

واسوأ ما منيت به قبيلة بني تميم وقوع الهجاء بين شاعرين منها ينشران مثالبها ويذيعان مخازيها في الناس، وقد تعلق كل منهما بطائفة من المعايب التي تعيّر بها قبيلة خصمه، وطفق يردّدها في جميع نقائضه، على نحـو ما رأينا في الفصل السابق.

ومما عيّر به بنو يربوع قوم جرير، خبر أبي سواج الذي أشرنا اليه آنفا. ومن ذلك قول الاخطل يجيب جريراً على تعييره إياه بشرب الخمر:

تعيّرني شرابَ الشيـخ كسـرى ... ويشرب قومُك العجبَ العجيبـا

مني العبد، عبدِ ابي سـواج ... أحقّ من المدامـة ان تعيبا[3]

إلا أن مجال التعيير الأوسع الذي كان يخوضه شعراء العصر الاموي كافة انما هو مجال الايام والوقائع القبلية، فلا شيء يغضّ من مكانة القبيلة وينتقص

---

١ - ديوان جرير ص ٤٧٤.

٢ - الاغاني ١٤/٢٥٧. العانية الصهباء: الخمر الشقراء المنسوبة الى عانة.

٣ - ديوان الاخطل ص ١٥٥ وانظر مثالا آخر لسلمان العجلي في هجاء بني رياح في الاغاني ١٣/١٣١.

من قدرها مثل انهزامها في هذه الوقائع التي كانت تدور رحاها بين مختلف القبائل والتي تتحقق فيهـا العصبية القبلية في صورتها العنيفة الدامية . فالقبيلة انما تبني سمعتها وتشيد مكانتها بين سائر القبائل على دعائم القـوة والشجاعة والإقدام ، ومحكّ هذه الصفات انما هو الحروب والايام القبلية التي تبرهن فيها القبيلة على جدارتها بالحياة الكريمة وتمنحها الحـق في الحصول على كثير من ضروب الامتياز القبلي . ولذلك فان الهزائم التي تلحق بالقبيلة تظلّ لطخة سوداء تشين تاريخها ، وذكرى موجعة تثير في نفوس أبناء القبيلة شعوراً من الألم والأسف لا يزال يتجدد على مرّ الايام . فلا غرو أن نجد الشاعر الأريب حين يقصد الى هجاء قوم يحرص أول ما يحرص على تقصّي أخبار هذه الايام القبلية ليسدّد سهامه النافذة الى خصومه من طريق تعييرهم بالوقائع التي هزموا فيها منذ أقدم عصورهم . ومن هنا كان لا بد للشاعر اذا رغب في إتقان حرفة الهجاء من الوقوف على تاريخ كل قبيلة وأخبار أيامها الماضية ، فضلاً عن إلمامه بأخبار الايام والوقائع التي خاضتها قبيلته ونصرت فيها ليفاخر بها شعراء القبائل الاخرى . ومن هنا أيضاً كانت أهاجي هـؤلاء الشعراء ومناقضاتهم سجلاً تاريخياً يدوّن أخبار جميع الحروب القبلية التي وعتها ذاكرة الرواة والاخباريين . وقد سمعنا بعضهم يصف سعة إلمام الفرزدق بأخبار هذه الوقائع وكثرة إشارته اليها في شعره بقوله : « لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث أخبار الناس (١) » .

وهذا اللون من الهجاء يعمد اليه الشاعر حين تكون القبيلة المهجوة لهـا نصيب من الشرف ورفعة المنزلة ونبل المحتد ، أما القبيلة التي لا حظ لها من هذه الامور ، فلا يوجه اليها مثل هذا الهجاء لأنه حقيق بأن يرفع من شأنها ، وانما تهجى هجاء التحقير والتصغير .

والشاعر حين يهجـو قبيلة ما ، إما أن يذكر وقائع قومه وأيامها على

---

١ ـ البيان والتبيين ٣٢١/١ .

مهجويه ، صنيع الأخطل في قصيدته التي هجا فيها قبيلة قيس بطناً بطناً واشار فيها الى أيام تغلب على قيس ومنها :

سمونا بعِرنين أشمّ وعارضٍ	لنمنع ما بين العراق الى البشرِ
واما سُليمٌ فاستفاثت حِذارَنا	بحرّتها السوداء والجبل الوعرِ
وقد أصبحت منا هوازنُ كلها	كواهي السلامي زيد وقراًعلىوقرِ
ونقت بلا شيءٍ شيوخُ مُحاربٍ	وما خِلتها كانت تَريش ولا تبري
ونحن رفعنا عن سَلول رماَحنا	وعمداً رغبنا عن دماء بني نصرِ (١)

وكقول الفرزدق في هجاء الأزد واليمن :

أتذكر شأن الازد ما أنت منهم	وما لقيت منا عُمانٌ وذلتِ
قتلناهم حتى أبرنا شريدهم	وقد سبيت نسوانهم واستحلتِ
نسيتم بقندابيل يوماً مذكراً	شهيراً وقتلى الازد بالقاع جرّتِ
حملنا على جُرد البغال رؤوسهم	الى الشام من اقصى العراق تدلتِ (٢)

وإما أن يعيّرهم بالايام التي هزموا فيها أمام القبائل الاخرى، صنيع جرير في هجائه الاخطل وتعييره إياه بأيام قيس على قومه بني تغلب ، ومن ذلك قوله :

لقيتم بايدي عامرٍ مشرفيةً	تعض بهامِ الدارعين وتجرحُ
سمالكم الجحافُ بالخيل عَنوةً	وأنت بشط الزابيين تنوحُ

---

١ ــ نقائض جرير والاخطل ص ٢٨ . السلامي : العظم الصغير المجوّف كعظام الاصابع والقدم ، والجمع سلاميات .

٢ ــ ديوان الفرزدق ص ١٣٦أ . قندابيل : الموضع الذي قتل فيه آل المهلب على يد هلال بن احوز المازني التميمي (انظر الطبري ٣٤٦/٥) .

وظلّ لكم يوم بسِنجار فاضحٌ ويومٌ بأعطان الرحَوبين أفضحُ

وضيعتم بالبِشر عوراتِ نسوةٍ تكشف عنهن العباءُ المسيحُ (١)

وكذلك كان يصنع جرير في هجائه الفرزدق ، اذ كان يعيّر بني دارم وقائعهم التي هزموا فيها أمام قبيلة قيس خاصة . وهنا نرى الخصومة بين الشاعرين تطغى على رابطة العصبية التميمية التي تجمع بينهما، وموقف جرير هذا كان يغيظ الفرزدق ويثير ثائرته فكان يخاطبه في حنق بنحو قوله :

تعيّرنا أيامَ قيس ولم ندع لعيلانَ أنفاً مستقيمَ الخياشمِ

فما أنتَ من قيسٍ فتنبحَ دونها ولامن تميمٍ في الرؤوس الاعاظمِ (٢)

وهو يعجب لجرير أن يغضب لمقتل قتيبة بن مسلم القيسي ولا يغضب لما صنعه ابن خازم ببني تميم قومه في خراسان :

أتغضبُ ان أذنا قتيبة حزتا جهاراً ولم تغضب ليوم ابن خازم (٣)

فكذلك نرى ان التعيير بالايام القبلية كان من الامور التي ألحّ عليها شعراء الهجاء في ذلك العصر .

٥ ــ ولون آخر من الهجاء القبلي أكثر منه القدماء وجرى شعراء بني أمية على سننهم فيه هو هجاء **التفضيل** . وعماد هذا اللون من الهجاء تفضيل الشاعر

---

١ ــ نقائض جرير والفرزدق ٥٠٧/١ . يوم بأعطان الرحوبين : يريد يوم البشر الذي أوقع فيه الجحاف ببني تغلب . الاعطان ج عطن : مبرك الابل حول الماء . العباء المسيح : الكساء المخطط .

٢ ــ النقائض ٣٧٧/١ .

٣ ــ النقائض ٣٧٧/١ .

بطناً من القبيلة على البطن الذي يهجوه، أو تفضيل أحدى القبائل على القبيلة المهجوّة . وكان أشد ما يؤلم العشيرة أن يفضّل عليها في الشرف والحسب والمنزلة العشيرة التي تجمعها بها واشجة النسب وتشاركها في الانتماء الى جذم واحد . وقد عرف هذا اللون من الهجاء عند القدماء بالهجاء المقذع . وروى صاحب العمدة عن رسول الله قوله : « من قال في الاسلام هجاءً مقذعاً فلسانه هدر » . وروي أيضاً أن عمر بن الخطاب لما أطلق الحطيئة من سجنه قال له : إياك والهجاء المقذع . فسأله الحطيئة : وما المقذع يا أمير المؤمنين ؟ فقال : « المقذع أن تقول هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف ، وأن تبني شعراً على مدح لقوم وذمّ لمن تعاديهم (١) » . ولعل أشهر ما قيل من هجاء التفضيل في عصر بني أمية بيت جرير المشهور في بني نمير :

فغُضّ الطرفَ انك من نميرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا (٢)

ونمير وكعب وكلاب كلها بطون في بني عامر بن صعصعة ، وموضع الإيلام في البيت أن جريراً جعل انتماء الرجل الى بني نمير كافياً وحده لأن يحمله على الغضّ من بصره ذلة وانكساراً كما جعل فضل كعب وكلاب على بني نمير بمنزلة القضية المسلم بصحتها .

وقد جرى ثابت قطنة على هذه الطريقة أيضاً في هجائه بني باهلة ، إذ فضل عليهم بني كعب وبني كلاب فقال :

تُسامون كعباً في العلا وكلابها وهيهات ان تلقوا كلاباً ولا كعبا(٣)

---

١ ـ العمدة لابن رشيق ١٦٢/١ . والقذع في تعريف أهل اللغة : الخناء والفحش .

٢ ـ ديوان جرير ص ٧٥ .

٣ ـ الاغاني ٢٧٤/١٤ .

الا أن بيت جرير أوقع وأبلغ اثراً لأنه جعل المفاضلة تدور بين بطون من قبيلة واحدة . أما باهلة وكعب وكلاب فهي ، وإن كانت كلها بطوناً من جذم قيس، إلا انها لا تنتمي الى قبيلة واحدة .

وقد رأينا جريراً يجري على هذه الخطة في بدء مناقضته الاخطل ، فقد فضّل قبيلة بكر على أختها تغلب ، إغاظة لخصمه ، ورأينا الاخطل يضرب على نفس الوتر في نقائضه مع جرير إذ كان يفضل بني دارم ، عشيرة الفرزدق ، على بني يربوع ، عشيرة جرير [1] .

ومن هذا القبيل أيضاً تفضيل المساور بن هند قريشاً على بني أسـد ، قبيلة خصمه المرّار :

زعمتم ان اخوتكم قريشٌ لهم إلفٌ وليس لكم إلافُ

أولئك أومنوا جوعاً وخوفاً وقد جاعت بنو أسدٍ وخافوا[2]

وربما فضل الشاعر قبيلة على قبيلة أخرى لاتجامعها في النسب القريب، ولكن تكون بينهما منافسة في الشرف أو خصومة جوار ، وذلك كقول الاخطل يفضل قريشاً على الانصار :

ذهبت قريش بالمكارم كلها واللؤم تحت عمائم الانصارِ [3]

على اننا نجد تفضيل العشائر التي تشترك في النسب بعضها على بعض اشد إيلاماً وابلغ موقعاً في نفوس المهجوّين .

---

١ ـ انظر نقائض جرير والاخطل ص ٢٢٢ ونقائض جرير والفرزدق ٢/٨٩٧ .

٢ ـ حماسة ابي تمام ٤/٢٣ .

٣ ـ ديوان الاخطل ص ٣١٤ .

٩ ـ ولم يكتف شعراء الهجاء في عصر بني أمية بأساليب الهجاء القبلي الموروثة عن القدماء وبما أضافوا اليها من ألوان التعقيد والتوليد والتصرّف في أبواب القول ، بل أضافوا اليها أساليب أخرى جديدة ، وألواناً لم يعرفها القدماء ولم تسغها بيئتهم . ومن هذه الاساليب ما يقوم على عنصر **الاضحاك ،** فالشاعر إما أن يعمد الى تصوير مهجوّيه في صورة ساخرة تحمل السامععلى الضحك ، أو يلجأ الى استخدام الالفاظ المثيرة للضحك . وهذا اللون من الهجاء لقي رواجاً أيّ رواج في عصر بني أمية ، وهو وليد بيئة ذلك العصر التي أخذت بطرف من حياة التحضر والترف. فقد عزفت نفوس القومعصرئذ عن حياة الجدّ الصارم التي أخذ الجاهليون بها أنفسهم ، وتاقت الى أن تصيب حظاً من المرح واللهو ، وأعانها على ذلك ما وجدته في حياتها من فراغ لم يتحه لأسلافهم سعيهم الدائب في سبيل اكتساب القوت ، كما أعانها على ذلك ما خلفته حياة التحضر النسبي التي انتقلوا اليها من رقة في الطباع ولين، فوجد لذلك هـذا الضرب من الهجاء القائم على الإضحاك صدى في نفوسهم وطربوا له وأعجبوا به أيما إعجاب .

وكان الشاعر الهجّاء يستفرغ جهده في ابتكار الصور الهجائية الساخرة الطريفة ، ليستثير ضحك جمهوره المتحلق حوله ويظفر باعجابه . وهكذا نسمع جريراً يهجو بني تغلب فيرسم لنسائهم هذه الصورة الساخرة :

تسوفُ التغلبيةُ وهي سكرى ... قفا الخنزير تحسبُـه غـزالا
اذا انفتقت عباءتها وضاقت ... رأى الراؤون داهيةً ُعضالا (١)

ويصوّر المرأة التغلبية في أهجية أخرى فيقول :

والتغلبيةُ حين غبّ غبيبها ... تهوي مشافرُها لشر مشافرِ
تفترّ عن قَردِ المنابت لطِلطٍ ... مثل .. وضرسُها كالحافرِ (٢)

---

١ ـ ديوان جرير ص ٤١٤ . تسوّف : تشم .

٢ ـ ديوان جرير ص ٣٠٩ . حين غب غبيبها : أي أنتن لحم ميتّها وخنزيرها . قرد المنابت : قصير الاسنان . اللطلط : من لصقت أسنانه بلثته .

وعنصر الإضحاك يقوم هنا على استعمال لفظ « المشافر » عوضاً عن الشفاه ، والمشافر للابل ، وعلى استعمال لفظ « أطلط » وعلى تصوير قبح هيئتها في هذه الصورة المنفرة التي تستثير الضحك والاشمئزاز في وقت معاً .
وحين أراد جرير وصف رجال تغلب أسعفته قريحته بالصورة التالية :

والتغلبي اذا تنحنح للقرى ... حكّ استه وتمثل الامثالا (١)

وقد سار هذا البيت مسير الأمثال ودار على كل لسان لما توافر فيه من خفة اللفظ وبراعة التصوير الساخر ولم يكن قريعه الاخطل ليقل عنه براعة في ابتكار الصور الساخرة ، ومن أجود ما انفتقت عنه مخيلته هذه الصورة الطريفة التي مثل فيها بخل بني كليب :

قومٌ اذا استنبح الاضيافُ كلبهم ... قالوا لأمهم بولي على النارِ (٢)

ويجاريهما في هذا المضمار صاحبهما الفرزدق ، فهو يمرّ بحمار ينهق وسرعان ما تثب الى خاطره هذه الصورة التي يقرن فيها مهجوّيه بني كليب بالحمار الذي رآه :

ولا ينفكّ ينهقُ في طريقٍ ... كليبيٌّ عليه مزادتانِ (٣)

فلما سمع بنو مجاشع هذا البيت لهجوا به وأنشدوه في كل مجلس .

وربما وقف الشاعر عند الخصلة التي تُعيّر بها القبيلة وراح يعرضها عرضاً تصويرياً مثيراً لضحك السامع وسخريته ، على نحو ما صنع المغيرة

---

١ ـ ديوان جرير ص ٤٥١ .
٢ ـ نقائض جرير والاخطل ص ١٣٥ .
٣ ـ ديوان الفرزدق ص ٨٧٤ .

ابن حبناء وكعب الأشقري في تصويرهما ما عرفت به عبد القيس من كثرة الفساء (١) . وعلى نحو ما صنع الفرزدق في تصويره حطة عطية أبي جـرير ورهطه وسوقه الحمر والاعيار اذ يقول :

وترى عطيـةَ والأتان أمـامـه	عجلا يمـرّ بهـا على الامثـال
ويظـلّ يتبعهـنّ وهـو مقرمـد	مـن خلفهـنّ كأنـه بشِكـالِ
وترى على كتفي عطيـة مائـلا	أرباقـه ُعدلت لـه بسخـالِ
تبـع الحمـارَ مكلّمـاً فأصـابه	بنهيقـه مـن خلفـه بنَكالِ (٢)

وكانت هذه الابيات وأمثالها لا تكاد تتلقفها آذان المستمعين في المربد أو الكناسة أو غيرهما حتى تذيع في الناس وتدور على كل لسان، ولا سيما أشعار جرير التي أوتيت من السيرورة ما لم تؤته أشعار غيره من الهجّائين (٣) .

٧ ــ ولون آخر من الهجاء لم يكن يعرفه القدماء ولم يكن لهم أن يعرفوه هو الهجاء القائم على **الافحاش في اللفظ،وعلى نهش الأعراض** وهتك العورات. وقد لقي هذا الهجاء أيضاً رواجاً شديداً في عصر بني أمية يشهد به كثرة اقبال الشعراء عليه وازدحام أهاجيهم به ، ولم تكن بيئة شعراء الجاهلية لتسيغ هذا اللون من الهجاء المبتذل فلم يقبلوا عليه إلا في النادر. أما في العصر الاموي فكان من أثر الحياة الحضرية التي عاشها العرب أن تبدّلت الأذواق ،

---

١ ــ الاغاني ٢٩٠/١٤ و ٩٤/١٣ . وقد ذكرت الابيات آنفاً .

٢ ــ النقائض ٢٩٣/١ . الامثال : الطرق والآكام . مقرمد متقارب الخطو . السخال ج سخلة ولد الشاة . اصابه بنكال : أي رمحه .

٣ ــ الاغاني ٣١٨/٤ .

واختلفت صورة الحياة الاجتماعية وجنحت الى الأخذ بقسط من اللهو والمتعة. وكان من أسباب اللهو والمتعة الاستماع الى شعراء الهجاء في الاسواق والمحافل يتناقضون ويتهارشون ويذيعون المثالب والمعايب . وكان هؤلاء الشعراء يلتمسون كل ما من شأنه الظفر بإعجاب مستمعيهم وإرضاء أذواقهم . ويبدو ان ذوق هؤلاء المستمعين كان يسيغ سماع هذا الضرب من الهجاء الفاحش البذيء الذي تنكره أذواقنا اليوم أشد الإنكار ، ولم يكن الشاعر يجد أدنى حرج في ايراد الألفاظ النابية الصريحة ، ولا يكلف نفسه اللجوء الى أساليب الكناية والتلويح والتعريض كما لم يكن يجد أدنى حرج في نهش أعراض مهجوّيه وهتك عورات نسائهم ورميهن بالفواحش ، والافتراء عليهن باتهامهن بالفجور وإتيان المنكرات . ومن المحقق ان القبيلة المهجوة كانت تثور لسماع هذا اللون من الهجاء البذيء الذي يلغ في أعراضها ويشهّر بنسائها . وحين لجأت ليلى الأخيلية الى هذا الضرب من الهجاء الفاحش في هجائها بني جعدة ، رهط خصمها النابغة ، غضب بنو جعدة وهمّوا باستعداء السلطان عليها لشتمها أعراضهم وافترائها عليهم (١) . ولكن هذا الهجاء نفسه كان يعجب طائفة من الناس وتسيغه أذواقهم ، ومن هنا حرص الشعراء على الإكثار منه حتى امتلأت أهاجيهم بالسباب البذيء والألفاظ الفاحشة النابية والصور الفاضحة والتعرّض للعورات والأعراض ، على تفاوت حظهم من هذه البذاءة .

وحين نرجع الى ما بين أيدينا من نماذج هذا الهجاء الفاحش اللفظ نجد أن لواء السبق معقود فيه لجرير والفرزدق ، ولا يسعنا هنا ايراد نماذج من هذا الهجاء ، وحسب القارىء أن يرجع الى أي نقيضة من نقائض هذين الشاعرين ليقف على صورة هذا الضرب من الهجاء المليء بالهجر والفحش ، ومما لا ريب فيه اننا ننظر اليوم نظرة إنكار واستهجان الى هذا الجانب

---

١ ـ الاغاني ١٧/٥ .

المشين المخجل من تراثنا الشعري ، ولا نكتم اسفنا لاسفاف فحول شعرائنا القدامى وانحدارهم بشعرهم الى مستوى السباب البذيء وذكر العورات وإيراد الألفاظ النابية ، كنا نودّ لو خلا تراثنا الأدبي الذي نفاخر به الأمم من هــذه اللطخات القبيحة التي لوّثت محيّاه وأفسدت رونقه وجماله ، وخرجت به عن وجهته الحق وغايته الأصيلة .



٣

خصائص فنيـــة

ان التطور الذي لمسناه في أساليب الهجاء القبلي وفنونه قد سايره تطور مماثل في خصائص هـــذا الهجـــاء الفنية ، سواء في طرق الأداء الفني أم في أساليب التعبير والتصوير ، ولا سيما على يد الشعراء الذين احترفوا الهجاء، وانصرفوا الى اتقانه وتجويده .

وأول ما نلاحظه من مظاهر هذا التطور ان الشاعر لم يعد يرسل هجاءه إرسالاً عفوياً ، ولم يعد يكتفي بأبيات قليلة يعبّر فيها عما يجيش في صدره من ضغينة وحقــد على مهجوّيه ، وانما أخذ يوجّه عناية خاصة الى هـــذا الهجاء ، ويحرص على أن يأتي فيه بالمعاني البِكر ، والصور الطريفة التي لم يُسبق اليها . فالهجاء أصبح في هذا العصر وليد الصنعة والمهارة الفنيـــة لا وليد العفوية والبداهة ، واتقان الهجاء كان يكلّف الشاعر ألواناً من العناء والمشقة ، كما كان يكلفه إطالة السهر وإدامة الفكر حتى تأتي قصيدته في الصورة التي يريدها ، وحتى يكون لها في نفس مهجوّيه ما يسعى اليه من شدة التأثير وبليغ الوقع . وقد حدّثنا أن جريراً لما عزم على هجاء بني نمير أنفق ليله يحبو على فراشه ويتقلب فيه حتى فتح له باب القول (١) ، وان الفرزدق لما تحدّاه الغلام الأنصاري أن يأتي بمثل قصيدة حسان وأراد أن يجيبه استعصى عليه الشعر وكأنه مفحم لم يقل شعراً قط، ولم يُفتح له باب القول حتى ركب ناقته وانطلق بها يجوب الفيافي والقفار ويستلهم شياطين الشعر (٢) . وكان يحدّث عن نفسه انه ربما أتى عليه حين ونزع ضرس من

---

١ ــ الاغاني ٣٠/٨ .

٢ ــ النقائض ٥٤٧/٢ .

أضراسه أهون عليه من قول بيت واحد من الشعر (١) . وذكروا أيضاً على لسان الاخطل انه أنفق حولاً كاملاً في نظم نقيضته المشهورة «خف القطين»(٢). ومن هنا وجدنا شعراء الهجاء يُعنون باطلاق نعوت على أهاجيهم المشهورة تصف شدة وقعها في نفس المهجوّين ، فجرير يسمي قصيدته المشهورة في هجاء بني نمير : « الدمّاغة » ، و « الدهقانة »(٣) ، والنابغة الجعدي يُطلق على قصيدته الطويلة التي قالها في هجاء بني قشير وعقيل اسم « الفاضحة » لأنه ذكر فيها كل ما كانوا يسبّون به (٤) .

والهجاء في عصر بني أمية أصبح يختلف اختلافاً أساسياً عن الهجاء القديم ، سواء في غايته أم في منهجه وطريقته . فالشاعر الجاهلي كان يتوخى من هجائه التنفيس عن مكنون حقده وسخطه وإيلام مهجويه ، وهو لذلك يكتفي بأبيات قليلة تؤدي هذه الغاية . أما الشاعر في العصر الاموي فلم يعد يكتفي بتحقيق هذا الغرض لان الهجاء تحوّل عنده الى حرفة وصناعة ، وهو يبذل غاية جهده في تجويد الصنعة وإتقان الهجاء ليظفر برضى مستمعيه واعجابهم ، وهو يصطنع شتى أساليب الهجاء التي يرضى عنها جمهوره ، فيلجأ الى الصور الساخرة المضحكة تارة والى السباب البذيء الفاحش تارة أخرى والى غير ذلك من الاساليب التي تحدثنا عنها ، في سبيل تحقيق هذه الغاية . والشاعر حين يقصد الى هجاء قوم لم يكن يتوخى إيلام مهجوّيه فحسب ، وانما أصبح يتوخى الى ذلك إظهار مقدرته الهجائية وطول باعه في هذا المضمار ، ولم يكن يريد ان يذود عن قومه ويصد سهام الهجاء الموجهة اليهم فحسب، وانما يريد فوق ذلك أن يعلن للملأ انه شاعر قومه غير مدافع، وانه وحده جدير بهذا اللقب .

---

١ ـ العمدة ٧٨/١ .
٢ ـ الاغاني ٢٨٧/٨ .
٣ ـ النقائض ٤٣٠/١ .
٤ ـ الاغاني ١٤/٥ .

ومن نواحي الاختلاف في خطة الهجاء ومنهجه ان الشاعر لم يكن يقتحم غرضه اقتحاماً ، وانما يمهد له في كثير من الاحيان بالنسيب والوصف . فاذا انتقل الى الهجاء حرص على استقصاء معايب مهجوّيه واستيفاء القول في مخازيهم ومثالبهم، مستعيناً بشتى طرق التعبير وأساليب الاداء والتصوير ليبلغ بأهجيته ما يريد لها من الاجادة الفنية . فهو شاعر هجّاء يحرص على إتقان صناعته الهجائية ، وهو يستخدم كل الوسائل التي تفضي به الى هذه الغاية ، وهذا كله قد أدّى الى طول قصائد الهجاء في هذا العصر طولاً لا عهد للهجاء به في العصور السابقة ، وكثير منها كان يجاوز عدد أبياته المائة ؛ ونقيضة الفرزدق الميمية التي قالها بمناسبة مقتل قتيبة تبلغ زهاء مائة وستين بيتاً . وهذا الطول ينبئنا بمدى ما كان الشاعر يبذله من جهد وما كان يلقاه من عناء في نظم أهاجيه ، ويؤكد ما قدمناه من ان فن الهجاء القبلي أصبح فناً قائماً بذاته في ذلك العصر ، وحرفة يبذل الشاعر غاية وسعه في إحكامها وتجويدها .

والتطور في خصائص الهجاء القبلي يتناول الى ذلك الناحية الفكرية ، فان التغيّر العظيم الذي أصاب حياة العرب منذ الاسلام كان لا بد من أن يترك أثره في أفكار الشعر ومعانيه ، وقد أطلّ الشعراء منذ ذلك الحين على آفاق فكرية جديدة أمدّت شعرهم بروافد ثرّة خصبة وأضافت الى تراثهم الفكري الموروث عن أسلافهم ثروة جديدة زادت معانيهم خصباً ونماء ، فقد أتيح للشعراء أن يقفوا على الثقافة الدينية المستمدة من القرآن الكريم والتشريع الاسلامي والاجتهادات الفقهية والاختلافات المذهبية ، كما أتيح لهم أن يقفوا على الثقافة التاريخية المستمدة من أخبار العرب الماضين وأيامهم وأنسابهم وأخبار الأمم المجاورة لهم ، ووقفوا فضلاً عن ذلك على ألوان أخرى من الثقافة الفكرية كانت ثمرة اتصال العرب بسكان البلاد المفتوحة وانضواء أكثر الأمم العريقة في الحضارة تحت راية الدولة الاسلامية. فاجتمع للشعراء من شتى ألوان الثقافات هذه زادٌ خصب انتفعوا به في شعرهم اذ لوّنوا به معانيهم وأخصبوا أفكارهم ووسعوا آفاقها وأدخلوا عليها ضروباً من التعقيد لم يعرفها أسلافهم ولم يألفوها .

وأبرز هذه الثقافات أثراً في فنون الشعر القبلي الثقافة الدينية والقرآنية، فقد تركت هذه الثقافة ميسمها الجلي فيما انتهى الينا من شعر الهجاء القبلي والمناقضات . وقد رأينا الطرماح يستخدم هذه الثقافة في هجائه بني تميم فجعلهم يتحامون ورود حوض الرسول يوم القيامة اذا وجدوا عليه أعداءهم الأزد ويمتنعون من قتالهم ولو أنذرهم الله بعذابه الشديد فيقول :

لو حان وِردُ تميم ثم قيل لهـا — حوضُ الرسول عليه الازد لم ترد
او ارسل الله وحيـاً ان يعذبهـا — إن لم تعد لقتال الازدِ لم تعدِ (١)

ووجدنا صدى هذه الثقافة أيضاً في قول المساور بن هند يهجو بني أسد :

ما سرني ان امي من بني أسـد — وان ربي ينجيني من النـار (٢)

ومثل ذلك وجدناه في قول زياد الأعجم يهجو بني يشكر :

اذا يشكريّ مس ثوبك ثوبه — فلا تذكرنّ الله حتى تطهّرا (٣)

وأكثر ما نجد أثر هذه الثقافة الدينية في هجاء جرير وخصمه الفرزدق ، وان لم نجد لهذه الثقافة أثراً في مسلكهما من هجائهما الناس ونهشهما الأعراض ، ولا سيما في مسلك الفرزدق الذي اشتهر بفجوره وفسقه . فمن آثار هذه الثقافة في شعر الفرزدق ما نجده في قوله يهجو بني فزارة إذ يجعل توليها الامارة من أشراط الساعة :

---

١ ـ ديوان الطرماح ص ١٤٥ .

٢ ـ الاغاني ٣١٨/١٠ .

٣ ـ الاغاني ١٠٣/١٣ .

إن القيامة قد دنت أشراطهـــا حتى أمية عن فزارةَ تنزعُ (١)

ومن أثرها في شعر جرير قوله يهجو الفرزدق حين نفاه عمر بن عبد العزيز من المدينـــة :

تحبـــك يوم عيـــدهم النصـــارى ويوم السبتِ شيعتـــك اليهـــودُ
فان تُرجم فقد وجبت حـــدودٌ وحل عليك ما لقيتْ ثمودُ (٢)

وقد أصبح من مثالب القبيلة في ذلك العصر رميها بالتهاون في أداء الفروض الدينية على نحو ما وجدناه في قول الحزين الديلي يهجو بني كعب بن خزاعة :

لا يدرســـون كتـــابَ الله بينهـــم ولا يصومون من حرصٍ على الشبَعِ ٢

ومن الناحية الأدبية نجد أيضاً أن القرآن الكريم قد ترك ميسمه الواضح في فن الهجاء القبلي شأنه في سائر فنون الشعر الاسلامي ، فان هذه المعجزة البلاغية انتزعت اعجاب الأدباء والشعراء وخلبت ألبابهم وأصبحت منـــذ الاسلام أول ما يحرص البلغاء على حفظه والوقوف عليه ، وقد وجدوا في القرآن مَعيناً أدبياً ثرّاً ينهلون منه ، ومثالاً بيانياً فذّاً ينهجون على غراره . وقد رأينا الفرزدق يأخذ نفسه منذ مستهلّ حياته ا لادبية بحفظ القرآن وجمعه (٤) وما ذاك الا لأنه أدرك ما يعود عليه التزوّد بهذه الثقافة من فائدة أدبية بعيدة المدى ، جليلة الشأن ، وكذلك كان يصنع سائر الشعراء والبلغاء في ذلـــك العصر .

---

١ ـ ديوان الفرزدق ص ٥٠٨ .

٢ ـ ديوان جرير ص ١٦١ .

٣ ـ الاغاني ٣٣٢/١٥ .

٤ ـ النقائض ١٢٦/١ .

وهكذا حين نرجع الى هذا الهجاء القبلي الذي انتهى الينا نجد الميسم القرآني بارزاً سواء في المعاني والافكار ، أم في الصور والأخيلة أم في الألفاظ والتعابير . وأكثر ما نجد هذا الأثر القرآني في شعر جرير ، فهو اذا أراد هجاء الفرزدق مثلاً شبّهه بالسامريّ الذي أضلّ قوم موسى فقال :

ضللت ضلال السامريّ وقومه دعاهم فظلّوا عاكفين على عِجلِ (١)

ويبدو أن جريراً أعجب بهذا المعنى فأتى به مرة أخرى في هجائه آل بارق :

يا آل بارقَ لو تقدّم ناصحٌ للبارقي فانه مغرورُ
كالسامريّ غداةَ ضلّ بقومه والعجلُ يعكف حوله ويدورُ (٢)

وكان تارة يصطنع أسلوب التعريض فيقول في هجائه البعيث والفرزدق :

ان البعيث وعبدَ آلِ مقاعسٍ لا يقرآن بسورة الأحبارِ (٣)

ولم يكن الفرزدق أقل اتكاء على المعاني والصور القرآنية من قريعه جرير، فاسمعه مثلاً يجيب جريراً حين تصدى لهجاء بني نمير في قصيدته الدامغة فيقتبس الصورة القرآنية التالية :

فانك من هجاء بني نمير كأهلِ النار إذ وجدوا العذابا
رجَوا من حرّها أن يستريحوا وقد كان الصديدُ لهم شرابا (٤)

---

١ ــ النقائض ١٦٥/١ .

٢ ــ ديوان جرير ص ٣٠١ .

٣ ــ النقائض ٢٤٠/١. قيل انه أراد بذلك قوله تعالى في هذه السورة :« أوفوا بالعقود » أراد انهما لا يفيان بعهودهما .

٤ ــ النقائض ٤٦٨/١ .

وإذا أراد تصوير ضعة بيت جرير ومهانته أتى بالصورة التالية :

ضربتْ عليك العنكبوت بنسجها   وقضى عليك به الكتابُ المنزلُ(١)

وعلى الجملة ، أفاد شعراء الهجاء في العصر الاموي من المادة القرآنية واستغلّوها في أهاجيهم استغلالاً مثمراً وأتيح لهم مَعين بلاغي ينهلون منه لم يُتح مثله لأسلافهم ، فكان لذلك أثره البعيد في تطور فن الهجاء القبلي وارتقائه وفي خصب معانيه وتلوّن صوره .

أما الثقافة التاريخية فتتجلى في كثرة إشارة شعراء الهجاء الى أيام العرب الماضية ووقائعهم وأخبارهم وأنسابهم . وكان الوقوف على هذه الثقافة مما لا غنى عنه لكل شاعر يريد اتقان حرفة الهجاء القبلي في ذلك العصر . ومن هذه الاشارات التاريخية قولُ الاخطل يهجو بني كليب ويتحدث عن وقعة ذي قار ويوم الكلاب الاول :

هلاّ كفيتم مَعدّاً يومَ مُعضلةٍ   كما كفينا معداً يومَ ذي قارِ

جاءت كتائبُ كسرى وهي مُعلمةٌ   فاستأصلوها وأردَوا كلّ جبّارِ

هلاّ منعتم شرحبيلا وقد حدبت   له تميمٌ بجمعٍ غيرِ أخيارِ

يومَ الكلاب وقد سيقت نساؤكم   سَوقَ الجلائب من عُونٍ وابكارِ(٢)

ولم يكن للثقافة الفلسفية والفكرية الخالصة كبير أثر في الشعر الاموي

---

١ ـ النقائض ١٨٣/١. يشير بذلك الى قوله تعالى : « وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كنتم تعلمون » (سورية العنكبوت ـ آية ٤١) .

٢ ـ نقائض جرير والاخطل ص ١٣٤ . وقد غدرت بنو تميم بشرحبيل بن الحارث يوم الكلاب وأسلمته للقتل .

لأن هــذه الثقافة لم تكن قد نضجت عصرئذ ، ولم يظهر أثرها بجلاء وتؤت أكلها إلا في العصر العباسي . وجُماع ما نلاحظه ان المناظرات الفكرية والدينية وألوان الجدل الفكري التي عرفها هذا العصر كان لها صداها في نضج فــن النقائض الاموية ، لأن التناقض بين الشعراء كان ضرباً من ضروب المناظرات الأدبية (١) ، وهذه المناظرات الادبية قد تأثرت دون ريب بأصول المناظرات الفكرية والدينية التي شاعت عصرئذ ، سواء من حيث براعة الإدلاء بالحجج ومقارعة الفكرة بالفكرة ونقض كل شاعر معاني خصمه ودحض دعاويه ، أم من حيث تتبع معايب المهجوين واستقصاء مثالبهم حتى لا يبقى في القــول مزيدٌ لقائل ، أم من حيث نظــام النقيضة العام وإحكام أصولها وتسلسل أغراضها. ومن هنا كادت النقائض الاموية تغدو فناً آخر غير النقائض القديمة التي عرفها العصر الجاهلي وصدر العصر الاسلامي ، وأوشك فن النقائض أن يكون فناً أموياً خالصاً .

وحين نرجع الى أساليب التعبير في شعر الهجاء القبلي في ذلك العصر نلاحظ ان الشعراء كانوا يلجأون الى طرق بلاغية شتى ويشققون أساليب القول ، فتارة يجرون على أسلوب التقرير والاخبار ، وهو أكثر الاساليب شيوعاً عندهم ، كقول الفرزدق في بني كليب :

اذا قيل أي الناس شر قبيــــلة ... أشارت كليبــاً بالأكف الاصابعُ (٢)

وتارة أخرى يجرون على أسلوب الانكاروالتعجب ، كقول الفرزدق في هجــاء بني كليب :

فــوا عجبــا حتى كليب تسبني ... كأنّ اباهــا نهشلٌ او مُجاشــعُ

اتعــدِلُ حســاباً لئــاماً أدقّةً ... بأحسابنا إني الى الله راجــعُ (٣)

---

١ ــ انظر التطور والتجديد في الشعر الاموي ص ١٨٦ وما بعدها .

٢ ــ ديوان الفرزدق ص ٥١٨ .

٣ ــ ديوان الفرزدق ص ٥١٨ .

وأحيانا أخرى كانوا يجرون على أسلوب التهكم والاستخفاف ، كقول زياد الأعجم في بني جرم :

فمن أنتمُ إنا نسينا من انتمُ   وريحكم من أي ريح الاعاصر (١)

ومن الاساليب التي لجأ اليها شعراء الهجاء أيضاً أسلوب التكرار اللفظي ، وهو ينصّب في الغالب على اسم القبيلة المهجوّة ومنه قول جرير يهجو بني ضبّة أخوال الفرزدق :

يا ضبّ إني قد طبخت مجاشعاً   طبخاً يُزيل مجامع الاوصال
يا ضبّ لولا حَينكم ما كنتم   غَرَضاً لنَبلي حين جدّ نضالي
يا ضبّ إنكم البِكارُ وانني   متخمّط قَطِمٍ يُخاف صيالي
يا ضبّ غيركم الصميم وانتم   تبع اذا عد الصميم موالي
يا ضبّ انكم لسعدٍ حشوة   مثل البكارِ ضممتها الاغفال
يا ضبّ إن هوى القُيون اضلكم   كضَلال شيعة أعور الدجّالِ (٢)

ومثله تكرار لفظ « بني نمير » في قصيدة جرير الدامغة التي هجا بها هذه القبيلة .

ومنها أسلوب المقابلة ويقوم على مقابلة الشيء بنقيضه ، ومثاله قول الفرزدق في هجاء بني نهشل :

يقصّر باعُ النهشلي عن العلى   ولكن قُنْبَ النهشلي طويلُ (٣)

---

١ ــ العمدة لابن رشيق ٢/١٦٥ .

٢ ــ النقائض ١/٣٢٢ . المتخمط : المتكبر . القطم : الفحل الهائج . الاغفال : التي ليست عليها سمات .

٣ ــ ديوان الفرزدق ص ٦٢٥ . القنب : غلاف الذكر .

هذه الخصائص التي ذكرناها تقفنا على مدى التطور الذي أصاب فن الهجـاء القبلي في ذلك العصر ، وعلى ما أصابه من رقي ونضج على يد فحول شعراء الهجاء الذين فرغوا لهذا الفن ووقفوا عنايتهم عليه ، حتى بلغوا من إجادته ما لم يبلغه شعراء الهجاء القبلي في سائر عصورنا الأدبية .





الفصل الرابع

الفخر القبلي



الفخــر القبــلي

١

غلبة النزعة القبلية على الفخر في العصر الأموي

الهجاء والفخر هما أكثر أغراض الشعر اتصالاً بالعصبية والروح القبلية. فأولهما صدى شعور العداء الذي تكنّه القبائل المختصمة بعضها لبعض ، والثاني هو صدى اعتزاز القبيلة بنفسها وايمانها بجنسها وفضلها على سائر القبائل . ومن هنــا كان هذان الفرضان يتلازمان في أكثر ما انتهى الينا من شعر العصبيات ، لأنهما يصدران عن منبع نفسي واحد هو الشعور العصبي. فاذا تصدّى الشاعر لهجاء أعداء قومه وتحقير شأنهم لا بد له بعدئذ من أن يضع قومه بإزائهم مفاخراً بهم فيعدّد مناقبهم وينوّه بمآثرهم التي حرمت منها القبيلة المهجوّة . فاقتران الهجاء بالفخر في شعر العصبيات أمر طبيعي إذن، ومن هنا وجدنا المناقضات القبلية تدور أول ما تدور على هذين الغرضين.

وقد لاحظنا قبلُ غلبة الطابع القبلي على جل الشعر الاموي الذي وقــع الينا ، فكذلك نجد ان أكثر ما بأيدينا من الفخر يتسم بالسمة القبلية ويعبّر عن نزعة العصبية التي احتدم أوارها عصرئذ . واذا خطر للشاعر أن يفاخر بشخصه أحياناً فانه لا يغفل عن الفخر بقومه بعــد ذلك ، وتجتمع حينئذ النزعتان الفردية والقبلية في القصيدة الواحدة، أما النزعة الفردية المطلقة التي تصوّر اعتزاز الشاعر بشخصه وشعوره باستقلال شخصيته عن شخصية جماعته وباستغنائه عنها فانها لم تكد تعرف سبيلها الى الشعر العربي الا منذ العصر العباسي فنجدها مثلاً في شعر المتنبي الذي نسمعه يقول مفتخراً :

لا بقومي شرُفتُ بل شـرفوا بي　　　وبنفسي فخرتُ لا بجـدودي (١)

بل ان المتنبي نفسه ، على رغم الاعتزاز الفردي المسرف الذي عرف به ، لم يقصر فخـره على نفسه بل عـاد ففخـر بقومـه في نفس القصيدة وأشاد بمناقبهم فقـال :

وبهم فخرُ كل من نطق الضـا　　　دَ وعوذُ الجاني وغوثُ الطريدِ (٢)

أما في العصر الاموي فقد ظل ارتباط الشاعر وثيقاً بقومه يستظهر بهم ويعتز بالانتماء اليهم ولا يرى قوماً يعدلونهم شرفاً ومكانة ، وكلهم ينظر الى قومه نظرة الفرزدق الى بني تميم حيث يقول :

تميمٌ همُ قومي فـلا تعـدلنهـم　　　بحيٍّ اذا اعتزّ الامورَ كبيرُها (٣)

والشاعر يظلّ يشعر بالولاء لقومه والاعتزاز بهم حتى حين يبدر منهم مايسوءه وينكره ، ويظل يرى ألاّ خير في الحياة بعدهم وان بقاءه مرهون ببقائهم وعزّته بعزتهم ، وكل شاعر كان لسان حاله قول عبد الله بن خليفة الطائي في قومه :

فلا تَبعدَنْ قومي وان كنت غائباً　　　وكنتُ المضاعَ فيهمُ والمكفّـرا

فلا خيرَ في الدنياولا العيشِبعدهم　　　وان كنتُعنهمنائيَ الدارُمحصرا(٤)

وحتى حين ينزع الشاعر الى الفخر بنفسه فان فخره في الغالب يكون صدى عصبيته ، اذ هو يفاخر بذَوده عن حياض قومه ومنافحته عنهم وولائه لهم ، صنيع الفرزدق إذ يفاخر ببلائه في المنافحة عن قومه ويعاهدهم أن يبقى على ولائه لهم ما عاش ويعلن ان غاية ما يرجوه هو الظفر برضى قومه عنه فيقول :

---

١ ـ ديوان المتنبي ٢٠٨/٣ .

٢ ـ المصدر السابق .

٣ ـ ديوان الفرزدق ص ٢٧٤ .

٤ ـ الطبري ٢١٠/٤ .

أنا الضامنُ الراعي عليهم وانما ... يدافعُ عن احسابهم أنا او مثـلي
ولوضاع ما قالوا ارعَ مناوجدتهم ... شحاحاً على الغالي من الحسب الجزلِ
إذا مارَضوا مني اذا كنت ضامناً ... بأحساب قومي في الجبال وفي السهلِ
فمهما أعشْ لا يُضمنوني ولا أضع ... لهم حسباً ماحرّكت قدمي نعلي (١)

ونحن نلاحظ ما تنطوي عليه هذه الابيات من صدق ولاء الشاعر لقومه وشدة تعلقه بهم وحرصه على مرضاتهم .

وابرز ما يفخر به الشاعر ويملأ صدره اعتزازاً وزهواً ذوده عن حياض قومه بسلاح الشعر الذي يملكه ، فهـو لا يزال يمنّ عليهم منافحته عنهم ويعاتبهم اذا لم يقدروا بلاءه في الذياد عنهم حق التقدير ، فنسمع جريراً مثلاً يوجّه الى بعض قومه هذا العتب :

الم اكُ ناراً يصطليهـا عدوكـم ... وحِرزاً لمـا الجأتمُ من ورائيـا
وباسطَ خـير فيكـم بيمينـه ... وقابض شرٍّ عنكـم بشماليـا
اذا سركم ان تمسحوا وجهَ سابق ... جوادٍ فمدوا وابسطوا من عنانيا
الا لا تخـافا نبوتي في ملمّـة ... وخافا المنايا ان تفوتكما بيـا (٢)

* * *

---

١ ـ النقائض ١/١٢٨ . الضمانة : الزمانة والعجز ، أي لا يجدونني عاجـزاً .

٢ ـ ديوان جرير ص ٦٠٥ .

٢

موضوعـــاته

لما كان الفخر في الشعر الاموي يصدر عن الروح القبلية الموروثة عن العصر الجاهلي كان من الطبيعي أن يكون مدار أكثر الفخر في عصر بني أمية على المناقب والمآثر التي كان الجاهليّون يفاخرون بها . وقد رأينا ان الاسلام لم يستطع استئصال شأفة العصبيات التي رسخت جذورها في نفوس القوم ، فظلت لذلك لكثير من القيم والمثل الجاهلية منزلتها في نفوس الكثيرين ، ولا سيما أولئك الذين غلبت عليهم عنهجية البداوة ، فاذا نزعوا الى المفاخرة ساروا على نهج أسلافهم وفخروا بمثل ما كانوا يفخرون به من المآثر والمناقب .

وفي طليعة ما كان شعراء العصر الاموي يتفاخرون به الايام والوقائع ، فشعر كل قبيلة سجل يؤرخ وقائعها الظافرة منذ أقدم عصورها ، ومناقضات الشعراء حافلة بأخبار هذه الايام ، جاهليّها واسلاميّها . فأما أيام القبيلة التي انتصرت فيها فإنا واجدون ذكرها في الفخر الذي قاله شعراؤها ، وأما ما كان عليها من الايام فنعرفه من الرجوع الى أهاجي خصومها ، ومن فخر هؤلاء وهجاء أولئك ينتظم تاريخ القبيلة .

كانت كل قبيلة تجعل إذن شعرها سجلاً لوقائعها الظافرة ، فاذا فخرت بكـر بن وائل مثلاً ذكرت في طليعة مفاخرها يوم ذي قار الذي هزمت فيه جيوش كسرى ومن شايعه ، فنسمع العُديل بن الفرخ العجلي مثلاً يشيد بهـذا اليوم فيقول :

ما أوقد الناسُ من نارٍ لمكرمـةٍ   الا اصطلينـا وكنا مُوقدي النارِ

وما يعدّون من يومٍ سمعت بـه للناس أفضلَ من يوم بـذي قارِ
جئنا بأسلابهم والخيـلُ عابسـة يوم استلبنا لكسرى كل أسوارِ(١)

وفاخر بنو عامر بن صعصعة بيوم شعب جبلة الذي هزموا فيه قبائل بني تميم وذبيان وأسد المتحالفة عليهم ، وهو من أعظم أيام العرب وأبعدها ذكراً ، كما فاخروا بيومي رحرحان والسلاّن وغيرهما ، ومن ذلك قول النابغة الجعدي يفخر بيوم الشعب ويذكر إيقاع قومه بحسان وابن الجَون الكنديين اللذين ظاهرا القبائل المتحالفة عليهم :

ونحن حبسنا الحيّ عبساً وعامراً لحسّان وابنِ الجون إذ قيل أقبلا
وقد صعدت وادي بحار نساؤهم كإصعادِ نسـر لا يرومون منزلا
عطفنا لهم عطف الضروس فصادفوا من الهضبة الحمراء عزّاً ومعقلا(٢)

وفخر شعراء اليمانية بأيامهم على معدّ في الجاهلية كيوم أوارة الذي أوقع فيه عمرو بن هند اللخمي ببني تميم وحرّق منهم مائة ، وكان عمرو بن ملقط الطائي حرّض ابن هند على غزو بني دارم وشاركه في غزوهم يومئذ ولذلك أشاد الطرماح الطائي بهذا اليوم في مفاخرته الفرزدق فقال :

واسأل زُرارةَ والمأمونَ ما فعلت قتلى أوارةَ من رَعلان واللَدَدِ
ودارمٍ قـد قذفنا منهـمُ مائـة في جاحمِ النار إذ يلقون في الخدد(٣)

---

١ – الشعر والشعراء ٣٧٥/١ .

٢ – الاغاني ١٣٦/١١ .

٣ – ديوان الطرماح ص ١٤٥ . ولا أدري ما المقصود بالمأمون ولعلها : المأموم ، من أمه أي شجه .

وفخر بنو تغلب بيوم الكلاب الاول ، وكانوا مع سلمة بن الحارث يومئذ ، كما فخروا بقتل عمرو بن كلثوم عمرو بن هند ملك الحيرة فقال القطامي :

أليسوا بالألى قسطوا قديماً على النعمان وابتدروا السِطاعا
وهم وردوا الكلاب على تميمٍ بموجٍ يبلع الناس ابتلاعا (١)

وفخر بنو يربوع بأيام طخفة وذي نجب والصمد ومن ذلك قول جرير :

هم ضربوا هام الملوك وعجّلوا بوردٍ غداة الحوفزان فبكّرا
وقد جرّب الهرماسُ وقعَ سيوفنا وصدّعن عن رأس ابن كبشةَ مغفرا
وقد جعلت يوماً بطِخفةَ خيلُنا لآل ابي قابوسَ يوماً مذكّرا (٢)

وربما فخر الشاعر بأيام قومه على قبيلة دون غيرها ، كقول الفرزدق يفخر بأيام بني تميم على قيس عيلان :

ونحن ضربنا من شُتير بن خالد على حيث تستسقيه أمُ الجماجمِ
ويومِ ابن ذي سيدان اذ فوّزت به الى الموت اعجاز الرماح الغواشمِ
ونحن ضربنا هامةَ ابن خويلد يزيدٍ على أمّ الفراخِ الجواثمِ
ونحن قتلنا ابني هُتَيم وادركت بجيراً بنا ركضُ الذكور الصلادمِ
ونحن قسمنا من قدامة رأسه بصدعٍ على يافوخه متفاقمِ
ونحن تركنا من هلالِ بن عامر ثمانين كهلاً للنسور القشاعمِ (٣)

---

١ ــ ديوان القطامي ص ٣٧. السطاع : أطول عمود في البيت يشير الى دخولهم قبة النعمان.

٢ ــ ديوان جرير ص ٢٤٥ . الحوفزان : رئيس شيبان يوم الصمد وقد أسره بنو يربوع يومئذ . ابن كبشة الكندي : اصابه بنو يربوع يوم ذي نجب .

٣ ــ النقائض ٣٨٧/١ وما بعدها. شتير : هو شتير بن خالد بن نفيل قتله ضرار بن عمرو =

ومن مفاخرة الشعراء بأيام قبائلهم التي كانت منذ الاسلام قول عمرو بن مخلاة الكلبي يذكر إيقاع كلب بقيس يوم مرج راهط :

شفى النفس قتلى لم توسّد خدودها	تلم بها طُلسُ الذئابِ وسودُها
بأيدي كماةٍ في الحروب مَساعرٍ	على ضامراتٍ ما تجف لبودها
أبحنا حمى الحيّين قيسٍ براهطٍ	وولت شَذاذاً واستُبيح شريدها(١)

وقد ظلّت لفضائل الصحراء التي فرضتها البيئة على المجتمع القبلي الجاهلي مكانتها في المجتمع القبلي الاموي كالشجاعة والنجدة واغاثة الملهوف وحماية المستجير وقرى الضيف ونحو ذلك . ونحن نلاحظ ان حظ القبائل ذات الماضي المعرق في البداوة كتميم وقيس وأسد وربيعة من الشعر والشعراء أوفى من حظ سائر القبائل ولا سيما تلك التي كانت حياتها في الجاهلية أدنى الى التحضر والاستقرار كقبائل اليمن عامة . ومن هنا غلب على الشعراء الفخر بالفضائل المتصلة بحياة البادية والتي كان لها مكانها في المجتمع البدوي القديم ، بل ان كثيراً من شعراء العصر الاموي نشأوا في البادية ومنهم من ظل يعيش فيها ويختلف الى الحواضر من حين الى آخر ، فلا جرم يتأثر هؤلاء الشعراء ببيئة البادية وتغلب عليهم طبائع أهلها ، على رغم اختلافهم الى الحواضر ومخالطتهم أهلها وغشيانهم مجالس الولاة وقصور الخلفاء ، ومن هؤلاء فحول الشعراء في ذلك العصر أمثال جرير والفرزدق والاخطل والراعي

= الضبي يوم غول . أم الجماجم : الهامة . ابن ذي سيدان : طريف بن سيدان من بني كلاب وقد قتله زويهر بن عبد الحارث يوم غول . فوّز : مات . يزيد : هو بزيد بن الصعق الكلابي . أم الفراخ : الدماغ . ابنا هتيم : رجلان من بني عمرو بن كلاب فتلهما بنو ضبة يوم دارة مأسل. بجير : هو بجير بن عبد الله بن سلمة القشيري ، قتله قعنب الرياحي يوم المرّوت . قدامة : هو الذائد بن عبد الله بن سلمة القشيري ، وقد قتله بنو ضبة يوم النسار . ويشير في البيت الاخير الى يوم الوتدات لبني نهشل بن دارم على بني هلال بن عامر بن صعصعة .

١ ـ التنبيه والاشراف للمسعودي ص ٢٦٧ .

والبعيث والقطامي . فلا غرو أن نجد هؤلاء الشعراء يجعلون للفضائل المتصلة بحياة البادية المحلّ الاول في مفاخرهم .

ومن أجود ما انتهى الينا من مفاخرة الشعراء الامويين بهذه الفضائل نقيضة الفرزدق الفائية التي يقول منها :

ترى جارنا فيها يُجير وان جنى ... فلا هو مما يُنطف الجار ينطفُ
ويمنع مولانا وان كان نائياً ... بنا جارُه مما يخاف ويأنفُ
وقد علم الجيرانُ أن قدورنا ... ضوامنُ للارزاق والريحُ زفزفُ
نُعجّل للضيفانِ في المحْلِ بالقرى ... قدوراً بمعبوطٍ تُمد وتغرفُ
واني لمن قوم بهم تُتقى العِدى ... ورأبُ الثأى والجانبُ المتخوفُ
وأضيافِ ليلٍ قد نقلنا قراهمُ ... اليهم فأتلفنا المنايا وأتلفوا
وجدنا أعزّ الناس اكثرهم حَصىً ... واكرمهم من بالمكارم يُعرفُ
وكلتاهما فينا الى حيث تلتقي ... عصائبُ لاقى بينهن المُعَرّفُ
وباللهِ لولا ان تقولوا تكاثرت ... علينا تميمٌ ظالمين وأسرفوا
لما تُركت كف تُشير بإصبعٍ ... ولا تُركت عينٌ على الارض تطرفُ(١)

فالفرزدق يفخر هنا بجماع الفضائل التي كان لها شأنها في المجتمع البدوي من حماية الجار ونصرة المولى وقرى الضيف ومنعة الجانب والذود عن الحمى . وهو يجعل مكانة القبيلة قائمة على أمرين : كثرة العدد التي تجعل القبيلة

---

١ ــ النقائض ٥٦٢/٢ . ديوان الفرزدق ص ٥٦٠ . ينطف الجار هنا : يهلكه . الزفزف : الشديدة الهبوب . المعبوط : المذبوح من غير علة . الثأى : الفساد .

عزيزة منيعة الجانب ، وإتيان المكارم ، وكلتا هاتين الخصلتين في قومه بني تميم لا ينازعهم فيهما منازع ، واعتماد القبيلة على الكثرة العددية في عصر بني أمية ظاهرة تدلّ على تأصل العصبية في نفوس القوم وتؤكد ما كان للقوى القبلية من شأن كبير في الميزان السياسي .

بل اننا نجد من شعراء ذلك العصر من فاخر بإيثار حياة البادية على حياة الحضر ، وبتعلقه بمظاهر الحياة البدوية القديمة كالغزو والإغارة على القبائل المجاورة ، على الرغم من أن هذه العادة حوربت منذ الاسلام وضرب على أيدي دعاتها بلا هوادة ، فنسمع القطامي يقول مثلاً :

من تكن الحضارةُ أعجبته	فأي رجالِ باديةٍ ترانا
ومن ربط الجِحاش فإن فينا	قناً سُلُباً وافراساً حسانا
وكنّ اذا أغرن على قبيلٍ	وأعوزهنّ نهبٌ حيث كانا
أغرنَ من الضِباب على حلولٍ	وضبة إنه من حان حانا
وأحياناً على بكر أخينا	إذا ما لم نجد الا أخانا (١)

ومن دواعي الفخار في القبيلة إظهارها التمسك بنظامها القبلي وخضوعها لسادتها وانقيادها الى اولي الرأي فيها ، وهذا ما عبر عنه القطامي في قوله :

ونطيعُ آمرنا ونجعل أمرنا	لذوي جلادتنا وحزمٍ قوانا (٢)

---

١ ـ ديوان القطامي ص ٥٨ . حماسة ابي تمام ٣٢٨/١ . من ربط الجحاش : يريد اننا لسنا أهل حضر وانما أرباب غزو نمتطي ظهور الخيل للغارة . السُلُب جمع سَلِب : الطويل من الرماح . الحلول : القوم النازلون في مكان واحد .

٢ ـ ديوان القطامي ص ١٨ .

والقبيلة القوية تباهي بقدرتها على ادراك ثؤرتها من أي قبيلة تصيبها بوتر ، فان ادراكها ثأرها يدفع عنها وصمة العجز والجبن والتخاذل ويثبت للملأ جدارتها بالحياة الكريمة ويجعل أعداءها يخشون جانبها ويتجنبون الاعتداء عليها . فان كانت القبيلة هي المعتدية فخرت بعجز القبيلة الموتورة عن إدراك ثأرها منها . وها هوذا الطرماح يفاخر بأن قومه لا يغمضون عينهم على وتر :

لم يَفُتنا بالوِتر قومٌ وللضيمِ رجال يرضَون بالإغماضِ (١)

وما زالت القبيلة تفاخر في هذا العصر بحلمها الذي يوازي الجبال ثقلاً ، وبجهلها حين تستثار فاذا هي كالجنّ أو أشد نزقاً وتسرعاً الى الشر ، وقد تعاور هذا المعنى جرير والفرزدق في نقيضتين لهما فقال الفرزدق :

أحلامنا تزن الجبال رزانةً وتخالنا جنّاً اذا ما نجهلُ (٢)

وأجابه جرير بقوله :

احلامنا تزن الجبالَ رزانةً ويفوق جاهلنا فعالَ الجهّلِ (٣)

ولم تزل كل قبيلة تدّعي أنها أعرق القبائل شرفاً وأنبلها محتداً وأفضلها نسباً وان بيتها من الشرف والعزة وعلوّ المنزلة طود منيف سامق الذرا وطيد الدعائم لا سبيل الى زحزحته أو بلوغ قمته ، وهذا ما نجده في قصيدة الفرزدق اللامية التي يخاطب فيها جريراً بقوله :

ان الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه اعزُ وأطولُ

---

١ ـ ديوان الطرماح ص ٨٦ .
٢ ـ ديوان الفرزدق ص ٧١٧ .
٣ ـ ديوان جرير ص ٤٤٦ .

فادفع بكفّك ان اردت بناءنا ثهلانَ ذا الهضبات هل يتحلحلُ

جبلي أعزّ اذا الحروب تكشفت مما بنى لك والداك وأفضلُ (١)

وكل قبيلة تعتز بما تركه لها أسلافها من تراث يملأ أعطافها تيهاً وفخراً وتزهو برجالها المشهورين الذين ملأوا سجلّ تاريخها بأخبار بطولاتهم ومآثرهم التي لاتبلى يد الدهر، فالنعمان بن بشير مثلاً يفاخر بأن من قومه ذا القرنين وحاتماً :

فمن ذا يفاخرنا من الناس معشر كرامٌ فذو القرنين منا وحاتمُ (٢)

والطرماح يفخر بفرسان طيء ورجالها الذائعي الصيت :

منا الفوارسُ والاعلام قد علمت عليا معدٍّ ومنا كل ذي حسبِ

كعامر بن جوين في مركبه اومثل أوس بن سعدى سيد العربِ

او كالفتى حاتم إذ قال ما ملكت كفّاي للناس نهبى يوم ذي خشبِ (٣)

فكذلك نرى أن هذه المفاخرات كان قوامها الأحساب والأنساب والمآثر والوقائع ، ونحن لا نكاد نجد بينها وبين الفخر الموروث عن العصر الجاهلي أي اختلاف .

وحتى شعراء الخوارج الذين كانت عقائدهم تعارض هذه الروح الجاهلية القائمة على مبدأ التمايز بين الاجناس والقبائل وعلى المباهاة بالأحساب والأنساب ، لم يسلموا من الخضوع لهذه النزعة ولم يبرؤوا من المفاخرة

---

١ ــ ديوان الفرزدق ص ٧١٤ . النقائض ١/١٨١ .
٢ ــ منتخبات في أخبار اليمن ص ٤٨ .
٣ ــ ديوان الطرماح ص ١٢٨ .

بقبائلهم والاعتزاز بمآثرها ومناقبها ، وقد رأينا الطرماح يفاخر بفوارس قومه طيء ورجالهم المشهورين ، وفي ديوانه الكثير من أمثال هذه المفاخرات ، ورأينا كذلك مَصقلة بن عتبان الشيباني الخارجي يفاخر بني أمية بمن نبغ في قبيلة بكر بن وائل من أقطاب الخوارج البارزين أمثال شبيب وسويد بن سليم والبُطين وغيرهم (١) .

بيد أن نفوس الشعراء في ذلك العصر لم تخلص لسلطان النزعات القديمة الموروثة عن العصر الجاهلي وحدها ، فلم يكن بد من أن يظهر في مفاخراتهم أثر الاسلام وما حمله للعرب من قيم ومثل جديدة ، ولا سيما في شعر أتباع المذاهب والفرق الدينية . ومن الطريف أننا نجد هذين اللونين من الفخر يلتقيان لدى كثير من الشعراء على ما بينهما من تعارض وتناقض . وكان الشعراء حين يلجؤون الى الفخر الاسلامي لا يفخرون بمضمون العقيدة وشرائعها وانما يفخرون بنصرة الدين الجديد والذياد عنه والمشاركة في الفتوح الاسلامية وقتال أهل الشرك ونحو ذلك . ومن هذا القبيل قول الطرماح مفاخراً بقومه اليمانية الذين نصروا الخليفة وقاتلوا الثائرين عليه كما نصروا النبي عليه السلام من قبل وقاتلوا المشركين الى جواره :

ونجاك من أسد العراق كتائبٌ	لقحطانَ اهلِ الشام يومَ استهلتِ
بهم ينصر الله الخليفة كلما	رأوا نعل صنديدٍ عن الحق زلتِ
بهم نصر الله النبيّ وأثبتت	عرى عقد الاسلام حتى استمرتِ
وهم دفعوا بالحق ايام خالدٍ	شياطينَ اهلِ الشرك حتى اطمأنتِ
شياطينُ من قيسٍ وخندفَ غرّها	من الله ما كانت سجاحُ تملّتِ
فإن يك منا موقدوها فإننا	بنا خمدت نيرانها فاضمحلتِ (٢)

١ ـ انظر مروج الذهب ٢/١٣٦ .

٢ ـ دديوان الطرماح ص ١٣٩ . سجاح : هي سجاح التميمية التي ارتدت عقب وفاة الرسول وظاهرت مسيلمة الكذاب .

وفخر جرير بدفاع آل الماحوز التميميين وهم من الخوارج ، عن حرمة بيت الله الى جانب ابن الزبير :

عن المنبر الشرقي ذادت رماحنا وعن حرمة الاركان يرمى حطيمها(١)

وفخر الفرزدق بنزول كتاب الله في خندف وبان لهم الكعبة وبذود قومه عن ديار المسلمين :

ورثنا كتابَ الله والكعبة التي بمكة محجوباً عليها ستورها

ولو ان ارض المسلمين يحوطها سوانا من الاحياء ضاعت ثغورها(٢)

وكان جرير كلما قصد الى هجاء الاخطل ومناقضته عمد الى مفاخرته بالاسلام والنبوّة وكتاب الله والخلافة إغاظة لخصمه النصراني وإحراجاً له لأنه ما كان يستطيع مقابلة فخر جرير بمثله، فنسمعه يفاخره فيقول مثلاً :

إن الذي حرم المكارم تغلباً جعل النبوّة والخلافة فينا

هل تملكون من المشاعر مشعراً او تشهدون مع الاذان أذينا

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم اليّ قطينا (٣)

على ان الفخر القائم على المعاني الاسلامية قليل بالقياس الى سائر الفخر القبلي في ذلك العصر .

---

١ ـ النقائض ١١٨/١ . المنبر الشرقي : خراسان . وقيل هو البصرة . الحطيم ، ما بين الركن وزمزم والمقام وهو أيضاً جدار الكعبة .

٢ ـ ديوان الفرزدق ص ٢٧٥ .

٣ ـ ديوان جرير ص ٥٧٨ . الاذين : المؤذن . القطين : الخدم والاتباع .

٣

المفاخرات القبليـة في إطارها الواسـع

على نحو ما رأينا في الهجاء من دورانه في إطار العصبية الواسعة تارة ، وفي إطار العصبية الضيقة تارة أخرى ، نجد الفخر القبلي يجري في هاتين الحلبتين أيضاً ، فهو فخر بالعشيرة ورهط الشاعر الأدنين حيناً ، وهو حيناً آخر فخر بالقبيلة الجامعة والجذم المشترك . وكان الشاعر طوراً يتحدث بلسان رهطه وعشيرته ، وطوراً آخر يسمو بشعوره العصبي على هذه الرابطة الضيقة فيتحدث بلسان قبيلته كلها ويفاخر بها سائر القبائل .

وكانت المفاخرة بآصرة الرحم الكبرى على أشدّها بين شعراء النزارية والقحطانية ولم تهدأ ثائرتها طوال عصر بني أمية ، وقد رأينا ان المناقضات بين هاتين الكتلتين كانت تشتمل على غرضين رئيسيين هما الهجاء والفخر ، وكان هذان الغرضان متلازمين في أكثر المناقضات القبلية عصرئذ . ولم تكن المفاخرات بين العدنانية والقحطانية تدور في ميدان الشعر وحـده ، بل في ميدان النثر أيضـاً . وقد شهد العصر الاموي مفاخرات كثيرة بين خطباء الفريقين وبلغائهما .

وفي طليعة الامور التي دار التفاخر حولهـا بين العدنانية والقحطانية الأنساب ، فكل من الفريقين كان يرى انه أعرق نسباً من الآخر ، وكان من دواعي اعتزاز العدنانية انتماؤها الى اسماعيل بن ابراهيم وادعاؤها أن عمها هو اسحاق بن ابراهيم . ثم زعموا ان الفرس هم من سلالة اسحاق وانهم لذلك والفرس أبناء عم . وكان العرب يجدون في قرابتهم من الفرس مدعاة لزهوهم وافتخارهم لما كان لتلك الدولة العريقة في الحضارة من مهابة عظيمة في نفوسهم . وكانت القحطانية تفاخر أبناء نزار بتسلطهم عليهم في الجاهلية وخضوع قبائلهم لاقيال حمير وتبابعتها فلما شاعت دعوى انتساب الفرس

الى اسحاق بن ابراهيم استغلها العدنانية فتطاولوا على خصومهم بتسلط دولة الفرس عليهم في الجاهلية واحتلالها ديارهم بعد إجلاء الأحباش عنها ، فنسمع اسحق بن سويد القرشي يقول مثلاً :

اذا افتخرت قحطانُ يوماً بسؤددٍ ... أتى فخرنا أعلى عليها وأسودا

ملكناهم بدءاً بإسحاق عمنا ... وكانوا لنا عوناً على الدهر أعبدا

ويجمعنا والغُرَّ أبناءَ فارس ... أبٌ لا نبالي بعده من تفرّدا (١)

وممن ضرب على هذا الوتر أيضاً جرير في مديحه هلال بن أحوز المازني حين أوقع بآل المهلب القحطانيين فقد فاخر بقرابة العدنانيين للفرس وبأن صفوة الأنبياء يمتّون بالقرابة كذلك للجذم العدناني فقال :

أبونا ابو اسحاق يجمع بيننا ... أبٌ كان مهدياً نبياً مطهّرا

ومنا سليمانُ النبي الذي دعا ... فأعطي بنياناً ومُلكاً مسخرا

وموسى وعيسى والذي خر ساجداً ... فأنبت زرعاً دمعُ عينيه اخضرا

ويعقوبُ منا زاده الله حكمةً ... وكان ابنُ يعقوبٍ أميناً مصورا

فيجمعنا والغُرَّ أبناءَ سارةٍ ... أبٌ لا نبالي بعده من تعذّرا

أبونا خليلُ الله واللهُ ربنا ... رضينا بما أعطى الإلهُ وقدَّرا

بنى قِبلة الله التي يهتدى بها ... فأورثنا عِزاً ومُلكاً معمّرا (٢)

وفخر الغرزدق كذلك بالانتماء الى ابراهيم واسماعيل فقال من قصيدة يهجو بها طيئاً ويفاخرها :

---

١ ــ التنبيه والاشراف للمسعودي ص ٩٥ .

٢ ــ النقائض ٢/٩٩٤ . ديوان جرير ص ٢٤٢ .

أبونا خليلُ الله وابن خليلـه أبونـا ابو المستخلفين الاكارمِ (١)

وكانت القحطانية تقابل اعتزاز النزارية بنسبها باعتزاز مماثل ، وتظهر تعلقها بنسبها فلا ترضى عنه بديلاً . وقد رأينا القبائل القحطانية التي جرى النزاع حول نسبها في العصر الاموي تظهر تشبثها بأصلها اليماني وتأبى التخلّي عنه على رغم وسائل الاغراء والضغط التي اتبعت لحملها على ذلك ، ولا سيما قبيلة قضاعة التي دار حول نسبها نزاع عنيف في صدر الدولة الاموية، فقد أخفقت جميع المحاولات التي بذلت لضمها الى الحظيرة العدنانية، كما أخفقت المحاولات الاخرى لضم قبائل عاملة وجذام ولخم وغيرها الى هذه الحظيرة ووقف شعراء القحطانية في طليعة الصفوف ، يفاخرون شعراء العدنانية بنسبهم القحطاني،ويباهونهم بأصلهم العريق، وهذا عدي بن الرقاع يعلن للملأ أنهم من سلالة قحطان وليسوا من أبناء خندف بن نزار :

قحطانُ والدنا الذي نـدعى لـه وأبو خزيمـة خنـدفُ بنُ نزارِ (٢)

ومما فاخرت به العدنانية خصومها القحطانية ظهور النبوة فيهم وخضوع القبائل القحطانية لسلطان قبيلة منهم، وهي قريش، وان الخلفاء منهم أيضاً . وقد رأى المتعصبون من العدنانية في ثورة ابن المهلب نزوعاً الى الظفر بالحكم وانتزاع الخلافة من نزار . وها هوذا الفرزدق يتهم آل المهلب بعد اخفاق ثورتهم ويتّهم القحطانية عامة ، بأنهم كانوا يسعون الى انتزاع الخلافة من مضر ثم يفاخرهم بالنبوّة والخلافة :

لقد كذب الحي اليمانون شِقوةً بقحطانهـا احرارُهـا وعبيـدُها

يرومون حقـاً للخـلافة واضحاً شديداً أواسيها طويلا عمودهـا

١ ـ ديوان الفرزدق ص ٨٢٣ .

٢ ـ الاغاني ٩/٣١٤ .

أبت مضرُ الحمراءُ الا تكرمـــاً على الناس يعلو كل جدٍّ جدودها

اذا غضبت يوماً عرانينُ خنـــدفٍ وإخوتهـم قيسٌ عليهـا حديدها

حسبتَ بأن الأرض يُرعد متنها وصمّ الجبالِ الحمرُ منهاوسودها

لنا البحر والبر اللذان تجـاوزا ومن فيهما من ساكن لا يؤودهـا

ومنـا نبي الله يتـلو كتـابَـه به دُوِّخت اوثانهـا ويهودهـــا

وما بات من قـوم يصلّون قِبلةً ولا غيرهم الا قريش تقودُها (١)

وهـذه النزعة الى المفاخرة بالجذم المشترك والعصبية الكبرى تتجلى واضحة في شعر الفرزدق ، على شدة تعصبه لقومه بني تميم ، فهو يوسّع إطار عصبيته ليحتوي قبيلة مضر كلها بحييها : قيس وخندف، فيفاخر بمآثر مضر وفي طليعتها النبوة ونزول كتاب الله بين ظهرانيهم وكون الخلفاء منهم ، وهو يبالغ في مفاخرته بمضر فيجعل الناس جميعاً ينقادون لهم ، بل ان الجنّ نفسها قد دانت لسلطانهم :

بحقي أضيم العالمـين بخنـدفٍ وقد قهر الاحياءَ منـا قهورُها

ملوكٌ تسوس المسلمين وغيرهـم اذا انكرت كانت شديداً نكيرهـا

ورثنا كتابَ الله والكعبةَ التـــي بمكـةَ محجوباً عليهـا ستورُهـا

لنا الجن قد دانت وكل قبيـــلةٍ يَدين مصلّوها لنا وكفورُها (٢)

وكان جرير كصاحبه الفرزدق شديد الاعتزاز بآصرة الرحم الكبرى التي تربطه بسائر قبائل مضر وكثيراً ما نسمعه يشيد بحدب قيس وخندف عليـه ، ويجعلهما أشرف القبائل طراً :

---

١ ــ ديوان الفرزدق ص ١٨٧ . يؤودها : يثقلها .

٢ ــ ديوان الفرزدق ص ٢٧٤ .

اذا حدبت قيسٌ عليّ وخندف اخذت بفضل الاكثرين الاكارمِ(١)

وكانت العدنانية تلحّ في مفاخرتها القحطانية، على ما حباها الله به من السيادة على القبائل اليمانية فهي تسوسها وتتصرف في أمورها كيف شاءت ، وربما أشارت الى ايقاعها بسادة أهل اليمن الذين ثاروا على سلطان نزار كابن الأشعث وابن المهلب ، وقصيدة الوليد بن يزيد تدور حول هذه الافكار وتتحدث بكثير من الزهو عن قتل خالد بن عبد الله القسري ، والقصيدة فيها تحدٍ سافر لأهل اليمن يتجلى في الأبيات التالية :

ونحن المالكون الناس قسراً	نسومهم المذلّةَ والنكالا
ونوردهم حياض الخسفِ ذُلاً	وما نألوهم الا خَبالا
وطئنا الأشعرين بكلّ أرضٍ	ولم يك وطؤنا ان يستقالا
وكندة والسكون قد استعاذوا	نَسومهم المذلةَ والخَبالا
شددنا ملكنا ببني نزار	وقوّمنا بهم من كان مالا
وهذا خالدٌ فينا قتيلا	ألا منعوه إن كان رجالا (٢)

وقد أورد الكميت في مذهبته المشهورة جماع ما كانت العدنانية تفاخر به من مآثر وأنساب وأحساب ووقائع ، ومما انتهى الينا من فخره في هذه القصيدة قوله :

لنا قمرُ السماء وكل نجمٍ	تشير اليه أيدي المهتدينا
وجدت الله اذ سمّى نزاراً	وأسكنهم بمكة قاطنينا

---

١ ـ ديوان جرير ص ٥٦٢ .

٢ ـ الاخبار الطوال ١/٣٤٨ . ألا يألو : قصّر وأبطأ .

لنا جعل المكارمَ خالصات ... وللناس القفا ولنا الجبينا (١)

ولم يكن الفخر بالرابطة النزارية وقفاً على شعراء مضر ، بل شاركهم في ذلك شعراء ربيعة أيضاً ، فنسمع القطامي التغلبي يفخر بالرابطة الربعية أولاً ثم بالرابطة النزارية فيشيد بقيس وبخندف قبيلة الرسول عليه السلام والخلفاء فيقول :

ربيعة آبائي الألى اقتسموا العلى ... اذا عُد باقٍ من زمان وسالفُ

وتغلبُ بحري طمّ سيلاً بأبحر ... فلم يستطع تيارهنّ المجادفُ

وبكرٌ وعبد القيس اخوتنا معاً ... كفتنا لكيز منهم والحنايفُ

وعيلانُ منا كلَّ يومِ ملمّةٍ ... وتحلبُ غزراً يوم تُدعى الخنادفُ

ومن خندف الداعي الرسولُ الى الهدى ... ومنا الإمام والنجوم العواكفُ (٢)

وكان ميدان التنازع بين العدنانية والقحطانية واسعاً تناول شتى النواحي ، حتى انهم تفاخروا بقول الشعر ، فادّعى كلٌّ منهما أن له القدح المعلى في هذا المضمار، فلما قال ابن ميادة مفاخراً عقال بن هاشم في مجلس الوليد بن يزيد:

فجرنا ينابيعَ الكلام وبحره ... فأصبح فيه ذو الرواية يسبحُ

وما الشعر الا شعر قيس وخندفٍ ... وقولُ سواهم كلفة وتملّحُ

أجابه عقال يناقضه مفتخراً بالشعر أيضاً وبأن قومه هم الذين علموا العرب العدنانية لغتهم :

الا ابلغ الرمّاح نقضَ مقالةٍ ... بها خطِل الرمّاح أو كان يمزحُ

---

١ ــ مروج الذهب ١٥٣/٢ . خزانة الادب ٨٦/١ .
٢ ــ ديوان القطامي ص ٢٦ .

لئن كان في قيسٍ وخندف السن" ... طوال وشعر" سائر ليس يقدَحُ

لقد خرّق الحي اليمانون قبلهم ... بحور الكلام تُستقى وهي تطفحُ

وهم علّموا من بعدهم فتعلّموا ... وهم أعربوا هذا الكلامَ وأوضحوا

فللسابقين الفضلُ لا يُجحدونه ... وليس لمخلوقٍ عليهم تبجّحُ (١)

وقد اجاب القحطانيون على مفاخرة النزارية بالنبوة والخلافة بمفاخرتهم بماضيهم العريق ودولهم القديمة التي دانت لها القبائل النزارية في الجاهلية ، وبمن اشتهر من ملوكهم القدامى وأشرافهم وفرسانهم، فنجد النعمان بن بشير مثلاً يفخر ببنائهم سد يأجوج وبأن منهم ذا القرنين وحاتماً :

ونحن بنينا سُد يأجوج فاستوى ... بأيماننا هل يهدم السُدّ هادمُ

فمن ذا يفاخرنا من الناس معشر ... كرام" فذو القرنين منا وحاتمُ(٢)

وافتخروا كذلك بأيامهم على العدنانية في الجاهلية وبالوقائع التي نصروا فيها عليهم ، وكان من دواعي فخرهم اسراعهم الى نصرة الرسول حين هاجر الى مدينتهم وقتالهم المشركين وذودهم عن حوزة الاسلام، ثم فخروا بنصرتهم بني أمية حين اضطرب حبل خلافتهم ونازعهم فيها ابن الزبير وغيره، وتثبيتهم دعائم حكمهم ، على نحو ما وجدناه في أبيات الطرّماح التي ذكر فيها بلاء القحطانية من أهل الشام في نصرة الخليفة وبلاءهم من قبل في نصرة الرسول وقتال المشركين والمرتدّين(٣). وهو يختم قصيدة أخرى قالها في الفخر بقحطان بالاشارة الى نصرتهم الرسول وتثبيتهم دعائم الحكم الاموي فيقول :

---

١ ــ الاغاني ٣٠٩/٢ .
٢ ــ منتخبات في أخبار اليمن ص ٤٨ .
٣ ــ ديوان الطرماح ص ١٣٩ .

فبعـــزنا نُصر النبي محمـــــــدٌ وبنا تثبت في دمشق المنبرُ (١)

ومن الوقائع التي فاخرت القحطانية ببلائها فيها وانتصارها على العدنانية موقعة مرج راهط التي انجلت عن هزيمة قيس هزيمة منكرة والتي استقرّ الأمر على أثرها لبني مروان . وقد دأب شعراء القحطانية على تذكير بني أمية بأياديهم عليهم ، فلولاهم لما استقر لبني مروان ملك ولا سلطان ، فنسمع عمرو بن مخلاة مثلاً يخاطب بني أمية فيقول :

ضربنا لكم عن منبر المُلك اهـله بجَيرون اذ لا تستطيعون منبرا

وأيام صدق كلهـا قد عرفتـم نصرنا ويوم المرج نصراً مؤزرا (٢)

وهم – وان لم يظفروا بالخلافة نفسها – حسبهم فخراً أن مروان لم يقبض على ناصية الحكم الا بمؤازرتهم وتأييدهم :

رددنا لمروان الخـلافـة بعدمـا جرى للزبـيريـين كـل بريـدِ

فإلا يكن منـا الخليفـةُ نفسـه فما نالهـا الا ونحـن شهودُ (٣)

وقـد ظلّت ذكرى موقعة مرج راهط ماثلة في أذهان شعراء القحطانية طوال عصر بني أميـة ، لا يفتأون يعيدون ذكـرها كلما سنحت المناسبة ، ويذكّرون بني أمية بأيديهم عندهم فنسمع عمران بن هلباء الكلبي يشير اليها في قصيدته التي ناقض بها قصيدة الوليد بن يزيد فيقول :

---

١ – ديوان الطرماح ص ١٤٧ .

٢ – حماسة ابي تمام ٤/٦٦ .

٣ – التنبيه والاشراف ص ٢٦٧ . والشعر لابن مخلاة .

جعلنا للقبائل من نزار غداة المرج اياماً طوالا

بنا ملك الملكَ من قريش وأودى جدّ من أودى فزالا (١)

وفخر القحطانيون كذلك بقتلهم الوليد بن يزيد الذي جاهر بعداوتهم وتحدّاهم أن يثأروا لخالد القسري فارتفعت أصوات شعرائهم بعد قتله تشيد بصنيعهم ، وتعلن للملأ انهم انما قتلوه ثأراً بصاحبهم ومن ذلك قول الاصبغ بن ذؤالة الكلبي :

من مَبلغٌ قيساً وخندف كلها وساداتهامن عبدِ شمسٍ وهاشمِ

قتلنا أميرَ المؤمنين بخالدٍ وبعنا وليّي عهده بالدراهمِ (٢)

وقول خلف بن خليفة البجلي :

تركنا امير المؤمنين بخالدٍ مُكباً على خيشومه غيرَ ساجد

وان سافر القسري سفرةَ هالك فان أبا العباس ليس بعائدِ

أقرّي معدٌ بالهوان فإننا قتلنا اميرَ المؤمنين بخالدِ (٣)

وكانت القحطانية في العراق تلوذ برجالها البارزين ولا تنفكّ تفاخر بهم العدنانية أمثال المهلب وأبنائه وآل الأشعث وخالد القسري . وكان من أولى مفاخرهم بلاء المهلب في قتال الخوارج ودفع شرهم عن أهل العراق ثم فتوحه وفتوح ابنه يزيد في المشرق ، والى هذه الامور يشير كعب الأشقري في قصيدة له يمدح فيها المهلب فيقول :

---

١ ـ الطبري ٥/٥٤٢ .
٢ ـ التنبيه والاشراف ص ٢٨١ .
٣ ـ المصدر السابق .

لقومي الأزدُ في الغمرات أمضى ... وأوفى ذمــــةً وأعــز جـــــارا

همُ قادوا الجياد على وجـاهــا ... من الامصـــار يقذفن المهـــارى

الـى كِرمـان يحملـن المنـايـا ... بكل ثنيــــةٍ يوقــدن نـــارا

غـداة تركن مصرعَ عبـدِ ربٍّ ... يثرن عليـه من رَهَجٍ عِصـارا

صنائعنـا السوابغُ والمـذاكـي ... ومَن بالمِصر يحتلب العِشـــارا

فلولا الشيـخُ بالمِصـرين ينفـي ... عدوّهم لقـد تركـوا الديارا (١)

وكان الطرماح ينتهز مناسبة الوقائع الظافرة التي تخوضها القحطانية في العراق والفتوح التي تتم على يدها، ليشيد بمآثر قومه وشجاعتهم وبطولاتهم، ومن ذلك قوله يفخر بمحاماة مذحج والأزد عن أهل العراق ومشاركتهم في قتـل قتيبة :

لولا فوارسُ مذحجَ ابنةِ مذحجٍ ... والازد زعزع واستبيح العسكرُ

وتقطعت بهم البـلاد ولـم يؤب ... منهم الى اهل العـراق مخبـرُ

واستضلعت عقد الجماعةوازدري ... أمـر الخليفـة واستُحلّ المنكرُ

قومٌ هم قتلوا قتيبـةَ عنـوةً ... والخيلُ جانحـةٌ عليها العِثيرُ

بالمرج مرج الصين حيث تبينت ... مضرُ العـراقِ من الأعزّ الاكبرُ

اذ حالفت جزعـاً ربيعـة كلهـا ... وتفرقت مضـــرٌ ومن يتمضّرُ

وتقدمت أزدُ العـراق ومذحجٌ ... للموت يجمعهـا ابوهـا الاكبـرُ

---

١ ـ الاغاني ٢٩٥/١٤ ، العصار : الغبار الشديد . المذاكي : الخيل . العشار : النوق.

قحطانُ تضرب رأسَ كلّ متوّجٍ   تحمي بصائرهن إذ لا تبصـرُ [1]

فكذلك نرىأن العصبية بينالعدنانية والقحطانية قد أوقدت نار مفاخرات شعرية لم تزل مستعرة طـوال عصر بني أميـة وشارك فيها عـدد ضخم من شعراء الفريقين .



١ ـ ديوان الطرماح ص ١٤٧ . العثير : الغبار . أبوها الاكبر : أي قحطان .

٤

المفاخرات القبليـــة في إطارها الضيق

كان الشاعر الاموي يستوحي في فخره عصبيته الواسعة تارة ، على نحو ما رأينا في المفاخرات التي قامت بين العدنانية والقحطانية ، ويستوحي تارة أخــرى عصبيته الضيقة لعشيرته ورهطه الأدنين فيفاخر بهم قبائل أخرى تربطه بهم آصرة الرحم الكبرى . وهذا الضرب من المفاخرات القبلية تثيره في الغالب العداوات التي كانت تقــوم بين القبــائل المتجاورة في منازلها ، والمنافسات التي كانت تقوم بين شعراء البطون في القبيلة الواحدة ، فيدّعي كل منهم انه شاعر قومه غير مدافع كما يدّعي ان البطن الذي ينتمي اليه هو أشرف بطون القبيلة وأنبلها محتــداً وأعرقها منبتاً ، فعاطفة الزهو والتيه المتأصلة في نفس العربي المتعصب لقومه كانت توحي اليه ان صفوة الفضائل والمناقب إنما هي وقف على الجذم الذي ينتمي اليه . فاذا وقع التفاخر بين قبائل هذا الجذم رأى أن لقبيلته من هذه المناقب والمآثر ما ليس لغيرها ، وان البطن الذي ينتمي اليه أجدر بالتقديم من سائر بطون القبيلة ، فتدرج الفخر كان يساير تدرّج مراتب العصبية في مرتقاها من قاعدة الهرم التي تمثل الجذم المشترك الى قمته التي تمثل رهط الشاعر الأدنين .

وحين يفاخــر الشاعر شاعراً يمتّ الى عشيرة تربطها بعشيرته آصرة النسب المشترك ، ربما تناسى المفاخر التي تشترك فيها قبيلتهما الجامعة ، وقصر فخره على مناقب عشيرته وحدها وقد يذكر مفاخر قبيلتهما المشتركة ولكنه يجعلها وقفاً على عشيرته ويسلب عشيرة خصمه كل منقبة ومحمدة .

وأشهر هذا الضرب من المفاخرات الشعرية تلك التي قامت بين شعراء تميم :

جرير من جانب ، والفرزدق والبعيث من جانب آخـر ، وكان جرير يفاخر خصميه بمآثر قومه بني يربوع ويشيد بمناقبهم وأيامهم وينوّه بذكر فرسانهم ورجالهم المشهورين أمثال عتيبة بن الحارث بن شهاب فارس يربوع وعتّاب ابن هرمي الذي كانت له ردافة ملوك الحيرة ، فيقول مثلاً :

منـا عتيبة فانظـر من تعدّ له | والحارثان ومنا الردفُ عتّابُ(١)

وهو يلحّ على أيام قومه التي كانت لهم في الجاهلية ومنها أيام طخفة والصمد وأعشاش والغبيط والصرائم وذي نجب فيقول من نقيضة له :

إني لتستلبُ الملـوك فوارسـي | وينـازلون إذا يقـال نزالِ
فاسأل بذي نجبٍ فوارسَ عامرٍ | واسأل عيينة يوم جزعِ ظـلالِ
أحسبتَ يومك بالوقيطِ كيومنا | يومَ الغبيط بقنّة الأرحـالِ (٢)

وأشار في نقيضة أخرى الى قتالهم ملوك الحيرة من أجل الردافة والى مواقعهم مـع بني شيبان في الجاهلية فقال :

ويومَ أبي قابوس لم نعطـه المنى | ولكن صدعنا البيض حتى تهزّما

---

١ ـ ديوان جرير ص ٤٧ . الحارثان هما : الحارث بن شهاب وأخوه سويد .

٢ ـ النقائض ٣٠١/١ . يوم ذي نجب : لبني يربوع على بني عامر وحليفهم معاوية بن الجون الكندي . عيينة : هو عيينة بن حصن بن حذيفة الفزاري وكان أغار على الرباب فأدركه بنو يربوع واستنقذوا ما في يديه . يوم الغبيط : لبني يربوع وحلفائهم من ضبة وغيرها على بني شيبان ، وكان بسطام والحوفزان أغارا ببني شيبان على بني ثعلبة بن يربوع وأحلافهم ، وكانوا متجاورين بصحراء فلج ، وساقوا ابلهم ، فلحق بهم بنو يربوع وعليهم عتيبة بن الحارث فأدركوهم بالغبيط وهزموهم واستنقذوا الابل ، وقد أسر بسطام في ذلك اليوم . يوم الوقيط : لبكر على بني مالك بن حنظلة عشيرة الفرزدق .

وقالت بنو شيبان بالصَمْد إذ لقوا فوارسنا ينعَون قَيلا وأيهما

أشيبان لو كان القتال صبرتمُ ولكنّ سفعاً من حريقٍ تضرما

وعضّ ابن ذي الجدين حول بيوتنا سلاسله والقِدّ حولا مجرّما (١)

ولم يكتف جرير بأيام قومه في الجاهلية بل فخر الى ذلك بأيام قومه ومآثرهم في الاسلام ففخر بذود بني يربوع من الخوارج عن الكعبة مع ابن الزبير ، وبقتالهم الأزد وربيعة في فتنة مسعود تحت لواء سلمة بن ذؤيب الرياحي (اليربوعي) فقال من نقيضة يجيب بها البعيث :

ويومَ عُبيد الله خُضنا برايةٍ وزافرةٍ تمت الينا تميمُها

عن المنبر الشرقي ذادت رماحنا وعن حرمة الاركان يرمى حطيمها (٢)

وكان الفرزدق والبعيث يجيبان جريراً بفخرهما بأيام قومهما بني دارم في الجاهلية ومنها جدود والكلاب الثاني ونجران وملزق كقول البعيث :

ونحن منعنا يوم عينين مِنقراً ولم ننبُ في يومي جَدودَ عن الاصل

ونحن رددنا سبي عمرو بن عامرٍ من الجيش اذ سعدُ بن ضبة في شغل

---

١ ــ النقائض ٦٦/١ . يوم أبي قابوس : هو يوم طخفة الذي كان لبني يربوع على المنذر ابن ماء السماء حين أراد استخلاص الردافة من أيديهم وجعلها في بني مجاشع . يوم الصمد : وهو يوم ذي طلوح أيضاً : يوم لبني يربوع خاصة على بني شيبان أسر فيه الحوفزان الحارث بن شريك وكان رئيس شيبان يومئذ . قيل وأيهم : رجلان من بني يربوع قتلهما بنو شيبان يوم طلحات حومل . ابن ذي الجدّين : بسطام بن قيس سيد بني شيبان ، وكان عتيبة بن الحارث اليربوعي أسره يوم صحراء فلج .

٢ ــ النقائض ١١٢/١ . زافرة الرجل : انصاره .

ونحن منعنا بالكلاب نساءنا بضرب كأفواه المقرحة الهدل (١)

وكان الفرزدق يلحّ على أيام تميم عامة على قيس نكاية بجرير الذي عرف بدفاعه عن قيس ومدحه إياها ، وقد أوردنا قبلُ أبياتاً له من ميميته في هذا الصدد (٢) . وكان كثيراً ما يضيف الى الفخر بأيام تميم فخره بأيام ضبة أخواله (٣) ، كما كان يفاخر بأيام قومه ومآثرهم في الاسلام فيفخر مثلاً بقتل بني تميم عبد الله بن خازم السلمي بخراسان ، وبحقنهم دماء المسلمين في فتنة مسعود ، حين احتمل إياس بن قتادة السعدي الديات ورهن عبد الله بن حكيم المجاشعي نفسه ضماناً لأدائها ، ومن قوله في ذلك :

حقنا دماءَ المسلمين فأصبحت لنا نعمةٌ يثنى بها في المواسم

عشيةَ أعطتنا عمانُ أمورها وقُدنا معداً عنوةً بالخزائمِ

ومنا الذي أعطى يديه رهينة لغارَي مَعدٍّ يوم ضرب الجماجمِ

عشيةَ سال المِربدان كلاهما عجاجةموت بالسيوف الصوارمِ (٤)

ولم يكن الفرزدق يغفل عن ذكر أعلام قومه البارزين في الجاهلية والاسلام أمثال صعصعة محيي المؤودات وزُرارة بن عُدس والأقرع بن حابس وغيرهم ، فيقول مثلاً في نقيضة له :

---

١ ـ النقائض ١٤٤/١ . يوم عينين : خرج بنو منقر يمتارون من البحرين فعرضت لهم عبد القيس فاستغاثوا ببني نهشل ، وهم من دارم ، فحموهم . يوم جدود : لقي الحوفزان بني يربوع فسالمهم ثم أقبل يريد بني سعد بن تميم ولحق الصريخ بني سعد وحلفاءهم فأدركوا بكراً وهزموهم ، وطعن يومئذ قيس بن عاصم الحارث بن شريك فلقب منذ ذلك اليوم بالحوفزان . والحفز : الطعن . يوم الكلاب الثاني : لبني تميم على همدان ومذحج وفيه أسر عبد يغوث الحارثي .

٢ ـ انظر النقائض ٣٨٧/١ .

٣ ـ انظر النقائض ١٩٠/١ .

٤ ـ النقائض ٧٢٠/٢ . الغار : الجمع الكثير من الناس ، والجيش العظيم .

ألم تر أنا بني دارمٍ زرارةُ منا أبو معبدِ
ومنا الذي منع الوائدات وأحيى الوئيد فلم تُوأدِ
وناجية الخير والاقرعان وقبرٌ بكاظمة الموردِ (١)

وكثيراً ما كان الفرزدق إذ يفرغ من تعداد أعلام قومه يلتفت الى جرير ويتحدّاه أن يأتي بمثل آبائه هؤلاء :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم اذا جمعتنا يا جريرُ المجامعُ(٢)

أما افتخاره بمناقب قومه ومآثرهم وما عرفوا به من إكرام الضيف ونجدة المستغيث وحماية المظلوم والشجاعة في القتال وكثرة العدد ونحو ذلك ، فهو مستفيض شائع في شعره (٣) . والفخر هو ميدان الفرزدق الذي يجول فيه كيف شاء ويصول ، ولم يستطع جرير مجاراته في هذا الميدان لأنه لم يكن لعشيرته من الشرف وعلوّ المنزلة ونبل المحتد مثل ما لعشيرة الفرزدق .

على أن هذين الشاعرين كانا يسموان بعصبيتهما عن حدود بطني دارم ويربوع حين يقصدان الى مفاخرة شعراء من غير قبيلة تميم ، ويغدو كل منهما شاعر تميم كلها فلا يرد في فخره حينئذ الا اسم هذه القبيلة الأم . وفي الحق أنهما ، على كثرة إساءتهما لقومهما لوقوع التهاجي بينهما ونشرهما مثالب تميم ، كانا بارّين بقبيلتهما الجامعة ، لا يكفّان عن التنويه بمآثرها والاشادة

---

١ ــ النقائض ٧٨٨/٢ . ناجية بن عقال : هو ابو صعصعة جد الفرزدق . كاظمة : موضع على شاطىء البحر في طريق البحرين من البصرة دفن فيه غالب أبو الفرزدق .

٢ ــ النقائض ٦٩٩/٢ . ديوان الفرزدق ص ٥١٧ .

٣ ــ انظر مثلا النقائض ٥٤٦/٢ .

بمناقبها . وقد قالا من غرر قصائد الفخر ما لم يقل مثله أي شاعر آخر في قبيلته عصرئذ ، وأثرت عنهما أبيات في الفخر مقلدات سارت كل مسير وملأت أعطاف التميميين زهواً واعتزازاً ، فكلهم يردد قول جرير :

اذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا(١)

وكلهم كان يترنم بقول الفرزدق :

وبالله لولا أن تقولوا تكاثرت علينا تميم ظالمين وأسرفوا
لما تركت كف تشير بإصبع ولا تركت عين على الارض تطرف
ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وان نحن أومأنا الى الناس وقفوا(٢)

وقد وقعت مفاخرات مماثلة بين شاعري بني مرة بن ذبيان : شبيب بن البرصاء وعقيل بن علفة ، وكلاهما كان شريفاً مسوداً في قومه، وهما يلتقيان في الانتساب الى بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ولكنهما يفترقان بعد . فشبيب ينتمي الى نشبة بن غيظ بن مرة، وعقيل ينتسب الى يربوع بن غيظ ابن مرة (٣) ، وقد أشرنا قبل الى نشوب التلاحي بينهما وتناقضهما ، وكان كل منهما يضيف الى رهطه كل مأثرة يحمد بها بنو مرة ، وكان عقيل الى ذلك يتطاول على شبيب بالصهر الذي كان بينه وبين بني مروان (٤) .

---

١ ـ ديوان جرير ص ٧٨ .

٢ ـ النقائض ٢/٥٧١ .

٣ ـ انظر الاغاني ١٢/٢٥٤ . و ١٢/٢٧١ .

٤ ـ انظر الاغاني ١٢/٢٧٢ وما بعدها .

وأتانا كذلك نبأ المفاخرة الشعرية التي وقعت في المسجد الحرام بين عمر ابن أبي ربيعة المخزومي والفضل اللهبي، وقد فخر كل منهما برهطه في قريش ومآثر قومه ، وكان مما فاخر به اللهبي كون الرسول منهم ومن قوله في ذلك :

نحن الذين اذا سما بفخارهم ذو الفخر أقعده هناك القعددُ

قل يا ابن مخزوم لكل مفاخر منا المباركُ ذو الرسالة احمدُ

ماذا يقول ذوو الفخار هنا لكم هيهات ذلك، هل يُنال الفرقدُ[1]

وكانت الغلبة في هذه المفاخرة للهبي .

وعلى رغم انشغال ابن ميادة بمهاجاة ابن قبيلته الشاعر حكم بن معمر الخضري وبمفاخرته ، كان يقف من قبيلة قيس كلها موقف المحامي عن أعراضها ، الذابّ عن أحسابها ، وكان يفاخر بها شعراء أسد وتميم وقريش وغيرها من قبائل خندف . وكان لا يغفل عن المفاخرة بقيس حتى حين ينتجع خلفاء بني أمية قاصداً مديحهم . وحينما فخر بقومه في ثنايا مديحه الوليد ابن يزيد لم يجعل لقوم فضلاً على قومه إلا آل محمد وبني مروان :

فضلنا قريشاً غيرَ آل محمد وغير بني مروان اهل الفضائلِ

وقد عرضه تطاوله على قريش في هذه القصيدة وغيرها لأذى بعض ولاة الأمويين [2]. وقد بلغ من إجادة ابن ميادة الفخر ان الفرزدق كان يغير على شعره وينتحل ما يستجيد منه في هذا الغرض[3]. وبسبب عصبيته المسرفة

---

١ ـ الاغاني ١٥/٧ (ساسي) . القعدد : اللئيم القاعد عن المكارم .

٢ ـ الاغاني ٢٩٤/٢ .

٣ ـ الاغاني ٢٦٧/٢ .

لقيس وقعت بينه وبين شعراء خندف مفاخرات كثيرة ، منها تلك التي كانت بينه وبين **سماعة بن اشول** الأسدي **وعبد الرحمن بن جهيم** الأسدي ، ومن قوله يفاخر شعراء أسد وتميم بقيس ويتطاول على قريش وخندف :

ألا ما أبالي ان تخندف خندفٌ ... ولست أبالي ان يطن ذبابهـــا

ولو ان قيساً قيس عيلان أقسمت ... على الشمس لم يطلع عليكم حجابها

ولو حاربتنا الجن لم نرفع القنـــا ... عن الجنّ حتى لا تهــرّ كلابهـــا

لنا الملك إلا أنّ شيئـــاً تعـــده ... قريشٌ ولو شئنا لذلت رقابهـــا

اذا غضبت قيس عليك تقاصرت ... يداك وفات الرجلَ منك ركابها(١)

وقد نقض عبد الرحمن بن جهيم الأسدي قصيدة ابن ميادة هذه وفاخر بخندف وقريش فقال من قصيدة طويلة :

أرَمّاحُ إن تغضب صناديد خندف ... يَهجْ لك حرباً قصبُها واعتيابها

ولو أغضبت قيس قريشا لجدعت ... مسامعَ قيس وهي خُضعٌ رقابها

ولو أن قرن الشمس كان لمعشرٍ ... لكان لنا إشرافها واحتجابُها (٢)

ونحن نجتزىء بما سقناه من نماذج المفاخرات القبلية التي قامت بين شعراء العصر الاموي في نطـاق العصبيات الصغرى ، وفي المصادر الادبية ــ وكتاب الاغاني خاصة ــ أمثلة أخرى كثيرة لهذا الضرب من المفاخرات .

---

١ ــ الاغاني ٢/٣٣٢ .

٢ ــ الاغاني ٢/٣٣٤ . رمّاح : هو اسم ابن ميادة ، وهو الرماح بن أبرد المرّي .

وفي كل الأحوال التي ذكرناها كان الشاعر يسلك المسلك الطبيعي الذي تفرضه وشائج العصبية فيفخر بالقبيلة التي ينتمي اليها، سواء كانت عشيرته الدنيا أو الجذم الذي تنتمي اليه هذه العشيرة . الا أننا وجدنا جريراً — على رغم ولائه لقبيلته وكثرة مفاخرته بهـا — قد جنح في طائفة من نقائضه الى الفخر بقيس التي تصله بها الرابطة المضرية ، ولكنها ليست عشيرته الدنيا ولا الجذم الذي تؤول اليه . ونحن نلتمس لجرير العذر في مفاخرته خصمه الاخطل بقبيلة قيس التي كانت بينها وبين تغلب خصومة عنيفة ووقائع دامية . فلا جناح على شاعر أن يفاخر باحدى القبائل التي تربطه بها رابطة العصبية الكبرى ، وذلك حين يكون فخره موجهاً الى قبيلة تنتمي الى جذم آخـر . ولكن جريراً لم يكتف بتفضيل قيس على تغلب بل فضلها كذلك على دارم ، قبيلة خصمه الفرزدق ، وهي أمسّ بقبيلته رحماً من قيس ، إذ ان كلاً من يربوع ودارم من قبيلة تميم ، بل انهما تنحدران من غصن واحد في هـذه القبيلة ، فكلاهما من بني حنظلة بن مالك بن زيد منـاة بن تميم . فمسلك جرير في هذه الحالة مناف لما تفرضه وشائج العصبية وحدودها ، وكان جرير قد انزلق الى مدح قبيلة قيس والإشادة بمناقبها لأسباب سبقت الاشارة اليها ، فلما عاب عليه الفرزدق هذا المديح واتهمه برشوة قيس إياه وأخـذ يهجو قبيلة قيس إغاظة له ، اضطر جرير الى المنافحة عن قيس وطفق يفاخر بها عشيرة الفرزدق نكاية به ، فيشيد بمناقبها ويذكر أيامها على دارم وغيرها في الجاهلية ، كيوم رحرحان ويوم شعب جبلة ، كما أخـذ يشيد بوقائعها الظافرة منذ الاسلام ولم يحجم عن المفاخرة بها حتى حين كان الخليفة ساخطاً عليها إثر مقتل قتيبة ، فقال في قصيدته التي نقض بها ميمية الفرزدق :

وقيس هم الكهف الذي نستعده ... لدفع الأعادي أو لحمـل العظائمِ

سنوا نسوة النعمان وابنَيْ مُحرّقٍ ... وعِمران قادوا عنوةً بالخـزائمِ

كأنك لم تشهد لقيطاً وحاجبـاً ... وعمرو بنِ عمرو اذ دعَوا يا لدارمِ

ولم تشهدالجونينوالشِعبذاالصفا وشداتِ قيسٍ يومَ دير الجماجمِ

ويومَ الصفا كنتم عبيداً لعامرٍ وبالحَزنِ أصبحتم عبيدَ اللهازمِ

وليلـةَ وادي رحرحـان رفعتمُ فراراً ولم تلووا زفيفَ النعائمِ (١)

* * *

١ ــ النقائض ٤٠٣/١ وما بعدها . سبوا نسوة النعمان : يشير الى غارة هبيرة بن عامر القشيري على النعمان بن المنذر وهو على ماء يقال له سفوان . ابنا محرق : ابنا عمرو بن هند اللخمي . عمران : هــو عمران بن مرة الشيباني ، قتله قرة بن هبيرة يوم القويرة . لقيط وحاجب : ابنا زرارة بن عدس ؛ وعمرو بن عمرو بن عدس . يشير بهذا البيت الى مقتل لقيط وأسر أخيه حاجب وعمر بن عمرو في يوم جبلة . وكلهم من دارم . الجونان : عمرو ومعاوية ابنا الجون من كندة وكانا مع تميم يوم الشعب . الشعب ذو الصفا : أراد شعب جبلة . يوم دير الجماجم : اليوم الذي دارت فيه الدائرة على عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث. بالحزن : أراد يوم الوقيط الذي اوقعت فيه اللهازم ببني مالك بن حنظلة قوم الفرزدق . واللهازم هم : قيس وتيم الله ابنا ثعلبة بن عكابة وعجل بن لجيم وعنزة بن اسد . يوم رحرحان : لبني عامر على بني تميم وفيه أسر معبد بن زرارة . الزفيف : الاسراع .

٥

خصائص فنيـــة

لا يختلف الفخر القبلي من حيث خصائصه الفنية اختلافاً جوهرياً عن الهجـاء القبلي ، سواء من حيث ظهور أثر الصنعة الفنية والثقافة الدينية والقرآن الكـريم والثقافة الفكرية فيه ، أو من حيث كونه صدى الحيـاة الاجتماعية في ذلك العصر واتكاؤه على التصوير الحسي وغير ذلك .

ومن طبيعة الفخر أن يلجأ فيه الى الألفاظ الفخمة المجلجلة التي تقرع الآذان بقوة جرسها وتملأ الفم لفخامتها، وأن يعتمد على جزالة التركيب وقوة التأليف ، وليست الألفاظ الرقيقة اللينة والتراكيب السهلة واللهجة الهادئة مما يناسب هذا الغرض ويليق به ، والأسلوب البياني الذي يلائمه هو أسلوب التهويل والتعظيم وتصوير الامور على غير حقيقتها وكل أولئك صفات توافرت للفخر القبلي في هذا العصر ، ولا غرو ، فان شعراء الفخر فيه كان جلّهم من الشعراء العرب الاقحاح الذين ملكوا ناصية البيان العربي الطلق فلم تشب أسلوبهم شائبة العجمة ولم يجنح بهم عن بداوة التعبير لين الحياة الحضرية ونعومتهـا .

وتغلب على الفخر خاصة سمة المبالغة، لأن الفخر مبعثه الغرور والاعتزاز بالذات والايمان بالتفوق ، وكل أولئك خصال تحمل على المبالغة والغلو في تصوير رفعة المفتخر بهم وعلو منزلتهم . ولهذا يحتمل من الشاعر من المبالغة في الفخر ما لا يحتمل في أغراض الشعر الاخرى ، ومن الغلو المسرف في الفخر القبلي ما جنح اليه الفرزدق حـين فاخر بقومه فجعل الناس كلهم عبيـداً لقومه ، وجعل سلطان قبيلته يمتد حتى يشمل البر والبحر ، بل انه جعـل الجنّ أنفسهم يدينون لسلطان قومه :

لنا دون من تحت السماء عليهم		من الناس طُراً شمسها وبدورها
أخذنا بآفاق السماء عليهم		لنا برها من دونهم وبحورها
لنا الجن قد دانت وكل قبيلة		يَدين مصلوها لنا وكفورُها(١)

وكقوله أيضاً من نقيضة يهجو بها بني جعفر بن كلاب :

ولو ان أم الناس حواءَ حاربت		تميمَ بن مُرٍّ لم تجد من يجيرها(٢)

ومن المبالغات قول ابن ميادة يفخر بقيس عيلان :

ولو ان قيساً قيس عيلان اقسمت		على الشمس لم يطلع عليكم حجابُها
ولو حاربتنا الجن لم نرفع القنا		عن الجن حتى لا تهر كلابُها (٣)

على أن هذه المبالغات تظل مقبولة بالقياس الى المبالغات التي نجدها بعدُ في فخر الشعراء العباسيين .

وكان الشاعر ربما لجأ الى أسلوب **التحكيم** في مفاخرته خصومه ، على نحو ما كان متبعاً في المنافرات والمفاخرات القديمة ، فيطلب الى من يُناط بهم أمر الحكومة بين الناس والمفاضلة بين المتفاخرين أن يحكموا أيهما أشرف وأفضل : قومه أم قوم خصومه ؟.. صنيع جرير في احدى نقائضه ، فانه لجأ الى تحكيم قريش وبكر بن وائل بين قومه وقوم الفرزدق فقال :

---

١ ـ ديوان الفرزدق ص ٢٧٤ .
٢ ـ النقائض ٥٢٩/١ . ديوان الفرزدق ص ٤٦١ .
٣ ـ الاغاني ٣٣٣/٢ .

تعالوا نحاكمكم، وفي الحقّ مَقنعٌ   الى الغُــرّ من آل البطاحِ الأكارمِ
فان قريش الحق لن تتبع الهــوى   ولن يقبلوا في الله لومــــة لائـمِ
فاني لراض عبدَ شمس وماقضت   وراضٍ بحكمالصيدمن آل هاشمِ
وراضٍ بحكم الحي بكر بن وائل   اذا كان في الذُهلين اوفى اللهازمِ
نذكِّرهم بالله من يَنهلُ القنــا   ويَفرجُ ضيق المأزق المتلاحـمِ
ومن يضربُ الجبار والخيل تَرتقي   أعنتهــا في ســاطعِ النقــع قاتمِ
ومن يدرك المستردفات عشيــةً   اذا ولهت عوذُ النساء الروائمِ (١)

وقد جاراه الفرزدق في هذا الأسلوب إذ حاكم جريراً الى بكر بن وائل فقــال من قصيدة :

هلمّ الى الحكام بكر بن وائــلِ   ولا تك مثــلَ الحــائرِ المترددِ
وإن شئت حكّمنا أثالاً ورهطــه   وان شئت حكّمنا ربيعَ بن أسودِ
بأحلامهم يُنهى الجهــولُ فينتهي   وهم حكمــاءُ الناسِ للمتعمّــدِ
يُروك بعينيك الهدى إن رأيتَــه   وليس كُليبيّ لخـيرٍ بمهتـــدِ
فقالت لنــا حُكّام بكر بن وائــل   على مجمعٍ من كل قوم ومشهدِ
كليبٌ لئــامُ الناس لا يُنكرونــه   عليهم ثياب الذل من كل مَقعدِ
وما يجعلالظربىالى رهطحاجبٍ   ورهطِ عقالٍ ذيالندىابنمحمد(٢)

١ ـ ديوان جرير ص ٥٥٦ . النقائض ٧٦٥/٢ . العوذ من النساء : الحديثات الولادة .
٢ ـ ديوان الفرزدق ص ١٩٤ . الظربى : ج ظرباء ، دابة منتنة الريح .

ومن الاساليب البيانية التي اتبعها الشعراء عصرئذ أسلوب الاستدلال من طريق التمثيل وهـو الأسلوب الذي شاع بعد في العصر العباسي وفي شعر أبي تمام خاصة ، ومثاله قول جرير في قصيدته السابقة يفتخر :

وكنتم لنا الاتباع في كل منزلٍ   وريشُ الذنابى تابـع للقـوادمِ

فكذلك نرى أن كلاً من الهجاء والفخر القبليين ــ وعليهما مدار النقائض ــ قد أصابا في عصر بني أمية رواجاً لم يلقياه في أي من عصورنا الأدبية الاخرى، وبلغا فيه غايتهما من النضج وإحكام الصنعة الفنية .



الفصل الخامس

سائر فنون الشعر المتصلة بالعصبيات

الرثاء ـ المديح ـ الدفاع عن حقوق العشيرة ـ تصوير الروابط القبلية ـ وصف الوقائع القبلية



الرثاء القبلي

للرثاء دوافع شتى ، فقد يكون الدافع اليه حزن الشاعر لفقد شخص تربطه به رابطة الرحم الماسة ، أو تربطه به روابط الصداقة والمودة . والرثاء في هذين الحالين رثاء شخصي يصور صلة الشاعر بمن يرثيه ويعبّر عن شعوره إزاءه . وقد لا يكون للفقيد منزلة اجتماعية كبيرة توجب البكاء عليه والجزع لفقده ، فالشاعر هنا إنما يصوّر أثر الفجيعة في نفسه خاصة . وقد يكون الدافع الى الرثاء اتحاد المذهب أو العقيدة أو المبدأ السياسي ، ونحو ذلك ، وحينئذ يخرج الرثاء عن طابعه الشخصي لأن الشاعر لا يبكي في هذه الحال شخص الفقيد وإنما الفكرة التي يمثلها . وقد يكون الدافع اليه ولاء الشاعر لقومه وعصبيته لهم وانفعاله بالاحداث التي تنتابهم ، سواء أكان المرثي جماعة من قومه أم رجلاً واحداً منهم . والرثاء الذي يكون الدافع اليه رابطة العصبية هو ما ندعوه بالرثاء القبلي ، وهو الرثاء الذي يصوّر صلة الشاعر بقبيلته وتأثره بما يعرض لها من أحداث وما يحل بها من نوائب .

والشاعر ، لما طبع عليه من رقة الحس وإرهاف الشعور وسرعة الانفعال بالأحداث ، تهزّه الفواجع التي تنزل بقومه فيعبّر عن تأثره بها بالأبيات يقولها إثر الفجيعة ، ويصوّر مشاعره إزاءها . وهذا الرثاء برهان صادق على ولاء الشاعر لقومه وفرط تعلقه بهم .

والكوارث التي تنزل بالقبيلة قد تكون حرباً قبلية طاحنة تشنها عليها قبيلة معادية ، وتجلي عن هلاك عدد كبير من أبنائها ، وقد تكون وباء جارفاً يبيد القبيلة كلها أو طوائف منها ، وقد تكون حرباً « داخلية » بين بطون القبيلة وأسرها ، وهو أسوأ ما تمنى به القبيلة ؛ لان مصيرها حينئذ الهلاك والفناء إن لم يتدارك الأمر عقلاء القوم وأهل الأناة ويصلحوا بين البطون المتنازعة .

أ

وجلّ الرثاء القبلي الذي انتهى الينا في العصر الاموي ، يتصل بالأحداث والفتن القبلية التي شهدها ذلك العصر ، فكلما شبت نار حرب قبلية وأسفرت المعركة عن صرعى وقتلى ، ذهب شعراء القبائل المحتربة يندبون قتلاهم ويذرفون عليهم دموع الأسى واللوعة .

ففي أعقاب موقعة مرج راهط التي دارت الدائرة فيها على قيس قام شعراء القيسية يندبون من صرع في ميدان المعركة من فرسانهم ويتوعّدون كلباً بلقاء قريب يثأرون فيه لهزيمتهم . فنسمع مثلاً سيد قيس زفر بن الحارث يقول في هذه المناسبة :

أتذهبُ كلب لم تنلها رماحُنا ... وتترك قتلى راهطٍ هي ما هيا

لعمري لقد أبقت وقيعةُ راهطٍ ... لمروانَ صدعاً بيننا متنائيا

أبعدَ ابن عمرو وابن معن تتابعوا ... ومقتل همّام أمنّى الأمانيا

فلا صلح حتى تنحطِ الخيلُ بالقنا ... وتثأرَ من نسوانِ كلب نسائيا(1)

ولما اتصلت الوقائع بين قيس وكلب بعد ذلك كان شعراء القبيلتين كلما أسفرت موقعة ما عن سقوط بعض القتلى انصرفوا الى رثائهم والتحريض على الثأر لهم . من ذلك انه لما أغار حميد بن بحدل على فزارة وقتل منهم نفراً قال عُويف القوافي يظهر أساه لمصرع رجال قومه ويتوعد ابن بحدل :

---

1 ـ الطبري ٤١٨/٤ . الاغاني ١١١/١٧ . ابن عمرو : هو زياد بن عمرو العقيلي . ابن معن : هو قيس بن ثور بن معن السلمي ، همام : همام بن قبيصة النميري ، وكلهم من سادات قيس الذين أصيبوا يوم المرج (انظر شرح الحماسة ١٩٥/٢) .

مُنى الله أن ألقى حَميدَ بن بحدل | بمنزلةٍ فيهـا الى النَصف مُعلِما
لكيما نعاطيـه ونبلـو بيننـــا | سُرَيجيةً يعجمن في الهامِ مَعجما
الا ليت أني صادفتنـي منيتـي | ولم أرَ قتلى العـامِ يا أم أسلما
ولم أرَ قتلى لم تدع ليَ بعـدهـا | يَدين فما أرجومن العيش اجذما(١)

وتُتاح الفرصة بعد حين لفزارة أن تثأر من كلب يوم « بنات قَين » وعلى الرغم من خروج قيس منتصرة في هذه الموقعة نجد أرطاة بن سهيّة المرّي يندُب من أصيب من قومه يومئذ فيقول :

فلا وأبيـــك لا ننفـــك نبكـي | على قتـلى هنـالك ما بقِينـــا
على قتلى هنـــالك اوجعتنـــا | وأنستنا رجـــــالا آخرينـــا
سنبكي بالرمـاحِ اذا التقينـــا | على اخواننـا وعلـى بنينـا (٢)

ثم لا تلبث الحرب أن تنشب بين قيس وتغلب بالجزيرة وتتصل الوقائع بينهما ويسقط في ميادينها فرسان وأبطال من الفريقين فيسكب شعراؤهما أحزانهما فيما يقولونه من الشعر في رثائهم . وقد أثار مصرع عمير بن الحباب بالحشّاك في نفوس قيس وشعرائها أسى عميقاً عبرت عنه مراثيهم الكثيرة فيه ، ونحن نجـد صدى هـذا الحزن مثلاً في أبيات زفر بن الحارث التي قالها بهـذه المناسبة ومنها :

ولمـا ان نعى النـاعي عمـــيراً | حسبتُ سـماءهم دُهيت بليـلِ
وكان النجمُ يطلُـع في قَتـــام | وخاف الذُل من يَمنٍ سـهيلُ
وكنت قبيلهـــا يا أم عمروٍ | أرجّل لِمتـى وأجـــر ذيـلي

---

١ ــ الاغاني ١١٤/١٧ . السريجية : سيوف تنسب الى قين يدعى سريج .
٢ ــ الاغاني ٤٣/١٣ .

فلو نُبِش المقابرُ عن عميرٍ فيخبر من بلاء أبي الهذيلِ
غداة يقارع الابطالَ حتى جرى منهم دماً مرجُ الكُحيلِ (١)

ولا شك ان شعراً كثيراً قيل إثر مهلك مسعود بن عمرو العتكي، وعبد الله ابن خازم ، لما كان لهذين الرجلين من عظيم المنزلة في قومهما ، ولكن لم يصلنا من هذا الشعر الا أبيات قليلة لا غناء فيها ، فمن ذلك قول الهيثم بن الأسود في رثاء مسعود :

أعلى بمسعودٍ الناعي فقلت له نعم اليمانيّ تنعى أيها الناعي
أوفى ثمانين ما يسطيعه أحدٌ فتى دعاه لرأس العدّة الداعي
أودى ابنُ حرب وقد سُدّت مذاهبه فأوسع السَربُ منه أي إيساعِ
حتى توارت به ارض وعامرها وكان ذا ناصر فيها وأشياعِ (٢)

ولما أوقع عبد الله بن خازم ببني تميم بعد أن حصرهم في حصن فرتنا بخراسان وقتل فرسانهم وأبطالهم ومنهم زهير بن ذؤيب العدوي وعثمان بن بشر بن المحتفز المُزني وورد بن الفلق العنبري قال الحريش بن هلال السعدي يرثيهم :

أعاذلُ إني لم أُلَم في قتالهم وقد عضّ سيفي كبشَهم ثم صمما
أعاذل ما ولّيت حتى تبدّدت رجال وحتى لم اجد متقدما

---

١ - الاغاني ١٩٩/١٢ . يوم الكحيل : يوم اوقع فيه زفر ببني تغلب فقتل منهم جمعاً عظيماً ثأراً لمقتل عمير بن الحباب .

٢ - الطبري ٤٠٦/٤ . انساب الاشراف ١٠٠/٤ . وانظر في الطبري ٢٣/٥ أبياتاً لشاعر من سليم في رثاء ابن خازم .

أعينيّ إن أنزفتما الدمعَ فاسكبا دماً لازماً لي دون أن تسكبا الدما

أبعد زهير وابن بشرٍ تتابعا وورد أرجّي في خراسان مغنما(١)

ومثل هذا الرثاء نجده يقال في أعقاب سائر الفتن والأحداث القبلية التي تمخض عنها عصر بني أمية .

٢

ومن ضروب الرثاء القبلي رثاء الشاعر من هلك من قومه إبان الفتوح أو الفتن السياسية والحروب الداخلية ، والشاعر يأسى لمصرع أبناء عشيرته سواء كان يقرّ ثورتهم على السلطان أم لا يقرّها ، فهو لا يذكر بعد مهلكهم إلا أنهم جماعة من قومه أودت بهم يد الحتوف . على أن أساه لفقدهم يكون أعظم وأعمق حين يرى أنهم كانوا على حق وأن خصومهم كانوا على الباطل . وكثيراً ما كان الشاعر يرافق قومه في مغازيهم وحروبهم وثوراتهم ، فاذا شهد مصارعهم لم يملك نفسه من ذرف العبرات السخينة عليهم .

وكان الفرزدق من أشد شعراء العصر الاموي تعلقاً بقومه وتعصّباً لهم ، ولذلك كانت المصائب التي تنزل بهم تثير أشجانه ولواعج نفسه فيبادر الى رثائهم . فقد أثاره مثلاً مهلك عبد الله بن ناشرة ورهط من قومه ، وكان ابن ناشرة غلب على سجستان ثم قتل بعدئذ في بعض المواقع فقال يرثيه ومن قتل معه من قومه :

وقفتُ فأبكتني بدار عشيرتي على رُزئهن الباكيات الحواسرُ

غدَوا كسيوف الهند ورّاد حومةٍ من الموت أعيا وردَهنّ المصادرُ

---

١ ـ الطبري ٤/٥٤٨ .

فوارسُ حاموا عن حريمٍ وحافظوا بدار المنايا والقنا متشاجرُ
كأنهم تحت الخوافق إذ غدَوا الى الموت أسدُ الغابتين الهواصرُ
فلو أنّ سلمى نالها مثلُ رزئنا لهُدت ولكن تحمل ُالرزء عامر(١)

وأثاره أيضاً مهلك جماعة من قومه كانوا مع ابن الأشعث يوم ثار على الحجاج فقال يرثيهم من قصيدة :

لو اعلمُ الايام راجعةً لنا بكيتُ على أهل القرى من مجاشعِ
بكيتُ على القوم الذين هوت بهم دعائم مجدٍ كان ضخمَ الدسائعِ
فان أبكِ قومي يا نوَارُ فانني أرى مسجدَيهم منهم كالبلاقعِ
خلاءين بعد الحلِم والجهل فيهما وبعد عبابيّ الندى المتدافعِ
فأصبحت قد كادت بيوتي ينالها بحيث انتهى سيلُ التلاعِ الدوافعِ

ومما عزّاه في مصرعهم بقاء كهول من قومه بعدهم يقومون مقامهم :

على أن فينا من بقايا كهولنا أساةَ الثأى والمفظعاتِ الصوادعِ
كأنّ الردينياتِ كان برودُهم عليهنّ في أيدٍ طوال الاشاجعِ

ثم يعود الى تصوير أساه لمصرع قومه وتعداد مناقبهم :

اذا قلت هذا آخرُ الليل قد مضى تردّد مسود بهيمُ الاكارعِ
وكائن تركنا بالخريبة من فتى كريمٍ وسيفٍ للضريبةِ قاطعِ

---

١ ـ ديوان الفرزدق ص ٢٦٧ . عامر : المراد عامر بن زيد مناة بن تميم رهط الفقيد ، وهم في بني مجاشع .

ومن جَفنهٍ كان اليتامى عيالهـا	وسابغـةٍ تغشى بنان الأصـابعِ
ومن مُهرةٍ شوهاءَ أودى عنانُها	وقد كان محفوظاًلها غيرَ ضائعِ(١)

وفي عـام ٧٥ هـ قتل عبد الرحمن بن مخنف سيد أزد الكوفة في قتاله الأزارقة وقتل معه جماعة من قومه، فترك مصرعهم أعمق الأسى في نفوس أهل الكوفة، واليمانية خاصة. وقال شعراؤهم قصائد كثيرة يبكون بها ابن مخنف ومن هلك معه ، ومن ذلك قول سراقة بن مرداس البارقي شاعر أزد الكوفة :

أعينيّ جودا بالدموع السـواكـب	وكونا كواهي شُنـّـةٍ مع راكبِ
على الأزد لما أن أصيب سراتهم	فنوحا لعيشٍ بعـد ذلك خائبِ
نرجّى الخلود بعـدهم وتعوقنـا	عوائقَ موت او قِراعُ الكتائبِ
وكنا بخير قبل قتلِ ابن مخنفٍ	وكل امرىءٍ يوما لبعض المذاهبِ
أمار دموعَ الشيب من أهل مصره	وعجّل في الشبُان شيبَ الذوائبِ
وقاتل حتى مات أكـرمَ ميتـة	وخرّ على خدٍّ كريـمٍ وحاجبِ
وضـارب عنـه المارقـين عصابةٌ	من الازدتمشي بالسيوف القواضب
فلا ولدت أنثى ولا آب غائبٌ	الى اهله ان كان ليس بـآيبِ
فيا عيني ابكي مخنفا وابن مخنف	وفرسانَ قومي قُصرةً واقاربي(٢)

١ ــ ديوان الفرزدق ص ١٩١ . عباب الماء : كثرته . الثأى : الفساد . الاشاجع : عروق ظاهر الكفين . الأكارع جمع كراع : الاطراف . الخريبة : موضع بظاهرة البصرة .

٢ ــ الطبري ٥/٤٩ . الشنة : القربة الخلق ، شبه دموعه الدائمة التسكاب بقربة وهت أجزاؤها فالماء لا يزال يسيل منها . أمار : أسال . قصرة : داني النسب .

ولما ثارت فتنة قتيبة بن مسلم بخراسان وأسفرت عن مصرع قتيبة ومن معه من باهلة ، قال الأصم" بن الحجاج الباهلي قصيدة بهذه المناسبة استهلها بالفخر بقومه ، وذكر سليمان بن عبد الملك بما لهم من أياد على بني أمية ، ثم ختمها برثاء رهط قتيبة فقال :

ولو لم تُعجّلنا المنايا لجاوزت ... بنا ردمَ ذي القرنين ذا الصخر والقطر

ولكنّ آجالاً قُضين ومدّةً ... تناهى اليها الطيبون بنو عمرو[1]

ولعلّ أجود ما انتهى الينا من هذا الضرب من الرثاء القبلي قصيدة الشاعر عبد الله بن عمر العبلي الاموي التي رثى فيها بني أمية حين أودى ملكهم وتقوّض صرح دولتهم ، وأُديل منهم لبني العباس . وهو يستهلها بحوار بينه وبين ابنته أمامة تسائله عن حاله وقد عاينت أرقه واستعصاء النوم عليه فيقول :

تقول أمامةُ لما رأت ... نشوزي عن المضجعِ الانفسِ

وقلّةَ نومي على مضجعي ... لدى هجعة الاعيُن النُعّسِ

ابي ما عراك ؟ فقلتُ : الهموم ... عرون أباك فلا تُبلسي

عرون اباك فحبّسنه ... من الذل في شر ما محبسِ

ثم يذكر لها مصدر همومه هذه وأنه حزين لمصارع قومه ولكنه لا يذكر بني العباس الذين كانوا سبب هلاكهم بسوء خشية أذاهم :

لفقد العشيرة إذ نالها ... سِهام من الحدث المبئسِ

رمتها المَنونُ بلا نكّلٍ ... ولا طائشاتٍ ولا نُكّسِ

---

١ ـ الطبري ٥/١٨٥ . الردم : السد .

بأسهمها الخالسات النفوسَ — متى ما اقتضت مهجة تخلِسِ

فصرعاهم في نواحي البلا — دِ تلقى بأرضٍ ولم ترمسِ

كريمٌ أصيب وأثوابه — من العار والذام لم تدنَسِ

وآخر قد طار خوفَ الردى — وكان الهُمامَ فلم يحسسِ

فكم غادروا من بواكي العيو — نِ مرضى ومن صبية بؤّسِ

اذا عنّ ذكرُهم لم ينم — أبوك وأوحش في المجلسِ

وتمضي القصيدةُ بعد ذلك فيعدّد الشاعر الوقائع التي دارت فيها الدوائر على قومه ، بكدى والزاب ووجّ وغيرها ، ثم يختتم قصيدته بتصوير أثر الفجيعة في نفسه ، وبقاء ذكرها على الدهر :

أولئك قومي تداعت بهم — نوائب من زمن مُتعِسِ

اذا ركبوا زيّنوا الموكبين — وان جلسوا الزين في المجلسِ

هم أضرعوني لريبِ الزمانِ — وهم ألصقوا الرغمَ بالمِعطسِ

فما أنسَ لا انس قتلاهم — ولا عاش بعدهمُ من نسي (١)

٣

وأشدّ ما يحزّ في نفس الشاعر افتراق قومه وتشتت أمرهم بسبب تنازع المنافع واصطراع المطامع ، ووقوع الشر بينهم من جراء ذلك وشماتة أعدائهم بهم ، فهو يقف منهم حينئذ موقف العاتب ينكر عليهم تقطيع ما بينهم

١ ـ الاغاني ٢٩٨/١١ و ٩٣٩/٤ . الابلاس : التحير والدهشة والسكوت غماً وحزناً .

من وشائج الرحم ، وموقف الحزين المتألم يأسى لما آل اليه أمر قومه ، وموقف الحكيم الناصح يهيب بالقوم أن يوحدوا كلمتهم وينبذوا أسباب الخلف والقطيعة بينهم .

ومن خير ما انتهى الينا من هذا الشعر قصيدة عبد الله بن قيس الرقيّات الهمزية التي يأسى فيها لما آل اليه أمر قريش من الفرقة والاختلاف وقتال بعضها بعضاً ، فابن الزبير من جانب ، وبنو أمية من جانب آخر ، وشيعة آل البيت من جانب ثالث ، كلهم يقتتلون في سبيل الملك ، وكلهم من قريش ، فقد فرّقت الأهواء والمطامع السياسية بين بيوت قريش قومه وجعلت بعضهم عدواً لبعض ، وهو يستهل قصيدته بالوقوف على الاطلال ثم ينتقل الى تصوير حال قريش قبل افتراق أمرها وتعظيم منزلتها وتصوير ما يحلّ بالناس لو أنها هلكت فيقول :

حبّذا العيشُ حين قومي جميعٌ	لم تفرّق أمورَها الأهواءُ
قبل أن تطمع القبائل في ملـ	ـك قريش وتشمتَ الأعداء
أيها المشتهي فناءَ قريش	بيدِ الله عمرُها والفناءُ
إن تودّعْ من البلادِ قريشٌ	لا يكن بعدهم لحيٍّ بقاءُ
لو تقفّي وتترك الناس كانوا	غنمَ الذئب غاب عنها الرعاءُ
لو بكت هذه السماءُ على قو	مٍ كرامٍ بكت علينا السماءُ

ثم ينتقل الى مديح مصعب بن الزبير ويتحدث عن مصرع أبناء قريش بأيديهم ويأسى لتسليط قبائل لخم وعكّ وغيرها على بيت الله حين عاذ به ابن الزبير ، ويعلن سخطه ونقمته على بني أمية وأهل الشام الذين كانوا سبب هذه الكوارث التي حلّت بقريش وأهل الحجاز :

عينِ فابكي على قريشٍ وهل ير	جعُ ما فات ان بكيتِ البكاءُ
معشرٌ حتفُهم سيوفُ بني العَـ	ـلاّتِ يخشَون أن يضيع اللِواءُ

تـركَ الرأسَ كالثغـامـةِ منّي   نكبـاتٌ تسـري بهـا الأنبـاءُ

ليس للهِ حـُرمـةٌ مثـل بيتٍ   نحـن حُجّـابه عليـه المـُلاءُ

خصّـه الله بالكـرامـة فالبـا   دون والعاكفـون فيـه سـواءُ

حرّقته رجـالُ لخـمٍ وعـكٍّ   وجـذامٌ وحميـرٌ وصُـداءُ

كيف نومـي عـلى الفراش ولمـا   يشمـلِ الشـأمَ غـارةٌ شعواءُ

تذهل الشيخَ عـن بنيه وتبدي   عـن بُراهـا العقيـلةُ العـذراءُ

انـا عنـكم بني اميـّة مزورٌ —   وانتـم في نفسـي الأعـداءُ

إنّ قتـلى بالطفّ قـد أوجعتني   كان منكـم لئن قُتلتم شـفاءُ (١)

وللعبليّ قصيدة أخرى غير التي ذكرناها قالها يذكر فيها اختلاف كلمة بني امية في أواخر عهدهم وافتراق أمرهم ونشوب النزاع بين بطونهم وأسرهم، وهي من أجود القصائد في هذا الفن من القول . ومن العجيب ان هذا الشاعر الاموي كان لا يلقى من قومه بني أمية الا الجفاء والصدّ طوال عهدهم ، وكان بنو أمية ينكرون عليه انه لا يكنّ العداوة والبغضاء لبني هاشم خصومهم ولا يقرّ شتمهم والتشهير بهم على المنابر . على أن جفاء قومه إياه لم يحل دون بقائه على ولائه وألمـه لما آل اليه أمرهم من الفرقة والتنازع ، وهو يعبّر عن ولائه الصادق لهم وحزنه لمصيرهم في قصيدته هذه التي يقول في مستهلها :

واعتادها ذكـر العشيرة بالأسى   فصباحها نـابٍ بهـا ومساؤها

شركوا العِـدا في أمرهم فتفاقمت   منهـا الفتون وفرّقت أهـواؤها

---

١ ـ ديوان ابن قيس الرقيات ص ١٧٠ . الثغامة : شجرة بيضاء الزهر ، يريد ان النكبات أشابت رأسه .

ظلّت هنـاك ومايعاتب بعضهـا بعضاً فينفـع ذا الرجاء رجاؤها
إلا بمرهَفَـةِ الظُبـات كأنهـا شهبٌ تقِـلّ اذا هوت أخطاؤها

ثم يذكر مناقب بني أمية ويبيّن ما يصير اليه حال البلاد إذا هلكوا ، ثم يدعو القوم الى نبذ أسباب الفرقة ويدعو الله أن يجمع كلمة قومه ويرد ألفتهم :

لهفي على حـرب العشيرة بينهـا هـلاّ نهى جهّـالهـا حلمـاؤها
لما رأيت الحـرب تُوقـد بينهـا ويشبّ نـار وقودهـا إذكاؤها
نوّهت بالملـك المهيمنِ دعـوةً ورواح نفسي في البـلاء دعاؤها
ليردّ ألفتهـا ويجمـعَ أمـرهـا بخيـارها فخِيارهـا رحمـاؤها
فبنو أميـة خير من وطىء الثرى شرفاً وأفضل ساسة أمراؤها (١)

٤

وضرب آخـر من الرثاء القبلي عرفه عصر بني أمية ذاك هو رثاء سادة القبيلة وأشرافها الذين تغتالهم يد الردى أو يستشهدون في ساح الوغى ، فسيد القبيلة هو رمز وحدتها وقوتها وتماسكها ، ومصرعه يهدّ كيان القبيلة ويصدّع بناءها، ومن هنا لم يكن رثاؤه من قبيل الرثاء الشخصي، لان المصاب بفقده إنما يحل بقبيلته كلها ، وهكذا حين قتل محمد بن الأشعث الكندي ، سيد يمانية الكوفة ، أثناء قتاله المختار الثقفي ، كان لمقتله صدى مؤلم في نفس أنصاره من اليمانية ، وعبّر أعشى همدان عن شعورهم هذا بقصيدة طويلة بكى فيها ابن الأشعث ، وقال منهـا :

---

١ ـ الاغاني ٣٠٧/١١ . شهب تقل اذا هوت أخطاؤها : يريد ان هذه السيوف تهوي فلا تخطىء اصابة المقاتل . الرواح : الارتياح .

وقام نعاة أبي قاسمٍ	فأسبل بالدمع تحدارُها
عليك محمدُ لمّا ثويتَ	تبكي البلاد واشجارها
وكنتَ كدجلة اذ ترتمي	فيقذف في البحر تيّارها
فيا أسفي يومَ لاقيتهم	وخانت رجالك فرّارها
وأقبلت الخيل مهزومةً	عِشاراً تُضرّبُ أدبارُها
بشطٍّ حروراء واستجمعت	عليك الموالي وسحّارُها
فلا تبعدنّ أبا قاسم	فقد يبلغُ النفس مقدارها
وأفنى الحوادثُ ساداتِنا	ومرّ الليالي وتكرارُها (١)

وكان لمصرع قتيبة بن مسلم بخراسان رنةُ أسى بليغة" لا في نفوس عشيرته بني باهلة فحسبُ بل في نفوس قبيلة قيس كلها ، وهذا الأسى ينعكس في المراثي التي قالها فيه شعراء قيس ، ومنها هذه الأبيات للشاعر الباهلي عبد الرحمن بن جمانة ، وقد جعل الفجيعة بفقده تلي الفجيعة بفقد الرسول عليه السلام :

كأن أبا حفصٍ قتيبة لم يسِر	بجيشٍ الى جيشٍ ولم يعلُ مِنبرا
ولم تخفقِ الراياتُ والقومُ حوله	وقوفٌ ولم يشهد له الناسُ عسكرا
دعته المنايا فاستجاب لربه	وراح الى الجنّاتِ عفّاً مطهّرا
فما رُزىء الاسلامُ بعد محمدٍ	بمثلِ أبي حفص، فبكّيه عبهرا(٢)

وعلى الرغم من أن يزيد بن المهلب قد خلع طاعة بني أمية وثار على حكمهم، لم ينظر اليه قومه الأزد حين قتل نظرتهم الى عاص متمرد نال جزاء خيانته ،

١ ـ الطبري ٤/٥٦٥ .

٢ ـ الطبري ٥/٢٨٥. العبهر من الرجال : العظيم. والعبهرة : الحسناء الناصعة البياض.

بل نظرتهم الى سيد يكنون له كل محبة وإعجاب ، وقد حملتهم العصبية على أن يقفوا بجانبه ويظاهروه في ثورتهم، وكان طبيعياً بعد ذلك أن يأسوا لمصرعه ويبكيه شعراؤهم، وكان أصدقهم ولاء له ثابت قطنة ، شاعر الأزد بخراسان. وقد قال فيه رثاءً كثيراً من أجوده قصيدته التي يقول في مستهلها :

أرقتْ ولم تأرق معي أمّ خالد ... وقد أرقت عيناي حولاً مُجرّما

على هالكٍ هدّ العشيرةَ فقدُه ... دعته المنايا فاستجاب وسلّما

على ملكٍ يا صاح بالعقرِ جُبّنت ... كتائبه واستورد الموت مُعلما

ثم يتوعد يزيد بن عبد الملك ومسلمة أخاه والعباس بن الوليد بثأر قريب :

وفي غيرِ الأيام يا هندُ فاعلمي ... لطالبِ وِترٍ نظرة ان تلوّما

فعلّيَ إن مالت بي الريحُ ميلةً ... على ابن أبي ذِبّان أن يتندّما

امَسلمَ إن يقدر عليك رماحُنا ... نُذقك بها قيء الأساود مَسلما

وإن نلق للعباس في الدهر عثرةً ... نكافِئْه باليوم الذي كان قدّما

ثم يختم قصيدته بالفخر بقومه الأزد والإشادة بمآثرهم (١) .

ولم يقصر ثابت قطنة رثاءه على يزيد بن المهلب وحده بل رثى كذلك اخوته الذين هلكوا معه في هذه الفتنة ، فلما هلك المفضل بن المهلب بقندابيل دخل ثابت على هند بنت المهلب فأنشدها قصيدة يرثي بها أخاها ومن قتل معه من قومه ويتوعّد قاتليه بالثأر ويقول منها :

---

١ ـ الطبري ٣٤٩/٥ . وأبو ذبّان : عبد الملك بن مروان . وانظر أيضا مراثي أخرى لثابت في يزيد بن المهلب في الطبري ٣٤٨/٥ . والاغاني ٢٧٩/٤ .

اذا ذكــرتُ أبا غســّـان أرّقني ... همٌ اذا عرّس السارون يُشجيني

كان المفضّل عزّاً في ذوي يَمَن ... وعصمــةً وثِمــــالاً للمساكينِ

ما زلت بعدك في همٍّ تجيشُ به ... نفسي وفي نَصَبٍ قد كاد يبليني

إني تذكــرت قومــاً لو شهدتهم ... في حومة الموت لم يصلَوْا بها دوني

لاخيرَ في العيش إن لم أجنِ بعدهم ... حرباً تنبيء بهم قتلى فيَشفوني(١)

٥

وقد لا يكون هلاك القوم في قتال أو فتنة ، وانما من جرّاء وباء جارف أو غضبة من غضبات الطبيعة ، فهنا أيضاً يقف الشاعر نادباً قومه ، مظهراً عظم الفاجعة بفقدهم . ومن هذا القبيل قول الحكم بن عبدل الغاضري الأسدي يرثي جماعة من بني غاضرة أهلكهم طاعون وقع بالكوفة :

أبعد بني زرٍّ وبعد ابنِ بحــدلِ ... وعمروٍ أرجّي لذةَ العيش في خفضِ

مضوا وبقينا نأكل العيش بعــدهم ... ألا إن من يبقى على إثرِ من يمضي

فقــد كان حولي من جيادٍ وسالمٍ ... كهولٌ مساعيرٌ وكلّ فتىً بضٍّ

يرى الشحّ عاراً والسماحة رفعةً ... أغرّ كعود البــانة الناعم الغضّ(٢)



---

١ ـ الاغاني ٢٧٥/١٤ . الثمال : الملاذ والغياث .

٢ ـ الاغاني ٤١١/٢ .

خصائص فنيــة

أول مايتجلى لنا من خصائص هذا الرثاء القبلي صدق الشعور، فالشاعر هنا لايرثي مجاملة لممدوح أو إرضاء لصديق، وانما يرثي مدفوعاً بتلك العاطفة الطبيعية التي تربطه بقبيلته والتي تجعله يشاركها في مشاعرها وعواطفها : يسرّه ما يسرها ويؤلمه ما يؤلمها . فنحن هنا بإزاء رثاء صديق يصدر عن نفس حزينة هدّتها الفجيعة وآدها المصاب، وينمّ عن ولاء الشاعر لقومه ، فلا غرو أن ينطق رثاؤه القبلي بمشاعر الأسى العميق ، والحزن اللاعج وأن نجده يخاطب عينيه فيطلب اليهما ذرف العبرات على الهالكين صنيع سراقة البارقي في صدر أبياته السابقة وابن الرقيات في قصيدته الهمزية .

وربما بلغ من شدة وقع الرزء في نفس الشاعر أن يخالجه اليأس فيقطع رجاءه من الحياة بعد أن هلك قومه ولا يرى غناء في البقاء بعدهم ، فان الدنيا تفقد بفقدهم رونقها وجمالها وكل ما يحمل الناس على التعلق بها ، وهـذا ما عبّر عنـه العبلي بقوله :

مـاذا أؤمّـل إن أميّـة ودّعت	وبقـاءُ سـكان البـلاد بقـاؤها
فلئن أميّـة ودّعت وتتـايعت	لغـواية حمِيت لهـا خلفاؤها
ليودّعن مـن البريـة عـزّهـا	ومن البـلاد جمـالها ورجـاؤها
ومـن البليـةِ أن بقيت خلافهم	فرداً تهيجك دورُهم وخلاؤها (١)

وقد يبلغ من شدة أسى الشاعر لمصرع أبناء عشيرته مبلغاً يتمنى معه لو أن الموت نزل به قبل وقوع الخطب لئلايرى ماألمّ بقومه، كقول عُويفالقوافي:

---

١ ـ الاغاني ٣٠٨/١١ . التتايع : الاسراع في الشر .

ألا ليت أنـي صـادفتني منيّتي ... ولم أرَ قتلى العـام يا أمّ أسلما

ولم أرَ قتلى لم تدع لي بعدها ... يدين فما أرجو من العيش أجذما(١)

والشاعر قد يجنح الى تهويل الخطب وتعظيم الرزء فلا يرى بدأ من اقتحام باب المبالغة فاذا الجبال الرواسي تميد لهول المصاب والشمس تنكسف والبحار تغور ، الى آخر ما يقال في هذا الباب ، فالفرزدق مثلاً يصور شدة وقع المصاب بفقد رجال قومه فيرى انه لو نزل بجبل سلمى لهدّه :

فلو أن سلمى نالهـا مثـل رزئنا ... لهُدت ولكن تحمل الرزءَ عامرُ(٢)

وينحو زفر نحو هـذا المنحى فيقول في رثاء عمير :

ولمـا أن نعى النـاعي عمـيراً ... حسبت سـماءهم دُهيت بليـل

وكان النجـم يطلـع في قتـام ... وخاف الذلّ من يمن سـهيلُ(٣)

ولا بد في هذا اللون من الرثاء ــ وفي الرثاء عامة ــ من تعداد مناقب الفقيد التي تسوّغ شدة الجزع عليه وتبيّن عظيم الخطب بفقده ، وهو ما نجده في قصيدة العبلي حين يشيد بمناقب بني أمية فيقول :

أهل الرياسة والسياسة والندى ... وأسود حـرب لا يخيـمُ لقاؤها

غيثُ البـلاد همُ وهم أمراؤها ... سُرُجٌ يُضيء دجى الظلام ضياؤها(٤)

---

١ ــ الاغاني ١١٤/١٧ .

٢ ــ ديوان الفرزدق ص ٢٦٨ .

٣ ــ الاغاني ١٩٩/١٢ .

٤ ــ الاغاني ٣٠٨/١١ . لا يخيم : لا ينكص ولا يجبن .

وكثيراً ما نجد الشاعر يشيد بشجاعة المرثي ويجعل مصرعه مفخرة له ولقومه لأنه مات ميتة الابطال في ساح القتال ولم يفر من المعركة فرار الجبناء على نحو ما نجده في قول سراقة يرثي ابن مخنف :

وضارب حتى مات أكرمَ ميتةٍ   بأبيضَ صافٍ كالعقيقة باترِ
وصرّع حول التلّ تحت لوائه   كرام المساعي من كرام المعاشر (١)

ونحن نلاحظ ان ارتباط هلاك القوم بالمنازعات القبلية في أغلب الأحوال جعل الشاعر لا يقنع بالتعبير عن حزنه وأساه بل يضيف الى ذلك التعبير عن شدة سخطه وبالغ حقده على أعداء قومه الذين كانوا سبب هلاكهم ، وهذا الشعور العدائي وجدناه في قصيدة ابن الرقيات اذ يقول في ختامها :

كيف نومي على الفِراش ولما   يشمل الشأم غارةٌ شعواءُ
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي   عن بُراها العقيلةُ العذراءُ
إن قتلى بالطفّ قد أوجعتني   كان منكم لئن قتلتم شفاءُ (٢)

ولا يلبث الشاعر أن يخلع رداء الحزن والأسى ويثوب اليه تجلده ورباطة جأشه ، وتضطرم في صدره الأحقاد فيتوعّد أعداء قومه بلقاء قريب تتقارع فيه البيض وتشتجر الرماح ، فنسمع أرطاة بن سهيّة يقول مثلاً :

سنبكي بالرماح اذا التقينا   على اخواننا وعلى بنينا
بطعنٍ تُرعَد الأحشاء منه   يردّ البيض والأبدان جونا (٣)

---

١ ـ الطبري ٤٩/٤ .

٢ ـ ديوان ابن الرقيات ص ١٧٠ .

٣ ـ الاغاني ١٤/١٣ .

ونسمع ثابت قطنة يخاطب هنداً بنت المهلب فيعدها بالثأر لمصرع أخيها يزيد من بني أمية قتلته وأعوانهم :

فلا وأبيك لا أنسى يزيداً ... ولا القتلى التي قتلت حراما

فعلّي أن أبؤ بأخيك يوماً ... يزيداً أو أبوء به هشاما

وعليّ أن أقود الخيل شُعثاً ... شوازبَ ضُمّراً تقِص الإكاما

فأصبحْهن حمير من قريبٍ ... وعكّاً أو أرُعْ بهما جُذاما

ونسقي مذحجاً والحيّ كعباً ... من الذَيفانِ أنفاساً قَواما (١)

وربما حمّل الشاعر قومه تبعة الثأر لمن هلكوا وخوّفهم العار والهوان إن هم قصّروا في ذلك على غرار ما نجد في قول هند الجلاحية تدعو بني كلب الى الثأر من قيس :

ألا هل ثائرٌ بدماء قوم ... أصابهم عمير بن الحبابِ

فإن لم يثأروا مَن قد أصابوا ... فكانوا أعبداً لبني كلابِ

أبعد بني الجلاح ومن تركتم ... بجانب كوكبٍ تحت الترابِ

تطيب لثائر منكم حياة ... ألا لا عيشَ للحيّ المصابِ (٢)

والحكمة قليلة في هذا الضرب من الرثاء ، ولعلّ مردّ ذلك الى أن الشاعر القبلي يكون في رثائه مدفوعاً بعصبيته وعاطفته القبلية ، فلا ينظر الى المصاب بمنظار العقل ، وانما بمنظار الشعور والعاطفة ، ومن هنا نجده ثائر الشعور

---

١ ــ الطبري ٣٤٨/٥. وقص الفرس الآكام : دقّها . الذيفان : السم القاتل، والانفاس : الجرعات .

٢ ــ الاغاني ١٢٢/٢٠ .

هائج النفس ، وقد تركته الحادثة موتوراً ينشد الثأر ويحض على الانتقام ؛ ومن أين للحكمة أن تواتيه وهو على مثل هذه الحال ؟ فلا جرم تقل الحكمة في هذا الرثاء وتندر ، ومن أمثلتها قول سراقة في رثاء ابن مخنف :

نرجّي الخلود بعدهم وتعوقنا عوائقُ موتٍ أو قراع الكتائبِ(١)

وقول ابن الرقيّات في همزيته :

هل ترى من مخلّد غير أنّ الله يبقى وتذهبُ الأشياءُ
يأمل الناس في غد رغب الدهر ألا في غد يكون القضاءُ(٢)

* * *

١ ـ الطبري ٩/٥ .

٢ ـ ديوان ابن الرقيات ص ١٧٠ .

المديح المتصل بالعصبيات

انتهينا في الفصل الاول من هذا الباب الى أن فن" المديح غدا في عصر بني أمية حرفة مجزية يتوافر عليها الشاعر ويبذل في تجويدها غاية جهده ، والى ان احتراف المديح قد اضطر الشاعر الى الخروج من فلك قبيلته فلا يقف أماديحه كلها عليها ، وانما ينتجع بها الخلفاء والأمراء وأشراف القبائل الاخرى وأجوادهم ، وغدا همه الاول التكسّب بشعره من أي طريق كان ، باستثناء قلة من الشعراء لم يجرفهم تيار الاحتراف فظ"لوا ينظرون الى الشعر على أنه أداة يعبّرون بوساطتها عما يخالج نفوسهم من مشاعر وأحاسيس ووقفوا شعرهم على تصوير عواطفهم الفردية والقبلية .

الا أننا لاحظنا مع ذلك أن احتراف الشعر لم يلغ عصبية الشعراء لقبائلهم ،ولم نجدمن هؤلاء المتكسبين بشعرهم الا نفراً قليلاً اضطروا الى مديح رجال كان بينهم وبين قبائلهم عداوة وخصومات ، ولحق بعضهم من جراء ذلك الشر والأذى ، شأن كعب الأشقري مثلاً ، فانه مدح قتيبة بن مسلم لما ولي خراسان بعد يزيد بن المهلب وعر"ض في بعض أماديحه له بابن المهلب ، سيد قومه وولي نعمته ، فلما عاد ابن المهلب الى ولاية خراسان بعدئذ وظفر بكعب حبسه وقيل انه دس" اليه من قتله (١) .

ونحن لا نشك في ان عاطفة الشاعر حين يضطر الى مديح رجل من غير قومه ليست كعاطفته حين يمدح رجلاً من أبناء عشيرته، فهو في الحالة الثانية يتخلى عنه الشعور بالحرج وينبسط أمامه مجال القول ويشعر بالرضى عن

---

١ ـ الاغاني ٣٩٢/١٤ .

نفسه اذ يقف شعره على مديح رجال من قومـه . واذا كان الممدوح يتبوأ منصب الولايـة خامره الشعور بالزهو والاعتزاز وتجلى في مديحه حينئذ صدق الشعور وحرارة اللهجة .

على انه حتى حين كان الشعراء يتصدّون لمديح رجال قومهم لم يكـن اقبالهم على مديحهم مصدره عاطفة الولاء القبلي وحـدها ، بل الرغبـة في التكسب أيضاً ، والشاعر الموفق هو الذي تلتقي في مديحه عاطفة الولاء القبلي بالرغبة في التكسب وجمع المال، فانه يحقق حينئذ الهدفين معاً : إرضاء شعوره العصبي والظفر بالجوائز والعطـاء .

ومن نماذج هذا المديح ما قاله كعب الأشقري الازدي في مديح المهلب وبنيه وآله ، وكان كعب منقطعاً اليهم بخراسان ، يصف وقائعهم ومغازيهم ويشيد ببطولاتهم ومآثرهم ، وكان عبد الملك بن مروان شديد الاعجاب بمدائح كعب في آل المهلب ، وقد أوصى الشعراء أن يقتدوا به في معانيه بدلاً من أن يشبهوا الممدوح بالصقر والأسد ونحو ذلك[1]. ومن جيّد مديحه قصيدته التي قالها في وصف المهلب ووصف قتاله الأزارقة ، وقد استهلها بالنسيب ثم فخر بقومه الأزد ـ شأنه في جلّ مدائحه في آل المهلب ـ فقال :

لقومي الأزد في الغمـرات أمضى   واوفى ذمـةٍ وأعـزّ جـارا

همُ قـادوا الجيـاد على وجـاها   من الامصـار يقـذفن المهـارا

وبعد أن يفرغ من الفخر ينتقل الى مديح المهلب والاشادة بمناقبه وشجاعته في قتال الأزارقة والى الثناء على بنيه وتعداد مآثرهم ومن قوله في ذلك :

شهابٌ تنجـلي الظلمـاءُ عنه   يرى في كل مُبهمـة منـارا

براك الله حـين براك بحـراً   وفجّر منـك أنهـاراً غِـزارا

---

١ ـ الاغاني ١٤/٢٨٦ .

بنـوك السـابقون الى المعـالي	أذا ما أعظمَ النـاسُ الخِطـارا
مـلوك ينزلـون بكـلّ ثغـرٍ	إذا ما الهـامُ يومَ الروع طـارا
رِزانٌ في الامور تـرى عليهـم	من الشيخ الشمائل والنِجـارا
نجـومٌ يُهتـدى بهـمُ اذا مـا	أخو الظلماء في الغمرات حارا (١)

ولكعب قصيدة أخرى من غرر المديح قالها كذلك يصف وقائع المهلب مع الأزارقة في رامهرمز وسابور وجيرفت وهو يصرّح فيها بطلب العطاء ويطنب في وصف فاقته فيقول مثلاً :

أبا سعيدٍ فاني جئتُ منتجعـاً	ارجو نوالك لما مسّني الضـررُ
إني لارجو اذا مـا فاقـةٌ نزلت	فضلا من الله في كفّيك يبتـدرُ
فاجبر أخاً لك اوهى الفقر قوّته	لعـله بعدَ وهْي العظم ينجبرُ

وهو يطيل في وصف الوقائع مع الأزارقة وتفصيل مراحل كل موقعه ، وقد أعانه على إجادة وصفها مصاحبته قومه في هذه المواقع ، ولا يغفل أخيراً عن الفخر بالأزد والتنويه بمآثرهم ومناقبهم (٢) .

ولما توفي المهلب اتصل كعب ببنيه ورافقهم في فتوحهم ومغازيهم فسجّل انتصاراتهم بشعره ، وأثنى على آلالمهلب خير ثناء ، وله مدائح غرّ في يزيد بن المهلب وأخيه المفضّل وسائر آل المهلب ، ولكنها دون مدائحه في المهلب (٣) .

---

١ ـ الاغاني ١٤/٢٨٦ ـ ٢٩٥ . الوجى : الحفى . الخطار : الرهان .

٢ ـ ارجع الى هذه القصيدة في الطبري ٥/١٢٢ وما بعدها .

٣ ـ ارجع الى هذه القصائد في الطبري ٥/١٨٦ و ٥/١٩٤ .

وقد وقف الفرزدق وجرير جانباً من مدائحهما على طائفة من رجال بني تميم البارزين في العراق ، وعلى هلال بن أحوز المازني خاصة (١)، لما عرف به من شدة الكرم ولإيقاعه بآل المهلب في قندابيل ، فقد رأى شعراء تميم في تنكيل ابن أحوز بآل المهلب يومئذ ظفراً قبلياً لتميم على الأزد خصمها اللدود بالبصرة ، ونجد الفرزدق في بعض مدائحه لابن أحوز يدلّ على الخليفة وعلى بني أمية بمجالدتهم عنهم وبلائهم في سبيلهم فيقول :

ألم يأتِ بالشام الخليفةَ أننا	ضربنا له من كان عنه يخالفُ
صناديد أهدينا اليه رؤوسَهم	وقدباشرتمنهاالسيوفَ الخذارف
وعند أبي بشر بن احوزَ منهم	على جيف القتلى نسورٌ عواكفُ
فإن تنس ما تُبلي قريشٌ فاننا	نجالد عن احسابها ونقاذفُ
شدائدُ أيامٍ بنا يتّقونها	كأن شعاع الشمسِ فيهنّ كاسفُ

وبعد أن يصف مواقعتهم الأعداء ينتقل الى مديح ابن أحوز وفرسان قومه :

تجُود بنفس لا يُجاد بمثلها	حِفاظاً وان خِيفت عليك المتالفُ
فأنت الفتىالمعروفوالفارس الذي	به بعد عبّادٍ تُجلى المخاوفُ
أغر عظيم المنكبين سما به	الى كرم المجد الكرام الغطارفُ
فوارسُ منهم مِسورٌ لا رماحُهم	قِصارٌ ولا سودُ الوجوه مَقارفُ

---

١ ــ ينتمي هلال بن احوز الى بني مازن بن مالك بن عمرو بن تميم . وكان مسلمة بن عبد الملك وجهه في آثار آل المهلب بعد اخفاق ثورتهم في البصرة ومقتل سيدهم يزيد بن المهلب فأدركهم بقندابيل فقتلهم قتلا ذريعاً حتى كاد يستأصلهم (انظر الطبري ٥/٣٣٧ وما بعدها) .

اذا شهدوا يوم اللقاء تضمّنوا   من الطعن أياماً لهنّ متالفُ(1)

ونجد جريراً يقف جانباً من نقيضة له على مدح هلال بن أحوز ووصف إيقاعه بآل المهلب بقندابيل وأنصارهم الأزد والفخر بتميم فيقول :

الا ربّ سامي الطرف من آل مازنٍ   اذا شمّرت عن ساقها الحربُ شمرا

أتنسون شدّاتِ ابن احوز انها   جلت كلّ وجهٍ من مَعَدٍّ فاسفرا

وأدرك ثأر المسمعين بسيفه   واغضب في شأن الخَيار فنكّرا

جعلتَ بقبرٍ للخيار ومالكٍ   وقبر عديٍّ في المقابر أقبُرا

وغرّقت حيتان المزُونِ وقد لقُوا   تميماً وعزا ذا مناكبَ مِدسرا

واطفأتَ نيران النفاق وأهله   وقد حاولوا في فتنة ان تسعرا

فلم تُبقِ منهم رايةً يرفعونها   ولم تبق من آل المهلّبِ عسكرا(2)

وللفرزدق وجرير مدائح كثيرة في هلال وغيره من رجال بني تميم المشهورين وفي البطون التي تجامعهم في النسب التيميمي كبني مازن (3) .

---

1 - ديوان الفرزدق ص ٤٥٨ . عبّاد : هو عباد بن اخضر المازني التميمي الذي حارب الخوارج وقتل زعيمهم أبا بلال ثم قتله نفر من الخوارج عام ٦١هـ انتقاماً منه لصنيعه بأبي بلال (انظر الطبري ٣٦٠/٤) ، مسور : هو مسور بن عمر بن عباد بن الحصين الحبطي التميمي . القارف ج مقرف : من كانت أمه عربية وأبوه أعجمياً ، أراد انهم خالصو النسب .

2 - ديوان جرير ص ٢٤٠ . المسمعان : مالك وعبد الملك ابنا مسمع وقد قتلهما معاوية ابن يزيد بن المهلب ابان ثورة أبيه بالبصرة وقتل كذلك عدي بن أرطاة والي البصرة من قبل يزيد بن عبد الملك . المزون : الملاحون ، وآل المهلب من أزد عمان وكانوا يعيرون انهم ملاحون . المدسر : الضخم الشديد .

3 - انظر أمثلة لذلك في ديوان الفرزدق ص ٦٠ - ٥٠٧ ٥٧٤ - ٦٨٨ وديوان جرير ص ١٣٣ - ٢٣٣ - ٤٨٧ - ٥١٥ - ٥٣٧ .

وأبرز ما يتسم به هذا الضرب من المديح صدق الشعور وقوة العاطفة لانبثاقه عن عاطفة الولاء القبلي في المرتبة الاولى ، ولانسجامه مع عصبية الشاعر لقومه . وجلّ هذا المديح مقول إثر وقائع خاضها الممدوح ومن هنا كان هذا الضرب من المديح يشتمل على وصف للوقائع الحربية ، وربما أطال الشاعر هذا الوصف إطالة شديدة ، صنيع كعب الأشقري في مديحه آل المهلب . ولاتصال هذا المديح بالعصبية كان الشاعر يحرص فيه على الفخر بقومه ، والاشادة ببطولتهم وشجاعتهم ومناقبهم . وقد لاحظنا أن الشعراء لم يبرءوا في مديحهم هذا من غاية التكسب ، ولذلك وجدناهم كثيراً ما يصرّحون فيه بطلب العطاء ، ويلحّون على نعت الممدوح بالجود وبسط الكف ليهزّوا أريحيته ، ومن هذا قول الفرزدق في مدح عبّاد بن أخضر :

لا تمدحنّ فتى ترجو نوافله ولا تزر غيره ما عاش عبّادُ

ألستَ غيثَ حياً للناس ماطرُه وكل غيثٍ له في الارض روّادُ(1)

* * *

1 – ديوان الفرزدق ص ٢٠٠ .

الدفـاع عن حقوق القبيلة ورعـاية مصالحها

ان ارتباط الشاعر الوثيق بقومه من جانب ، وحظوته لدى السلطان من جانب آخر ، هيّآه لأن يقوم الشاعر بمهمة السفير لقومه حين يكون لهم لدى السلطان مطلب ما ، فليس كالشاعر رسول يسفر بحوائج قومه ويدافع عن حقوقهم ويرفع شكايتهم الى أولي الأمر ، وقد رأينا الشعراء المتصلين بملوك الحيرة والشام في الجاهلية يسدون لقومهم أجلّ الخدمات اذ يدفعون عنهم شر هؤلاء الملوك حين يهمّون بالإيقاع بهم ويشفعون لمن يقع في أسرهم منهم . وهذه المهمة تولاها شعراء العصر الاموي ولكن على نطـاق أوسع ، اذ أنّ احتدام العصبيات في ذلك العصر وما تجلى في بعض الخلفاء والولاة من تحيّز قبلي ، وضخامة المنافع التي كانت تتنازعها شتى القبائل ، كل ذلك قد ألقى على كاهل شعراء القبائل تبعات جساماً في رعاية مصالح قبائلهم ، وجعلهم يشاركون مشاركة فعالة في معركة العصبيات التي لم تزل نارها ذاكية الضرام طوال ذلك العصر .

والشاعر حين ينطق بلسان قومه لدى السلطان يقف الموقف الذي تمليه عليه المناسبة من جهة ، وشخصيته وقوة قبيلته من جهة أخرى ، فهو يقف موقف المتضرّع المستعطف حيناً ، وموقف المتحدّي المتوعد حيناً آخـر ، يلزم جانب الرفق واللين تارة فيوجه الى السلطان عتباً رفيقاً هادئاً ، ويجمح به غضبه تارة أخرى فيصطنع لهجة أدنى الى العنف والشدة . وربما ركبته سَورة من الغضب على السلطان حين يأنس منه تحيزاً سافراً لأعداء قومه فاذا به يجنح الى صريح الهجاء وقبيح الشتم .

فالراعي النميري مثلاً يبدو في مستهل خطابه عبد الملك بن مروان هادىء اللهجة ، حريصاً علي إثارة عطفه علي قومه الذين استبد بهم سعاته في جباية

الصدقات وجانبوا جادّة العدل التي أمرهم بلزومها ، وهو يعرض قضية عشيرته وما تعرضوا له من مظالم عرضاً رفيقاً هادئاً فيقول :

أخليفةَ الرحمن إنا معشرٌ ... حنفاءُ نسجدُ بكرةً وأصيلا
عربٌ نرى لله في أموالنا ... حقّ الزكاة منزّلاً تنزيلا
أخليفة الرحمن إن عشيرتي ... أمسى سوامُهم عِزين فُلولا
قطعوا اليمامة يطردون كأنهم ... قوم أصابوا ظالمين قتيلا
وأتاهم يحيى فشدّ عليهم ... عقداً يراه المسلمون ثقيلا
كتباً تركن غنيّهم ذا عيلةٍ ... بعد الغنى وفقيرهم مهزولا
أنت الخليفةُ عدله ونواله ... واذا أردت لظالم تنكيلا
فارفع مظالم عيّلت أبناءنا ... عنّا وأنقِذ شلونا المأكولا
إن السُعاة عصوك حين بعثتهم ... وأتوا دواهي ، لو علمت ، وغُولا
ان الذين أمرتهم ان يعدلوا ... لم يفعلوا مما أمرت فتيلا
اخذوا الكرام من العِشار ظُلامة ... منّا ويكتب للامير أفيلا
اخذوا العريفَ فشقّقوا حيزومه ... بالاصبحية قائماً مغلولا
يدعو أميرَ المؤمنين ودونه ... خَرق تجر به الرياحُ ذيولا (١)

---

١ ــ جمهرة اشعار العرب ص ١٧٢ . خزانة الادب ٥٠٢/١ . طبقات ابن سلام ص ٤٣٩ . وبين روايات القصيدة اختلاف يسير . عزين ، ج عزة : الجماعة أو الفرقة . الغول : الداهية والهلكة. العشار ج عشراء : الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر . الافيل : الصغير من الابل. العريف : الذي يقوم بأمر القبيلة . الاصبحية : السياط المنسوبة الى ذي أصبح الحمير . الخرق : الارض الواسعة تنخرق فيها الرياح ، أي يشتد هبوبها .

والقصيدة طويلة ، وهي دون شك من أجود ما قاله الشعراء في بسط المظالم التي تتعرض لها عشائرهم وهي تنم عن شعور ديني صادق ينفي دعوى القائلين بأن التعاليم الاسلامية لم تنفذ الى قلوب البداة من العرب ، فالراعي يقرّ بخضوع قومه لما شرّعه الاسلام من صنوف العبادات كالصلاة والزكاة ولا يحاول أن يتملص من أداء الواجبات التي فرضها الدين الاسلامي على معتنقيه ، ولكنه يرى في الوقت نفسه ان هذا الدين الحنيف لا يقرّ ما لحق بقومه من مظالم من جراء عسف السعاة . وقد استطاع الشاعر أن يكبح جماح غضبه وثورته لما لحق قومه من ظلم فخاطب عبد الملك في لهجة مستعطفة هادئة ، ومزج الاستعطاف بالمديح استدراراً لعطف الخليفة، ولكنه لم يستطع أن يحتفظ بأناته حتى نهاية القصيدة، فما لبث أن غلبه الغضب وانقاد لعاطفة السخط التي تضطرم في صدره على سعاة الخليفة ، فاذا به يختتم القصيدة ببيت يتوعد فيه بجلاء قومه عن منازلهم فيقول :

ولئن بقيت لادعونّ بظعنـــــةٍ   تدع الفرائض بالشريف قليلا (١)

وقد أغضب هذا البيت الاخير عبد الملك فلم يجب الراعي الى سؤله ولم يحظ عنده بشيء ، ثم وفد اليه من قابل فأعاد شكواه على مسمع الخليفة في قصيدة أخرى لم يجنح فيها الى أسلوب التهديد وقال منها :

أمّا الفقير الذي كانت حَلوبتـــه   وَفق العيالِ فلم يُترَكْ له سَبَدُ

واختلّ ذو المال والمُثرون قدبقيت   على التلاتل من أموالهم عُقَـــدُ

فإن رفعتَ بهـم رأســاً نعشتَهم   وإن لقوا مثلهامن قابلٍ فسدوا(٢)

---

١ ــ طبقات ابن سلام ص ٤٤١ . الفرائض : من الابل والغنم ما بلغ عدده حد الزكاة . الشريف : الموضع الذي كان ينزله قوم الشاعر . يريد انه سيدعو قومه الى الجلاء عن ديارهم حتى لا يبقى هناك من النعم ما يستوجب الزكاة .

٢ ــ طبقات ابن سلام ص ٤٤١ . الحلوبة : الناقة . وفق العيال : أي لها لبن على قدر حاجتهم لا يفيض عنهم. لم يترك له سبد : لم يترك له شيء ، واصل السبد : الوبر . اختلّ : افتقر . التلاتل : الشدائد . العقد : البقايا القليلة .

أما النعمان بن بشير فكان في دفاعه عن قومه الأنصار لدى معاوية أميل الى العنف واغلاظ القول ، وقد ساءه أن يحرّض يزيد الاخطل على هجائهم وانتقاصهم ، ولعله كان يعتقد في وليجة نفسه ان الاخطل ما كان ليجرؤ على هجائهم لو لم يطمئن الى رضى الخليفة عن مسلكه ، ولذلك سلك في خطاب معاوية مسلك التهديد السافر وتطاول عليه بما صنعه الأنصار بمشركي قريش يوم بدر فقال :

معاويَ إلاّ تُعطنا الحق تعترفْ	لحي الازد مشدوداً عليها العمائمُ
متى تلق منا عصبة خزرجيةً	أو الأوسَ يوماً تخترمْك المخارمُ
الم تتبدّر يوم بدرٍ سيوفنا	وليلك مما ناب قومك قاتمُ
ضربناكم حتى تفرق جمعكم	وطارت أكف منكم وجماجمُ[1]

***

وقد أبلى اليمانية بلاء حسناً في تثبيت دعائم الحكم الاموي اثر وفاة يزيد، وكانوا يتوقعون أن يذكر بنو أمية لهم هذه اليد فيقربوهم ويباعدوا خصومهم القيسية ، ولكن ساسة بني أمية رأوا أنّ من الخير إطفاء الأحقاد واصطناع القبائل المضرية واليمنية على السواء ، فأظهر عبد الملك لقيس المودة بعد الجفاء وقرّب اليه رؤساءهم وأدنى مجلسهم . وهذا ما أوغر عليه صدور اليمانية وأثار حفائظهم فانطلقت ألسن شعرائهم ولا سيما شعراء كلب ، توجه الى بني أمية أشد العتب واللوم وتذكرهم ما كان لهم من أياد لقومهم في تثبيت أوتاد حكمهم ومقارعة خصومهم ، فنسمع عمرو بن مخلاة الكلبي مثلاً يخاطبهم فينكر عليهم كفرانهم صنيعهم واظهارهم الجفاء لهم ، ويذكرهم بلاء قومه في نصرتهم يوم جيرون ويوم مرج راهط فيقول :

---

١ ـ الاغاني ١٣٦/١٤ (ساسي) .

ضربنا لكم عن منبر الملك أهله ... بجيرون إذ لا تستطيعون منبرا

وأيام صدقٍ كلها قد عرفتمُ ... نصرنا ويومَ المرج نصراً مؤزّرا

فلا تكفروا حسنى مضتمن بلائنا ... ولا تمنحونا بعد لين تجبرا

فكم من اميرٍ قبل مروان وابنه ... كشفنا غطاء الغم عنه فأبصرا (١)

ونسمع جوّاس بن القعطل الكلبي ينحو منحى ابن مخلاة في توجيه اللوم الى عبد الملك ، ولكنه يبدو أعنف وأقسى لهجة من صاحبه حتى انه يتّهم عبد الملك بالجبن والخوف يوم الموقعة فيقول :

أعبدَ المليك ما شكرت بلاءنا ... فكُلْ في رخاء الامنِ ما أنت آكلُ

بجابية الجولان لولا ابنُ بحدلٍ ... هلكت ولم ينطق لقومك قائلُ

فلما علوت الشام في رأس باذخٍ ... من العزّ لا يسطيعه المتناولُ

نفحتَ لناسَجل العداوة مُعرِضاً ... كأنك مما يُحدث الدهرُ جاهلُ

وكنت إذا أشرفت من رأس هضبة ... تضاءلت ، ان الخائف المتضائلُ

ولو طاوعوني يوم بُطنان أُسلمت ... لقيسٍ فروجٌ منكمُ ومقاتلُ (٢)

وعاود لومه هذا في أبيات أخرى كان فيها أدنى الى العتب وإظهار الأسى منه الى التهديد والوعيد فقال :

صبغت أميةُ بالرماح دماءنا ... وطوت أميةُ دوننا دنياها

ألمي رُبّ كتيبةٍ مكروهةٍ ... صِيد الكماةِ عليكم دعواها

---

١ ــ شرح حماسة ابي تمام ٦٦/٤ . انساب الاشراف ١٣٥/٥ .

٢ ــ حماسة ابي تمام ٦٨/٤ . حماسة البحتري ص ١١٢ . السجل : الدلو .

كنا ولاةَ ضِرابها وطِعانها … حتى تجلّت عنكم غماها

فالله ُ يَجزي ، لا أميةُ ، سعينا … وعلاً شددنا بالرماح عُراها(١)

وقد ظل شعراء القحطانية يذكّرون بني أمية طوال عصرهم ببلائهم في سبيلهم يوم المرج وما بعده كلما بدا لهم منهم أمر يكرهونه أو آنسوا منهم جفاء لهم وإيثاراً للنزارية عليهم .

وكذلك كان شعراء العدنانية يقفون مثل هذا الموقف من خلفاء بني أمية وعمّالهم : ينافحون عن قبائلهم ويطالبون بحقوقها ويسعون في مصالحها ، وهم في ذلك يتبعون شتى أساليب الخطاب ، يستعطفون تارة وينصحون تارة أخرى ، يلجؤون الى اللوم والعتب الهادىء حيناً ، ويصطنعون لغة الوعيد والتهديد حيناً آخر. والشعراء في مواقفهم هذه كانوا يتحدثون بلسان عشيرتهم الدنيا طوراً وبلسان قبيلتهم الجامعة طوراً آخر . فنجد الفرزدق مثلاً يثور على بني أمية وعاملهم على العراق خالد بن عبد الله القسري حين سجن خالد نصر بن سيّار الكناني فيقول ، مدفوعاً بآصرة العصبية الكبرى لنزار :

أخالدُ لولا الدينُ لم تعطَ طاعة … ولولا بنو مروان لم توثقوا نصرا

اذا لوجدتم دون شدّ وَثاقه … بني الحرب لا كشف اللقاء ولا ضُجرا

ألا يا بني مروان مثلُ بلائنا … إذا لم يُصب من كان يُنعمه شكرا

جديرٌ لان يُنسى إذا ما دعوتم … ويورث في صدر المُعيد له غمرا

أفي الحق أنّا لا تزال كتيبة … نطاعنها حتى تدينَ لكم قسرا

وإلا تناهوا تخطِر الخيل بالقنا … وندعْ تميماً ثم لا نطّلب عذرا(٢)

---

١ ــ حماسة ابي تمام ٤/٧٠ . حماسة البحتري ص ١١٢ . دعواها : تهديدها وخطرها .

٢ ــ ديوان الفرزدق ص ٤٠٣ .

وأبيات الفرزدق هذه يغلب عليها طابع التهديد السافر والتحدّي الغاضب ، ومثل الفرزدق في عزّته وشدة عصبيته ومنعة قبيلته خليق بأن يلجأ الى هذا الاسلوب العنيف وأن يتحدّى سلطان بني أمية وأعوانهم .

وقد ثار الفرزدق مرة أخرى على بني مروان مدفوعاً بآصرة الرحم الدنيا لتميم ، وذلك حين قتل خالد بن عبد الله عمر بن يزيد الأسيدي التميمي (١)، فقال بهذه المناسبة قصيدة تنضح بالوعيد والتهديد أستهلها برثاء ابن يزيد ثم ساءل بني مروان ما بالهم يسفكون دماء بني تميم بلا جرم على رغم ما أسدوه لهم من أياد لا تجحد :

فقل لبني مروان ما بالُ ذمّةٍ ... وُحرمة حِلٍّ ليس ُيرعى ذمامُها

ألا في سبيل الله سفكُ دمائنا ... بلا ُجرمةٍ منا يبين اجترامها

مددنا بثَديٍ ما ُجزينا بدّره ... وأيدٍ بنا استعلت وتمّ تمامها

ثم يحرّض مضر العراق وقيس الشام على الثأر لابن يزيد ويحذّرهم عاقبة القعود عن ذلك فيقول :

أرى مُضَر المِصرين قدذلّ نصرُها ... ولكن قيساً لا يذلّ شآمها

فمن مُبلغٌ بالشام قيساً وخندفاً ... أحاديثَ ما يشفى ببرء سقامها

فإن من بها لم ينُكر الضيمَ منهم ... فيغضب منها كهلُها وغلامها

يَعُدْ مثلها من مثلهم فينكّلوا ... فيعلم اهل الجور كيف انتقامها

---

١ ــ كان سبب قتله ان خالد بن عبد الله اثنى في مجلس هشام بن عبد الملك على اليمانية وأشاد بطاعتهم لبني أمية وحسن بلائهم ، وكان عمر بن يزيد حاضراً فقام وسفّه رأي خالد وكذبه . فلما ولي خالد العراق أراد الانتقام من ابن يزيد فأوعز الى صاحب شرطته مالك بن المنذر ان يعتل عليه ليقتله ففعل وقتله ضرباً بالسياط (الطبري ٥/٣٧٧ ــ ٣٩١) .

ثم يحثّ الخليفة على التخلي عن اليمانية الذين يمثلهم في العراق خالد بن عبد الله ويذكر بني أمية ببلاء تميم وحسن طاعتهم :

فغيّر اميرَ المؤمنين فانها	يمانيةٌ حمقاءُ أنت هشامها
أنقتل فيكم إذ قتلنا عدوّكم	على دينكم والحربُ بادٍ قتامها
لنا فيكم ايدٍ واسبابُ نعمةٍ	اذا الفتنة العشواء شبّ احتدامها
غضبنا لكم يا آل مروان فاغضبوا	عسى أن ارواحاً يسوغ طعامها

وأخيراً يختم القصيدة بالفخر بتميم وحث بني أمية على رعاية ما بينهم وبين قومه من أواصر الرحم (١) .

وكذلك نجد الاخطل يتحدث بلسان قومه حين أوقع الجحّاف ببني تغلب يوم البشر فيصوّر ألمه لما حلّ بقبيلته ويخاطب بني أمية فيهيب بهم ألا ينتصروا لخصومهم القيسية ، وينكر عليهم رعايتهم صلة الرحم التي تعطفهم على قبيلة قيس ورجالها ، وهو يسلك في أبياته مسلكاً لا يخلو من التهديد والانذار فيقول :

لقد اوقع الجحّافُ بالبشر وقعةً	الى الله منها المشتكى والمعوّلُ
فسائِل بني مروانَ ما بالُ ذِمّةٍ	وحبلٍ ضعيفٍ لا يزال يوصّلُ
فإلاّ تغيّرها قريشٌ بملكها	يكن عن قريشٍ مستمازٌ ومَزحلُ
ونَعرُرْ أناساً عرّةً يكرهونها	فنحيا كراماً او نموتُ فنقتَلُ
فان تحملوا عنهم فما من حمالةٍ	وان ثقلت إلا دمُ القومِ اثقلُ (٢)

١ ـ ديوان الفرزدق ص ٧٩٠ .

٢ ـ نقائض جرير والاخطل ص ٤٨ . ديوان الاخطل ص ١١ . مستماز : من استماز الرجل اذا انتقل من مكان الى مكان . عرّه بشرّ : لطخه به .

وقد جارى الاخطل في ثورته على بني أمية أعشى تغلب ، فقد نقم على بني أمية سوء صنيعهم بشمعلة بن عامر(١) فقال يلومهم على مسلكهم هذا ويذكرهم حسن بلاء قومه عندهم ويتوعدهم أن ينقلبوا أعداء لهم ويقلبوا لهم ظهر المجنّ اذا ما نشبت حرب بينهم وبين أعدائهم واحتاجوا الى نصرتهم :

فأقسم إن حربٌ عوانٌ تلقّحت ... وحان من الناس التنمرُ والخَطَرُ

لنحن عليكم لا لكم ان عثرتم ... من الصرعةِ الاولى اذا قُضي الامرُ

وكم قد دفعنا عنكم من مُلمّةٍ ... ولكن أبيتم لا وفاءٌ ولا شكرُ

ألم نكفكم قيساً وقيسٌ مَهيبة ... وبرّبةً قُلباً حواجبها صُعرُ

فما اقبلت للسلم حتى تمرّست ... بها الاسرةُ الحصداءُ والعدد الدثرُ

ونحن قتلنا مُصعباً قد علمتمُ ... بمسكنَ يوم الحرب انيابها خضرُ

فما ربُ ذاك الفضلِ كاسرُ عينه ... هشامٌ ولاعبدُ العزيزِ ولا بِشرُ(٢)

وكان شعراء القبائل ينتهزون المناسبات التي تُظهر فيها قبيلتهم ولاءها للسلطان وتبرهن على اخلاصها للحكم الاموي ليدلّوا على بني أمية بموقفهم منها وفضلهم عليها ، وليطالبوهم بالمكافأة والجزاء ويدعوهم الى إيثار قبيلتهم على سائر القبائل . وها هوذا الشاعر خلف بن خليفة ، مولى قيس بن ثعلبة ، ينتهز مناسبة امتناع يحيى بن حضين ، سيد ربيعة في خراسان ، عن موافقة

---

١ ـ دخل شمعلة بن عامر ـ وكان نصرانياً ـ على عبد الملك بن مروان ، فعرض عليه الاسلام فأبى ، وأجاب عبد الملك جواباً اسخطه عليه فأمر به فقطعت قطعة من لحم فخذه ، ومات شمعلة بعد حين من عقابيل هذا الجرح (ديوان الاعشى والاعشين ص ٢٧٤) .

٢ ـ ديوان الاعشى والاعشين ص ٢٨٩ . الحصداء : الكثيرة العدد ومثلها الدثر . (انظر ايضاً الاغاني ١١/٢٨٢) .

أمير خراسان عاصم بن عبد الله الهلالي ، حين صالح الحارث بن سريج وخلع الخليفة الاموي ، فيخاطب بني أمية ويدلّ عليهم بموقف ربيعة منهم وطاعتهم إياهم ونقضهم أمــر الحارث بن سريج ثم يدعوهم الى رعــاية قومه والوفاء لهم فيقول :

حفظنــا أميـــةَ في ملكهـــــا ... ونخطـر من دونهـا ان تُراعـــا

ندافــعُ عنها وعن ملكهـــــا ... اذا لم نجـــد بيديها امتناعـا

ألم نختطف هامةَ ابن الزبـــير ... وننتزع الملك منـــه انتزاعـــا

نصرنــا أميّـــــةَ بالمشــــرفيّ ... اذ انخلع الملك عنهـــا انخلاعا

على ابن سريج نقضنــا الامــورَ ... وقد كان احكمهـا ما استطاعــا

ولــولا فتــى وائــلٍ لم يكــن ... ليَنْضح فيهـا رئيسٌ كُراعـا

فقــل لأميــةَ ترعــى لنـــا ... أياديَ لم نجزها واصطناعا (١)

* * *

---

١ ــ الطبري ٥/٤٣٤ . الكراع : الخيل ، ونضح الخيل : رماها بالنبل .

تصوير الروابط القبلية

كان الشاعر الاموي يعتزّ بمنافحته عن قومه وذياده عن أحسابهم كما كان يعتز بمنافحة قومه عنه ونصرتهم إياه ، فالصلة بين الشاعر وقومه كانت صلة النصرة المتبادلة التي تمليها وجائب العصبية وآصرة الرحم . ولكن مهمة الشاعر لم تكن مقصورة على جانب الدفاع عن القبيلة ونصرتها بلسانه فحسب، وانما كانت له مهمة أخرى هي رعاية أمور القبيلة والعناية بمصالحها وما يعرض لها ، يقف من قومه تارة موقف المشير الناصح والحكيم المجرّب الذي يدعو الى السلم ونبذ الضغائن وطرح الأحقاد ، ويقف منهم تارة أخرى موقف الثائر المتحمس يدعوهم الى مناهضة أعدائهم ويؤرث في صدورهم الأحقاد القبلية ويحضهم على الثأر والانتقام ، وهو في الحالين إنما يكون مدفوعاً بعاطفة العصبية لقومه والولاء لهم ويرى انه مهيأ بفضل موهبته الشعرية للنهوض بعبء التوجيه القبلي وان تخلّيه عن أداء هذه المهمة إخلال بما تفرضه عليه صفة المواطن القبلي المخلص .

وأول ما يطالب به الشاعر قبيلته هو ألا تتخلى عن التزاماتها نحوه ، فينبغي لها أن تبادر الى نصرته حين يستنفرها وأن تحميه حين يحتاج الى حمايتها وأن تجود عليه بالمال اذا افتقر . فاذا آنس منها قصوراً أو تلكؤاً في النهوض بهذا الامر أو أنكر موقفها منه وجّه اليها سهام اللوم والعتب، صنيع الفرزدق حين أنكر من قومه مجاشع أموراً حملته على توجيه هذا العتب اليهم :

جزى الله عني في الامور مجاشعاً ... جزاةَ كريمٍ عالم كيف يصنعُ

يرقّون عظمي ما استطاعوا وانما ... أشيد لهم بنيان مجدٍ وارفعُ

ترون لكم مجداً هجائي وانما ... هجائي لمن حان الذُعاف المسلّعُ

وإني لينهاني عن الجهــل فيكــم — أذا كدت خلاّت من الحلم أربعُ

حيــاءٌ وبُقيــا واتقاءٌ واننـــي — كريم فأعطــي ما أشاء وامنــعُ

وان اعفُ استبقي حلوم مجاشعٍ — فان العصاكانت لذي الحلم تقرعُ[1]

وواجبات القبيلة نحو شاعرها تظل مفروضة عليها سواء كان من أبنـاء القبيلة الاحرار ، أو كان يمت اليها بصلة الولاء والحلف، ولذلك عتب يزيد بن المفرّغ الحميري على قريش حين خذلته ولم تُعدِه على ابن زياد فقال :

أصبحتُ لامن بني قيس فتنصرني — قيسُ العراق ولم تغضب لنامضرُ

ولــم تكلّــم قريش في حليفهــم — اذ غاب ناصره بالشام واحتضروا

لو أنني شهــدتني حميرٌ غضبت — دوني فكان لهم فيما رأوا غِيَرُ[2]

وأنكر عبد الله بن خليفة الطائي على قومه خذلانهم إياه وتخليهم عن نصرته حين طلبه زياد فقال أبياتاً يلومهم فيها ويأخذ عليهم تلكؤهم عن نصرته ويذكر سيد قومه عديّ بن حاتم أياديه عنده والأبيات تنم عن الألم والاستياء ولكنها لا تنم عن الثورة والسخط الناقم ، بل ان الشاعر يظهر فيها اذعانه لمشيئة الله وقــدره فيقول :

نفاني عدوّي ظالماً عن مُهاجَري — رضيت بما شــاء الإلــه وقــدّرا

وأسلمني قومي لغــير جنــايــة — كأن لم يكونوا لي قبيلا ومعشرا

جزى ربــه عني عدّي بن حــاتم — برفضي وخذلاني جــزاءً موفّرا

---

١ ــ ديوان الفرزدق ص ٥٠٢ . الذعاف المسلع : السم القاتل ، السلع : شجر مر .

٢ ــ الاغاني ٥٧/١٧ . احتضروا : حضروا .

نصرتك اذ خـام القريب وابعط البعيد ، وقد أفردتَ نصراً مؤزّراً

فكان جزائي ان اجرّد بينكـم سجيناً وان أولى الهوانَ وأوسرا(١)

والشاعر يهيب بقبيلته أن يتضامن رجالها ويتآزروا لدفع الضيم عنهـا وحماية من يراد به شر من رجالها ، فان آنس منهم الفشل والتخاذل أنحى عليهم باللوم والتعنيف ، شأن عبد الله بن الزبير حين هدمت اليمن وربيعة دار أسماء بن خارجة بأمر المختار ولم تنتصر له مضر فقد قال قصيدة يوجه فيها أعنف اللوم الى مضر لموقفها من أسماء وتقصيرها في الانتصار له ويشبههم بالنساء لجبنهم ونكوصهم عن قتال الأزد وربيعة حين خربوا دار سيد مضر ويفضل عليهم القحطانية في غضبهم لرجالهم وانتصارهم لهم ، ومنها :

جزت مضراً عني الجوازي بفعلها ولا اصبحت الا بشرٍ جدودُهـ

فما خيركم ؟ لا سيداً تنصرونـه ولا خائفاً ان جاء يومـاً طريدها

لأمكـم الويـلاتُ أنّى أتيتـم جماعات اقوامٍ كثيرٌ عديدُهـا

فياليتكم من بعـد خذلانكم لـه جَوارٍ على الاعناق منها عقودُها

ألم تغضبوا ، تباً لكم اذ سطت بكم مَجوس القرى في داركم ويهودها

تركتم أبا حسّـان تُهـدَم داره مشيدةً ابـوابهـا وحديدها

فلو كان من قحطانَ اسماءُ شمرت كتائبُ من قحطان صُعرٌ خدودها(٢)

وكذلك صنع عبيد الله بن قيس الرقيات حين قتل مصعب بن الزبير فانه

---

١ ـ الطبري ٢١١/٤ . خام : جبن ونكص . ابعط الرجل : افرط وجاوز قدره .

٢ ـ الاغاني ٢٩/١٤ .٢

أنحى باللائمة والتعنيف على مضر لخذلانها مصعباً وتخليها عن نصرته وممالأتها عدوّه ، وفضل عليها بكر بن وائل فقال :

لقد أورث المصرين خزياً وذِلّةً	قتيلٌ بدير الجاثليقِ مقيمُ
فما نصحت لله بكرُ بن وائل	ولا صبرت عند اللقاء تميمُ
ولو كان بكريّاً تعطف حوله	كتائبُ يغلي حميُها ويدومُ
ولكنه ضاع الذِمامُ ولم يكن	بها مضريّ يومذاك كريمُ [1]

ومن هذا القبيل أيضاً أبيات الفرزدق التي يلوم فيها بني كليب لخذلانهم عباد بن أخضر يوم قتله الخوارج [2] .

ومن الشعر الذي يصوّر الروابط القبلية وموقف الشاعر من قومه ذاك الذي يقوله يدعو قومه الى التمسك بنسبهم والاعتزاز به وعدم التخلي عنه مهما يكن الثمن الذي يؤدي اليهم لقاء ذلك . وقد رأينا شعراء اليمانية يثورون على كثيّر حين نسب قومه الى قريش كما رأينا شعراء القبائل اليمانية يقفون موقف المعارضة العنيفة في وجه جميع المحاولات التي بذلت لحمل قبائلهم على الانتساب الى الجذم العدناني ، والتخلي عن قحطانيتهم . ورأينا شعراء الكتلتين العدنانية والقحطانية يحاول كل فريق منهما اجتذاب القبائل المشهورة الى شجرته النسبية استظهاراً بها واعتزازاً، والشعر المقول بهذا الصدد من أوثق الشعر اتصالاً بالنزعة العصبية والروح القبلية ، وقد أوردنا فيما تقدم نماذج من هذا الشعر ولا غناء في تكرار ذكرها هنا [3] .

---

١ ــ الطبري ١٠/٥ . ديوان ابن الرقيات ص ٣٠٠ .

٢ ــ انظر ديوان الفرزدق ص ٣٩٠ .

٣ ــ انظر في فصل الشعراء والعصبيات ما ذكرناه عن مشاركة الشعراء في معركة الانساب.

ويتصل بالشعر الداعي الى التمسك بالأنساب الشعر الذي يدعو الى التعلق بالعشيرة والخضوع لنظمها وطاعة سادتها والاخلاص لها . والشاعر يهيب بأبناء القبيلة ألاّ يتخلوا عنها حتى حينما تتخلى هي عن نصرتهم وتخلّ بواجبها نحوهم ، فالولاء المطلق للقبيلة هو الشرط الاول الذي ينبغي توافره في كل مواطن قبلي مخلص ، ومن هنا نسمع ابن قيس الرقيات يناشد ابن هرمة أن يتمسك بعشيرته ولا يفارقها لأن الرجل في غير عشيرته ضعيف لا حول له ولا قوة :

وقومك لا تجهل عليهم ولا تكن	بهم هرشاً تغتابهم وتقاتلُ
فانّ امرءاً في معشرٍ غير قومه	ضعيفُ الكلامِ شخصه متضائلُ(١)

ونحن نرى بوجه عام أن ولاء الشاعر لقبيلته كان هو القاعدة المطردة عصرئذ ، لا يشذّ من ذلك إلا نفر قليل من الشعراء ضعفت فيهم آصرة العصبية أو وقع بينهم وبين قومهم شر فتنكروا لهم ولم يحجموا عن تناولهم بالهجاء والذم . وهجاء الشاعر قومه وصمة قبيحة تشين صاحبها وتجعله عرضة للازدراء والمهانة . وقد أخذ جرير على الراعي النميري ما عرف به من هجائه قبيلته فقال فيه :

وقرضك في هوازن شر قرض	تُهجّيها وتمتدح الوِطابا (٢)

---

١ ــ ديوان ابن الرقيات ص ١٢٥ . الهرش : الجافي .

٢ ــ الاغاني ١٧١/٢٠ . طبقات ابن سلام ص ٤٣٤ . أراد انه لم يجز قومه خيراً اذ كان لا يزال يهجوهم ويمتدح الابل وألبانها .

ومن هؤلاء النفر أيضاً الشاعر عبد الله بن الأعور المشهور بالكذاب الحرمازي الذي يقول في عشيرته :

ان بني الحرماز قومٌ فيهمُ عجزٌ وإيكالٌ على أخيهمُ
فابعث عليهم شاعرا يخزيهم يعلمُ منهم مثلَ علمي فيهمُ (١)

ومن المحقق ان ظاهرة تنكر الشاعر لقومه وهجائه إياها ليست ظاهرة طبيعية . فالشاعر لا يسلك هذا المسلك الشاذ الا اذا أنكر موقف قومه منه ، كأن يتخلوا عنه حين يحتاج الى نصرتهم ومعونتهم أو يقع بينه وبينهم شر . وهؤلاء الشعراء أنفسهم لم يجنحوا الى هجاء عشائرهم الا في أحوال خاصة حين كانوا ينقمون على عشيرتهم أمراً ما ، أما في سائر الأحوال فقد كان شأنهم في الذود عن قبائلهم شأن سائر الشعراء المتعصبين لقومهم المنافحين عنهم ، وللراعي شعر في الدفاع عن حقوق عشيرته من أجود ما انتهى الينا من الشعر القبلي(٢) . وكثير من الشعراء الذين تورطوا بهجاء عشيرتهم أدركهم الندم بعدُ على فعلتهم الذميمة فعبّروا عن ندمهم وأسفهم لما بدر منهم في أشعارهم ، والحق ان هجاء العشيرة كان عصرئذ من أوجع ما يرمى به الشاعر ، وهذه الخصلة الذميمة لم يكن يسوّغها جور العشيرة على شاعرها وإساءتها اليه ، فهي منه بمثابة الأب، وللأب أن يجور على ابنه أحياناً وأن يقسو عليه ، وليس من حق الابن أن يعقّ أباه لقسوته عليه . فكذلك نسمع كعب بن جعيل شاعر تغلب يظهر ندمه لهجائه قومه بعد أن شاع قوله فيها على كل لسان ، ويتمنى لو أتيح له أن يردّ ما فات وأنّى له ذلك فيقول :

---

١ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦٦٥/٢ . كتاب العرب لابن قتيبة ص ٣٥٨ .

٢ ـ انظر مثلا طبقات ابن سلام ص ٤٣٩ .

ندمتُ على شتم العشيرة بعدما ... مضى واستتبّت للرواةِ مذاهبه

فأصبحت لا أسطيع ردّاً لما مضى ... كما لا يردّ الدرّ في الضرع حالبه(١)

ومثل هذا الندم على هجاء العشيرة خالج فؤاد المتوكل الليثي على رغم أن قومه هم الذين أخرجوه عن طوره حتى قال فيهم ما قال :

ندمت على شتم العشيرة بعدما ... تغنى عراقيٌ بهم ويماني

هم بطروا الحلم الذي من سجيتي ... فبدّلتُ قومي غِلظة بليَانِ

قلبت لهم ظهر المِجن وليتني ... عفوتُ بفضلٍ من يدٍ ولسان(٢)

وطائفة أخرى من الشعراء أساء اليهم قومهم ومع ذلك تذرّعوا بالحلم وتعفّفوا عن شتم العشيرة رعاية لواشجة العصبية وحق الوفاء والولاء . فثابت قطنة يمتنع من شتم عشيرته الأزد على رغم تقصيرها في حقه إذ استنفرها فلم تنصره :

تعففتُ عن شتم العشيرة إنني ... وجدت أبي قد عفّ عن شتمها قبلي(٣)

وعبد الله بن خليفة الطائي يأخذ على قومه انهم لم يذودوا عنه حين طلبه زياد ، ولكنه يظل مع ذلك على ولائه لهم ويرى أن لا خير في الحياة بعدهم :

وأسلمني قومي لغير جناية ... كأن لم يكونوا لي قبيلاً ومعشرا

فلا يَبعدَنْ قومي وان كنت غائباً ... وكنت المضاعَ فيهم والمكَفّرا

ولا خير في الدنيا ولا العيش بعدهم ... وإن كنت عنهم نائي الدار مُحصَرا(٤)

---

١ ـ طبقات ابن سلام ص ٤٨٧ . حماسة البحتري ص ٣٧٨ .
٢ ـ حماسة البحتري ص ٣٧٨ .
٣ ـ الاغاني ٢٨١/٤ .
٤ ـ الطبري ٢١٠/٤ .

ومهما تبلغ العداوة بين أبناء العشيرة لا نلبث أن نجدهم يتناسون هذه الأحقاد عندما تنزل بهم الشدائد، أو حين يقع خصومهم في محنة، ولا يذكرون حينئذ الا أنهم أبناء عشيرة واحدة تؤلف بين قلوبهم واشجة العصبية والرحم، فكذلك لما حبس الحجاج عيينة بن أسماء الفزاري نسي عويف القوافي شاعر فزارة، ما كان بينه وبين عيينة من خصومة، وقال يظهر أله لما حلّ به :

منع الرقادَ فما يُحَسّ رُقادُ خبرٌ أتاك ونامت العوّادُ

خبرٌ أتاني عن عيينة موجع ولمثله تتصدّعُ الأكبادُ

لما أتاني عن عيينة أنّه عانٍ تظاهر فوقه الأقيادُ

نخلت له نفسي النصيحةَ أنه عند الشدائدِ تذهب الأحقادُ

وذكرت أيّ فتىً يسد مكانه بالرِفد حين تقاصر الأرفادُ (١)

ومن الشعر الذي يصور الروابط القبلية ذاك الذي يصور صلة القبيلة بالقبائل الاخرى، معادية كانت أو مسالمة .

وشاعر القوم يراقب صلة قبيلته بالقبائل الاخرى ويبيّن موقفه منها، فهو في أحوال نادرة رسول سلام يدعو الى نبذ الضغائن والى طرح الاحقاد واحلال الوئام والصلح محل العداوة والقتال . صنيع القطامي في موقفه من حرب تغلب وكلب، فهو يدعو قريشاً الى اصلاح ما بين الحيّين ثم يدعو كلباً الى الصلح ويجعلها معدّية النجار رغبة في تألفها فيقول من قصيدة طويلة :

فأين ذوو البطاحِ ذُرا قريش وأحلامٌ لهم ما تُستعارُ

فإن لم تأتمر صلحاً قريشٌ فليس لسائر العرب ائتمارُ

---

١ ـ الاغاني ١١٧/١٧ . خزانة الادب ٨٧/٣ .

أكلب هلم نحن بنو أبيكم ... ودعوى الزور منقصة وعار
هلم فعندنا عدل ونصف ... وأحكام تسد بها الثغار
وإن يعطفكم نسب الينا ... فليس عليكم منا ظهار (١)

وهو يقف مثل هذا الموقف من الحرب التي استعرب بين قيس وتغلب فيظهر أساه لاحتراب ابني نزار ويدعو ذوي الحلم الى تلافي الامور واصلاح ما بين الأخوين المحتربين لئلا تشمت بهما كلب :

الم يحزنك ان حبال قيس ... وتغلب قد تباينت انقطاعا
يطيعون الغواة وكان شراً ... لمؤتمر الغواية أن يطاعا
ألم يحزنك ان ابني نزار ... أسالا من دمائهما التلاعا
فلا تبعد دماء بني نزار ... ولا تقرر عيونك يا قضاعا
أمور لو تلافاها حليم ... إذاً لنهى وهيب ما استطاعا (٢)

ووقعت بين قبيلة بني شيبان وأختها تغلب حرب لم يرض عن نشوبها نفر من شعراء الحيين وكرهوا أن تشمت بهما القبائل المعادية لهما ، وكان لمالك بن مسمع مشاركة في بعض وقائعها ، فقال أعشى تغلب يعتب على بني شيبان إثارتهم هذه الحرب وقطعهم ما بينهما من صلات الرحم ويلوم مالكاً على موقفه منها :

بني أمنا مهلاً ، فان نفوسنا ... تميت عليكم عتبها ومصالها
وترعى بلا جهل قرابة بيننا ... وبينكم لما قطعتم وصالها

---

١ ـ ديوان القطامي ص ٨٠ . طبقات ابن سلام ص ٤٥٥ . الظهارة : النصرة .
٢ ـ ديوان القطامي ص ٣٧ . هيب : خوف .

جزى الله شيباناً وتيماً ملامةً — جـزاءَ المسيءِ سعيهـا وفعـالها

أبا مسمعٍ من تنكـر الحقّ نفسه — وتعجزُ عن المعروف يعرف ضلالها

ألوقدتَ نار الحـرب حتى اذا بدا — لنفسك ما تجني الحـروب فهالها

نزعت وقد جرّدتها ذاتَ منظـرٍ — قبيحٍ مَهينٍ حين ألقت حِلالها(١)

وفي أغلب الأحوال نجد الشاعر رسول شرّ وداعية خصام وقتال ، يؤرث الأحقاد، ويثير الضغائن ويهيب بقومه أن يستأصلوا أعداءهم فلا يبقوا على أحد منهم ، ويذكّرهم ما بين الحيّين من دماء وثارات . ففي حين وجدنا القطامي يدعو الى اصلاح ما بين تغلب والأحياء المجاورة لها نجـد الاخطل ، أخاه في العشيرة ، يؤرث الأحقاد بين قومه والقبائل الاخرى ويثير الضغائن ، ويعلن ان ما بين بكر وتغلب من ضغائن قديمة لا سبيل الى محوه أو نسيانه :

اذا ما قلتُ قد صالحتُ بكـراً — أبى الأضغانُ والنسبُ البعيـدُ

ومَهـراقُ الدمـــاءِ بواردات — تَبيـد المحـزنات ولا تَبيــدُ

وأيـامٌ لنـــا ولهـم طِـــوالٌ — يفـلّ الهـــامَ فيهنّ الحـديدُ

همـا أخـوان يصطليان ناراً — رداءُ المـوت بينهمـا جـديدُ (٢)

وربما آنس الشاعر من بعض رجال قومه خروجاً على ما تقضي به واشجة العصبية من ولاء لقومهم فيظهر إنكاره لصنيعهم ويندّد بمسلكهم ، فهو يرى نفسه مسؤولاً عن محاسبة أبناء قبيلته على أعمالهم ، فكذلك نجد الفرزدق مثلاً يوجه اللوم الى من ظاهر من قومه خصومَهم الأزد وربيعة يوم الجفرة فيقول:

---

١ ــ الاغاني ٢٨٣/١١ . الحلال : المتاع .

٢ ــ ديوان الخطل ص ٢٨٢ .

عجبتُ لأقــوام تميــمٌ ابوهــم ... وهم في بني سعدٍ عِراضُ المباركِ

وكانوا سَراة الحيّ قبلَ مسيرهم ... مع الأزد مصفراً لحاها ومالكِ (١)

والفرزدق ينكر أيضاً على بكر ، وهي أخت تميم في النسب العدناني ، أن تحالف عدوهما المشترك الأزد فيوجه اليها هذه الأبيات العاتبة يناشدها فيها التخلي عن محالفة الأزد والوقوف في جانب اخوتهم تميم :

وما عن قِليً عاتبت بكرَ بن وائل ... ولا عــن تجنّي الصارم المتجرّمِ

ولكنّني أولى بهــم مــن حليفهم ... لدى مَغرمٍ إن ناب أو عند مَغنمِ

وقــد علموا أني أنا الشاعرُ الذي ... يُراعي لبكــرٍ كلها كلّ محــرمِ

أترضى بنو شيبانَ ، لله درّهم ، ... وبكرٌ جميعاً كلّ مثرٍ ومُعــدم

بأزدِ عُمانٍ إخــوةً دونَ قومهم ... لقد زعموا في رأيهم غيرَ مَزعمِ (٢)

وكان الشاعر ينظر نظرة رضى الى هــذه المحالفات التي كانت قبيلته تعقدها مع القبائل الاخرى فتشدّ بهــا أزرها وتقوي جانبها وتوقع الرعب والهيبة في قلوب أعدائها . وقد أشاد كلّ من جرير والفرزدق بروابط الولاء والحلف التي كانت بين تميم وكلب منذ أيام الجاهلية ، فقال جرير :

انا ابن الثرى أدعو قُضاعةَ ناصري ... وآل نــزارٍ ما أعــزَّ وأكثرا

عديداً معدّياً لــه ثروةُ الحصى ... وعــزّاً قضاعيّاً وعـــزّاً تنزّرا

نــزارٌ الى كلبٍ وكلبٌ اليهــم ... أحــقّ وأدنى من صُداء وحميرا (٣)

---

١ – ديوان الفرزدق ص ٦٠٠ .

٢ – ديوان الفرزدق ص ٧٥٦ .

٣ – ديوان جرير ص ٢٤٢ .

وقال الفرزدق يدعو قومه الى حسن لقاء قضاعة إن هي نزلت ديارهم منتجعة ويذكرهم ما بينهما من الحلف :

أوصي تميماً إن قضاعةُ ساقها	قوا الغيثِ من دارٍ بدُومة أو جَدبِ
اذا انتجعت كلب عليكم فمكّنوا	لها الدارَ من سهل المباءة والشربِ
فانهم الأحلافُ والغيثُ مرةً	يكون بشرقٍ من بلاد ومن غربِ
أشدّ حبالٍ بين حيّين مِرّة	حبالٌ أُمّرت من تميمٍ ومن كلب
وليس قضاعيٌ لدينا بخائفٍ	وإن أصبحت تغلي القدورُ من الحربِ[1]

* * *

١ – ديوان الفرزدق ص ١٣ . قوا الغيث : احتباسه . المباءة : المنزل .

وصف الوقائع القبليـة وما يتصل به

ان المناقضات والأهاجي والمفاخرات التي كان شعراء العصر الأمـوي يتقارضونها كانت ربما اشتملت على وصف للوقائع التي كانت تدور رحاها بين القبائل المحتربة عصرئذ ، وسنقف وقفة قصيرة عند وصف الوقائع القبلية الخالصـة .

ونحن لا نجد فيما انتهى الينا من شعر العصر الاموي وصفاً مفصّلاً دقيقاً لتلك الوقائع الحربية التي خاضت القبائل غمارها عصرئذ ، ولعل مردّ ذلك الى أن الوصف لم يكن غرضاً في ذاته وانما كان معبراً الى ما يقصده الشاعر من هجاء أعدائه أو المفاخرة بقومه ، ولذلك نجد أن الشاعر لا يقف طويلاً عند وصف المعركة ولا يفصّل احداثها ، وانما يتناول هذا الوصف تناولاً سريعاً ثم يمضي الى الغاية التي يقصدها ، فحادثة مقتل مسعود بن عمرو مثـلاً ـ على خطورتها ـ لم نجد الشعراء يتناولونها بالتفصيل منذ ابتداء أمرها وإنما وجدناهم يعرضونها عرضاً سريعاً لينتقلوا بعد ذلك الى الهجاء أو الفخر ، ولعلهم لو تناولوها بمزيد من التوسع والتفصيل لجلوا كثيراً من الغموض الذي يكتنف وقائعها في المصادر التاريخية التي روت أخبارها .

فنجد المغيرة بن حبناء التميمي مثلاً يصف المعركة ومقتل مسعود وفرار مالك بن مسمع واشيم بن شقيق في أبيات قليـلة وصفاً لا يلمّ إلا بالمعـالم البارزة فيقول :

فلمـا لقينـاكم بشهباءَ فيلـقٍ ... تزلزل منهـا جمعـكم فتبـذّرا

وطـرنا الى المقصورتين عليـكم ... بأسيافنا يفـرين هـامـاً ومنقرا

وأُبتم خَزايا قد سُلبتم سلاحكم ... وأسلمتمُ مسعودكم فتقطّـرا

وأشيم اذ ولّى يفوق بطعنةٍ يبادر بابَ الدار يهربُ مُدبرا(١)

وقال سؤر الذئب السعدي يصف هذه الموقعة أيضاً جارياً على طريقة ابن حبناء في الايجاز :

نحن خطبنا الازدَ يومَ المسجدِ والحيَّ من بكرٍ ويوم المربدِ

إذ خرّ مسعودٌ ولم يوسّدِ ولم يُجنّ في سَواءِ الملحدِ(٢)

وما يقال في مقتل مسعود يقال مثله في المواقع الاخرى كموقعة مرج راهط مثلاً ، فاننا لم نجد شاعراً وصفها وصفاً مفصلاً مسهباً يلمّ بدقائقها وتتابع أحداثها ، وقد وصفها الأخطل في معرض مديحه لبني أمية فقال :

ويومَ شرطة قيسٍ إذ مُنيت لهم حنّت مثاكيلُ من إيقاعكم نُكُدُ

ظلّوا وظلّ سحابُ الموتِ يُمطرهم حتى توجه منهم عارضٌ بَرِدُ

والمشرفيةُ اشباهُ البروقِ لها في كل جمجمةٍ او بيضةٍ خُدُدُ(٣)

وهذا الوصف ــ على اقتضابه ــ ينبىء بمهارة الاخطل وبراعته التصويرية. فهو لم يكتف بذكر أحداث الموقعة وإنما عني بابرازها في الصورة المخوفة التي يريدها كما عني بتصوير شدة ايقاع بني أمية أنصارهم بخصومهم القيسية وما تركته الموقعة من آثار وراءها .

---

١ ــ نقائض جرير والفرزدق ٧٣٦/٢ .

٢ ــ النقائض ٧٣٧/٢ .

٣ ــ ديوان الاخطل ص ١٧٣ . العارض : السحاب المطر . الخدد جمع خد : الحفرة والاثر .

ولم نجد بين أيدينا من مصادر وصفاً ذا غناء للمواقع التي خاضها عبد الله بن خازم السلمي بخراسان مع قبيلة ربيعة أولاً ثم مع قبيلة تميم ، ومما انتهى الينا ثلاثة أبيات للمغيرة بن حبناء التميمي يصف فيها إيقاع ابن خازم بربيعة وقتله ابن مرثد وأوس بن ثعلبة فيقول :

وفي الحرب كنتم في خراسان كلها   قتيلا ومسجوناً بها ومُسيّرا

ويومَ احتواكم في الحفير ابنُ خازم   فلم تجدوا الا الخنادقَ مقبرا

ويوم تركتم في الغبار ابن مرثَد   وأوساً تركتم حيث سار وعسكرا(١)

ولعلّ من اجود ما انتهى الينا من وصف الوقائع القبلية قول جرير يصف إيقاع الجحاف ببني تغلب يوم البشر :

سرى نحوكم ليلٌ كأنّ نجومه   قناديلُ فيهنّ الذُبال المفتّلُ

فماانشقّ ضوء الصبح حتى تفرقوا   كراديسَ يهديهنّ وَردٌ مُحَجّلُ

فقد قذفت من حرب قيسٍ نساؤكم   باولادِها منها تمامٌ ومُعجَلُ

ومقتولةٍ صبراً ترى عند رجلها   بَقيراً وأخرى ذاتِ بعلٍ تولولُ

حضضتَ على القوم الذين تركتهم   تعلّ الردَينيات فيهم وتنهلُ

عقابُ المنايا تستديرُ عليهم   وشعثُ النواصي لجمهنّ تصلصل

بدِجلةَ إن كرّوا فقيسٌ وراءهم   صفوفاً وان راموا المخاضة أوحلوا

وما زالت القتلى تمور دماؤها   بدجلةَ حتى ماءُ دجلةَ أشكلُ(٢)

---

١ — الطبري ٤/٤٢٥ .

٢ — ديوان جرير ص ٤٥٦ . نقائض جرير والاخطل ص ٦٤ . العقاب : الراية . شعث النواصي : أراد الخيل .

فالوصف هنا يقف عند جزئيات المعركة ويفصلها تفصيلاً حسناً ، والشاعر الى ذلك يعتمد في هذه الأبيات على التصوير ويعنى به عناية خاصة وقد اجتمعت في هذا التصوير شتى العناصر التي تجعل جوّ المعركة حياً ماثلاً أمام السامع ، ففيه عنصر اللون (ليل ، ضوء الصبح ، ماء دجلة اشكل) وفيه عنصر الحركة (تعل الردينيات وتنهل ، عقاب المنايا تستدير ، الخ) وفيه اللون والحركة معاً (قناديل فيهن الذبال المفتل) وفيه عنصر الصوت (لجمهن تصلصل) . وقد كان جرير في أبياته هذه رائداً لنوابغ شعراء الوصف في العصر العباسي أمثال البحتري والمتنبي .

وبعد انتهاء الموقعة يبادر شعراء القبيلة المنتصرة الى تسجيل هذا النصر في شعرهم ومفاخرة أعدائهم به ، ويظهرون شماتتهم بما لحقهم من قتل وأسر وتشريد ونحو ذلك ، واذا رضيت القبيلة المنهزمة بالديات لقاء من قتل من رجالها في الموقعة عيّرهم بذلك شعراء القبيلة المنتصرة ، فنسمع مثلاً عمرو ابن مخلاة الكلبي يعيّر بني ذبيان قبولهم ديات من قتل منهم في غارة بني كلب عليهم فيقول :

خذوها يا بني ذُبيان عَقلا ... على الاحياء واعتقدوا الخزاما

دراهمَ من بني مروان بيضاً ... تنجّمها لكم عاماً فعاما (١)

أما شعراء القبيلة المهزومة فيطوون جوانحهم على مرارة الهزيمة ويوجّهون اللوم الى من كانوا سبب اندحارهم يوم الموقعة ويهيبون بقومهم أن يجمعوا صفوفهم للثأر من واتريهم ومحو ما لحق بهم من عار الهزيمة . ففي أعقاب مرج راهط مثلاً قال زفر بن الحارث يعتذر من فراره يومئذ ويتوعد قبيلة كلب بثأر عاجل :

---

١ ـ الاغاني ١١٥/١٧ . أنساب الاشراف ٣٠٩/٥ . الخزام : حلقة من شعر تجعل في أحد منخري البعير ويكنى بها عن الابل .

أتذهب كلبٌ لم تنلها رماحنــا وتُترك قتلى راهطٍ هي ما هيا
فلم ترَ مني نبوةٌ قبل هــذه فراري وتركي صاحبيّ ورائيــا
عشيةَ أعــدو بالقران فــلا أرى من الناس إلا مَن عليّ ولا ليــا
أيذهب يوم واحدٌ ان أسأتــه بصالح أيامــي وحســنِ بلائيــا
فلا صلحَ حتى تنحط الخيلُ بالقنا وتثأرَ من نسوان كلبٍ نسائيا(١)

وحين تحيق الهزيمة بالقبيلة يوجه شعراؤها هممهم الى حضها على الثأر والطلب بدماء قتلاها ويعيّرون قومهم اغضاءهم على الذل والعــار إن هم تقاعسوا عن الطلب بثأرهم وربما شبهوهم بالنسـاء ربات الحجال ودعوهم الى أن يستبدلوا بسيوفهم وسلاحهم المغــازل والكحــل والخلوق ، استثارة لحميتهم . وقبول القبيلة الديات بقتلاها يعرضها لأشد اللوم والتعنيف من جانب شعرائها ، فنسمع عبيد الله بن الحر مثلاً يعيّر الأزد قعودها عن الثأر بمسعود وارتضاءها الديات فيقول :

ما زلت أرجو الأزدَ حتى رأيتُها تقصّــر عــن بنيانها المتطــاولِ
أيقتل مسعودٌ ولــم يثأروا بــه وصارت سيوفُ الازدمثلَ المناجل
وما خير عقلٍ أورث الأزد ذلــةً تسبّ به احياؤهم في المحافلِ(٢)

ونسمع كذلك هنداً الجُلاحية تحرض كلباً على الثأر لمن قتل منهم يوم الإكليل فتقول :

الا هــل ثائــرٌ بدمــاء قــومٍ اصابهــم عمــيرُ بن الحبُــابِ
فان لم يثأروا من قد اصــابوا فكانوا أعبُــداً لبني كــلابِ (٣)

---

١ ـ الطبري ٤١٨/٤ . القران : هكذا في الاصل ، ولعلهـا : القَرُون ، وهو الجــواد السريع العــرق .

٢ ـ الطبري ٤٠٦/٤ .

٣ ـ الاغاني ١٢٢/٢٠ .

والتحريض على الثأر حين يكون مصدره امرأة يكون أوقع في النفس وأبلغ في إثارة حميةِ القوم لأن الرجل يأنف أن يظهر أمام المرأة بمظهر النكس العاجز، ويكره أن تطعنه امرأة في رجولته التي تتمثل في شجاعته ومقدرته على القتل. ولذلك كان شواعر القوم يأخذن على عاتقهن مهمة التحريض على القتال والحض على الثأر، ومن هذا القبيل أيضاً قول أم كثير الضبيّة تحرّض بني تميم على الثأر عقب هزيمتهم أمام اليمانية في الموقعة التي أجلت عن مقتل الحارث بن سريج وهزيمة نصر بن سيار والمضرية:

لا بارك الله في أنثى وعذّبها	تزوجت مضرياً آخر الدهرِ
ابلغ رجالَ تميمٍ قولَ موجَعةٍ	أحللتموها بدارِ الذلّ والفقرِ
ان انتم لم تكرّوا بعد جولتكم	حتى تعيدوا رجال الازد في الظهرِ
إني استحيت لكم من بذل طاعتكم	هذا المزُونيّ يجبيكم على قهرِ(١)

وحين يتاح للقوم إدراك ثؤرتهم من واتريهم يكون ذلك مدعاة لابتهاجهم وشعورهم بالراحة النفسية والاعتزاز، وربما عبّر الرجل عن سروره بادراك ثأره حتى وهو يساق الى الموت ليقاد منه، فنسمع سعيد بن عيينة الفزاري يقول وهو يساق الى القتل بعد أن أصاب ثأره من بني كلب في بنات قين:

إن أُقتل فقد أقررتُ عيني	وقد أدركتُ قبلَ الموتِ ثأري
فان أقتَل فقد أهلكتُ كلباً	ولستُ على بني بدرٍ بزارِ (٢)

* * *

---

١ ـ الطبري ١٣/٦ .

٢ ـ أنساب الاشراف ٣١٢/٥ .

مصادر البحث

مصادر البحث

أ ـ المصادر العربية

الأحكام السلطانية : أبو الحسن علي بن محمد الماوردي (١ القاهرة ١٢٩٨هـ) .

الأخبار الطوال : أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري (٢ ليدن ١٨٨٨) تحقيق فالدمير جيرجاس .

أخبار عبد الله بن شرية في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها (١ حيدر آباد ١٣٤٧ هـ) في مجلد واحد مع كتاب التيجان .

الأزمنة والأمكنة : أبو علي المرزوقي (٢ حيدر آباد ١٣٣٢ هـ) .

أسد الغابة في معرفة الصحابة : عز الدين بن الأثير (٥ القاهرة ١٢٨٥ هـ) .

أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والاسلام : محمد بن حبيب (١ القاهرة) تحقيق عبد السلام هارون .

الاشتقاق : أبو بكر محمد بن دريد (٢ في مجلد واحد القاهرة ١٩٥٨) تحقيق عبد السلام هارون .

الأصمعيات : عبد الملك بن قريب الأصمعي (١ القاهرة ١٩٥٥) تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون .

الأصنام : هشام بن محمد بن السائب الكلبي (١ القاهرة ١٩٢٤) تحقيق أحمد زكي باشا .

الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني (٢٠ القاهرة ١٩٢٧ وما بعدها) طبعة دار الكتب (٢١ القاهرة ١٩٢٣هـ)طبعة محمد الساسي وتصحيح الشيخ أحمد الشنقيطي .

الاكليل : ابن الحائك الهمداني (الثامن برنستن ١٩٤٠) تحقيق نبيه أمين فارس .

أمالي الشريف المرتضى : على بن الحسين الشريف المرتضى (٢ القاهرة ١٩٥٤) تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .

الأمالي : أبو علي القالي (٢ القاهرة ١٩٢٦) مع الذيل والنوادر .

أمراء غسان : نولدكه . ترجمة بندلي جوزي وقسطنطين زريق (١ بيروت ١٩٣٣) .

الانباه على قبائل الرواة : يوسف بن عبد البر النمري (١ القاهرة ١٣٥٠ هـ) في مجلد واحد مع كتاب القصد والأمم .

أنساب الأشراف : أحمد بن يحيى البلاذري (الاول القاهرة ١٩٥٩) تحقيق محمد حميد الله
(الحادي عشر غريفزولد ١٨٨٣)نسخة بخط وليم بن الورد
(الخامس القدس ١٩٣٦) تحقيق جوتاين
(القسم الثاني من الجزء الرابع القدس ١٩٣٨) تحقيق ماكس شلوسنجر .

الأنساب : عبد الكريم السمعاني (١ ليدن ١٩١٢) مصور عن نسخة خطية .

بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب : محمود شكري الألوسي (٣ القاهرة ١٩٢٣) شرح محمد بهجة الاثري .

البيان والتبيين : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٤ القاهرة ١٩٤٨ــ١٩٥٠) تحقيق عبد السلام هارون .

تاج العروس منجواهر القاموس: محمد مرتضى الزبيدي(١٠القاهرة١٣٠٦هـ).

تاريخ الأدب العربي من الجاهلية حتى العصر الأموي : كارلونلّينو (١ القاهرة ١٩٥٤) كتب باللغـــة العربية .

تاريخ الأمم والملوك : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٨ القاهرة ١٩٣٩) مطبعة الاستقامة .

تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء : حمزة بن الحسن الأصفهاني (١ ليبسيك ١٨٤٤) تحقيق جوتولد .

تاريخ الشعر السياسي : أحمد الشايب (١ القاهرة ١٩٤٥) .

تاريخ العرب قبل الاسلام : جواد علي (٨ بغداد ١٩٥١ وما بعدها) .

تاريخ العرب (مطوّل) : فيليب حتي ، ادورد جرجي ، وجبرائيل جبور (٣ بيروت ١٩٤٩) .

تاريخ اللغات السامية : ولفنسون (١ القاهرة ١٩٢٩) .

تاريخ النقائض في الشعر العربي : أحمد الشايب (١ القاهرة ١٩٥٤) .

التصحيف والتحريف : ابو أحمد الحسن العسكري (٢ القاهرة ١٩٠٨) .

التطور والتجديد فيالشعرالأموي : الدكتور شوقيضيف (٢ القاهرة ١٩٥٩).

التنبيه والاشراف : أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (١ القاهرة ١٩٣٨) تحقيق عبد الله الصاوي .

التيجان في ملوك حمير : وهب بن منبّه (حيدر آباد ١٣٤٧ هـ) في مجلد واحد مع كتاب أخبار عبيد بن شريّة .

تيسير الوصول الى أحاديث الرسول : ابن الديبع الشيباني (٤ القاهرة ١٣٤٦).

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : أبو منصور الثعالبي (١ القاهرة ١٩٠٨).

جمهرة أنساب العرب : أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (١ القاهرة ١٣٠٨ هـ).

جمهرة أنساب العرب : علي بن سعيد بن حزم الأندلسي (١ القاهرة ١٩٤٨) تحقيق ليفي بروفنسال .

الحماسة : أبو عبادة البحتري (١ القاهرة ١٩٢٩) .

الحيوان : الجاحظ (٧ القاهرة ١٩٣٨) تحقيق عبد السلام هارون .

خزانة الأدب : عبد القادر البغدادي (٤ القاهرة ١٢٩٩ هـ) .

خطط الشام : محمد كرد علي (٦ دمشق ١٩٢٥) .

ديوان الأعشى ميمون بن قيس : شرح وتعليق الدكتور محمد حسين (١ القاهرة ١٩٥٠) .

ديوان الأعشى والأعشين : تحقيق رودلف جير R. Geyer (١ بيانة ١٩٢٨) .

ديوان امرىء القيس : تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (١ القاهرة ١٩٥٨).

ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي : تحقيق عزة حسن (١ دمشق ١٩٦٠) .

ديوان حسّان بن ثابت : تحقيق وشرح عبد الرحمن البرقوقي (١ القاهرة ١٩٢٩) .

ديوان الحطيئة : تحقيق نعمان أمين طه (١ القاهرة ١٩٥٨) شرح ابن السكيت والسكري والسجستاني .

ديوان الطرّماح بن حكيم : تحقيق كرنكو F. Krenkow (١ لندن ١٩٢٧) مع ديوان طفيل الغنوي .

ديوان عامر بن الطفيل : تحقيق تشارلز لايل C. Lyall (١ لندن ١٩١٣) مع ديوان عبيد .

ديوان عبيد الله بن قيس الرقيّات : تحقيق رودوكاناكيس Rhodokanakis (١ فين ١٩٠٢) .

ديوان عبيد بن الأبرص : شرح الدكتور حسين نصار (١ القاهرة ١٩٥٠) .

ديوان القطامي : تحقيق ج . بارث J. Barth (١ ليدن ١٩٠٢) .

ديوان قيس بن الخطيم : تحقيق كوالسكي Kowalski (١ ليبسيك ١٩١٤) .

ديوان كثيّر : نشر هنري بيريس H. Pérès (٢ الجزائر ١٩٢٨) .

ديوان لبيد بن ربيعة : تحقيق هوبر A. Huber (١ ليدن ١٨٩١) .

ديوان نابغة بني شيبان : (١ القاهرة ١٩٣٢) .

ديوان النابغة الذبياني : تحقيق عبد الرحمن سلام (١ بيروت ١٩٢٩) .

ديوان الهذليّين : (٣ القاهرة ١٩٤٥) .

سِيَر اعلام النبلاء : شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (٣ القاهرة ١٩٥٧) تحقيق جماعة من الاساتذة .

السيرة النبوية : عبدالملك بن هشام (٤ القاهرة ١٩٥٥) تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ الشلبي .

شرح حماسة أبي تمام : أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي (٤ القاهرة ١٩٣٨) تحقيق محيي الدين عبد الحميد .

شرح ديوان جرير : شرح محمد اسماعيل عبد الله الصاوي (١ القاهرة ١٩٥٣ هـ).

شرح ديوان زهير بن أبي سلمى : شرح أبي العباس ثعلب (١ القاهرة ١٩٤٤).

شرح ديوان الفرزدق : شرح محمد اسماعيل عبد الله الصاوي (٢ في مجلد القاهرة ١٩٣٦) .

شرح ديوان المتنبي : شرح عبد الرحمن البرقوقي (٢ القاهرة ١٩٣٠) .

شرح ديوان المفضليّات : شرح أبي محمد القاسم الانباري على مفضليات أبي العباس المفضّل الضبي (١ بيروت ١٩٢٠) تحقيق لايل .

شرح القصائد العشر : شرح أبي زكريا التبريزي (١ كلكتا ١٨٩٤) تحقيق لايل .

شرح نهج البلاغة : ابن أبي الحديد عز الدين عبد الحميد بن هبة الله (٢٠ في ٤ مجلدات ، القاهرة ١٣٢٩ هـ) .

شرح هاشميات الكميت : محمد محمود الرافعي (١ القاهرة ١٩١٢) .

شعر الأخطل : تحقيق الأب أنطون صالحاني (١ بيروت ١٨٩١) .

الشعر والشعراء : ابن قتيبة الدينوري (٢ القاهرة ١٩٥٠) تحقيق احمد محمد شاكر .

الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي : يوسف خليف (القاهرة ١٩٥٩) .

صحيح البخاري : أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري (٩ في مجلدين القاهرة ١٣١٤) .

صفة جزيرة العرب : الحسن بن أحمد الهمداني (١ القاهرة ١٩٥٣) تحقيق محمد بن عبد الله بليهد النجدي .

ضحى الاسلام : احمد أمين (٣ القاهرة ١٩٥٢) .

طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلاّم الجمحي (١ القاهرة ١٩٥٢) تحقيق محمود محمد شاكر .

طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب : السلطان الأشرف بن رسول (١ دمشق ١٩٤٩) حققه ستتر ستين .

العبر وديوان المبتدأ والخبر ... : ابن خلدون (٦ القاهرة ١٩٣٦) تحقيق علاّل الفاسي وعبد العزيز بن ادريس .

العثمانية : الجاحظ (١ القاهرة ١٩٥٥) تحقيق هارون .

العرب قبل الاسلام : جرجي زيدان (١ القاهرة) راجعه حسين مؤنس .

عشائر الشام : وصفي زكريا (٢ دمشق ١٩٤٥) .

العقد الفريد : أحمد بن عبد ربه (٧ القاهرة ١٩٤٠) طبع لجنة التأليف .

العمدة في محاسن الشعر وآدابه : أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (٢ القاهرة ١٩٣٤) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

العهد القديم : (بيروت ١٩٠٩) .

عيون الاخبار : ابن قتيبة (٤ القاهرة ١٩٢٥) .

فتوح البلدان : احمد بن يحيى البلاذري (٣ القاهرة ١٩٥٦) تحقيق صلاح الدين المنجد .

فجر الاسلام : أحمد أمين (١ القاهرة ١٩٥٠) .

فرحة الأديب : أبو محمد الحسن الاعرابي الغندجاني (١ مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٤٤٢١) .

الفهرست : ابن النديم (١ القاهرة ١٣٤٨ هـ) .

القاموس المحيط : مجد الدين الفيروزبادي (٤ القاهرة ١٩٥٢) طبعة البابي .

القــرآن الكــريم .

القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم : يوسف بن عبد البر (١ القاهرة ١٣٥٠ هـ) في مجلد واحد مع كتاب الانباه .

قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي : عبد الله عبد الجبار ومحمد عبد المنعم خفاجة (١ القاهرة ١٩٥٨) .

الكامل في التاريخ : عز الدين بن الأثير (القاهرة ١٣٤٨ هـ) صححه عبد الوهاب النجار .

الكامل في اللغة والأدب : أبو العباس المبرّد (٢ القاهرة ١٣٠٨ هـ) .

كتاب العرب : ابن قتيبة (١ القاهرة ١٩٤٦) ضمن كتاب رسائل البلغاء لمحمد كرد علي .

مباحث عربية : بشر فارس (١ القاهرة ١٩٣٩) .

مجلة كلية الآداب : المجلد ١٤ ، الجزء الاول مقال للاستاذ عبد الوهاب حمودة (مايو ١٩٥٢) .

مجلة الهلال : سلسلة مقالات لجرجي زيدان (العدد ٢٠ عام ١٨٩٧ والأعداد ٦ ـ ٧ ـ ٨ ـ ٩ ـ من عام ١٩٠٦) .

مجمع الأمثال : أبو الفضل النيسابوري (٢ القاهرة ١٣٥٢ هـ) .

المحاسن والأضداد : الجاحظ (١ القاهرة) .

المحبّر : محمد بن حبيب (١ حيدر آباد ١٩٤٢) تحقيق ايلزه شتيتر .

مختصر كتاب البلدان : ابن الفقيه الهمداني (١ ليدن ١٨٨٥) تحقيق ده خويه .

مختلف القبائل ومؤتلفها : محمد بن حبيب (١ جوتنجن ١٨٥٠) تحقيق وستنفلد .

مروج الذهب ومعادن الجوهر : علي بن الحسين المسعودي (٢ القاهرة ١٢٨٣ هـ) .

المزهر في علوم اللغة : جلال الدين السيوطي (٢ القاهرة ١٩٥٨) تحقيق جاد المولى وأبو الفضل ابراهيم والبجاوي .

المعارف : ابن قتيبة (١ القاهرة ١٩٣٤) تحقيق الصاوي .

معجم البلدان : ياقوت الحموي (٦ ليبسيك ١٨٦٦) .

معجم قبائل العرب : عمر رضا كحالة (٣ دمشق ١٩٤٩) .

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع : عبد الله بن عبد العزيز البكري (٤ القاهرة ١٩٤٥) تحقيق مصطفى السقا .

المعمّرون من العرب : أبو حاتم السجستاني (١ القاهرة ١٩٠٥) .

المفضليّات : المفضـّل الضبيّ (١ القاهرة ١٩٥٢) تحقيق أحمد محمد شاكر وهارون .

مقدمة ابن خلدون : راجعتها لجنة من العلماء (١ القاهرة) .

منتخبات في أخبـار اليمن : نشوان بن سعيد الحميري (١ ليدن ١٩١٦) تحقيق عظيم الدين أحمد .

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار : أحمد بن علي المقريزي (٢ القاهرة ١٢٧٠ هـ) .

الموالي في العصر الأموي : محمد الطيّب النجار (١ القاهرة ١٩٤٩) .

موقع عكاظ : عبد الوهاب عزام وحمد الجاسر ومحمد بن بليهد (١ القاهرة ١٩٥٠) .

النزاع والتخاصم فيما بين أميـة وبني هاشم : أحمـد بن علـي المقريزي (١ ليدن ١٨٨٨) .

نسب عدنان وقحطان : أبو العباس المبرّد (١ القاهرة ١٩٣٦) تحقيق الميمني .

نقائض جـرير والأخطل : شرح أبي تمـام (١ بيروت ١٩٢٢) تحقيق الأب انطون صالحاني .

نقائض جـرير والفرزدق : شرح أبي عبيدة (٣ ليـدن ١٩٠٥) تحقيـق بيفـان A. Bevan .

نقائض جـرير والفرزدق : محمد غناوي الزهيري (ا بغـداد ١٩٥٤) .
نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب : شهاب الدين القلقشندي (ا القاهرة ١٩٥٩) تحقيق الابياري .
نهاية الأرب : شهاب الدين النويري (١٨ القاهرة ١٩٢٣ وما بعدها) .
النوادر في اللغة : أبو زيد الأنصاري(ابيروت ١٨٩٤) تحقيق سعيد الشرتوني .
وفيات الأعيان : ابن خلكان (ا باريس ١٨٣٨) تحقيق دوسلان .
وقعة صفين : نصر بن مزاحم المنقري (ا القاهرة ١٣٦٥ هـ) تحقيق هارون .

***

ب ـ المصادر الأجنبية

ولكن (Wilken) : الأمومة عند العرب ـ ترجمة بندلي صليبا الجوزي (١٠ كازان ١٩٠٢)

بلاشير (Blachère) : تاريخ الأدب العربي ـ ترجمة ابراهيم الكيلاني (الاول دمشق ١٩٥٦)

بروكلمان (Brockelmann) : تاريخ الشعوب الاسلامية ـ ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي (٥ بيروت ١٩٤٨)

شارل بلا (Pellat) : الجاحظ ـ ترجمة ابراهيم الكيلاني (١ دمشق ١٩٦١)

ماسينيون (Massignon) : خطط الكوفة ـ ترجمة تقي بن محمد المصعبي (١ صيدا ١٩٤٦)

ولهوزن (Wellhausen) : الدولة العربية وسقوطها ـ ترجمة يوسف العش (١ دمشق ١٩٥٦)

زامبارو : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ـ أخرجه زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود (٢القاهرة١٩٥١)

L. Della Vida : Pre-Islamic Arabia, in the Arab Heritage, Princeton. 1944.

C. de Perceval : Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme. 3. Paris 1847.

Des Vergers : Arabie. 1. Paris 1847.

H. Lammens : L,Arabie Occidentale avant l'Hégire 1. Beyrouth 1928.

Lammens : Le Berceau de l'Islam. 1. Rome 1914.

Lammens : Etudes sur le règne du Calife Omaiyade Mo'âwia ler. Beyrouth 1908.

Lammens : Etudes sur le siècle des Omayyades. 1. Beyrouth 1930.

R. Nicholson : A literary history of the Arabs. 1. London 1923.

Robertson Smith: Kinship and marriage in early Arabia. 1. London 1903.

F. Wüstenfeld : Genealogische Tabellen der Arabischen Stamme und Familien, Gcttingen 1852.

Encyclopédie de l,Islam, par un nomber d'orientalistes. 4. Leyde 1913.

La Grande Encyclopédie, Paris.

* * *

بلاد العرب

ومواطن القبائل العربية

قبيل الإسلام

....

إحسان النص

خراسان

بلاد فارس

خليج فارس

خليج عمان

عمان

بحر الروم

غسان

بادية السماوة

بنو كلب

إياد

بكر بن وائل

بنو أسد

طيء

الصمان

بنو تميم

البحرين

عبد القيس

الدهناء

العروض

اليمامة

بنو حنيفة

بلاد نجد

بلاد اليمن

الأحقاف

مهرة

حضرموت

كندة

بحر اليمن

يثرب

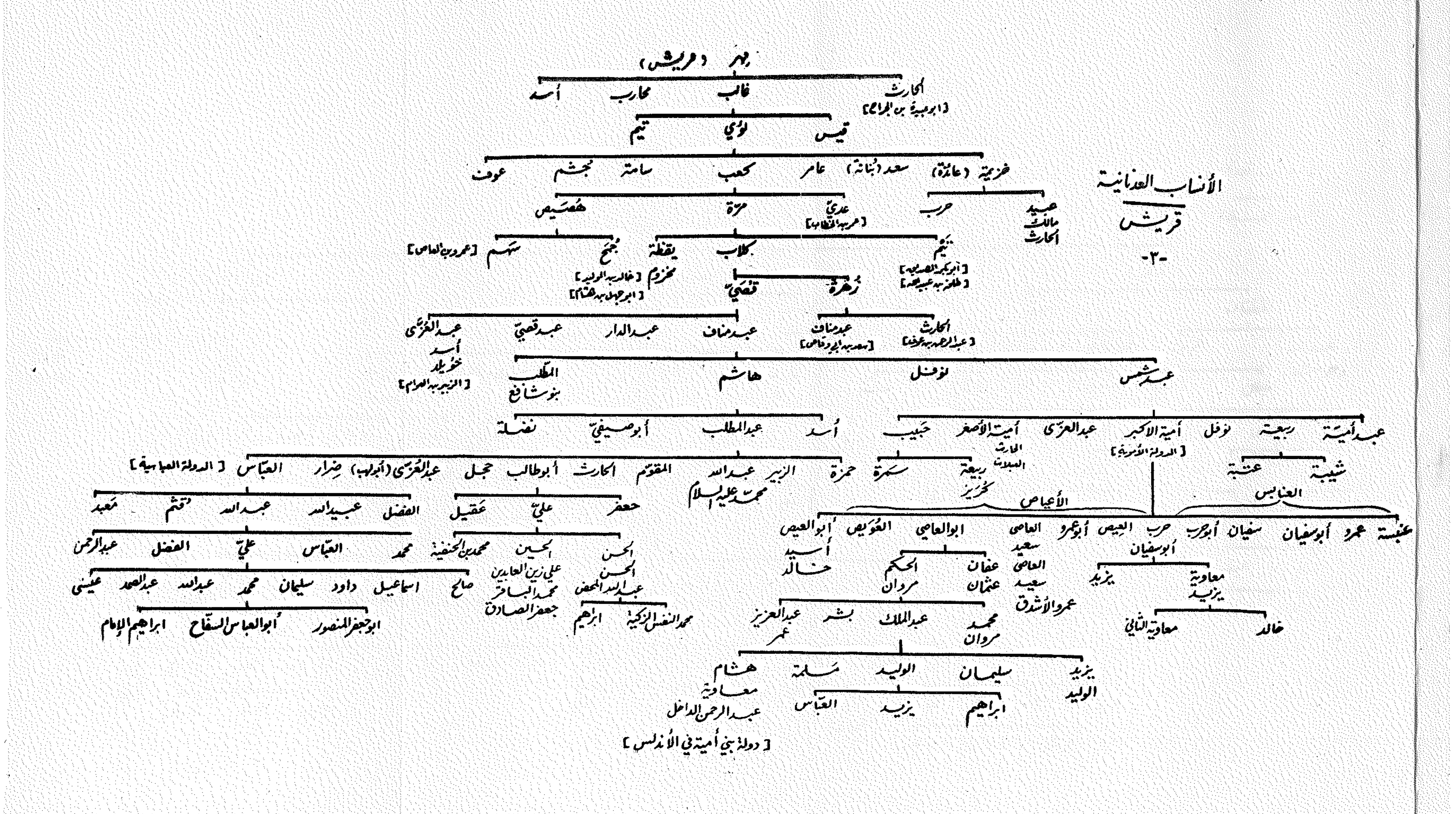
الطائف

مكة

- عدنان
  - معدّ
    - قُنُص
    - نزار
      - ربيعة [٥]
      - مُضر
        - الناس (قيس عيلان) [٤]
        - (خِندف) اليأس
          - قمعة (خزاعة) في قول بعض النسابين
          - مُدركة
            - هُذيل
              - لحيان
              - سعد
                - دابغة
                - خُناعة
                - حُريث
                - رُهم
                - تميم، الحارث، كاهل
                  - صُبح
                  - صاهلة
                  - كعب
            - خزيمة
              - الهون (القارة)، عضل
              - أسد
                - كاهل، مازن
                - دُودان
                  - ثعلبة
                    - سعد
                    - الحارث، قُعين، عمرو، طريف، قفعس
                    - مالك، غاضرة
                  - غَنْم
                - صعب
                - عمرو
              - أسدة
              - كنانة
                - مالك
                  - الحارث، ثعلبة، عامر، محلّج
                  - ثعلبة، غَنْم، فِراس
                - مُلكان
                - عبد مناة
                  - عامر
                  - بكر
                    - ضمرة
                      - جندب
                      - كعب
                      - جُدي
                      - مُليل
                        - غفار
                        - ثعلبة
                    - الديل
                    - ليث
                      - جُذع
                      - سعد
                      - عامر
                  - مرة، مدلج
                  - الحارث، الأحابيش
                - النضر
                  - يخلد
                  - مالك، فِهر (قريش) [٣]
        - طابخة [٢]
      - أنمار
      - إياد
        - زُهر
        - دُعمي
        - نمارة
    - أبناء آخرون لمعدّ
  - عكّ
    - الشاهد
      - غافق
      - ساعدة
    - صُحار
      - عنس
      - قرن
      - بولان

نزار
مُضر
الياس
طابخة
أُدّ

- ضبّة
  - سعد
    - بكر
      - مالك
        - عائذة
        - بجالة
        - أُسيد
      - عبد الله
    - ثعلبة
    - صريم
- مزينة
  - عثمان
  - أوس
- مُرّ
  - الغوث
  - تميم
    - عمرو
      - العنبر
      - مالك
        - مازن
        - غيلان
        - غسان
        - الحرماز
      - أُسيّد
      - كعب
      - الحارث
      - الهجيم
      - الحبطات
    - الحارث شقرة
    - زيد مناة
      - مالك
        - حنظلة
          - البراجم [عمرو - الظليم - غالب - كلفة - قيس]
          - يربوع
            - كليب
            - غدانة
            - عمرو
            - ثعلبة
            - الحارث
            - العنبر
            - رياح
          - مالك
            - مالك
            - بنو طهية { أبو سود، عوف }
            - بنو العدوية { زيد، الصدي، يربوع }
            - دارم
              - أبو سود
              - جرير، فقيم
              - سدوس
              - مجاشع
              - نهشل
              - عبد الله
                - زيد
                  - عُدُس
                    - زرارة
              - أبان
            - الخطاب { جشيش، رزام، كعب، ربيعة }
          - ربيعة
        - ربيعة
        - معاوية
        - قيس
      - امرؤ القيس
      - عامر
      - سعد
        - عمرو
          - مقاعس
            - صريم
            - عُبيد
              - عبد عمرو
              - مِنقر
                - فُقيم
                - خالد
              - مُرّة
            - عُمير
        - كعب
          - الحارث الأعرج
          - ربيعة
          - عوف
            - بهدلة
            - جُشم
            - قُريع، أنف الناقة
            - عُطارد
          - عبد العزى، حِمّان
        - الأبناء (عوافة - جشم - الحارث - مالك - عبشمس)
  - محارب
- حميس
- عبد مناة
  - تيم
  - عديّ
  - عُكل
  - ثور
  - (الرِباب)



الأنساب العدنانية
قريش
-٣-
فهر (قريش)
الحارث [أبوعبيدة بن الجراح]
غالب
محارب
أسد
قيس
لؤي
تيم
خزيمة (عائذة)
سعد (بنانة)
عامر
كعب
سامة
جشم
عوف
عبيد
مالك
الحارث
حرب
عدي [عمر بن الخطاب]
مرة
هصيص
تيم [أبوبكر الصديق] [طلحة بن عبيد الله]
زهرة
كلاب
يقظة
مخزوم [خالد بن الوليد] [أبوجهل بن هشام]
جمح
سهم [عمرو بن العاص]
قصي
الحارث [عبد الرحمن بن عوف]
عبد مناف [سعد بن أبي وقاص]
عبد مناف
عبد الدار
عبد قصي
عبد العزى
أسد
خويلد
[الزبير بن العوام]
عبد شمس
نوفل
هاشم
المطلب
بنو شافع
عبد أمية
ربيعة
نوفل
أمية الأكبر [الدولة الأموية]
عبد العزى
أمية الأصغر
الحارث
العبلات
حبيب
أسد
عبد المطلب
أبو صيفي
نضلة
شيبة
عتبة
ربيعة
كريز
سمرة
حمزة
الزبير
عبد الله
محمد عليه السلام
المقوم
الحارث
أبوطالب
حجل
عبد العزى (أبولهب)
ضرار
العباس [الدولة العباسية]
العنابس
الأعياص
عنبسة
عمرو
أبوسفيان
سفيان
أبوحرب
حرب
العيص
أبوعمرو
العاص
سعيد
العاصي
سعيد
عمرو الأشدق
أبوالعاص
العويص
أبوالعيص
أسيد
خالد
أبوسفيان
معاوية
يزيد
يزيد
خالد
معاوية الثاني
عفان
عثمان
الحكم
مروان
محمد
مروان
عبد الملك
بشر
عبد العزيز
عمر
يزيد
الوليد
سليمان
الوليد
مسلمة
هشام
معاوية
عبد الرحمن الداخل
ابراهيم
يزيد
العباس
[دولة بني أمية في الأندلس]
جعفر
علي
عقيل
الحسن
الحسين
محمد بن الحنفية
الحسن
عبد الله المحض
علي زين العابدين
محمد الباقر
جعفر الصادق
محمد النفس الزكية
ابراهيم
الفضل
عبيد الله
عبد الله
قثم
معبد
محمد
العباس
علي
الفضل
عبد الرحمن
صالح
اسماعيل
داود
سليمان
محمد
عبد الله
عبد الصمد
عيسى
أبوجعفر المنصور
أبوالعباس السفاح
ابراهيم الإمام

الأنساب العدنانية

قيس عيلان

٤

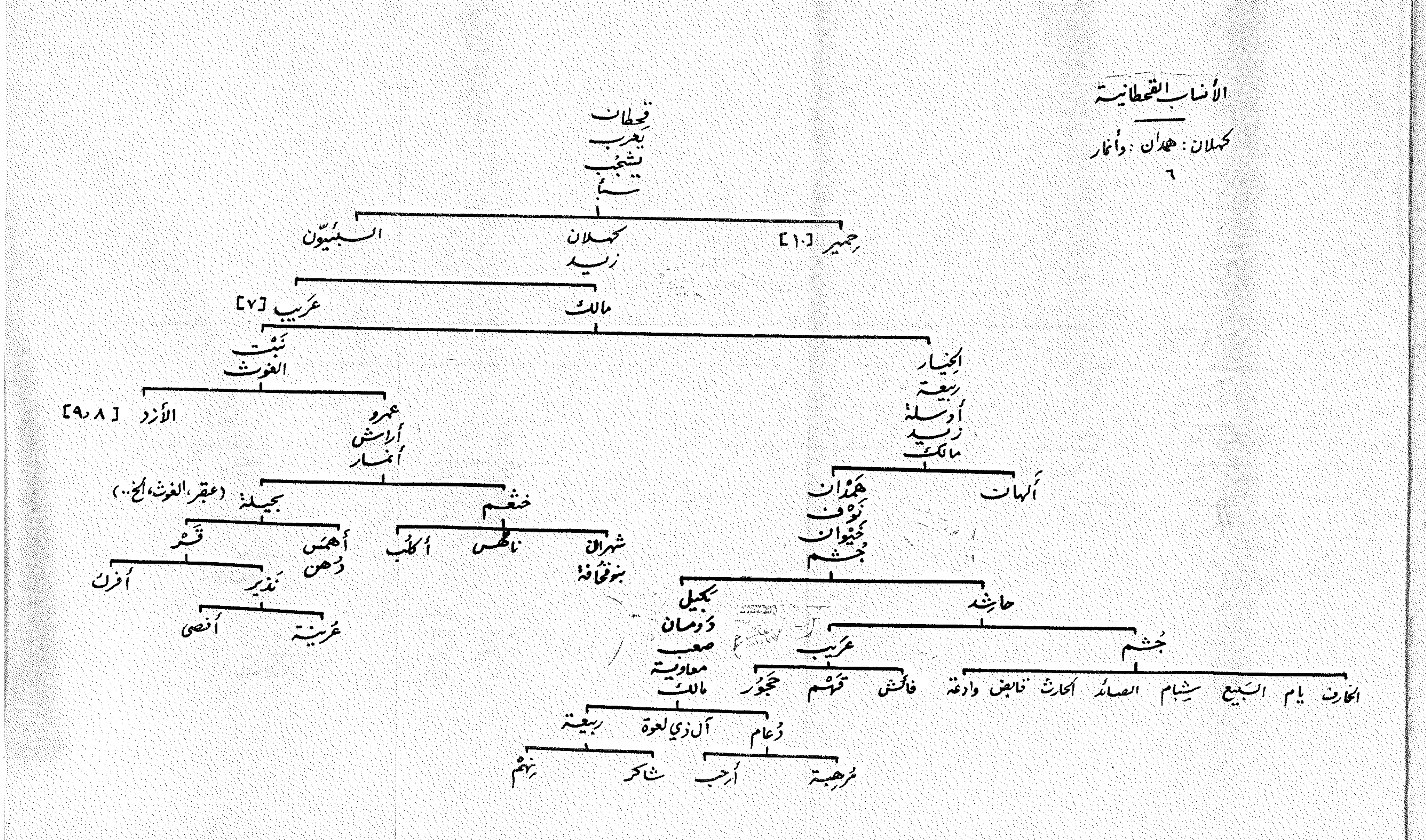
- قيس عيلان
  - سعد
    - غطفان
      - عبدالله
        - جوشن
      - الريث
        - بغيض
          - أنمار
          - عبس
            - قطيعة
              - عوذ
              - غالب
            - ورقة
          - ذبيان
            - سعد
              - عوف
                - مرة
                  - سهم
                  - غيظ
                    - يربوع
                    - نشبة
                  - صرمة
              - ثعلبة
                - مازن
            - فزارة
              - عدي
              - مازن
              - مرة
              - شمخ
                - لأي
        - أشجع
    - أعصر
      - الطفاوة
      - باهلة
        - سعدمناة
        - معن
          - قتيبة
          - وائل
          - جناوة
          - أود
      - غني
        - بهثة
        - غنم
  - خصفة
    - محارب
      - خلف
        - الحضر
    - عكرمة
      - منصور
        - مازن
        - هوازن
          - بكر
            - يزيد
            - منبه
              - ثقيف (قسي)
                - جشم
                - عوف
            - سعد
            - معاوية
              - نصر
              - صعصعة
                - غالب
                  - غاضرة
                - وائلة
                - عامر
                  - هلال
                    - نهيك
                    - عبدمناف
                    - ربيعة
                  - سواءة
                  - ربيعة
                    - كعب
                      - عقيل
                        - عوف
                        - ربيعة
                        - عامر
                          - خويلد
                          - المنتفق
                          - ربيعة
                        - عبادة
                        - عمرو
                          - خفاجة
                      - جعدة
                      - الحريش
                        - شكل
                      - قشير
                      - عبدالله
                        - نهم
                        - العجلان
                    - عامر
                      - عوف
                      - ربيعة
                      - معاوية
                      - عمرو
                    - كلاب
                      - بكر
                      - الضباب
                      - جعفر
                        - مالك
                        - خالد
                        - الأحوص
                      - رؤاس
                      - عمرو
                        - نفيل
                  - نمير
                    - الحارث
                      - جعونة
                      - عبدالله
                      - خويلد
                - عادية
                - مرة
                  - سلول
              - عوف
              - جشم
                - غزية
        - سلامان
        - سليم
          - بهثة
            - الحارث
            - رفاعة
            - ثعلبة
              - ذكوان
            - امرؤ القيس
              - بهز
  - عمرو (جديلة)
    - فهم
    - عدوان
      - زيد
        - وابش
      - يشكر
        - ناج
      - قيس
        - دوس

الأنساب العدنانية

ربيعة

٥

- ربيعة
  - أسد
    - عنزة
      - يذكر
        - أسلم
          - عتيك
            - جلان
            - صباح
              - هزّان
                - الحارث
                - ضور
              - الدول
                - الحارث
      - يقدم
        - تميم
          - ربيعة
            - عبد العزى
              - هميم
    - عميرة
    - جديلة
      - دعمي
        - أفصى
          - عبد القيس
            - أفصى
              - لكيز
                - وديعة
                  - عمرو
                    - أنمار
                    - الديل
                    - محارب
                      - خطمة
                        - عوف
                          - بكر
                          - عوف
                          - ثعلبة
                          - جذيمة
                          - ثعلبة
                          - معاوية
                        - الحارث
                          - ثعلبة
                          - عامر
                        - ذهل
                        - زاهل
                    - عجل
                  - دهن
                  - غنم
                    - عوف
                    - عمرو
                      - الديل
                      - مازن
                - صباح
                - نكرة
              - شن
            - اللبوء
          - هنب
            - قاسط
              - وائل
                - تغلب
                  - غنم
                    - عمرو
                      - معاوية
                      - جُبيب
                        - جُبيب
                          - بكر
                            - جشم
                            - مالك
                            - الحارث
                            - عمرو
                            - ثعلبة
                            - معاوية
                          - جشم
                            - الأراقم
                            - عوف
                          - مالك
                        - معاوية
                        - زيد
                      - زيد
                    - وائل
                  - الأوس
                  - عمران
                - عنز
                - بكر
                  - علي
                    - صعب
                      - عكابة
                        - ثعلبة
                          - ذهل
                            - شيبان
                              - عمرو
                              - سدوس
                              - مازن
                              - علي
                              - مرناشي
                            - عامر
                          - قيس
                          - تيم الله
                          - شيبان
                            - ذهل
                              - ضبيعة
                                - مالك
                                - ربيعة
                                  - المسامعة
                                - سعد
                                - عباد
                              - سعد
                              - تيم
                            - تيم
                            - ثعلبة
                            - عوف
                      - مالك
                        - زمان
                      - لجيم
                        - عجل
                        - حنيفة
                          - عدي
                          - عامر
                          - الدول
                            - مرة
                            - عبد الله
                            - ذهل
                            - ثعلبة
                  - يشكر
                    - كنانة
                    - كعب
                      - حبيب
                        - جشم
                        - غنم
                        - غبر
                    - حرب
              - معاوية
              - عامر
              - النمر
                - تيم الله
                - أوس مناة
                - عبد مناة
                - قاسط
  - ضبيعة
    - أحمس
      - نذير
      - جلي
        - جماعة
        - ماوية
      - بل
    - الحارث
      - بُنانة

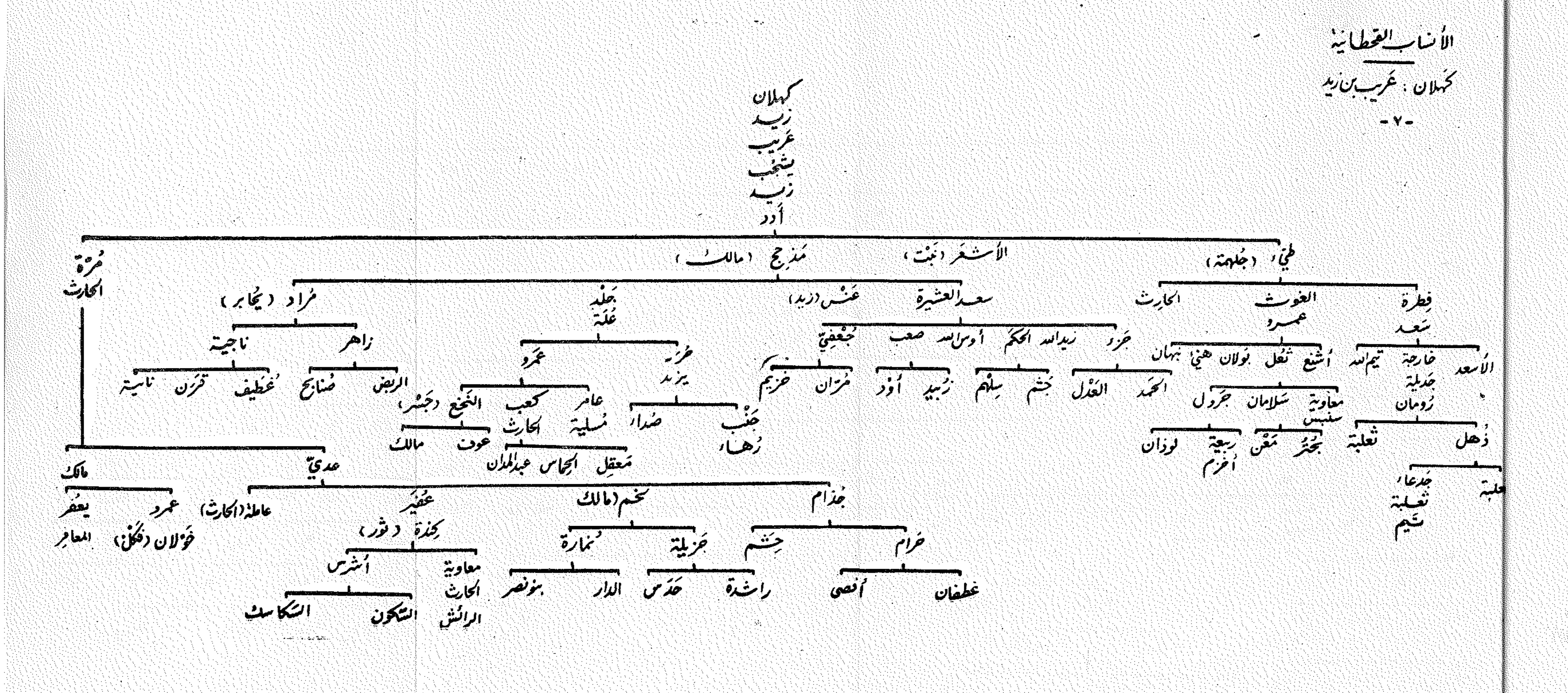


الأنساب القحطانية
كهلان : همدان : وأنمار
٦
قحطان
يعرب
يشجب
سبأ
حمير [١٠]
كهلان
زيد
السبئيون
مالك
عريب [٧]
الخيار
ربيعة
أوسلة
زيد
مالك
ألهان
همدان
نوف
خيوان
جشم
حاشد
بكيل
دومان
صعب
معاوية
مالك
جشم
عريب
الحارف
يام
السبيع
شبام
الصائد
الحارث
قابض
وادعة
فائش
قهم
حجور
دعام
آل ذي لعوة
ربيعة
مرهبة
أرحب
شاكر
نهم
نبت
الغوث
عمرو
أراش
أنمار
الأزد [٨ و٩]
خثعم
بجيلة (عقر، الغوث، الخ..)
شهران
بنو قحافة
ناهس
أكلب
أحمس
دهن
قسر
نذير
أفرك
عرينة
أفصى

الأنساب القحطانية

كهلان : عريب بن زيد

-٧-

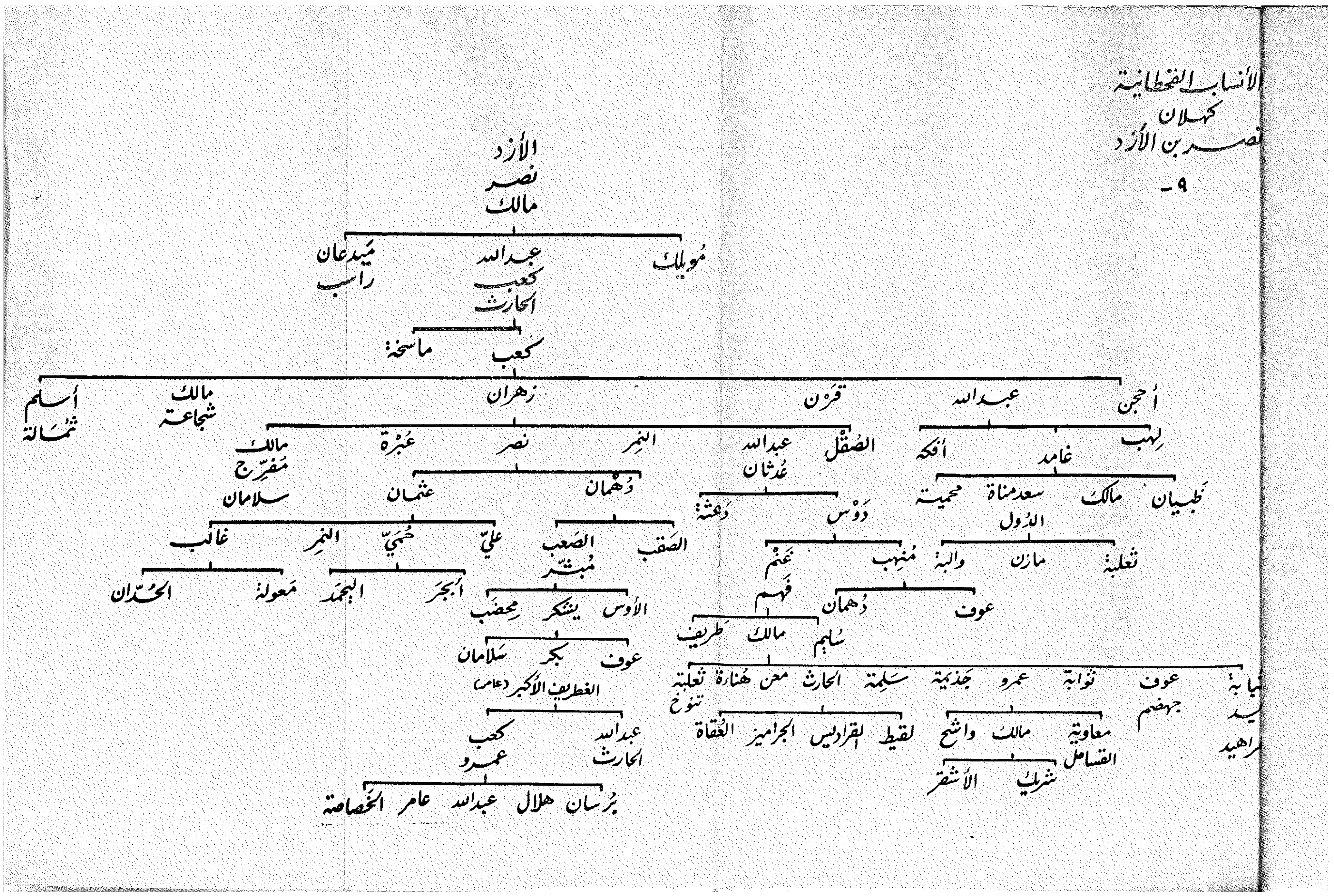


الأزد

- نصر
  - أُمع
  - جدجنة
- عمرو
  - عرمان
  - ماوية
- وقدان
- مازن
  - عمرو
    - حارثة – شقران
    - العاصي – صوفة
    - عدي – حقال
  - عدي
  - ثعلبة
    - عامر
    - امرؤ القيس – حارثة الغطريف
      - عدي
      - عامر ماء السماء – عمرو مزيقياء
      - التوءم
    - كرز
  - كعب
- الأهبوب
- الهنو – حلس
- عبد الله
  - قرن
  - عذنان – علي (في قول بعض النسابين)

عمرو مزيقياء

- عمران
  - الأزد
    - العتيك
    - شهميل
  - الحجر
    - زهران
    - زيد مناة – هداد
    - سود – طاحية
    - مرحوم
    - عمرو
- عوف
- غسان: مالك، الحارث، جفنة، كعب
- ثعلبة العنقاء – حارثة
  - الأوس – مالك
    - عوف – عمرو
      - لوذان
      - وائل
      - عوف
      - حبيب
        - حنش
        - مالك – زيد
        - كلفة – جحجبى
          - ضبيعة
          - عبيد
          - أمية
    - جشم – خطمة
    - امرؤ القيس
      - واقف
      - السلم
    - مرة (الجعادرة)
    - عمرو (النبيت)
      - الخزرج
        - الحارث
          - جشم
            - عبد الأشهل
            - زعوراء
          - حارثة
            - جشم
            - مجدعة
        - كعب
      - عامر
  - الخزرج
    - كعب – ساعدة
    - الحارث
      - زيد
      - الخزرج
      - جشم
      - عوف
    - عوف
    - جشم
      - غضب – مالك
        - كعب
        - عبد حارثة
          - زريق
          - حبيب
        - عمرو
      - تزيد – ساردة
    - عمرو – ثعلبة – تيم الله (النجار)
      - عدي
      - مازن
      - دينار
      - مالك
- أبو حارثة
- حارثة
  - أفصى
    - مالك
    - أسلم
      - سلامان
      - هوازن
    - ملكان
  - ربيعة (لحي) – عمرو (خزاعة)
  - عدي
    - عمرو
    - عمران
    - سعد (بارق)
      - عوف
        - المصطلق
        - الحيا
      - سعد
      - مليح
      - عدي
      - كعب
        - سلول
          - جشية
            - قمير
            - ضاطر
            - حليل
            - كليب
          - الحرمز
          - عدي
            - حبتر
            - هنينة
        - سعد
        - جشية
          - حرام
          - غاضرة
        - مازن
- ذهل


الأزد
نصر
مالك
مويلك
عبدالله
كعب
الحارث
ميدعان
راسب
كعب
ماسخة
أحجن
عبدالله
قرن
زهران
مالك
شجاعة
أسلم
ثمالة
لهب
غامد
أفكه
الصقل
عبدالله
عدثان
النمر
نصر
عبرة
مالك
مفرج
سلامان
ظبيان
مالك
سعدمناة
محمية
الدول
دوس
دعثة
دهمان
عثمان
ثعلبة
مازن
والبة
منهب
غنم
فهم
الصقب
الصعب
مبتر
علي
حمي
النمر
غالب
أبجر
اليحمد
معولة
الحدان
عوف
دهمان
سليم
مالك
طريف
الأوس
يشكر
محضب
عوف
بكر
سلامان
الغطريف الأكبر (عامر)
عبدالله
الحارث
كعب
عمرو
برسان
هلال
عبدالله
عامر
الخصاصة
عوف
جهضم
ثوابة
عمرو
جذيمة
سلمة
الحارث
معن
هنارة
ثعلبة
تنوخ
معاوية
القساامل
مالك
واشح
شريك
الأشقر
لقيط
القراديس
الجراميز
العقاة

حِميَر بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان

- الهميسع
  - أيمن
    - الغوث
      - زهير
        - أبين
        - عريب
          - قطن
            - الغوث
              - وائل
                - الأملوك
                - عبد شمس
                  - جشم
                    - معاوية
                      - قيس
                        - شرعب
                        - عمرو
                          - خيران
                          - سهل
                            - وصاب
                            - زيد الجمهور
                              - ذو رُعين (يريم)
                              - أسلم
                                - جرش
                                - ذو يزن
                              - مالك
                                - عديّ
                                  - حضور
                                  - عوف
                                    - سعد
                                      - أحاظة
                                      - ذو الكلاع
                                      - ميتم
                                      - الغوث
                                        - زيد
                                          - أسلم
                                          - مالك
                                            - ذو أصبح
                                            - يحصب
                                        - سيبان
                                      - حراز
                                      - عمرو
                                        - سوادة
                                          - الخبائر
                                          - السكول
                                      - هوزن
                              - الحارث
                                - عاس
                                - زوجدن
                                - شبيع
                                  - مقرى
                              - كعب
                                - سبأ الأصغر
                                  - صيفي
                                    - التبابعة
                                  - زرعة (حمير الأصغر)
                                    - سداد
                                      - يعفر
                                      - ألهان
                                        - الأظلوم
                                          - حوشب
                                      - زيد
                                        - مرشد
                                          - الأوزاع
                            - حيلان
                          - شعبان
                          - حضرموت (1)
- مرّة
  - ربيعة
  - مرجب
- مالك
  - زيد
    - مُرّة
      - عمرو
        - مالك
          - قضاعة
            - الحافي
              - أسلم
                - سود
                  - حوتكة
                  - ليث
                    - زيد
                      - سعد هذيم
                        - الحارث
                        - عذرة
                          - عامر
                          - كبير
                            - جزر
                            - عبد
                              - ضنّة
                                - حنّ
                            - رزاح
                        - ضِنّة
                        - سلامان
                      - نهد
                      - جهينة
                        - مودوعة
                          - حميس (الحرقة)
                        - قيس
                          - غطفان
                          - غيّان
              - عمران
                - حلوان
                  - سليح
                    - حماطة (الضجاعمة)
                  - تزيد
                  - تغلب
                    - وبرة
                      - الثعلب
                      - البرك
                      - أسد
                        - تيم اللات
                          - فهم (تنوخ)
                        - شيع اللات
                          - جسر
                            - القين
                      - كلب
                        - كلب
                        - ثور
                          - رفيدة
                          - عرينة
                          - صحب
                            - كنانة
                              - هبل
                                - جناب
                                  - زهير
                                  - عديّ
                                  - عليم
                            - عامر
                      - النمر
                        - التيم
                        - خشين
                  - ربّان
                    - عوف
                    - جرم
                      - قدامة
                      - ملكان
                      - جدّة
                      - ناجية
              - عمرو
                - بلي
                  - فرّان
                  - هنيّ
                - بهراء
                  - أهود
                  - قاسط
                  - القين
                    - هنب
                    - قاس (فالش)
                    - شبيب
                - حيدان
                  - مهرة
                  - عريد
                  - عرب
- أبناء آخرون لحمير

(١) في نسب حضرموت خلاف، بعضهم يجعلها من العرب العاربة وقد دخلت بقاياها في كندة ويجعلها آخرون في حمير. ويذهب بعضهم إلى أن حضرموت هو ابن يقطان، أخي قحطان

فهرس البحث

صفحة

مقدمة البحث : دواعي اختيار الموضوع ـ خطة البحث ـ مصادره . ٥

الباب الاول

جـذور العصبية القبلية ومقوماتها

الفصل لأول : الأنساب العربية : ١٣

نظرية العرب في الأنساب ونقدها ـ لمحة في الأنساب العدنانية والقحطانية والقبائل المختلف في نسبها ـ جـداول الانساب العـربية .

الفصل الثاني : المجتمع القبلي والعصبية القبلية : ٥٣

النظام القبلي ـ البناء القبلي ـ السيادة في المجتمع القبلي ـ الصلات الحـربية والسلمية في المجتمع القبـلي ـ العصبية القبلية : تعريفها ، دواعي ظهورها ، مقوّماتها ومظاهرها .

الفصل الثالث : المجتمع الجاهلي واحتدام العصبيات فيه : ١٢٨

مواطن القبائل العربية في العصر الجاهلي ـ احتدام العصبية فيه ، أبرز مظاهر العصبية في ذلك العصر ـ أثر العصبية في الشعر الجاهلي وفي شعراء الجاهلية .

صفحة

الفصل الرابع : العصبية القبلية في ظل الاسلام : ١٧١

الاسلام والعصبية القبلية ــ موقف الرسول من القبائل وأشرافها ــ موقف خلفاء الرسول من العصبية ــ استمرار الروح القبلية في صدر الاسلام ــ الشعراء الاسلاميون والعصبية القبلية .

الباب الثاني

العصبية القبلية في عصر بني امية

الفصل الأول : الأحوال القبلية في هذا العصر : ٢١١

مواطن التجمع القبلي في هذا العصر ــ موقف الدولة الاموية من القبائل ورؤسائها ومن النزعة القبلية .

الفصل الثاني : دواعي اشتداد العصبية في هذا العصر : ٢٥١

١ ــ الدواعي الاجتماعية : تجاور القبائل في الأمصار ــ المصاهرات.

٢ ــ الدواعي السياسية : سياسة التحيز التي اتبعها بعض الخلفاء والولاة ــ سياسة اغراء القبائل بعضها ببعض ــ عصبية الولاة لقبائلهم ــ التنازع على السلطان السياسي .

٣ ــ الدواعي الاقتصادية : تنازع القبائل على المغانم والمراعي والمياه.

٤ ــ سائر دواعي اشتداد العصبيات .

الفصل الثالث : مظاهر العصبية القبلية وآثارها في هذا العصر : ٢٦٩

١ ــ اتساع حدود العصبية في هذا العصر ــ ظهور التكتلات القبلية الضخمة وموقفها من الاحداث في هذا العصر .

صفحة

٢ ـ مظاهر العصبية وآثارها في هـذا العصر : التمسك بالأنساب والاعتزاز بها ـ التماسك القبلي ـ الأحقاد القبلية ـ استمرار النزعات الجاهلية ـ الأحلاف القبلية .

الصراع الحربي : الحروب القبلية في الشام والجزيرة في مطلع هذا العصر ـ وقائع قيس وتغلب ـ الفتن القبلية في العراق ـ الفتن القبلية في خراسان ـ الفتن القبلية في أواخـر العصر الأمـوي .

الصراع في ميدان القول : المفاخرات ـ الافتعال في الأنساب والأخبـار .

٣ ـ اشتباك العصبية بالمؤثرات الاخرى .

الباب الثالث

أثر العصبية القبليـة في الشعر الأمـوي

الفصل الأول : الشعراء والعصبيات القبلية : ٣٦٧

خضوع الشعراء لنزعة العصبية في شتى مواطنهم ـ استظهار القبيلـة بشعرائها والشاعر بقبيلته ـ الشعراء والعصبيات الكبرى ـ شعراء الفرق الدينية والعصبيات ـ شعراء المديح والعصبيات ـ شعراء السياسة والعصبيات .

الفصل الثاني : المناقضات القبليـة : ٤١٧

فن النقائض : أصوله وأغراضه ـ المناقضات في نطاق العصبيات الكبرى : مناقضات نزار واليمن ـ مناقضات مضر وربيعة ـ مناقضات جرير والأخطل ـ المناقضات في نطاق العصبيات الصغرى ـ مناقضات جرير والفرزدق .

صفحة

الفصل الثالث : أساليب الهجاء القبلي وخصائصه الفنية : ٤٩٥

احتدام الهجاء القبلي في هـذا العصر ـ أساليبه ـ خصائصه الفنيـة .

الفصل الرابع : الفخـر القبـلي : ٥٣٩

الطابع القبلي في الفخر ـ موضوعاته ـ المفاخرات القبلية في اطار العصبيات الكبرى ـ المفاخرات القبلية في اطـار العصبيات الصغرى ـ خصائص فنيّة .

الفصل الخامس : سائر فنون الشعر المتصلة بالعصبيات : ٥٧٩

الرثاء القبلي : صوره ومعانيه وخصائصه الفنيـة ـ المديح المتصل بالعصبيات .

الدفاع عن حقوق القبيلة ورعاية مصالحها .

تصوير الروابط القبلية .

وصف الوقائع القبلية وما يتصل به .

مصادر البحث ٦٣٥

* * *

السعر ٣٥ ل.ل